مختار السويفي

أم الحضارات

ملامح عامة
لأول حضارة صنعها الإنسان

تقديم:
الدكتور جاب الله على جاب الله

الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾.

صدق الله العظيم

إهـــــداء ...

إلى حبيبة الروح ...

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتي هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

تـــقـديـــم

بقلم : ا . د جاب الله على جاب الله

الأمين العام للمجلس الأعلى للآثار

أنعم الله سبحانه وتعالى على مصر بنعم لا سبيل إلى حصرها ، ولا يخفى على أحد إن إحدى هذه النعم هى شعبها ، فأينما وليت وجهك لن تجد شعبا امتدت جذور حضارته فى أغوار التاريخ مثلما امتدت جذور حضارة الشعب المصرى ، زد على ذلك أنها حضارة لا تتسم بمجرد الأصالة والعراقة فحسب ، وإنما تتميز كذلك بامتدادها الزمنى وتواصلها الفكرى منذ الماضى البعيد حتى الوقت الراهن .

ولا يسعنا فى مثل هذه العجالة أن نقدم للقارىء الكريم العوامل التى جعلت مصر تتميز عما دونها من بلاد العالم بمثل هذا التراث الحضارى العظيم ، وربما يكفى أن نشير إلى موقعها الفريد بين قارات العالم القديم التى أبدعت أولى حضارات الإنسان ، فهى بلد إفريقى يطل على البحر المتوسط (ومن ثم أوربا) ولها باب مفتوح على آسيا ممثلا فى شبه جزيرة سيناء ، والقارىء الكريم يدرك بلا ريب أن هذا الجزء من العالم هو الذى شهد بزوغ الحضارات وتطورها على مدار الحقب التاريخية المتعاقبة ، وكان لمصر قصب السبق فيه وأعطت له من إبداعات شعبها وعصارة عقلها الكثير والكثير .

ويكفى أن نشير كذلك إلى ما حباها الله به من نيل كريم يفيض بالخير كل عام ليمدها بماء الحياة (وجعلنا من الماء كل شىء حى) يسقى إنسانها ويروى زرعها وحيوانها ويخصب أرضها ، وعلى صفحته تنتقل سفنها لتربط أرجاءها برباط وثيق من الألفة وتجمع أواصر شعبها على ثقافة واحدة حتى صاروا جميعا على قلب رجل واحد .

ويكفى أن نشير أيضا إلى مناخها المعتدل ، فلا هو شديد البرودة ولا هو شديد الحرارة ، وإنما هو بين هذا وذاك مما شجع الإنسان على العمل والإبداع دون معاناة من

الطبيعة ، بل وأثر على مزاجه وتفكيره فكان ، ولا يزال ، معتدلا سمحا ينأى عن التطرف ويبغض التعصب .

وفوق هذا وذاك ، وهب الله مصر شعبا صبورا ، دءوبا ، لديه طاقة هائلة على العمل وقدرة غير محدودة على الابتكار وإمكانات كبيرة للخلق والإبداع ، وحتى فى أشد الظروف وأصعب الحالات كان صبره ودأبه وإيمانه العميق بخالقه وبقدراته الذاتية خير معين له على تخطى المحن والخروج من الشدائد لمعاودة تأدية دوره فى الإبداع الحضارى .

أبدع الشعب المصرى حضارة عريقة سبقت حضارات شعوب العالم القديم فى ابتكاراتها وبزتها فى عمائرها وفنونها ، وأذهلت العلماء المعاصرين بفكرها وعلمها ، وهى حضارة يحلو للبعض أحيانا أن يسميها « الحضارة الفرعونية » ولو من باب التمجيد ، ولكنا نرى فى ذلك تجنيا على الواقع وافتئاتا على الحقيقة ، فالفراعنة (أى الملوك) لم يكونوا إلا من أبناء الشعب وخيطا فى نسيجه المتكامل ، خرجوا من طين الأرض ، ولم يهبطوا عليه من السماء ، وهم وإن كانوا قد قاموا بتوجيه الأمور سياسيا واقتصاديا وعمرانيا ، فإنهم لم يحققوا كل ذلك بعصا سحرية ، وإنما بأيدى كل أبناء الوطن ، وبذلك تكون الحضارة المصرية هى إبداع الشعب المصرى بكل فئاته وطوائفه ، بحكامه ومحكوميه ، بفلاحيه وعماله وموظفيه ومفكريه وفنانيه ، أى أنها باختصار حضارة شعب وليست حضارة حاكم .

وقد ألهبت الحضارة المصرية ، ولا تزال ، خيال الناس شرقا وغربا فأقبلوا عليها إما علماء وباحثين ، وإما زائرين عاشقين . أما العلماء فقد راحوا ينقبون عنها فى مظانها ويدرسون وينشرون ثم ينقلون ما تعلموه عنها وما علموه منها إلى أبناء بلدانهم ليصير جزءاً من ثقافتهم العامة ، هذا فى حين أن هذه الحضارة نفسها تعانى بعضا من الغربة فى وطنها ، صحيح أن هناك إحساساً ضمنياً كامناً فى ضمائر المصريين بمدى أهمية تراثهم وخطورته ، ولكن يظل فى معظم الأحوال مجرد شعور كامن ، غامض ، لا تقابله معرفة علمية بماهية هذا التراث ولا بحقائق مظاهره التاريخية والفكرية .

وقد يدهش الكثيرون إذا ما قيل لهم أن ما كتب عن تاريخ مصر الفرعونية وحضارة شعبها بأقلام مصرية ضئيل إلى حد مؤلم ، لا سيما إذا ما قورن بما تفيض به كل يوم تقريبا المطابع ودور النشر الأجنبية عن كل مظهر من مظاهر الحضارة المصرية ، حقا أنه يصدر بين الحين والآخر دراسة أو كتاب من أحد دور العلم ، ولكنها كتب ودراسات تخاطب فى المقام الأول طلاب الجامعات والمعاهد ، ولذلك فإنها ترتبط ارتباطا وثيقا «بالمقرر» وبالقواعد التى تتحكم فيها يسمى الآن بالكتب الجامعية من حيث عدد الملازم والصفحات . . . الخ . أما والأمر كذلك فإن مثل هذه المؤلفات لا تعنى بالمثقف ، دع عنك القارىء العادى .

ومن هنا كان ترحيبنا بالكتاب الذى بين أيدينا كبيرا ، فهو الجزء الأول من أجزاء ستتلوه بمشيئة الله أجزاء أخرى وكلها موجهة إلى القراء على عمومهم . ونظرة خاطفة على موضوعاته تدل على أن الكاتب حاول أن يغطى نواح شتى من حياة المصريين القدماء فى مجالاتها السياسية والاقتصادية والاجتماعية والطبية والفكرية (الدينية منها والأدبية) .

وقد بذل المؤلف جهدا واضحا لكى تصل المعلومة إلى القارىء بلغة سهلة بعيدة عن التكلف وبأسلوب سلس بسيط حتى يجد فيه المتعة الذهنية والوجدانية فى آن معا .

والكاتب ، مثل غيره من ملايين المصريين ، عاشق لتراب وطنه ، ولكنه يتميز على الكثيرين منهم بأنه ترجم عشقه هذا إلى قراءة تاريخه والغوص فى أعماق ماضيه ، فوجد فيه متعة ملأت عليه كيانه ، ولأنه مدرك تماما لأهمية التاريخ فى تنمية الوجدان ، فإنه لم يشأ أن يستأثر بما عرفه من قراءاته لنفسه ، وإنما آثر أن يشرك فيه أبناء الوطن من قراء ومثقفين ، فقدم لهم حصيلة قراءاته عساها أن تحفزهم على ورود مناهلها للاستزادة منها ، وهو يفعل ذلك بكل تواضع ودون ادعاء بالتخصص فى علم المصريات ، ومن هنا تلمس فى كلماته لا برودة العلماء ، وإنما حرارة العاشقين .

أ.د. جاب الله على جاب الله

الأمين العام

للمجلس الأعلى للآثار

مصر .. من مليون سنة !

فى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد بـدأ تاريخ مصر المكتوب ، وتوحدت الـدولة تحت قيادة ملك واحد يضع فوق رأسـه تاجًا مزدوجًا ، يتألف من تاج الـوجه القبلى الأبيض وتاج الوجـه البحرى الأحمر ، وقبل ذلك التـاريخ كان الصعيـد مستقلاً فى مملكة ، وكـانت الدلتا مستقلة فى مملكة أخرى .

● ولكن هل يعنى ذلك أن مصر قبل الوحدة كانت بلا حضارة ؟! . . وهل ظهرت « الدولة » المصرية هكذا فجأة واعتبرت أول دولة فى تاريخ العالم وأول « حكومة مركزية » أنشئت للناس . . ؟! .

● الاجابة على هذا السؤال لم تكن سهلة ولا ميسورة حتى أواخر القرن التاسع عشر، حين قام بعض العلماء الأجانب باكتشافات أثـرية سلطت الضوء على مراحل البدايات الأولى لحضارة مصر القـديمة ، متمثلة فى تلك الآثار المبهـرة التى خلفها قدماء قـدماء المصريين الذين عاشوا فى مختلف المناطق المصرية فى عصور ما قبل التاريخ .

● وعصور ما قبل التاريخ عصور زمنية طويلة جدا ، وقد تقاس بمئات الآلاف من السنين ، ولعل أوضح تعريف علمى لهذه العصور هـو أنها العصور التى سبقت معرفة الانسـان للكتابـة . . فالكتـابة كـانت الوسيلـة المثلى للإنسـان لتدويـن وتسجيل كل الأحـداث وأمور الحيـاة . . وهى التى يبدأ بها تـاريخ أى شعب من شعـوب الأرض . ومن الحقائق التاريخية والأثرية الثابتة ، أن مصر كانت أول دولة فى العالم القديم عرفت مبادىء الكتـابة وابتـدعت الحروف والعلامـات الهيروجليفية ، وأن المصريين القـدماء كانـوا من أحرص شعوب العالم القـديم على تسجيل وتدوين تـاريخهم والأحداث التى

صنعوها أو تعرضت لهم فى حياتهم التى عاشوها . وبهذه الخطوة الحضارية العظيمة ، انتقلت مصر من عصور ما قبل التاريخ ، وأصبحت أول دولة فى العالم لها تاريخ مكتوب .

● ولكن . . ماذا كانت عليه صورة مصر وصورة المصريين فى تلك الأزمان السحيقة منذ مئات الآلاف من السنين . . ؟! .

فى قرية مصرية صغيرة اسمها « السلسلة » تقع شمال كوم امبو بمحافظة أسوان ، عثرت إحدى بعثات التنقيب الأثرية على جمجمة متحجرة لانسان مصرى كان يعيش فى تلك المنطقة فى عصر موغل فى القدم . . وعندما أجريت الدراسات والفحوص العلمية لتلك الجمجمة باستخدام أحدث أجهزة التحليل الطيفى والاشعاعى ، تبين أن عمرها يزيد على « مليون » سنة ! .

●ومعنى ذلك أن منطقة جنوب مصر كانت عامرة ومأهولة منذ أكثر من مليون سنة .

وقبل ذلك بعدة ملايين أخرى من السنين ، كانت مصر ومناطق واسعة من شمال أفريقيا وشبه الجزيرة العربية غارقة تحت مياه البحر . . ثم حدثت تطورات «جيولوجية» أدت إلى انحسار البحر وظهور الأرض . ثم تكوّن منخفض البحر الأحمر كامتداد للأخدود الأفريقى العظيم . . وتكونت جبال الصحراء الشرقية وجبال سيناء . . ثم بدأ النيل يتخذ مجراه ويحفر واديه الخصيب ويكوّن دلتاه .

● ومرت عصور طويلة كانت الأمطار تسقط فيها بغزارة شديدة جدا ، فظهرت النباتات البرية ذات الحبوب والثمار والجذور التى تصلح للغذاء ، وظهرت بالتالى أنواع كثيرة من الحيوانات والطيور .

● وأثبتت البحوث والدراسات الجيولوجية أن منطقة كوم امبو كانت فى الماضى عبارة عن بحيرة واسعة من الماء العذب ، يصب فيها نهران ينبعان من جبال البحر الأحمر ويخترقان الصحراء الشرقية ، وينتهيان إلى مصب فى تلك البحيرة . كما كانت هناك أيضا عدة أنهار تنبع من تلك الجبال وتحفر وديانها فى الصحراء الشرقية حتى تصل الى وادى النيل .

● أما الصحراء الغـربية فلم تكن مغطاة بـالرمال كما تبدو الآن ، بل كـانت مناطق مخضرة معشوشبة ، حافلة بالأشجار والنباتات وعيون المياه العذبة .

● أمـا دلتا النيل فقـد كانـت فى البدايـة خليجًا من الماء المالـح يمتد من البحـر إلى داخل الأرض . . ثم أخـذ النيل يغمـرها بطميـه المتراكم على مـدى آلاف السنين حتى تكونـت أرضها . . وجرى النيـل فوق هذه الأرض فى عـدة فروع لم يعـد باقيًـا منها الآن سوى فـرع دمياط وفـرع رشيد . ولـذلك فقد كـان النيل يغمر أغلب منـاطق الـدلتا ، فامتلأت بالأحراش والنباتات الكثيفة .

● اننا نحتاج كثيراً من الخيال حتى نتصور حياة الانسان المصرى الأول فى تلك البيئة الطبيعية فى أرض الصعيد وأحراش الدلتا !



مع الانسان المصرى الأول !

منـذ عشرات الآلاف من السنين ، لم تكـن منـاطق الصحـراء الشرقيـة والصحـراء الغربية التى تحيط بوادى النيل المصرى بالشكل الذى هى عليه الآن . . كانت الظروف المناخيـة مختلفة تمامًا . . كانـت السماء ممطرة بغزارة ، والأرض خضراء مليئة بـالأشجار البرية ذات الحبـوب والثمار والجذور التى تصلح للطعام . . وكـانت هناك مجمـوعات كبيرة من مختلف أنواع الحيوانات آكلة اللحوم وآكلة الأعشاب . . بالاضافة إلى جماعات بشرية بدائيـة كانت تكيّف حياتها طبقا لظروف تلك البيئـة الطبيعية ، وتعيش معتمدة على عملية « جمع » الطعام بأقل مجهود .

● وعلى مـدى آلاف السنين التـى تعـاقبـت ، تغيرت الأحـوال الجويــة والظـروف المنـاخية ، فقلّ سقـوط الأمطار ، بـل وانعدم سقـوطها تمامًـا فى كثير من المنـاطق التى تحولت إلى صحـارى لا زرع فيها ولا مـاء . . واضطرت الجماعـات البشرية والفصـائل الحيوانية إلى النزوح إلى مناطق أخرى تتوفـر فيها المياه وتصلح للحياة . . واضطرت هذه الجماعات البشرية إلى التحول من عملية « جمع » الطعام إلى عملية « إنتاج » الطعام .

● ولم تكن تلـك الجماعات البشريـة تعيـش حيـاة متحضرة بمعنى الكلمـة . . بل كانت تعيش حياة بدائية تعتمـد على « الأحجار » لصنع الأدوات اللازمة لتلك الحياة . ولذلك فقـد سميت هذه العصـور باسم « العصـور الحجـرية » حيث كـان يتم اختيار الأنواع الصلبة من تلك الأحجار لصناعة ما يحتاجه الانسان من فؤوس وسكاكين وغير ذلك من الأدوات والوسـائل التى يحتاجها الانسـان للحصول على غذائه من النبـاتات والحيوانات التى يصطادها ، أو يستخدمها للدفـاع عن نفسه ضد الحيوانات المتوحشة والمؤذية .

● ومنذ تلك الحقبة من الماضى السحيق ، ظهر الفضل العظيم لنهر النيل على مصر وعلى المصريين أنفسهم ، الذين وجدوا مساحات شاسعة من الأراضى الطمية الخصيبة التى تنحسر عنها مياه الفيضان فى كل عام .

● وبمرور الزمن تعلم هؤلاء المصريون الأوائل ممارسة العمليات الزراعية من بذر ورى وحصاد . وأتاح لهم الاستقرار فى وادى النيل أن يقوموا باستئناس الحيوانات وتربيتها بأعداد كبيرة تضمن إمدادهم الدائم بكل احتياجاتهم من لحوم وألبان وجلود.

● وكان النيل فى ذلك الزمن السحيق نهراً عاصيًا متمردًا لم يسيطر عليه أحد بعد . . ولكن عبقرية هؤلاء المصريين الأوائل تجلت فى معرفة موعد الفيضان السنوى المعتاد . وعرفوا بالتالى الوقت المناسب لاعداد الأرض للزراعة . وعندما انتشرت زراعة الحبوب على نطاق واسع ، عرفوا السبيل إلى تخزين هذه الحبوب وتشوينها فى صوامع بدائية لاستخدام الفائض فى بقية أوقات السنة .

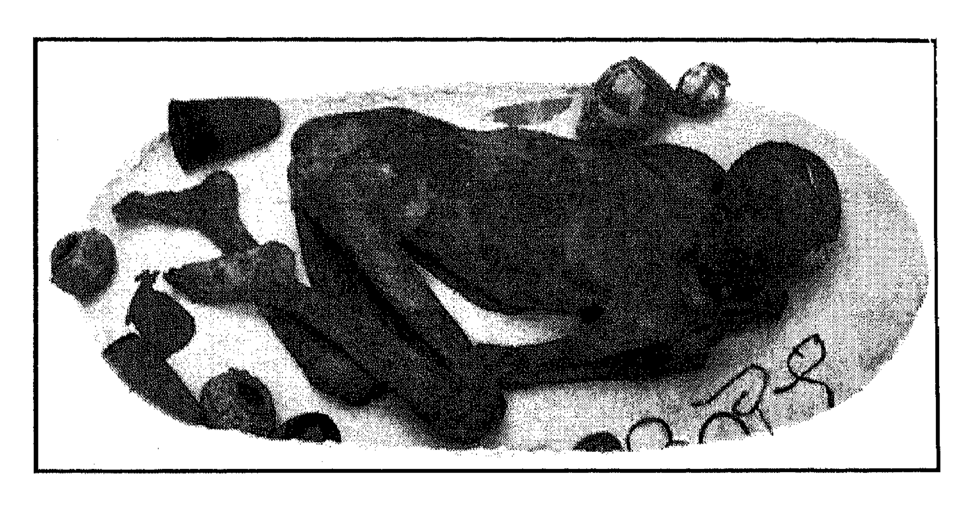
● وهكذا قام المصريون الأوائل بأول انقلاب فى موازين الطبيعة ، وحرروا الانسان من عذاب البحث المستديم عن الطعام باعتباره أهم ضرورة من ضرورات حياته واستمرار وجوده ، الأمر الذى أدى بالتالى إلى إتاحة الفرصة أمام هذا الانسان المصرى الأول ليجد الفراغ أو الوقت الخالى ليستثمره فى تنمية مواهبه ومهاراته الذهنية ، والدخول إلى ميادين حياتية أخرى أدت إلى تغيير كامل شامل فى إيقاع الحياة الفردية والجماعية . .

● ومن هذا المنطلق الجديد استطاع المصريون الأوائل أن يبتدعوا قواعد السلوكيات الأخلاقية السوية سواء بالنسبة للانسان الفرد أو بالنسبة للجماعة ككل . . وبدأ ظهور البوادر الأولى للحكمة والعقائد الدينية . ومن هذا المنطلق أيضا خطا الانسان المصرى الأول أولى خطواته فى « عالم الفن » .

● وأدت وفرة الطعام على ذلك النحو إلى التشجيع على زيادة أعداد كل من الانسان والحيوان . . وبالتالى فقد أصبح من اللازم إعداد المزيد من مساحات الأرض الصالحة للزراعة . واستطاع المصريون الأوائل ابتكار الطرق والأدوات والوسائل الزراعية [التى مازال أغلبها مستخدمًا فى الريف المصرى حتى الآن !] .

● واكتشف هؤلاء المصريون الأوائل أن العمليات الزراعية تحتاج إلى نوع من التعاون والجهود الجماعية لتصبح أكثر فعالية فى مواجهة خطر الفيضان ، وفى إعداد الأرض والبذر والحصاد . . واعتبروا أن هذا التضافر هو فى حقيقة الأمر لصالح الجماعة ككل . . ولهذا فقد كان من المنطقى أن تتوحد الأسر والعائلات الصغيرة فى شكل « قرية » . . وأن تتوحد هذه القرى المتنامية فى شكل « مقاطعات » . . ثم تتوحد هذه المقاطعات أو الأقاليم فى شكل « مملكة » تحكمها « حكومة » واحدة .

● وهكذا نشأت فى الوجه القبلى مملكة تتكون من « ٢٢ » إقليما . . ونشأت فى الوجه البحرى مملكة أخرى تتكون من « ٢٠ » إقليما .



منذ عصور ما قبل التاريخ ، آمن المصريون القدماء الأوائل بأن هناك حياة بعد الموت ، ولذلك فقد كانوا يدفنون مع الميت بعض أوانى الطعام والشراب وقطع الحلى . وقد حفظت جثة هذا الرجل بفعل جفاف الصحراء وبدون تحنيط ، بالرغم من انه مات منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة .

المصريون الأوائل : من أين جاءوا وكيف عاشوا ..؟

من هم المصريـون الأوائل ، ومن أين جـاءوا . . وهل هم من أصل آسيـوى أم من أصل أفريقى . . ؟ .

● شغلت هذه الاسئلة أذهان كثيرين من علماء الأنثروبولوجيا « علم الانسان » . . وفى سنة ١٩٧٤ عقـدت ندوة علميـة عالمية تحت إشراف اليـونسكو ، كـان موضـوعها الوحيـد هو دراسة أصل السكان الأوائل الـذين استوطنوا مصر القـديمة . . واختلفت نظريات بعض العلماء ، إلى أن استقروا على رأى راجح أملته طبيعة الموقع الفريد للديار المصرية الممتـدة من جنوب أسوان إلى شـواطىء البحر المتوسط . . والتـى يشقها النيل العظيم هابطًا من الجنـوب إلى الشمال . . والتى تحف بها الصحارى من الشرق والغرب لتوفير الخصوصية التى تميزت بها عبقريـة المكان ، من توفير الأمان للسكان وحثهم على البقاء والاستقرار والانتاج لتوفير الخير والرخاء .

● لقد تميز مـوقع مصر بأنه حلقة الوصـل بين قارتى آسيا وأفريقيـا ، ومفرق الطرق التى كـانـت تجوبها الهجـرات الانسـانيـة الوافـدة مـن أوربـا وآسيـا بحثـا عن الأمـان والاستقرار، كما تجوبها الهجرات الانسانية الوافـدة من المناطق التى تعرضت للجفاف فى شمال وغـرب أفريقيـا . ولذلك فقـد رجح العلماء القول بـأن المصريين الأوائل هم من سلالة الجنس الحامى من أصول أفريقية [مـن شمال أفريقيا وأرض الصومـال] ممتزجة ومختلطة بـأصول آسيويـة وأوربية ، خصوصًـا بالنسبـة للمصريين الأوائل الذين كـانوا يعيشون فى مناطق الدلتا ومناطق مصر الوسطى .

● وكان ـ ومازال ـ يحلـو لبعض العلماء اليهود ومن يتشيعون لهم أن يجردوا مصر من الأسبقيات الحضـارية التى حققتها فى عصـور ما قبل التاريخ ، ويحاولـون الادعاء بأن

هذه الاسبقيات الحضارية ــ خصوصًا بالنسبة للزراعة ـ قد نشأت أولاً فى البلاد القديمة التى كانت معروفة بإسم « ميزوبوتاميا » أى بلاد ما بين النهرين دجلة والفرات، وفى بعض المناطق الأخرى مثل إيران وسوريا وفلسطين . . ومن هذه البلاد والمناطق انتقلت حرفة الزراعة إلى مصر ! .

● غير أن علماء منصفين وكثيرين خالفوا هذا الرأى وأثبتوا فساده استنادًا إلى النظريات الثابتة والمعروفة فى علم الإكولوجى « علم البيئة » والتى أثبتت بأدلة علمية قاطعة أن ضفاف النيل فى أرض مصر كانت أصلح بيئة مناسبة أمام الانسان الأول لممارسة « الزراعة المنتظمة » لأول مرة فى تاريخ الانسانية ، وذلك بحكم الظروف المناخية وبسطوع الشمس بصفة دائمة ، بالاضافة إلى دورة الفيضان السنوى لنهر النيل والذى كان يحدث بصفة منتظمة عامًا وراء عام .

● ويقرر علماء البيئة أيضًا أن تطور الزراعة بوادى النيل المصرى استغرق فترة طويلة بدأت منذ نحو عشرين ألف سنة قبل ميلاد المسيح عليه السلام . . وأن احتراف المصريين الأوائل للزراعة أجبرهم على الاستقرار بجوار الأرض المزروعة ، فتعلموا بناء البيوت من طين النيل فى بداية الأمر .

● كما يقرر علماء الاجتماع أن استقرار وارتباط هؤلاء المزراعين المصريين الأوائل بالأرض أدى إلى تكاثرهم بأعداد كبيرة ، فتعلموا التكاتف الاجتماعى للدفاع عن أنفسهم ولتوفير الأمان والاطمئنان للجماعة ، كما تعلموا فكرة تقسيم العمل النظامى بين الرجال والنساء . . فظهر بينهم نظام انسانى اجتماعى واقتصادى بعد أن تعلموا إختزان المحاصيل الزراعية للوفاء باحتياجاتهم بصفة دائمة على مدار السنة ، وكانت هذه أول فكرة اقتصادية ابتدعها الانسان ليتغلب على الجوع نهائيا .

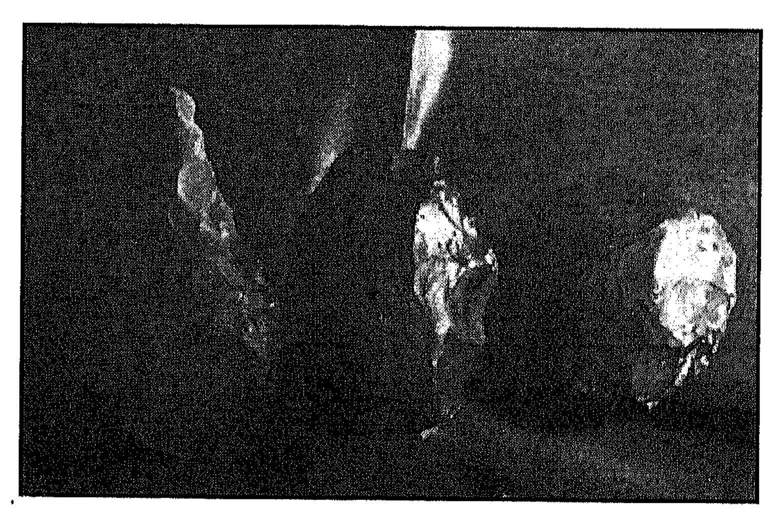
● ومنذ أواخر القرن التاسع عشر وحتى الآن ، قامت بعثات علمية لا حصر لها ، أوفدتها الجامعات والمعاهد المتخصصة ومتاحف الآثار والفنون الجميلة من كافة أنحاء العالم ، بعمل الحفائر الأثرية للبحث عن مخلفات وآثار هؤلاء المصريين الأوائل الذين استوطنوا مصر وعاشوا فيها خلال آلاف السنين فى عصور ما قبل التاريخ . وقد

أجريت هذه الحفائر والبحوث العلمية فى معظم مناطق ضفاف النيل ، وفى الصحارى المصرية .

● ونذكر هنا باختصار شديد أن هذه البعثات العلمية عثرت على آثار هؤلاء المصريين الأوائل فى منطقة السلسلة بالقرب من كوم امبو . . وفى جبل القطران قرب بحيرة قارون بالفيوم . . وفى ممر إدفو / مرسى علم بالصحراء الشرقية . . وفى تلال ووديان النوبة القديمة . . وفى بعض الواحات بالصحراء الغربية . . وفى منطقة بيرطرفاوى التى تقع على بعد نحو ٤٠٠ كم جنوب غرب الواحات الخارجة .

● وعثرت أيضا على آثار أكثر رقيًا لهؤلاء المصريين الأوائل فى منطقة العباسية شمال شرق القاهرة . . وفى المعادى وطره وحلوان جنوب القاهرة . . وفى ميدوم والجرزة ببنى سويف . . وفى البدارى ودير تاسا بأسيوط . . وفى أبيدوس [العرابة المدفونة] بسوهاج . . وفى العمرة ونقادة والجبلين بقنا . . وفى مرمدة بنى سلامة بجنوب غرب الدلتا . . وفى مناطق كثيرة أخرى .

● وتدل البحوث العلمية التى أجريت على تلك الآثار على فضل هؤلاء المصريين الأوائل فى ابتداع الإرهاصات الأولى للحضارت الانسانية فى عصور ما قبل التاريخ .



أدوات حجرية من عصور ما قبل التاريخ

القرى المصرية فى عصور ما قبل التاريخ

مازال حديثنا عن حضارة مصر والمصريين فى عصور ما قبل التاريخ ، وبالتحديد فى الفترة ما بين عامى ٨٠٠٠ و ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، وهى الفترة التى أصطلح على تسميتها باسم « العصر الحجرى الحديث » .

● اكتشف علماء الآثار من المصريين والأجانب عدة قرى عاش فيها المصريون الأوائل خلال هذا الزمن السحيق . وقد يكون من الصعب أن نتعرف على مظاهر الحياة الاجتماعية فى تلك القرى كلها فى هذا المجال الضيق ، وسنكتفى الآن بالتعرف على آثار أقدم قريه مصرية اكتشفت فى الوجه البحرى .

● الاسم الحديث لهذه القرية هو « مرمدة بنى سلامة » . . وتقع جنوب غرب فرع رشيد ، على بعد حوالى ٥١ كم شمال غرب القاهرة ، فى المسافة ما بين قريتى وردان والخطاطبة الحديثتين . ويقرر علماء الآثار أن تلك القرية القديمة كانت مزدهرة اقتصاديا ، ومنظمة اجتماعيا ، ومزدحمة بالسكان [نحو ١٦٠ ألف نسمة !] .

● ومن أهم وأحدث التقارير الأثرية العلمية التى نشرت عن حضارة المصريين الأوائل الذى سكنوا تلك القرية ، تقريران علميان نشر أولهما سنة ١٩٧٨ ونشر الثانى سنة ١٩٧٩ . ومن هذين التقريرين نستطيع أن نعطى صورة ملخصة عن مظاهر الحياة الاجتماعية العامة التى تؤكدها الأدلة والشواهد الأثرية التى تم العثور عليها فى بقايا تلك القرية القديمة .

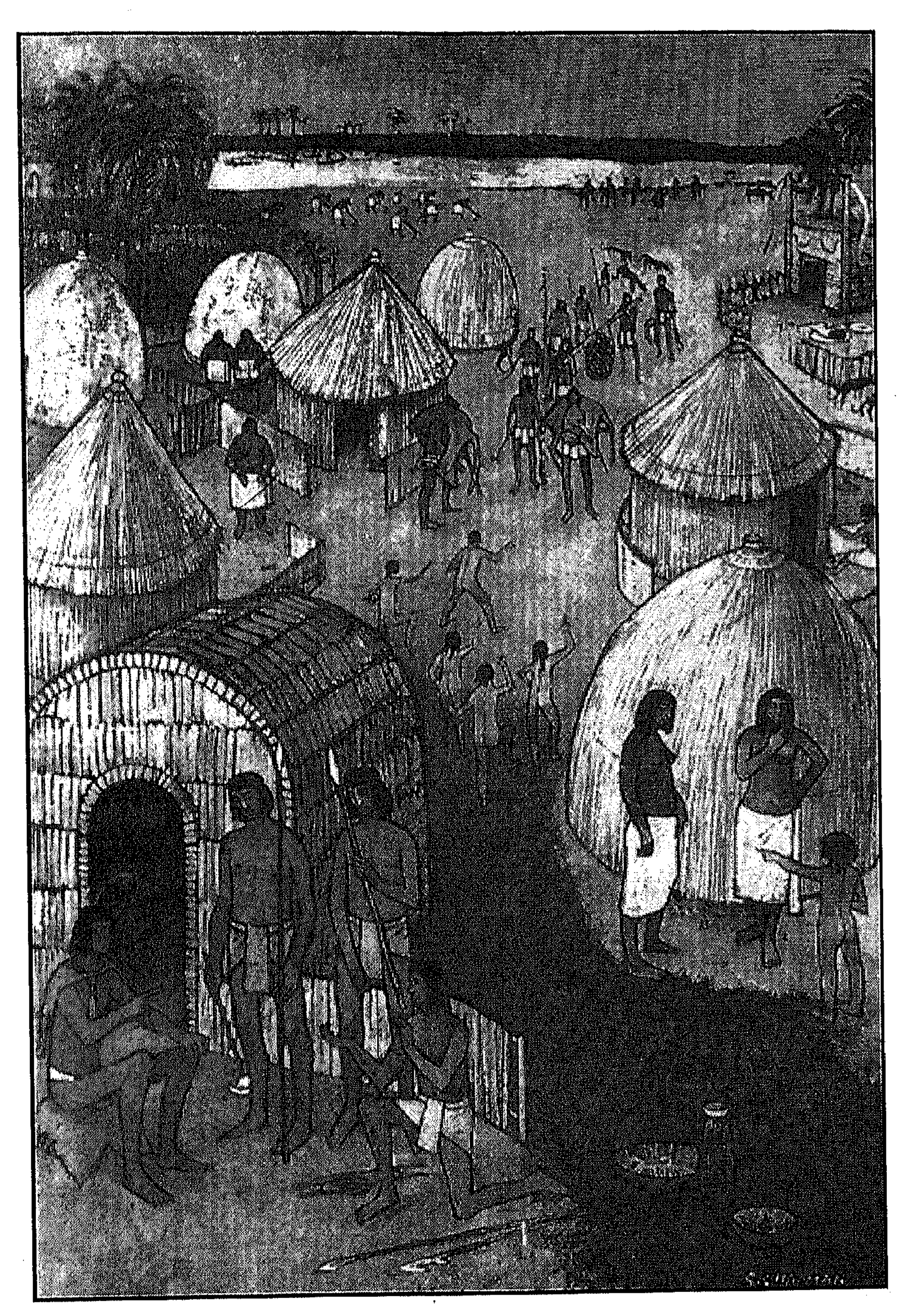
● كان سكانها يمارسون حرفة الزراعة إلى جانب حرفة الصيد [حيوانات وطيور وأسماك] . . وكانوا يعرفون الطريقة المثلى للزراعات النيلية ، أى التى تخضع لأحوال نهر النيل من فيضان وتحاريق . . ويعرفون الطريقة المثلى لحرث الأرض التى انحسرت عنها مياه الفيضان باستخدام المحراث الذى اخترعوه لاستعماله فى شق الأرض وتقليب التربة

. . ويعرفون الطريقة المثلى لبذر البذور ودفنها فى التربة باستخدام أنواع من العصى ذات الرؤوس الحجرية ، وهى مهمة كانت تقوم بها النساء مع مجموعات من الصبيان والبنات . . كما اخترعوا المناجل المصنوعة من الخشب وذات سنون حادة مصنوعة من حجر الصوان واستخدموها فى عمليات جنى المحاصيل . . كما ابتدعوا فكرة «الرحاية» لاستخدامها فى طحن الحبوب تمهيدًا لصناعة الخبز .

● ويقول بعض علماء الآثار - ومنهم بريستيد - إن هذه الأدوات الزراعية البدائية التى صنعها المصريون الأوائل فى العصر الحجرى الحديث وعصور ما قبل التاريخ تعتبر أجمل صنعًا وأحسن صقلا وأكثر اتقاناً من جميع الأدوات المماثلة التى عثر عليها فى بقايا وآثار حضارات هذه العصور فى جميع أنحاء العالم .

● ويقول بعض العلماء أيضًا أن هؤلاء الفلاحين المصريين الأوائل هم أول من استخلص القمح المعروف حاليًا من « القمح البرى » الذى كان ينبت تلقائيًا وذلك باستخدام التهجين . وبالنظر إلى وفرة المحاصيل الزراعية فقد كان سكان القرية يستهلكون ما فيه كفايتهم ، ويقومون بتخزين رصيد الحبوب الذى يكفيهم طوال العام حتى موعد حصاد المحاصيل الزراعية الجديدة فى العام التالى . وكانت الصوامع التى تخزّن فيها الغلال على شكل حفر فى باطن الأرض الجافة مغلفة ومغطاة من الداخل بالحصير المجدول .

● أما المساكن التى كانوا يسكنون فيها فكانت عبارة عن بيوت وأكواخ بسيطة مبنية بطين النيل ومن بعض الأحجار الخشنة ، وذات أسقف مغطاة بسيقان البوص محمولة على الجدران . وبعض جدران تلك البيوت كانت مكسوة بالحصير الملصق بطبقة من الصلصال . وكانت البيوت تبنى فى صفوف متقابلة تفصل بين كل صفين طرق مستقيمة ضيقة . ويدل هذا التخطيط على وجود نظام اجتماعى موحد ملزم للجميع ، بمعنى أن هناك سلطة حاكمة كانت تفرضه . . وبداخل كل بيت من تلك البيوت كانت توجد حفرة تستخدم كموقد لاعداد الطعام . وتدل الآثار التى عثر عليها فى



رسم متخيل لإحدى قرى الوجه البحرى

فى عصور ما قبل التاريخ .

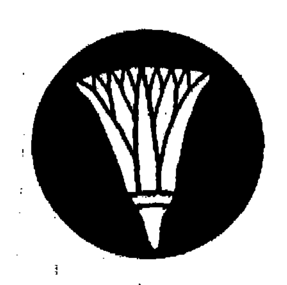
بقايا تلك البيوت على أن سكانها كانوا يتناولـون طعامهم بداخلها وفى مكان مجاور تمامًا لموقد الطهى .

● وعرف سكان تلك القرية كيف يصنعون مـلابسهم من جلود الحيوانات المدبوغة ومن نسيج الكتـان . ومعنى هذا أنهم كـانوا يزرعـون الكتان إلى جـوار الحبوب ، وانهم عرفـوا وابتدعوا طريقـة تعطين هذا الكتان وتنسيلـه فى شكل خيوط يغزلـونها ويعدونها للنسيج على أنوال بدائية ابتـدعوها للقيام بتلك المهمة . . كما عرفـوا طريقة صنع الإبر اللازمة للخياطة ولوصل قطع الجلود أو النسيج ببعضها لاعدادها كرداء . . كما صنعوا أشكالاً متقدمة من السكاكين والمكاشط والسهام والمطارق والفؤوس .

وصنعوا أيضا الأوانى الفخارة المستخـدمة فى حفظ الحبوب أو فى طهى الطعام ، كما تم العثـور على بعض كؤوس منحـوتة من حجـر البازلت الصلـب ، الأمر الـذى يدل بصفة قـاطعة على أنهم ابتـدعوا المثاقب والمخـارز اللازمـة لتفريغ هذا الحجـر الصلب ولتسوية حوافه وجوانبه الخارجية . .

● وعرفـوا أدوات الزينة واستخـدموا « التوتيـا » فى تكحيل العيون ولعـلاج أمراض العيون .

● أما الجوانب الروحية فلا تعرف لهم ديانة محددة ، ولكن طريقة بناء مقابرهم ودفن موتاهم تدل على أنهم كانوا يؤمنون بـالحياة الآخرة ، لأنهم كانوا يدفنون مع الميت بعض الأوانى وبعض الحبوب ، اعتقادًا فى انها قد تنفعه بعـد انتقاله من عالم الأحياء إلى العالم الآخر .



فضل المرأة المصرية القديمة
فى اكتشاف معدن النحاس

فى عصور ما قبل التاريخ ، عرف المصريون الأوائل كيفية استخدام « الششم » وهو مادة «الملاخيت » [مسحوق كربونات النحاس القاعدية] لتزيين العين بنفس الطريقة التى يستعمل بها « الكحل » .

● وتقول المعاجم والقواميس العربية أن « الششم » هو ما يوضع فى العين للاستشفاء به . وأن اسم « ششم » معرب عن كلمة « جشم » الفارسية ومعناها العين . غير أنى لاحظت أن هذه المادة كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة باسم «شسمت» . . ولهذا أرجح أن كلمة « ششم » ذات أصل مصرى قديم ، انتقلت إلى الفرس ، ومنهم انتقلت إلى اللغة العربية .

● ويقول بعض علماء الآثار أن المرأة المصرية القديمة كانت السبب فى إنتقال الحضارة المصرية من العصر الحجرى إلى عصر المعادن الذى يسمى علميًا « العصر الخالكوليثى » أو عصر بداية استخدام النحاس فى صناعة الأدوات التى كانت تصنع من قبل من حجر الظران أو الصوان .

● ويفسر العلماء هذا الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية القديمة فى اكتشاف النحاس على أساس افتراض محتمل إلى حد كبير . . فمن المعروف منذ القدم أن المرأة كانت تتولى وظيفة إعداد الطعام للأسرة ، ولذلك فهى التى كانت تتولى أمر إشعال النار وتشغيل المواقد لطهى الطعام .

● ومن المحتمل أن امرأة مصرية قديمة مجهولة ، كانت تقوم بعمل عجينة الكحل من مادة « الملاخيت » حين كانت بجانب الموقد المشتعل تنتظر نضج الطعام الموضوع فوق النار ، فسقطت هذه العجينة فى النار بطريقة عفوية أو لأى سبب آخر ، ولم تستطع تلك المرأة بطبيعة الحال أن تمد يدها فى النار لتنقذ عجينتها الغالية . وبعد أن نضج الطعام وخمدت نار الموقد ، لاحظت المرأة أن العجينة قد تحولت إلى معدن براق هو معدن النحاس . . لقد أدّت النار إلى صهر العجينة وتبخير بعض مكوناتها وبقى معدن النحاس فى نهاية الأمر .

● ويقول علماء آخرون بنظرية أخرى عن دور المرأة المصرية القديمة فى اكتشاف النحاس فى شبه جزيرة سيناء وفى الصحراء الشرقية . . فمنذ عصور ما قبل التاريخ كان المصريون يرسلون بعثات أو حملات تعدينية للحصول على « التركواز » أو الفيروز من شبه جزيرة سيناء ، وللحصول على الذهب من الصحراء الشرقية . وغالبا ما كانت هذه البعثات تبقى فى تلك الأماكن لمدد طويلة ، لذلك فقد كان هؤلاء المبعوثون من جنود وعمال يصطحبون معهم زوجاتهم ليتولين إعداد الطعام وغير ذلك من الواجبات الأسرية والأعمال المعاونة الأخرى .

● وكانت المواقد البدائية عبارة عن حفرة فى الأرض الجافة توضع فيها قطع الأخشاب أو الأعشاب وفروع الأشجار التى كانت تستخدم كوقود قبل اكتشاف الفحم النباتى .

● ومن المعروف أن مكونات النحاس فى سيناء كانت توجد على شكل رواسب فى الطبقات السطحية من الأرض . ومن المؤكدّ أن بعض النساء المصريات حين كن يعددن المواقد فى أرض تختلط فيها مكونات النحاس بالحصى والتراب ، لاحظن ذلك البريق المعدنى الأصفر يلمع وسط رماد النار بعد خمودها . وبذلك بدأت عمليات اكتشاف المناطق التى توجد بها مكونات النحاس ، سواء فى سيناء أو فى الصحراء الشرقية .

● ومن معدن النحاس استطاع المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن

يصنعوا الأدوات الزراعيـة والأدوات الصناعية ، وأن يطـوعوه لصناعـة الخرز المثقوب ، واستخدموه فى صناعة قطع الحلى كالعقـود والأساور والأقراط ، بل وصنعوا منه التماثيل فيما بعد .

● وبالرغم من اختلاف وجهة النظر فى كل من هاتين النظريتين اللتين قال بهما علماء الآثـار ، فإن كـلاً منهما لا تغفل ذلك الـدور الحضارى العظيـم الذى قـامت بـه المرأة المصرية القديمـة فى اكتشاف النحاس ، وانتقال الحضارة المصريـة من العصر الحجرى إلى عصر المعادن الأكثـر تقدمًا ورقيًـا ، وذلك قبل أن يبزغ للتاريخ فجـر ، بل وقبل أن يوحد الملك مينا الوجهين البحرى والقبلى فى مملكة واحـدة هى أقدم دولة وأقدم حكومة مركزية انشأها الانسان المتحضر على كوكب الأرض .



تمثال للملك ببى { الأسرة السادسة } مصنوع من النحاس ومعروض بالمتحف المصرى .

فى قرية صعيدية .. منذ ٦٥٠٠ سنة !

بعد زيارتنا لمرمدة بنى سلامة التى اعتبرت أقدم قرية مصرية بالوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ ، نزور الآن إحدى قرى الصعيد التى اشتركت فى صنع الإرهاصات الأولى للحضارة المصرية فى تلك العصور الغارقة فى القدم . . وهى قرية «البدارى » التى تقع الآن بمركز البدارى بمحافظة أسيوط على الضفة الشرقية للنيل ، فى المسافة ما بين مدينتى أبو تيج وطما .

● لم تكن البدارى أقدم قرى الصعيد التى سكنها المصريون الأوائل ، فقد ظهرت قبلها ـ بمئات وآلاف السنين ـ قرى أخرى أكثر قدمًا ، يرجع تاريخ بعضها إلى العصر الحجرى القديم والعصر الحجرى الحديث . . ولكن البدارى تتميز بأنها أقدم مكان فى مصر كلها عثر فيه على أدوات وأشياء مصنوعة من معدن النحاس . ومعنى هذا أنها أول قرية مصرية تبين لنا كيف دخلت مصر عصر النحاس ، المسمى علمياً باسم «العصر الخالكوليثى » .

● بدأت الحفائر الأثرية التى كشفت لنا عن آثار البدارى منذ أكثر من سبعين عامًا ، وبالتحديد فيما بين عامى ١٩٢٢ ـ ١٩٢٥ . وقد أجريت هذه الحفائر فى بعض القرى والنجوع التابعة لمركز البدارى وأهمها نزلة المستجدة والهمامية ونزلة الشيخ عيسى والشيخ علم الدين .

● وتدل الآثار التى عثر عليها فى كل تلك المناطق المتقاربة ، على أن تاريخها يرجع إلى نحو عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد ، وعلى أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فى تلك المناطق كانوا على درجة متقدمة فى الرقى الحضارى بالمقارنة لغيرهم من المصريين الأوائل الذين عاشوا فى الصعيد خلال العصور الحجرية السابقة .

● وبتحليل ودراسة هذه الآثار خلص المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إلى مجموعة

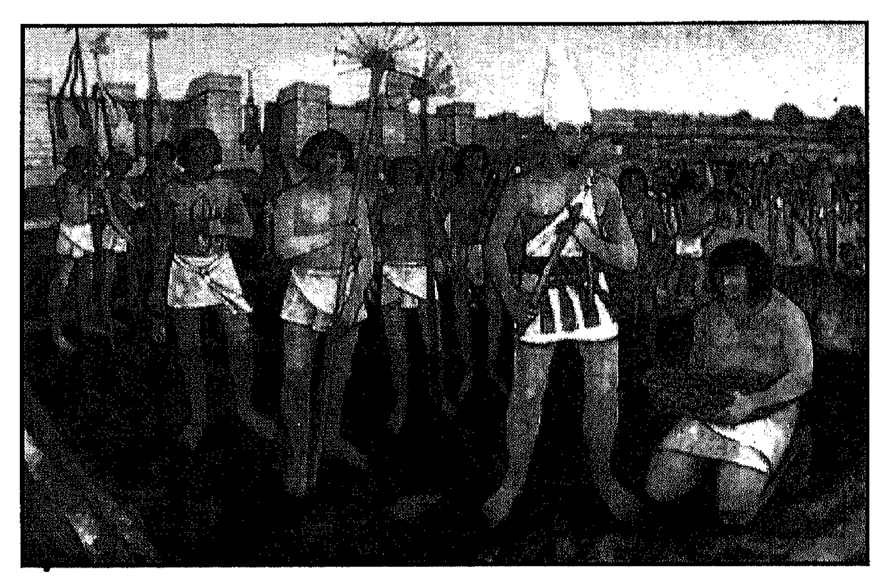
من الحقائق يمكن أن نستخلص منها صورة عامة لحياة المصريين القدماء فى تلك المنطقة منذ ٦٥٠٠ سنة .

● كان السكان حينذاك يعتمدون على الزراعة بصفة أساسية لتوفير ما يحتاجونه من غذاء وملابس . . فقد زرعوا الحبوب والخضراوات والثمار كمحاصيل غذائية ، كما زرعوا الكتان واستخدموه على نطاق واسع فى صنع ملابسهم بعد غزله ونسجه بطريقة أكثر رقة وتقدما من طريقة غزل ونسج الكتان فى القرى المصرية الأكثر قدمًا سواء فى الوجه القبلى أو الوجه البحرى . كما استخدموا الملابس المصنوعة من جلود الحيوانات اتقاءً لبرد الشتاء ، وبرعوا فى دباغة الجلود وجعلها ناعمة لينة . وكانوا يلبسون هذه الملابس الجلدية مع الاحتفاظ بصوفها إلى الداخل .

● ومعنى براعتهم فى نسج الكتان فى شكل أقمشة رقيقة وملونة يجعلنا نقطع بأنهم استطاعوا غزل الكتان فى خيوط رفيعة وابتكروا أنوالاً للنسج أكثر كفاءة من الأنوال التى كان يستعملها المصريون الأوائل قبلهم .

● وفى ذلك الزمن استقرت تمامًا حرفة رعى وتربية القطعان بعد استئناس الحيوانات المفيدة التى توفر للأهالى ما يحتاجونه من لحوم وألبان وجلود . . كما نجحت عمليات تدجين الطيور واستئناس وتربية الحيوانات المستخدمة فى الحمل والركوب والقيام بأعمال الحراسة . كما قام الأهالى بتربية الحيوانات المنزلية المدللة كالقطط التى كانت تفيدهم فى التخلص من الفئران والثعابين والحشرات المؤذية . لذلك فقد انحسرت حرفة صيد الحيوانات البرية اللازمة للغذاء ، وإن بقيت عمليات صيد الأسماك المتوفرة بكثرة فى نهر النيل . ومع ذلك فقد كان الأهالى يخرجون لصيد الحيوانات والطيور كنزهات ترفيهية فى الصحراء المجاورة أو فى أحراش النيل .

● وقد اهتم المؤرخون وعلماء الآثار المصرية الذين درسوا الآثار التى تركها هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى منذ ٦٥٠٠ سنة بدراسة وتحليل تلك الطفرة الصناعية الكبرى التى اعتبرت بحق خطوة تقدمية إلى الأمام فى تاريخ الحضارة المصرية فى عصور ما قبل التاريخ ، وأعنى بها عملية تعدين النحاس واستخدامه فى صناعة ما كانوا يحتاجونه من أدوات .



رسم متخيل لإحدى قرى الوجه القبلى أثناء مباركة
المحصول الزراعى فى عصور ما قبل التاريخ .

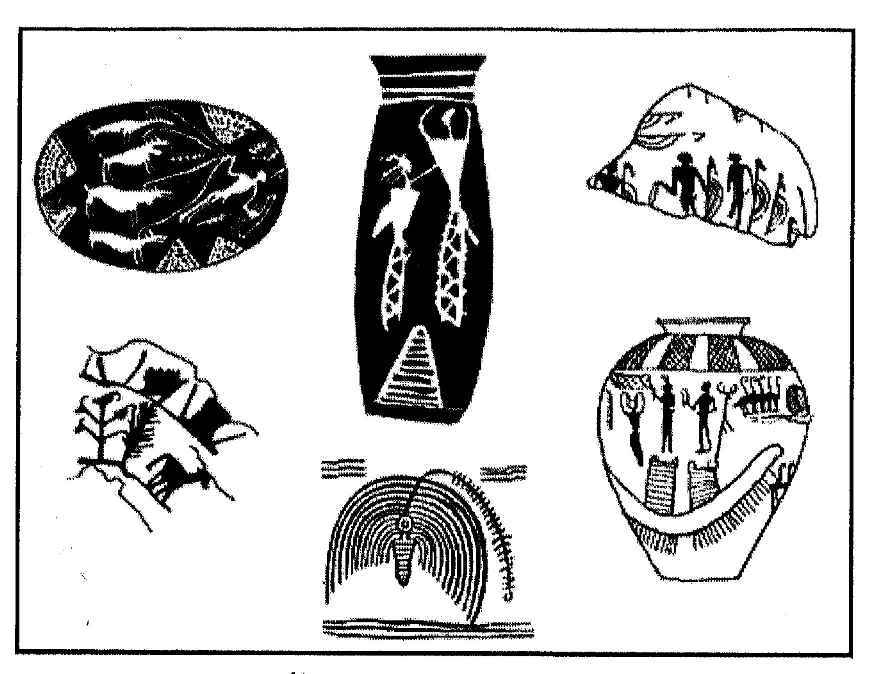
الصعايدة الأوائل .. أقدم المعدّنين فى مصر !

مازلنـا فى زيارة مركـز البدارى بمحافظـة أسيوط لنتعرف على الآثـار التى تركهـا لنا المصريون الأوائل الذين عاشوا هناك فى القرن الخامس والأربعين قبل ميلاد المسيح عليه السلام .

● تدل القطع الأثرية المصنوعة من النحاس التى تم العثور عليها فى منطقة البدارى على أن هذه المنطقة تعتبر أقدم مكان فى مصر تم فيـه تعدين النحاس . . فقد عثر على كثير من الأدوات المصنـوعة بطريقـة بدائيـة من هذا المعدن ، مثـل الحلى وحبات الخرز والمثاقب ودبابيس الشعر ودبابيس شبك الملابس الجلدية والكتانية .

● وبـالنظر إلى أن خـام النحاس لا يـوجـد بتلك المنطقـة ، فمن المتصور انهم قـد استجلبوا أخلاط النحاس الخام من شبه جزيرة سيناء ومن الصحراء الشرقية . وليس فى هذا الاستنتاج أى قدر من المبالغة ، حيث عثـر على آثار مصرية كثيرة يرجع تاريخها إلى القرن الخامس والأربعين قبل الميلاد فى مناطق غـرب سيناء وفى وادى الحمامات القريب من تلك المنطقـة والذى يصل مـا بين وادى النيل وجبـال البحر الأحمر مخترقًـا الصحراء الشرقية .

● ومن الموضوعات التى حيرت علماء الآثار أن هؤلاء المصريين الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى فى ذلك الزمن القديم ، قد اهتدوا إلى طريقة صنع ثقب فى أحد طرف الإبرة المصنوعة من النحاس والتى كانـوا يستخدمونها فى الخياطة . . فهذا الثقب الذى كـان يلضم فيه الخيـط كان يستلـزم صنعه وجـود مثقاب ذى سـن رفيع جدا وحـاد ، مصنوع من معدن آخر أشد صـلابة من معدن النحاس . . فى حين أن هؤلاء المصريين



رسوم توضحية منقوشة على بعض الأوانى
المصرية .. من عصور ما قبل التاريخ ..

الأوائل كانوا لا يعرفون بعد طريقة صناعة وتعدين البرونز التى اهتدوا إليها بعد ذلك بنحو ألف سنة . . فكيف تسنى لهم إذن أن يثقبوا أحد طرفى الإبرة المصنوعة من النحاس ؟! . . هذا السؤال لم يتم الوصول إلى معرفة الاجابة عليه إجابة صحيحة قاطعة حتى الآن .

● وبالرغم من أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فى الوجهين القبلى والبحرى منذ ٦٥٠٠ سنه لم يكونوا قد توصلوا بعد إلى اختراع « عجلة الفخرانى » التى سهلت عملية صناعة وتشكيل الأوانى الفخارية . . إلا أن ما عثر عليه فى البدارى من أوانى الفخار يدل على دقة الصناعة والذوق المبتكر . . ولم تعد الأوانى بدائية الشكل أو محروقة دون عناية مثل الأوانى الفخارية التى عثر عليها فى القرى المصرية الأقدم زمنا ، وإنما كانت ذات أشكال مبتكرة غير مسبوقة ، وكانت بعض الأوانى ذات جدران وحواف رقيقة وسطح مصقول لامع ، الأمر الذى يدل على أنهم أول من ابتكر المراحل الأولى لصناعة الخزف .

● وكانوا أيضا أول من ابتكر أشكالاً غير مسبوقة لهذه الأوانى الفخارية التى تطورت وأصبحت ذات أشكال كروية واسطوانية وذات رقاب ضيقة من أعلى ، كما أن بعض هذه الأوانى كانت ذات لون أحمر لامع ومزخرفة بخطوط بيضاء متقاطعة ذات أشكال هندسية .

● كما تطورت بعض الأوانى وأصبحت ذات لونين ، فالجزء العلوى منها أصبح أسود اللون ، والجزء السفلى كان أحمر اللون ، وذلك دون استخدام أية ألوان إضافية إلى عجينة الفخار . ويرجع ذلك إلى انهم ابتكروا طريقة جديدة لحرق الأوانى بعد تشكيلها من الطين أو الصلصال ، وذلك بحرقها « مقلوبة » فى النار ، فيظل الجزء العلوى مغموسًا فى عشب النار أو فى المواد المحروقة فيكتسب اللون الاسود بينما يظل الجزء الرئيسى الذى يمثل جسم الآنية معرضًا للهواء أثناء الحرق فيتأكسد ويكتسب اللون الأحمر .

● وتدل جميع الشواهد الأثرية التى تم العثور عليها على أن أهالى البدارى قد عاشوا حياة مرفهة فى ذلك الزمن البعيد فى عصر ما قبل التاريخ . .

الصعايدة الأوائل .. وحياة أكثر تقدمًا وحضارة !

نواصل الحديث عن آثار المصريين الأوائل الذين عاشوا فى عصور ما قبل التاريخ فى منطقة البدارى بمحافظة أسيوط حوالى عام ٤٥٠٠ قبل الميلاد . وقد أشرنا فيما سبق إلى أن هؤلاء المصريين الأوائل قد عاشوا حياة مرفهة وأكثر حضارة وتقدمًا بعد أن عرفوا كيفية تعدين النحاس الذى كانوا يحصلون على خاماته من شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية .

● وبالرغم من كثرة عدد البعثات العلمية المصرية والأجنبية التى أجرت أبحاثها وحفائرها الأثرية فى تلك المنطقة ، إلا أنه لم يتم العثور على أى أثر من البيوت التى كانوا يعيشون فيها حياتهم الأولى . . وجميع الآثار التى تم العثور عليها كانت مدفونة فى آلاف المقابر التى دفنوا فيها موتاهم . ومن هذه الآثار نستطيع أن نستدل على مظاهر حياة الرفاهية والتقدم الحضارى التى عاشوها فى عصور ما قبل التاريخ .

● تم العثور على عدد كبير من القلائد التى كانت تعلق على الصدر ، والأساور التى كانت تزين الأيدى والأذرع ، والخواتم التى تزين الأصابع ، والأقراط والحلقان التى كانت تستعمل كحلى لزينة الآذان ، والأحزمة والمآذر المزينة بالخرز الملون . ومن الغريب أن استعمال جميع هذه الحلى وأدوات الزينة لم يكن قاصرًا على النساء وحدهن ، بل كان استعمالها يشمل النساء والرجال والأطفال جميعًا .

● ولوحظ أن بعض قطع الحلى كانت مصنوعة من العاج وقشر بيض النعام ، الأمر الذى يدل على أن هؤلاء المصريين الأوائل كانت لهم صلات مع مناطق النوبة العليا أو بلاد وسط افريقيا حيث توجد الأفيال التى تصنع من أنيابها وسنونها قطع الحلى . كما أن بعض هذه القطع كانت مصنوعة من الأصداف أو مزينة بحبات الفيروز . وهذا دليل آخر على صلاتهم بسواحل البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء .

● وتم العثور على أمشاط للشعر بعضها مصنوع من العظام وبعضها مصنوع من العاج . ولوحظ أن هذه الأمشاط ذات سنون طويلة متقاربة وضيقة الفتحات ، الأمر الذى يدل على استعمالها لتنظيف الشعر وتسريحه ، كما أن معظم هذه الأمشاط كانت مزينة برؤوس أو أياد ذات أشكال فنية مثل الأشكال الآدمية والحيوانية وأشكال الطيور.

●ودلت بقايا الجماجم والهياكل العظمية لهؤلاء المصريين الأوائل على أن شعرهم كان أسود أو بنى اللون . . وأن الرجال كانوا يحلقون لحاهم وشواربهم كدليل على الرغبة فى الأناقة والحرص على النظافة العامة .

● وعثر أيضا على عديد من المصاحن المصنوعة من حجر الاردواز الناعم والتى كانت تستعمل لطحن المواد التى كانوا يستعملونها فى الزينة وتلوين وجوه النساء [المكياج] . . ومن هذه المواد التى عثر عليها كبريتيد الرصاص وأوكسيد الحديد والراتنج والملاخيت [كربونات النحاس القاعدية التى كانت تستعمل كعلاج ولتلوين محاجر العيون] .

●كما عثر على ما يدل على أنهم ابتكروا طريقة استخراج الزيوت من النباتات العطرية واستخدموها فى تنظيف البشرة وتنعيمها واعطائها رائحة زكية .

● ومن القطع الأثرية التى عثر عليها ما يؤكد لنا درجة الرقى التى وصل إليها هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى منطقة البدارى فى عصور ما قبل التاريخ ، وذلك مثل الملاعق المصنوعة من العاج والتى كانوا يستعملونها فى تناول الطعام بطريقة متحضرة فى ذلك الزمن المبكر .وكانت هذه الملاعق ذات تجاويف مربعة أو مستطيلة أو بيضاوية، وصنعوا لها مقابض مزينة بأشكال زخرفية أو أشكال على هيئة طيور أو حيوانات لطيفة .

● ومن الخطوات الحضارية التى خطاها سكان البدارى فى ذلك الزمن المبكر انهم ابتكروا فتحًا جديدًا لفن نحت التماثيل الصغيرة فى مصر . . فقد عثر فى مقابرهم على مجموعات من تماثيل النساء مصنوعة من الصلصال ومن الفخار ومن العاج . وبالرغم من الأشكال البدائية لتلك التماثيل إلا أنها تؤكد فكرة ظهور الإرهاصات الأولى لفن

النحت الذى تطور فى العصور اللاحقة حتى أصبحت مصر رائدة لفن النحت فى العالم القديم كله .

● ويقول بعض العلماء أن تلك التماثيل الصغيرة التى دفنوها مع الموتى كانت لتحقيق أغراض سحرية لخدمة الميت وحمايته فى العالم الآخر . .

● ولوحظ أن أكثر مقابرهم كانت جدرانها مبطنة بالحصير ، وانهم كانوا يضعون جسد الميت على لوحة من الخشب أو الحجر ، وهى طريقة لم تكن مستعملة من قبل حيث كان يوسد الجسد فوق التراب . وربما كانت هذه الطريقة المستحدثة هى التى تطورت فيما بعد إلى فكرة صناعة التابوت الخشبى أو الحجرى الذى كان يوضع بداخله الميت . كما كانوا يلفون أجساد موتاهم فى أكفان من الجلد أو قماش الكتان . ومن الغريب أيضا انهم كانوا يدفنون حيواناتهم النافقة فى مقابر خاصة وكانوا يلفون جثثها بالأكفان .

● أما حرصهم على تزويد المقبرة بعدد من الأوانى وأدوات الزينة والأدوات التى كانت مستعملة فى الحياة ، فهو يدل بشكل قاطع على إيمانهم بأن ثمة حياة فى العالم الآخر ، كما يدل على وجود مشاعر أسرية مستقرة تظهر فى طريقة التعبير عن الحنان والتعاطف مع الميت الراحل والحرص على راحته الأبدية . . ومن المشاعر السامية المعبرة عن تلك الأحاسيس الراقية حرصهم على وضع باقة من الورود والزهور العطرية بالقرب من صدر الميت .



فى الوجه القبلى .. قبل مينا بألف سنة !

منذ أقدم عصور التاريخ ، بل وفى عصور ما قبل التاريخ ، كان المصريون يطلقون على بلادهم اسم « الأرضين » وهو اسم مازال المصريون المحدثون يستعملونه حتى الآن بمعنى « الوجهين » القبلى والبحرى .

● وقد أدرك المصريون الأوائل الذين كانوا يعيشون فى عصور ما قبل التاريخ فى الوجهين القبلى والبحرى معتمدين على الزراعة ، أن عمليات الرى والصرف والبذر والحصاد وإعداد مساحات الأراضى التى ينوون زراعتها بالقرب من ضفاف النيل وروابيه ، تحتاج إلى التعاون والتآزر وبذل الجهود الجماعية .

● وأدى هذا التضافر الجماعى إلى مصير حتمى هو ضرورة « الوحدة » . . وهى وحدة بدأت أولاً بتوحيد العائلات الصغيرة فى شكل جماعة . . وتوحيد تلك الجماعات فى شكل قرية . . وتوحيد تلك القرى والمدن فى شكل مقاطعات أو أقاليم أوسع نطاقًا . . وتوحيد تلك المقاطعات أو الأقاليم فى شكل دولة ذات حكومة مركزية واحدة . وعلى هذا الأساس نشأت فى مصر مملكتان . . مملكة فى الوجهه البحرى ، والثانية فى الوجه القبلى .

● ومن الناحية العلمية فإن البحث فى معرفة أسماء الملوك الذين حكموا « الوجهين» فى عصور ما قبل التاريخ يعتبر من أصعب الأمور . . ولا يعرف المؤرخون من هذه الأسماء سوى أسماء بعض الملوك الذين حكموا الوجه البحرى ، واسم ملك واحد ممن حكموا الوجه القبلى فى تلك العصور ، وهو الملك « العقرب » .

● جعلت الطبيعة الجغرافية والبيئية من الوجه القبلى شريطا ضيقا ممتدًا على ضفتى

النيل ، تحيط به الصحارى والتلال الصخرية وهذه البيئة الصعبة القاسية هى التى علمت الصعايدة الأوائل الذين كانوا يعيشون فى الوجه القبلى فى عصور ما قبل التاريخ فضيلتى الأصرار والمثابرة ، وأن يكدحوا ويكافحوا دائما وباستمرار ضد الخطر الذى كان يهدد أراضيهم الزراعية ، وهو زحف الرمال الحمراء والصفراء القادمة من الصحراء ، ومنعها من ابتلاع الأرض الخصبة السوداء التى كانوا يسمونها « كيمى » . . كما كانوا يسمون أرض الصحارى الصفراء باسم « دشر » [وأرجو ملاحظة تقارب التسمية بين كلمة « دشر » المصرية القديمة وبين كلمة « ديزرت DESERT » المستعملة فى بعض اللغات الأجنبية] .

● وبالاضافة إلى هذا الخطر الدائم كان هناك خطر مواجهة مياه الفيضان السنوى حين كانت تفيض على الضفتين وتغمر قراهم وأراضيهم الزراعية ، الأمر الذى يتطلب بالضرورة إقامة الجسور على طول ضفتى النهر ، للتحكم فى مياه الفيضان لصالح الانتاج الزراعى ، مع درء خطر الاغراق والتدمير . كذلك فقد قام نهر النيل بدوره فى تسهيل تحقيق هذا التضافر الاجتماعى بين جميع سكان الوجه القبلى ، باعتباره ممراً مائيًا يحقق لهم سبل الاتصال السريع مع جميع سكان القرى والمدن والأقاليم الواقعة على ضفتى النيل بالوجه القبلى حتى مفرق الدلتا .

● وقد أدت هذه الاتصالات المستمرة بين أقاليم الوجه القبلى إلى ظهور ضرورة التنسيق الادارى وتنظيم الجهود الجماعية من أجل صالح السكان ككل ، ومن أجل حشد قوى هؤلاء السكان للوقوف ضد ما يداهمهم من أخطار . وكان هذا الاعتبار هو البذرة التى أنبتت فكرة الدولة التى يحكمها ملك واحد وحكومة مركزية واحدة تعمل لصالح الوجه القبلى بكل أقاليمه ، وكان عددها اثنين وعشرين إقليما . وهذا الدور الادارى والسياسى هو الذى ميز الوجه القبلى بالقدرة الفائقة على قيادة السلطة الادارية والسياسية طوال عصور التاريخ المصرى القديم فى معظم حقباته .

● واتخذت مملكة الوجه القبلى من نبات البردى شعارًا لها . . كما اتخذ ملوكها من التاج الأبيض المعروف ــ واسمه القديم « حدجت » ـ شعارًا ملكيا يلبسه كل من يرتقى عرش تلك المملكة .

● وكانت لمملكة الوجه القبلى عـاصمتان فى مدينتين متقابلتين على ضفتى النيل فى المسافة ما بين جنوب الأقصر وشمال أسوان . المدينة الأولى التى تقع على الضفة الشرقية للنيل هى العـاصمـة السيـاسية والادارية ، وكـان اسمهـا القديـم « نخب » وتسمى «الكاب » حـاليًا . أمـا المدينة الثـانية التى تقع على الضفـة الغربيـة المقابلة ، فكـانت العاصمة الـدينية . وكان اسمها القـديم « نخن » وأطلق عليها الإغريق القـدماء اسم «هيراكونبوليس » أى مدينة الصقر . وكان ملـك الوجه القبلى يتخذها مقرًا لسكناه . . واسمها الآن « الكوم الأحمر » وتقع على بعد حوالى ١٥ كيلو مترا شمال مدينة إدفو .



تمثال صغير لامرأة ، ومشط له يد على شكل غزال ، مصنوعان من العاج ،
من عصور ما قبل التاريخ .

فى الوجه البحرى .. قبل مينا بألف سنة !

كان سكـان الوجـه البحرى فى عصور مـا قبل التاريـخ أسعد حالا مـن معاصريهم سكان الوجه القبلى .

● فى ذلك الزمن كـانت الدلتا تتكون من إثنـى عشر فرعًا ، تتفرع منهـا مجموعة لا حصر لها من الروافد المائية الصغيرة ، لذلك فقد كانت معظم أراضيها مليئة بالأحراش والخلجان والمستنقعات والمناطق العشبية . . أما أراضيهـا الزراعية فقد كانت على درجة عالية من الخصوبة ، فزرعت إلى جانب الحبوب بمحاصيل إضافية مثل الكتان والكروم وحدائق الفواكه .

●وكان مناخها أكثر اعتدالاً وأقل قسـوة من مناخ الوجه القبلى . . كما كانت تحف بها شرقًا وغربًا مناطق عشبية واسعة تـرعى فيها قطعان الأغنام والماعز والمواشى الأخرى . . هذا إلى جانـب ما كان يتوفر فيهـا من أسماك ودواجن وطيور ، بالاضـافة إلى وجود عـدد من الملاحـات التـى كـان يستخرج منهـا الملـح الـلازم للطعـام ولحفظ اللحـوم والأسماك .

● وبسبب هذه الـوفرة الهائلة فى الطعـام تعرضت منـاطق الوجه البحـرى لهجرات استيطانية متكررة من الليبيين القادمين من الغرب ، ومن الساميين القادمين من الشرق . . غير أن هذه الهجـرات كانت سرعـان ما تتمصر وتذوب فى مجتمعـات المصريين من سكان الـدلتا الأصليين . كما أدت وفرة الطعـام أيضًا وسهـولة الحصول عليـه إلى توفير الوقت الكـافى أمام المتميـزين من السكان لكى يتفـرغوا للتأمل وابتـداع الحكمة ونسج الأساطير بالاضافة إلى الابداعات الفنية والصناعية .

● وإذا كان الـوجه القبلى فى عصـور ما قبل التـاريخ قد تميـز بالقـدرة على القيادة

الادارية والسياسية ، فقد تميز الوجه البحرى بالقدرة على القيادة الفنية والحرفية . ويقول كثير من المؤرخين ـ استنادًا إلى أسباب جغرافية وبيئية وسكانية ـ إن الوجه البحرى فى ذلك الزمن كان أكثر تقدمًا من الوجه القبلى من الناحية الحضارية .

● وإذا كان علماء الآثار قد عثروا على الكثير من الآثار التى تركها سكان الوجه القبلى فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد كان من الصعب العثور على الآثار التى تركها سكان الوجه البحرى فى تلك العصور ، فقد ضاعت تلك الآثار وتلاشت واختفت تمامًا تحت الركامات الهائلة من طمى النيل التى تراكمت على مدى آلاف السنين .

● كان الوجه البحرى آنذاك مقسماً إلى عشرين إقليما ، يتكون كل إقليم منها من وحدة رئيسية تمثل قرية كبيرة أو مدينة وما يتبعها من قرى أخرى صغيرة . ومثل أقاليم الوجه القبلى كان لكل إقليم حاكم أو رئيس ومعبد وسوق تجارى . ومثلما حدث أيضا فى الوجه القبلى ، فقد توحدت أقاليم الوجه البحرى فى شكل مملكة يحكمها ملك واحد وحكومة مركزية واحدة .

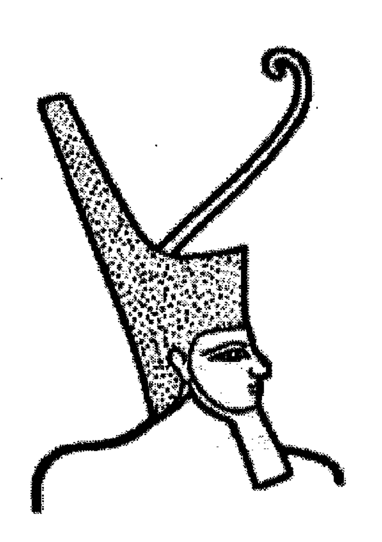
● وبسبب عدم العثور على آثار كافية للاستدلال منها على أحوال مملكة الوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ ، فقد كان من الصعب تمامًا التعرف على أحوال تلك المملكة والأعمال التى قام بها شعبها وملوكها . وبالرغم من هذا القصور فى العثور على الدلائل الأثرية إلا أن علماء الآثار قد تمكنوا لحسن الحظ من إجراء العديد من الأبحاث والحفائر الأثرية حتى تم العثور على بقايا وآثار قرية كاملة يرجع زمانها إلى عصور ما قبل التاريخ ، وهى قرية « مرمدة بنى سلامة » التى تقع بجنوب غرب الدلتا .

● ولحسن الحظ أيضا فقد تم العثور على أثر بالغ الأهمية يتضمن أسماء تسعة من ملوك الوجه البحرى فى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات منهم الملوك « سخا » و« خايو » و « تيش » . وقد وردت هذه الاسماء فى ثبت دوّنه الكتاب المصريون فى عصر الأسرة الخامسة التى حكمت مصر لفترة تقدر بنحو مائة وخمسين سنة فيما بين عامى ٢٤٩٤ ق م ـ ٢٣٤٥ ق م . . أى بعد مرور نحو ١٧٠٠ سنة على العصر الذى كانت فيه مصر مقسمة سياسياً إلى مملكة الوجه القبلى ومملكة الوجه البحرى .

● وقد اتخذت مملكة الوجه البحرى من « زهرة اللوتس » شعارًا لها ، كما اتخذ ملوكها من التاج الأحمر بشكلـه المعروف ـ وكان اسمـه القديم « دشرت » ـ شعارًا ملكيًـا يلبسه كل من يرتقى عرشها .

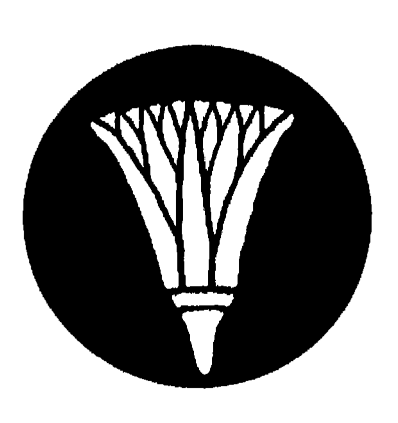
●وكانت لمملكة الـوجه البحرى عاصمتان متجاورتـان هما مدينتا « بى » و « دب » وقـد ادمجتا معًـا فى مدينـة واحدة اطلـق عليها اسم « بـوتو » . . وتسمـى حاليًـا « تل الفراعين » وتقع بشمال غرب الدلتا بالقرب من مدينة « دسوق » جنوب بحيرة البرلس .

● وتقول اسطـورة « إيزيس وأوزيـريس » إن إيزيس قـد لجأت هى وابنها الـرضيع «حورس » إلى أحراش الدلتا فى منطقة « بوتو » . . وظلت هناك حتى اشتد عوده وخرج منها مطالبًا بعرشه فى مصر الموحدة .



التاج الأحمر

تاج مملكة الوجه البحرى



زهرة اللوتس

[شعار مملكة الوجه البحرى]

وحدة مصر .. قبل مينا بألف سنة !

رأينـا كيف أن حيـاة المصريين الأوائل على ضفاف النيـل ، فرضـت عليهم عـوامل الوحـدة وتأليف القلوب والسعى إلى الصـالح العام الـذى يعود بالخير عليهـم جميعًا . ورأينا كيف اتحدت القـرى فى شكل أقاليم ، وكيف اتحدت الأقـاليم فى شكل مملكتين بالوجه القبلى والوجه البحرى . وذلك فى عصـور ما قبل التاريخ وقبل ظهور الملك مينا بنحو ألف عام .

● وتشهد جميع الأدلة الأثـرية التى عثر عليها أو تم اكتشافهـا فى مختلف مناطق كل من هاتين المملكتين على عـدم وجود أية فـوارق كبيرة بين المصريين الأوائل الذين كـانوا يسكنون فى هاتين المملكتين . . فقـد كانت الزراعة هى الحرفة الـرئيسية للسكان فى كل من الوجهين القبلى والبحرى . وكانت الزراعة معتمدة أساسًا على نهر النيل الذى ينهل الجميع من خيراته ، كما يتعرض الجميع لأخطار فيضانه .

● وكان سكان الوجهين يتكلمون لغة واحدة مشتركة وإن اختلفت لهجاتها . . تمامًا مثلما يحدث الآن . . فالمصريـون المحدثـون جميعا يتكلمـون العربية ، ولكـن اللهجات وطريقة نطق الحروف أو الكلمات قد تختلف بين أهالى الوجه القبلى وأهالى الوجه البحرى وسكان المناطق الصحراوية والمناطق الساحلية .

● وكان سكان مملكتى الوجـه القبلى والوجه البحرى يدينون بديـانة تستلهم مبادئها من الروح والعادات والتقاليـد الزراعية . لذلك فقد كانت عقائدهم الـدينية متقاربة فى المبنى والمعنى ، وإن اختلفت الآلهة وتعددت بتعـدد الأقاليم فى كل من المملكتين . .

فقد كان لكل اقليم إلهه الخاص الذى يتعبد إليـه السكان اعتقادًا منهم ان هذا الإله هو الذى يحمى إقليمهم ويوفر لهم الخيرات ويدفع عنهم شرور الحياة . . كما كان لكل من المملكتين إله رئيسى يؤمـن به سكان كل مملكة . . وكان الإله « حـورس » هو الإله الرئيسى فى مملكـة الوجه البحـرى ، والإله « ست » هو الإلـه الرئيسى فى مملكة الـوجه القبلى .

● وبالرغـم من العداء الاسطورى الشهير بين الإلهين « حورس » و « ست » ـــ طبقا لما ورد فى اسطورة إيزيس وأوزيريس ـ إلا أن الأساس الدينى فى كل من هاتين الديانتين يعتبر واحدًا . كما كانت العقائد الدينيـة التى سادت بين سكان المملكتين فى عصور ما قبل التاريخ تنتمى إلى فكرة فلسفية واحدة هى « حلول القوة الإلهية فى شخص الملك» . وهذه الفكرة ظلت سائدة فى نظم الحكم فى معظم أنحاء العالم عبر آلاف السنين وحتى وقت قريب حيث كان يستنـد كثير من الملوك فى أوربا وآسيا وأفريقيـا إلى الفكرة القائلة بأنهم « ظل الله فى الأرض » .

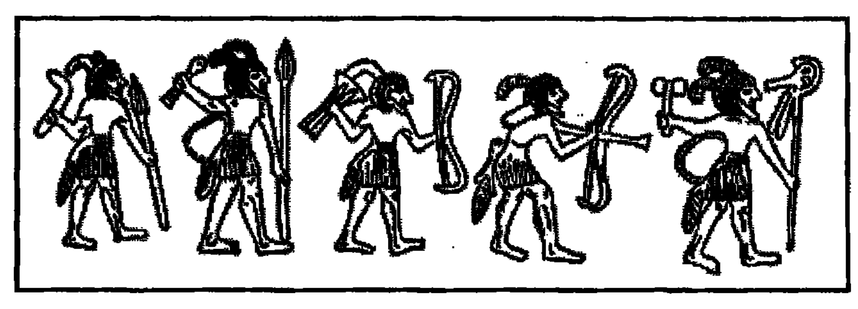
● وقـد أدت البيئـة الزراعيـة التى كـان يعيش فيهـا المصريـون الأوائل من سكـان الوجهين القبلى والبحرى أثناء عصور ما قبل التاريخ إلى خلق الفرص بين هؤلاء السكان لكى يتبادلوا المنافع ، ويتبادلوا المواد الأولية والمحاصيل الزراعية التى قد تتوفر فى منطقة دون أخرى على مدار السنة . . بالاضافة إلى تبادل المصنوعات المحلية التى قد تتميز بها كل مملكة عـن المملكة الأخرى ، مع مـا كان يصحب ذلك بطبيعـة الحال من اختلاط اجتماعى نتيجة للمعاملات المستمرة ، ونتيجة لكثير من حالات الزواج والمصاهرة .

● وبسبب مـا كانت تتعـرض له مملكـة الوجـه البحرى من تهديـد وغارات يشنهـا الآسيويـون من الشرق والليبيون من الغرب ، فقـد كان من اللازم أن تجهز المملكـة قوة تحميها مـن تلك الغارات المتكـررة . ولا شك فى أن تلك القوة هـى التى دفعت بعض ملوك الـوجه البحـرى إلى ضرورة التفكير فى توحيـد سكان الـوجهين فى دولة واحـدة ، وذلك بدمج قوة الـوجه القبلى فى قوة الوجه البحرى ، ولوضع حـد للانفصال الذى لا معنى له بين مصر العليا ومصر السفلى .

● وعلى هذا الأساس قام ملوك الوجـه البحرى بفرض سيطرتهم على الوجه القبلى ،

ووحدوا المملكتين فى دولة واحدة ، جعلوا عاصمتها فى مدينة « أون » التى تقع فى منطقتى عين شمس والمطرية شمال القاهرة ، على أساس انها عاصمة تتوسط الوجهين ويسهل منها إدارة شئون الوجهين معًا .

● هذه الوحدة المصرية التى قامت قبل عصر الملك مينا بمئات السنين كانت محل جدل علمى بين المؤرخين وعلماء المصريات ، فبعضهم أكد وجود هذه المملكة المصرية الموحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، وبعضهم أصر على أن الملك مينا هو أول من وحد الوجهين وأسس الأسرة الملكية الأولى ، وبدأت فى عهده العصور التاريخية التى مرت على مصر اعتبارًا من عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد .



رسم توضيحى لجنود محاربين من عصور ما قبل التاريخ .

تجربة وحدة مصر .. فى عصور ما قبل التاريخ

أشرنا إلى اختـلاف بعض المؤرخين وعلماء المصريات حـول حدوث أو عـدم حدوث «وحدة » سياسية جمعت مملكتى الوجه البحـرى والوجه القبلى فى مملكة واحدة ، خلال عصور مـا قبل التـاريخ ، وقبل « الوحـدة الخالدة » التى حققهـا الملك مينا بعـد ذلك بمئات السنين .

●وبالرغم من ندرة الشواهد الأثرية التى يمكن الاستناد إليها لتدغيم هذا الاستنتاج المؤيد لفكرة حدوث الوحدة الأولى ، إلا أن غـالبية المؤرخين وعلماء المصريات يرجحون الآن الرأى القائل بحـدوث هذه الوحدة الأولى فى عصور ما قبـل التاريخ ، وذلك بعد دراسات مستفيضـة لكثير من النقـوش والصور التى تعـود إلى ذلك العصر السحيق فى القـدم . . وبعـد دراسة رمـوز وشعـارات وآلهة الأقـاليم المصريـة فى كل من الـوجهين البحرى والقبلى قبـل أن يتحدا ، والتى ظل كثير منهـا قائماً بعـد أن استقرت « الـوحدة الخالدة » بين الوجهين فى العصور التاريخية .

● كما استند العلماء أيضا إلى ما تضمنته أسطورة « إيزيس وأوزيريس » ـ وهى أقدم أسطـورة فى العالم ــ وقـد ذكـرت بها بعض تفـاصيل الأحـداث التى وقعت فى مصر فى عصور ما قبل التاريخ . وتقول هذه الأسطورة أن « حورس » وهو الإله الرئيسى لمملكة الوجه البحـرى خرج بجيشه وأنصاره لمحـاربة عمه « ست » وهو الإله الـرئيسى لمملكة الوجه القبلى ، وانتصر عليـه فى النهاية ، وأصبح أول من تولى عـرش مصر الموحدة من البشر المؤهلين .

● واستندوا كذلـك إلى ما تضمنته « متون الأهرام » ــ وهى نصوص كتبت فى عصر الأسرة الخامسة أى بعد قيـام هذه الوحدة الأولى بأكثر من ألـف وخمسمائة سنة ـ حيث

ذكرت فى تلك المتون إشارات إلى أحـداث أسطورية ، ربما تكـون قد حـدثت واقعيًا فى مصر فى عصورها وأزمانها الغارقة فى القدم . ويفهم من بعض هذه الإشارات أن مصر، بوجهيهـا القبلى والبحرى ، كانت قد تـوحدت فى مملكة واحـدة يحكمها « رع » . . ثم تعرضت هـذه الوحدة إلى أحـداث واختلافـات دينية أدت إلى انفصامهـا ، حتى أعيد توحيـد الوجهين مـرة أخرى فى مملكة واحـدة فى بداية عصر الأسرات سنـة ٣٢٠٠ قبل الميلاد .

● ويجمع هؤلاء المؤرخون على أن المملكة المصرية الموحـدة فى عصور ما قبل التاريخ اتخذت عاصمة جديدة ، بدلاً من « بوتو » عاصمة الوجه البحرى و « نخب » عاصمة الوجـه القبلى . وتقع هذه العاصمـة الجديدة بـالقرب من مفرق دلتـا النيل لكى يتم لها الاشراف على شئون الوجهين من مكـان مناسب قريب لكل منهما . وكـان هذا المكان هو مدينة « أون » التى تقع فى منطقة عين شمس والمطرية حاليًا .

● كانت مدينـة « أون » منذ أقدم عصور ما قبل التاريخ تمثل المركـز الرئيسى لعبادة الإله « رع » الذى يرمز إلى الشمس . . ولعل هذا هو السبب فى تسميتها « هليوبوليس» أى مدينة الشمس فى العصر اليونانى الرومانى . . كما سميت « عين شمس » فى العصر الاسلامى، وهو الاسم الذى ظل مستخدمًا حتى الآن .

● وبعد قيام الوحدة الأولى بين الوجهين البحرى والقبلى فى عصر ما قبل التاريخ ، اتخذت المدينـة شعارًا لها يتمثل فى قـرص الشمس يحيط بـه جنـاحان منشـوران ، يمثل الجناح الأول الوجه البحـرى ويمثل الجناح الثانى الوجه القبلى . وهـذا الشعار بالذات أصبح رمزًا فـرعونيا دائمًا ظل مستخدمًـا على مدى أكثر من أربعة آلاف سنـة استغرقتها العصور التاريخية القديمة فى مصر .

● غير أن هذه الوحدة المصرية الأولى التى حدثت فى عصر ما قبل التاريخ لم تصمد إلى الدوام طويلا ، ولحقت بها عوامل التفكك والانحـلال نتيجة للثورات العديدة التى قـام بها أهـالى وكهـان وحكـام أقـاليم الـوجـه القبلى ، للتخلص من الهيمنـة الـدينيـة والسياسية التى فرضها الوجه البحـرى على مقدراتهم وعقائدهم الدينية . . فقد كانت

هناك عدة مراكز دينية فى كثير من مناطق الوجه القبلى ، أهمها ما كان فى مدينة « نخن » [الكوم الأحمر حاليا] التى كانت العاصمة الـدينية لمملكة الوجه القبلى . . ومركز دينى آخـر فى « نقـادة » و « البـلاص » بمحـافظـة قنـا . . ومـركـز هـام ثـالث فى مـدينـة «الأشمونين» بمحافظة المنيا .

● وكانت هـذه المراكز الدينيـة تعتنق أفكاراً وعقـائد ونظرات دينية تختلف مبـادئها الأساسية عن مبادىء وأساسيات ديانة عبادة الإله « رع » الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ظهور تيـارات التعصب الدينـى الذى أدى بدوره إلى تفكـك الوحدة ، وعـودة مملكتى الوجه القبلى والوجه البحرى إلى الاستقلال مرة أخرى .



عين شمس .. عاصمة مصر الأولى !

كان اسمها فى اللغة المصرية القديمة « أونو » كما ينطق أيضا « أيونو » . ثم ورد ذكرها فى التوراة والانجيل باسم « أون » وهو الاسم الذى استقرت عليه اللغة القبطية . . وفى العصر اليونانى الرومانى أطلقوا عليها اسم « هليوبوليس » أى مدينة الشمس . . وبعد الفتح العربى سميت باسم « عين شمس » [ويلاحظ التقارب بين نطق كلمتى عين وأون] .

● وقد ارتبط اسمها بالشمس لأنها كانت مركزاً لعبادة الإله « رع » إله الشمس . . وهى العبادة التى كان لها أكبر الأثر فى الفكر العقائدى والفكر السياسى فى جميع العصور التاريخية القديمة بمصر . وبالرغم من أن هذه العبادة ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ ، إلا أنها أخذت تكتسب أهميتها بين العبادات المصرية القديمة منذ أن اتخذت « أون » عاصمة للوحدة المصرية الأولى بين الوجهين البحرى والقبلى ، ثم ازدادت أهميتها فى عصر الأسرة الرابعة [٢٥٧٠ ــ ٢٤٨٠ ق م] حين أصبح الملوك يسندون شرعية حكمهم إلى الادعاء بأنهم أبناء « رع » . . وظهر اسم « رع » مقرونًا بأسمائهم مثل « خفرع » و « منكاورع » . وبلغت ديانة « رع » ذروتها فى عصر الأسرة الخامسة [٢٤٨٠ ـ ٢٣٤٠ ق م] .

● وتدل شواهد أثرية عديدة على أن ضفاف وروابى النيل عند حافة الصحراء الشرقية وبالقرب من مفرق الدلتا ، كانت من المناطق العامرة خلال عصر ما قبل التاريخ . وكان مفرق الدلتا فى تلك العصور يقع جنوب مفرقها الحالى بمنطقة القناطر الخيرية . وعثر على آثار كثيرة يرجع زمانها إلى تلك العصور فى الشريط العمرانى القديم الممتد من منطقة المطرية وتل الحصن وعرب الحصن وأرض النعام وعين شمس حتى منطقة صحراء العباسية والممتدة جنوبا حتى منطقة المعادى وطرة وحلوان . وتدل جميع

تلك الآثار الغارقة فى القدم والتى عثر عليها فى تلك المناطق على أن المصريين الأوائل الذين عاشوا فيها خلال عصور ما قبل التاريخ كانوا ذوى حضارة متميزة ، بل ويقول بعض المؤرخين أنهم كانوا على علاقة بالشعوب الأجنبية فى مناطق فلسطين وشمالها .

● وكانت منطقة « أون » ــ حتى من قبل أن تتخذ أول عاصمة لمصر الموحدة مركزاً لعبادة الإله « رع » إله الشمس ، كما كانت أيضا مركزا علميًا للحكمة والفسلفة والفلك وتنظير العقائد الدينية ، ومنها خرجت أول رؤية فلسفية لأقدم مذهب دينى لتفسير نشأة الوجود وخلق السموات والأرض والانسان .

● وقد تأثر الفلاسفة اليونانيون الأوائل فى القرن الخامس قبل الميلاد ـ أى بعد مرور أكثر من ٣٥٠٠ سنة ـ بتلك الرؤية الفلسفية المصرية لنشأة الوجود وخلق العالم ، وأخذوا بها أو ببعض جوانبها ومبادئها فى وضع أقدم الأسس الأولى للفلسفة اليونانية .

● وتقول النظرية المصرية انه فى البدء كان خضم المحيط الأزلى « نون » وانبثق منه الإله « أتوم » الذى خلق نفسه بنفسه ثم خلق كل شىء بدءاً بالسموات والأرض . ومن الغريب أن اسم « أتوم » هذا قد أطلق فى اللغات الأجنبية على « الذرة » وهى أصل كل شىء . . وكان اسمه فى اللغة الأجنبية المصرية القديمة ينطق بكلمة « تم » [ومعناها التمام أو الكمال أو الاكتمال ـ كما أن معناها فى اللغة العربية اكتمل] . أما كلمة « أتوم » فهى تصحيف للاسم المصرى القديم . وتقول النظرية أيضاً أن « أتوم » هو أصل الجنس البشرى ، ويشير بعض العلماء المفسرين إلى التقارب بين كلمتى « أتوم » و «آدم» .

● ولم تفقد مدينة « أون » [عين شمس] أهميتها العلمية بعد أن زالت أهميتها السياسية كأول عاصمة لمصر الموحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، وبعد أن تفككت هذه الوحدة وعادت مملكة الوجه البحرى إلى عاصمتها « بوتو » [تل الفراعين حاليًا] وعادت مملكة الوجه القبلى إلى عاصمتها القديمة فى المدينتين المتقابلتين على ضفتى النيل « نخب » و « نخن » [الكاب والكوم الأحمر حاليًا] . . وظلت المدينة محتفظة بدورها العلمى والحضارى طوال العصور التاريخية التى مرت على مصر على مدى آلاف السنين حتى العصر اليونانى الرومانى حين أطلق عليها اسم « هليوبوليس » .

أمجاد مصرية .. فى عين شمس القديمة

ذكرنا أن مدينة أون [عين شمس حاليا] كانت أول عاصمة اتخذتها مصر الموحدة فى عصور ما قبل التاريخ ، وأشرنا إلى أنها كانت تتبوأ مركزاً دينياً رفيعاً ، كما كانت مركزاً تعليمياً للحكمة والفلسفة والفلك وتنظير العقائد الدينية .

● وظلت هذه المدينة محتفظة بتلك المكانة العالية بين المدن المصرية طوال حقبات التاريخ القديم بأكملها . وبالرغم من قلة الآثار التى عثر عليها أو تم اكتشافها فى منطقة « عين شمس » إلا أن باستطاعتنا أن نستكمل المعلومات عن هذه المدينة العظيمة مما ورد فى التسجيلات المكتوبة على الآثار التى تركها ملوك وفراعنة مصر فى العصور التاريخية المختلفة ، أو بالمعلومات التى ذكرها عديد من المؤرخين القدماء من الأجانب والعرب .

● تدل المدونات الهيروجليفية القديمة على أن « كبير كهنة مدينة أون » كان لقباً يدل على مكانة رفيعة على أعلى مستوى دينى ودنيوى ، فقد لقب به الوزير «إيمحوتب » وزير الملك « زوسر » [حوالى عام ٢٩٨٠ ق م] ، وهو أول معمارى عبقرى فى تاريخ الحضارة الانسانية ، وهو الطبيب العظيم الذى اعتبره القدماء ــ من المصريين والأجانب ــ إلهاً للطب ، وهو المهندس الذى أشرف على تصميم وبناء الهرم المدرج بسقارة الذى يعتبر أول بناء حجرى بهذه الضخامة فى تاريخ الانسان على الأرض .

● كان المصريون القدماء يلقبون كبير كهنة أون بألقاب « كبير العرافين الفلكيين » و « الرائى الأعظم » و « الناظر إلى السماء » وذلك باعتباره على رأس الفلكيين الذين كانوا يرصدون مسارات النجوم فى السماء ويضبطون التقويم لقياس الزمن وحساب السنوات والشهور والأيام .

● ومن الثابت تاريخياً أن ملوك الأسرة الخامسة المعروفين باسم « ملوك الشمس » هم الذين جعلوا عبادة الشمس « رع » ديانة رسمية للدولة المصرية . وتدل الشواهد الأثرية على أن الملك « أوسر ـ كاف » أول ملـوك هذه الأسرة كان كبير كهنة مـدينة أون ، وتولى عرش مصر بعـد الملكة « خنت كاوس » وكـانت آخر من حكـم مصر من ملوك الأسرة الرابعة .

● وتدل بعض المدونات الأثرية أيضاً على أن مدينة أون كانت مركز القضاء والقانون فى مصر القديمـة . وكان بها قصر عظيم يعيش فيـه صاحب أكبر منصـب قضائى فى البلاد ، وكان اسمه « قصر القاضى » . كما كان بها قصر آخر يسمى « القصر الكبير » كان يعيش فيه حاكم الإقليم أو ينـزل به الفرعون عندما يقوم بزيـارة المنطقة ، بالاضافة إلى عدد كبير من قصـور النبلاء وعلية القوم ، وإلى مجمـوعة كبيرة من المعابـد الضخمة وبيـوت الأهالى ، والجبـانات والمدافـن ، خصوصـاً فى منطقة تل الحصـن بالقـرب من المطرية . ويقول علماء الآثار أن هناك آثارًا كثيرة مـازالت مدفونة تحت المبانى والمنشآت الحديثة وبيوت الأهالى فى منطقتى عين شمس والمطرية وما حولهما .

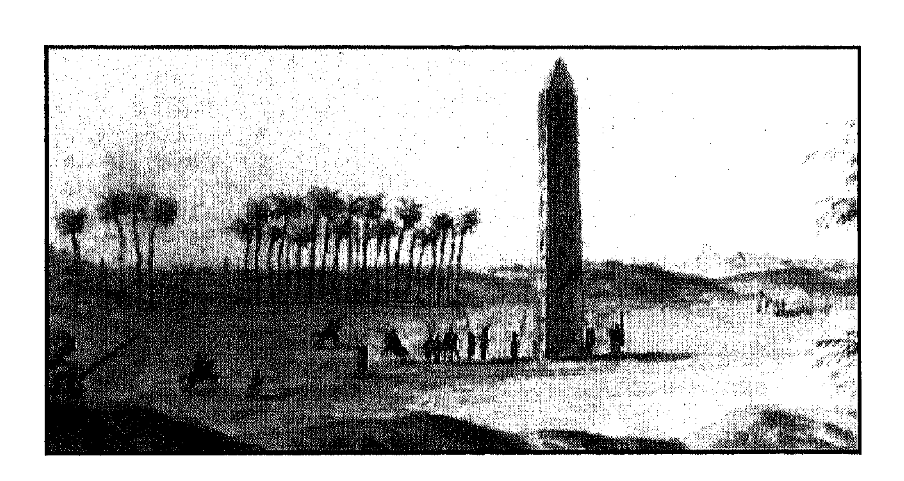
● كما أن آثاراً كثيرة قد نهبت فى عصر قياصرة روما الذين حكموا مصر خلال العصر الرومـانى ، خصوصاً بـالنسبة للمسلات التى كـانت مقامة فى سـاحات المعابـد وعند مداخلها . كما نهبت معظم المقـابر بكل ما كانت تحتويه من كنـوز وقطع أثرية . وتدل الشواهد على أن بقايا جدران المعابـد والقصور القديمة فى منطقتى عين شمس والمطرية قـد استخدمهـا الأهالى كمحجـر لتوريـد القطع الحجـرية التى استخـدمت فى مبـانى ومنشآت مدينة القاهرة الفاطمية عند بداية انشائها فى القرن العاشر الميلادى .

● وللأسف الشديـد فقد زالت جميع هذه الآثار العظيمة وانـدثرت ـ أو دفنت تحت الأرض كما يقول بعض علماء الآثار ـ ولم يعد باقياً منها سوى « مسلة عين شمس » وهى إحدى المسلات العديدة التى أقامها ملوك وفراعنة الدولتين الوسطى والحديثة فى تاريخ مصر القديم . وهـذه المسلة الباقيـة حتى الآن بناها الملك « سنـوسرت الأول » وهو من ملـوك الأسرة الثـانيـة عشرة فى القـرن العشرين قبل الميـلاد . وهـى قطعـة واحـدة من

الجرانيت الوردى ترتفع نحو ٢٠,٤ متراً ، ويبلغ وزنها نحو ١٢١ طنًا .

● ومن الآثار ذات الطابع الدينى التى مازالت قائمة حتى الآن « شجرة مريم » وهى الشجرة التى يقال أن العذراء مريم قد استظلت بظلها حين وصلت إلى مصر ومعها السيد المسيح عليه السلام حين كان طفلاً ، بالاضافة إلى « البئر المبارك » الذى حفره المسيح عليه السلام بيديه المباركتين حين ذهبت أمه العذراء مريم للبحث عن ماء .

● ومن هذا النبع المبارك شرب المسيح والعذراء ، وقامت العذراء بغسل ثياب المسيح وألقت ماء الغسيل على الأرض فنبت فيها نبات البلسم المعروف باسم « شجر البلسان » وكان زيته العطرى يستخدم فى تكريس ماء التعميد وتدشين الكنائس وعلاج كثير من الأمراض والحروق والبواسير . ويقول بعض المؤرخين العرب أن هذا النبات لا تصلح زراعته إلا فى هذه المنطقة من أرض مصر ولا ينبت فى أية جهة أخرى ، وأن سلاطين المماليك كانوا يهتمون بزراعته ويصدرون زيته أو يهدونه لملوك الفرنج وبطريرك الأقباط .



رسم بالألوان المائية يرجع تاريخه إلى عام ١٨٠٠ م من أعمال الفنان الألمانى « لويجى ماير » للمسلة المصرية ، وهى إحدى بقايا آثار عين شمس [مدينة أون القديمة] .

عين شمس ..وأقدم تقويم شمسى فى العالم !

حرصت المجتمعات الانسانية فى عصور ما قبل التاريخ على معرفة كيفية حساب الزمن . واهتدت تلك المجتمعات بصفة عامة إلى اتخاذ القمر وسيلة لهذا الحساب ، فالقمر يمر بدورة منتظمة من الممكن تتبعها بسهولة ، فهو يبدأ هلالاً ويظل يكبر حتى يكتمل بدراً ، ثم يأخذ فى التناقص حتى يدخل المحاق ويختفى ، ثم يعود إلى الظهور فى شكل هلال جديد .

● وهكذا بدأ المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ يعتمدون على القمر فى تحديد بداية ونهاية الشهر القمرى الذى جعلوه وحدة لحساب الزمن .

● وبالنظر إلى أن حياة المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ كانت مرتبطة تمامًا بالزراعة والدورة الزراعية ، فقد لاحظوا أن الشهور القمرية مختلفة الطول ما بين ٢٩ ؛ ٣٠ يومًا ، وبالتالى فهى ليست دقيقة ولا تصلح إطلاقا فى تحديد الدورة الزراعية ولا ضبط مواعيد مواسم الزراعة من فيضان وحرث وبذار وحصاد .

● وقد ذكرنا من قبل أن مدينة « أون » [عين شمس] كانت عاصمة مصر الأولى فى عصور ما قبل التاريخ ، وكان كهنتها مشهورين برصد الشمس والنجوم مع تدوين نتائج الرصد بصفة منتظمة ، ولذلك فمن المقطوع به بصفة نهائية أن كهنة وعلماء عين شمس هم الذين وضعوا ـ فى عصور ما قبل التاريخ ـ أول وأدق « تقويم شمسى » فى العالم .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن المصريين الأوائل والمصريين القدماء كانوا على معرفة تامة برصد النجم « سوتيس » المعروف باسم « الشِّعْرَى اليمانية » . . واهتموا برصد ظاهرة اقتران شروق هذا النجم بشروق الشمس كل سنة . . وبدأوا حساب

السنين عندما حدث هذا الاقتران فى أول شهر « توت » . . وهو اليوم الذى حددوه كأول يوم لبداية السنة المصرية .

● وهكذا ابتدع هؤلاء الفلكيون المصريون الأوائل فكرة حساب السنين ، على أساس ان السنة تتكون من ٣٦٥ يومًا ، مقسمة إلى ١٢ شهراً متساويًا ، ويتكون كل شهر من ٣٠ يومًا ، وجعلوا الأيام الخمسة الأخيرة أيام أعياد قومية وشعبية يبدأ بعدها عام جديد .

●وقسموا السنة الشمسية المصرية إلى ثلاثة فصول تتناسب مع الدورة الزراعية ، وهى فصول الفيضان والشتاء والصيف . . ويتكون كل فصل من أربعة شهور . . كما قسموا كل شهر إلى ثلاثة أقسام متساوية يتكون كل قسم منها من ١٠ أيام « أعشور » . . وتتميز هذه الأقسام بأنها مضبوطة ومتساوية ، ولا يتعدى القسم الأخير منها على الشهر التالى ، مثلما يحدث فى الأخذ بنظام الأسابيع حيث يتكون كل أسبوع من ٧ أيام ، وقد تتداخل هذه الأسابيع فى الشهور ، فتبدأ أيام الأسبوع الأخير فى شهر ، وتنتهى فى الشهر التالى كما يحدث حاليًا .

● وابتدع هؤلاء الفلكيون المصريون الأوائل أيضا فكرة تقسيم اليوم إلى ٢٤ ساعة متساوية تبدأ من منتصف الليل إلى منتصف الليل الذى يليه . وقسموا هذه الساعات إلى قسمين : ١٢ ساعة لليل و ١٢ ساعة للنهار .

● ولكن بالنظر إلى أن فترة السنة بالقياس الزمنى الفلكى تساوى ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، فقد كان لابد من إضافة يوم سادس إلى أيام الأعياد الخمسة كل أربعة أعوام . وذلك حتى ينتظم رصد اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس . وقد لاحظ الفلكيون المصريون الأوائل أن هذا التقويم الشمسى الذى ابتدعوه يعدل نفسه بنفسه كل ١٤٦١ سنة .

● وبدراسة وتحليل المدونات الأثرية والإرصادات المكتوبة فى البرديات أو على جدران المعابد القديمة ، تمكن علماء الآثار والفلكيون المحدثون من تتبع حدوث ظاهرة اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس فى أول شهر توت مع ظهور أول تباشير

فيضان النيل بمنطقة أسوان ، وحددوا تاريخ حدوث هذه الظاهرة لأول مرة فى التقويم الميلادى المعمـول به حـاليًا وذلك فى سنـة ١٣٩ ميلاديـة . وبذلـك أصبح من السهل عليهم تحديـد التاريخ الـذى ابتكر فيه المصريـون الأوائل فكرة التقـويم الشمسى على أساس تكـرار حدوث هذه الظـاهرة فى عـام ١٣٢١ ق م ، وفى عام ٢٧٨١ ق م ، وفى عام ٤٢٤١ ق م . . وهـو العام الذى حـدده العلماء لبداية التقـويم الشمسى المصرى . . بينما يقول علماء آخرون أن هذا التقويم المصرى بـدأ عام « ٥٧٠١ قبل الميلاد » وهو أول تقويم شمسى عرفه الانسان .



أداة لقياس ومراقبة تتبع مسار النجوم والكواكب مصنوعة من جريد النخيل .

مصر علمت العالم حساب الأيام والسنين !

فى عصور ما قبل التاريخ ، وبعد أن ابتدع كهنة عين شمس التقويم الشمسى ، وقسموا السنة إلى ٣٦٥ يومًا ، بواقع ١٢ شهراً يتكون كل شهر من ٣٠ يومًا مع اضافة خمسة أيام أعياد بعد نهاية الشهر الثانى عشر وقبل بداية السنة الجديدة ، انتظمت مواعيد المواسم الزراعية ، ولكن إلى حين .

● ولأن السنة الشمسية طبقا للحساب الفلكى الدقيق تتكون من ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، فلم يعد اقتران شروق الشِّعْرَى اليمانية وشروق الشمس يحدث مع بداية تباشير الفيضان فى أول شهر توت . وذلك بسبب حدوث فارق قدره يوم واحد كل ٤ سنوات ، وحدوث فارق ١٠ أيام كل ٤٠ سنة ، و٣٠ يومًا كل ١٢٠ سنة وهكذا . . وبطبيعة الحال فإن هذه الفوارق تؤدى حتمًا إلى اختلال حساب تواريخ الدورة الزراعية . ومع ذلك فقد كان هذا التقويم الشمسى المصرى يصحح نفسه بنفسه كلما مرت ١٤٦١ سنة فيعود اقتران شروق الشعرى اليمانية وشروق الشمس مع وصول تباشير الفيضان إلى اسوان فى أول شهر توت .

● ويؤكد علماء الآثار المصرية والفلكيون المحدثون أن الكهنة المصريين ورجال الحكومة والدولة القدماء كانوا يعدلون التقويم الشمسى المصرى ويصححونه بطريقة تزيل هذا الاختلال فى حساب التواريخ . ومعنى ذلك أنهم كانوا يدركون أن السنة الشمسية الدقيقة تساوى ٣٦٥ يومًا وربع يوم ، فيعدلون حساب السنين على هذا الأساس .

●غير أن المصريين الأوائل الذين ابتدعوا هذا التقويم الشمسى فى عصور ما قبل التاريخ لم يجعلوا للسنين أرقامًا مسلسلة ـ كما هو حادث الآن فى التقويم الميلادى ـ بل

كانوا يحددون التواريخ بطريقة أخرى ، فيقولون مثلا « حدث فى السنة التاسعة فى الشهر الثانى من فصل الفيضان فى اليوم الرابع والعشرين من حكم الملك / فلان . . » .

● وبالرغم من هذه الصعوبة فى تحديد التواريخ وتسلسل السنين ، فقد تمكن علماء الآثار والفلكيون المحدثون من حساب سنوات التاريخ المصرى القديم بطريقة حسابية فى غاية السهولة ، وذلك اعتمادًا على ما دونه المصريون القدماء من تسجيلات كثيرة جدا لارصاداتهم لظاهرة اقتران شروق الشعرى اليمانية بشروق الشمس . وعلى سبيل المثال إذا دون القدماء هذا التاريخ مقرونًا برصدهم للشعرى اليمانية بأن يذكروا أن شروق هذا النجم اقترن بشروق الشمس فى اليوم السادس عشر من شهر برموده [أى ليس فى أول شهر توت] فيمكن عندئذ اجراء الحسابات الفلكية بطريقة فى غاية اليسر تؤدى إلى تحديد تاريخ هذا الحدث فى إحدى السنوات الأربع الواقعة بين سنتى ١٨٨٢ ـ ١٨٧٩ قبل الميلاد .

● ويقول « برستيد » أن التقويم الشمسى الذى ابتدعه المصريون الأوائل فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، ظل مستخدمًا لفترة تزيد عن ٦٠٠٠ سنة حتى الآن ، وهذا التقويم المصرى هو الأساس الذى يقوم عليه التقويم الميلادى المستعمل الآن فى جميع أنحاء العالم .

● وأدخلت على التقويم المصرى بعض التعديلات والتصحيحات الطفيفة جدا على مدى آلاف السنين منذ أن وضعت قواعده وحتى الآن . . ففى سنة ٢٣٨ قبل الميلاد ، ومن مدينة الاسكندرية عاصمة مصر فى ذلك الزمن ، أصدر « بطلميوس الثالث » أمراً ملكيا يسمى « الأمر الكانوبى » قرر فيه إضافة يوم كل أربع سنوات إلى أيام الأعياد الخمسة فى نهاية السنة المصرية . وفى ذلك العصر أيضا توصل العلماء المصريون القدماء إلى فكرة تقسيم « الساعة » إلى ٦٠ دقيقة . ويلاحظ أن التعديل الذى قرره « بطلميوس الثالث » ليس جديداً ولم يكن تعديلاً بالمعنى المفهوم ، لأنه كان

مجرد تنفيذ لعرف قديم حين كان الكهنة المصريون يعدلون التقويم فى الأزمان القديمة ولكن بطرق مختلفة .

● وحين حضر « يوليوس قيصر » إلى مصر سنة ٤٧ قبل الميلاد ، أعجب بدقة التقويم الشمسى المصرى ، وحين عاد إلى روما - التى كانت تستعمل التقويم القمرى - أمر بتغيير هذا التقويم ، واتباع التقويم المصرى بكافة قواعده ، مع فكرة إضافة يوم سادس إلى الأيام الـ ٣٦٠ كل أربع سنوات . وفى روما سميت السنوات الثلاث الأولى سنوات بسيطة وسميت السنة الرابعة سنة كبيسة . . وسمى هذا التقويم الرومانى باسم « التقويم اليوليانى » .

● وظل التقويم الشمسى المصرى معمولاً فى كافة أنحاء أوربا خلال العصور الوسطى ، وأخذ به العالم الفلكى الشهير « كوبرنيكوس » .

● وبالنظر إلى أن الحسابات الفلكية الدقيقة تدل على أن الدوران السنوى لكوكب الأرض حول الشمس يستغرق بالضبط ٣٦٥ يوما + ٥ ساعات + ٤٨ دقيقة + ٤٦ ثانية . . أى أن فارق الربع يوم لم يكن ست ساعات بالضبط ، وانما تنقصة ١١ دقيقة و ١٤ ثانية . وقد تراكمت هذه الدقائق والثوانى حتى سنة ١٥٨٢ ميلادية ، وأدى ذلك إلى حدوث « الاعتدال الربيعى » فى ١١ مارس بدلاً من ٢١ مارس . ولذلك فقد أصدر البابا « جريجورى الثالث عشر » بابا روما قراراً بتصحيح هذا الفارق ، وأعلن أن السنين التى تقبل القسمة على « ٤ » تعتبر كبيسة ، وجعل بداية كل عام فى أول يناير . وهذا «التقويم الجريجورى » هو نفسه التقويم الميلادى المستعمل حاليًا مستمدًا قواعده من التقويم المصرى القديم الذى ابتدعه كهنة عين شمس منذ أكثر من ٦٠٠٠ سنة .



التقويم القبطى عمره الحقيقى ٦٣٠٠ سنة !

حين وضع كهنة وعلماء عين شمس أسس وقواعد التقويم الشمسى المصرى فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد ، وضعوا فى الاعتبار المواءمة بين تقسيم أيام وشهور هذا التقويم وتقسيم مراحل الدورة الزراعية بدءاً من غمر الأرض بمياه الفيضان ثم الحرث والبذار والحصاد . وهكذا ارتبط التقويم الشمسى المصرى فى ذهن المصريين بأحوال الزراعة ومراحلها .

● وذاق الشعب المصرى الأمرين حين وقعت مصر تحت حكم الرومان وتعرضت البلاد إلى غطرسة وُلاتهم وجنود وضباط جيوشهم . وفى عهد الامبراطور الرومانى «دقلديانوس » [بين عامى ٢٨٤ ــ ٣٠٥ الميلاديين] تعرض المسيحيون المصريون إلى عمليات وحشية من الاضطهاد والتقتيل ، خصوصاً فى سنة ٣٠٣ ميلادية وما بعدها . ولذلك فقد أطلق المسيحيون المصريون اسم « عصر الشهداء » على فترة حكم هذا الامبراطور الظالم المستبد .

● واعتبارًا من بداية عصر الشهداء فى عام ٢٨٤ م ، بدأت الكنيسة المصرية عصرها ، وبدأت فى تطويع التقويم الشمسى المصرى للدخول إلى مرحلة جديدة سميت « التقويم القبطى » .

● وتبدأ السنة القبطية فى ١١ سبتمبر أو ١٢ سبتمبر [فى كل عام يسبق السنة الكبيسة فى التقويم الميلادى الحالى] . والتقويم القبطى ملتزم حرفيا بقواعد التقويم الشمسى المصرى القديم الذى وضع المصريون الأوائل أسسه فى القرن الثالث والأربعين قبل الميلاد . وهو التقويم الذى يتبع الدورة الزراعية فى مصر .

● ومن المعروف تاريخيًا أن المصريين القدماء أطلقوا أسماء محددة على الشهور بدلاً من الأرقام ، وذلك فى عصر الأسرة السادسة والعشرين [٦٦٤ ـ ٥٢٥ قبل الميلاد] .

وقد احتفظ التقويم القبطى بأقرب منطوق لأسماء الشهور المصرية القديمة طبقا لقواعد النطق فى اللغة القبطية . كما ابتكر الفلاحون المصريون فى العصور اللاحقة أمثالاً شعبية ترتبط بكل شهر من هذه الشهور . وقد سميت هذه الشهور كما يلى :

● الشهر الأول « توت » ويقع فى شهرى سبتمبر واكتوبر الميلاديين . وترجع تسميته إلى الإله « تحوت » إله الحكمة والمعرفة والعلوم ، ويرمز إليه بالطائر المقدس «أبو منجل » الذى تظهر أسرابه فى أول السنة الزراعية ويتخذه الفلاحون بشيراً ببدء الزراعة . ويرتبط به مثل شعبى يقول « توت . . الكتكوت يأكل ويموت » وذلك لحدوث « شوطة » أو « فرة » تصيب الدواجن فى هذا الشهر بشكل وبائى ، فكان من اللازم تحذير المصريين بضرورة العناية بالدواجن التى يربونها وتوفير العلاج اللازم إذا مرضت .

● الشهر الثانى « بابه » ويقع فى شهرى اكتوبر ونوفمبر . وترجع تسميته إلى شهر «آبه » أو شهر عيد « أوبت » الذى كان يجرى الاحتفال به فى طيبة / الأقصر تمجيدًا للإله آمون . ويرتبط به مثل شعبى يقول « بابه . . خش واقفل البوابه » . . ففى هذا الشهر يكون الفلاحون قد انتهوا من الحصاد وتصبح المخازن مملوءة بالحبوب ، فكان من اللازم تحذيرهم بضرورة غلق أبواب المخزن أو « الشونة » خوفًا على الحبوب المخزونة من اللصوص أو المعتدين .

● الشهر الثالث « هاتور » ويقع فى شهرى نوفمبر وديسمبر . وترجع تسميته إلى الإلهة « حتحور » إلهة الحب والخصب والجمال والرقص والموسيقى . ويرتبط به مثل شعبى يقول « هاتور . . أبو الدهب المنثور » وفيه يكتمل نضج حبوب الذرة التى تبدو كالذهب المنثور .

● الشهر الرابع « كهيك / أو كياك » ويقع فى شهرى ديسمبر ويناير . وترجع تسميته إلى الاسم المصرى القديم « كاها كا » ومعناه اجتماع أو تآلف الأرواح ، حيث أن كلمة « كا » معناها الروح أو القرين . ويرتبط به مثل شعبى يقول « كياك . . صباحك

مساك تقوم من نومك تحضر عشاك » وذلك للدلالة على قصر طول النهار بالنسبة لطول الليل خلال ذروة فصل الشتاء .

● الشهر الخامس « طوبه » ويقع فى شهرى ينـاير وفبراير . وترجع تسميته إلى كلمة « طوبيا » فى اللغة المصرية القديمة ومعناها الأعلى أو الأسمى ، كما كانت تطلق على إله المطـر . ومن هذه الكلمـة أيضا اشتـق اسم مدينـة طيبة / الأقصر . ويـرتبط بـه مثل شعبى يقـول « طوبـه . . تخلى الصبية كركـوبه » ففى هـذا الشهر يشتـد البرد فتنكمش الأجسام التماساً للدفـء وتبدو الصبية كالمرأة العجـوز . وكان القدماء يحتفلون فيه بعيد القمح ونمو الزراعة الشتوية وبداية توريق الأشجار .

● الشهر السادس «أمشير» ويقع فى شهرى فبراير ومارس . وترجع تسميته إلى اسم الإله « مشير» وهو إله مصرى قديم للريـاح والعواصف . وفيه يشتد هبوب الهواء وتكثر العواصـف . ويرتبط بـه مثلان شعبيـان يقول أولهما « أمشير . . يقـول للزرع سير سير» دلاله على بداية نمو ونضج المزروعات الشتوية . ويقول الثانى « أمشير. . أبو الزعابيب الكتير » حيث تكثر فيه الرياح .

●الشهـر السابـع « برمهـات » ويقع فى شهـرى مـارس وابـريل . وكـان قدمـاء المصريين ينسبونه إلى الفرعون « أمنحتب» . وفيه ينضج الزرع وتنمو المحاصيل والثمار، ويبـدأ فيـه الفلاحـون عمليـة الحصـاد المبكـر . ولذلـك يـرتبط بـه مثل شعبى يقـول «برمهات . . روح الغيط وهات» .

●الشهر الثـامن « برموده» ويقع فى شهرى ابـريل ومايو . وتـرجع تسميته إلى اسم الإلهة « رنـوده » إلهة الحصاد عنـد قـدمـاء المصريين والتى كـانوا يـرمـزون إليهـا بالحيـة المقدسة . ويرتبط به مثل شعبى يقـول «برموده . . دقوا الشعير بالعموده . . ولايبقى فى الغيط ولاعوده» وذلك لأن الفلاحين يكونـون قد انتهوا من جمع وحصاد محصول الشعير وتهيأوا لدقه بالعامود الذى كان يستخدم قديماً فى عملية طحنه .

● الشهر التاسع « بشنس » ويقع فى شهرى مايو ويونيو . وترجع تسميته إلى الإسم المصرى القديم « بن خنسو » أى شهـر الإله خنسو إله القمر . ويـرتبط به مثل شعبى يقول « بشنس . . اكنس البيت كنس » وذلك لأن الفلاحين يكـونون قد تخلصـوا من

المحصول أو تصرفوا فيه ، فمن الواجب عندئذ كنس وتنظيف البيت أو الشونة من بقاياه استعداداً لاستقبال المحصول التالى .

● الشهر العاشر « بؤونه» ويقع فى شهرى يونيو ويوليو. وترجع تسميته إلى اسم «با أونى» أى وادى الحجارة بالقرب من مدينة طيبة / الأقصر. ويرتبط به مثل شعبى يقول « بؤونه الحجر » للدلالة على شدة حرارة الجو التى تؤثر فى الحجر. وكان اليوم الحادى عشر من شهر بؤونه يسمى يوم « نزول النقطة » وتميل فيه مياه النيل إلى الاخضرار مبشرة بأول فصل الفيضان . وهناك اسطورة مصرية قديمة تقول أن « النقطة» هى أول قطرة من الدموع تنزل فى النيل من عينى « إيزيس» حزناً على مصير زوجها الشهيد « أوزيريس» فتبدأ مياه النيل فى الزيادة والفيضان .

● الشهر الحادى عشر « أبيب» ويقع فى شهرى يوليو وأغسطس . وترجع تسميته إلى اسم الإلهة« أبيبى» التى ترمز إلى الفرحة بانتصار الخير على الشر بانتقام « حورس » لأبيه «أوزيريس» من عدوه «ست» . ويرتبط به مثلان شعبيان يقول أولهما « اللى ياكل ملوخية فى أبيب يجيب لبطنه طبيب» وذلك لأن أعواد الملوخية الخضراء المزروعة فى الغيط تكون قصيرة فى هذا الوقت من السنة، ومن ثم تكون مختلطة ببعض الأنواع من الأعشاب الضارة فيتسبب أكلها فى وجع البطن . أما المثل الشعبى الثانى فيقول «أبيب . . طباخ العنب والتين » دلالة على نضج هذه الثمار خلال هذا الشهر .

● الشهر الثانى عشر «مسرى» ويقع فى شهرى أغسطس وسبتمبر . وترجع تسميته إلى « مس رع» بمعنى ابن أو وليد رع إله الشمس . وفيه تزداد حرارة الشمس وتزداد مياه النيل . ويرتبط به مثل شعبى يقول « فى مسرى . . تجرى كل ترعه عسره » وذلك تعبيراً عن الفرحة بامتلاء كل الترع من وفرة مياه الفيضان بعد أن كانت شرقانة أو قليلة المياه . ومن الطريف أن نذكر أن الاسم المصرى القديم للترعة هو « اتروعا » معناه القناة الكبيرة، ومن المؤكد أن الاسم العربى قد اشتق من اللغة المصرية القديمة .

● ومن هذا يتضح لنا كيف ارتبط التقويم القبطى بالتقويم الشمسى المصرى القديم . . ولا غرابة إذن أن نقول أن التقويم القبطى وإن كان قد بدأ سنة ٢٨٤ ميلادية، إلا أن عمره الحقيقى يقترب من ٦٣٠٠ سنة حين وضع كهنة وعلماء « عين شمس » أسس وقواعد أول تقويم شمسى فى تاريخ الانسان على الأرض .

البحرية المصرية فى عصور ما قبل التاريخ

مازلنا نتحدث عن المصريين الأوائل الذين استوطنوا وادى النيل فى الوجهين البحرى والقبلى قبل أن تتوحد مصر فى دولة واحدة ، وأثناء العصور الغارقة فى القدم والتى يطلق عليها العلماء « عصور ما قبل التاريخ » .

● ومن الحقائق المؤكدة تاريخيًا أن النيل من أسباب عمران مصر ومدنيتها وحضارتها . . وهو الذى أتاح للمصريين الأوائل سبل الحياة على ضفافه وقرب شاطئيه فى تجمعات سكانية وقرى وأقاليم متجاورة متقاربة ، تبدو كلها كما لو كانت مدينة واحدة عجيبة الشكل . . مدينة مستطيلة باستطالة مجرى النيل فى واديه الخصيب . . تتلوى مع انحناءات الوادى فى ربوع الصحارى المحيطة بشاطئيه من أقصى الجنوب عند الجندل الأول حتى أقصى الشمال عند سواحل البحر الأخضر العظيم . . وهو الاسم الذى كان يطلقه قدماء المصريين على البحر المتوسط .

● كان النيل هو الشريان الحى الذى يربط بين وجهى مصر من دانيها إلى قاصيها ، ولذلك فقد كان لزامًا على المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن يبتكروا وسيلة لعبور النيل من شاطىء إلى شاطىء ، أو ليرتحلوا على صفحته من الجنوب إلى الشمال أو العكس كلما رأوا لهذا الترحال سبباً .

● وكانت المادة الأولية التى صنع منها المصريون الأوائل تلك الوسيلة هى نبات البردى الذى كان ينبت بكثافة شديدة على شطآن النيل وجزره وأحراشه . هذا النبات العظيم المبارك الذى كانت له أعظم الأفضال على الحضارة المصرية القديمة بأسرها . . فمن أعواده اتخذ المصريون القدماء بيوتًا وسقوفًا ، ومن أليافه جدلوا حبالاً وصنعوا نعالاً . . ومن أوراقه وسيقانه صنعوا أوراقا وصحائف رقاقًا ، كتبوا عليها كل ما كانوا

يعلمونه من علوم الدين والدنيا ، تاريخًا وحسابًا وهندسة وطبًا وفلكًا وأدبًا . . وفضلا عن ذلك كله صنعوا من سيقان هذا النبات وسيلتهم العملية لعبور النهر بين شاطئيه والرحيل بين ضفافه .

● في بداية الأمر صنعوا هذه الوسيلة على شكل رمث أو « طوف » أو على شكل قارب مفلطح ، يبنى من سيقان البردى المجدولة فى بعضها ، أو المحزومة مع بعضها فى شكل حزم قائمة بذاتها ، ثم « تربط » هذه الحزم ببعضها بطريقة تجعلها تأخذ الشكل الانسيابى للمركب المائى المناسب للغرض الذى بنى من أجله ، ويتميز فى الوقت نفسه بخصائص الفن المصرى القديم ، وهو فن له طابع عملى من حيث التصميم الهندسى والشكل العام .

● وقد استخدمت هذه الرموث والأطواف والقوارب والمراكب البدائية المصنوعة من حزم البردى المربوطة ببعضها بالحبال بأعداد كبيرة جدا فى عصور ما قبل التاريخ . . استخدمت كوسيلة عملية مثلى فى الانتقال على صفحة النيل وفى أحراش مستنقعاته . . واستخدمت فى عمليات صيد الأسماك والطيور ، واعتمد عليها الفلاحون والصيادون والرعاة كوسيلة لممارسة حرفهم ومهنهم المختلفة ، كما استخدمت بكثرة كوسيلة لعلية القوم فى ممارسة الرياضة وقضاء الوقت فى نزهات صيد الأسماك والطيور المائية ، وسجلوا ذلك فى آلاف المناظر والنقوش التى زينوا بها جدران مقابرهم .

● كذلك فقد أدرك المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن الخشب أكثر صلاحية من سيقان البردى فى صناعة القوارب والمراكب والسفن ، فخطوا تلك الخطوة الحضارية الجبارة ، وبدأوا فى استخدام الخشب كمادة أولية فى تلك الصناعة .

● وبطبيعة الحال فقد كانت مصر من الأقطار الفقيرة فى الأشجار الضخمة التى تصلح لاستخراج الألواح والقوائم والعوارض اللازمة لصناعة المراكب أو السفن الكبيرة ، ومع ذلك فقد اعتمد المصريون الأوائل فى صناعة ما كانوا يحتاجونه من قوارب ومراكب وسفن خشبية صغيرة ومتوسطة على ما كان متاحًا فى مصر من أخشاب الأشجار المحلية ، مثل أشجار الجميز والسنط واللبخ والصفصاف والتين .

● وهذه الأشجار كلها محدودة النفع فى نجارة السفن وبنائها ، فأخشابها إما خشنة أو جافة قصيرة القطع أو ملتـوية ، وتحتاج إلى كثير من الجهد لتهـذيبها واختيار القطع المناسبة التى يمكن استخدامها ، ولهذا فقد كان لزامًا على المصريين الأوائل أن يستوردوا أنواع الأخشاب الجيدة من الخارج . . فكيف تم لهم ذلك . . ؟ ! .



استخدام القوارب الخفيفة المصنوعة من سيقان البردى فى رياضة صيد الأسماك والطيور فى أحراش النيل .

حين خرج المصريون الأوائل إلى البحر

صنع المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ قواربهم وسفنهم من نبات البردى الذى كان ينمو بكثافة شديدة على ضفاف النيل وفى أحراشه ، واستخدموها فى التنقل بين شاطئى النيل وعلى طول مجراه المصرى .

● وتدل العديد من الشواهد الأثرية على أن هؤلاء المصريين الأوائل قد استخدموا الأخشاب المحلية أيضا فى صناعة بناء السفن الكبيرة والمتوسطة . ولأن مصر تعتبر من البلاد الفقيرة فى الثروة الخشبية فقد كانوا يحتاجون إلى أنواع أخرى من الأخشاب أكثر جودة وملاءمة لصناعة السفن الأكبر حجماً ، حيث يحتاج الأمر إلى استخدام ألواح ضخمة يسهل تجهيزها بعد استخراجها من الأشجار ذات الجذوع الضخمة والسيقان الطويلة المستقيمة حتى يمكن استخدامها فى عمل القوائم والعوارض والصوارى عند بناء وتشييد السفن القادرة على الملاحة فى البحرين الأحمر والمتوسط .

● وتدل هذه الشواهد الأثرية على أن المصريين الأوائل منذ أكثر من ستة آلاف سنة ، استوردوا الأخشاب اللازمة لصناعة تلك السفن من خارج الديار المصرية ، وعلى الأخص من مناطق غرب آسيا فى السواحل اللبنانية والسورية ومناطق آسيا الصغرى .

● وفى ذلك الزمن أيضا ابتدع المصريون الأوائل طريقة بسيطة للتحكم فى « إقامة الصارى » عندما كانوا يحتاجونه لنشر الشراع ، أو « إمالة الصارى » حين كانوا يتحولون من عملية الإبحار بالشراع إلى عملية الإبحار وتسيير السفن بالمجاديف .

● وابتدعوا أيضا جهازاً للتحكم فى توجيه المركب أو السفينة من الخلف . ويتكون هذا الجهاز من « عمود الدفة » الذى كان يقام بمؤخرة المركب ، ويتم تحريك « مجداف الدفة » بواسطة ذراع مربوطة بهذا المجداف ومربوطة أيضا بأعلى عمود الدفة . وهذه

الذراع يمكن تحريكهـا إلى الجانبين يمينًا أو يسـارًا ، بحيث يتم تعـديل طـرف مجداف الدفة لتوجيه المركب أو السفينة حسب المسار المطلوب .

● وفى عصور ما قبل التاريخ أيضا تمكن المصريون الأوائل من بناء المراكب والسفن بكافة أنواعهـا ، النهرية منها والبحرية ، وما صنع منهـا من نبات البردى وما صنع من الأخشاب ، وما يتم تسييرهـا بالمجاديف المتعددة التى تصـل فى بعض الأحيان إلى أكثر من أربعين مجدافـا ، ومـا يتم تسييرهـا باستخـدام الشراع . ويـؤكد المؤرخـون على أن المراكب والسفن ذات الشراع ظهرت فى الحضارة المصرية قبل ظهورها بمئات السنين فى أية حضارة أخرى من حضارات العالم القديم المعاصرة لها أثناء عصور ما قبل التاريخ .

● وبـالرغم مـن أن المصريين معروفـون منذ أقـدم الأزمنة بـأنهم ليسوا من شعـوب البحر، أى من الشعـوب التى تضع البحر فى أقصى اهتمامـاتها ، فقد أثبت كثيرون من المؤرخين وعلماء الآثار أن المصريين الأوائل قـد خرجـوا إلى البحرين الأحمر والمتـوسط فى عصور ما قبل التاريخ . وكان دليلهم فى ذلـك هو العثور على الكثير من القطع الأثرية التى يرجع تـاريخها إلى تلك العصور ، والتى استخـدمت فى صناعتها مـواد أو أحجار شبه كريمة لم يثبت وجودها بمصر ، مثل اللازورد وحجر الأوبسيديان والعاج .

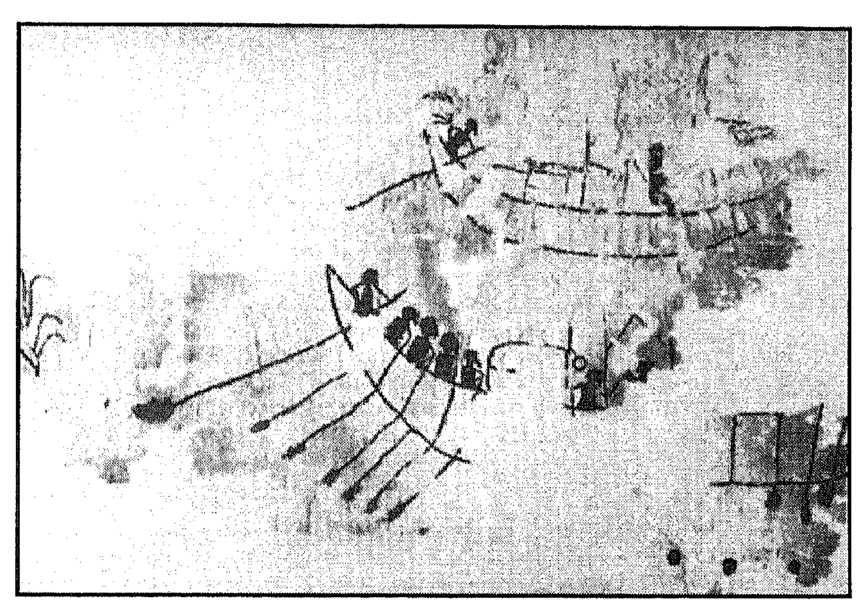
● وأثبتـوا كـذلك أن المصريين الأوائل فى عصر مـا قبل الأسرات [أى قبـل عـام ٣٢٠٠ ق م] قد اهتموا باستيراد الزجاج الطبيعى والأحجار الكريمة وشبه الكريمة من خارج الديار المصرية . . وكانت لهم أيضا علاقات تجارية واسعة مع جزيرة « كريت » وغيرها من جـزر البحر المتوسط والأقطـار المجاورة لمصر ، وهى علاقـات كان لها تأثير بالغ فى الأحوال الاقتصادية والاجتماعية بمصر ، كما كـانت تؤثر أيضا فى أحوال القبائل والشعوب المجاورة .

● ومن آثار عصور ما قبل التاريخ بمصر التى عثر عليها فى كل من الدلتا والصعيد « نماذج » كثيرة لقوارب ومـراكب وسفن مصنوعـة من الفخار . كما تميزت آثـار حضارة عصر ما قبل الأسرات بصفة عامة بالعـديد من مناظر السفن الكبيرة والصغيرة المرسومة بالألوان على أسطح الأوانى الفخارية التى يرجع تاريخها إلى تلك العصور ، أو مرسومة

على جدران بعض المقابـر أو محفورة على صخور الجبال المحيطـة بوادى النيل أو ببعض جبال البحر الأحمر .

● وقد عثر على أثر نادر يرجع تاريخه إلى هذا العصر الغارق فى القدم وهو عبارة عن قطعة من قماش الكتان عثر عليها فى منطقـة الجبلين [بالضفة الغربية للنيل بين أرمنت وإسنا] . . وقـد استغرق تـرميم هذه القطعـة الأثرية النـادرة نحو أربع سنـوات وهى محفوظـة حاليا بمتحف تـورين . . وعلى قطعة القماش هذه رسـم مطرز يمثل سفينتين كبيرتين ، ونرى على كل واحـدة منهما كابينتين وعددًا كبيرًا من المجدفين الـذين يجدفون بمجاديف طويلة .

● ويقـول بعض المؤرخين وعلماء الأجنـاس ان المصريين القـدمـاء قـد استطـاعـوا الإبحار إلى أمريكا على متن سفن مصنوعة من سيقان البردى . . فهل هذا صحيح؟! .



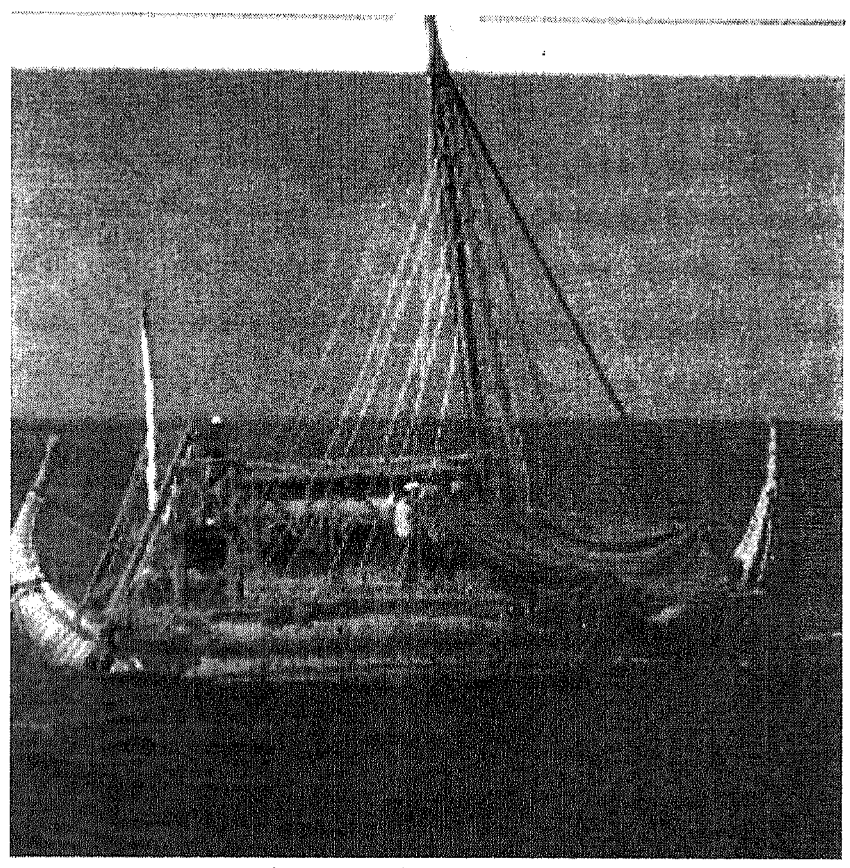
منظر مرسوم على قطعة من قماش الكتان ، يرجع تاريخه إلى عصور ما قبل التاريخ ، يمثل سفينتين بحريتين من السفن ذات المجاديف المتعددة .

هل وصل قدماء المصريين إلى أمريكا .. !

لاحظ بعض علماء الأجناس الذين قاموا بدراسة آثار الحضارات الهندية القديمة فى المكسيك ومناطق أخرى بأمريكا الجنوبية والتى يرجع تاريخها إلى أكثر من ألف سنة قبل الميلاد ، وجود بعض التشابه بين تلك الحضارات والحضارة المصرية القديمة ، خصوصاً من ناحية بناء المعابد الدينية فى شكل معمارى يشبه الأهرام المصرية ، وبالذات فى شكل الهرم المدرج ، بالاضافة إلى بعض التشابه فى فن نحت الحجر والخشب وصناعة الحلى والمجوهرات .

● وبناء على الدراسات التى أجراها بعض هؤلاء العلماء ، ظهر افتراض ـ لم يثبت بشكل قاطع حتى الآن ـ بأن حضارات الهنود الحمر القدماء قد تأثرت بشكل أو بآخر بحضارة قدماء المصريين . ولكن هذا الافتراض العلمى كان يصطدم بمشكلة معرفة الكيفية التى وصل بها المصريون القدماء إلى أمريكا . . وكيف عبروا البحر المتوسط بطوله وعبروا المحيط الأطلنطى بعرضه حتى وصلوا إلى السواحل الأمريكية بالمكسيك ، وهل كانت لديهم سفن تصلح للقيام بتلك الرحلة الطويلة الصعبة . . ؟

● ومن أشهر آثار الهنود الحمر القدماء فى المكسيك معبد على شكل هرم يسمى «هرم الساحر» وهو مبنى على شكل مصاطب متدرجة فى الارتفاع ودرجة الميل ، وهو شكل يختلف عن شكل هرم زوسر المدرج بسقارة فضلاً عن الاختلاف فى الغرض من البناء والاختلاف فى الضخامة . . فالهرم المكسيكى الذى وجدت آثاره فى بقايا مدينة «أوكسمال» القديمة قد بنى فى الأصل ليكون معبدًا ، وكذا الحال بالنسبة لأهرام الهنود الحمر القدماء الأخرى التى بنيت لغرض دينى هو عبادة الشمس . . أما من ناحية الاختلاف فى مدى الضخامة ، فلا يزيد ارتفاع الهرم المكسيكى على ٢٥ متراً ، كما أن



المركب « رع » المصنوع من سيقان البردى والذى حاول به النرويجى « ثور هايردال » عبور الأطلنطى ليثبت أن المصريين القدماء وصلوا إلى أمريكا بمثل هذا المركب .

قاعدته مختلفة عن شكل قواعد الأهرام المصرية ، فهى قاعدة مستطيلة وليست متساوية الأضلاع ، حيث يبلغ طولها ٧٣ متراً وعرضها ٥٥ متراً .

● وثمة نظرية لأحد علماء الأجناس المحدثين ، وهو العالم النرويجى « ثور هايردال » يقول فيها أن الحضارات القديمة اتصلت ببعضها نتيجة لرحلات بحرية قامت بها الشعوب القديمة عبر البحار والمحيطات ، وأن بحار العالم ومحيطاته كانت عاملاً فى الانتشار الحضارى فى الأزمنة القديمة ولم تكن عائقا منيعا أمام هذا الانتشار .

● وبناء على تلك النظرية ، حاول « ثور هايردال » إثبات امكانية وصول قدماء المصريين إلى شواطىء الأمريكتين قبل اكتشاف كل من « أميرجو » و « كريستوفر كولومبس » للأمريكتين بآلاف السنين .

● وفى عام ١٩٦٩ ، قام هذا العالم النرويجى بالابحار على ظهر مركب أطلق عليه اسم « رع » مصنوع من سيقان نبات البردى ـ وهو النبات الذى كان المصريون الأوائل يصنعون منه مراكبهم وسفنهم منذ عصور ما قبل التاريخ .

● واشتركت معه فى تلك المغامرة البحرية مجموعة صغيرة من البحارة ذوى الجنسيات المختلفة وبينهم مصرى . . وحاول هذا العالم عبور المحيط الأطلنطى من المغرب للوصول إلى أمريكا الوسطى على ظهر هذا المركب المصنوع من سيقان البردى .

● وكانت الرحلة شاقة جدًا ، وأوشكت أن تتم لولا تعرض المركب « رع » إلى اعصار عنيف ، فتحطم فى ظروف جوية فى غاية السوء ، على بعد نحو ٦٠٠ ميل من السواحل الأمريكية .

● ومع ذلك فان هذا الفشل فى الوصول إلى السواحل الأمريكية بعد أن قطع المركب « رع » هذه المسافة الطويلة عبر المحيط الأطلنطى لا ينفى من الناحية العلمية نظرية العالم النرويجى « ثور هايردال » فى احتمال وصول قدماء المصريين إلى أمريكا خاصة فى ضوء التشابه بين حضارة الهنود الحمر القدماء فى المكسيك وبعض معالم الحضارة المصرية القديمة .

أول أسطول تجارى فى تاريخ العالم

اصطلح المؤرخون على اطلاق اسم « الدولة القديمة » على حقبة من التاريخ المصرى القديم تبدأ بعصر الأسرة الثالثة سنة ٢٧٨٠ ق م وتنتهى بنهاية عصر الأسرة السادسة سنة ٢٢٨٠ ق م .

● وهناك آلاف من الشواهد الأثرية تدل دلالة قاطعة على أن صناعة بناء السفن فى عصر الدولة القديمة قد بلغت مرحلة عالية من مراحل التطور . ويقول مؤرخون كثيرون أن المصريين القدماء الذين عاشوا فى ذلك العصر قد تفوقوا فى صناعة وبناء السفن النهرية والبحرية بدرجة لم يبلغها أى شعب من شعوب العالم القديم المعاصرين لهم ، بما فى ذلك الشعوب التى توصف بأنها شعوب بحرية تجعل البحر فى أعلى اهتماماتها الحيوية .

● ومما لا شك فيه أن هذا التطور الذى لحق بصناعة السفن الضخمة فى ذلك العصر المبكر من تاريخ مصر القديم ، كان نتيجة مباشرة للتطور الحضارى للشعب المصرى وتطور حاجياته الاجتماعية من دينية ودنيوية .

● فى ذلك العصر أصبح المصريون فى حاجة ماسة إلى بناء سفن كبيرة ضخمة قادرة على القيام برحلات طويلة وشاقة . . فبنوا اعداداً كبيرة من السفن النهرية القادرة على نقل أعداد كبيرة من المسافرين أو العمال ، أو نقل كميات ضخمة من الصخور الجرانيتية من محاجر أسوان إلى بقية الأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى ، أو نقل الأحجار الجيرية [المعروفة حاليا باسم الحجر السلطانى] من محاجر جبل المقطم بطرة وحلوان عبر النيل من ضفته الشرقية إلى ضفته الغربية .

● وفى ذلك العصر أيضا قام المصريون القدماء ببناء سفن بحرية قادرة على مقاومة

هياج البحر وأمواجه وقـادرة على حمل شحنة ضخمة من السلع ، لتمخـر عباب البحر الأحمر ذهـابًا إلى بـلاد بـونت لاستيراد مـا يحتـاجه المجتمـع المصرى من العـاج وخشب الابنوس وجلود الفهـود والنمور وسبائك الذهب والبخـور والدهانات العطـرية والقرود الحية والنسانيس وغير ذلك من محاصيل تلك البلاد الزراعية والحيوانية .

● ومن أقدم الأسـاطيل البحرية التجاريـة التى عرفها تاريخ العـالم القديم ، ذلك الاسطـول البحـرى الضخم الـذى أرسلـه الملك « سنفـرو » إلى شـواطـىء لبنـان لنقل اخشاب الصنـوبر والأرز . وقبل أن نصف هذا الاسطـول لابد أن نعرف شيئـا عن هذا الملك العظيم .

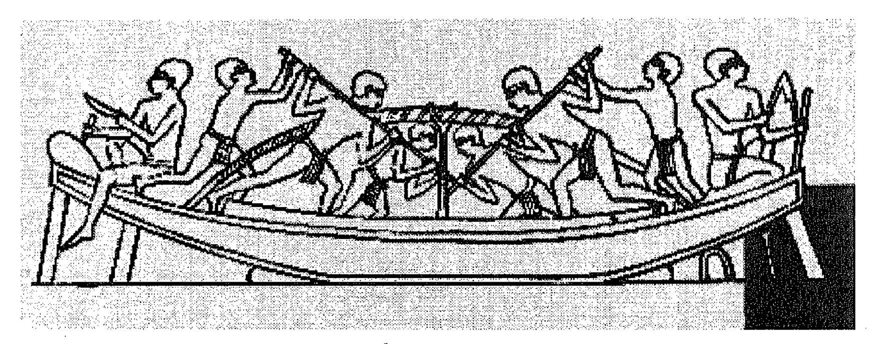
● هو أول ملـوك الأسرة الرابعـة ، ووالد الملك « خـوفو » صـاحب الهرم الأكبر . . وحكم مصر لمدة تزيد على ٢٤ عـامًا . ويربط علماء الآثار المصرية اسـم سنفرو بأربعة أهرام من أهـرام مصر هى : هرم ميدوم وهرمـا دهشور وهرم سيلا بـالفيوم . وفى عصره أجـرى أول إحصاء ثـابت ومعـروف لأعـداد رؤوس الماشية فى الأقـاليم المصريـة ، كما نشطت الصناعـات التعدينيـة خصوصًا فى منـاطق سيناء للحصـول على الفيروز وخام النحـاس . وقد اقتضـى هذا الـرخاء الاقتصـادى تجهيـز القوات العسكـريـة اللازمـة للمحافظة على أمن واستقرار البلاد . وقام بعـدة حملات حربية تأديبية أرسلت إلى بلاد النوبة وبلاد الحدود الليبية .

● وعلى النصب التذكارى المعروف أثريـا باسم « حجر باليرمو » دونت أسماء بعض ملوك مصر مرتبة تـاريخيًا . وفى مقابل اسم الملك سنفرو باعتباره مـؤسس الأسرة الرابعة كتب نص هيروجليفى يقـول انه أرسل إلى الشـواطىء اللبنانيـة اسطولاً مكونـاً من ٤٠ سفينة لتعـود محملة إلى أقصى طـاقاتها بخشب « عش » ــ وهو الاسم المصرى القـديم لخشب الأرز ــ وبأنـواع أخرى مـن الأخشاب مثـل الصنوبـر وخشب يسمى فى اللغـة المصرية القـديمة خشـب « مر » وهـو لا ينبت إلا فى مناطق السـواحل الشرقيـة للبحر المتوسط .

● ويقول النص الهيروجليفى أيضًا أن طول كل سفينـة من سفن هذا الأسطول كان

مائة ذراع مصرى قديم . وإذا عرفنا أن طول هذا الذراع المصرى كوحدة لقياس الأطوال يبلغ بالضبط ٥٢,٣ سم فمعنى ذلك أن طول السفينة كان ٥٢,٣ متراً .

● وتدل شواهد أثـرية أخرى على بناء ٦٠ سفينة بحريـة أخرى أقل حجماً وطولاً فى عصر سنفرو . . وكـانت هـذه السفن جميعًا تطقم بـالبحارة والمجـدفين وفى صحبتهم فصيلة من الجنـود مهمتها حماية البعثة البحـرية وحماية السفن من أيـة هجمات يقوم بها أهالى السواحل اللبنانية أو لتكون من مظاهر السلطة المصرية .



رسم توضيحى منقول عن نقش أثرى يبين كيفية بناء السفن والقوارب فى مصر القديمة .

أول سفن ناقلات للجنود فى تاريخ العالم

من الآثار الكثيرة التىُ يرجع تاريخهـا إلى عصر « الدولة القديمة » [من ٢٧٨٠ ق م إلى ٢٢٨٠ق م] نـلاحظ كثرة تسجيـل أوجه ومظـاهر استخـدامـات المراكب والسفن بأنواعها وأحجامها المختلفة .

● ومن هذه التسجيـلات المدونة بالهيروجليفيـة على جدران بعض المقـابر والنصب التذكـارية ، عـرف المؤرخون أن صنـاعة بنـاء السفن وحـرفة الملاحـة النهريـة والملاحة البحريـة قد بلغت فى ذلك العصر شأواً عظيما . . وأصبحت حـرفة منظمـة كغيرها من الحرف الـراسخة التى اشتهـرت بها مصر القديمـة . . وظهر كثيرون من رجـال الدولـة الذيـن سجلوا أسماءهم وألقـابهم التى تتعلق بحرفـة وأعمال السفن النهـرية والبحـرية مثل : رئيس السفينـة . . سيد السفينة . . قـائد السفينة . . مفتش السفن . . حـامل لواء تدريب المجدفين . . أمين صنـاعة السفن . . المشرف على بناء السفن . . إلى غير ذلك من الألقاب المماثلة الأخرى .

● كما ظهرت تخصصـات للبحارة أطلقت عليها تسميـات مثل : مجدفون عـاديون . . مجدفون أول . . مـلاحون . . عمال الشراع . . الخ . وكان لقب « وعـو » فى اللغة المصرية القديمـة يطلق على أولى مراتب العمل فى الجندية أو فى البحريـة ، وهو يعادل لقب « نفر » فى اللغة العربية . . وكان لقب « نفو » يطلق على الريس . . ولقب «حرى» يطلق على الربان الذى يقود سفينة ضخمة . . ولقب « مر » يطلق على قائد الأسطول الذى يتكون من عدة سفن . . وبطبيعة الحال فقد كانت هذه الألقاب محل فخر لحامليها . وعلى سبيل المثال فقد تفاخر أحد أمراء البيت المالك فى عهد الملك خوفو ، وهو المدعو « مر ـ إيب » بأنه كان يتولى إمرة سفينتين ضخمتين هما : « روح الآلهة» و « نجمة مصر » .

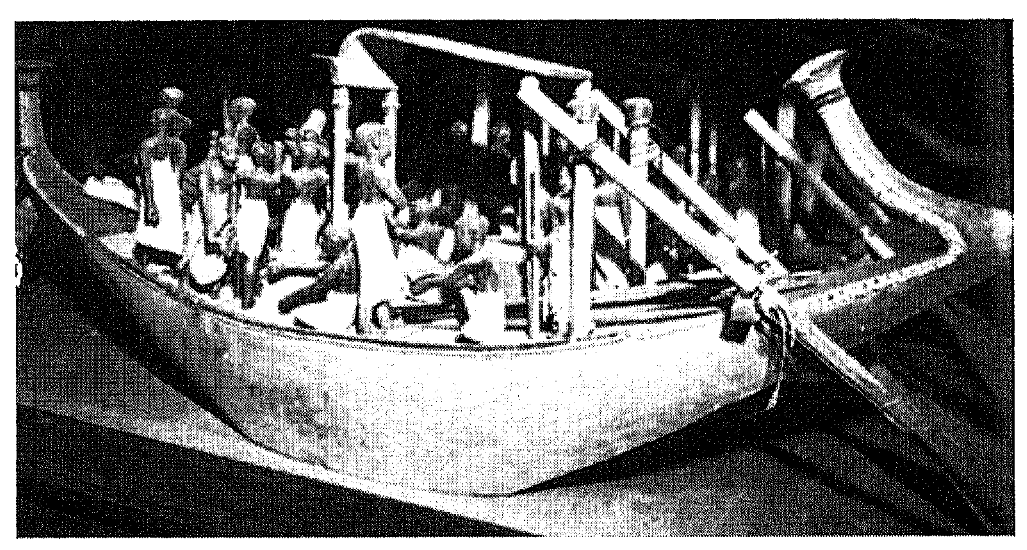
● ومن ضمن آثار عصر الدولة القديمة والتى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة السادسة [من ٢٤٢٠ ق م إلى ٢٢٨٠ ق م] . . عثر على أثر بالغ الأهمية مدون على جدران مقبرة الوزير « وينى » يقول علماء الآثار عنه أنه أول إشارة فى التاريخ الانسانى للخروج إلى البحر فى سفن من « ناقلات الجنود » ويحكى النص المكتوب بالهيروجليفية قصة تكليف الوزير « وينى » بالقضاء على اعتداءات بعض فصائل جيش «الأكاديين» وقبائل البدو فى شمال سيناء على القوافل والبعثات التعدينية المصرية التى كانت ترسل إلى هناك لاستخراج خام النحاس والفيروز والمعادن الأخرى . وكان جيش « الأكاديين» فى ذلك العصر قد زحف إلى بعض المناطق السورية بقيادة زعيمهم « نرام سن » الذى بدأ الاستعداد للزحف جنوبا لغزو مصر ، مما دعا مصر إلى ارسال جيشها بقيادة الوزير « وينى » لوقف هذا الزحف .

● ويقول النص فى ذلك أن الوزير « وينى » قام بقيادة جيشين : جيش برى عبر الصحراء المتاخمة للسواحل الجنوبية الشرقية للبحر المتوسط . . وجيش آخر على شكل حملة بحرية محمولة على سفن ضخمة ناقلات للجنود . وعندما وصل الجيشان المصريان إلى جنوب فلسطين نظما صفوفهما وأطبقا على جيش الأعداء وأفنياه .

● وفى نص هيروجليفى آخر دونه « وينى » على جدران مقبرته ، قال انه كان مكلفا بتجهيز وقيادة سفن كبيرة لنقل أحجار الجرانيت من محاجر أسوان على سفن عريضة مبنية من خشب السنط . ويفخر « وينى » بأنه أشرف على بناء سفينة جديدة من تلك السفن استغرق بناؤها ١٧ يومًا فقط . . ويبلغ طول هذه السفينة ٦١ ذراعًا مصريًا [نحو ٢٥ , ٣٢ مترا] ويبلغ عرضها ٣٠ ذراعًا مصريا [نحو ٧٠ , ١٥ مترا] .

● ويفخر « وينى » أيضا بأنه تغلب على الصخور التى تعترض مجرى النيل فى منطقة الجندل الأول بجنوب أسوان والتى تجعل الملاحة مستحيلة ، وذلك بأن أرسل عدة سفن إلى هناك مجهزة بالرجال والأدوات اللازمة لتعميق وتطهير المجرى النهرى الذى حفره المصريون القدماء فى عصور سابقة على عصر « وينى » حيث استطاعوا تحويل مجرى النيل ليلتف حول منطقة الجندل الأول متحاشيا صخورها . . وأصبح هذا

المجرى الجديد صالحًا للملاحة فيه بالمراكـب والسفن النهرية . وبذلك يعترف التاريخ الانسانـى بأن المصريين القدماء هـم أول شعب استطاع تحويل مجرى واحـد من أعظم أنهار الدنيا .



نموذج أثرى لمركب يرجع تاريخه إلى عصر الدولة الوسطى ويبلغ طول المركب الأصلى ٥٠ مترا وكان يعمل عليه ١٢٠ بحاراً .

زيارة لأقدم مركب عثر عليه الانسان

فى الجانب الجنوبى للهرم الأكبر أقيم هذا المتحف الفريد فى نوعه والذى يعرض فيه أقدم أثر فى العـالم لمركب خشبى ضخم تم بناؤه منذ ما يقـرب من ٤٦٠٠ سنة . . وهو المركب المعروف علميـاً باسم « مـركب خوفو » والـذى أطلق عليه خطأ اسـم « مراكب الشمس » .

● والملك « خوفو » هو ثانى ملـوك الأسرة الرابعة [عام ٢٦٥٠ ق م] . وذاع اسمه فى جميع أنحـاء العالم القـديم والحديث باعتبـاره صاحـب الهرم الأكبر الذى اعتبر على رأس قائمـة عجائب الدنيـا السبع ، وهو العجيبة الـوحيدة الباقيـة حتى الآن من تلك العجائب .

● وليس لهذا المركب مثيل بين كل آثار العالم . . ولذلك فهو يعتبر أقدم مركب أثرى ضخم تم العثـور عليه فى العالم الحديث . ويبلـغ طوله ٤ , ٤٣ متراً وعـرضه ٩ , ٥ متراً وارتفاع مقدمته ٦ أمتار وارتفاع مؤخرته ٥ , ٧ متراً وعمق غاطسه ٧٨ , ١ متراً .

● وعلى سطـح المركب نـرى « المقصـورة الملكيـة » وهـى عبـارة عـن حجـرتين متـداخلتين ، الحجرة الأولى صغيرة ومفتـوحة فى اتجاه المقـدمة ، والحجـرة الثانيـة كبيرة وواسعـة يفصلها عن الحجـرة الأولى بـاب يغلق بالترابيـس . وسقف المقصورة الملكيـة مزدوج ومحمول من الداخل على ثلاثة مـن الأعمدة الخشبية المخروطة على شكل جذوع النخيل ، ويحملـه من الخارج ٣٦ عمودًا خشبيـا . وقـد عثر ضمن أجـزاء المركب على مجموعة كبيرة من مختلف أنواع الحصير ، كـان بعضها يستعمل لتغطية سقف المقصورة من الخارج لحجـب حـرارة الشمـس ، أو تـرش بـالماء فتقـوم مقـام أجهـزة الترطيب والتكييف .

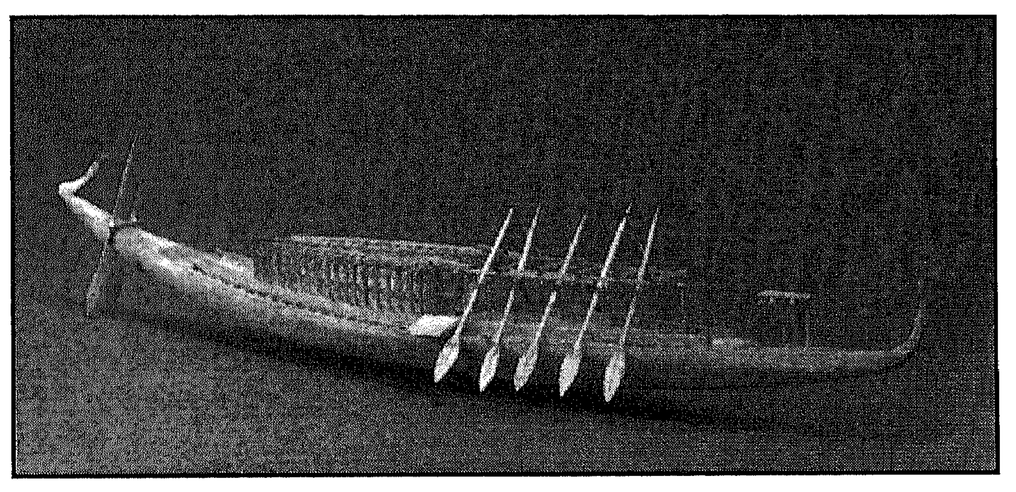
● ونـرى على جـانبى المركـب عشرة مجاديف خمسـة منهـا على كل جـانـب ، وهى مجاديف طـويلة ضخمـة تتراوح أطوالها مـا بين ٥ , ٦ متراً و ٥ , ٨ متراً . . بالاضـافة إلى مجدافين كبيرين فى مؤخرة المركب كـانا يقومان مقام الدفـة . . كما نرى « مدراة » خشبية طويلـة كانت تستعمل لجس وقيـاس عمق المياه . . ووتـدين خشبيين كانـا يستعملان لربط المرساة ومطرقة خشبية ضخمة كانت تستخدم لدق الأوتاد فى أرض الشاطىء عند رسو المركب وتوقفه عن الابحار فى النيل .

● وعند العثور على الحفرة التـى كان هذا المركب مدفوناً فيهـا ، وجد المركب مفككاً إلى ٦٥٠ جزءاً تتكون من ١٢٢٤ قطعة من الأخشاب . ويبلغ طول القطع الكبيرة نحو ٢٣ متراً ، كما يصل وزن القطعة الواحدة منها نحو طنين ونصف طن . كما كانت هناك قطع صغيرة أخرى من خشب شديد الصلابة ولا يتجاوز طولها أكثر من ١٠ سنتيمترات . . وكانت جميع هذه الأجزاء مـرصوصة ومرتبة بدقة وعناية شـديدة بداخل الحفرة التى كانت مدفونة فيها منذ ٤٦ قرنًا .

● وقد تـم تحليل عينات من جميع أنـواع الأخشاب التـى تتكون منها أجـزاء المركب تحليلاً علمياً فى المعـامل المتخصصة فى كل من انجلترا وهولندا ، واستخـدمت فيه أدق أجهـزة التحليل الكيميـائى والميكروسكـوبى والطيفـى والكربـون المشع . . وقـام بهذه التحليـلات علماء أجـانـب على أعلى مستـويـات الخبرة تحت إشراف المرحـوم الاستـاذ الدكتور زكى اسكندر الـذى أعد تقريرًا بالتوثيق العلمى لكل المواد النبـاتية والكيميائية التى تتكون منها أجزاء المركب وأخشابه .

● وتبين بصفة قاطعة أن بعض هذه الأخشـاب من أشجار مصرية محلية ، وأغلبها من أخشـاب مستوردة من منـاطق جنـوب شرق أوربا ، وآسيـا الصغرى ، والسـواحل اللبنـانية . . وكـانت المفاجـأة العلمية المذهلـة وجود بعض قطـع من أخشاب صلبـة اسمها العلمى باللغة الـلاتينية « مانيفرا إنديكا » وهى أخشاب مستخـرجة من نوع من الأشجـار لا ينبت إلا فى « الهند » . . الأمـر الـذى دعا بعـض المؤرخين إلى البحث عن وجود علاقات تجارية تمت بين مصر والهند فى عهـد « خوفو » . وهو أمر لم يحسم حتى الآن بشكل قاطع .

● وبداخل المتحف يمكننا أن نرى أيضا الحفرة التى كـان المركب مدفونًا بداخلها ، وهى محفورة فى بطن صخـر الهضبة ، ويبلغ طولها ٣١ متراً وعرضهـا ٢,٦ متراً وعمقها ٣,٥ متراً . وكانت مغطـاة بكتل حجرية ضخمـة مرصوصـة رأسيا وعددهـا ٤١ كتلة ويبلغ طول كل كتلـة ٤,٥ متراً وعرضها ١,٨ متراً وسمكهـا ٨٥,ـ متراً . كما يبلغ وزن كل كتلة منها حوالى ١٨ طنا .



نموذج حديث لمركب خوفو .. معروض حاليا بمتحف المركب بجنوب الهرم الأكبر .

أول « سيدة بحار » فى تاريخ العالم

يطلق المؤرخون اسم « الدولة الوسطى » على عصر الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة فى الفترة من سنة ٢١٣٤ ق م إلى سنة ١٧٧٨ ق م . . أى انه عصر يرجع تاريخه إلى نحو ٤٠٠٠ سنة .

● ومن ناحية التسلسل التاريخى ظهرت الدولة الوسطى بعد انتهاء عصر « الدولة القديمة» فى نهاية عصر الأسرة السادسة سنة ٢٢٨٠ ق م . . ومن الأسرات السابعة حتى العاشرة ، ساد عصر من الفوضى يطلق عليه المؤرخون اسم « عصر الاضمحلال الأول» . ويتسم تاريخ هذا العصر بكثير من الغموض ، وسادت فيه حروب أهلية بين حكام الأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى ، وكثر استخدام السفن النيلية فى تلك الحروب كناقلات للجنود والجيوش المتحاربة .

● وعلى جدران مقبرة حاكم إقليم اسيوط وكان اسمه « تفيبى » نص مكتوب بالهيروجليفية يصف فيه إحدى المعارك الحربية التى قادها ضد عدوه ويقول : « اتجهت نحوهم . . واسرعت بقتالهم كالبرق . . ولم أتوقف عن الحرب مستغلا ريح الجنوب وريح الشمال . . وسقط العدو فى الماء . . وجنحت سفنه إلى البر » .

● ويبدو أن هذه الحروب الصغيرة التى نشبت بين حكام الأقاليم فى عصر الاضمحلال الأول والتى استخدمت فيها السفن النيلية فى القتال كانت بمثابة تمارين عملية للسفن البحرية الحربية التى استخدمت بكثرة فى عصر « الدولة الوسطى » حيث وصلت البحرية المصرية إلى ذراها وقمة نشاطها ، وأصبحت الأساطيل الحربية المصرية تجوب أرجاء البحرين الأحمر والمتوسط .

● وفى عهد الملك « منتوحتب الرابع » [١٩٩١ ق م] وهو من ملوك الأسرة الحادية عشرة ، أرسل الملك وزيره ومدير الخزانة الملكية وكان اسمه « حنّو » على رأس حملة بحرية لمحاربة شعب « خاوبنو » ، وهم أهالى جزيرة « كريت » . ولم يتم العثور حتى الآن على نص يبرر لنا سبب إرسال تلك الحملة البحرية المصرية إلى جزيرة كريت فى ذلك العصر ، وإن كان بعض المؤرخين الأجانب يقولون أن السبب فى ارسال تلك الحملة قد يرجع إلى قرار اتخذته مصر بايقاف الهجرات والتسللات التى كان يقوم لها بعض أهالى كريت وجزر بحر إيجه إلى مناطق الدلتا المصرية .

● ويبدو أن الوزير « حنّو » هذا كان متمرسًا فى قيادة الأساطيل البحرية ، فقد كلفه نفس الملك بقيادة أسطول بحرى توجه به إلى بلاد بونت [جنوب اليمن والصومال] لاحضار البخور والدهانات العطرية ومنتجات بلاد بونت الأخرى . وكان عدد الأفراد الذين اشتركوا فى تلك الحملة ٣٠٠٠ رجل ، خرجوا إلى البحر الأحمر براً عن طريق وادى الحمامات وبدأت رحلتهم البحرية من الساحل المصرى المطل على البحر الأحمر .

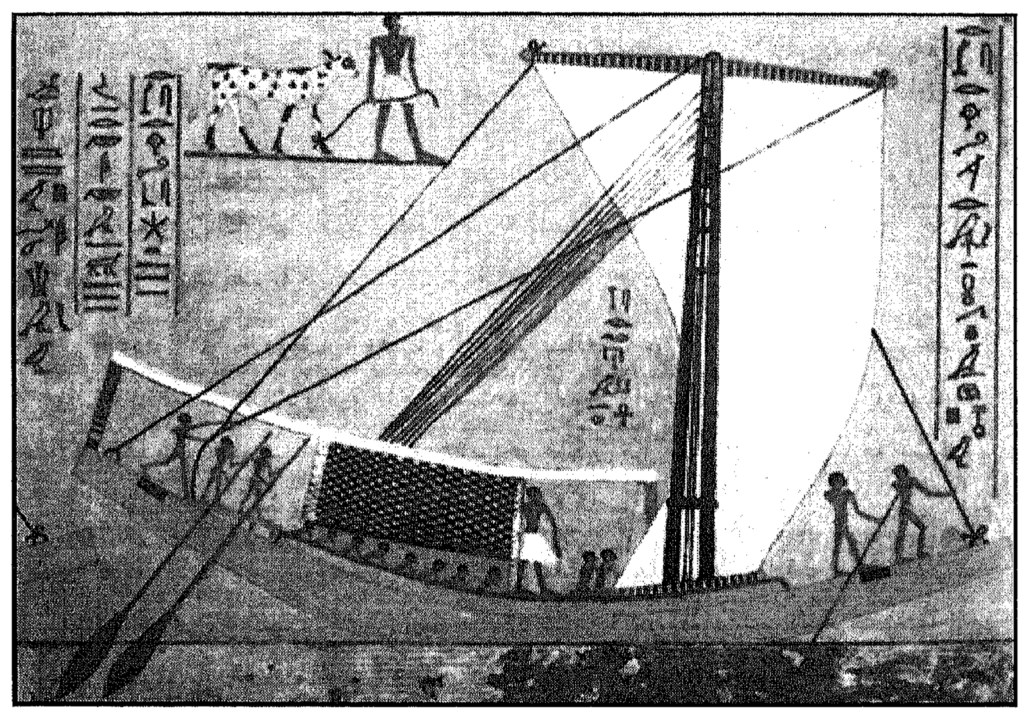
● وفى عصر الأسرة الثانية عشرة ظهر الكثيرون من قادة السفن والأساطيل البحرية المصرية الذين سجلوا أعمالهم وتفاصيل الرحلات التى قاموا بها تنفيذًا لأوامر الملوك . ومن هؤلاء قائد الاساطيل « خنت خت ور » الذى شيد نصباً تذكاريًا بناء على أوامر الملك « امنمحات الثانى » على ساحل البحر الأحمر فى نهاية وادى جاسوس ـ الذى كان يخترق الصحراء الشرقية ـ حيث كان يقع ميناء مصرى قديم اسمه « ساوو » ويشهد هذا النصب بسيادة مصر والسفن المصرية على البحر الأحمر .

● ومن قادة الأساطيل المصرية فى ذلك العصر قائد اسمه « خنم حوتب » كتب على جدران مقبرته نصا يقول فيه انه صحب الملك « أمنمحات الأول » فى حملة تتكون من ٢٠ سفينة مصنوعة من خشب الأرز لملاقاة العدو « حتى هزمناه وسحقناه ! » .

● وفى عصر الأسرة الثانية عشرة أيضا أمر الملك « سنوسرت الثالث » الذى حكم مصر فى الفترة من ١٨٨٧ ق م حتى ١٨٤٩ ق م ، بحفر القناة التى أطلق عليها قديماً

اسم « أجمل طرق الملك » والتى كـانت تربط الفرع الشرقـى للنيل ببحيرة التمساح التى كانت متصلة بالبحر الأحمر كامتداد طبيعى لخليج السويس .

وبذلك أصبحت الطرق الملاحية مفتوحـة أمام السفن المصرية لتجوب البحرين . . وأصبحت مصر أول دولة يمكن أن توصف بأنها « سيدة البحار » فى تاريخ العالم ! .



إحدى السفن البحرية الشراعية الضخمة ، التى كان يتكون منها الأسطول البحرى المصرى .

دور السفن المصرية فى طرد الهكسوس

تمامًا مثلما حدث بعد نهاية « الدولة القديمة » وظهور عصر اتسم بالفوضى أطلق عليه المؤرخون « عصر الاضمحلال الأول » ظهر عصر ثان من الفوضى فى أعقاب نهاية « الدولة الوسطى » [١٩٩١ ق م ـــ ١٧٧٨ ق م] أطلق عليه المؤرخون « عصر الاضمحلال الثانى » . وقد استمر هذا العصر من الأسرة الثالثة عشرة إلى الأسرة السابعة عشرة . وهى فترة استمرت قرابة مائتى عام وبالتحديد من عام ١٧٧٨ ق م إلى عام ١٥٧٠ ق م .

● وفى هذا العصر تمزقت أوصال مصر الدولة مرة أخرى بين حكام الأقاليم والغزاة الرعاة المعروفين تاريخيا باسم « الهكسوس » الذين تمركزوا فى الدلتا وسيطروا على حكام معظم الأقاليم المصرية .

● ودار التاريخ دورته ، وهب أبناء مصر يدافعون عن أرضها باصرار وطنى عظيم على إعادة توحيد البلاد وتحريرها من المستعمر الهمجى البغيض . وحدثت الإرهاصات الأولى لهذه الهبّة الوطنية المصرية فى عهد آخر ملكين من ملوك الأسرة السابعة عشرة ، وهما الملك الوطنى الشهيد « سقنن رع » والملك « كامس » .

● وقد انتشر فى عهد هذين الملكين استخدام السفن النهرية الضخمة كناقلات للعتاد الحربى والجنود والجيوش التى كانت تتم تعبئتها ونقلها عبر النيل متوجهة إلى الدلتا للقيام بالعمليات الحربية والهجمات المتعاقبة على قواعد الهكسوس .

● وقد لقب الملك « سقنن رع » بلقب « الشجاع » ـ كما ورد فى النصوص القديمة التى دونت فى عصره ـ وهى النصوص التى تذكر أن هذا الملك الوطنى قد خرج على

رأس جيش فى شكل « مسيرة حربية » انضم إليها الكثيرون من أبناء الشعب المصرى من فلاحين وعمال وحرفيين ومن هم فى سن الشباب من كافة الأقاليم المصرية متطوعين للاشتراك معه فى حرب التحرير المقدسة التى بدأها ضد معاقل الهكسوس ، وهى الحرب التى سقط فيها الملك شهيداً على أرض المعركة .

● وتولى ابنه الملك « كامس » مواصلة حرب التحرير المقدسة ، وواصل معاركه ضد معاقل الهكسوس حتى حاصرهم فى عاصمتهم الحصينة التى اتخذوها فى مدينة «أفاريس » [تل الضبع حاليا بشرق الدلتا] وجعلهم لا يجسرون على مجرد الخروج من تلك المدينة .

● وهناك نصوص تاريخية تثبت أن الملك « كامس » كان يبحر بسفنه من ناقلات الجنود وناقلات العتاد الحربى بطول النيل من طيبة / الأقصر حتى الفرع الشرقى للدلتا ، وانه كان يستخدم « سفينته » كقاعدة لقيادة العلميات الحربية . . وعلى نصب تذكارى أقامه « كامس » بمعابد الكرنك نص يقول فيه : « . . أبحرت شمالاً لضرب الآسيويين . . وقضيت الليل فى « سفينتى » وقلبى فرح . . وضربت العدو ودمرت أسواره . . وكان جنودى كالأسود . . » .

● ومع ذلك فلم يستطع الملك « كامس » أن يقضى على الهكسوس قضاءً مبرمًا أو يطردهم خارج البلاد . . فقد اضطر إلى العودة بجيشه جنوباً ليقضى على مؤامرة تم تدبيرها بين أمير النوبة و « أبو فيس ـ ملك الهكسوس » لكى يقوم النوبيون بغزو البلاد من جهة الجنوب لتشتيت الجيش المصرى بين حرب فى الجنوب وحرب فى الشمال .

● ولم يتم القضاء على حكم الهكسوس نهائياً إلا على يد الملك العظيم « أحمس الأول» . . وهو الشقيق الأصغر للملك « كامس » . . وهو الذى استحق بجدارة أن يتصدر قائمة أبطال التحرير فى جميع أنحاء الأرض وعلى طول التاريخ القديم والحديث على السواء . . وهو الذى أسس الأسرة الثامنة عشرة التى يعتبرها المؤرخون بالاجماع أعظم وأشهر أسرة ملكية فى تاريخ العالم .

* * *

أول أبطال التحرير فى تاريخ العالم

كان تعداد جيش التحرير المصرى تحت قيادة « أحمس الأول » يبلغ نحو ٤٨٠ ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة . وكان هذا الجيش الكبير يشع حماساً ووطنية ، ويحارب بروح عالية ، وتسيطر عليه فكرة واحدة هى تحرير مصر من هؤلاء الرعاة الآسيويين وطردهم خارج البلاد .

● خرج الجيش من طيبة / الأقصر قاصداً شرق الدلتا حيث توجد العاصمة التى اتخذها الهكسوس فى مدينة « أفاريس » . . وكان أغلبه محمولاً على ظهر أسطول ضخم من السفن النهرية المتخصصة فى نقل الجنود ونقل الخيول والعتاد الحربى والعجلات الحربية . وكان تسليحه يعتمد أساسًا على أسلحة مصنوعة من البرونز ، وهو نفس المعدن المستخدم فى صنع أسلحة الهكسوس التى استطاعوا بها فرض سيطرتهم على مصر . . كما كانت هناك فرق كاملة من الفرسان والرماة راكبى العجلات الحربية التى تجرها الخيول ، وهى السلاح الحربى الذى اعتمد عليه الهكسوس وأتاح لهم الغلبة على المصريين فى المعارك القليلة التى دارت رحاها حين تسللوا إلى الديار المصرية .

● واتخذ الملك مقر قيادته على ظهر سفينة حربية تتقدم السفن الأخرى . . كما أن قادة الجيش من كبار الضباط كانوا يباشرون أعمالهم القيادية وهم على ظهر السفن المتجهة نحو الشمال . وكان أهم هؤلاء القادة اثنان من الضباط العظام هما : « أحمس بن أبانا » و « أحمس بن نخب » . ويروى الضابط الأول سيرة حياته التى سجلها على جدران مقبرته فيقول « إنه أظهر كفاءته وقدرته فى فن الحرب فعينه الملك قائدًا على سفينة ضخمة اسمها « المضيئة فى منف » خاض بها أوار الحرب حين قامت المعركة على الماء عند مدينة أفاريس التى كان يتحصن فيها الرعاة الآسيويون » .

● ومن عدة نصوص أثرية أخرى نعرف تفاصيل معارك التحرير التى دارت براً ونهرًا بين جيش التحــريـر المصرى وجيـش الهكســوس المتحصن فى أفــاريس حتـى دخل المصريـون إلى المدينة فـدمـروها وأبـادوا من طـالتـه أيديهم من الأعـداء . . أمـا معظم الهكســوس فقد فـروا من المدينة عنـد رؤيـة جحافل الجيش المصرى . وقـام « أحمس » بمطـاردة هؤلاء الفـارين إلى خـارج الـديـار المصرية ، وظـل يلاحقهـم حتى الأراضى السورية . ويقول معظم المؤرخين أن الهكسوس تلاشوا بعد ذلك ولم يعرف لهم تاريخ .

● وبعـد هـذا النصر المؤزر فى الشمال ، اتجه « أحمس الأول » بجيشـه وسفنـه نحـو الجنوب ، ليعيد بـلاد النوبة إلى الأرض المصرية ، وذلك بعـد أن أعلنت بعض المناطق النوبية انفصالها عن مصر أثناء انشغالها بحرب الهكسوس .

● كذلك فقد تمكن أحمس من القضاء نهائيـاً على حكام الأقاليم الانتهازيين الذين كانوا متعاونين مع الهكسوس وخاضعين لهم ، فتوحدت الديار المصرية مرة أخرى تحت حكم مـركـزى عـاصمته طيبـة . . واستحق بـذلك أن يصبـح مؤسسـاً لأسرة ملكيـة «امبراطوريـة » جديدة ، هى الأسرة الثـامنة عشرة التى تعتبر أشهـر الأسرات الملكية فى تاريخ العالم المعروف ، كما استطاع « أحمس » أن يكـون على رأس فترة تاريخية جديدة ، أصبحت معـروفة فى التاريخ المصرى القـديم بإسم « الـدولة الحديثة » التى تضـم هذه الأسرة والأسرتين التاسعة عشرة والعشرين المعروفتين « بعصر الرعامسة » .

● وتعتبر « الدولـة الحديثة » قمة فـريدة متميزة من قمم الحضـارة المصرية ، وأمجد صفحة فى التاريخ المصرى القديم .



العصر الذهبى للبحرية المصرية القديمة

من حسن حظ المؤرخين وعلماء الآثار الذين درسوا التطورات التى لحقت بصناعة السفن عبر عصور التاريخ المصرى القديم ، بل وعبر عصور ما قبل التاريخ ، انهم وجدوا معلومات ووثائق واضحة تمام الوضوح مسجلة بالرسوم والنقوش الجدارية على حوائط وجدران المعابد والمقابر ، وبالرسوم المسجلة على صحائف البرديات . . كما عثروا على أعداد كبيرة من النماذج والموديلات الصغيرة للمراكب والسفن التى يرجع تاريخها الى عصور تاريخية مختلفة . . كما عثروا ايضا على مراكب وسفن حقيقية مدفونة بجوار الاهرام وبجوار بعض المقابر الاخرى بمناطق دهشور والجيزة وغيرهما من المناطق الأثرية .

● وقد استطاع هؤلاء العلماء ـ من مصريين وأجانب ـ تفريع دراساتهم وبحوثهم عن السفن فى مصر القديمة إلى عدة أفرع ، بحثوا فيها الأغراض التى من أجلها قام قدماء المصريين بتصميم وبناء تلك السفن ، سواء لتحقيق أغراض عقائدية كأداء الطقوس الجنائزية أو المراسم الدينية أو الاحتفالات الشعبية ، أو لتحقيق أغراض تجارية كأداء خدمات نقل الركاب أو نقل البضائع أو المواشى الحية ، أو لتحقيق أغراض عسكرية كأداء خدمات نقل الجنود والخيول والعجلات الحربية وغير ذلك من المؤن والعتاد الحربى .

● كما أفرد العلماء بحوثاً مستفيضة عن التصميمات الهندسية والملاحية للسفن التى تطورت عبر العصور التاريخية حتى وصلت حد الكمال فى عصر « الدولة الحديثة » . كما درسوا تطور أشكال المجاديف والأشرعة و المنشآت العلوية على ظهر تلك السفن .

● ويعنينا هنا أن نلخص ما ورد فى المراجع عن النهضة العظيمة التى بلغتها

البحرية المصرية فى عصر « الدولة الحديثة » وعلى وجه الخصوص فى عصر الأسرة الثامنة عشرة الذى يعتبر عصراً للقمة الذهبية للبحرية المصرية ولصناعة بناء السفن فى مصر القديمة .

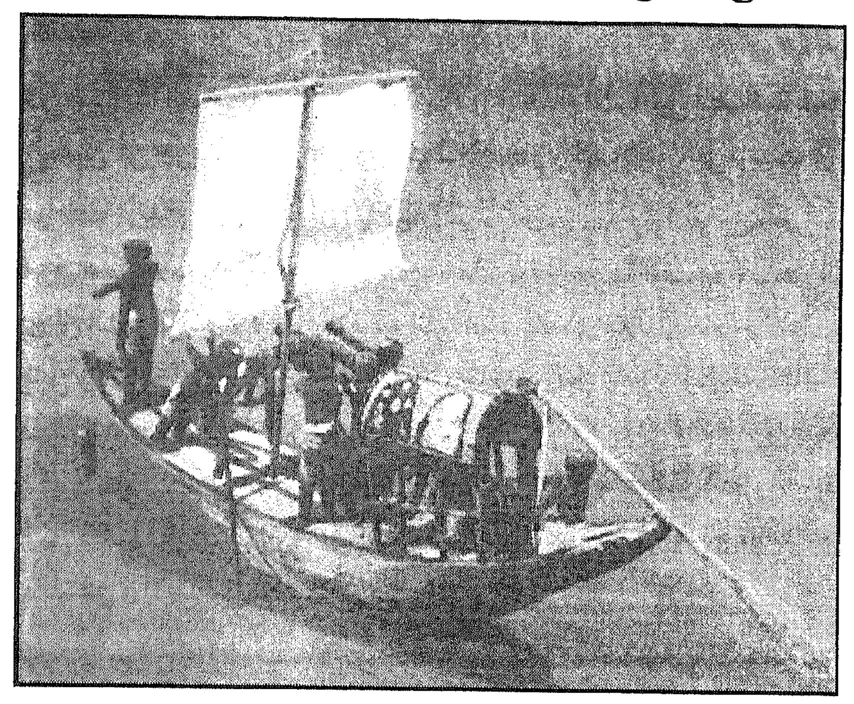
● ويتميز هذا العصر بصفة عامة بكثرة بناء واستخدام الأساطيل الضخمة لمختلف أنواع السفن من حربية و تجارية وناقلات للأحجار والمثقلات ، بل وبنيت فى ذاك العصر سفن تجاوزت حمولتها أكثر من ألفى طن .

● وفى عصر الأسرة الثامنة عشرة وضعت دعائم الامبراطورية المصرية ، وامتد النفوذ المصرى إلى الشرق والشمال فى كل الأقاليم التى تضم المناطق التى تشغلها الآن فلسطين و إسرائيل والأردن ولبنان وسوريا والعراق حتى جنوب شرق تركيا . ونتيجة لذلك ازداد استخدام السفن البحرية الضخمة بأعداد كبيرة لنقل الجيوش والعتاد والمؤن وكل متطلبات المجهود الحربى الذى كان يؤازر الجيوش الساعية لتحقيق النصر . وبذلك تم تحويل معظم الموانى الواقعة على السواحل الفلسطينية والسورية إلى قواعد حربية بحرية للسفن و الأساطيل المصرية .

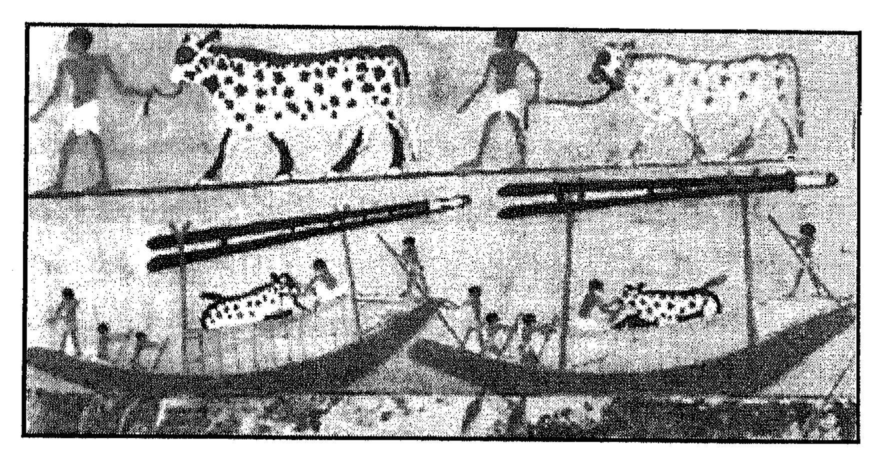
● وحتى يمكن الوفاء بهذه الاحتياجات البحرية الضخمة وهذه الأعداد المتزايدة من السفن الكبيرة ، توسعت الدولة فى إنشاء وتدعيم ترسانات بناء السفن التى كانت منتشرة فى بعض مناطق مجرى النيل وسواحل البحر الأحمر والبحر المتوسط . وكانت أهم تلك الترسانات الترسانة الملكية « برعو ـ نوفت » التى كانت تقع على مجرى النيل قرب مدينة منف التى كانت تعتبر العاصمة الثانية لمصر بعد العاصمة الرسمية فى مدينة طيبة / الأقصر .

● وكانت تلك الترسانة تحت الاشراف المباشر لأولياء العهد وأكبر الأمراء من أبناء الملوك . وكانت أهم اختصاصات هذه الطبقة من الأمراء ، الاشراف المباشر على أعمال الترسانة الملكية وتوفير احتياجاتها من العمال الفنيين والمؤن والعدد والأدوات والمعدات والأخشاب اللازمة لبناء و إصلاح السفن ، بالاضافة إلى الاشراف المباشر على عمليات تجهيز الجيوش وتدريبها على العمليات الحربية .

● ومن ميناء منف [ميت رهينة بالجيزة حالياً] كانت تتجمع الأساطيل البحرية المصرية لتخرج من فروع النيل إلى البحر المتوسط والبحر الأحمر .



أحد النماذج الأثرية العديدة للسفن النهرية والسفن البحرية



سفن مخصصة لنقل الحيوانات .

أشهر أسرة ملكية فى تاريخ العالم

تعـددت الأسباب التى دعـت المؤرخين إلى وصف الأسرة الثـامنة عشرة بأنها أشهـر الأسرات الملكية فى التـاريخ القـديم والتاريخ الحديـث . . فقد حـاز ملوكهـا وملكاتها شهرة عالمية فى ميادين السياسة والحرب والثقافة والحضارة والدين .

● وهى الأسرة التـى أسست الامبراطـورية المصريـة ، وفـرضت النفـوذ الحضـارى المصرى فى الشمال والجنوب وفى الشرق والغـرب . . واستقراءً لأسماء ملـوكها الـذين ذاع صيتهم فى التاريخ القديم وفى العالم المعاصر أيضا ، ندرك إلى أى مدى استطاعت هذه الأسرة الملكيـة أن تفرض نفسهـا على صفحات التـاريخ فرضـا . ونذكـر فيما يلى أسماء هؤلاء الملوك على التوالى، وكلهم معرفون لكل من له إلمام بتاريخ مصر والمصريين .

● أحمس بطل التحـرير . . أمنحوتب الأول « العـادل » الذى أصـدر قانونـا بمنع السخرة وبوضع المعايير العادلـة للأجور والحوافز . . وتحوتمس الأول « المحارب» الذى وسع الحدود المصريـة شمالاً وجنـوبـاً ونشر التعليم وتـوسع فى فتح المنـاجم وصنـاعـة التعدين . . وتحوتمس الثانى « المتأنق » الذى كان مهتماً بطلاء أظافر قدميه بالألوان . . وتحوتمس الثالث « الامبراطور » صـاحب العبقرية العسكرية الفـذة وأول فاتح عظيم فى تاريـخ العالم . . وامنحوتب الثـانى « الريـاضى » الذى اهتم بنشر الـرياضـة بين أبناء الشعب . . وتحوتمس الرابع « الدبلوماسـى » الذى كان أول من اهتم بتدوين وتسجيل المعاهدات الـدولية . . وامنحوتب الثالث « أغنى ملك فى العـالم القديم » والذى فتح المدارس « بيوت الحياة » لنشر التعليم والفنون التشكيليـة والتطبيقية . . وأخناتون « أول الموحدين » وأول ملك فى تاريخ الانسان نادى بوحدانية الله خالق كل شىء . . وأخيراً

توت عنخ آمون الذى حاز شهرة فى العالم المعاصر لم يحزها ملك منذ ظهر النظام الملكى على الأرض .

● وإلى جـانب أسماء هؤلاء الملـوك العظام مـن أعضاء الأسرة الثـامنة عشرة ، ذكـر التاريخ أسماء ملكـات عظيمات ينتمين إلى هذه الأسرة الملكية ، منهـن على سبيل المثال الملكة « ايـاح حتب » زوجـة الملك الشهيد الشجـاع « سقنن رع » وكانت تتمتـع بروح وطنية عـالية وقدرة فائقـة على ادارة دفة الحكم أثناء تفـرغ زوجها لمحاربـة الهكسوس ، وهى التى بثت هـذه الروح الـوطنية فى ابنهـا الملك « كامس » الـذى تولى العـرش بعد استشهاد والده وواصـل الكفاح الوطنى ضد الهكسوس ، ثـم فى ابنها الأصغر « أحمس الأول » الذى نجح فى تحرير البلاد من المستعمرين الغزاة ووحد البلاد ووسع حدودها . ومن الألقـاب والأوصاف التى أطلقت على هـذه الملكة فى حيـاتها أنها : « ذات الاسم الرفيع الشأن فى كل بلد أجنبى . . وذات القدرة على ادارة شئون البلاد بكل حزم » .

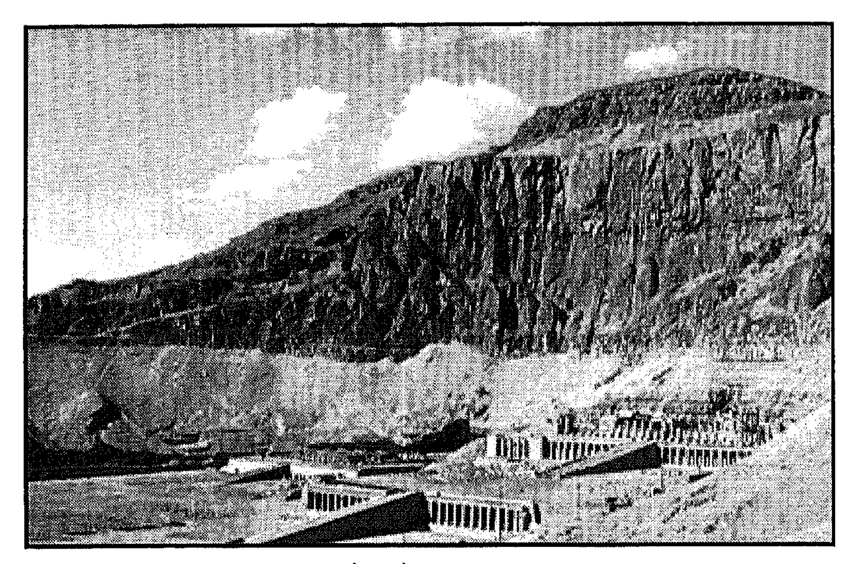
● ويـذكر التـاريخ أيضا اسـم الملكة « أحمس نفـرتارى » زوجـة أحمس الأول والتى قدسها الشعب المصري وأطلق عليها لقب « الملكة المقدسة والحاكمة العظيمة » .

● ويذكر التاريخ أيضا اسم الملكة «تى » ـ بنت الشعب ـ وزوجة امنحوتب الثالث وأم اخناتون . . وكانت سيدةعظيمة قديرة يعتبرها المؤرخون أعظم نساء التاريخ المصرى ذكـاء وقوة شخصيـة وعـزيمة . . وشـاركت زوجهـا فى حكم الامبراطـوريـة الواسعـة الأرجاء ، فكـانت تباشر شئون الحكم إداريـا وسياسياً ودينيـا ، كما كانت تقابل الـوفود الدبلـوماسيـة الأجنبية ، كما أشرفت على تطـوير هائل لنظـام التعليم فى مصر ، حيث قسمت الدراسة الى مرحلة ابتدائية ومرحلة ثانوية ومرحلة عليا يتعلم فيها النابهون مزيداً من العلوم والأسرار كما يتعلمون اللغات الأجنبية قراءة وكتابة .

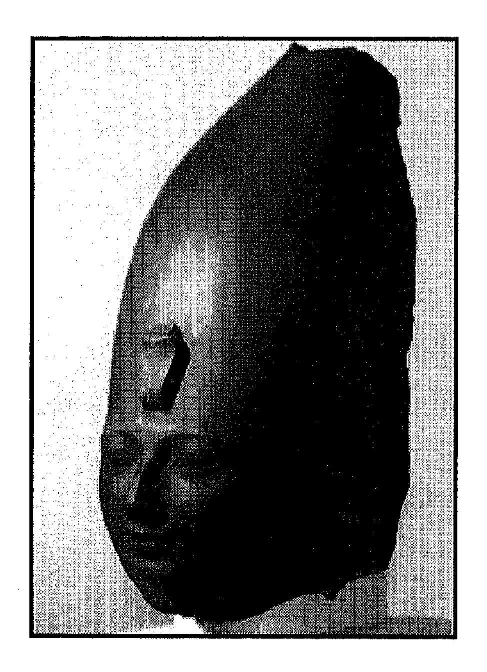
● ومن أشهر ملكات هذه الأسرة الملكة « نفرتيتى » الجميلة التى حكمت مصر ـ مع زوجها اخناتون وبعد وفاته ـ فى ظل ديانة التوحيد والدعوة إلى عبادة إله واحد خالق كل شىء .

● أما أهم ملكات تلك الأسرة وأعلاهن قدراً فهى « سيدة النساء الشريفات» الملكة

العظيمة « حتشبسوت » التى انفردت بحكم البلاد قرابة عشرين عاماً ، غيرت فيها أساليب الحكم ، وبلغت مصر فى عهدها أعلى قمة فى الحضارة والعمارة والتجارة الدولية ، حيث أرسلت البعثة البحرية التجارية والعلمية إلى بلاد بونت .



معبد حتشبسوت بالدير البحرى .



رأس تمثال للملكة حتشبسوت

أول رحلة بحرية كشفية فى تاريخ العالم

تعتبر « حتشبسوت » خامس ملوك الأسرة الثامنة عشرة . . تولت الحكم بعد موت زوجها « تحوتمس الثانى » كوصية على عرش يشغله صبى صغير هو « تحوتمس الثالث» الذى أصبح فيما بعد أعظم عبقرية عسكرية فى تاريخ العالم القديم وزوجته الصبية الصغيرة «نفرو ـ رع » وهى فى الوقت نفسة ابنة الملكة حتشبسوت .

● وقد انتصر فى عهدها الذى استمر نحو عشرين عاماً التيار السياسى الذى يمثله حزب الكهنة والمثقفين المصريين ، فى المنافسة التى كانت بينه وبين حزب المؤسسة العسكرية المصرية . ولهذا فقد ساد السلام ربوع البلاد ، وخرجت القوافل والأساطيل البحرية التجارية المصرية تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية إلى البلاد الأجنبية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب لتبادلها بمنتجات تلك البلاد .

● وشيدت حتشبسوت واحداً من أعظم الآثار المعمارية وأكثرها روعة وفخامة ، وهو معبد « الدير البحرى » على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة الأقصر . وهو معبد فريد فى تصميمه . وليس له مثيل بين معابد العالم القديم كلها . وقد وضع تصميمه الهندسى وأشرف على الأعمال التنفيذية لبنائه المهندس الشاب «سننموت » الذى أصبح المستشار الأول للملكة فى كل الأمور .

● ولما كانت علاقات مصر ببلاد بونت قد انقطعت خلال فترة « الاضمحلال الثانى » السابقة على قيام الأسرة الثامنة عشرة ، فقد تاق المصريون مرة أخرى إلى ذكرياتهم القديمة مع بلاد بونت [جنوب اليمن و الصومال] وتطلعوا إلى منتجاتها من أنواع البخور التى كانت تملأ المعابد بعبير العطر الزكى وتعمق إيمان العابدين بالدين

والعقيدة . . وتطلعوا إلى إعادة أمجاد الصناع المصريين وإبداعهم فى التعامل مع أخشاب الأبنوس الفاخرة والتحف الرائعة التى كانوا ينحتونها من العاج والملابس الفخمة التى كانو يصنعونها من جلود الفهود .

● ولذلك فقد أوعز الكاهن الأعظم « حبو سنب » للملكة بأن تأمر باعداد حملة بحرية إلى بلاد بونت تحت رعاية الإلة آمون . . وتم إعداد الحملة التى تولى قيادتها مصرى محنك فى قيادة السفن البحرية كان يشغل منصب رئيس الخزانة الملكية واسمه «نحسى» [ومعنى إسمه : العبد أو عبده] . . وجهزت الحملة بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور الصحفيين، فكتبوا أدق « ريبورتاج » علمى مصور وصفوا فيه بلاد بونت سواء من الناحية الطبيعية أو البدائية أو من ناحية جغرافيتها البشرية والأجناس المختلفة التى كانت تسكنها ، وتقاليد وعادات الأهالى الذين يعيشون هناك ، هذا بالاضافة إلى دراسة علمية ممتعة لمختلف أنواع وأشكال الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر.

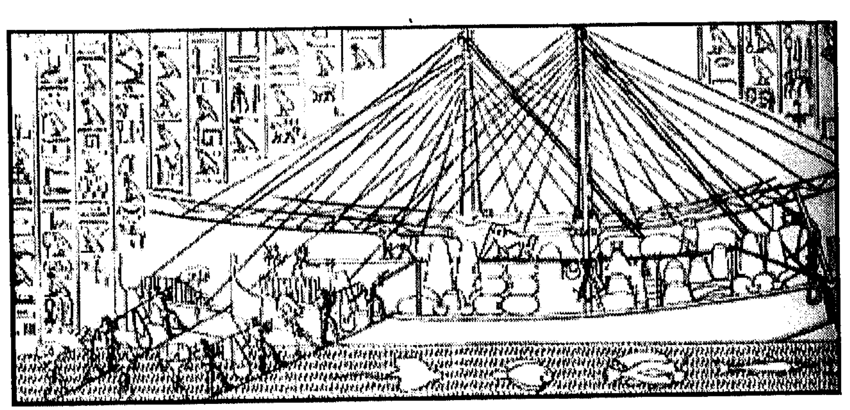
● وقد خرجت هذه الحملة من النيل إلى البحر الأحمر عن طريق القناة القديمة التى حفرت فى عصر الدولة الوسطى والتى كانت تخترق وادى طميلات إلى البحيرات المرة التى كانت متصلة بدورها بمياه خليج السويس .

● وعلى جدران معبد الدير البحرى ، سجلت حتشبسوت نصوص وصور ومناظر جميع مراحل الرحلة البحرية التى قامت بها سفن الأسطول المصرى منذ أن خرجت من النيل إلى أن عادت إليه محملة بكل ما استطاعت نقله من بلاد بونت من العاج والأبنوس وجلود الفهود وسبائك الذهب والفضة وأحمال من البخور و العطور والتوابل والقرفة والاعشاب الطبية وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها ـ وكان عددها ٣١ شجرة ـ وزرعت فى حديقة المعبد ومازالت بعض آثارها باقية ، بالاضافة إلى «التوتيا » المستعملة فى صناعة كحل العيون ومجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس .

● كذلك سجلت بوضوح مناظر الكيفية العملية التى نفذت بها عمليات شحن

.وتفريغ السفن والهمة والنشاط فى أداء العمال والبحارة . كما أن من أجمل اللوحات التى نقشت على جدران المعبد منظر المقابلة التى تمت بين « نحسى » باعتبارة قائد البعثة ومندوب الملكة حتشبسوت وبين ملك وملكة بونت فى تلك الصورة الكاريكاتيرية التى تعد من أشهر الرسوم الكاريكاتيرية فى العالم القديم .

● ومن المناظر الأخرى التى سجلت تمجيداً للدور العظيم الذى لعبته السفن المصرية فى ذلك العهد ، مناظر عملية نقل مسلتين ضخمتين فى رحلة نهرية من محاجر الجرانيت بأسوان إلى الأقصر لاقامتها بمعابد الكرنك . . حيث نرى المسلتين وقد وضعتا على سفينتين ضخمتين تقطر كلاً منهما ثلاثة صفوف من السفن المتوسطة الحجم والتى تسير بالمجاديف . وكل صف من هذه الصفوف الثلاثة يتكون من تسع سفن وعلى رأسها سفينة قيادة .



سفينتان شراعيتان من السفن الضخمة
التى أرسلتها حتشبسوت إلى بلاد بونت .

تحوتمس الثالث .. واللورد اللنبى .. ومونتجومرى

يعتبر « تحوتمس الثالث » من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، بل ومن أعظم ملوك التاريخ المصرى القديم بأكمله . . فهو أول فاتح عسكرى عظيم فى تاريخ العالم . . وعبقريته العسكرية الفذة فاقت حدود كل تصور سواء فى تاريخ الحروب فى العالم القديم أو فى تاريخ الحروب حتى نهاية الحرب العالمية الثانية .

● ويجمع المؤرخون العسكريون على أن تحوتمس الثالث هو أول قائد حربى فى التاريخ وضع خطة تقسيم الجيش إلى « قلب وجناحين » . . وهو أول من وضع فكرة تكوين « مجلس أركان حرب » من كبار الضباط للتشاور معه فى وضع الخطط الحربية الفذة للهجوم على جيش الأعداء .

● وتدل الشواهد التاريخية المسجلة على انه بعد ٧٥ يوماً فقط من توليه عرش مصر ـ بعد الملكة حتشبسوت ـ بدأ فى الزحف بسلسلة من الحملات العسكرية المجهزة أحسن تجهيز بالعتاد الحربى ، بلغت ١٦ حملة استمرت نحو عشرين سنة متواصلة ، كان من نتيجتها تكوين أول امبراطورية واسعة الأرجاء فى تاريخ العالم القديم . . تمتد جنوباً حتى مناطق الجندل « الشلال » الرابع ببلاد النوبة ، وتمتد شمالاً وشرقاً حتى مناطق أشور وشمال سوريا ولبنان وبلاد النهرين « العراق » ومملكة بابل ومملكة خيتا ، كما استولى على جميع موانى البحر المتوسط الواقعة فى مناطق سوريا ولبنان وفلسطين وجعلها قواعد حربية لجيوشه .

● ويحلو لكثير من المؤرخين أن يعقدوا بعض المقارنات التاريخية الطريفة لاثبات

مدى التماثل والتطابق الحرفى بين الخطط الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث والخطط الحربية التى طبقها بعض دهاة العسكريين فى الامبراطورية البريطانية . وتتم هذه المقارنات فى إطار دراسات التاريخ الحربى بكثير من الكليات والأكاديميات العسكرية الحديثة .

● يقولون مثلا إن الخطة الحربية البارعة التى ابتدعها تحوتمس الثالث فى عبور ممر «عرونا» بالمناطق السورية هى نفس الخطة التى اتبعها القائد الانجليزى « لورد اللنبى » فى عبور هذا الممر الضيق وفاجأ بها جيش الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٨م ، أى بعد العهد الذى وضعت فيه هذه الخطة الأصلية بنحو ٣٤٠٠ سنة .

● ويقولون أيضا أن الخطة الحربية التى وضعها تحوتمس الثالث لنقل سفنه الحربية «نقلاً برياً» وهى مجزأة كقطع مفككة وأجزاء قابلة للتركيب السريع والتجهيز الفورى ، وذلك حتى يتمكن من العبور بها فى نهر الفرات والوصول بجيشه إلى بلاد النهرين / العراق لضمها ضمن مناطق نفوذ الامبراطورية المصرية . وهى خطة تعتبر بكل المقاييس خطة حربية فذة وغير مسبوقة فى التاريخ العسكرى ، وهى التى « أوحت » إلى الفيلد مارشال مونتجومرى بخطة نقل سفن العبور الحربية براً ـ من فرنسا إلى المانيا ـ حتى وصل بها إلى الأماكن المحددة لعبور قواته نهر « الراين » أثناء الحرب العالمية الثانية .

● ويقولون كذلك إن خطة تحوتمس الثالث فى أخذ أبناء أمراء وحكام وملوك البلاد التى فتحها كرهائن ، وإرسالهم معززين مكرمين إلى مصر لتنشئتهم وتعليمهم بالمدارس المصرية ،وتربيتهم طبقا للتقاليد والعادات والثقافة والأخلاق المصرية ، ليصبحوا مجهزين سياسياً لحكم بلادهم حين يؤول إليهم الأمر ، وفى أعناقهم هذا الدين الحضارى تجاه مصر . . هذه الخطة طبقتها أيضا الامبراطورية البريطانية فى الهند وفى معظم المستعمرات التى كانت خاضعة للتاج البريطانى حيث أجبرت أبناء الأمراء والحكام وعلية القوم على الالتحاق بالكليات الانجليزية التى كانت تعلمهم الثقافة البريطانية وتنشئهم على تمجيد بريطانيا العظمى .

● ويجمع المؤرخون على أن تحوتمس الثالث كان يتمتع إلى جانب عبقريته العسكرية

بشخصية قوية تتميز بالنبل الرفيع والرجولة والعدالة والتدين والصدق ، وكانت سياسته الداخلية فى حكم البلاد تقوم أساساً على إقرار النظام العام ورفاهية الشعب .

● ومن آثار هذا الامبراطور لوحات ونصب تذكارية عديدة مازالت قائمة حتى الآن فى معظم المناطق الآسيوية والأفريقية التى أدخلها تحت النفوذ المصرى بالاضافة إلى مجموعة كبيرة جداً من الآثار التى ترجع لعهده والمنتشرة فى معظم متاحف العالم الحديث .

●● وكان مولعاً بنصب وإقامة المسلات التذكارية الضخمة فى المعابد والمدن المصرية . . ولكن شاء القدر أن تنقل بعض هذه المسلات ليعاد نصبها فى عواصم ومدن أخرى بعيدة عن وادى النيل بآلاف الكيلومترات . ومن الغريب أن المسلة المصريية القائمة حاليا على شاطىء نهر التيمس بلندن هى إحدى المسلات التى أقامها تحوتمس الثالث ، ومع ذلك يسميها الانجليز « مسلة كليوباترا » . . وقد انتقل هذا الخطأ إلى الامريكيين ، فأطلقوا اسم مسلة كليوباترا أيضا على إحدى مسلات تحوتمس الثالث التى تم نقلها ونصبها فى نيويورك .



ملامح النبل والشجاعة والعبقرية العسكرية للملك تحوتمس الثالث .

حين أصبحت مصر قمة الحضارة فى العالم القديم

أدت الفتوحات العسكرية فى عصر الأسرة الثامنة عشرة إلى فرض النفوذ المصرى على معظم دول العالم القديم فى المناطق السورية حتى جنوب شرق تركيا وعلى معظم مناطق العراق وعلى كل الأراضى التى تشغلها الآن سوريا ولبنان والأردن واسرائيل وفلسطين ، وعلى مناطق شرق ليبيا وشمال السودان .

● وطبقا للعرف الذى كان متبعاً فى العالم القديم فقد فرضت الجزية على تلك البلاد وامتلأت الخزائن المصرية بالذهب والفضة إلى جانب أعداد لاحصر لها من الخيول وأنواع المواشى والثيران والقرود وأنواع الأخشاب الفاخرة والجلود المدبوغة والفراء وريش النعام والعاج والبخور إلى غير ذلك من السلع المماثلة .

● كذلك فقد نشطت التجارة الخارجية بين مصر وتلك المناطق فازداد حجم صادرات المصنوعات والمنتجات المصرية كما استوردت مصر أفضل ما كانت تتميز به تلك المناطق من مصنوعات ومشغولات مثل الحلى والمجوهرات والأحجار الكريمة والأوانى والأباريق والأسلحة والمصنوعات الزجاجية والمعدنية والآلات الموسيقية .

● كما وفد إلى مصر آلاف من أمهر العمال والصناع الأجانب الذين أثّروا فى الأساليب التقليدية التى اشتهر بها عمال وصناع مصر القديمة . ويقول بعض المؤرخين ودارسى حضارة العصور القديمة إن هؤلاء العمال والصناع الأجانب قد تأثروا أيضا بالتكنولوجيا المصرية فمزجوها بأساليبهم المحلية ، ولذلك قد تميز إنتاجهم بأسلوب جديد ولكنه لا يخرج عن الطابع المصرى التقليدى المعروف . وهو ما يظهر فى كثير من القطع الأثرية التى يرجع تاريخها إلى هذا العصر .

● وقد وصلت مصر إلى قمة الثراء والغنى فى عصر الملك « أمنحوتب الثالث» الذى

يعتبر واحداً من أهم ملوك الأسرة الثامنة عشرة وهو والد « أخناتون » . وقد تزوج أمنحوتب الثالث من إحدى بنات الشعب المصرى وجعلها « الزوجة الملكية الرئيسية » وهى الملكة « تى » وكانت ذات شخصية فذة فى ميادين العلم والثقافة و السياسة . . بل و يعتبرها بعض المؤرخين أعظم نساء التاريخ المصرى القديم ذكاءً وقوة شخصية وعزيمة . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على انها جمعت كل زمام الأمور فى يدها بعد انصراف زوجها إلى التمتع بمناعم الحياة ولذائذها ، فأصبحت الحاكمة الفعلية للبلاد وصاحبة الكلمة العليا فى تسيير وإدارة الأمور فى الامبراطورية المصرية سواء فى داخل البلاد أو خارجها .

● وكان من نتائج هذا الثراء أن ساد الرخاء بين كافة طبقات الشعب المصرى من النبلاء والكتاب والضباط وأبناء الشعب العاديين من الفلاحين والعمال والصناع ، وانفتحت أبواب مراحل التعليم أمام هؤلاء على أوسع نطاق ، وأصبح تعليم اللغات الأجنبية ضرورياً ويأتى فى المرتبة التالية لتعليم اللغة المصرية ، بالاضافة إلى التوسع فى دراسة العلوم و الآداب المصرية والأجنبية .

● وأدى هذا الازدهار أيضاً إلى ظهور اتجاهات جديدة فى فنون العمارة والفنون التشكيلية والتطبيقية ، وضحت جلية فى فن نحت التماثيل الضخمة والصغيرة وزخرفة أعمدة المعابد والنقوش الجدارية ذات الألوان المبهجة والأكثر تحرراً من القيود الصارمة التى كانت تحكم الفنون المصرية التقليدية .

● كما يظهر هذا الرقى الحضارى فى آلاف القطع الأثرية التى عثر عليها والتى يرجع تاريخها إلى هذا العصر من التماثيل الصغيرة المصنوعة من المرمر أو الخشب أو العاج ، والتحف المصنوعة من الزجاج و الخزف ، والمجوهرات المطعمة بالاحجار الكريمة وشبه الكريمة ، وطراز الأردية والملابس ذات الذوق الرفيع . . لدرجة دفعت بعض المؤرخين إلى تسمية هذا العصر « بعصر الرفاهية والثراء والبذخ » وشبهوه بعصر هارون الرشيد أيام الدولة العباسية ، وعصر لويس الرابع عشر فى فرنسا أثناء القرن الثامن عشر.

أخناتون .. وديانة التوحيد بالله

أنت واحد . . ولا إله غيرك . . ولا شريك لك فى ملكك !

● من المؤكد تاريخيًا أن هذا الاعتراف كان أول صيحة انسانية رسمية شاملة تنادى بوحدانية الله خالق كل شيء . . أطلقها واحد من أعظم ملوك الأسرة الثامنة عشرة ، وهو « أخناتون » الفرعون الفيلسوف الشاعرالذى كان يرى الله فى « القوى المجردة الخفية » التى خلقت كل موجود فى هذا الوجود ، والتى ترزق الفرخ بداخل البيضة ، وترزق الجنين فى بطن أمه ، وتبعث الحياة فى قلب البذرة فيخرج النبات من جوف الأرض .

● وطبقا لطريقة الكتابة الهيروجليفية كان اسمه ينطق « آخ إن أتون » ويكتب الآن فى اللغات العربية والأجنبية « أخناتون » بفتح الألف أو « إخناتون » بكسر الألف . ومعنى هذا الاسم « المفيد للإله أتون » أو « الذى يخدم الإله أتون » . وقد أطلق أخناتون هذا الاسم على نفسه بعد أن تخلى عن إسمه الملكى « أمنحوتب الرابع » وهو الاسم الذى كان يتضمن الاشارة إلى الإله « آمون » الذى كان يعتبر أكبر الآلهة المتعددين الذين كانت تشملهم الديانات والعقائد المصرية قبل وبعد عصر التوحيد الذى أعلنه أخناتون .

● كان كهنة آمون وكهنة الآلهة المصرية الأخرى قد بلغوا من الثراء والسلطة حداً لم يبلغه من قبلهم كهنة الديانات المصرية المتعددة . وكانت ممتلكات المعابد تمثل أكبر نسبة من الثروة القومية ، وبالتالى فقد تمكنوا من السيطرة عل معظم اقتصاديات البلاد وسياساتها .

● وفور تولى أخناتون عرش مصر أمر بإلغاء جميع الديانات المتعددة وإزالة أسماء جميع الآلهة من جميع المعابد الدينية فى طول البلاد وعرضها ، فقضى بذلك على السلطات الواسعة التى كان يتمتع بها الكهنة ورجال الدين الذين كانوا يدعون بأنهم حلقة الوصل بين الانسان والإله . وأعلن أخناتون أن جميع المخلوقات يمكنها أن تعبد الإله الواحد دون أية وساطة من الكهنة أو رجال الدين .

● ولأن أخناتون كان فيلسوفاً وشاعراً موهوباً بالسليقة والفطرة فقد عكف على وضع وصياغة أجمل النصوص الأدبية للأناشيد والقصائد الشعرية الدينية لعبادة الإله « أتون» الواحد خالق كل شيء . وهو الإله الذى كان يرمز إليه بقرص الشمس تمتد منه أياد بشرية تمنح الحياة لكل ما فى الوجود من كائنات . وقد عقد كثير من المؤرخين مقارنات تحليلية بين بعض نصوص الأناشيد الدينية التى أبدعها أخناتون شعراً وبين نص «المزمور » رقم ١٠٤ من مزامير داوود المذكورة فى التوراة ، فوجدوا تشابهاً وتماثلا وتطابقاً بين الكلمات والجمل والمعانى وترتيب الأبيات . ونظراً لأن من الثابت تاريخياً أن عصر أخناتون يسبق التوراة بنحو سبعمائة سنة ، فقد أعلن عالم المصريات الكبير «ج . هـ. برستيد » أن أخناتون هو أول من وحد الله فى هذا العالم .

● ومن أجمل الصلوات التى صاغها أخناتون شعراً ذلك النشيد الدينى الذى يتعبد به ويقول فيه : « ياخالق المخرج فى جسم المرأة . . ياخالق النطفة فى ظهر الرجل . . يا واهب الحياة للجنين فى رحم أمه . . يامن يهدئه ويهدهده فلا يبكى . . يامن تغذيه وترعاه حتى يولد . . ياواهب أنفاس الحياة لكل مخلوقاتك منذ يوم يولدون . . يامن تفتح أفواههم لتعطيهم ما يقتاتون . . والفرخ الصغير حين يصبح فى البيضة تمنحه القدرة على التنفس ليستطيع الحياة . . ألا ما أكثر أعمالك الخافية علينا . . أيها الإله الواحد الذى لا مثيل له أبداً . . يامن خلقت الأرض والسماوات العلا . . وخلقت الانسان والحيوان والطير فى كل الأراضى المصرية والأراضى الأجنبية . . أنت الذى تضع كل رجل فى موضعه وتمد الجميع بأرزاقهم وتمنحهم أيام حياتهم المعدودة . . وتجعل أشكالهم مختلفة وتميز بين الأمم وبعضها . . وأنت الذى جعلت الفصول تختلف لينعم بها كل مخلوقاتك . . وبالرغم من بعدك فى أعلى السماوات ، إلا أنك قريب إلى كل يد تُرفع إليك عبادة وابتهالاً » .

● وقد صاحبت هذه الثورة الدينية ثـورة اجتماعية أخرى أعلن فيها أخناتون أن جميع الناس بطبقاتهم المختلفة على قدم المساواة أمام الإله الواحد ، لا فرق بينهم إلا بتقواهم وحسن سلوكيـاتهم الأخلاقية . . بالاضافـة إلى ثورة فى أساليب الفن كـانت ذات طابع متميز فى تاريخ الفنون المصرية القديمة بصفة عامة .



تمثال لأخناتون . . معروض بالمتحف المصرى .

نفرتيتى .. الجميلة التى حكمت مصر

أشرنا فيما سبق إلى بعض ملكات الأسرة الثامنة عشرة ممن كان لهن أثر كبير فى حكم مصر ونشر الحضارة المصرية . ولذلك فلا يمكن أن نغفل ذكر « نفرتيتى » الملكة الجميلة التى حكمت مصر بالاشتراك مع زوجها أخناتون فى ظل ديانة التوحيد .

● وقد ظهرت نظرية حديثة فى علم الآثار وتاريخ الحضارة المصرية القديمة تؤكد أن نفرتيتى حكمت مصر بعد وفاة زوجها كوصية على العرش الذى كان يتولاه « توت عنخ آمون » وهو إبن زوجها من زوجة أخرى اسمها « كيا » وكان لم يزل طفلا ولكنه كان صاحب الحق الشرعى فى وراثة العرش .

● وهذه النظرية الحديثة تتعارض مع ما كان يقول به المؤرخون من أن العرش قد انتقل بعد وفاة أخناتون إلى أخ له يدعى « سمنخ كا ـ رع » . وقد ثبت الآن أن هذا الاسم كان لقبا تلقبت به نفرتيتى حين انفردت بحكم البلاد كوصية على توت عنخ آمون .

● وكان المؤرخون يستبعدون فكرة زواج أخناتون من امرأة أخرى نظراً للحب العائلى الجارف الذى كان يربط بينه وبين زوجته نفرتيتى وبناته الست اللواتى أنجبهن منها . وقد ظهرت أواصر هذا الحب العائلى فى مئات النقوش الجدارية التى صورت أخناتون ونفرتيتى وبناتهما فى أجمل وأحلى صور الحب والترابط العائلى .

● وفى فترة السبعينيات توصلت عالمة الآثار المصرية « جوليا سامسون » إلى شواهد أثرية تؤكد النظرية التى قال بها من قبل عالم المصريات الكبير البروفيسور « ج . هاريس » من أن نفرتيتى هى التى خلفت زوجها فى حكم مصر بعد موته ، وليس هناك ملك اسمه « سمنخ كا ـ رع » .

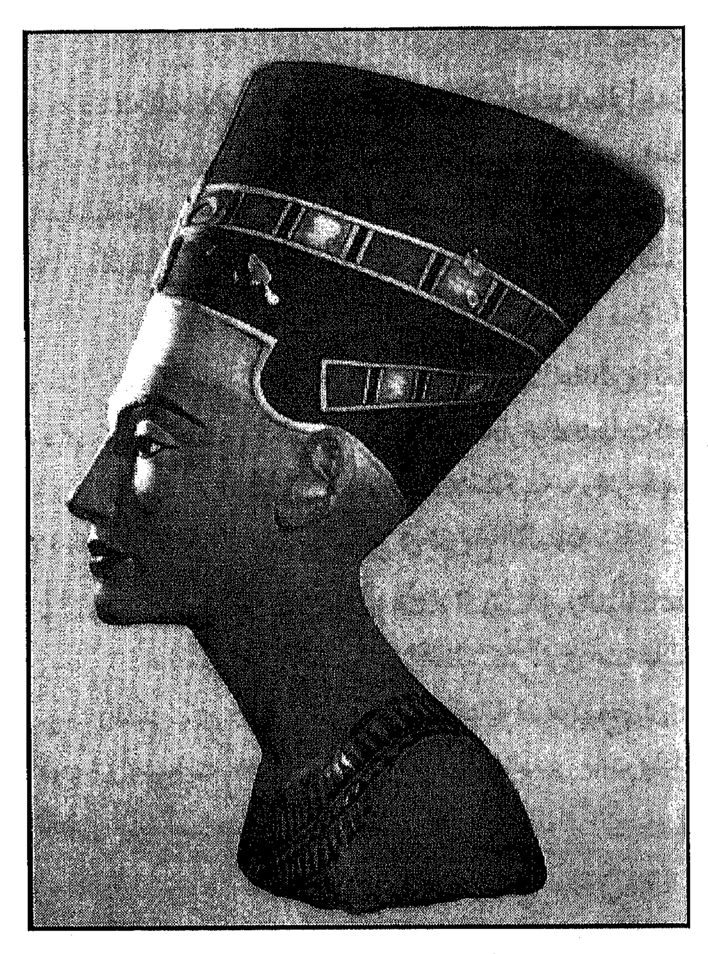
● وبالتحليل التاريخى لتلك الشواهد الأثرية قالت العالمة البريطانية جوليا سامسون أن رجاحة عقل نفرتيتى ووعيها السياسى كانا وراء السماح لزوجها عن طيب خاطر بأن يتزوج بفتاة يمكن أن تنجب له وريثاً للعرش . ومن المرجح انها اختارت «كيا» وهى إحدى وصيفاتها لتقوم بهذه المهمة . ومن المرجح أيضا أن « كيا » هذه أنجبت طفلاً لأخناتون أطلق عليه اسم « توت عنخ آتون » وهو الاسم الذى تغير فيما بعد إلى « توت عنخ آمون » تحت ضغط كهنة آمون وانتصارهم على ديانة التوحيد التى نادى بها أخناتون قبل وفاته .

● ورجحت جوليا سامسون أيضاً كفة القول بأن نفرتيتى كانت « ملكة حاكمة » شاركت زوجها فى دعواه الدينية كما شاركته فى مباشرة شئون الحكم ، وذلك بعد دراسة الكثير من النقوش التى صورت الزوجين معاً وهما يستقبلان الوفود الرسمية الأجنبية ، أو يقدمان الأنواط والنياشين لكبار رجال الدولة ، أو يفتشان على سفن الأسطول . كما تم العثور على لوحة تصور نفرتيتى فى هيئة « الفرعون المحارب » وهى منظر رمزى من المناظر التقليدية فى تاريخ الفن المصرى القديم ، وكان هذا المنظر قاصراً على الفراعنة وحدهم ، ويصور فيه الفرعون فى وضع متحفز ويمسك بيده اليسرى شعر رأس أحد الأسرى من أعداء مصر ويرفع بيده اليمنى هراوة أو سيفا يهم بتوجيهه إلى رأس العدو بضربة قاضية . . إلى غير ذلك من النقوش التى تؤكد ان نفرتيتى كانت ملكة حاكمة تمارس الوظائف والاختصاصات القاصرة على الفراعنة وحدهم ، والنقوش الأخرى التى تؤكد أن الزوجين أخناتون ونفرتيتى كانا يشتركان معاً فى حكم البلاد .

● ومن الألقاب التى أطلقها أخناتون عليها انها : « الزوجة الملكية العظمى . سيدة مصر العليا والسفلى . بهيجة بتاجها . ذات الحسن . حلوة الحب . زائدة الجمال . الجديرة بالمرح . سيدة السعادة . وسيدة جميع النساء » . أما اسمها فينطق حسب الكتابة الهيروجليفية « نفرت إيتى » ومعناه « الجميلة آتية أو مقبلة » . أما اسمها الملكى الرسمى فهو « نفر نفرو أتون » ومعناه الجميلة كجمال أتون .

● أما تمثالها الرائع الشهير المعروض حالياً بمتحف برلين ، فقد عثرت عليه بعثة

ألمانية كانت تجرى حفـائرها الأثرية فى مدينة « آخــت أتون » وهى تل العمارنة بمحافظة المنيا حـاليا فى أوائل هذا القرن ، وقامت البعثة بتهـريبه خارج البـلاد بطريقة خـادعة أقرب ما تكون إلى حيل لصوص الآثار .



أجمل تماثيل الملكة نفرتيتى ..
معروض حاليا بمتحف برلين .

أعظم كنز أثرى عثر عليه الانسان

فى أعقاب الحرب العالمية الأولى [١٩١٤ ـ ١٩١٨] سادت العالم أحداث جسام ، فقد تفاقمت المشاكل المحلية والمشاكل الدولية ، ونشبت حروب صغيرة وثورات واضطرابات سياسية واقتصادية واجتماعية فى معظم قارات العالم . . ثورة ١٩١٩ فى مصر . . وثورة البولشفيك فى روسيا . . وثورات الهند والصين ، وثورات دول أمريكا اللاتينية .

● وكانت أخبار تلك الأحداث تنتقل بين أركان الأرض بسرعة البرق بعد أن انتشرت أسلاك « التلجراف » فوق سطح الأرض وتحت مياه البحار والمحيطات لتصل بين دول العالم وقاراته . . ثم ظهر الراديو والاتصالات اللاسلكية ، وكثر ظهور الصحف ووسائط الإعلام الأخرى بشكل لم يسبق له مثيل فى تاريخ الانسان .

● وفى أوائل نوفمبر ١٩٢٢ توقفت جميع هذه الوسائل والوسائط الإعلامية والاخبارية فى حالة انتباه لتعلن خبر العثور على أعظم كنز أثرى عثر عليه الانسان فى القرن العشرين . وانتشرت فى جميع أنحاء العالم حكاية فرعون مصرى صغير اسمه «توت عنخ آمون » وأصبحت أخبار هذا الملك الصغير الذى مات منذ نحو أربعة وثلاثين قرناً تغطى على أسماء وأخبار الرؤساء والزعماء والملوك الأحياء فى جميع أمم الأرض .

● وبالنظر إلى أن الحركة الوطنية المصرية كانت على أشدها فى ذلك الحين ، فقد تفاخر المصريون جميعًا بهذا الكشف الأثرى العظيم دلالة وتأكيدًا على تاريخ مصر المجيد والحضارة الراقية التى صنعها شعبها منذ أقدم العصور . ومن الطريف أن نذكر

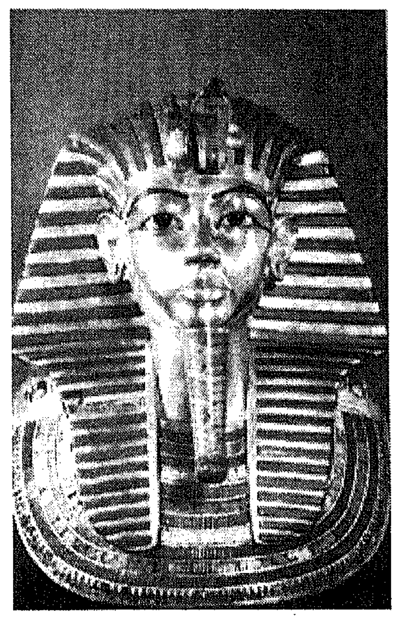
أن اسم تـوت عنخ آمون قـد أطلق على بعض الفنـادق ومحلات بيع الملابس والحلوانيـة وباعة العصير سـواء فى العاصمة أو فى كافة المدن المصرية بـالوجهين البحرى والقبلى . وكان محل توت عنخ آمـون بميدان العتبة الخضراء بالقاهرة من أشهـر محلات الحلويات والمشروبات الغـازية التى يقبـل عليها الشعب المصرى من سكـان القاهرة وزوارهـا من أهالى الأقاليـم . وبذلك أصبح اسم توت عنخ آمون متـداولاً ليس بين المتعلمين وقراء الصحف وحدهم ، بل وبين الناس العاديين ولو كانوا من الأميين .

● كانت مقبرة تـوت عنخ آمون التى اكتشفهـا هوارد كـارتر بوادى الملـوك أول وآخر مقبرة فرعونيـة يتم العثور عليها كاملة المحتـويات . . وكان الكنز الـذى دفن بداخلها يتضمن إلى جانب مـومياء الملك وتوابيته الـذهبية أكثر من خمسة آلاف قطعة أثـرية من تماثيل مرمرية أو خشبية مكسوة بصفائح الذهب أو مصبوبة كلها من الذهب الخالص . . ونماذج لمراكب وجعـارين وأوانى وأسرّة وحـوامل للرأس وكـراسى عـادية وكـراسى للعـرش ، وأضرحة ونـواميس وحلى ومصوغـات ومجوهـرات على شكل عقود وأسـاور وحلقان وخـلاخيل وصنادل وخـواتم وياقـات وقلادات صدريـة وكلها مصنوعـة من الذهب أو الفضة ومرصعة بالعاج والصدف والزجاج الملون والفيانس والفيروز والعقيق واللازورد وغير ذلك مـن الأحجار الكريمـة وشبه الكريمـة . . بالاضافـة إلى عجلات حربيـة مذهبـة وأقواس ورماح وسهـام وآلات موسيقيـة ومراوح من ريش النعـام ، بل وباقات من الزهور كانت آخر ما وضع فى المقبرة يوم الدفن .

● ويقـول المؤرخون وعلماء الآثـار المصرية الـذين درسوا هـذه المحتويـات الأثريـة وصنفوها وسجلوها تسجيلا علمياً : إذا كانت كل هذه الكنوز قد دفنت مع توت عنخ آمون وهـو ملك صغير ضئيل الشأن جداً إذا قـورن بغيره من الفراعنـة العظام . . فماذا كـان حجم الكنـوز والتحف الفنيـة الثمينـة التى دفنت مـع هؤلاء الفـراعنـة لتنـاسب عظمتهم وثراءهم ومكانتهم فى تاريخ البلاد .

● وتقـول أحدث النظـريات فى علم الآثـار المصرية أن تـوت عنخ آمون يعتبر ابنـاً لأخناتون أنجبه من زوجة أخرى اسمها « كيا » وكـانت وصيفة لزوجته المحبوبة نفرتيتى

التى زوجتها له لينجب منها وريثًا ذكراً للعرش بعد أن أنجبت هى ست بنات . وأطلق أخناتون على ابنـه اسم « توت عنخ أتون » ومعنـاه « الصورة الحية للإلـه أتون » . ولكن هذا الاسم تغير إلى « تـوت عنخ آمون » بعد هزيمة ديـانة التوحيد أمـام سلطات ونفوذ كهنة آمون بطيبة .



القناع الذى كان يغطى مومياء توت عنخ آمون
وهو مصنوع من الذهب الخالص ومزخرف
بالأحجار شبه الكريمة ويزن حوالى ١١ كجم .



هوارد كارتـر



لورد كارنارفون

نهاية الأسرة (١٨) .. وحكم ضباط الجيش

مـالت إلى المغيب شمـس عصر الأسرة الثامنـة عشرة التـى اعتبرها المؤرخـون أشهـر الأسرات الملكية فى تـاريخ العالم القديم والحديث ، وذلك بـانقطاع نسل آخر ملـوكها «توت عنخ آمون » من الذكور الذين يجوز لهم ارتقاء عرش مصر .

● ولهذا السبب فقد أصبح العرش ميراثاً لبعـض كبار ضباط الجيش المصرى الذين ذاعت شهرتهم العسكرية والادارية فى آخـر عصر هذه الأسرة . . فتولى العرش الضابط « آى » وهو من رجال الدولة المخضرمين وكان يتـولى منصب الوزير الأول فى عهد توت عنخ آمون وكان يتحكم من خلاله فى جميـع الانشطة الاقتصادية وثروات البلاد . . كما كان يتولى منصب « قائد سلاح المركبات الحربية » الذى يعتبر أكبر القوى الضاربة وأهم فروع الجيش المصرى .

● ويقول بعـض المؤرخين إن عهد الملك « آى » يعتبر بـداية « النظـام العسكرى فى حكم مصر » حيث تجمعت السلطات كلها فى أيدى ضباط الجيش . وقد استمر حكم الملك « آى » لفترة قصيرة بالنظر إلى كبر سنه . وتولى العرش بعده الضابط « حور محب» الذى كان يشغل منصب القائد العام للقوات المسلحة المصرية إلى جانب مجموعة أخرى من أعلى المناصب السياسية والادارية بالدولة .

● وفى بداية عهـد « حور محب » قام بحملة عسكـرية لتأديب الحيثيين الذين كـانوا يطمعون فى الاستيـلاء على الأقاليم السـورية التى كانـت تابعة للنفـوذ المصرى . وهزم جيشهـم هزيمة منكرة ، بل وأنشأ لأسراهـم معسكراً أقيم فى منطقة قرب منف ، حيث نرى على جدران مقبرته بمنف تسجيلا لنتائج هذا الصراع الحربى الذى نشب بين مصر

ودولة الحيثيين . كما نرى نقوشاً تصور « حور محب » وهو يقوم باستعراض مجموعة كبيرة من أسرى الحرب الحيثيين .

● ولحسن حظ « حور محب » أن انتشر وباء الطاعون فى دولة الحيثيين فتجمد نشاطهم العسكرى وتقلصت أطماعهم إلى حين . وبذلك استطاع أن ينصرف إلى تنفيذ اصلاحاته الدينية والاقتصادية والادارية والقانونية التى اشتهر بها فى التاريخ المصرى القديم ، والتى حقق بها نوعاً من السلام الاجتماعى بداخل الديار المصرية بل وفى المناطق والأقاليم السورية التابعة للحكم المصرى .

● وبالنظر إلى أن حور محب كان على رأس الجيش المصرى ، فقد توسع فى منح مناصب الدولة إلى مجموعة من كبار الضابط وعينهم فى المناصب العليا ، بل وعين بعضهم فى وظائف كبار كهنة المعابد المصرية حيث أصبحوا يسيطرون على ممتلكات تلك المعابد التى كانت تعتبر ركنا أساسياً فى اقتصاديات الدولة .

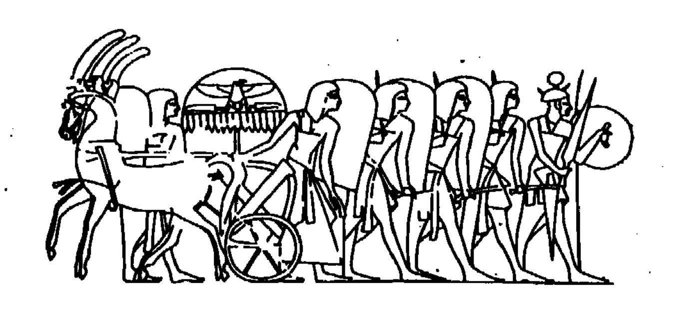
● غير أن بعض هؤلاء الضباط قد اساءوا استخدام سلطاتهم فى المناصب العليا التى تقلدوها ، لذلك فقد أصدر حور محب قانوناً جنائياً يتكون من عشر مواد يفرض فيه عقوبات شديدة ومغلظة على كل من يسىء استخدام سلطته من العسكريين أو من المدنيين . كما أصدر مجموعة أخرى من المراسيم والأوامر الملكية تتضمن وضع نظام صارم لعملية توزيع السلع والاحتياجات على جميع فئات الشعب .

● ومن أهم مواد هذا القانون المواد التى تقرر حماية الطبقة العاملة والفلاحين من أى اضطهاد أو سخرة أو سوء معاملة ، ومعنى ذلك أن هذه الطبقة تعرضت لتجاوزات ومخالفات وسوء استخدام للسلطة من جانب كبار ضباط الجيش وكبار الموظفين المدنيين الذين عينهم حور محب فى المناصب العليا بالدولة .

● ومن الطريف أن نذكر هنا أن جميع مواد هذا القانون ومقدمته كانت مكتوبة بلغة مبسطة أقرب ما تكون إلى اللغة العامية حتى يتعرف عليها كل البسطاء . وهو أمر كان نادر الحدوث فى النصوص الرسمية للقوانين والمراسيم المصرية .

● واستمر حكم حور محب حوالى عشرين عاماً . وكان حكمه هو الأرض الصلبة

التى تمت عليها كل الانجازات الحضـارية من اقتصادية وعسكريـة ودينية التى تميز بها «عصر الرعـامسة » الـذى بدأ حين اختـار حور محب خليفـة له فى حكم البـلاد اسمه «بارعمسيس » وهو ضـابط كبير كان يشغل منصب « قائد سـلاح الفرسان » ومنصب الوزير . . وهو الذى تولى عرش مصر بعد موت حور محب ، والذى سمى نفسه باسم « رمسيس الأول » وبدأ فى عهده عصر جديد هو عصر الأسرة التاسعة عشرة .



الأسرة (١٩) .. وعودة الروح العسكرية

اصطلح المؤرخـون على اطـلاق اسم « الدولـة الحديثـة » على الحقبة التـاريخيـة التى حكمـت مصر فيها الأسرات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ . . أى مـن سنة ١٥٧٠ إلى سنة ١٠٨٧ ق م . . وهى فترة استمرت نحـو خمسة قرون ، ويحلو لبعض المؤرخين أن يطلقـوا عليها اسم « عصر الامبراطورية المصرية » .

● وقد عرضنا فيما سبق الطفـرات الحضارية التى وصلت إليها مصر فى عصر الأسرة (١٨) التى انتهت بحكم ضباط الجيش وبداية عصر جـديد يسمى « عصر الرعامسة » وهو العصر الذى بـدأ ببداية الأسرة (١٩) . وهى أسرة ملكية عظيمة خـرج كل ملوكها من صفـوف الجيش المصرى ليعيدوا أمجاد الامبراطوريـة المصرية إلى مـا كانت عليـه أيام العز القديمة فى الأسرة (١٨) .

● اختار «حور محب » ـ آخر ملوك الأسرة (١٨) ـ ضابطا كبيراً اسمه « بارعمسيس» ليخلفه على عرش مصر . وكان هذا الضابـط من أسرة عسكرية عمل معظم أفرادها فى خدمة الجيش المصرى . . وشغل عدة مناصب عسكرية وإدارية عليا فى عهد حورمحب منها : قائد سلاح الفرسان . . ونائب الملك فى إدارة البلاد . . وحامى الحدود الشمالية الشرقية . . وقائد حاميات مصبات فروع النيـل . . ووزير الوجه البحرى والوجه القبلى . . والمشرف على كهنة جميع الآلهة . . ورئيس القضاة المشرف الأعلى على قـاعات العدل العظيمة .

● وبطبيعة الحال فإن توليه كل هذه المنـاصب جعله أهلاً لاختياره خلفاً لحور محب الذى لم ينجب وريثا للعرش ، فتولى ملك مصر مؤسساً لأسرة ملكية جديدة هى الأسرة (١٩) وأطلق على نفسه إسم « رمسيـس الأول » أسوة برائد العسكريـة المصرية « أحمس

الأول » الذى أسس الأسرة (١٨) قبله بنحو ٢٥٠ سنة .

● وبالنظـر إلى انه كان طاعنـاً فى السن حين تولى العرش ، فقد أشرك ابنـه الضابط «سيتى » فى حكـم البلاد ، وقلـده منصب قـائد الجيـش ، فعملا معـاً على « عسكـرة الدولـة » وأشاعا الـروح العسكرية ، ووضعـا الأسس الراسخـة لبداية عصر جـديد فى تاريـخ مصر العسكرى والسيـاسى والدينى ، وهـو عصر يتميز بـالرخـاء الاقتصادى والإصلاح الإدارى والنهضة الفنية والمعمارية فى طول البلاد وعرضها .

● وبالـرغم من أن عهد « رمسيس الأول » لم يستمـر أكثر من عامين ، إلا انـه أعاد فكرة « ماعت » كدستور ونظام لحكم البلاد . . وتعتبر « ماعت » لدى قدماء المصريين بصفة عامة أساساً حضارياً للعدالة والصدق والحق ، والالتزام الاخلاقى الصارم بالمثل العليـا ، والالتـزام بتأديـة الـواجب دون تقصير وعلى أكمل وجـه . وهى دستـور غير مكتوب ولكنه كان فخراً للملوك والحكام الـذين يضعون صالح الدولة وصالح الشعب فوق كل اعتبار .

● وتدل الشـواهد الأثريـة على أن « رمسيس الأول » قد أرسل حملات عسكـرية إلى النـوبـة وإلى منـاطق فلسطين بقيـادة ابنـه « سيتى » . كما أعـاد فتـح منـاجم الفيروز والنحاس فى سينـاء . وقد تم العثور على بعض الآثـار التى ترجع إلى عهـده فى مناطق سرابيت الخادم بسينـاء ، والقنطرة بشرق الـدلتا ، وتل اليهـودية وميت رهينـة والمرج ، وأبيدوس [العرابة المدفـونة بمحافظة سوهاج حالياً] ، بـالاضافة إلى تكثيف العمل فى قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك .

● وينتمى رمسيس الأول إلى أسرة « بحـراوية » من الـدلتا . . ومع ذلـك فقد اتخذ «طيبة / الأقصر » عاصمة رسمية ودينية باعتبارهـا مركز عبادة الإله آمون وكهنته الذين كانـوا السند الحقيقى لحكم ملـوك هذه الأسرة ، وذلك بالـرغم من أن هؤلاء الملـوك قد تطلعـوا إلى بناء عـاصمـة إدارية وعسكـريـة جـديدة بشرق الـدلتـا لتكون قـريبـة من طموحاتهم وفتوحاتهم العسكرية فى آسيا .

* * *

الضابط العظيم .. سيتى الأول

عظيم لأنه اقتدى بملك عظيم وجعله مثله الأعلى . . ولم يكن غريباً على هذا الضابط الطموح أن يتطلع الى الفتوحات التى نفذها « تحوتمس الثالث » عبقرى العسكرية المصرية فى التاريخ القديم والذى مد النفوذ المصرى فى آسيا وأفريقيا شمالاً وشرقاً وجنوباً وغرباً ، وأسس امبراطورية مصرية واسعة الأرجاء هادفاً إلى نشر الحضارة المصرية ومحققا الأمان والرخاء للشعب المصرى .

● هو « سيتى الأول » ابن رمسيس الأول ووالد رمسيس الثانى الذى يعتبر واحداً من أمجد وأعظم الملوك الذين حكموا مصر فى التاريخ القديم والتاريخ الحديث على حد سواء .

● كانت الامبراطورية التى شيدها تحوتمس قد تعرضت للتفكك والانفصال فى عهد أخناتون الذى لم يكن ميالاً بطبعه إلى الحروب والتوسعات العسكرية . وحدثت ثورات وقلاقل فى الأقاليم السورية واستقلت بعض هذه الأقاليم عن الحكم المصرى ، وبقيت أقاليم أخرى تحت الحماية المصرية خوفاً من بعض الدول الوليدة التى ظهرت فى المناطق الشمالية والشرقية من الأقاليم السورية ، وخصوصاً دولة « الحيثيين » أو دولة « خيتا » باللغة المصرية القديمة . . فقد بدأ ملوك هذه الدولة فى التطلع إلى الاستيلاء على أقاليم سوريا وفلسطين وكافة الأقاليم الآسيوية الأخرى التى كانت داخلة فى مناطق النفوذ السياسى المصرى وتحت حماية الجيوش المصرية .

● لذلك فقد كان همه الأول هو تأمين الحدود الشرقية والغربية للبلاد ، وتأديب بدو الصحراء الذين ظنوا أن مصر قد ضعفت واستكانت فقاموا ببعض أعمال السلب



سيتى الأول فى كامل تيجانه وصوبلجانه

يتلقى مباركة إلهة الوجة البحرى وإلهة الوجه القبلى .

والإغارة على الحقول لسرقة المحاصيل والمواشى والأغنام . أما همه الأكبر فقد كان إيقاف أطماع الحيثيين فى المناطق السورية والقضاء على المؤامرات التى كانوا يدبرونها ضد النفوذ المصرى بتحريض أمراء وحكام هذه المناطق لإثارة القلاقل ضد مصر وملكها .

● وعلى الجدران الخارجية لقاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك ترك لنا سيتى الأول مجموعة جميلة ومتقنة من النقوش التى تصور ثلاثاً من حملاته العسكرية التى قادها ضد البدو فى شمال سيناء وجنوب فلسطين ، وضد البدو الليبيين فى الغرب ، وضد مواقع الحيثيين التى احتلوها أو أثاروا فيها القلاقل فى المناطق السورية . ويقول علماء الآثار إن هذه النقوش تعتبر من أقدم مناظر المواقع الحربية التى خلفها لنا الفنانون المصريون القدماء . وكان من الواضح أن هذه الحملات الحربية الثلاث قد وقعت خلال الشهور الأولى من حكمه .

● تفرغ سيتى الأول بعد ذلك لتجييش جيش قوى جهزه بأعداد غفيرة من الضباط و الجنود المدربين ، وبكميات هائلة من الأسلحة والخيول والعربات الحربية ، وبث فى هذا الجيش روحاً عالية وقدرة قتالية فائقة وإصراراً على النصر فى أية موقعة .

● ولأن سيتى الأول كان ضابطا محارباً و يعرف الكيفية المثلى لادارة الجيوش وتجهيزها بما تحتاجه من إمداد وتموين بالاضافة إلى وضع النظم والقواعد لشئون الأفراد وحسن معاملة الضباط والجنود وحصولهم على حقوقهم المشروعة ، فقد ترك لنا آثاراً مكتوبة تدل على انه كان مهتما غاية الاهتمام براحة جنوده وضباطه والوفاء بحاجياتهم الحيوية والمعيشية والاهتمام بأسرهم وعائلاتهم . ولذلك فقد كان يزود الجميع بمخصصات من اللحم والأسماك والمواشى الحية والخضراوات والفواكه والخبز والزيتون والزيت الحلو وأثواب الكتان التى كانت تصرف لهم شهرياً .

● ولهذا فلم يكن غريباً أن هذه النهضة العسكرية المتجددة كانت أهم خطوة لإعادة الامبراطورية المصرية لحدودها السابقة . وهذا ماتم فى عهده وعهد ابنه رمسيس الثانى .

الامبراطورية المصرية .. تستعيد شبابها

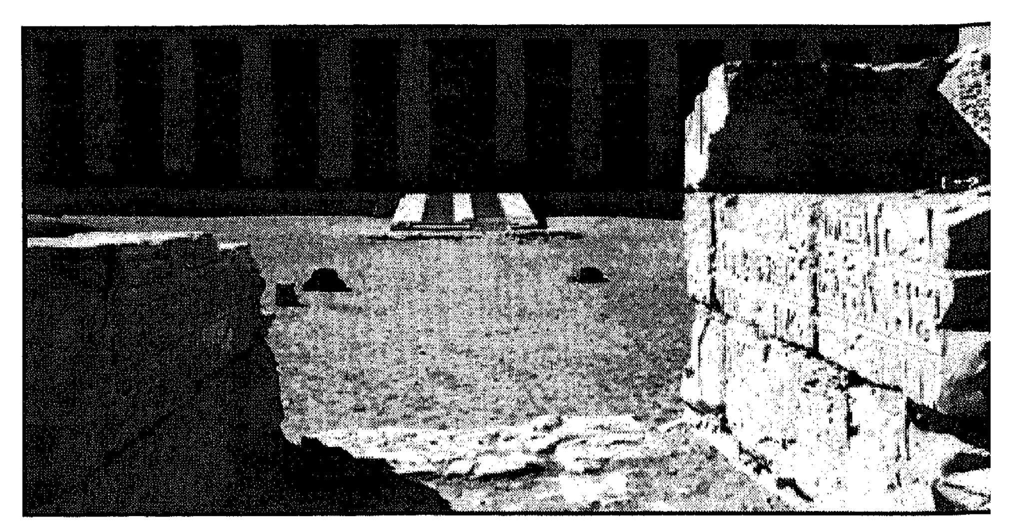
بعد أن أعاد الضابط العظيم « سيتى الأول » بناء القوات المسلحة البرية والبحرية ، قام بعمل فذ من أعمال الاستراتيجية العسكرية المصرية .

● أعاد السلطة والسيطرة على جميع الموانى الواقعة فى السواحل الشرقية للبحر المتوسط [فى فلسطين واسرائيل ـ الحالية ـ ولبنان وسوريا] . . وجعل هذه الموانى قواعد حربية بحرية لتموين وإمداد الجيش بالجنود والعتاد ، ولينطلق منها إلى داخل الأراضى والأقاليم السورية ليعيد إلى مصر امبراطوريتها الواسعة التى كانت ممتدة إلى نهر الفرات .

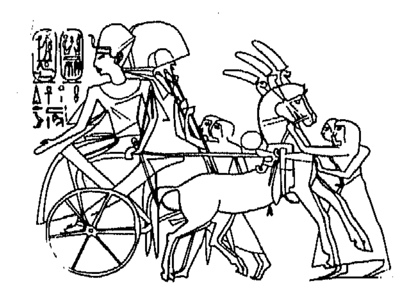
● وتكملة لهذا الطريق البحرى دعم « سيتى الأول » الطريق البرى الذى كان يربط شرق الدلتا بمدينة رفح بفلسطين خلال صحراء شمال سيناء ، وهو الطريق الحربى الذى أطلق عليه قدماء المصريين اسم « طريق حورس العظيم » . . وحتى يصبح هذا الطريق ملائما لمرور الجيش المصرى إلى الشرق وإلى الشمال ، أنشأ عدداً كبيراً من القلاع والحصون العسكرية ، كما حفر عدداً هائلا من الآبار اللازمة لتموين الجيش ذهاباً وإياباً .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن « سيتى الأول » شن حرباً على الحيثيين انتهت بعقد « معاهدة صلح » مع ملكهم « مواتالو » اعترف الحيثيون فيها بالنفوذ المصرى على الأقاليم السورية .

● وتدل هذه الشواهد أيضاً على أن « سيتى الأول » قد أقام العدالة وسيادة القانون فى ربوع الأراضى المصرية ، وقام بتوفير الجو الملائم لازدهار الصناعات والفنون المصرية حتى بلغت أعلى مستوياتها فى عهده وعهد ابنه رمسيس الثانى من بعده .



معبد أبيدوس { بالعرابة المدفونة ـ محافظة سوهاج }



رمسيس الأكبر .. سيد العالم !

ليست هذه الصفة مبالغة من عندى فى تمجيد « رمسيس الثانى » بل كانت هذه الصفة هى المفضلة لدى هذا الملك العظيم الذى كان مزهواً بنفسه بعد أن تميز عهده الذى استمر (٦٧) عاماً قضاها فى حكم مصر قائماً بالأعمال المجيدة الضخمة التى رفعت مكانته ومكانة بلده إلى أنصع صفحات التاريخ .

● وحتى نتعرف على كيفية اعتزازه بذاته ، فلنقرأ تلك الكلمات المدونة بالهيروجليفية على مسلته العظيمة المنصوبة حالياً فى ميدان الكونكورد بقلب باريس والتى تقول : «رمسيس . . قاهر كل الشعوب الأجنبية . . السيد على كل من لبس تاجاً . . المحارب الذى هزم الملايين من الخصوم والأعداء . . والذى خضع العالم كله لسلطانه ، معترفاً بقوته التى لا تقهر ! » .

● ومن التعليقات الطريفة التى ذكرها « وليم ماكويتى » مؤلف كتاب « رمسيس الأكبر سيد العالم » لبيان مدى شموخ هذا الملك القائد العظيم الذى أعاد مجد الامبراطورية المصرية ، أن باريس نفسها لو كانت موجودة على أيامه لكان بالقطع قد فتحها وضمها إلى امبراطوريته فى آسيا وافريقيا ، ولكان من المؤكد انه سيقيم مسلة عظيمة تسجل هذا الفتح ، ربما فى نفس المكان الذى توجد فيه مسلته الآن فى ميدان الكونكورد .

● تمرس رمسيس الثانى فى الحياة العسكرية منذ صباه ، فقد عينه والده - سيتى الأول - ضابطا فى الجيش المصرى عندما بلغ سن العاشرة . . وقضى فترات الفتوة والشباب مشتركا بشكل فعال فى حكم البلاد ، فاكتسب خبرات سياسية وعسكرية ومعمارية رائعة أهلته لأن يتبوأ المكانة العظمى التى عرف بها كملك عظيم شجاع فى تاريخ العالم القديم بأسره ، بل وأذاعت صيته وشهرته حتى اليوم ، ومن المؤكد انه سيظل محتفظاً بتلك الشهرة العظيمة فى عالم المستقبل .

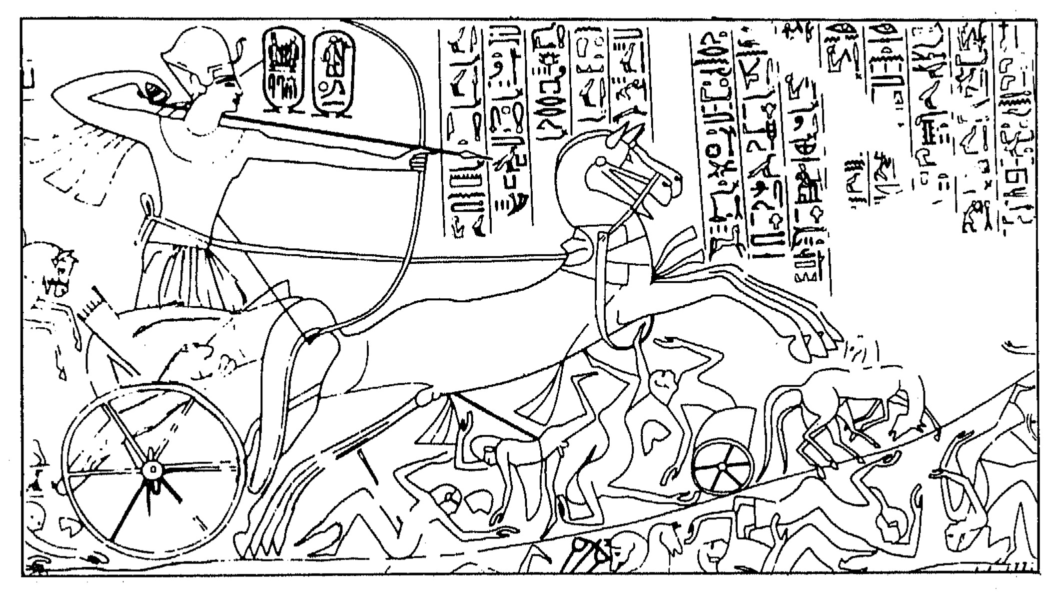
● وعلى أحد جدران معبد أبيدوس ـ العرابة المدفونـة بمحافظة سوهاج حاليا ـ نص يقول رمسيس فيه : « إن الإله عظمنى وبـاركنى منذ أن كنت طفلا إلى أن وليت الحكم . . لقد أعطـانى الحق فى إقـامة العـدل على الأرض . . واختارنى والـدى لوراثـة حكم الـوجهين القبلى والبحرى . . وأمـر بتعيينى قـائداً على قـوات المشـاة وقوات الفـرسـان . . وأمر بتتـويجى أثناء حياتـه ليشركنى معه فى الحكم وقـال عنى : توجوه كما لـو كان ملكا . . وضعوا على رأسه التاج الأكبر . . أريد أن أشاهد جماله وبهاءه وأنا حى ! » .

● وبعد موت والده انفرد رمسيس الثانى بحكم البلاد ، وكان ذلك فى عام ١٢٩٠ ق م . وخـلال فترة حكمه الطـويلة ، قـاد عدة حملات عسكـريـة ناجحـة أعاد فيهـا الامبراطوريـة المصرية إلى حدودها السـابقة التى وصلت إليها فى عهـد المحارب العظيم تحوتمس الثالـث ، بل وأضاف إليهـا مساحـات أخرى شمالاً وجنـوباً ، فشملت بـلاد النوبة بأكملها ممتدة حتى الشلال « الجندل » الرابع . . كما شملت كل أراضى فلسطين ـ واسرائيل الحالية ـ والأردن ولبنان وسوريا وشمال العراق حتى جنوب شرق تركيا .

● كان « الحيثيون » فى ذلـك الوقت هم القوة الوحيـدة التى تسبب المتاعب لمصر ، فقد كونوا دولـة وليدة كانت لم تزل فى عنفوانها وتشعر بمدى قـوتها ، ولذلك فقد جرؤوا على عقـد تحالفات مـع بعض حكام الأقـاليم السـوريـة التابعـة للنفـوذ المصرى ، بل وأوردت المخابـرات الحربية التابعـة للجيش المصرى أخباراً تفيـد أن ملك الحيثيين يعد جيشاً جراراً للهجوم على مصر .

● وسارع رمسيس الثانى بتجهيز الجيوش المصرية وإعدادها للحرب ، وانتظمت له أربعة جيـوش « فيالق » أطلق على كل منها اسم إلـه من الآلهة المصرية القديمـة « آمون . . رع . . بتـاح . . ست » . وكان تعـداد هـذه الجيوش الأربعـة (١٨) ألف محارب منهم (٨) آلاف من حملة الرماح والسهام و(٥٠٠) عربة حربية تسع كل منها اثنين من المحاربين بالإضافة إلى (٩) آلاف من المشاة .

● وعسكـرت هذه الجيـوش المصرية بـالقـرب من مدينـة « قـادش » التى تقع على ضفاف نهر العاصى جنـوب مدينة حمص الحالية انتظاراً للدخـول فى المعركة مع جيش



رمسيس الثانى وهو يسحق اعداءه

من الحيثيين فى موقعة قادش

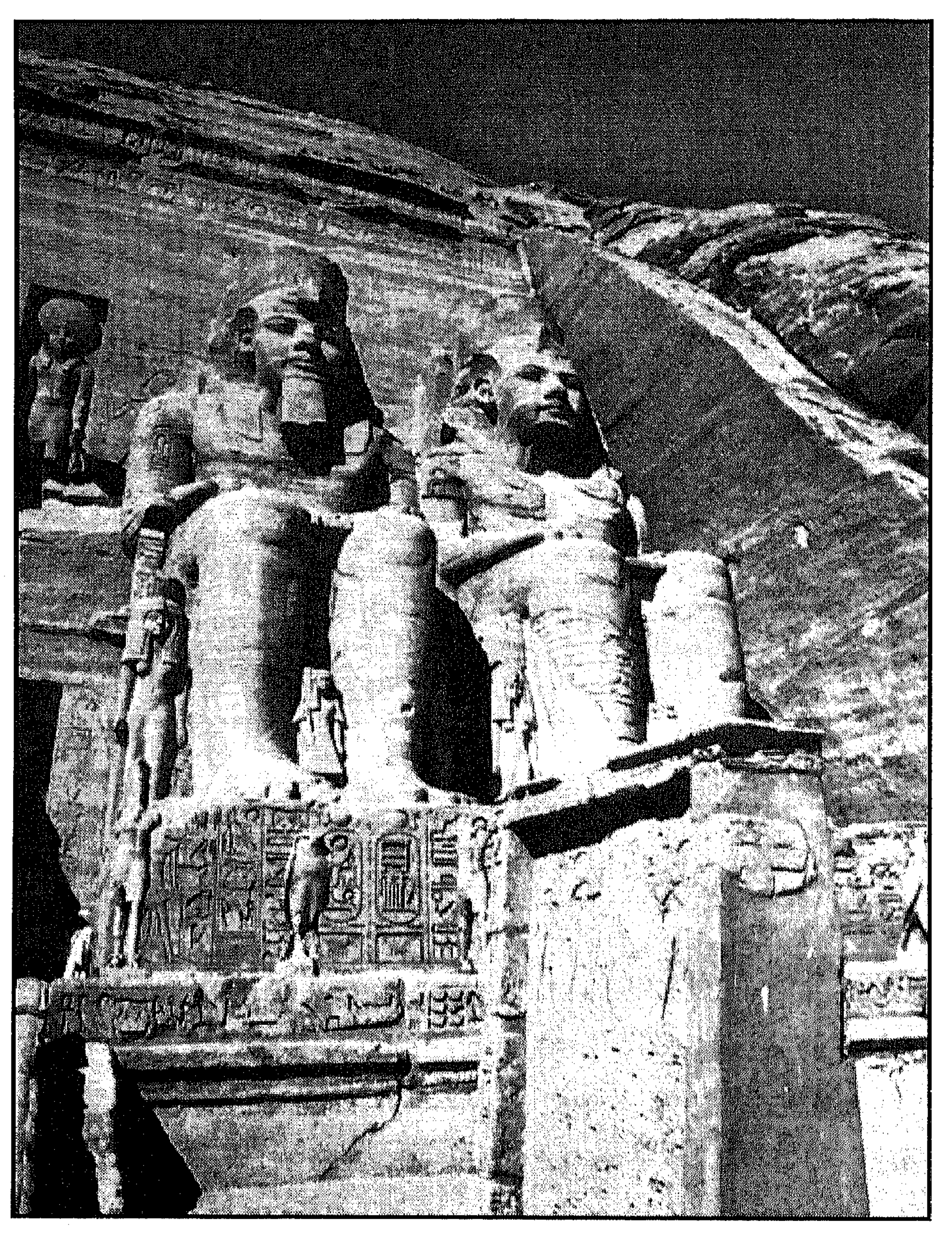
● وبعد إجراء المفاوضات العسكرية والسياسية ، دونت نصوص المعاهدة التى تم الاتفاق عليها فى برديات ولوحات فضية ، كما نقشت نصوصها على جدران معابد الرمسيوم والكرنك و إلفنتين . كما دونت نسخة منها بالخط المسمارى وباللغة البابلية التى فضلتها دولة الحيثيين لتكون لغة أجنبية .

● ولحسن الحظ فقد اكتشف عالم الآثار « هوجو فنكلر » هذه النسخة بين آثار مدينة « بوغازكوى » التى كانت موقعاً لعاصمة الحيثيين فى ذلك الزمن . . وتمت ترجمة هذه النسخة لمقارنتها بترجمة النسخ المصرية لتلك المعاهدة، وهى الترجمة التى عكف عليها كثير من علماء التاريخ والآثار المصرية ومن أشهرهم شامبليون وبرستيد وجاردنر.

● ويقول برستيد إن تاريخ إبرام هذه المعاهدة يرجع إلى عام ١٢٧١ ق م [أى منذ أكثر من ٣٢ قرناً] . ويقول أيضا : إن صياغة هذه المعاهدة لا تختلف كثيراً عن صياغة المعاهدات الدولية فى العصر الحديث شكلا ومضمونا . . وإن الانسان يقف مبهوراً أمام الدقة المتناهية التى صيغت بها نصوص المعاهدة وبنودها واللغة الدبلوماسية الرفيعة التى عبرت عن شروطها .

● وتتضمن المعاهدة : مقدمة إيضاحية تشمل التعريف بكل من الطرفين المتعاقدين وهما رمسيس الثانى والملك خاتوسيل ، وألقاب كل منهما ونسبه أباً وأجداداً ، ومقر كل منهما ، وذكر طلب الصلح الذى أبداه الحيثيون ، وكيفية تجديد المعاهدة . . ثم تأتى بعد ذلك ديباجة تنص على رغبة الطرفين فى إستئناف العلاقات الودية القديمة بين الدولتين . . ثم تتوالى بعد ذلك بنود المعاهدة التى تنص على شروط إقرار السلام ، و إقرار مبدأ الدفاع المشترك بين الدولتين .

● كما تنص المعاهدة أيضا على إجراءات تسليم المذنبين السياسيين والمجرمين العاديين . . وعلى التزام أولاد ملك الحيثيين وأولاد أولاده بأن يكونوا فى حالة صلح دائم مع أولاد رمسيس الثانى وأولاد أولاده . . وأن الآلهة المصرية والآلهة الحيثية شهود على هذه المعاهدة وتبارك طرفيها وستنزل اللعنة على من ينقضها .



تمثالان لرمسيس الثانى من التماثيل الأربعة

التى تتصدر واجهة معبد « أبو سمبل »

سيد البنائين .. وازدهار الفنون والآداب

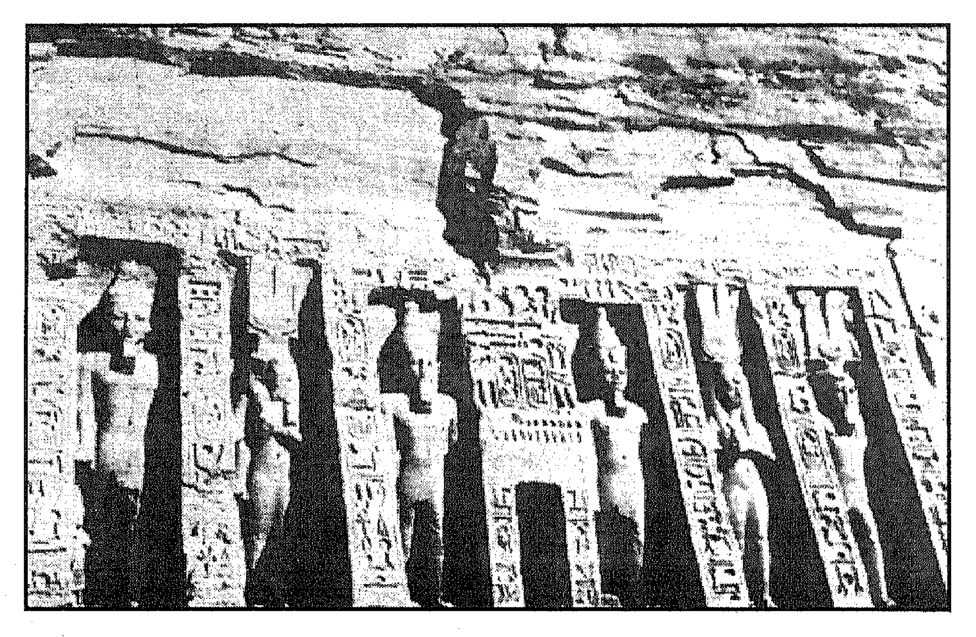
يحلو لكثير من المؤرخين وعلماء الآثار المصرية أن يطلقوا على رمسيس الثانى لقب «سيد البنائين» وذلك تقديرا منهم للإنشاءات المعمارية الضخمة ومبانى المعابد العظيمة الكبرى والتماثيل والمسلات واللوحات التذكارية التى شيدها فى جميع المدن والأقاليم المصرية ، والتى تتميز كلها بطابع « الضخامة والعظمة والأبهة » ، والتى ما زالت آثارها حتى الآن تثير إعجاب ودهشة المشاهدين والسائحين .

● ومن العسير أن يتم حصر جميع هذه الآثار المجيدة التى شيدها رمسيس الثانى فى طول البلاد وعرضها ، إلا أننا نستطيع أن نشير إلى أهم تلك الآثار فى مناطق سيناء وشرق وغرب الدلتا بالقرب من مناطق القنطرة والسويس والمنصورة والسنبلاوين وميت غمر وزفتى ودمنهور والدلنجات وبنها ومسطرد وبهتيم وهليوبوليس ومنشية الصدر والقاهرة والجيزة وميت رهينة . . وفى محافظات المنيا وأسيوط وسوهاج والأقصر وأسوان .

● وفى منطقة غرب الأقصر شيد رمسيس الثانى مقبرته الفخمة فى وادى الملوك . . ومعبد الرمسيوم العظيم الذى اعتبره الإغريق القدماء من عجائب الدنيا . . كما قام بتوسيع معبد الأقصر وأقام فيه قاعة للأعمدة العظيمة ، وأنشأ له بوابة ضخمة ذات برجين هائلين صور عليهما جميع وقائع معركة قادش بكافة تفاصيلها الحربية الدقيقة . وأقام لنفسه ستة من التماثيل الضخمة ومسلتين ضخمتين من الجرانيت الوردى ، انتقلت إحداهما إلى ميدان الكونكورد بباريس ، وما زالت الثانية فى مكانها بالمعبد .

● وفى عهده تم بناء وتشييد وزخرفة قاعة الأعمدة الكبرى بالكرنك . . وتتكون هذه القاعة من ١٣٤ عموداً ضخماً . . وتدل النقوش والكتابات المدونة بتلك القاعة

معبد أبو سمبل وتماثيل رمسيس الثانى
الشاهقة تتصدر الواجهة .



واجهة معبد نفرتارى المجاور لمعبد أبو سمبل الكبير .

على انها من إنشاء رمسيس الثاني . . ولكن معظم المؤرخين وعلماء الآثار يقولون أن ذلك مخالف للحقيقة . . فمن المعروف أن أول من بدأ بناء هذه الأعمدة هو «حورمحب» آخر ملوك الأسرة ١٨ ، ثم واصل بناءها من بعده رمسيس الأول ، ثم ابنه سيتى الأول . . وفى عهد رمسيس الثانى كانت قاعة الأعمدة شبه كاملة ، وما كان عليه إلا أن يزيل الأتربة والركام ، وينقش الأعمدة والجدران بالزخارف والكتابات .

● وفى بلاد النوبة جنوب أسوان حرص رمسيس الثانى على بناء مجموعة من المعابد الرائعة وكلها منحوتة فى قلب الصخر . . وأهمها معبد بيت الوالى . . ومعبد جرف حسين . . ومعبد السبوعة . . ومعبد محراب فرس . . ومعبد الدر . . ومعبد سرة . . ومعبد نباتا . . أما أهم وأضخم وأفخم تلك المعابد النوبية جميعاً فهو معبد أبو سمبل العظيم وبجواره معبد حتحور الذى أهداه إلى زوجته الجميلة نفرتارى .

● أما أهم الانشاءات المعمارية التى شيدها رمسيس الثانى فهو بناء عاصمة إدارية عسكرية جديدة لمصر ، وهى مدينة بر رعمسيس [أى بيت رمسيس] بشرق الدلتا .

●وقد أتاحت له معاهدة الصلح التى عقدها مع الحيثيين أن يتفرغ للاشراف على تلك الحركة المعمارية العظيمة التى شملت البلاد كلها . . وأن يتفرغ أيضا لإجراء الإصلاحات الإدارية والسياسية التى جعلت عصره يتميز بانه أوسع انفتاح شهدته مصر القديمة على العالم الخارجى ، فقد نشطت الحركة التجارية والسياحية بين مصر وكريت . . كما أصبح المصريون مولعين بالسياحة إلى الخارج وتعلم اللغات الأجنبية . . وأخذ الكثيرون يحشرون بعض الكلمات الأجنبية فى أحاديثهم العادية كدليل على قدراتهم الثقافية .

● وفى عهده أيضا ازدهرت الحركة الأدبية والفنية حيث انتشرت كتابة القصص والمسرحيات والحكم والأمثال والأشعار والأغانى الغزلية . . كما ازدهرت صناعة الآلات الموسيقية المصرية التقليدية والآلات الأجنبية الوافدة من البلاد الأخرى . . أما فنون النحت والتصوير فقد بلغت فى عهده أعلى درجة من الجمال والإتقان .

رمسيس الثانى .. والخديوى توفيق

فى اليوم التاسع عشر من الشهر الأول من فصل آخيت [الفيضان] فى السنة السابعة والستين من عهده المجيد ، صعدت الروح وغادرت جسد رمسيس الأكبر سيد العالم .

● هكذا أرخ قدماء المصريين موعد وفاة هذا الملك العظيم . . وقام كبار علماء المصريات بتحديد هذا التاريخ على وجه التقريب فى يوم يوافق ويعادل ١٢ يوليو ١٢٢٤ قبل الميلاد .

● وتشير النصوص القديمة إلى أن الوفاة حدثت فى مدينة « بر رمسيس » التى أنشأها فى منطقة شرق الدلتا كعاصمه إدارية وعسكرية جديدة لمصر . . ورحلت المومياء بعد تحنيطها فى موكب رهيب من السفن النيلية التى تحمل المشيعين من الكهنة وكبار رجال الدولة حتى وصلت إلى طيبة / الأقصر ، وعبرت البر الغربى لتدفن فى مقبرته الرائعة المنحوتة فى بطن الجبل بوادى الملوك .

● وإذا وضعنا فى الاعتبار كنوز الذهب وآلاف القطع الأثرية التى يتكون منها الأثاث الجنائزى الذى عثر عليه فى المقبرة الصغيرة التى دفن فيها توت عنخ آمون ـ وهو ملك ضئيل الشأن جدا إذا قورن برمسيس الثانى ـ فيمكننا أن نتخيل عظمة الكنوز التى كان يتكون منها الأثاث الجنائزى الذى دفن فى تلك المقبرة الضخمة التى دفن فيها رمسيس .

● ولكن بعد أقل من قرن ونصف قرن من دفن رمسيس الثانى فى مقبرته الفخمة بوادى الملوك تعرضت مصر لحالة من الفوضى السياسية والاجتماعية بسبب ضعف حكامها ، وانتشر فساد رجال الحكم وأصحاب المناصب العليا فى الدولة ، وتعرضت مقابر وادى الملوك التى دفن فيها الملوك العظام من الأسرتين ١٨ ، ١٩ إلى عمليات

السلب والنهب التى كانت تتم تحت إشراف كبار المسئولين من حراس تلك الجبانة الملكية [حاميها حراميها] . . وقد تم العثور على برديات تؤكد لنا حدوث عمليات النهب التى تعرضت لها تلك المقابر ، والتحقيقات القانونية التى أجريت مع عصابات اللصوص ومحاكمتهم وعقابهم على تلك الجرائم الشنيعة التى ارتكبتها تلك العصابات .

● وبالنظر إلى استمرار عمليات السلب والنهب ، فقد قام ملوك الأسرة (٢١) [حوالى عام ١٠٩٠ ق م] بتجميع مومياوات الملوك الذين تعرضت مقابرهم للسرقة ، وأعادوا دفنها فى مقبرتى أمنحوتب الثانى وسيتى الأول بوادى الملوك .

● وبعد نحو ١٢٠ سنة أخرى أعيد دفن مومياوات الملوك العظام مرة ثالثة فى مقبرة جماعية سرية تقع خلف معبد حتشبسوت بالدير البحرى والتى سميت فيما بعد باسم «خبيئة الدير البحرى » والتى اكتشفتها وأوشكت على نهبها أسرة عبد الرسول فى أواخر القرن التاسع عشر ، إلى أن قامت مصلحة الآثار المصرية بانقاذ مومياوات الملوك ونقلتها إلى القاهرة .

● وفى أثناء سير هذا الموكب الملكى الرهيب فى المسافة ما بين غرب الأقصر ومدينة قفط عبر الشعب المصرى عن إجلاله وتعظيمه لهؤلاء الملوك العظام الذين ماتوا منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، فقد اتشحت النساء الصعيديات بالسواد وأطلقن الصراخ والنحيب والولولة ، وأهلن التراب على رؤوسهن ، تماماً مثلما كانت تفعل النائحات النادبات من المصريات القديمات كما تبدو صورهن المنقوشة على جدرا المقابر الأثرية . أما الرجال فقد أخذهم الصمت الحزين والوجوم ، وأطلق كبارهم البنادق فى الهواء تحية وتقديراً و إجلالاً .

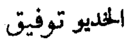
● وقد عن للخديو توفيق أن يشاهد مومياء رمسيس الثانى بعد أن شرح له المؤرخون وعلماء الآثار الأجانب تاريخ هذا الملك العظيم . . فأمر الخديو بفك أكفان المومياء ليرى رمسيس وجهاً لوجه . وفى الساعة التاسعة صباح أول يونيو ١٨٨٦ ، حضر الخديو هذه العملية . ويقول عالم الآثار « ماسبيرو » : ما أن ظهرت ملامح وجه

رمسيس ومعالمه الجسـدية حتى اندفع الخديو ومـن كان معه من معيته السنيـة من كبار رجال الدولة مثل القطيع ليروا هذه الشخصية الـرفيعة عن قرب ، وتزاحموا حول المومياء فوقعت المومياء على الأرض .

● ومـا أعظم المفـارقة فى تلـك اللحظة مـن تاريـخ مصر ، حيث يقف إثنـان من حكامها وجهـاً لوجه . . حاكم حديث ينتمى لأسرة ملكيـة أجنبية عن مصر واستعان بالانجليز لتثبيت عـرشه فكان رمزاً للخيانـة . . وحاكم مات منذ أكثـر من ٣٢ قرنًا ، أسس امبراطـورية مصريـة واسعة الأرجـاء ، وكان رمـزاً للحضارة المصريـة التى بهرت العالم القديم كله .



رمسيس الثانى



الخديو توفيق

هكذا يحترمون حضارتنا !

منذ أن رفعت شرائط ولفائف الكتان التى كانت تلف موميا ء رمسيس الثانى لأول مرة أمام الخديو توفيق عام ١٨٨٦ ، تعرضت المومياء للرطوبة والعوامل الجوية بكل ما فيها من ملوثات . وبعد أن ظلت المومياء محفوظة بأمان لأكثر من ثلاثة آلاف سنة ، بدأت تتأثر بعدد من الأمراض أخذت تظهر تباعاً على مدى ٩٠ سنة حتى تقرر علاجها عام ١٩٧٦ .

● وكانت صاحبة الدعوة إلى علاج مومياء رمسيس الثانى من تلك الأمراض والفطريات التى كان من الممكن أن تؤدى إلى تحلل المومياء نهائياً خلال سنوات قليلة ، الاستاذة الكبيرة « كرستين ديروش نوبلكور » المفتشة العامة الفخرية للمتاحف الفرنسية ، والتى تعتبر من أكبر علماء الإجيبتولوجى [علم المصريات] فى فرنسا .

● قامت هذه الاستاذة الكبيرة بالاتصالات المبدئية مع الجهات الطبية والفنية التى ستقوم بعلاج المومياء بأحدث الأجهزة وطبقا لأدق الأبحاث العلمية ، لوضع قواعد واجراءات فحص المومياء وتحديد العناية القصوى عند نقلها خلال رحلتى الذهاب والعودة . . ثم قامت باجراء الاتصالات الرسمية مع الجهات الحكومية الفرنسية والمصرية للموافقة على خروج المومياء من مصر ودخولها إلى فرنسا . . وقد تمت هذه الموافقة باتفاق بين الرئيسين المصرى والفرنسى .

● وتحرر لرمسيس الثانى جواز سفر دبلوماسى . . وفى صباح يوم ٢٦ سبتمبر ١٩٧٦ خرجت المومياء من المتحف المصرى بميدان التحرير ، واخترقت شارع رمسيس [المسمى باسمه] والمؤدى إلى مطار القاهرة الجوى ، حيث كانت فى انتظارها طائرة «ترانزال » خاصة تابعة لسلاح الجو الفرنسى .

● وصدرت أوامر الخبراء الفرنسيين للطائرة بأن تحلق خلال رحلتها إلى فرنسا على

ارتفاع منخفض وبسرعة خفيفة ، وذلك كاحتياطات لسلامة المومياء . . وقبل أن تغادر الطائرة الأجواء المصرية ، حلقت فوق الأهرام ليمر رمسيس بالقمم الشامخة التى شيدها أسلافه من ملوك مصر الذين حكموها فى عصر يسبق عصره بنحو ١٣٥٠ سنة .

● ووصلت الطائرة إلى مطار قاعدة بورجيه العسكرية بباريس ، حيث استقبلت المومياء طبقا لقواعد البروتوكول الدبلوماسى الفرنسى الخاصة باستقبال الملوك العظام على الأرض الفرنسية ، حيث أطلقت المدافع واصطف حرس الشرف على جانبى الممر الذى تمر فيه المومياء والمفروش بالسجاجيد الحمراء ، وكانوا يرتدون أبهى حللهم العسكرية لتقديم تحية الشرف طبقا لقواعد البروتوكول ، بينما كانت الفرقة الموسيقية العسكرية تعزف لحن المارش الجنائزى .

● وكان على رأس المستقبلين الرسميين الاستاذة « سونييه سايتييه » مندوبة عن رئيس الجمهورية الفرنسية والمشرفة على « متحف الإنسان » الذى ستتم فيه معالجة المومياء ، بالاضافة إلى سفير مصر فى فرنسا .

● وتهادت المومياء فى موكب رهيب وهى مغطاة بغطاء مخملى أزرق اللون ومطرز بتشكيلات مذهبة لزهور اللوتس المصرية . وقد صمم هذا الغطاء خصيصا فى الأتيلييه الملحق بمتحف اللوفر .

● وفى الطريق إلى متحف الانسان التابع للمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى بفرنسا ، دارت السيارة التى تقل مومياء رمسيس الثانى حول مسلته التى تحمل اسمه والمنصوبة بميدان الكونكورد فى قلب باريس . وهى المسلة التى أهداها محمد على لفرنسا تقديراً لجهود « جان فرانسوا شامبليون » فى حل ألغاز الكتابة الهيروجليفية .

● وبعد سبعة شهور وأربعة عشر يوماً ، انتهت عمليات علاج المومياء ، وتم توديعها بمثل ما استقبلت من مراسم الحفاوة والتكريم ، ونقلتها طائرة ترانزال أخرى تابعة لسلاح الجو الفرنسى ، ووصلت إلى القاهرة مساء يوم ١٠ مايو ١٩٧٧ .

كيف عالجوا رمسيس فى باريس .. ؟!

فى عام ١٩٨٥ ، اشتركت وزارة العلاقات الخارجية الفرنسية ووزارة الثقافة الفرنسية ومتحف الانسان التابع للمتحف الوطنى للتاريخ الطبيعى بباريس فى إصدار كتاب مرجعى يقع فى ٥٦٠ صفحة من القطع الكبير بعنوان : LA MOMIE DE RAMSES - 2 [مومياء رمسيس الثانى ـ مساهمة عملية فى الإجيبتولوجى] .

● ويتضمن هذا الكتاب جميع التقارير العلمية التى كتبها نحو ٥٠ عالماً متخصصا فى مجالات الطب والذرة والهندسة والكيمياء والآثار المصرية والتاريخ المصرى القديم . . وهم العلماء الذين اشتركوا بتخصصاتهم العلمية الدقيقة فى فحص مومياء رمسيس الثانى وعلاجها بأحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من أجهزة وطبقا لأحدث ما وصلت إليه بحوث التشخيص الطبى وعلوم الأحياء .

● وقد ثار فى مصر جدل عقيم حين قال بعض رجال هيئة الآثار المصرية أن « مركز بحوث الآثار » التابع للهيئة قادر بحكم تخصصه على دراسة العوامل التى تؤثر على سلامة الآثار وخاصة الاصابات الحشرية والفطرية وطرق الوقاية منها وأشاع آخرون أن الصهيونية العالمية وراء فكرة فحص مومياء رمسيس وعلاجها فى فرنسا بغرض التأكد مما إذا كان رمسيس الثانى هو فرعون موسى الذى أخرج بنى اسرائيل وطردهم من مصر أم لا .

● ولكن رجالاً آخرين من الهيئة كانوا أوسع فهماً وأكثر تقديراً للأمور وضعوا فكرة انقاذ مومياء رمسيس من التحلل فوق كل اعتبار ، وكانت ثقتهم بالعلماء الفرنسيين كبيرة ، خصوصاً وأن عمليات فحص وعلاج المومياء كانت تتم فى جهات تشرف عليها

الحكومـة الفرنسية وتحت رعـاية بعض الـوزراء الفرنسيين تنفيذاً لما تم الاتفـاق عليه بين الرئيسين المصرى والفرنسى .

● وطبقا لما ورد فى فصول الكتاب المرجعى الـذى أشرنا إليه يمكننا أن نلخص جميع عمليات الفحص والعلاج والترميم التى أجريت للمومياء فى فرنسا على النحو التالى :

● فحص شـامل لحالـة التـدهور التى لحقت بالموميـاء ، ودراسـة بكتريـولوجيـة للفطريات والميكروبات والحشرات الدقيقة التى أوشكت على تدمير المومياء .

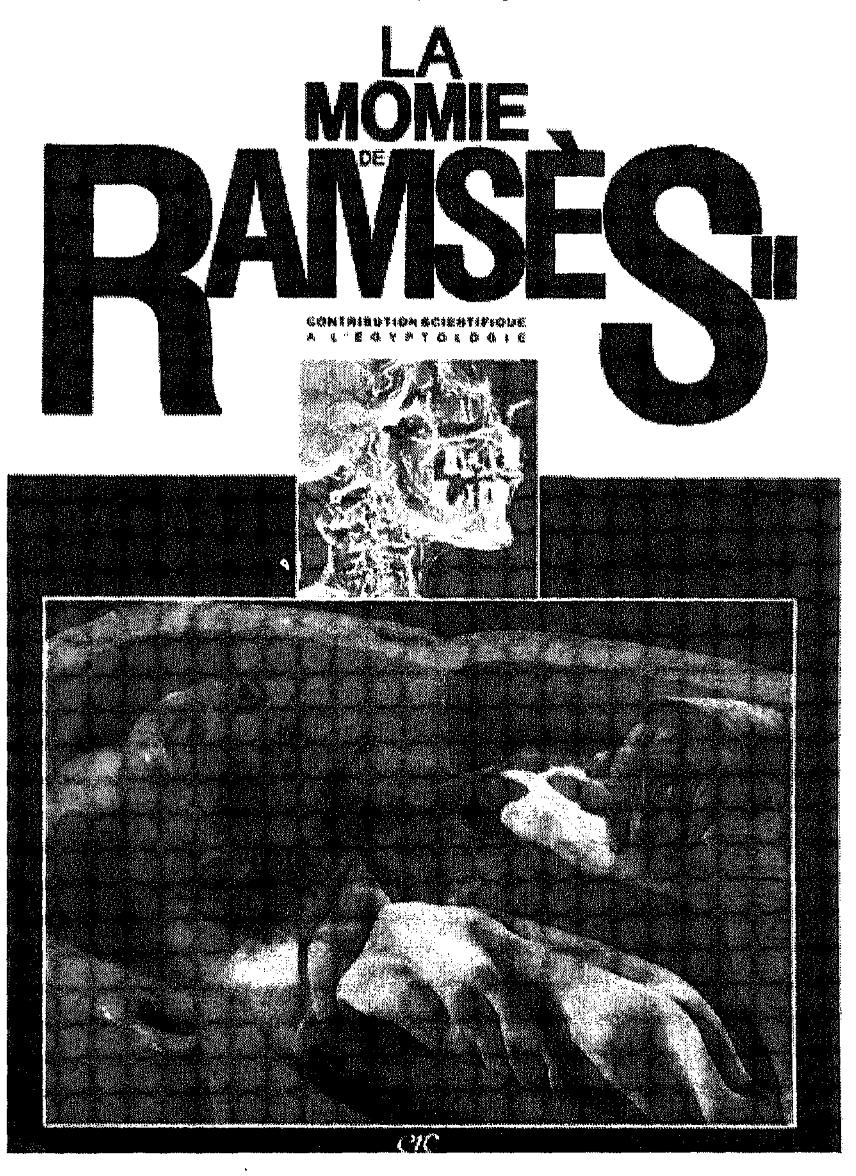
● دراسات عن المواد النباتية المستخدمة فى لفائف الأكفان والتى استخدمها قدماء المصريين عنـد تحنيط رمسيس بعد مـوته . ومـن الطريف أن نـذكر هنـا أن عالم الآثـار «ماسبيرو » وصـف هذه الأكفـان بأنها مصنوعـة من قماش الكتان الـرقيق الـذى يشبه الموسلين الهندى الشفاف فى طـراوته ونعومة ملمسه . . ومن الطـريف أيضا أن فحص وتحليل المواد النباتية بأدق الأجهزة العلمية الحديثة أثبت وجود بقايا بنات « النيكوسيانا» المعادل للنيكوتين فى داخل التجويف البطنى للمومياء ، وهو أمر أثار دهشة العلماء .

● تمت دراسـة مستفيضة بـالمجهر الإلكترونـى وبالأشعـة السينيـة وبأشعة الليـزر وبمطياف الكتلـة وبالتنشيـط النيترونى لجميع خواص شعـر رأس رمسيس وحـواجبه ورموشه وذقنه لتحـديد الوسائل العلاجية لانقاذ هـذا الشعر من التحلل . وقد وصف شعر رمسيـس بأنه ممـوج وذو لون أبيض محمـر يميل إلى الصفـرة [من أثر الحنـاء التى استخدمت عند التحنيط] .

● وأجـريت البحـوث التكنيكيـة لتحـديـد عمـر الموميـاء وأعمار جميع المكـونـات والعناصر النبـاتية والخشبيـة الملحقة بـالمومياء وتـابوتها وذلك بـاستخدام الكـربون ١٤ المشع .

●واعتمد عـلاج المومياء بصفـة أساسيـة على التعقيم الإشعاعـى باستخـدام أشعة «جـامـا » من مصـدر « كـوبـالت ٦٠ » لتخليص الموميـاء مـن جميع أنـواع البكتريـا والفطـريات . وقـد أجريت هـذه العمليات فى « معمـل مؤسسـة الطاقـة الذريـة » فى جرينوبل التى تقع بالقرب من باريس .

● ويـذكر الكتـاب فى النهـاية أن عـلاج رمسيس الثـانى فى فـرنسا تـم كما لو كـان شخصية عـالمية هـامة جدا على قيـد الحياة . . كما أمـرت السلطات الفرنسيـة بتصميم ميدالية تخليداً لذكرى زيارة رمسيس لباريس .



غلاف الكتاب الضخم الذى صدر فى فرنسا

عن كيفية علاج مومياء رمسيس الثانى .

أول مرة يذكر فيها اسم إسرائيل فى مصر

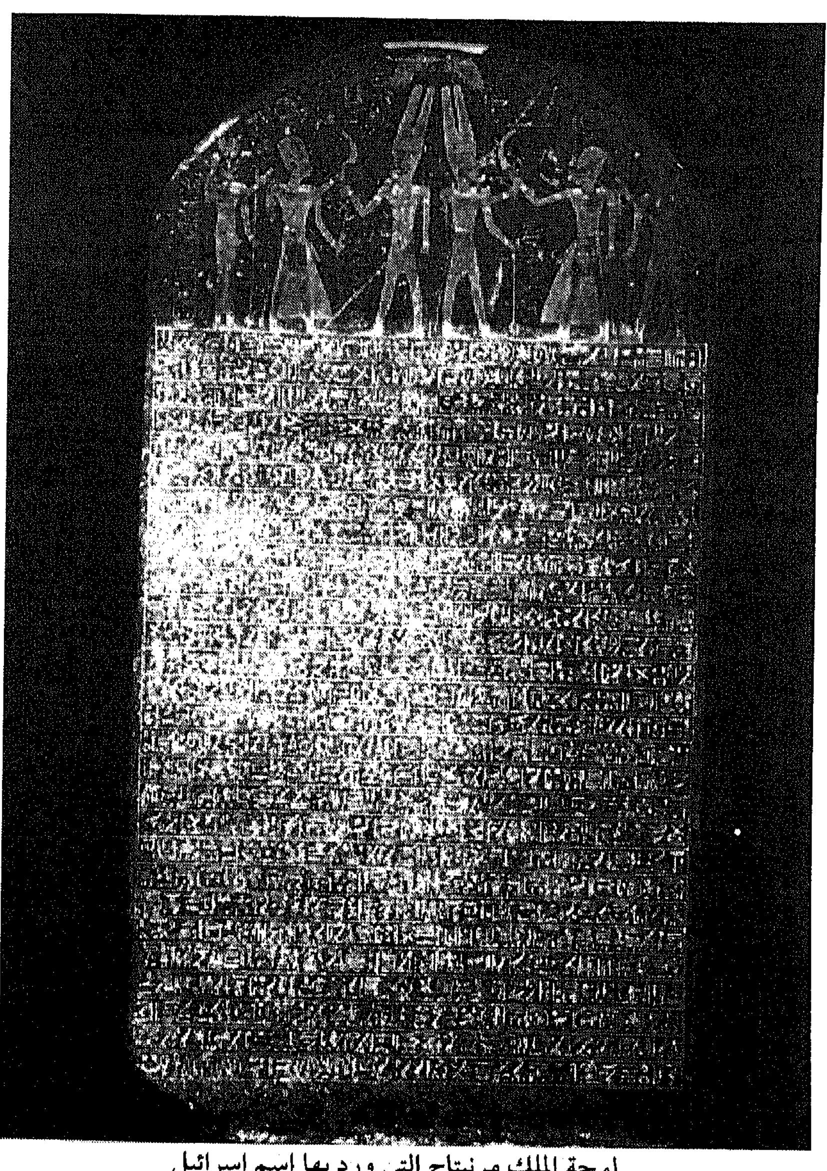
كان المصريون القدماء يطلقون اسم « شاسو » على البدو الرعاة الذين كانوا يعيشون فى المناطق الآسيوية الصحراوية بشمال شرق البلاد ، وعلى الأخص البدو الذين يعيشون فى شمال شبه الجزيرة العربية ومناطق جنوب فلسطين .

● وبالنظر إلى المستوى الحضارى الرفيع الذى كانت تتميز به مصر فى العالم القديم كله ، فقد كان المصريون القدماء ينظرون إلى هؤلاء البدو الرعاة باعتبارهم شعوبا غير متحضرة وقبائل من الهمج الذين لا يخضعون لقانون أو نظام سوى النظام القبلى البدائى الذى كان يتحكم فى سلوكيات أفراد تلك القبائل كما يتحكم فى عمليات التناحر والتفاخر الأجوف وأعمال السلب والنهب والسطو والاقتتال بين القبائل المتجاورة للسيطرة على المراعى العشبية وآبار المياه التى كانت نادرة فى تلك المناطق .

● ومن بين قبائل « الشاسو » هذه قبيلة « اسرائيل » التى وفدت من الشرق واستوطنت إقليم « إفريم » الجبلى ، وهو إقليم منعزل لم يسكنه من قبل إلا نفر قليل . ولم تتميز قبيلة اسرائيل عن غيرها من تلك القبائل البدوية البدائية الهمجية إلا بقدراتها على السلب والنهب وسرقة القبائل المجاورة لها والاختباء بغنائمها فى المنطقة الجبلية الوعرة التى كانت تسكنها .

● أما القبائل البدوية الأخرى ، فقد ورد ذكرها فى الوثائق المصرية القديمة بأنهم كانوا مجموعات من عصابات اللصوص وقطاع الطرق يعرفون المسالك الصحراوية والجبليه الوعرة التى يكمنون فيها متربصين بكل من يمر لممارسة السرقة والسطو والقتل إلى جانب عملهم الرئيسى فى رعى ما يملكونه من ماعز وأغنام .

● وقد اعتادت هذه القبائل أن تغير على المزارع والقرى المصرية الواقعة على أطراف



لوحة الملك مرنبتاح التى ورد بها اسم اسرائيل
لأول مرة فى الآثار المصرية .. ويقول أحد
نصوصها : « لقد خربت اسرائيل وقطعت بذرتها » .

شرق الدلتا لتسطو على المحاصيل الزراعية والحيوانات والدواجن التى يملكها الفلاحون المصريون ، ثم يفرون هاربين إلى مخابئهم فى دروب الصحراء . ولذلك فقد كانت من مفاخر الفراعنة أن يذكروا العمليات الحربية التأديبية التى قاموا بها ضد هذه القبائل من قطاع الطرق واللصوص لتأديبهم ولمنع أذاهم عن مصر . وعلى سبل المثال هناك كثير من المناظر التى تصور رمسيس الثانى وهو يطأ بقدميه رؤوس رؤساء قبائل « الشاسو» . كما يذكر تاريخ العديد من ملوك الأسرتين ١٩ ، ٢٠ الحملات التى قام بها هؤلاء الملوك ضد هذه القبائل فى المواقع التى كانوا يعيشون فيها .

● ومع ذلك فهناك الكثير من الشواهد الأثرية المصرية القديمة تدل على أن بعض تلك القبائل كانت تقوم بحركات هجرة لا تنقطع وتستوطن بعض المناطق فى تخوم الدلتا وشرق الأراضى المصرية ، وذلك بسبب فقر البيئة التى كانت تعيش فيها تلك القبائل وماكانت تعانيه من قحط وجوع . وأشهر مثال على ذلك ما قامت به قبيلة بنى اسرائيل التى استوطنت المنطقة التى يسميها التاريخ اليهودى « أرض جوشن » وتقع فى « وادى طميلات » بشرق الدلتا .

● وفى أوائل هذا القرن اكتشف عالم الآثار البريطانى « سير فلندرز بترى » لوحة تذكارية منسوبة إلى الملك « مرنبتاح » أو « منفتاح » وهو ابن رمسيس الثانى ، نقشت عليها أسماء قبائل « الشاسو » التى قام بتأديبها . وقد وردت بهذه اللوحة عبارة تقول «لقد خربت اسرائيل وقطعت بذرتها » . وتعتبر هذه اللوحة الوثيقة المصرية الوحيدة التى جاء فيها ذكر « إسرائيل »» لأول مرة فى النقوش والمدونات المصرية .

● وقام بعض المؤرخين بتفسير تلك العبارة بالقول بأن الملك « منفتاح » هو « فرعون موسى » الذى طرد بنى اسرائيل من مصر فى واقعة « الأكسودس » أو « الخروج » التى ذكرتها التوراة وكتب العهد القديم . . غير أن هذا القول لا يسنده أى سند من التاريخ المصرى القديم ، ومازال فرعون موسى غير معروف حتى الآن على وجه التحديد .

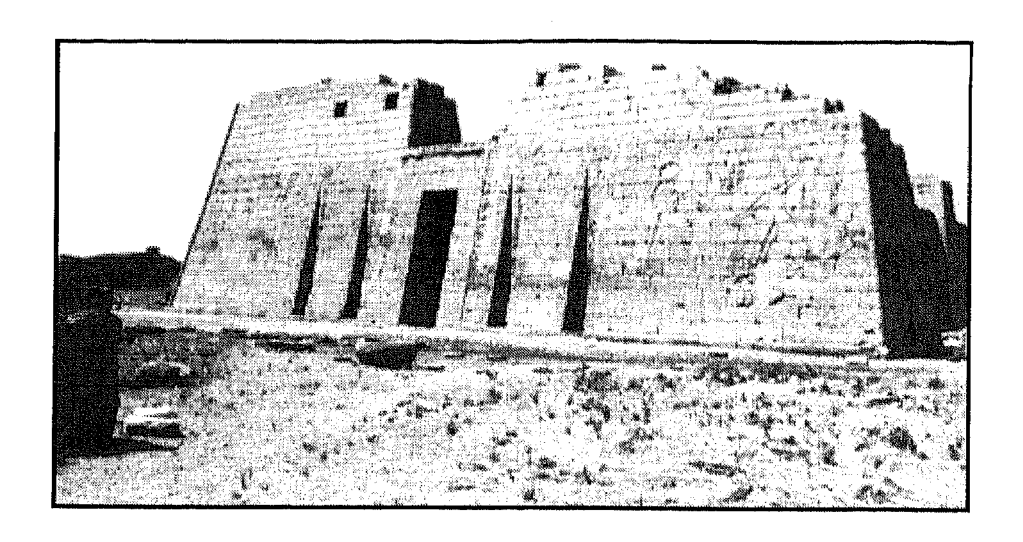
آخر الفراعنة العظام

انتهت الأسرة ١٩ بعد موت رمسيس الثانى وابنه منفتاح بمجموعة من الملوك النكرات الضعاف ، إلى أن تولى عرش مصر ملك قوى جمع بين القوة الحربية والمقدرة السياسية التى كان يتميز بها رمسيس الثانى . وأسس هذا الملك الجديد أسرة ملكية جديدة هى الأسرة ٢٠ وهى آخر الأسرات الملكية التى تكونت منها الحقبة التاريخية المعروفة باسم « الدولة الحديثة » .

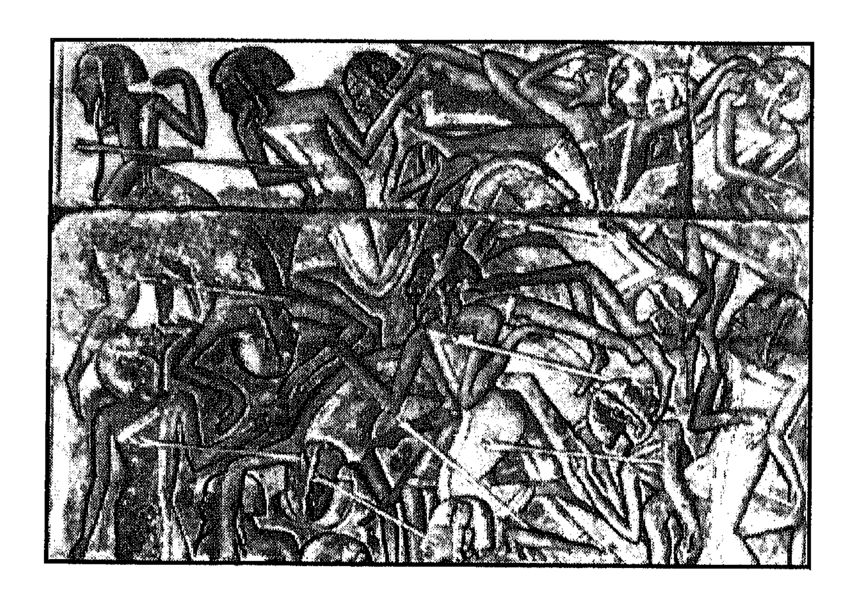
● وصلت إلينا أخبار وأعمال هذا الملك العظيم فى كتابين كبيرين : الأول منقوش على جدران معبده الجنازى الذى يعتبر أضخم بناء لملك مصرى بقى سليما وبحالة جيدة ، وهو معبد « مدينة حابو » بغرب الأقصر . والكتاب الثانى عبارة عن وثيقة سجلت أعماله الحربية والسياسية والدينية على بردية يبلغ طولها أكثر من ٤٠ متراً .

● جعل رمسيس الثالث من رمسيس الثانى مثلاً أعلى يقتدى به فى حروبه ومنشآته الدينية والمدنية . . فبمجرد اعتلائه عرش مصر ، بذل كل جهده فى إصلاح الأحوال الداخلية للبلاد والتى كانت قد وصلت إلى حالة سيئة فأصلح الأداة الحكومية ، وأعاد تنظيم الجيش وتجهيزه بالأسلحة القوية ، كما وطد أركان الأمن وزرع الطمأنينة فى صدور الشعب . وهناك نص يشير فيه الملك إلى حالة الأمن والأمان التى سادت فى عهده بقوله : « . . . أصبحت المرأة تسير فى الطرقات وحدها وهى آمنة دون أن تتعرض لأية معاكسة من شرير ! » .

● ومن شدة ولع رمسيس الثالث بسلفه العظيم رمسيس الثانى ، فقد أطلق على أبنائه نفس الأسماء التى أطلقها سلفه على أبنائه العديدين . كما أن ملوك الأسرة العشرين كلهم أطلقوا على أنفسهم اسم رمسيس بدءاً من رمسيس الثالث وانتهاء برمسيس الحادى عشر . ولذلك فقد أطلق المؤرخون اسم « عصر الرعامسة » على فترة حكم هؤلاء الملوك الذين تسموا باسم رمسيس .



مدخل معبد رمسيس الثالث بمدينة هابو .



منظر من المعركة البرية التى قادها رمسيس الثالث ضد شعوب البحر .

● وتدل الشـواهد التـاريخية والأثريـة على أن رمسيس الثالث كـان « آخر الفـراعنة العظام » الـذين حكموا مصر . فقد تقلصت الامبراطـورية المصرية بعد عهـده وبدأت تفقـد سيطرتها بـالتـدريج على المنـاطق التى كـانت خـاضعـة للنفوذ المصرى فى آسيـا وأفريقيـا . بل وبدأت مصر تتعرض باستمـرار لغزوات شرسة من جـانب قبائل الليبيين وقبائل البدو القادمة مـن مناطق غرب آسيا بالاضافة إلى قبائل همجيـة أخرى قادمة من آسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط خصوصاً جزيرة صقلية وجزيرة سردينيا التى تدفقت منها قبائل كاملة كان المصريون القدماء يطلقون عليهم اسم « شردانا » . ومن المحتمل أن اسم سردينيا قد اشتق من هذا الاسم المصرى القديم .

● وقد أطلق قدماء المصريين على هذه القبائل اسم « شعوب البحر » وكانت تتكون من عشرات الآلاف من المهـاجـرين المسلحين الذين جلبـوا معهم زوجـاتهم وأولادهم وحيوانـاتهم قاصـدين الوثـوب إلى مصر واقتحام أراضيهـا الحافله بالخيرات الـوفيرة من حبوب وفواكه وخضراوات وغيرها من النعم الأخرى من مختلف أنواع الطعام والشراب . ويقول المحللون أن السبب الدافع وراء تفكير جميع هذه القبائل فى غزو مصر هو معاناتهم من الجوع فى بيئاتهم الفقيرة . . ويقول بعض المؤرخين أن « شعوب البحر » ربما كانوا فى الأصل من بلاد القوقاز ثم وفدوا إلى جزر البحر المتوسط وآسيا الصغرى .

● وتجمعت هـذه القبائل كلهـا فى المنـاطق السـورية والفلسطينيـة . . ثم تـدفقت جموعهم بعد أن تسـاوت صفوفهم وبدأوا عملية تهديـد الحدود الشمالية الشرقية لمصر . وهناك فاجأهم رمسيس الثـالث بجيشه القوى وهزمهم هزيمـة منكرة . وتصف البردية التى أشرنا إليها هذه المعركة بالقـول بأن « جلالته قد انقض عليهم كلهيب النار المنتشر فى هشيم كثيف ، وكـالطيور الـواقعة فى شبكـة الصيد . . فـدرسوا كأنهم حـزم القمح وأصبحوا هشيما كالقش ، وألقوا على الأرض مخضبين بدمائهم وكانت هزيمتهم ثقيلة لا حد لها كأن جموعهم الكثيفـة قد اجتمعت سوياً فى مكان ذبحهـا ، واقتيد كل من بقى منهم حياً أسيراً إلى مصر» .

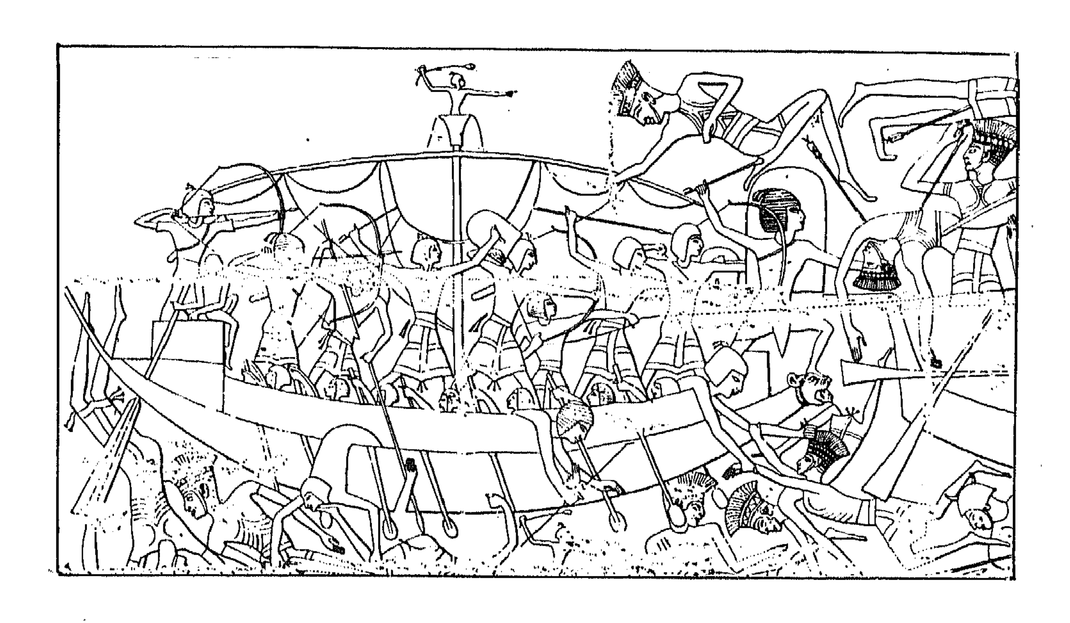
سيناريو أول معركة بحرية فى تاريخ العالم

بعد المعركة البرية التى انتصر فيها رمسيس الثالث على جموع القبائل التى كانت تسمى « شعوب البحر » والتى كانت تهدد حدود مصر الشمالية الشرقية ، انصرف الملك إلى معاودة تحسين الأحوال الداخلية للبلاد . . فأنشأ العديد من المصانع والمعامل، وازدادت بالتالى عمليات التصدير وازدهرت تجارة مصر الخارجية .

● وفى البردية التى تضمنت الأعمال التى قام بها رمسيس الثالث وأمربتسجيلها نص بليغ يقول : « . . . وأمر جلالته باقامة العديد من الحدائق والبساتين والمتنزهات العامة، وبزرع الاشجار على جوانب الشوارع » . كما واصل أعماله الانشائية الأخرى حيث أمر ببناء عدد من المعابد الدينية فى بعض المدن المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى .

● كما واصل العمل فى بناء معبد « مدينة حابو » وهو معبد فريد فى مضماره بين المعابد المصرية القديمة ، وكأنه كتاب مصور نقش الملك على جدرانه صوراً وكتابات سجل فيها جميع معاركه الحربية التى انتصر فيها ، بالاضافة إلى مناظر عامة للأعياد والاحتفالات الملكية التى حدثت فى عهده ، ومناظر للملك وهو يقضى ساعات فراغه فى اللهو أو الصيد ، وتقارير عما قدمه إلى الآلهة من قرابين تتضمن الأراضى التى أوقفها على المعابد وأعداد أسرى الحرب الذين قدمهم عبيداً إلى تلك المعابد .

● ويضم معبد مدينة حابو بين جدرانه بناءً للقصر الملكى الذى كان يعيش فيه الملك مع زوجاته وأولاده ، وكان هذا القصر موصولاً ببناء آخر يباشر فيه الملك أعماله الحكومية والخاصة بشئون الدولة ، بالاضافة طبعاً إلى المعبد الجنازى الذى كان مخصصاً للممارسات الدينية .



منظر من المعركة البحرية التى خاضها
الاسطول المصرى بقيادة رمسيس الثالث
ضد شعوب البحر .

● غير أن هذه الأوضاع المستقرة لم تستمر لفترة طويلة ، إذ وصلت إلى المخابرات الحربية المصرية أخبار تفيد بأن جموعاً أخرى من شعوب البحر يجهزون أنفسهم للتهديد بغزو مصر ، وانهم ينوون استخدام السفن للدخول إلى البلاد عبر مصبات النيل فى شمال شرق الدلتا . وعلى الفور أمر رمسيس الثالث باستنفار الجييش استعداداً للمعركة القادمة .

● ويقول المؤرخون أن هذه المعركة تعتبر أول معركة بحرية كبرى فى تاريخ العالم . وقد جاء وصف « تقريرى » لتلك المعركة فى البردية التى يبلغ طولها نحو ٤٠ مترا والتى أشرنا إليها سابقا . كما جاء وصفها « التصويرى » منقوشاً على جدران معبد مدينة حابو . . وهو وصف عبارة عن « سيناريو كامل » يتضمن مجموعة من المناظر تظهر فيها خمس من سفن شعوب البحر الأعداء ، تطاردها أربع من السفن الحربية المصرية ، تلقى على سفن الأعداء سهاماً وحراباً كالمطر الغزير ، فيتساقط الأعداء بين قتيل وجريح ، ويسقط بعضهم غريقاً فى ماء النيل . . كما تقوم السفن المصرية بأسر الأعداء بعد تدمير وأسر سفنهم .

● ومن الواضح أن الفنان الذى أشرف على تصميم مناظر تلك المعركة البحرية قد التزم بالنص التقريرى الذى ورد بالبردية حيث نقرأ قول الملك : « . . . هؤلاء الذين وصلوا إلى حدودى أفنيت بذرتهم وقضيت على قلوبهم وأرواحهم إلى أبد الآبدين . أما الذين جاءوا من البحر فان اللهب المشتعل [وهو الاسم الذى يصف به الملك أسطوله الحربى] كان ينتظرهم عند مصبات النيل ، فى حين أن « سور الحراب والسهام » قد أحاط بهم على الشاطىء وانتهى بهم الأمر بأن أصبحوا محاصرين ومطروحين أرضاً وهم قتلى وامتعتهم سقطت فى الماء » .

● واستمر حكم رمسيس الثالث « آخر الفراعنة العظام » نحو ٣١ سنة ، وانتهت حياته نهايه دراميـة محزنة ، نتيجة لمؤامرة نسائية دبرتها إحدى زوجاته لكى يتولى العرش ابنه منها . وقد حوكمت تلك الزوجة هى وشركاؤها أمام هيئة قضائية من بعض الكهنة وكبار رجال الدولة .

أول إضراب عمالى فى تاريخ العالم

يبدو أن بذور التحرر الانسانى التى غرسها أخناتون بها كانت تتضمنه من القول بأن البشر وجميع المخلوقات سواء أمام الله ، قد استقرت فى وجدان الشعب المصرى بجميع طبقاته بل وبين أقل هذه الطبقات شأناً .

● ومنذ نهاية الأسرة ١٨ وتولى ملوك الأسرتين ١٩ ، ٢٠ عرش مصر [أى على مدى نحو ٣٥٠ سنة] ازدهرت طبقة الفلاحين والعمال المصريين وخففت عنها الضرائب وأعطيت الكثير من الحقوق الانسانية والضمانات الاجتماعية .

● وقد تميز عصر الدولة الحديثة كله بازدهار الصناعات المصرية كما أدى ازدهار التجارة الخارجية إلى استيراد الكثير من المصنوعات الأجنبية التى أخذت تتدفق إلى الأسواق المصرية . لذلك فقد زادت تطلعات مختلف طبقات الشعب إلى مزيد من تلك السلع والحاجيات المصرية والأجنبية ، فارتفعت الأسعار فى الأسواق ، وبدأ العمال والحرفيون يشعرون بأن الأجور التى يحصلون عليها لم تعد تناسب الجهد الذى يبذلونه ، ولم تعد تتمشى مع تكاليف المعيشة التى ارتفعت بشكل لم يسبق له مثيل فى العصور السابقة .

● لذلك كله لم يكن غريبا أن يقوم العمال بالاضراب عن العمل للمطالبة بزيادة أجورهم ورواتبهم ومخصصاتهم العينية . ويصف المؤرخون هذه الواقعة بأنها أول تسجيل تاريخى فى العالم لعملية اضراب العمال للمطالبة برفع الأجور . وقد تكرر حدوث الإضرابات العمالية فى عصر الرعامسة . ولحسن الحظ فقد تم العثور على بردية أطلق عليها المؤروخون اسم « بردية الإضراب » تصف لنا وقائع إضراب عمالى حدث فى السنة التاسعة والعشرين من حكم رمسيس الثالث .

● وقبل أن نعرف تفاصيل هذا الإضراب نشير إلى أن معظم ــ إن لم يكن جميع ــ

الملوك والفراعنة المصريين كانوا يفخرون بأنهم كانوا يعطون للعمال والفلاحين حقوقهم ، ويمنعون عنهم السخرة أو تشغيلهم دون أجر . وكانت السلطة المركزية للدولة المصرية تتبع نظام التكافل الاجتماعى العام ، وهو نظام اقتصادى يشبه كثيراً النظام الذى اصطلح علماء الاقتصاد المحدثون على تسميته باسم « النظام الاقتصادى الاشتراكى للمجتمعات الفلاحية والعمالية » . وكان هذا النظام مطبقا طوال التاريخ المصرى القديم على جميع العمال والفلاحين الذين يعملون لحساب الدولة [القطاع العام] .

● وكانت الأجور تصرف فى شكل « جراية » أو مخصصات عينية . وعلى سبيل المثال هناك نص مكتوب يتضمن أنواع الجرايات الوفيرة التى كانت تصرف بأمر رمسيس الثانى لكافة العمال الذين يعملون فى مشروعاته ، كالملابس والحبوب والخضراوات والفواكه والزيوت واللحوم والأسماك ، بل وكانت تصرف لهم أيضا حصصاً من العطور وكان من المفروض أن تكون الجراية كافية تماماً لسد حاجات العامل وأسرته التى يعولها .

● وفى أواخر عهد رمسيس الثالث أعلنت بعض فئات العمال عن سخطها الشديد بسبب ارتفاع الأسعار وقلة الجرايات لمدة شهرين متواليين ، الأمر الذى أدى إلى تجمع العمال ، وكانوا من النحاتين والحفارين وقاطعى الأحجار والبنائين وصناع الجبس والفخار والنجارين وحملة الماء [السقايين] وتظاهروا أمام معبد مدينة حابو وأعلنوا شكواهم قائلين [حسب نص بردية الاضراب] : « ليس لدينا ملابس ولا زيت ولاسمك ولاخضر . . إرسلوا للفرعون سيدنا العظيم هذه الشكوى . . وارسلوها أيضا إلى رئيسنا الوزير حتى يمدنا بما نعيش به . . إننا سنجلس هنا حتى تجاب مطالبنا » .

● ونفهم من نص البردية أن الوزير وكان اسمه « تو » قد تدخل فى الأمر وقام بتهدئة العمال وشرح لهم المتاعب الاقتصادية التى تعانيها الدولة ، ولذلك فلم يستطع الوزير أن يلبى جميع مطالبهم وأقنعهم بالرضاء وقبول نصف الحقوق التى كانوا يطالبون بها .

● وقد تكررت ظاهرة إضرابات العمال فيما بعد حتى أصبح الإضراب عن العمل سلاحاً تستعمله طبقة العمال المصريين القدماء للحصول على أجورهم المناسبة وحقوقهم المشروعة .

أول محضر تحقيق بوليسى فى تاريخ العالم

بعد موت رمسيس الثالث وحتى نهاية الأسرة العشرين بنهاية عهد رمسيس الحادى عشر ، وصلت الأحوال الداخلية للبلاد إلى حالة متدنية من السوء . . فقد أوشكت خزينة الدولة على الافلاس بعد أن أنهكتها الحروب المتواصلة طوال عصر الامبراطورية المصرية .

● وازدادت أحوال البلادسوءاً بسبب ازدياد أعداد الجاليات الأجنبية التى استوطنت مصر ، خصوصاً من الليبيين ، سواء من القبائل المهاجرة التى قدمت عن طريق الصحراء الغربية ، أم من سلالات أسرى الحروب الذين استقروا كعبيد فى البداية ، ثم اندمجت سلالاتهم بعد ذلك فى المجتمع المصرى . وكان هؤلاء الأجانب من أكبر عوامل الفوضى التى سادت البلاد فى ذلك العصر .

● وقد أدى سوء الأحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية إلى كثرة القلاقل والاضطرابات والإضرابات ، وإلى انتشار الجرائم بأشكالها المختلفة .

● كذلك فقد أدى ضعف الفراعنة إلى ضعف نظام الحكم فى الدولة وإلى استشراء الفساد بين الوزراء وحكام الأقاليم وكبار رجال الدولة بصفة عامة ، كما استشرى الفساد أيضا بين العمال وصغار موظفى الحكومة وانتشرت بينهم جرائم الرشوة والسرقة والاختلاس .

● بل وصل الفساد أيضاً إلى كهنة المعابد ورجال الدين ، فارتكبوا الجرائم وهم معتمدين على ما يتمتعون به من حصانة ومكانة خاصة تعفيهم من المساءلة والحساب والعقاب . وفى متحف « تورين » بردية مصرية قديمة يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، تتضمن تقريراً عن الجرائم التى ارتكبها أحد كبار كهنة معبد جزيرة إلفنتين بأسوان من

سرقة ورشوة وانتهاك حرمة المعبد الدينى واغتصاب زوجات وبيع بعض مقتنيات المعبد التى كانت موجودة فى عهدته .

● وفى ذلك العصر أيضا انتشرت سرقة مقابر الفراعنة ومقابر النبلاء . وقام كبار اللصوص بتكوين العصابات التى تخصصت فى اقتحام هذه المقابر لنهب ما تحتويه من كنوز الذهب والفضة والتحف الثمينة . ومن الغريب أن بعض « محاضر التحقيق » التى أجريت لتلك الجرائم يمكن أن نستشف منها أن كبار موظفى الدولة كانوا يراوغون فى تأدية واجباتهم ويلفقون المحاضر المغرضة ، وذلك لأنهم كانوا ذوى مصلحة مع هذه العصابات من لصوص المقابر .

● وقد وصلت إلينا عدة برديات بعضها محفوظ حالياً فى متحف تورين وبعضها الآخر فى المتحف البريطانى . وتتضمن هذه البرديات محاضر التحقيقات التى أجريت مع بعض عصابات لصوص المقابر الملكية ، وهى محاضر تقترب كثيراً من شكل ومضمون محاضر البحث والتحقيق الجنائى التى تجريها سلطات الشرطة والنيابات العامة فى الدول الحديثة .

● وبدراسة أحد هذه المحاضر يتبين لنا أن القضية بدأت ببلاغ قدمه حاكم طيبة / الأقصر الشرقية إلى الوزير الأول يبلغه فيها بتقصير حاكم طيبة الغربية ، حيث توجد مقابر الملوك والنبلاء، وانتشار عصابات اللصوص الذين ينهبون تلك المقابر . . فأمر الوزير على الفور بتشكيل لجنة للتحقيق فى هذا البلاغ ولمعاينة المقابر على الطبيعة .

● وقامت اللجنة باصدار أوامرها بضبط واحضار المتهمين والمشتبه فيهم والتحقيق معهم . وأجرى التحقيق مع المتهمين بعد تعذيبهم بتكتيفهم بالحبال وتقييد أرجلهم وأيديهم وضربهم بالعصى وتهديدهم بجدع أنوفهم وبتر آذانهم ووضعهم على الخازوق . . وقد اعترف بعض المتهمين باقتحام مقابر بعض الملوك والنبلاء وسرقة كل ما كانت تحتويه هذه المقابر من ذهب وفضة ومجوهرات وأحجار كريمة . . كما اعترفوا بأنهم كانوا يحرقون المقابر بعد سرقتها . وقام اللصوص بتمثيل الأدوار التى قام به كل منهم أثناء ارتكاب الجريمة وفى نفس موقع الجريمة .

● أليست هذه الاجراءات هى نفسها اجراءات التحقيق التى تقوم بها السلطات البوليسية وسلطات المباحث الجنائية فى معظم أنحاء العالم الحديث . . ؟! .

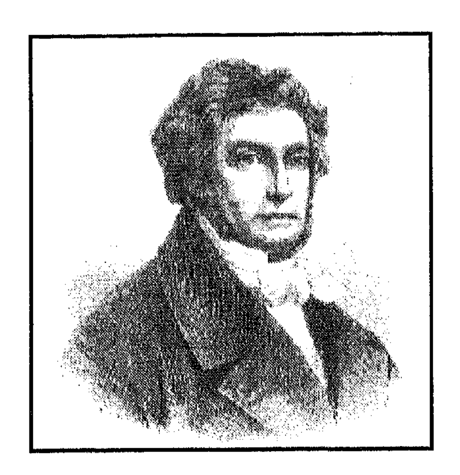
المصريون القدماء أول المشرعين فى العالم

بعد أن استطاع جـان فرانسوا شامبليـون حل رموز وألغاز الكتابـة الهيروجليفية سنة ١٨٢٢ ، أسفرت مصر القديمة عن وجههـا الحضارى العظيم ،وتكشفت مجموعة من الحقائق التاريخيةالمسجلة فى النقوش الجدراية والبرديات ، أجبرت العلماء والمؤرخين على إعادة النظـر فى الكثير من الأخطاء والأفكار والنظـريات التى كانـت سائدة فى مختلف العلوم والدراسات .

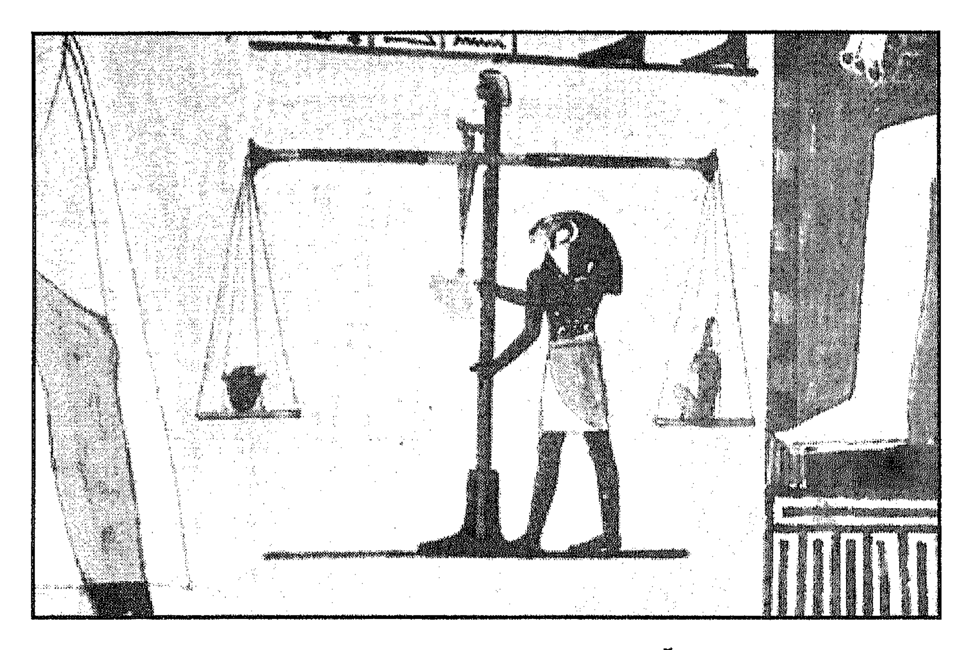
● ومن الأخطاء التى كانت سائدة فى علم « تاريخ القانون » بعض الآراء التى تقول بأن الملك البابلى حامورابى [١٧٥٠ ق م] هو أول المشرعين فى التاريخ القديم . . وآراء أخرى كـانت تقول بأن « قـوانين مانو » التى كـان ينص عليها مـذهب البراهمة فى الهند القديمة هى أقدم قوانين العـالم . . ورأى ثالث يقول إن فكرة التشريع أو وضع القوانين تـرجع إلى الخطيب المفوه والحكيـم والمشرع الإغريقى صـولون [٦٣٠ ــ ٥٦٠ ق م] . . ورأى رابع وأخير كـان يؤكـد أن قانـون الألواح الإثنى عشر والقـانون الـرومانى بصفـة عامـةهو الأب الروحى لفكرة القـانون أو التشريع فى العالم القـديم والعالم الحديث على حد سواء .

● غير أن المؤرخين وعلماء « تاريخ القانون » المحدثين قـد أعادوا النظر فى كل هذه الأخطاء بعد أن دلت الشواهد الأثرية بصفـة قاطعة على أن المصريين القدماء كانوا أول المشرعين فى العالم القـديم كله . وذلك بعد أن ثبت من الـدراسات المقارنة أن الغـالبية العظمى من القواعـد والأحكام القانونية المقـررة التى كانت تتضمنها القوانين الـرومانية ترجع فى أصلها إلى جذور قانونية مصرية .

● وتـدل النقوش والكتـابات الأثـرية على أن الملك مينـا موحـد الوجهين البحـرى والقبلى ومنشىء الدولة المصريـة ذات الحكومة المركزية الموحـدة [عام ٣٢٠٠ ق م] هو أول من نشر القوانين المصرية المتوارثة والتى كانت عبارة عن أوامر إلهية صدرت عن الإله



جان فرانسوا شامبليون



الجميع فى الحياة الآخرة سواء . . يوزن قلب الميت لمعرفة حسناته وسيئاته .

رع والإله أوزيـريس وقـام بصياغتها الإلهه تحوت . وفى ذلـك تقول النصـوص المصرية القديمـة أن العدالـة « ماعـت » نبعت من فكر الإلـه رع الذى كـان يحكم بـالعدل ، وينصف المظلوم وصاحب الحق ، ولا يقبل هـدايا ولا رشاوى من الظالمين أو ممن يجور على حقوق الآخرين .

● ولما كان نظـام الحكم فى مصر القديمة يقـوم على أساس تطبيق فكـرة « ماعت » التى كانت ترمـز إلى الحق والخير والصدق والعدالة ، فقد كـانت القوانين المصرية التى صدرت خـلال جميع العصور التاريخيـة التى كان يتكـون منها تاريخ الحضـارة المصرية القديمـة ، تتوخى تطبيق فكرة العـدالة المطلقة والمسـاواة المطلقة أمام القـانون دون أى تمييز للأغنيـاء على الفقراء أو تميز النبلاء على أفراد الشعـب العاديين من عمال وحرفيين وفلاحين .

● وفى هذا الشأن يقـول المؤرخ القديم ديـودور الصقلى الذى كان معـاصرا لعهدى يـوليوس قيصر وأغسطـس فى أواخر القـرن الأول قبل الميـلاد مـا معنـاه أن العقوبـات والأحكام المقررة بالقوانين المصرية كانت تطبق على جميع الناس دون فرق بين من يملك الثروة أو من لا يملك شيئا على الإطلاق ، ودون تفرقة بين الأحرار والعبيد .

● وقد تـأكدت فكـرة المساواة بين المصريين فى أعقاب الثـورة الشعبية التـى قام بها المصريون ضد نظـام الحكم بعد سقوط الـدولة القديمة فى نهايـة عصر الأسرة السادسة [٢١٤٠ ق م] . . فقـد كان نظـام الحكـم آنذاك يقـرر حق « الخلـود » فى العالم الآخـر للملوك وطبقة النبلاء وحدهـم ، ولم يكن هذا الحق مقرراً لأفراد الشعب العاديين .

● وقد استمـرت تلك الثورة التى يعتبرها المؤرخـون أول ثورة شعبية عامـة فى تاريخ العالم أكثر من قرن كامل شهدت خلاله البلاد فوضى سياسية إلى أن بدأ عصر « الدولة الوسطى » عام ٢٠٢٢ ق م . . وخلال تلك الثورة طـالب الأفراد العاديون من الشعب المصرى بحقهم فى خلود أرواحهم فى العـالم الآخر ، وقد حصلـوا على هذا الحق وأصبح الجميع على قدم المساواة . . فى العالم الآخر أو خلال الحياة الدنيا .

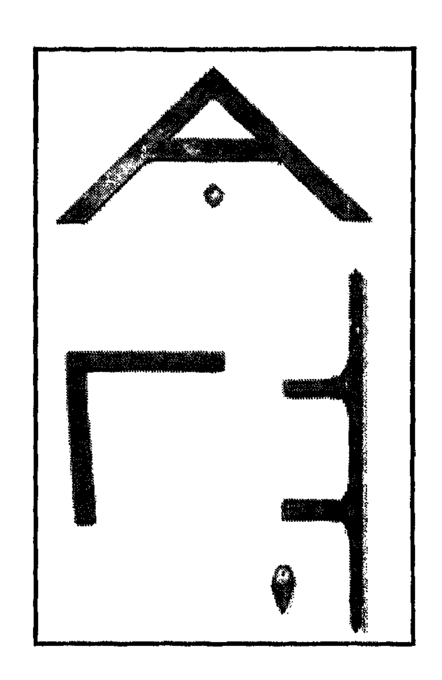
أول من عرفوا الهندسة والحساب والعلوم الرياضية

يعترف الكثيرون من العلماء والمؤرخين بأن الآثار المصرية القديمة تدل بصفة قاطعة على أن المصريين القدماء كانوا يعرفون مبادىء وقواعد الهندسة وعلم الحساب . ولكن بعض هؤلاء العلماء ــ خصوصاً فى القرن التاسع عشر ـ كانوا يعتقدون أن معارف ومعلومات قدماء المصريين كانت قائمة على التجارب والخبرات العملية والتطبيقية ، ولم تكن لديهم علوم نظرية قائمة على المنهج العلمى المعروف فى حضارتنا الحديثة .

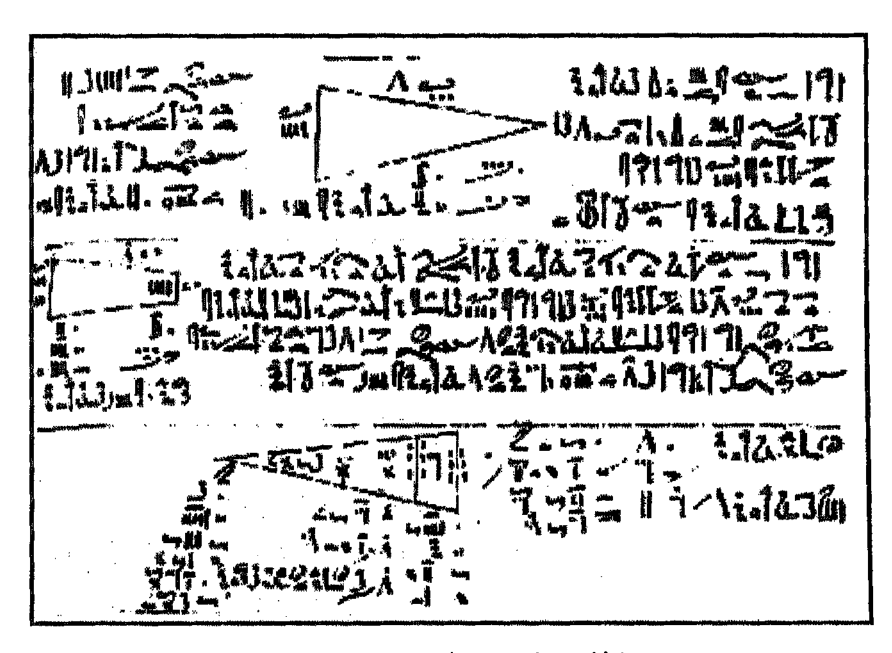
● وقد انبرى علماء ومؤرخون آخرون لدحض هذا الرأى ، أثبتوا بالأدلة والشواهد الأثرية أن المصريين القدماء كانت لديهم علوم نظرية وبحوث علمية قائمة على المنهج التجريبى ، وإن كانت تختلف عن قواعد البحث العلمى التى توصل إليها الانسان تباعاً ويطبقها الآن فى عصرنا الحديث .

● ويقول هيرودوت فى هذا الشأن : « إن المصريين يتفوقون فى العلوم على كل الشعوب الأخرى . . وانهم كانوا يلاحظون حدوث الظواهر الطبيعية ويسجلون النتائج التى تسفر عنها ، فإذا تكرر حدوث هذه الظواهر مرة أخرى كانوا يعرفون أن نتائجها ستكون مشابهة للنتائج السابقة » . . ويعتبر هذا القول فى حد ذاته تأكيداً لوجود نوع من المناهج العلمية التجريبية التى كان يطبقها المصريون فى عصورهم القديمة .

●وتعتبر براعة المصريين القدماء فى معرفة وتطبيق العلوم الرياضية نوعاً من المعجزات الحضارية التى حققها الانسان فى العالم القديم . وقد وصلت معرفة المصريين بتلك العلوم إلى ذروتها خلال عصر بناه الأهرام فى الدولة القديمة [من عام ٢٦٣٥ إلى عام ٢١٤٠ ق م] . وذلك تأسيساً على أنهم إذا لم يكونوا على معرفة مؤكدة بالقواعد والمبادىء النظرية لعلوم الحساب والهندسة لما استطاعوا إطلاقا إقامة هذه المنشآت الهندسية التى بقيت خالدة حتى الآن .



أدوات هندسية كانت تستخدم فى أعمال العمارة والبناء .



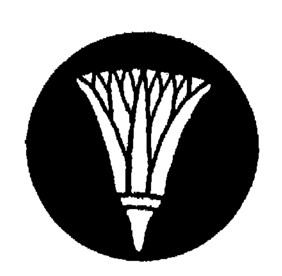
معادلات رياضية حسابية وهندسية

● وكان نهر النيـل وفيضانه السنـوى المنتظم هو المعلم الأول الـذى جعل المصريين القدماء يتفقهون فى علم الحساب . . فقد كـان لابد لهم من قياس ارتفاع المياه فى مجرى النيل ليعرفوا مستوى كل فيضان . . وعن طريق علم الحساب استطاعوا معرفة الأعداد من آحـاد وعشرات ومئات وآلاف ومـلايين . . وعرفوا قـواعد الجمـع والطرح والضرب والقسمة والكسور البسيطة والمركبة . . واستطاعوا استخدام بعض المعادلات الجبرية .

● وقد استعانوا بقواعد الحساب فى ممارسـة شئونهم الحياتية ، سواء فى الزراعة أو فى الأعمال الحكومية كعمليات فرض الضرائب وحساب جبايتها . . . الخ .

● ولولا معرفـة المصريين القدماء بالقواعـد والنظريات الهندسية لما استطـاعوا تنفيذ المشروعات العامة الكبرى التى اتسم بها عصر الدولة القديمة ، كإقامة الأهرام الشاهقة وبناء المعابـد الضخمة ونحت المقابر بـداخل بطن الجبل وإقامة الصـوامع وحفر الترع وتخطيط و إنشاء المدن .

● ولحسن الحظ فقـد تم العثور على العـديد من البرديـات والنقوش الجداريـة التى تؤكد معـرفة المصريين القدماء بكيفية تحديـد المساحات والزوايـا والمحيطات ، وتحديد مساحـة المثلثات والمربعـات والمستطيلات والـدوائر . . ويعرفـون كيفية قيـاس محيط الدائرة وعـلاقته بقطـرها . . ويعرفـون تحديد وقياس الأحجـام والتكعيبات لـلأشكال الاسطوانية والأشكال الهرمية . . كل ذلك باستخدام قـواعد ومبادىء العلوم الرياضية التى عرفوها وطبقوها قبل أن يعرفها أى شعب آخر من شعوب العالم القديم كله .



إزدراء الملوك والسخرية بالحكام فى مصر القديمة

من المعروف أن الفراعنة وملوك مصر القدماء ألّهوا أنفسهم ليستمدوا من نظرية ادعاء الألوهية حقهم فى الملك وتوارثه فى ذرياتهم . ومن المعروف كذلك أن ملوك أوربا حتى عهد قريب كانوا يسندون حقهم فى حكم الشعوب على أساس الادعاء بأنهم ظل الله فى الأرض .

● وفى مصر القديمة كان الملوك والفراعنة منزهين عن المساءلة ، .وكانت ذواتهم مصونة لا تمس ، وكانوا محل احترام وتقديس من كافة طبقات الشعب من نبلاء وكتاب وفنانين وموظفين وعمال وحرفيين وفلاحين . وذلك الاحترام والتقديس كانا نابعين من الاعتراف بأعمالهم العظيمة الظاهرة ، وإقامتهم العدل بين الناس ، وقيادتهم للحملات العسكرية التى يؤدبون بها أعداء البلاد ، ودفاعهم عن أمن الشعب وسلامته ، ورفعهم لاسم مصر خفاقاً بين دول وشعوب العالم القديم كله .

● ومع ذلك تدل الحقائق التاريخة والأثرية على أن بعض الملوك والفراعنة الذين حكموا مصر خلال بعض فترات ضعفها كانوا لا يستحقون الاحترام ولا التقديس . . فكيف يحترم الشعب ملوكا ضعافاً إذا قارنوهم بغيرهم من الملوك والفراعنة والأقوياء العظام . . ؟ !

● وفى أواخر عصر الرعامسة [الأسرة العشرون ١١٩٦ ـ ١٠٨٠ ق م] بدءاً من عهد رمسيس الخامس حتى رمسيس الحادى عشر ، تقلصت حدود الامبراطورية المصرية ، وضاعت الأقاليم السورية التى كانت تحت النفوذ المصرى ، وظهرت دولة الأشوريين الفتية واستقلت جميع الأقاليم الآسيوية التى ظلت تحت الحكم المصرى لمئات من السنين منذ فتوحات ملوك الأسرتين ١٨ ، ١٩ .

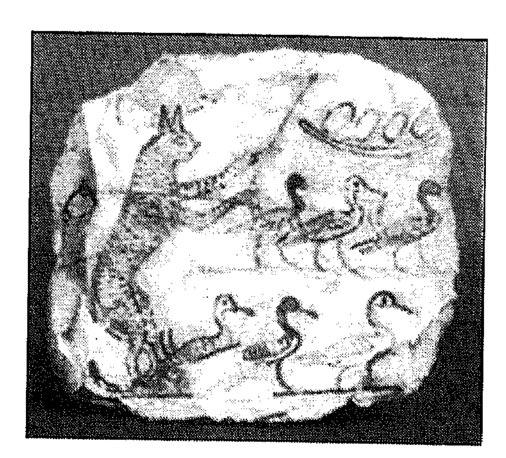
● وبالتالى فقد ضعفت سلطات الملوك والحكام ، وقلت هيبتهم فى أعين الشعب ، وساءت الأحوال الداخلية فى البلاد ، وساد عدم الاستقرار السياسى ، ونشبت صراعات وحروب أهلية ، وانتشرت عصابات اللصوص تنهب مقابر الفراعنة السابقين وما كان فيها من كنوز ، وكثرت إضرابات العمال للمطالبة بأجورهم وتحسين أحوالهم المعيشية ، ولم تعد الشرطة المصرية قادرة على السيطرة على العصابات أو قادرة على استتباب الأمن ، بل وكشفت بعض التحقيقات المدونة بالبرديات عن تواطؤ الوزراء وكبار موظفى الدولة مع بعض العصابات .

● ولما كانت الحضارة العظيمة التى حققها الشعب المصرى فى التاريخ القديم قد جعلت منه شعباً واعياً بتاريخه وذكياً لماحاً ، كما أن الخير العميم واتساع الأرزاق قد أثرا فى الحس الشعبى العام بالرفاهية والحياة السلسة الحافلة بكل مظاهر ومسببات الرضا والطمأنينة ، لذلك فقد كان الشعب المصرى بكل طبقاته حساساً ضد كل من يمس حياته الراضية المطمئنة . وكانت له « هبّات » جماعية فى شكل ثورات عنيفة فى أحيان قليلة ، كما كانت له نكاته وتعليقاته الساخرة التى يتداولها سراً فى أغلب الأحيان .

● وللأسف الشديد فلسنا نعلم شيئا عن هذه النكات أو التعليقات الساخرة لأنها اندرست وضاعت بموت قائليها وناقليها وسامعيها ، واختفت باختفاء الأسباب والمناسبات التاريخية التى كانت محل التنكيت والسخرية . ومع ذلك فقد حفظ لنا الزمن أدلة أثرية قاطعة على وجود هذا المنهج الفلسفى فى السخرية ، فقد تم العثور على بعض الأعمال الأدبية والفنية التى اتخذت من ازدراء الملوك والسخرية بالحكام موضوعات لها .

● ويتضمن الأدب المصرى القديم قصصاً وحكايات عن حيوانات تتكلم وتتصرف مثل البشر ، وترمز إلى ملوك - أو حكام ضعاف ، لا يقيمون العدل ويظلمون الناس ، وينافقون أعداء البلاد ويخطبون ودهم . وعلى هذا يمكن القول بأن الأدب المصرى القديم قد سبق منهج كليلة ودمنة بأكثر من ألف سنة . كما سبق «الحكايات المنظومة » التى ألفها الشاعر الفرنسى لافونتين [١٦٢١ - ١٦٩٥ م] - وهى حكايات قصيرة على لسان الحيوانات .

●أما الـرسوم الكاريكـاتيرية التى عبر بها الفنانـون المصريون القدمـاء عن ازدرائهم بالملوك الضعاف وسخريتهم بالحكام ، فهى كثيرة ولها موضوع آخر .



قط يحرس طيور البط !



البردية الكاريكاتيرية عن القطط التى تخدم فأراً .

فن الكاريكاتير .. اختراع مصرى قديم

على أحد جدران معبد الدير البحرى الذى شيدته الملكة حتشبسوت حين تولت حكم مصر فى الفترة بين عامى ١٤٩٠ ـ ١٤٦٨ ق م ، نقش لمنظر طريف لفت كل الأنظار ، وهو يصور ملك وملكة بلاد بونت ، وهى البلاد التى وصلت إليها سفن الأسطول التجارى المصرى فى أول رحلة تجارية بحرية تم تسجيلها بالتفصيل فى تاريخ العالم .

● وفى تلك الصورة نرى رئيس بلاد بونت أو ملكها المدعو « برحو » ووراءه زوجته الملكة المدعوة « إيتى » وهى امرأة بدينة جدا بالغ الفنان المصرى فى تصوير ساقيها القصيرتين وفخذيها الضخمتين ورد فيها الثقيلتين وجلد بطنها المرتخى فى شكل طيات فوق طيات . ونرى فى هذا المنظر أيضا ولدين وبنتاً من أبناء ملك وملكة بونت وجميعهم ضخام الأجسام مثل أمهم . . أما التعليق الطريف الذى سجله الفنان المصرى على هذا المنظر فقد كتبه فوق حمار ونصه : « الحمار الذى كان يحمل زوجته [أى زوجة ملك بونت] » .

● ويقول الكثيرون من مؤرخى الآداب والفنون أن هذا المنظر يعتبر أول رسم كاريكاتيرى فى تاريخ العالم . وربما دفعتهم إلى هذا القول شهرة هذا المنظر المنقطع النظير ومكان وجوده فى هذا المعبد الفريد فى طرازه بين المعابد المصرية . غير أن بعض المؤرخين الآخرين يقولون ان الفنانين المصريين القدماء ابتدعوا التعبير الكاريكاتيرى فى رسوم ونقوش وتماثيل يرجع تاريخها إلى ما قبل عهد حتشبسوت بمئات السنين .

● ويستند هؤلاء المؤرخون ـ فى القول بذلك ـ إلى بعض أعمال النحت والتصوير التى ابتعد فيها الفنانون المصريون القدماء عن صرامة القواعد الفنية التى كانوا يتقيدون بها عند إبداع وتنفيذ الأعمال الفنية الخاصة بالملوك وكبار رجال الدولة والمعابد والمقابر . . ففى بعض الأحيان كان الفنان يلاحظ أن بعض النماذج التى يقوم بتصويرها ـ رسماً



كاريكاتير ملك وملكة بلاد بونت



حمار يقود سفينة .

أو نحتاً ـ خالية من الكمال الذى يجبر على رسمه أو تصويره أو نحته فى هيئته الرسمية التقليدية . . عندئذ قد تتولد بداخل الفنان روح السخرية والدعابة والتهكم ، فيستخدم الفنان هذا النقص أو موطن الضعف فى هذه النماذج فى التعبير عن تلك الروح بقدر كبير من الحرية .

● وقد تم العثور على عشرات الرسوم الكاريكاتيرية التهكمية الساخرة التى تعبر فى مضمونها الفنى عن عالم مقلوب رأساً على عقب . . ويرجع تاريخ معظم هذه الرسوم إلى أواخر عصر الرعامسة حين ضعفت سلطات ملوك مصر وحكامها واهتزت هيبتهم أمام الشعب وفنانيه . ومن المؤسف أن الغالبية العظمى من هذه الرسوم الكاريكاتيرية معروضةفى المتاحف العالمية الأجنبية ، وعلى وجه الخصوص فى المتحف البريطانى ومتحف المعهد الشرقى بجامعة شيكاجو ومتحفى بروكلين ومتروبوليتان بنيويورك .

● وفى إحدى البرديات مثلا نرى رسماً يصور أسداً يلعب الضامة [وهى لعبة مصرية قديمة شبيهة بالشطرنج] مع ظبى . . ويرى المحللون أن الفنان المصرى القديم أراد بهذا الرسم أن يصور الأوضاع المقلوبة وسخريته من الأسباب التى جعلت الأسد الذى قد يرمز إلى حاكم مصر يلعب الضامة مع ظبى من المفروض أنه فريسة سهلة لهذا الأسد . . فهل كان الأسد ضعيفاً إلى هذا الحد . . أم أن الفنان الكاريكاتيرى كان يريد أن يبلغنا بفنه أن الأمور قد تجاوزت حد المعقول إلى اللامعقول . . ؟!

● وفى رسم كاريكاتيرى آخر صور لنا الفنان قطاً واقفاً على قدميه الخلفيتين وهو يقوم بخدمة فأر [وهو حيوان معروف بالجبن] ونرى هذا الفأر جالساً على كرسى وهو يرتدى ملابس العظماء . ويقول المحللون الفنيون ان الفنان لمصرى كان يرمز بهذا الرسم إلى السخرية بالأسباب التى دفعت القط وهو الطرف الأقوى فى العلاقة بينه وبين الفأر لكى يصبح خادماً ذليلاً يعمل تحت إمرة عدوه اللدود .

● وفى رسم آخر صور لنا الفنان الكاريكاتيرى منظراً لأحد المراكب النيلية يقوم بقيادته حمار كسول . وهو رسم كاريكاتيرى واضح الدلالة على الفكرة القائلة بأن السفينة التى يقودها حمار [وهو حيوان معروف بالغباء] سيكون مصيرها الضلال والتيه والغرق فى نهاية الأمر !

الأدب المصرى .. أقدم آداب العالم

كان هناك اعتقاد راسخ لدى العلماء بأن الحضارة الإغريقية القديمة هى أم الحضارات الراقية ، إلى أن تمكن العالم الفرنسى « شامبليون » من فك رموز وأسرار الكتابة الهيروجليفية ، وأصبح من السهل معرفة كل ما كتبه لنا المصريون القدماء على جدران المعابد والمقابر والأهرام والمصاطب والمسلات واللوحات والنصب التذكارية . . وما دونوه أيضا على مئات الآلاف من أوراق البردى من علوم وفنون وآداب . . وعندئذ أعاد العلماء النظر فى مكانة الحضارة الإغريقية بين كل الحضارات القديمة والحديثة ، وأعلنوا الحقيقة التى أصبحت واضحة كالشمس ، وهى أن مصر القديمة هى أم الحضارات جميعاً .

● لقد تبين بصفة قاطعة أن المصريين القدماء هم أول من ابتدع التعبير الأدبى ، وأن مصر هى منبع الأدب والأعمال الأدبية الرفيعة المستوى ، وأن الأدب المصرى القديم أقدم من الأدب الإغريقى بما يزيد على خمسة وعشرين قرناً .

● وبالرغم من أن الأدب المصرى القديم قد نشأ وترعرع فى أحضان الدين والعقائد الدينية القديمة ، إلا انه تطور بسرعة وأصبح يتناول شئون الحياة اليومية العادية للانسان . . وتبوأت الأعمال الأدبية مكانة رفيعة فى الفكر والحضارة المصرية القديمة . . وأدرك المصريون القدماء أن الأدب غذاء للأرواح ، وإشباع للنفوس الصافية ، وطريقة مثلى للتسامى بالتعبير وعلو المعانى . . وأصبح جمال الأسلوب وطلاوته فخراً للكاتب المصرى القديم ومحلاً لتقدير ومتعة القراء .

● وتبين للعلماء أيضا أن الأدب المصرى القديم لم يترك موضوعاً للحياة الانسانية إلا وكان له فيه انتاج متميز . . وقسموا الأعمال الأدبية المصرية القديمة حسب موضوعاتها إلى أقسام وتصنيفات عدة هى باختصار شديد :

● القصص والـروايـات القصيرة والحكـايـات والحواديت الشعبيـة . . والحكم والتعاليم الأخلاقية والتأمـلات الفلسفية . . والرسـائل الأدبية [حيث ابتـدع الكتاب المصريون القـدماء فكرة تقسيـم الرسالـة إلى : عنوان ، وصيغة افتتـاحية ، وديبـاجة ، وختام] . . والمساجلات الأدبية التى تقـوم على فكرة الحوار والنقاش بالحجج والأفكار والمواقف المتعارضة . . والمسرحيـات والأشعار الدرامية . . والأغانى والأناشيـد الدينية وأشعـار الحب والغـزل . . والتغـزل فى الطبيعـة ووصف سحـرهـا . . وأشعـار المديح لتمجيد الملوك وانتصاراتهم الحربية . . وأغانى العمال . . وأغانى الفلاحين . . وأغانى الولائم والحفلات والأفراح الشعبية .

● أمـا بالنسبـة لـلأعمال الأدبية التى تـركهـا لنا قـدمـاء المصريين فى مجال القصص والـروايات ، فقـد قسمهـا وصنفها المؤرخـون وعلماء المصريـات إلى مجمـوعات تتنـاول قصص الآلهة . . وقصص السحر والمعجزات . . وقصص المغامرات .

● وقـام العلماء والأدبـاء المحدثـون بترجمة هـذة القصص والـروايـات إلى الكثير من لغات العـالم ، وعرف الناس فى جميع أنحـاء الأرض أن الأدب المصرى القديم هـو أقدم وأجمل الآداب التى تركتها لنا الحضارات القديمة .



صورة لغلاف أحد الكتب الأجنبية التى تحتوى على مجموعة من القصص المصرية القديمة

الأدب السياسى فى مصر القديمة

لم تكن كل العصور التاريخية فى مصر القديمة عصور عظمة وقوة وعدل ، بل سجل التاريخ المصرى القديم بعض الفترات التى كانت مصر تحكم فيها بملوك ضعاف يسلمون زمام الحكم للموظفين وحكام الأقاليم ، فيطلق هؤلاء وأولئك أيديهم لظلم العباد ، وتنتشر جرائم الرشوة وسلب الأموال ويعم الفساد .

● وفى مثل هذه العصور الرديئة ، كان الشعب المصرى يئن تحت وطأة الظلم ويشعر بالاضطهاد الذى كان يمارسه الحكام ضده ، فيحدث الانفجار فى شكل « هبّات » عنيفة يضيع فيها الأمن والأمان وتعم الفوضى فى أرجاء البلاد ، إلى أن يظهر ملك قوى جديد يقيم العدل والانصاف فيستقيم النظام .

● حينذاك لم يغفل أدباء مصر ومفكروها وحكماؤها عن تلك المظالم ، فسجلوها فى برديات عثر على الكثير منها . . وعكف علماء المصريات على ترجمة ما دّون فى تلك البرديات ، فإذا بنا أمام مقالات أدبية رفيعة المستوى تتضمن أوصافاً دقيقة للأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى آلت إليها الديار المصرية فى فترات حكم الملوك الضعاف الذين لم يستطيعوا إقامة العدل بين الناس ، وفى الفترات التى كانت تتعرض فيها البلاد للسيطرة أو التوجيهات الأجنبية .

● ومن بردية محفوظة فى المتحف البريطانى [ترجمها سير ألان جاردنر] دوّن عليها مقال يمكن تصنيفه كنوع من الأدب السياسى ، منسوب إلى أديب مصرى قديم اسمه « خع خبر رع سنب » نقتطف بعض فقرات كتبها هذا الأديب لنرى أحوال البلاد فى الفترة التاريخية التى انهار فيها نظام الحكم بسقوط عصر « الدولة الوسطى » وبدء

تسلل الهكسوس وسيطـرتهم على مصر خلال القـرن السابع عشر قبل الميـلاد . . يقول الأديب :

● « إن العدالة قد نبذت . . والظلـم أخذ مكانه فى البلاد . . وصارت البلاد فى هم ثقيل . . وعم الحزن فى كل مكـان . . وصارت المدن والأقاليم فى عـويل ، وكل الناس يزرحـون تحت عبء الظلم . . أما الاحترام فقد انتهـى أجله ولم يعد مـوجوداً . . وتقع المصائب كل يوم ومصائب الغد لم تأت بعـد . . فكل الناس لاهون عن الغد ويعيشون فى عذاب مستديم ، والبلاد كلها فى اضطراب عظيم . . والناس تستيقظ فى صباح كل يوم لتتألم . . ومن المؤلم أن يستمر الانسـان صامتاً أمام كل تلك المصـائب والبلايا التى يسمعها ويراها ويعيشها » .

● ويقـول الأديب الحكيم « إيب ور » فى وصـف أحوال البـلاد خـلال عصر ردىء آخـر : « إن البـلاد مـلأى بـالعصـابـات . . والمجـرمـون أصبحـوا فى كل مكـان . . واللصوص أصبحوا أصحاب ثروات ضخمة . . وأصبحت الأرض تدور كعجلة صانع الفخـار . . ونظام البـلاد انقلب رأسـاً على عقب . . لقد دخلـت إلى البلاد كل مملكـة أجنبيـة . . ونزلـت أقوام أغـراب إلى أرض مصر . . وأصبح المصريـون كـالأجـانب فى بلادهم . . فما العمل وكل شىء ينحدر إلى دمار ؟ ! » .

● ويواصل « إيب ور » عرض تلك الأحوال السياسيـة السيئة التى كان يعانى منها الشعب المصرى فى عصره فيقـول بأسلـوب أدبى رفيع : « لقـد مات السرور ولم يعـد فى الأرض سوى الأنين والعويل . . وأصبح الحزن يمشى فى طول البلاد ممزوجاً بالأسى . . لقد عمت الـوقاحة بين الناس . . ولم تعـد أحكام المحاكم محترمـة . . بل لقد وضعت قوانين قاعة المحكمة على الأرض وصار الناس يدوسونها بالأقدام فى الطرقات ويمزقونها فى الأزقة . . فما العمل ؟! . . ليت البلاد تتخلص من كل هؤلاء الغوغائيين . . ويعود النظام والاحترام ! » .

حرية الفكر والقول فى مصر القديمة

بـالرغـم من صرامـة نظام الحكـم فى جميع العصـور التاريخيـة التى مـرت على مصر القديمة ، حيث كان الملوك يحكمـون استناداً إلى الادعاء بأنهم أبناء الآلهة ، وحيث كان حكام الأقـاليم وكبار رجال الـدولة والموظفـون يتحكمون فى مصائر الشعب والحكـومة استناداً إلى التفويض الذى يمنحه الملـك لهم ، فقد كان من الضرورى على هؤلاء جميعاً أن يلتزموا بأصول الحكم من عدالة وأمانة ونظام وأمن مستتب .

● ومن بين أبنـاء الشعـب المصرى القديـم كـانت تنبثق طـائفـة الكتـاب والأدبـاء والفلاسفة والحكماء الذين كانوا ينتمون إلى طبقة النبلاء ، أو إلى طبقة الكهان من رجال الدين ، أو إلى طبقة أبنـاء الشعب العاديين ، وكانوا يشكلـون فى مجموعهم فئة المثقفين القادرين على التعبير عـن حقوق وآمال ومشـاعر الشعب المصرى القديـم بكافة فئـاته وطبقاته .

● وحين كان نظـام الحكم يحقق العدل بين كـل أبناء الشعـب ، ويـوفر الخيرات فى كل أرجاء البلاد فيأخذ كل فرد حقـه دون ظلم أو إجحاف ، ويشعر الناس بأنهم آمنون على يومهم وغـدهـم . . وحين يرى الناس بأعينهـم تلـك المنشأت والمشروعات العظمى التى يشيـدها ويديـرها الملوك وكبـار رجال الـدولة . . عندئذ يصبح نظـام الحكم محل تقـدير واحترام من الجميع ، كبيرهـم قبل صغيرهم ، وينبرى هؤلاء المثقفـون للإشـادة بالحكم وتـأييده باعتبـاره جزءاً من تاريخ الأمـة المصرية التى يفخرون بـأمجادها بين كل الأمم المعاصرة .

● أما عنـدما يسىء نظام الحكـم أداء دوره المفترض ، وينحرف إلى الظلم والافتراء

مبتعداً عن العـدل والصراط المستقيم ، عندئذ ينبرى أدباء الأمـة وحكماؤها للتعبير عن إدانـة هذا النظـام ، بظلمه واستبـداده ، بكل حـرية واقتـدار . . بل وتصبح أقـوالهم كالـدستور يتـداوله الشعـب المصرى القديم جيـلاً بعد جيل . . حيـث تدل الشـواهد الأثريـة على أن أقوال هؤلاء الحكماء يتم تداولها عبر مئـات وآلاف السنين . . وينسخها تـلاميـذ المدارس كدروس لتعليمهـم أصول الحكمـة وأصـول الحكم ، وحقـوق أبنـاء الشعب التى يجب أن يحققها لهم الملوك وكل رجال الدولة من حكام وموظفين .

● ولنتصور مـدى حرية الفكـر والقول فيما كتبه أحد الحكماء مـن أبناء شعب مصر وهو يخاطب ملك البلاد الجالس على العـرش مخاطبة الند للند ويحمله كافـة المسئوليات المترتبة على المظـالم التى ضربت أطنابها فى أرجـاء البلاد بفعل ظلـم الحكام والموظفين ، وتقاعس الملك عن تحقيق العدل بين الناس .

● يقول الحكيم المصرى القـديم للملك : « إن الأمر الملكـى والمعرفة فى قبضـة يدك . . ولكن ما تصنعـه فى البلاد هـو النزاع وصوت القـلاقل . . لقد نطقت زوراً وبهتـاناً . . فهل فعلت هذا لكى تشتد علينا الأمور ؟ ! . . إن القيادة والفطنة والصدق معك ، ولكنك لا تنتفع بها . . فـالفوضى ضـاربة أطنـابها فى طول البـلاد وعرضهـا ، ولكنك جالـس فى قصرك تتغذى أذناك بـالأكاذيب التى تتلى عليـك فتصدقها . . البـلاد قش ملتهب والانسانية منحلة . . ليتك تذوق بعض هذا البؤس بنفسك ! » .

● ووصلت إلينـا تلك البرديـة التـى كـانت تتضمن تلك الـرسـالـة المكتـوبـة بهذا الأسلوب الأدبى الرفيع ، والتى تعبر عن حرية الفكـر والقول التى كانت متاحة لحكماء المصريين عبر آلاف السنين . . ولم يصل إلينـا ما يـدل على أن هذا الحكيم قـد وضع فى السجن الحربى ، ولا حتى فى سجن مدنى ! .



أثر الأدب المصرى القديم فى الآداب العالمية

كنت قد ترجمت قصة قصيرة من الأدب المصرى القديم بعنوان « الملاح وجزيرة العجائب» وتدور هذه القصة حول ملاح مصرى قديم غرقت سفينته ومات كل من عليها ونجا وحده ، وعاش فى جزيرة منعزلة ، وحصل على كنز ثمين ، ثم عاد إلى وطنه ، بعد أن اختفت تلك الجزيرة الغامضة فى أعماق البحر بمجرد مغادرته لها .

● ويرجع تاريخ هذه القصة إلى عصر « الدولة الوسطى» [٢٠٢٢ق م ـ ١٦٥٠ ق م] وهو عصر تميز بظهور عدد كبير من الأدباء والحكماء والمثقفين المصريين الذين تركوا لنا ـ لحسن الحظ ـ أعمالاً تدل على مدى رقى الفكر والثقافة فى مصر القديمة ، سواء فى مجالات الحكمة والتعاليم الفلسفية والأخلاقية أو مجالات الأدب القصصى والحوارات الدرامية ، أو فى الشعر والأغانى .

● ويمكن تصنيف قصة « الملاح وجزيرة العجائب » باعتبارها واحدة من أقدم نماذج قصص الخيال العلمى SCIENCE FICTION ، حيث تدور عناصرها وأحداثها وشخصياتها حول محاور موضوعية هى على وجه التحديد : الملاح ، والسفينة الغارقة ، والجزيرة المنعزلة ، وإله الجزيرة ، والكنز الثمين ، والمغامرات الخيالية التى انتهت بالعودة السالمة إلى الوطن ، والاختفاء الغامض للجزيرة تحت سطح البحر .

● ويرى مؤرخون وعلماء الأدب المقارن أن التركيب والبناء الأدبى والفكرة العامة لهذه القصة كانت إلهاماً لعديد من أكبر وأشهر الأدباء العالميين الذين نسجوا على المنوال نفسه الذى استخدم فى النسيج الأدبى للقصة المصرية القديمة التى ظهر تأثيرها المباشر على محاور مجموعة من أشهر القصص والروايات العالمية الكلاسيكية والرومانسية الذائعة الصيت فى مختلف أنحاء العالم ، والتى تدور حول مغامرات العثور على كنوز ثمينة وحول أبطال عاشوا فى جزر منعزلة .

● ومنها على سبيل المثال رواية « جزيرة الكنز » من تأليف الأديب الانجليزى

الشهير « روبرت لويس ستيفنسون » والتى تـدور حول مغامرات بطلها « جيم هوكينز » الذى عثـر على خريطة لكنز مـدفون فى جزيرة منعـزلة . . وكذلك روايـة « الكونت دى مونت كريستو » للأديب الفرنسى الشهير « ألكسندر دوماس » والتى تدور حول البطل «إدمونـد دانتى » الذى ذاق الأهـوال وقام بمغامـرات مثيرة بعد أن عرف سر وجـود كنز مدفون فى جزيرة « مونت كريستـو» المنعزلة ، حتى حصل على الكنز فى النهاية وعاد إلى وطنه سالماً . . ومن الغريب أن السفينة التى كان يعمل عليها كان اسمها «فرعون» .

● ومن الأعمال الأدبية العـالمية الشهيرة التى تأثـرت محاورها بعنـاصر ومحاور القصة المصرية القـديمة روايـة « روبنسون كـروزو» للأديـب الانجليزى « دانييل ديفـو » والتى تدور حـول المغامرات والشدائد التى عـاناها بطلهـا « روبنسون كروزو » خصوصـاً بعد غرق السفينـة التى كان يركبهـا وموت كل من عليها ونجـاته وحده ، وعاش فى جـزيرة منعزلة سنوات طويلة إلى أن عاد إلى وطنه فى نهاية الأمر .

● وكذلك الحال بـالنسبة لرواية « الفضيلـة ـ أو بول وفرجينى » التى تـرجمها الأديب المصرى القدير مصطفى لطفى المنفلوطى ، وهى من تأليف الأديب الفرنسى الرومانسى « برناردين دى سان بيير » والتى تدور حـول أسرتين صغيرتين عاشتا فى منطقة منعزلة فى جزيرة نائيـة حياة قائمة على الفضيلة والحب والأخاء إلى أن حدثـت مأساة غرق السفينة التى كانت تركبها العذراء « فرجينى » بطلة الرواية .

● ويقـول بعض نقـاد وعلماء الأدب المقـارن أن مـن القصص التـى تأثـرت بفكـرة ومضمون القصة المصرية القديمة قصة « حى بن يقظان » التى ألفها الأديب الفيلسوف العربى الأندلسى « أبو بكـربن طفيل » فى القرن ١٢ الميـلادى وهى من أشهر القصص الفلسفية التى تدور حول الانسان الذى عاش منذ صغـره فى جزيرة نائية منعزلة وتوصل بعقله إلى أفكار فلسفية تثبت وجود الله . وقـد ذاع صيت هذه القصة وتأثرت بها الآداب والفلسفـات العالميـة بعد أن تـرجمت إلى العديـد من اللغات منهـا اللاتينيـة والفرنسيـة والانجليزية والألمانية والهولندية .

● وأخيراً يقول بعض العلماء أن فكرة أسطورة « قـارة اطلانتس » التى غرقت فى قاع المحيط متأثرة على نحو ما بفكرة اختفاء جزيرةالعجائب فى القصة المصرية القديمة .

الكوميديا الإلهية ورسالة الغفران أصلهما مصرى قديم

اختلف مؤرخو وعلماء الأدب المقارن حول مدى تأثر الشاعر الإيطالى الشهير «دانتى الليجيرى : ١٢٦٥ـ ١٣٢١ م » فى كتابه « الكوميديا الإ لهية » بالشاعر السورى العظيم «أبو العلاء المعرى : ٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م » فى كتابه « رسالة الغفران » والموضوع المحورى فى كل من هذين الكتابين يدور حول وصف النعيم والجحيم فى العالم الآخر .

● ويقول بعض المنصفين من هؤلاء العلماء أن هذا الموضوع المحورى له جذور ظاهرة فيما وصل إلينا من الأدب المصرى القديم الذى تناول هذا الموضوع فى أكثر من عمل . . فقد ورد فى « كتاب الموتى » و « كتاب البوابات » وفى قصة « سى أوزيريس وعالم الموتى » .

● وفى هذه الأعمال الأدبية الشهيرة والمعروفة ، نجد أن الأدباء المصريين المجهولين قد وصفوا لنا ما كانوا يتخيلونه فى رحلة الروح بعد خروجها من الجسد وانتقالها فى سماء الكون حتى تصل إلى قاعة المحكمة حيث يوزن قلب المتوفى بريشة « ماعت » التى ترمز إلى العدالة والصدق والحق والخير ، ثم يحكم على المتوفى بمصير أبدى فى النعيم أو فى الجحيم .

● وفى النعيم وكان يسمى « حقول إيارو » يتمتع المتوفى بشباب دائم دون مرض ولا شيخوخة ولا موت ، ويلبس ثيابا فاخرة لا تبلى ولا تتسخ ، ويتمتع بأطايب الطعام والشراب والفواكه والماء العذب الصافى ، وهدوء وأمان وسلام دائم حيث لا توجد أرواح شريرة ولا ثعابين ولا وحوش ولاحشرات .

● أما الجحيم فيُلقى فيه الأشرار حيث العذاب الأبدى ، فى بحيرات ماؤها من

لهيب النيران ، وبها تماسيح مفترسة وحيات وثعابين ، وزبانيتها وحوش ضارية تتفنن فى ألوان ووسائل تعذيب الأشرار من أهل الجحيم فتحرق أجسادهم وتقطع رقابهم ومع ذلك فلا يموتون ، بل تتجدد حياتهم حتى يستمر تعذيبهم إلى مالا نهاية .

● وتحكى لنا قصة « سى أوزيريس فى عالم الموتى » حكاية فلسفية مثيرة ، تبدأ حين كان الأمير « ستنا » وهو أحد أبناء رمسيس الثانى واقفاً فى شرفة منزله المطل على النيل ، وكان معه إبنه « سى أوزيريس » ومعناه « هدية أو عطية أوزيريس » وهو صبى صغير لا يزيد عمرة على ١٢ عاماً ولكنه كان معروفاً بذكائه الخارق وعلمه العزيز وقدرته الفائقة على السحر .

● وكان بجوار البيت مرفأ صغير ترسو به بعض المراكب والقوارب المستخدمة فى عبور النيل إلى الضفة الغربية حيث توجد جبانات دفن الموتى . . وبينما كان الأمير واقفاً مع ابنه يتجاذبان أطراف الحديث ، شاهدا جنازة حارة لرجل ثرى وضعت مومياؤه داخل تابوت من الخشب الفاخر المطعم بالذهب ويتقدم الجنازة مجموعة من الكهنة ينشدون التعاويذ والأدعية والتراتيل . ويسير فى الخلف مجموعه كبيرة من المشيعين من علية القوم ومجموعة من النادبات الصائحات وحاملات القرابين وهن يصحن ويندبن ويبكين . . وبعد قليل مرت جنازة أخرى لرجل فقير يحمل تابوته إبناه ولا يسير خلفه سوى أرملته وزوجتى الابنين . . وكن مستغرقات فى البكاء والعويل .

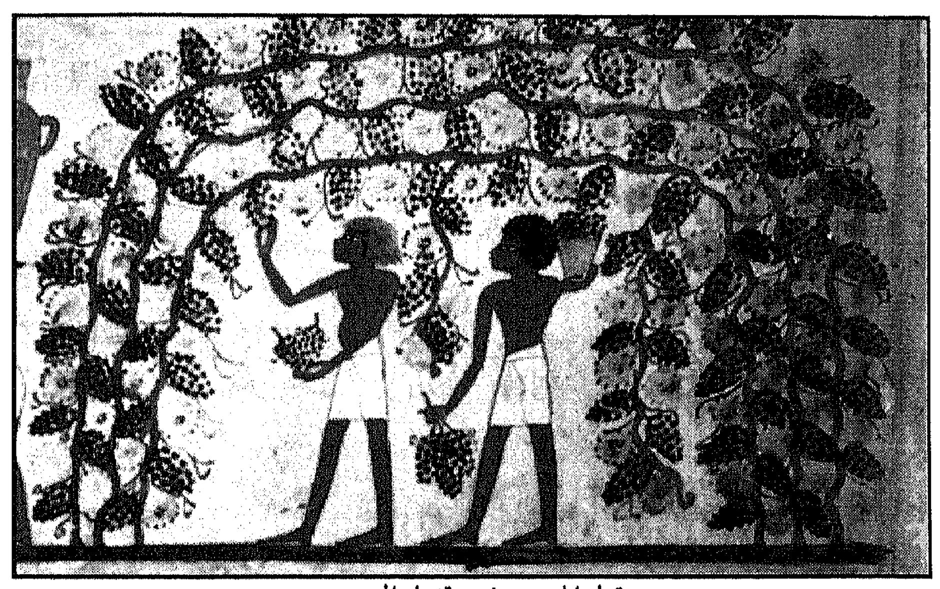
● عندئذ قال الأمير « ستنا » لابنه الصبى « سى أوزيريس » انه يتمنى أن يكون مصيره كمصير المتوفى الثرى الذى سيذهب حتما إلى الجنة . . ولكن ابنه الصغير قال أنه بالعكس يتمنى لأبيه أن يكون مصيره كمصير الرجل الفقير .

● استاء الأب من كلام ابنه . . ولكن الابن الصغير قال انه يعرف الوسائل السحرية التى تمكن روحيهما من التحليق فى السماوات وتمكنهما من الدخول عبر بوابات العالم الآخر ليريا ما يجرى فيه .

● وبعد غروب الشمس وبفعل السحر قامت روح الابن بصحبة روح الأب لمشاهدة محاكمة كل من الثرى والفقير المتوفيين . . وقامت الروحان بزيارة النعيم حيث

شاهدتا الرجل الفقير وهو يتمتع بنعيم الجنـة لأنه كان صالحاً طيب القلب وكان يصنع الخير أثناء حياتـه . . ثم قامتا بعد ذلك بـزيارة الجحيم حيث شاهدتـا العذاب الأليم وألسنة النـار وهى تلتهم الأشرار وكـان من بينهم المتوفى الثـرى جزاءً على ماصنعـه من شرور أثناء حياته .

● وبعد هـذه الجولة السريعـة لروح الأمير « ستنـا » ابن رمسيس الثانـى وروح ابنه الساحر الصغير « سى أوزيـريس » فى العالم الآخر لمشاهـدة النعيم والجحيم ، عادت الروحان إلى طيبة سريعا ، وحلـت كل روح فى جسدها ، قبل أن تشرق الشمس معلنة بزوغ يوم جديد فى الحياة الدنيا .



حقول إيارو . . نعيم قدماء المصريين .

سندريللا .. فى الأدب المصرى القديم

تتلخص عناصر حكاية الفتاة الجميلة سندريللا فى الأدب العالمى فى أن تلك البنت الفقيرة ، أنقذهـا ملاك طيب من قسوة زوجـة أبيها ، عندمـا فقدت فردة حـذاء كانت تملكه . وقـد وقعت هذه الفردة فى يـد أحد الأمراء الـذى أخذ يبحث عن صاحبـة هذا الحذاء حتى عثر عليها فى النهاية وتزوجها . .

● وقـد شاعـت حكايـة سنـدريللا بهذه العنـاصر المحـوريـة فى المأثورات الأدبيـة والفولكلورية لعديد من شعوب العـالم . ولعل أشهر من حكاها هما « الأخوان جريم » الألمانيان اللذان أذاعا شهرتها العالمية بعد أن كتباها كقصة من أدب الأطفال .

● وقد وردت حكـاية سنـدريللا بنفس عنـاصرها ولكن بطـرق وأسماء مختلفة ، فى بعض الأعمال الأدبية المدونة فى البرديـات المصرية القديمة . ويرجع تـاريخ أقدم إشارة إلى تلك الحكاية إلى عصر الأسرة الرابعـة فى القرن السادس والعشرين قبل الميلاد . . ثم عثر على نسخة منهـا ولكنها للأسف غير كاملـة يرجع تاريخها إلى عصر الـدولة الحديثة فيما بين القرنين السادس عشر والثانى عشر قبل الميلاد . . وقد جاء بهذه النسخة وصف تفصيلى لبعض أساليب العذاب والإهـانة التى عوملت بها الفتاة من جـانب زوجة أبيها وبناتها .

● ثم عثر على برديـة تحكى القصة نفسها ولكن بطريقة مختلفة ، يـرجع تاريخ هذه البردية إلى القرن السادس قبل الميلاد . . وهى الحكاية التى سنقدم ملخصها حتى يتبين لنـا الأصل المصرى القديـم لتلك الحكايـة الجميلـة الذائعـة الصيت فى مختلف أنحـاء العالم :

● فى مدينـة « نقراطيس » بشمال الدلتا ، كـانت تعيش مجموعة كبيرة من اليـونانيين الـذين وفدوا إلى مصر للتجـارة أو لـلإقامـة الدائمـة فيهـا ، كما التحق الكثيرون منهم

بالجيش المصرى للدفاع عن مصر ضد خطر الفرس الذين كانوا يهددون بلاد العالم القديم بغزواتهم الهمجية الوحشية .

● وفى تلك المدينة كان يقيم « شاراكسوس » وهو أحد التجار اليونانيين الأثرياء . . وفى يوم ما شاهد فتاة يونانية جميلة جدا تباع فى سوق الجوارى بالمدينة فاشتراها بأغلى ثمن . . وعندما عاد بها إلى بيته علم منها أن اسمها « رادوبيس » وأنها كانت من أسرة طيبة تعيش فى شمال اليونان واختطفها القراصنة الذين باعوها فى سوق الرقيق .

● تأثر « شاراكسوس » بقصة « رادوبيس » التى كانت تتمتع بجمال لا يدانية جمال أية فتاة أخرى فى عصرها . . فبنى لها بيتا خاصاً بها تتوسطه حديقة رائعة ، وعين لها بعض الجوارى ليقمن بخدمتها ، وأغدق عليها هدايا قيمة من المجوهرات الثمينة والملابس الفاخرة ، وعاملها بكل حب وعطف ورعاية كما لو كانت ابنته من لحمه وصلبه .

● وفى أحد أيام الصيف الحارة ، كانت « رادوبيس » تستحم فى حوض السباحة الملحق بحديقة بيتها ، بينما كانت الجوارى واقفات بالحديقة لحراسة ملابسها الفاخرة وحليها المصنوعة من الذهب والفضة والجواهر الكريمة ، وكان من بينها حذاؤها الأحمر المطعم بمجوهرات رصعت فى زخارف رائعة . . وفجأة ظهر فى السماء الزرقاء الصافية نسر ضخم كان يحلق بجناحيه فوق الحديقة ، فأصيبت الجوارى بالذعر والهلع ، وهربن ليختبئن وراء الأشجار بعد أن تركن الملابس والمجوهرات دون حراسة .

● وفجأة انقض النسر واختطف بين مخالبه القوية « فردة » واحدة من الحذاء الثمين، ثم ارتفع إلى السماء وانطلق محلقاً نحو الجنوب ، وواصل طيرانه حتى وصل إلى سماء مدينة « منف» حيث يوجد قصر الفرعون « أمازيس » . وهبط النسر من عليائه وألقى بفردة الحذاء الأحمر فى حجر فرعون الذى كان جالساً وقتذاك فى قاعة العدل الكبرى .

● انبهر الفرعون بجمال الحذاء ورقته . . وأصدر أمره الملكى بارسال الرسل لزيارة جميع المدن المصرية فى الدلتا والصعيد للبحث عن الفتاة صاحبة هذا الحذاء الجميل . .

وعندمـا وصل الرسـل إلى مدينة « نقـراطيس » علمـوا بوجود الفتـاة « رادوبيس » أجمل فتيات البلاد ، فعرضوا عليها فردة الحذاء لتقيسها ، وما أن شاهدتها « رادوبيس » حتى صاحت فرحة مهللة ، وأحضرت الفردة الثانية التى كانت تحتفظ بها . . ولبست الحذاء بفردتيه وكان بطبيعة الحال على مقاسها تماماً .

● عندئذ خر الرسل راكعين أمـامها وأخبروها بأن الفرعون قد أمـرهم باحضارها إلى قصره لتعيش معززة مكـرمة بين حـريم الملك . . ولكن الفرعـون رأى أن الآلهة هى التى دبرت لـه العثور على تلـك الفتاة الـرائعة الجمال فتـزوجها وجعلهـا ملكة على مصر . . وعاش معها سعيـداً إلى أن مات الاثنان قبل عام واحد من قيام « قمبيـز » بقيادة جيشه الفارسى الهمجى لغزو مصر والاستيلاء عليها .



عصر البلطجة والبلطجية فى مصر القديمة

حرصنا منذ البداية على ذكر مآثر وعظمة الحضارة المصرية القديمة التى اعتبرت بكافة المعايير أمًّا للحضارات الانسانية ، إلا أننا نود أن نشير إلى بعض فترات عصور الظلام والفوضى التى كانت تطرأ على استمرارية التاريخ المصرى القديم فى بعض الأحيان ، وخصوصاً فى الفترة التى تلت سقوط « الدولة القديمة » فى نهاية عصر الأسرة السادسة .

● فى كتاب المؤرخ البريطانى الشهير أرنولد توينى [دراسة فى التاريخ] وهو يتألف من عدة مجلدات ، شرح لنظرية « التحدى والاستجابة » التى يقول فيها أن القوى النفسية للبشر هى التى تحدد مجرى التاريخ الانسانى وتضبطه وتسيره أكثر من القوى المادية . . وجاء فى هذا الكتاب أن الحضارة المصرية القديمة بلغت أقصى ذراها فى عصر « الدولة القديمة » التى بدأت ببداية الأسرة الثالثة عام ٢٦٣٥ق م ، وانتهت بنهاية الأسرة السادسة عام ٢١٤٠ ق م .

● وكان آخر الملوك فى هذه الأسرة « الملك بيبى الثانى » الذى جلس على عرش مصر ٩٤ عاماً ، وهى أطول فترة استمر فيها حكم حاكم واحد فى تاريخ الدول . . وقد أدى طول هذه الفترة إلى تجميد التطور وشيخوخة نظام الدولة ، فضعفت سلطة الحكومة المركزية ، وقويت شوكة حكام الأقاليم ، وساد الفساد بين كبار رجال الدولة وموظفيها ، فتمزقت البلاد وساءت أحوالها .

● لقد عمت الفوضى أرجاء البلاد من أقصاها إلى أقصاها ، وسقطت هيبة الملوك وانبرى حكام الأقاليم والمقاطعات المصرية فى اغتنام الفرص واستغلال النفوذ ، فسيطروا على ممتلكات الدولة ونهبوها واستخدموا أعوانهم فى قهر الفلاحين والصناع

والاستيلاء على ما فى أيـديهم . . بل وحاول بعض حكام الأقاليـم فى الوجهين البحرى والقبلى الادعاء بأحقيتهم فى الجلوس على عـرش البلاد دون وجه حق ودون الاستناد إلى الشرعية أو أى سند من القانون .

● واستمر عصر الفوضى والاضمحلال نحـو ١٢٠ سنة تولت خلالها بعض الأسر الملكية الضعيفة حكم البلاد [من الأسرة السابعة حتى الأسرة الحادية عشرة] . وكانت هـذه الأسرات لا تسيطـر على كل أقـاليم البـلاد ، إلى أن استطـاع « الملك منتحـوتب الثانى » ـ من الأسرة الحادية عشرةـ إعادة توحيد البلاد وأعاد القانون والنظام إلى الدولة ، وحدث ذلك حوالى عام ٢٠٢٢ ق م .

● ولحسن الحظ فقـد تم العثور على إحدى الـوثائق الأثـرية الهامة التى تصـف لنا الأحوال السيئة خلال عصر الفـوضى ، وهى البردية المعروفة علمياً باسـم بردية ليدن ، والمنسـوبة إلى الحكيم المصرى القـديم « إيب ور » الـذى استطـاع بأسلـوب أدبى رفيع وصف حالة الحزن العظيـم التى عمت البلاد بطولها وعرضها بسبـب الفوضى والارتباك فى جميع الشئون السياسية والاجتماعية بعد تمزق الـدولة ، ووصف أوجة الخراب والدمار والانحطاط عنـدما سيطـر الأجانـب الآسيويـون على بعض الأقاليم المصريـة فى شمال وشرق البلاد وأشاعوا فيها عمليات السلب والنهب .

● وبالنظر إلى طول هذه البردية وكثرة مـاورد بها من موضوعات وأوصاف ، فسوف نقتطف منها بايجاز نصوص بعض الجمل التى تدل على سقوط القانون والنظام وسيطرة أعمال البلطجة فى كل مكان . . يقول الحكم « إيب ور » على سبيل المثال :

ـ أصبح كل شخص يغير ويستولى على ما يستطيع وما تصل إليه يداه .

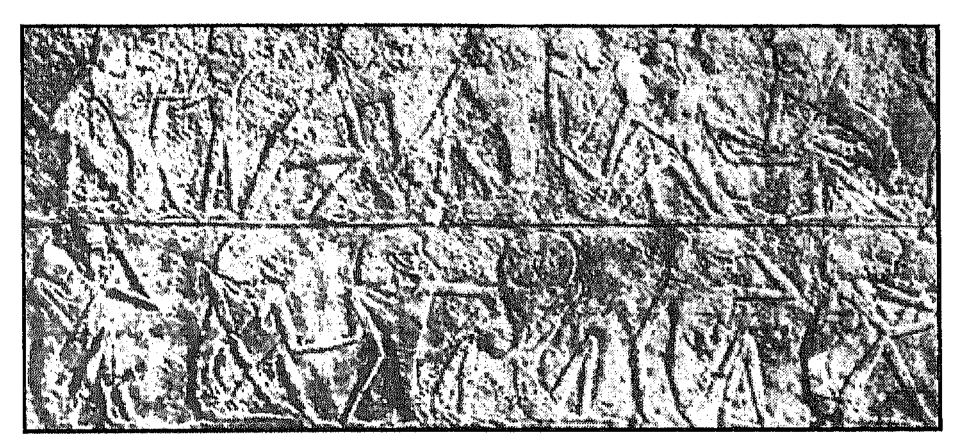
ـ انتشر الخوف وعم الانحلال الخلقى وعدم المبالاة بالقيم الدينية .

ـ أصبح الـرجل يذبح أخاه من أمـه ليستولى على مايملكه . . وأصبح الـرجل ينظر لابنه نظره لعدوه . . ويذهب الفلاح إلى الحرث والزرع وهو يحمل أسلحته .

ـ أنظـر . . لا صانـع يعمل والعـدو يحرم البـلاد من خيراتها وحـرفها وصنـاعـاتها وانعدمت التجارة مع البلاد الأجنبية .

ـ والسائح الأجنبى الذى قدم للزيارة أصبح يتعرض للسرقة والضرب بالعصا ويذبح ذبحاً شنيعا . . وأصبح اللصوص أصحاب ثروات . . والحراس يقولون لأنفسهم فلنذهب لننهب . . وامتلأت البلاد بالمجرمين ولا يوجد رجل من رجال الأمس الطيبين . . وانتشرت القاذورات فى كل مكان ، ولا يوجد رجل بملابس بيضاء نظيفة .

ـ وأصبح الأطفال يصرخون : لماذا جئتم بنا إلى هذه الحياة اللعينة . . يالتعاستى بسبب البؤس الذى أعيشه فى مثل هذا الزمن !



نقش جدارى من الطريق الصاعد لهرم أوناس بسقارة يصور منظراً للمجاعة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال .

أول انقلاب طبقى فى تاريخ العالم

حين أعلن المؤرخ البريطانى « أرنولد توينبى » أن الحضارة المصرية القديمة بلغت أقصى ذراها فى عصر الدولة القديمة كان يؤكد حقيقة أن الشعب المصرى الذى صنع هذة الحضارة كان على استعداد لبذل كل جهد ممكن مادام يشعر بأن ملوكه وحكامه يقيمون العدل ويحققون له الحماية والخير .

● وعندما يشعر الشعب بأن ملوكه ضعاف متخاذلون وليسوا آلهة ولا أبناء آلهة كما كانوا يقولون ، وأن هؤلاء الملوك قد وقعوا تحت سيطرة حكام الأقاليم وكبار رجال الدولة وكبار الموظفين الذين أشاعوا الظلم ونهبوا الشعب عن طريق الضرائب الباهظة ، ومارسوا الكبر والغطرسة والطغيان ، عندئذ هب الشعب لينتقم من الجميع ، وحدثت الانتفاضة المدمرة التى اكتسحت فى طريقها كل شىء ، على النحو الذى عرفناه بعد سقوط الدولة القديمة فى نهاية عصر الأسرة السادسة عام ٢١٤٠ ق م .

● ويقول بعض المؤرخين إن الثورة التى قام بها الشعب المصرى فى ذلك الزمن تعتبر بكل المعايير السياسية والاقتصادية والاجتماعية أول انقلاب طبقى فى تاريخ العالم ، حيث فرضت طبقة « البروليتاريا » دكتاتوريتها وتسيدت على طبقات الشعب الأخرى .

● والمقصود بطبقة البروليتاريا هنا معناها فى النظام السياسى الذى كان سائداً فى روما القديمة والذى كان يقصد به الطبقة التى لم تكن تملك شيئا ، وهذا معنى يختلف كثيراً عن معناها فى النظرية الشيوعية التى قال بها كارل ماركس . . فمن الناحية السياسية لم يتوصل المجتمع المصرى أثناء تلك الثورة إلى إلغاء الطبقات ، وكل الذى حدث يمكن أن يندرج تحت مفهوم أن « الهيكل الطبقى » فى المجتمع المصرى القديم ظل على حاله ، ولكن حدث استبدال فى التسكين الطبقى ، حيث حل الفقراء محل الأغنياء ، وحل الأغنياء محل الفقراء والمعدمين ، على النحو الذى تشهد به بردية ليدن

المنسوبة إلى الحكيم المصرى « إيب ور » التى تقول فى تلك الفقرات التى انتقيناها من نص البردية :

ـ أصبح الفقراء يمتلكون أشياء جميلة ، وأصبح العظماء فى حالة يرثى لها . . لقد حل الحزن فى قلوب أصحاب الأصل الرفيع ، أما الفقراء فقد امتلأوا سروراً .

ـ لقد دمرت قصور الملوك ونهبت قبورهم ، وأصبح الحكام جياعاً يعيشون فى بؤس . . وقضاة البلاد طردوا من بيوت العدل . . والذين كانوا يرتدون الكتان الجميل أصبحوا يضربون . . وأصبحت كل بلدة تقول : هيا نقضى على كل الأقوياء والأغنياء . . ونهبت المخازن وأصبحت الصوامع خالية وانعدمت الغلال فلا زرع ولا حرث ولا حصاد وساد الجوع . . وجرد القوم من ملابسهم وعطورهم وأصبح كل انسان يقول لم يبق لى شىء .

ـ وهكذا صار العبيد أصحاب عبيد . . ومن لم يكن فى قدرته أن يقيم حجرة أصبح يملك فناء مسوراً . . ومن كان يبيت فى العراء أصبح يجد كثيرات من السيدات النبيلات الشريفات اللاتى كن ينمن على أسرة أزواجهن فأصبحن ينمن على مضاجع مقضة بعد أن طردن من بيوتهن وأجبرن على العمل الشاق فى حرارة الشمس وهن يرتدين خرقاً بالية وأعضاؤهن ظاهرة وقلوبهن تنفطر من شدة الحزن .

ـ وأصبحت الجوارى والنساء الفقيرات يتحلين بالذهب واللازورد والياقوت والفضة . . أما السيدات النبيلات فقد أصبحن يمشين فى طول البلاد ويقلن : ليتنا نجد شيئا نأكله .

ـ ومن كانت لا تملك صندوقا أصبحت تملك صوانا . . ومن كانت ترى وجههافى الماء أصبحت صاحبة مرآة .

● هكذا وصف الحكيم المصرى القديم « إيب ور » الانقلاب الطبقى الذى حدث نتيجة للظلم الذى عاناه الشعب المصرى بسبب فساد حكامه وطغيانهم وعدم التزامهم بتطبيق العدالة ، فهب الشعب فجأة وقلب المائدة فوق رؤوس الجميع .

فكرة : العدل أساس الملك

تدل الشواهد الأثرية والتاريخية على أن المصريين القدماء كانوا يربطون بين حالة الرخاء وعدالة الحاكم الصالح . . كما كانوا يعتبرون أزمنة الشدة والشقاء والفوضى والمجاعة والفقر دليلاً على ظلم الحاكم وعدم التزامه بالعدل .

● ومنذ ظهور البوادر الأولى لأسس الديانات والعقائد المصرية القديمة التى وضعها كهنة المعابد ، ظهرت فكرة « العدالة » كأساس لنظام الحكم باعتبارها « حقاً » للرعية و « واجباً » يلتزم به الحكام .

● ويجمع أئمة علماء التاريخ المصرى القديم على أن مظاهر التبجيل والتقديس المبالغ فيها التى كان يكنها المصريون القدماء لملوكهم وحكامهم ، كانت ترجع بالضرورة إلى شعور الشعب بأن هؤلاء الملوك كانوا يقيمون العدل والنظام ويكفلون الأمن والطمأنينة ، ويوفرون الرخاء لكل الناس ، بفضل مايقومون به من تشجيع المبدعين فى الصناعة والقائمين بالزراعة والتجارة ، بالإضافة إلى رعاية العلم وكل من له نشاط فى الكتابة والأدب والهندسة والحساب والفلك والطب والعمارة .

● ولذلك فلم يكن غريباً أن تظهر فى الأسس الدينية والعقائدية فكرة وجود إلهة أطلقوا عليها اسم « ماعت » وجعلوها رمزاً للحق والعدل والصدق والخير ، وصوروها فى هيئة امرأة جالسة أو واقفة ويزدان رأسها بريشة طاووس ، وهو رمز يعادل الرمز الحديث لفكرة العدالة فى شكل امرأة معصوبة العينين وتحمل فى يدها الميزان .

● وطوال حقب التاريخ المصرى القديم ، ظلت « ماعت » مثلاً أعلى يحتذيه الحكام ويتطلع إليه الناس . . وظلت بالنسبة للجميع ـ حكاماً ومحكومين ـ رمزاً معنوياً مقدساً يدل على مبلغ ما ينبغى أن يكون للعدل من أثر فى استمرار النظام والطاعة ،

ومعياراً للتفرقة بين الحق ويقظة الضمير الانسانى ، وبين الباطل وغيبة هذا الضمير.

● وقد قام العديد من المؤرخين وعلماء الحضارة ببحوث ودراسات مستفيضة تناولت الدلالات الفلسفية التى أوعزها المصريون القدماء إلى فكرة « ماعت » وما ترمز إليه من معان ووظائف يمكن تلخيصها فيما يلى :

● هى رمز لحسن الخلق ومراعاة الضمير والتمسك بأهداب السلوكيات الطيبة ودليل على الورع الدينى واحترام السنن الإلهية والتراحم بين الناس عائليا وشعبيا ، كما انها المعيار الذى يفرق بين العدل والظلم وبين الحق والباطل .

● وهى رمز لدقة قوانين نظام الكون وثبات عناصره الأساسية ممثلة فى أفلاك النجوم ومساراتها فى السماء ، واختلاف الفصول وتعاقب شروق الشمس أثناء النهار وغروبها أثناء الليل .

● وهى أيضا ترمز إلى « الثقل » المستخدم فى الميزان الذى توزن به حسنات وسيئات المتوفى فى العالم الآخر ، حيث يلقى المتوفى مصيره الأبدى إما بالذهاب إلى الجنة « حقول إيارو » أو بالالقاء فى النار « سقر » .

● وتقديراً لتلك المعانى المقدسة السامية كان ملوك مصر يفخرون بأنهم التزموا بتعاليم « ماعت » وطبقوها ، وأقاموا أركان ملكهم على العدل بين الرعية ونشر الخير فى البرية .

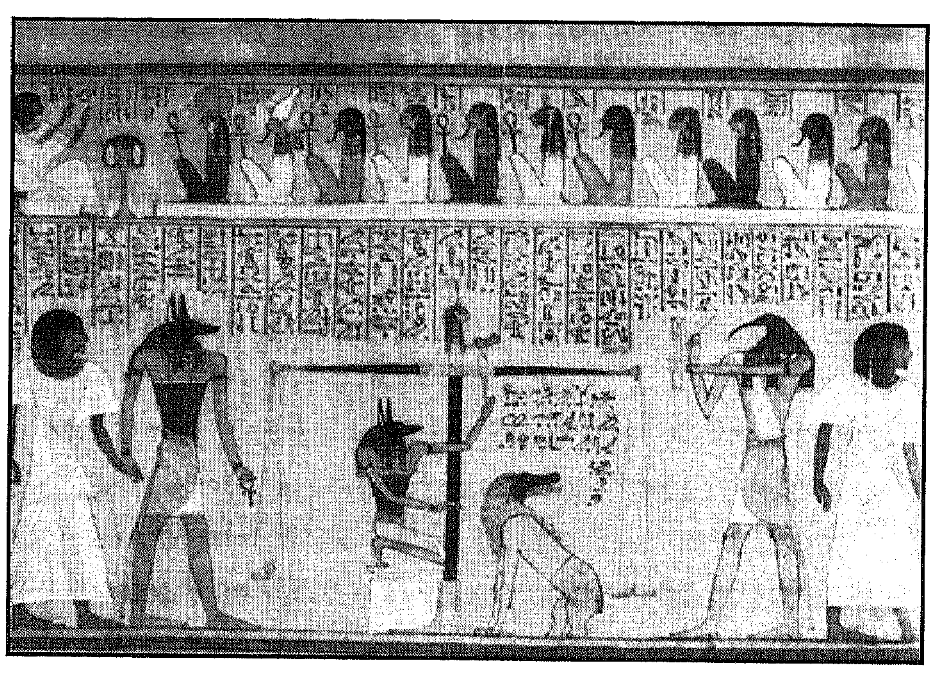
● ولم يكن غريباً أن يكتب الحكماء والأدباء المصريون خلال عصور الاضمحلال التى ساد فيها الظلم والفوضى والفساد ، متنبئين بأن إصلاح أحوال البلاد يتوقف على ظهور الحاكم العادل الذى يعيد الأمور إلى نصابها السليم .

● ويقول الحكيم « إيب ور » مبشراً بظهور الحاكم الذى سينقذ البلاد : « أين هو ليسوى بين البشر . . ويقيم العدل . . انه راعى الانسانية الذى لا يحمل فى قلبه شراً» .

● ويقول الحكيم « نفر ـ روهو » فى المعنى نفسه : « إن الحاكم العادل قادم لامحالة

. . والـذين سيعيشون فى زمنـه سـوف يبتهجون . . وهـؤلاء الـذين يتآمـرون على الشر ويحيكـون المؤامرات سيغلقـون أفواههم خـوفـاً منه . . وسيعيـد ماعت إلى مكـانها . . والظلم سوف ينبذ ويختفى »

● ويقول المؤرخ الأمريكى برستيد أن هذه التنبؤات المذكورة فى الأدب المصرى القديم قد استخدمت مثيلاتها فى التبشير بظهور المسيحية بعد أكثر من ألفين من السنين .



ماعت هى رمز العدالة فى الدنيا والآخرة .

قبل أن تحكم .. تعلم كيف تحكم

كان مـن المحتم على جميع الأمراء مـن أبناء الملك أن يتلقـوا العلم على أيدى كبـار المعلمين والحكماء ، كما يتحتم عليهم أيضـا أن يمارسوا الريـاضة والفروسيـة والتدريب العسكرى .

● وإلى جانب تعلمهـم مبادىء وقواعد علـوم الحساب والهندسـة والفلك والطب والكيمياء وغير ذلك من العلـوم الأخرى التى برع فيها قدمـاء المصريين ، كان لابد من تلقينهم أسس التراث المصرى فى الحكمة والفلسفة وقواعد الأخلاق والسلوكيات الطيبة الرفيعة .

● ومن العادات السياسية التى كانت شائعة فى نظام الحكم حرص الملوك والفراعنة على إشراك « ولى العهد » فى حكـم البلاد بطريقة مباشرة ، حيث كان ولى العهد فى كثير من الأحيان يكلف بقيادة الجيش بفرقه العسكرية المختلفة ، أو قيادة الحملات الحربية ضـد المتمـردين أو المعتـدين الأجـانب ، أو يكلف بأداء بعـض السلطات التنفيـذيـة الخاصة بالملك ويعطى سلطة مطلقة فى اتخاذ القرارات المناسبة ، أو يقوم بالاشراف على المحاكم « بيـوت العدل » أو أداء بعض المراسم والطقـوس الدينية فى المعـابد نيـابة عن والـده ، وغير ذلك من أسـاليب مباشرة السلطـات التنفيـذية والتشريعيـة والقضائيـة والدينية .

● وبطبيعة الحال فقـدكان الملوك يحرصون على تلقين أبنـائهم ـ من أولياء العهـد ـ

المثل العليا التى يجب أن يتحلى بها الملوك فى حكم الرعية ومباشرة شئون الدولة . . ولحسن الحظ فقد وصلت إلينا عدة برديات تتضمن النصائح والتعاليم التى لقنها بعض الملوك لأبنائهم الذين تولوا حكم البلاد من بعدهم .

● ومن أشهر هذه الوثائق السياسية بردية محفوظة بمتحف لنينجراد تتضمن مجموعة من النصائح والتعاليم التى وجهها أحد ملوك الأسرة العاشرة لولى عهده المسمى « مرى كا رع » الذى تولى الملك من بعده . . ويقول فيها :

● « عليك أن تتحلى بالفضائل حتى يثبت عرشك على الأرض . . كن عادلاً مثل أجدادك من الملوك السابقين . . ولا تجرد أحداً من أملاكه . . ولا تطرد موظفا من عمله ولاتغدر بزميل تلقى معك العلم . . وهدىء من روع الباكى . . وحقق فيما يقوله الشاكى . . ولا تظلم يتيما ولا أرملة . . ولا تكن فظاً بل كن رحيم القلب . . واجعل هدفك حب الناس لك ، فمسئولية الحكم ثقيلة . . وارفع من شأن الجيل الجديد ، فالبلاد ملأى بالشبان المدربين . . واجعل من هؤلاء الشبان اتباعك ، فامنحهم الممتلكات وهبهم الحقول والقطعان . . ولا ترفع من شأن ابن العظيم على ابن الوضيع بل اتخذ لنفسك الرجل بحسب كفاءته . . واعطى للموظفين حقوقهم واجعلهم لا يحتاجون لشىء ، لأن الرجل المحتاج قد ينحاز إلى الشخص الذى يحمل فى يده رشوة . وكن محايداً فى حكمك بين الناس فالكل متساوون . . والملك ذو العقل المحايد يفلح حاله ويصبح محترماً داخل القصر وخارجه . . واعلم أن الله يرى كل شىء . . وان فضيلة الرجل المستقيم أحب عنده من ثور يقدمه الرجل الظالم قربانا . . وعليك أن تقيم آثاراً باقية لأنها تجعل اسم صانعها باقياً فى الزمن » .

● وكانت مثل هذه التعاليم والتوجيهات التى يلقنها الملوك لأبنائهم بمثابة الدستور الذى يلتزم به هؤلاء الأبناء عندما تحين لحظة انفرادهم بحكم البلاد . . وكان من المتوقع دائما أن يقوم هؤلاء الملوك الجدد بتلقين أبنائهم مزيداً من التعاليم الأخرى التى تحثهم على إقامة العدل بين الناس .

نصائح .. للمواطن الصالح

فى حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، قام الملك مينا بتوحيد الوجهين البحرى والقبلى ، وأنشأ أول دولة فى تاريخ العـالم . . وجعل لهذه الدولة حكومة مركزيـة هى أول حكومة أخرجت للناس .

● وبطبيعة الحال فقد كانـت الحكومة تسيطر على جميع الأفراد الذين كـانوا يعيشون فى جميع الأقاليم المصرية . وعلى مدى السنين تكون عرف أقرب مايكون إلى دستور غير مكتوب ولكنه ينص على علاقة الفرد بالحكومـة وعلاقة الحكومة بالفرد ومايتم بينهما من تبادل للحقـوق والواجبات ، ورسخت على المدى مجمـوعة من القواعـد والمبادىء التى تربط بين فكرة الوطن وفكرة المواطن .

● وطبقاً للنظام الاجتماعى المفروض ، فلم يكن من الجائز بأى حال من الأحوال أن يصبح المواطن عاطلاً بـلا عمل فى الدولة المصرية ، بل كان لابد من التـزامه بأن يؤدى عملاً ما طبقا لما هو سائد فى الطبقة التى ينتمى إليها هذا الفرد . . وكان من الشائع أن يقوم الانسان بنفس نوع العمل الذى كان يقوم به أبوه إلا فى استثناءات نادرة .

● وكان أداء العمل ـ أياً كان ـ بدقة وأمانة و إجادة يعتبر من الصفات الحميدة التى يجب أن يتحلىٰ بها المرء . ولا تخلو الحكم والتعاليم التى قـال بها حكماء مصر الأقدمون من النصـائح التى تحث على العمل والانتاج . وفى ذلـك يقول الحكيم « بتـاح حتب » [حـوالى ٢٤٥٠ ق م] : « إعمل . . وكن مجتهـداً على الدوام . . وافعل أكثـر مما هـو مطلـوب منك . . ولا تضيع وقتـا لا تعمل فيـه . . ممقوت ومكـروه ذلك الـذى يسىء استخدام وقته . . إن العمل يأتى بالثروة ، والثروة لا تدوم إذا هجر العمل » .

● وقد كان من اللازم أن يتنـاول الحكماء تحديد « المايجب » و « المالا يجب » بالنسبة لكل مـواطن مـن المواطنين الـذين يعيشـون داخل المجتمع المصرى ، وكـذا تحديـد السلوكيات التى لابـد أن يلتزم بها كل فرد حسب عمله وتخصصـه وحسب الطبقة التى ينتمى إليها .

● يقول أحد الحكماء : « إذا أصبحت عظيما بعـد أن كنت صغير القدر . . وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً ، فـلا تنسى كيف كانت حالك فى الزمن الماضى . . ولا تفخـر مختـالاً بثروتـك التى أتت إليك منحـة مـن الله ، فـأنت لست بأحسـن من أقرانك الذين حل بهم الفقر . . واحترس من الأيام التى يمكن أن يأتى بها المستقبل » .

● وينصح أحد الحكماء كلاً مـن القضاة والمتقاضين فى المحاكم بقولـه : « لا تزيف كلامك فى بيت العدل [المحكمة] . . بل قـل الصدق ولو على نفسك . . وكن عادلاً ولاتهتم بكلمات رجل لأنـه يرتـدى ملابس بيضاء نظيفـة . . بل اقبل الكـلام الصادق الحق ولو قاله من يلبس خرقاً بـالية . . ولاتقبل هدية رجل قوى ولا تظلم الضعيف من أجله » .

● وينصح حكيم آخـر كل فـرد من طبقـة الموظفين والحكـام بقـوله : « لا تفـرض ضريبـة على شخص لا يمتلك شيئـاً . . وإذا وجدت فقيراً عليـه دين كبير ، فقسمـه ثلاثة أقسام « وسامحه فى اثنين وابق واحداً » .

● ويضع حكيم آخر قاعدة الالتزام بـاحترام كبار السن والضعفاء فيقول : « إحذر أن تسلب فقيراً بائساً . . أو تكون شجاعاً أمام رجل ضعيف مهيض الجناح . . ولا تمد يدك لتمـس رجلاً مسناً بسـوء . . ولا تسخر من كـلام رجل هرم . . وإيـاك أن تجعل نفسك رسول سوء » .

● هذه عينة قليلة من مئات القواعد والحكـم والتعاليم والنصائح التى كانت تدعو إلى خلق المواطن الصالح فى الدولة المصرية القديمة .

وعلموا الناس مبادىء الأخلاق والسلوكيات الطيبة

كانت التعـاليم الأخلاقية التى تركهـا لنا حكماء مصر الأقدمون بمثـابة ضمير الأمة المصرية ، كما كانت دستور العلاقات الانسانيـة والاجتماعية والسلوكيات العامة الطيبة داخل المجتمع المصرى القديـم .

● هى تعـاليم تحض على الفضيلـة ونبذ الـرزيلـة ، وتدعـو إلى التحلى بالصفـات الحميدة والأخلاق الرفيعة النبيلة ، والسيطرة على نـزعات النفس الأمارة بالسوء ، هادفة إلى صياغة الانسان المصرى القويم الملتزم بالصراط المستقيم .

● وهى تعاليم لكل انسان مدرك لانسانيته المجردة دون أى اعتبار لطبقته أو لمكانته الاجتماعية أو لدرجة ثرائه أو فقره ، أو لجنســه ذكراً أم أنثى . . فالكل سواء أمام قوانين الأخلاق وقواعد السلوكيات الطيبة .

● وليس من المستغرب أن الغالبية العظمى من تلك التعـاليم وصلت آثارها إلينا فى صورة تمرينات كـان يقوم بها التلاميذ القـدماء فى مدارسهـم بقصـد التدريب على تعلم أصول البلاغة والأساليب الجميلـة وقواعد اللغة وتحسين الخطوط . . أليس معنى ذلك حرص التعليم فى مصر القـديمة على تهذيب النشء منـذ الصغر ليصبح جيلاً متمـرساً بالعلم والأخلاق ، صادقاً مع نفسه ومع الآخرين ؟ !

● ولم يكن مستغرباً أيضـاً أن جميع هذه التعاليم الاخلاقية والسلـوكية كانت منتشرة شفاهـة فى شكل أمثال شعبيـة بين جميع المصريين مهما اختلفت طبقاتهم ومستـوياتهم الاجتماعية ، وكونت ضميراً مكتوباً على جبين الأمة المصريـة ، ورأياً عاماً لماهية الطبيعة الانسانية الطيبة التى كان من الواجب أن يتحلى بها كل فرد يعيش فى المجتمع .

● قال حكماء مصر القديمة : « إذا أردت أن يكون سلوكك حسناً وأن تحرر نفسك

من كل الشرور ، فاحذر أن تشتهى مايملكه غيرك . . وإياك والطمع فهو داء لا شفاء منه ، يجعل الود مستحيلا ، ويحيل الصديق عدواً ، ويقضى على الثقة بين الأصدقاء ، ويفسد مابين المرء وأمه وأبيه واخوته الأشقاء ، ويفرق بين الرجل وزوجته . . إنه حزمة تضم كل أنواع الشرور ، وحقيبة ملآنة بكل مايستحق الخزى والعار » .

● وقالوا : « ليس هناك من يخدع الناس ولا يكون مخدوعاً هو نفسه ، وليس هناك من يسير معوجاً ومع ذلك يستمر ويزدهر » .

● وقالوا : « لا تكن متكبراً بسبب علمك . . ولا تكن منتفخ الأوداج لشعورك بأنك رجل عالم . . إن نهاية العلم والمعرفة لا يمكن الوصول إليها ، وليس هناك عالم يعرف كل شىء فهناك من قد يكون أفضل منه وأكثر منه علماً » .

● ولا يسع المقام هنا أن نذكر آلاف القواعد والتعاليم الأخلاقية التى كانت دستوراً لسلوكيات المصريين القدماء ، ويكفى أن نشير إلى تلك المضامين الانسانية التى دعا إليها حكماء مصر القديمة ، الذين حثوا الناس على التمسك بأدب الحوار مع الآخرين ، والتمسك بالصدق وكراهية الكذب والشهادة الزور ، وفرقوا بين حلاوة المال الحلال وشرور المال الحرام ، ودعوا إلى عدم التطفيف فى الكيل أو الميزان ، ونادوا بعدم تجريح أصحاب العاهات الجسمانية والعقلية ومعاملتهم بالرحمة والرفق ، وضرورة احترام الصغير للكبير ، واحترام الانسان لمعلمه ، والإحسان الواجب للآباء والأمهات .

● وإلى جانب مثل هذه القواعد الأخلاقية وضع حكماء مصر القديمة عشرات من قواعد « الإتيكيت » التى يجب الالتزام بها عند زيارة البيوت والتلاقى فى المناسبات العامة والخاصة وآداب الموائد والولائم .



آداب الحديث .. وآداب المائدة وزيارة البيوت

كان المجتمع المصرى القديم منـذ بدء تكوينه واستقراره مجتمعاً مهذباً تحكمه قواعد سلوكية وقوانين أخلاقية ملزمة تحدد علاقة الأفراد ببعضهم وعلاقاتهم بالدولة .

● وكانت النصائح والتعاليم التـى قال بها حكماء مصر الأقدمون تعبيراً عن ضرورة الالتزام بسلوكيات اجتماعية كانت متبعـة فعلاً فى حياة أبناء الشعب العاديين بمختلف طبقاتهم ومـراتبهم الاجتماعية ، وما ذكـرها هؤلاء العلماء ونصـوا عليها كتابـة إلا لتكون نصـوصا مقننـة يجب أن يحفظهـا كل فـرد عن ظهـر قلب ، ويجب أن يلتـزم بها فى كل تصرفاتـه وسلوكياتـه مع الآخرين ،وحتى تصبح تلك النصـوص ميراثا تتوارثـه الأجيال جيلا بعد جيل .

● وكان من حسن حظنا أن عثرنا على تلك النصوص مكتوبة ، ليعرف العالم كله أن مصر القديمة العظيمة كانت سباقـة إلى الصعود إلى تلك الدرجة العالية من التحضر ، وعرفت قـواعد تهذيب الأخلاق وقـواعد الاتيكيت التى لاتختلف عـن مثيلاتها فى أرقى المجتمعات المتحضرة المعاصرة .

● وتـدل الشواهـد الأثريـة العـديدة على أن أفـراد المجتمع المصرى القـديم كانـوا يستخدمون صيغاً موحدة لتحيات الصباح والنهار والمساء ، وصيغا شائعة تم التعارف عليها لاستخـدامها فى التهانى بـالأعياد وتهانى الأفـراح فى مناسبات الـزواج والولادة ، وصيغا أخرى للتعـازى فى حالات الموت والمواساة فى حالات المرض والمنـاسبات الحزينة الأخرى .

● عند دخول بيوت الآخرين سواء للزيارة أو لحضور حفل أو وليمة ، كان لابد من الالتزام بأصول مرعية واتيكيت خاص يجب مراعاته بأقصى قدر من الأدب . . وفى هذا الخصوص قال حكماء مصر القديمة :

● « لاتدخل إلى بيت الآخرين بحريـة ، بل ادخل فقط بعد أن يؤذن لك . . وإذا

دخلت داراً وكان رب البيت مشغولاً بغيرك ، فعليك أن تنتظر صامتاً ويدك على فمك . . وإياك أن تمعن النظر إلى شيء مستهجن أو منتقد ، والزم الصمت ولا تتحدث عن هذا الشيء إلى آخر فى الخارج » .

● وبالنسبة لآداب الضيافة والدعوات لحضور الحفلات أو الولائم ، فقد كان لابد أن يلتزم الضيوف بسلوك مهذب يتمثل فى قواعد الاتيكيت التالية التى تحدد آداب الحديث وآداب المائدة :

● كن ماهراً فى الحديث . . ولاتتكلم إلا إذا كنت مقتنعاً بما تقول . . إن قوة الانسان تكمن فى لسانه ، والحديث أقوى من أى قتال . . تكلم فقط بعد أن يرحب بك . . واضحك حينما يضحك صاحب الدار ، فإن ذلك سيكون ساراً لقلبه ، وماتفعله سيكون مقبولاً لأن الانسان لا يعلم ما فى القلب » .

● وبالنسبة للمشاركة فى الحديث مع المضيف [صاحب البيت] ومع ضيوفه الآخرين قال الحكماء : « إذا سئلت عن شيء فاختر الردود الطيبة الحسنة وتحدث بها على لسانك واحتفظ بالردود السيئة فى داخلك . . ولاتنطق بأية كلمة شريرة أمام أى زائر . . ولا تتكلم بكلمات غامضة ولاتنطق بلفظ وقح ، فإن كلمة تقال يوماً وأنت تثرثر قد تدمر بيتك . . ولا تعيد كلمات حمقاء قيلت على لسان ضيف آخر ، فى هذه الحالة إلزم الصمت فإنه أحسن . . وإذا اتبعت كلماتى ستصبح على خلق عظيم وسيبتعد عنك كل شر » .

● وقال الحكماء فى آداب المائدة وتناول الطعام مع الآخرين : « إذا كنت من بين الجالسين إلى مائدة الطعام ، فلا تنظر إلى ما يقدم لغيرك ، وخذ فقط ما يقدم إليك حين يوضع أمامك ، ولا تصوبن نظرات كثيرة إليه ، لأن ذلك تشمئز منه النفوس . . فانظر إلى الطعام بعدم مبالاة حتى وإن كنت تشتهيه . . إن ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة . . إن من العار أن يكون الانسان شرها » .

أليست كل هذه القواعد على بساطتها ــ وغيرها عشرات بل مئات ـ دليلاً كافياً على مدى رقى الحضارة التى صنعها الشعب المصرى القديم فى عصور كانت تعيش فيها شعوب أخرى حياة بدائية لا تعرف شيئا عن تلك السلوكيات الرفيعة الطيبة . . ؟!

الدراما المصرية .. أسبق من الدراما الاغريقية .

كان هناك اعتقـاد شائع وراسخ لدى الكثيرين من مؤرخى الآداب والفنـون العالمية بأن «الدراما » بمعناها التقليدى وبفرعيها [التراجيـديا والكوميديا] هى وليدة الحضارة الاغـريقية ، وذلك على أسـاس نشأتها فى اليـونـان القديمـة معبرة عن أهم خصـائص الحضارة القديمة التى عرفتها بلاد الاغريق القدماء .

● وظل هـذا الاعتقـاد قـائما وراسخا بفضـل مئـات الكتب التى ألفهـا مئـات من المؤلفين والمؤرخين والنقـاد المسرحيين على مدى قـرون طـويلة ، والتى تنـاولت شروحـاً وتاريخاً ونقداً ودراسـات تحليلية للدراما الاغـريقية القديمة وكتابها المشهـورين أمثال : إيسخيلوس وسـوفوكليس ويوربيـديس وغيرهم من أشهر مـؤلفى المسرحيات اليونـانية القديمة التراجيدية والكوميدية .

●ولكن هذا الاعتقاد تزلزل بشدة وأعيد فيه النظر بعد أن تم اكتشاف إحدى الوثائق المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى عهد الملك مينا ـ موحد الوجهين البحرى والقبلى بمعنى أن تاريخ هذ ه الوثيقة يرجع إلى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد .

● وبالفحص الدقيق لتلك الوثيقة وترجمتها تبين انها تتضمن نص أول عمل «درامى تمثيلى » فى تاريخ الانسان على الأرض ، مما جعـل الكثيرين من مؤرخى الآداب والفنون وعلماء الآثـار يعيدون النظـر فى أقـدميـة الدرامـا الاغـريقيـة ، ويعلنون أن « الـدرامـا التمثيلية» ظهرت فى مصر القديمة قبل أن تعرفها اليونان بما يقرب من ثلاثة الآف سنة !

● و إنصافا للحق ، فقد قال بعض هؤلاء المؤرخين إن الدراما المصرية قد نشأت فى أحضان الـدين والعقائد المصريـة القديمة ، معبرة عـن أهم ملامح وخصـائص البيئة والحضارة المصرية فى عصورها القديمة ، تماماً مثلما كانت الأعمال الدرامية الأولى التى

ظهـرت فى بلاد اليـونـان تعبر عن أهم مـلامح وخصـائص البيئـة والعقائد والحضـارة الاغريقية القديمة .

● أما تلك الـوثيقة المصرية القديمـة ، فقد دون عليها أول نص درامى تمثيلى عـرفه الانسان . . وكان هـذا النص مكتوباً على سطح حجـر أسود [محفوظ حاليـاً بالمتحف البريطانى بلنـدن] . . ومن الواضح أن هذا الحجر كـان قد تعرض للمحو والتشـويه بطريقة مؤسفـة ، إلا أن بقاياه الظاهرة تدل بشكـل واضح على أن النص المكتوب عليه عبارة عن « حوار تمثيلى فلسفى » يتبادله آلهة مصر القـدماء حول عملية « خلق العالم » والنظام الكونى للأشياء والمخلوقات . ولهذا السبب فقد أطلق المؤرخون على هذا النص الدرامى اسـم « تمثيلية بدء الخليقـة » . كما أطلق عليه مؤرخـون آخرون اسم « الـدراما المنفية » نسبة إلى مدينة « منف » عاصمة مصر التى شيدها الملك مينا .

● ومن الغريب أن الجمل الحوارية التى كان يتبـادلها الآلهة مكتوبة بطريقة تشبه إلى حـد كبير الطـريقـة التقليـديـة لكتـابـة الحوار فى المسرحيـات القـديمـة والمسرحيـات المعاصرة . . كما أن نص هذه « الدرامـا » يتضمن « مونولوجا » فرديـاً كان يلقيه الكاهن المرتل الذى كان يقوم بدور يشبه دور « الراوى » المفسر لأحداث ووقائع التمثيلية ويعلق عليها .

● والأغـرب من ذلـك أن هـذا النص كـان يتضمـن أيضـاً عـدداً من « التعليمات الارشادية » الخاصة بالاخراج والأداء التمثيلى تتشابة على نحو ما بالتعليمات والارشادات التى اعتاد أن يكتبها مؤلفو المسرحيات قديماً وحديثاً على حد سواء .

● ولم تكن « تمثيليـة بدء الخليقـة » هى الوحيـدة التى تم العثور عليهـا من الأعمال الـدراميةالتى تثبت سبـق مصر فى هذا المجـال ، بل كانت هنـاك أعمال درامية أخـرى ترجع إلى عصور مختلفة من عصور التاريخ المصرى القديم . . العظيم .



بردية الرمسيوم المسرحية

كانت غالبية النصوص الدرامية التى تم العثور عليها ضمن آثار مصر القديمة تدور حول موضوعات دينية أو موضوعات سياسية لتثبيت وتأصيل نظام الحكم وعلاقته الوثيقة بالعقائد الدينية .

● ومع ذلك فقد كانت هناك أيضا بعض النصوص الدرامية التى تمس موضوعات إنسانية ، وإن كانت هى الأخرى تتعلق بموضوعات فلسفية رمزية ، كنص الحوار بين الصدق والكذب ، وبين عقل الانسان ومعدته ، وبين إنسان وروحه البائسة [وهذا النص الأخير يمكن تصنيفه كشكل من أشكال المونودراما] .

● وفى أواخر القرن التاسع عشر ، حين كان أحد علماء الآثار الأجانب يجرى حفائره فى منطقة معبد الرمسيوم بغرب الاقصر ، عثر على صندوق أثرى وجد بداخله مجموعة من أوراق البردى دونت عليها نصوص درامية تمثيلية ذات طابع طقسى احتفالى يتعلق بتتويج الملك « سنوسرت الأول » على عرش مصر بعد وفاة والده « امنمحعت الأول » .

● وبالنظر إلى أن عهدى هذين الملكين يرجع إلى عصر الأسرة الثانية عشرة « الدولة الوسطى – فى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد » إلا أن بعض المؤرخين والمحللين الذين درسوا هذا النص الدرامى ، أشاروا إلى انه مأخوذ عن أصول نص قديم يتعلق بطقوس عملية تتويج الملوك منذ نشأة النظام الملكى فى مصر فى عصر الأسرة الأولى .

● وقد اصطلح المؤرخون وعلماء الآثار المصرية على تسمية هذا النص الدرامى باسم « بردية الرمسيوم المسرحية » . وهو يتكون من ستة وأربعين « منظراً أو مشهداً » يؤديها تمثيلا مجموعة من الكهنة وكبار موظفى الدولة وبعض أفراد الأسرة المالكة .

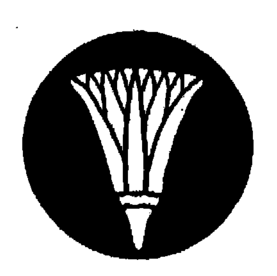
● ويتضمن النص تفصيلات عن تحديد المناظر والديكورات والاكسسوارات مثل الأعمدة المقدسة والأشجار والنباتات والخبز والحلى والجعة ، كما تظهر أثناء الأداء التمثيلى مجموعة من الحيوانات التى تستلزمها أحداث التمثيلية مثل الثيران والماعز .

● وهناك نص درامى آخر منقوش على جانب من جدران معبد « إدفو » . وقد أطلق عليه المؤرخون اسم « دراما انتصار حورس على أعدائه » . ويعتبر هذا النص من أحسن وأكمل نصوص الأدب التمثيلى فى مصر القديمة حيث وصل إلينا بحالة سليمة وجيدة .

● ويقول المؤرخون أن هذا النص عبارة عن رؤية درامية مختصرة لنص درامى آخر أكبر حجماً وأكثر تفصيلا ، وأن السبب فى هذا الاختصار هو ضيق المساحة الجدارية التى نقش عليها النص المختصر بما يتضمنه من جمل حوارية ومناظر تصور المشتركين فى الأداء التمثيلى من آلهة وبشر وحيوانات .

● وهذا النص مقسم إلى خمسة أجزاء عبارة عن مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة . . وتدور أحداثه حول الصراع الذى نشب بين « حورس » وأعوانه ، وبين « ست » وأعوانه ، إلى أن انتصر حورس الذى يمثل الخير والحق والعدل ، على ست الذى يمثل الشر والظلم والاغتصاب .

● وقد يكون من الطريف أن نذكر هنا ما ذكره « هيرودوت » فى حديثه عن مصر بعد أن شاهد تمثيلية مماثلة تدور حول هذا الصراع التاريخى بين حورس وأعوانه وست وأعوانه ، فقد قال انه اعتقد أن هذا الصراع كان حقيقياً يسقط فيه الكثيرون بين قتلى وجرحى ، بالرغم من أن المصريين أكدوا له أن الأمر لا يعدو أن يكون تمثيلاً متقنا !



أول شعراء العالم

حين بدأ أول انسان التعبير عن كلامه شعراً ، كـان لابد له أن يفتح آفاق الخيال أمام قريحتـه ، لكى يصيغ التشبيهات المعبرة عن أهدافـه وأفكاره ، وأن يجعل أسلوبـه جميلا تتقبله قلوب السامعين ، وأن يجعـل كلامه موزوناً مقفى طبقاً لقـواعد اللغة التى يصيغ بها شعره .

● ويجمع علماء اللغـات فى دراساتهم الفقهيـة على أن أول أشعار نطق بها الانســان كانت معبرة عن أفكار وعقائد دينية . . وكانت تلقى ترتيلاً بقصد التعبد ، وكانت مثل الأناشيد ذات ألحان و إيقـاعات تتناسب مع الـوزن الشعرى وتشيع جواً من الـروحانية والمشاعر القدسية .

● ويجمع هؤلاء العلماء أيضا ومعهم المؤرخون وعلماء الحضارة ، على أن مصر القديمة هى الرائدة الأولى للشعر الدينى ، وصاحبة أقدم نص شعرى ظهر فى تاريخ الانسان على الأرض . والشاهد الأثرى على ذلك يتمثل فيما اصطلح على تسميته باسم« متون الأهرام » . . فما هى حكاية هذه المتون . . ؟ !

● من المعـروف أن أهرام الجيـزة التى بنـاها ملـوك الأسرة الـرابعة : خـوفو وخفـرع ومنكاورع ، هى أهرام خالية من النصوص ولم يعثر بداخلها على كتابات شعرية أو غير شعرية .

● ولكن فى سنـة ١٨٨٠م حين كان عـالم الآثار « مـرييت بـاشا » يجرى حفـائره فى منطقة سقارة ، عثر على نصوص مكتوبـة بالهيروجيلفية على الجدران الداخلية بكل من هرم الملك « بيبى الأول » وهرم الملك « مرن رع » . . كما تم العثور فيما بعد على آلاف من أسطـر النصوص الأخـرى مكتوبـة على الجدران الداخليـة بـالأهرام التى بنـاها ملـوك



ماريت



متون الأهرام منقوشة على الجدران
الداخلية لهرم أوناس بسقارة .

الأسرتين الخامسة والسادسة [فى الفترة ما بين عامى ٢٦٢٥ ـ ٢٤٧٥ ق م] .

● وبدراسة هـذه النصوص تبين انها مكتوبة شعـراً ، وتتناول موضوعـات عقائدية متعلقة فى أغلبها بعبادة الإله « رع » إله الشمس فى المعتقدات الدينية المصرية القديمة . ولذلك فقـد اعتبرها المؤرخون معبرة عن أقدم صـورة للانتاج الأدبى الشعـرى فى تاريخ الحضارة الانسـانية ، وليس لها مثيل فى أى مكان آخـر من العالم ولا فى أيـة حضارة من الحضارات القديمة .

● وقـام بعض العلماء بتجميع معظم هـذه المتون المكتـوبـة على جدران الأهـرام فى مجلـدين ضخمين يشتملان على أكثـر من ألف صفحـة ، وذلك حتى تسهل دراستهـا ووضعها تحت البحث العلمى والتفسير التاريخى ومحاولة فهم دلالاتها الدينية .

● وقد تمت ترجمة أغلبية هذه المتون ، وعرفت معانيها ومقاصدها ، وتبين أن بعض عباراتها تتكون من أدعية خاصة لضمان حياة أبدية سعيدة للملك المتوفى فى الدار الآخرة يتضمن رؤية شعرية معبرة عن خيال واسع وثاب ، وقدرة فائقة على صياغة التشبيهات الجميلة البارعة ، والتعبير العاطفى الودى لكل ما فى العالم من كائنات تتمثل فى الأنهار والبحار والحقـول والحيوانـات والطيور والبشر ، ولـذائذ الحياة وأطـايبها ، وكـل ما فى الكون من شمس تسطع أثناء النهار وقمر ونجوم تتلألأ فى ظلام الليل .

● غير أن كثيراً من متـون الأهرام مـازالت محل بحث العلماء ، خصـوصـاً بالنسبـة لبعض العبارات الغـامضة التى لم يتم التوصل إلى معانيهـا ، ويبدو أنها كتبت بكلمات مهجورة قديمة جدا ولم تعد مستعملـة فى أى عصر من عصور التاريخ المصرى اللاحقة على العصر الذى كتبت فيه هذه المتون على جدران الأهرام .

● ومع ذلك يقرر بعض العلماء والمؤرخين انه بالـرغم من أن بعض معانى النصوص الشعرية لمتون الأهرام تبدو غـريبة وغير مفهومة ، إلا أن من السهل أن يفهم منها إجمالاً انها تتضمن مجمـوعة مـن الأوصاف والأحـوال عن الطـابع الـذى كان يتخيلـه قدمـاء المصريين عن طبيعة الحياة الأبدية فى الدار الآخرة .

● وبهذا يسلم جميع العلماء والمؤرخين بأن أول شعراء العالم كانوا مصريين .

حين طالب الشعب بحقه فى الخلود

كان الحق فى الحياة الأبدية السعيدة بعد الموت ، حقاً قاصراً على الملوك وحدهم ، وكأن العالم الآخر عالم خاص لا يدخله إلا الملوك .

● وبعد سقوط الدولة القديمة بانهيار عصر الأسرة السادسة فى القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد ، اشتعلت البلاد بثورة شعبية عارمة ، انقلبت فيها الأوضاع الاجتماعية ، وهجم الفقراء على كل ممتلكات ورموز وأفراد طبقة النبلاء والأثرياء ، وضاعت هيبة الحكومة المركزية ، واضطربت الأحوال السياسية ، وتمزقت أوصال البلاد واستقلت الأقاليم تحت حكم أسرات ضعيفة . . وهو العصر الذى اصطلح المؤرخون على تسميته بعصر الاضمحلال الأول الذى استمر أكثر من مائة سنة .

● ولم تكن نتائج هذا العصر سيئة على طول الخط ، بل تدل الشواهد الأثرية على ازدهار الأدب ، وعلى ظهور قوة بشرية تتمثل فى جموع الشعب بمختلف طبقاته بعد أن أيقظتهم صحوة جعلتهم يتمسكون بحقوقهم وبضرورة الاعتراف بفاعليتهم فى بناء المجتمع المصرى . . وكان أهم الحقوق التى نادى بها الشعب ، هو حقه فى حياة أبدية ـ مثل الملوك ـ بعد الموت والانتقال إلى العالم الآخر .

● ويبدو أن الملوك قد اضطروا اضطراراً إلى منح حق الخلود فى العالم الآخر إلى أفراد حاشيتهم وبلاطهم الملكى وإلى النبلاء وكبار موظفى الدولة . . ثم سلموا بعد ذلك بحق كل فرد من أبناء الشعب البسطاء فى هذا الامتياز . . ووضعت شروط يتساوى أمامها الجميع للحصول على حق الاستمتاع بمباهج الحياة فى العالم الآخر .

● وقد انتشرت ديانة « أوزيريس » ـ إله العالم الآخر ـ انتشاراً واسعاً منذ بداية القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد فى عصر الدولة الوسطى [الأسرات ١١ ، ١٢ ، ١٣] .

وكـانت هذه الـديانـة قـريبة إلى وجـدان الشعب المصرى القديـم بمختلف طبقاتـه ، باعتبارها تمثـل « الحياة والموت والقيامة » وهى مفاهيم واضحة تمامـاً فى البيئةالمصرية ، حيث تخضر الأرض بعد موات ، وحيث يفيض النيل بعد التحـاريق ، وتتجدد مظاهر الحياة فى دورة أبدية خالدة .

● غير أن ديانة أوزيريس لم تظهر هكذا فجأة ، بل كانت ديـانة ثابتة يرجع ظهورها إلى عصور غارقة فى القدم ، وكانت متمركزة فى بلدة أبيدوس [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج حـاليا] . . وقد وجد فيهـا الشعب المصرى القديم سنداً لـه فى حقه فى الخلود بناءً على مـا يقررة الإلـه أوزيريس فى محاكمـة عادلـة توزن فيهـا خيرات المتوفى وسيئـاته لتقرير مآله ومصيره فى العالم الآخر .

● وهكذا أصبح لزامـاً على المتوفى أن يقر فى تلك المحاكمة بأنـه نقى السريرة صنّاع للخير غير معتد ولا أثيم ، وانـه لم يكذب ولم يسرق ولم ينظر إلى زوجة جـاره بسوء ، ولم يعتـد على حق أرملـة ولا مـال يتيـم ، ولم يلـوث مـاء النيل ، ولم يطفـف فى الكيل ولا الميزان، ولم يتلاعب بعلامات حدود الحقول الزراعية ليجور على أرض الآخرين .

● هذه الاعترافـات كانـت تنظم شعراً ، وكـان لها تأثير عميق ممـاثل لتأثير التراتيل الدينيـة الأخرى المنظومـة شعراً ، لتضفى على المتعبد سحـراً روحانياً يسمـو بالنفس إلى أسمى الغايات والمثل العليا . . لذلك فقـد انتشرت أناشيد الشعر الدينى ، وأصبحت نصوصها محفوظة عن ظهر قلب ، وتتوارثها الأجيال جيلاً بعد جيل .

● ولذلك فلم يكن من الغريب ظهور الآلاف من قصائد الشعر الدينى التى يرجع تاريخهـا إلى حقب التاريخ المصرى القديم ، مسجلـة على جدران المعابد والمقـابر وعلى جوانب التوابيت ، أو مكتوبة على صفحات البرديات المزينة برسوم ملونة تصور مشاهد من العالم الآخر كما كان يتخيلها المصريون القدماء .



غزل المصريين القدماء فى نهر النيل

تساءل أمير الشعراء أحمد شوقى مخاطباً النيل فى مجراه : « من أى عهد فى القرى تتدفق . . وبأى كف فى المدائن تغدق . . ومن السماء نزلت أم فجرت من عليا الجنان جداولاً تترقرق » . ويمكننا أن نقول أن هذه التساؤلات الجميلة التى صاغها أمير الشعراء تمجيداً للنيل كانت صدى لمثيلاتها من التساؤلات والتمجيدات التى أطلقها الشعراء المصريون القدماء تمجيداً للنيل واعترافا بفضله على كل من عاش على أرض مصر .

● وقد أدرك قدماء المصريين منذ البداية فضل النيل عليهم وعلى كافة شئون حياتهم ، حيث امتدت حقولهم على ضفافه وروابيه تمدهم بالخيرات من حبوب وثمار وخضراوات ، طعاماً وشرابا هنيئاً لهم ولدوابهم . . وبين الحقول المترامية على الشاطئين أقاموا قراهم ومدنهم ، واتخذوه طريقاً يسهل لهم الاتصالات المتبادلة بين الشمال والجنوب ، فكان الركيزة المثلى التى ارتكزت عليها وحدة الوجهين البحرى والقبلى ، ونشأة الدولة ذات الحكومة المركزية التى يعتبرها المؤرخون أول دولة انشئت للناس فى مشارق الأرض ومغاربها .

● ويعتبر الاحتفال بوفاء النيل من أقدم الأعياد والاحتفالات الشعبية التى عرفها البشر ، واستمر الاحتفال بهذا الوفاء على مدى آلاف السنين من التاريخ المصرى القديم والحديث . . وكان هذا الاحتفال السنوى من أكثر الاحتفالات شعبية وصدقاً فى مصر ، ولكن للأسف الشديد أصابه الاهمال ضمن ما أصاب ، فانزوى هذا العيد الشعبى وتقلص ، وأصبح عيداً من الدرجة الثانية ، لا تعطل فيه المصالح والدواوين ، ولا تتاح فيه فرصة للمصريين للتعبر عن وفائهم للنيل وفرحتهم بوفاء النهر الخالد الذى وهبهم الأرض التى يعيشون عليها ، ومهد أمامهم سبل الحياة ، ومنحهم القدرة على إرساء أعظم الحضارات القديمة فى تاريخ الانسان .

● ولا جدال فى أن تلـك العلاقـة العاطفية التـى كان يكنهـا قدمـاء المصريين لنهر النيل قد أخذت فى العصور القديمة طابع التقديس ودخلت إلى مجال العقائد الدينية . ولذلك فلم يكـن غريباً أن يضفوا على النيل صفـة الألوهية ، فجعلوه إلها أطلقـوا عليه اسم « حابى » أو « حعبى » .

● ولكن هذا الإله لم يكن مثل الآلهة المتعددة التى كانت تعبد فى مصر القديمة ، ولم تكن له عبادة منظمة أو طقوس ومراسم لابد من الالتزام بها . . وصوروه فى هيئة بشرية فى صورة رجل ذى جسـم ممتلىء ، وتظهر فى ملامحه سمات النبل والثـراء ، ولكنه رجل يجمع بين الذكورة والأنوثة ، له بطن مثل بطون الحبالى ، وثديان كبيران كأنهما ثديا إمرأة تنبثق المياه من حلمتيهما مثل اللبن الذى ترضع بـه الأم الرؤوم أبناءها . وفى هذه الصفة التى تجمع بين الرجولة والأنوثة تعبير واضح على اعتبار النيل رمزاً للخصوبة والقوة التى تمنح الحياة وتهب الماء والغذاء كما تفعل الأم نحو أبنائها الصغار .

● ومن المؤكد أن شعراء مصر القـديمة قد صاغوا عبر آلاف السنين قصـائد شعرية فى مـدح النيل والاعتراف بفضلـه . وقد تـم العثور على إحـدى هـذه القصائد ، وقـام بترجمتها عن الهيروجيلفية عالم الآثار « ماسبيرو » نجتزىء منها أبياتا تقول : « هو النيل يفيض على الأرضين فتمتلىء مخازن الحبـوب . . وتتوافر حـاجات الفقراء . . هـو النيل يمنح لأبنائه جميع الخيرات ويطعمهم ويسقيهم ماء الحياة . . وإذا هو لم يطعم الناس ، يهجر النعيم كل البيـوت والمساكن . . وتصاب الأرض بـالخراب . . هو النيل منشىء السفن ومحقق الأمانى » .

● وهناك العديد من الأبيات الشعرية الأخرى يدور موضوعها حول الاعتراف بفضل النيل . . الذى يطعم الناس ويروى المراعى لتتغذى الماشية . . ونداه ينزل من السماء مطراً . . وهو صاحب الغلال ومخزن الأسماك والطيور . . ولولاه لا يستطيع الانسان أن يتنفس أو يعيش فيموت ملايين من الناس . . وحين يرتفع الماء فى مجراه يفرح الناس بقلوبهم ويضحكون مسرورين . . ومن كان منهم فى حزن يصبح فى ابتهاج ويمتلىء قلبه غبطة . .

« هو النيل . . لو أن ما تعجنه يداه كان ذهباً أو فضة لما أكله الناس . . لأنهم لا يأكلون الذهب ولا الفضة . . وإنما يأكلون القمح . . وهو أفضل من الأحجار الكريمة » •



أغانى الحب والغزل فى مصر القديمة

كان قدماء المصريين مولعين بحب الحياة الدنيا بكل ما فيها من مباهج ولذائذ ومتع . . وكانوا أهل فرح ومرح ، يعشقون الموسيقى والغناء ، بل ويستمتعون بمصاحبة المغنين المحترفين أثناء الغناء فيرددون من ورائهم بعض مقاطع ما ينشدونه من أغانى أو يصحبون « ريتم» الموسيقى وإيقاعاتها بالتصفيق بالأيدى . . تماماً مثلها يفعل المستمعون العاصرون من أهل الريف والأحياء الشعبية المصرية ورواد الحفلات الغنائية .

● ويقول المؤرخون وعلماء الحضارات أن أغانى الحب والغزل والأغانى العاطفية بصفة عامة لا تظهر فى حياة الأمم إلا بعد انقضاء قرون طويلة من البدايات الحضارية الأولى . . وخلال تلك القرون تتطور مشاعر وأحاسيس الأفراد ، وتتربى عواطفهم حتى تحسن وتجيد أساليب التعبير المهذب عن لواعج الحب المتبادل بين الجنسين . . وهذه الأساليب تعبربدورها عن معالم البيئة التى يترعرع فيها هذا الحب ، وعن العادات والتقاليد السائدة فى المجتمع والتى تحكم العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة .

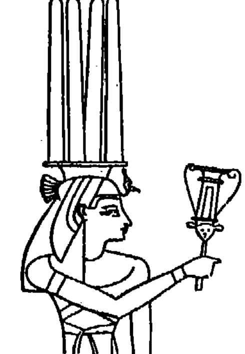
● وقد تركت لنا بعض الحضارات القديمة فى الصين والهند واليونان بعض الأشعار التى كانت تعتبر نوعاً من الأغانى العاطفية إلا أن ما تركته لنا الحضارة المصرية القديمة من أمثال تلك الأشعار الغنائية يعتبر أقدم نصوص عثر عليها لأغانى الحب والغزل .

● ولحسن الحظ فقد تم العثور على عشرات من أوراق البردى التى كتبت عليها مجموعات من الأغانى والأشعار الغزلية ، وهى أشعار غاية فى الرقة والعزوبة والتشبيهات الجميلة . . ولا غرو فالعشاق المصريون كانو يعبرون عن أحاسيسهم

العاطفيـة بتشبيهات تنبع من البيئـة الجميلة التى كـانت تحيط بهم . . من نهر النيل إلى خضرة الحقول وألوان الزهور ولطف النسيم وعبقرية المكان بكل ما فيه من أشجار يانعة وطيور مغردة وطبيعة ساحرة الجمال وسماء زرقاء صافية ذات سحب بيضاء ، يتلألأ فيها نور الشمس كل نهار والضوء الفضى فى الليالى المقمرة ، بالاضافة إلى عراقة الاخلاقيات والتقـاليـد الاجتماعيـة المهذبـة التـى كـانت سـائدة بين أفـراد الشعب المصرى القـديم بمختلف طبقاته ومستوياته .

● ومن أشهر هذه البرديات التى حفظت لنا هذه التراثيات الجميلة « بردية هاريس» المحفوظـة بالمتحـف البريطانى بلنـدن ، و « برديـات شستر بيتى » المحفوظـة بمتحف تورين ، كما عثر على مجموعة من الأغانـى مكتوبة على قطع من الفخار والخزف محفوظة بالمتحف المصرى بالقاهرة . وتتضمن هذه الوثائق الأثرية مجموعة كبيرة من أغانى الحب والغـزل فى محاسن المحبـوب ، سواء فى شكـل أغانـى فرديـة يغنيهـا الحبيب أو تغنيهـا الحبيبـة ، أو فى شكل « ديالـوجـات / دويتو » أى أغـانى ثنـائية يتبـادل المحبان غنـاء مقاطعها ، ويرد كل منهما على الآخر واصفاً حبه ومشاعره العاطفية .

● ومن الدلائل والبراهين المسلم بها ، أن جميع النصـوص الغنائية المصرية القـديمة التى تم العثـور عليها كانـت تغنى مصحوبة بـآلة أو أكثـر أو بفرقة مـوسيقية كـاملة ، وذلك استناداً إلى عشرات المنـاظر الدنيـوية المنقوشة على جـدران المعابد والمقـابر والتى تصـور لنا المنشـدين والراقصين والعـازفين ومعهم آلاتهم الموسيقيـة الشهيرة ، من آلات وتريـة مثل الهارب والعود والطنبـور ، وآلات النفخ مثل المزمـار والناى والأرغـول المفرد والأرغول المزدوج ، والآلات الايقـاعية مثل الطبـول والدفوف والصنجـات والمصفقات الخشبية والنحـاسية ، إلى غير ذلـك من الآلات الموسيقية التى شـاع استعمالها فى مصر القديمة .



نماذج من أشعار الحب والغزل

من العسير هنا أن نستعرض كل أغانى الحب والغزل وأشعارها الجميلة الرقيقة التى تركها لنا قدماء المصريين مكتوبة على صفحات البرديات أو على قطع الفخار والخزف ، أو منقوشة على جدران المقابر . ويكفينا هنا أن نقدم بعض النماذج من تلك الأشعار لنلمس منها ما تتضمنه من تعبيرات الحب الغزل فى المحبوب .

● وسوف نرى أن الشعراء القدماء المجهولين الذين كتبوا وأبدعوا تلك القصائد الغزلية لم يكن هدفهم محصوراً فى مجرد التعبير عن العواطف الجياشة التى تختلج فى نفوس المحبين ، بل كانوا يصوغون قصائدهم مشتملة إلى جانب إظهار المحبة ، بعض الخطط التى يصطنعها المحبّون للقاء مع أحبابهم ، وبعض التشبيهات الجميلة التى تنبع من جماليات البيئة المصرية ، بالاضافة إلى بعض الأوصاف البريئة والأوصاف الجريئة المعبرة عن مدى الحب الذى يكنه قلب العاشق الولهان .

● يقول العاشق فى إحدى الأغانى : « حبيبتى حديقة . . مملوءة ببراعم وزهور اللوتس . . وصدرها يموج بفاكهة الحب . . وذراعاها متعة . . وشفتاها الجميلتان شرك منصوب للطير . . وأنا أوزة برية . . يجتذبها الطعم » .

● ويقول فى أغنية أخرى : « حبيبتى هناك على الشاطىء الآخر . . يفصل بينى وبينها ماء الفيضان . . وعلى رمال الشاطىء تمساح يربض متربصاً . . ولكننى لا أخشاه ولا أرهبه . . وسأخوض الماء حتى أصل إليها فينشرح صدرى . . وافتح ذراعى لأحتويها بين أحضانى » .

● وتقول المحبوبة فى أغنية أخرى : « يحلو لى يا حبيبى أن أذهب إلى بركة الحديقة لاستحم أمام عينيك . . وأتركك تملأ ناظريك بجمالى . . فى ثوبى الكتانى الأبيض . . وقد التصق بجسمى بعد أن ابتل . . وسأنزل إلى الماء لاصطاد لك سمكة جميلة حمراء . . أضعها بين أصابعى . . تعال يا حبيبى وانظر إلى . . . » .

● ويقول الحبيب : « . . . ليتنى أكون خادمتها لأمتع نظرى برؤيتها طول النهار . . ليتنى أكون غاسل الملابس لأنعم برائحة العطر الذى يفوح من ثيابها . . ليتنى أكون خاتماً فى إصبعها . . . الخ » . [قارن هذا التشبيه بمسرحية شيكسبير روميو وجولييت حيث جاء على لسان روميو حين شاهد جولييت لأول مرة قوله : « آه . . ليتنى كنت قفازاً فى تلك اليد . . حتى ألمس هذا الخد » .

● أما أغانى « الديالوج أو الدويتو » فهى مناجاة شعرية بين حبيبين يتناجيان ويتبادلان أسمى معانى الحب . . تقول الحبيبة مثلا : « لن ابتعد عنك يا حبيبى أبداً . . وأمنيتى أن أظل فى بيتك وتحت أمرك يا أجمل الناس وأعز الناس . . وسأضع يدى فى يدك . . أروح وأغدو معك فى كل مكان ممتع . . أنت العافية . . وأنت الحياة » .

● ويقول الحبيب فى لوعة : « سأرقد فى بيتى وأتمارض . . وحين يأتى الجيران لزيارتى . . ستكون حبيبتى معهم . . وعندئذ سيصبح الأطباء فى خجل . . لأنهم لم يعرفوا دائى ولا دوائى . . أما هى فستعرف على الفور موطن الداء . . وستكون نظرات عينيها دواء يعيد الصحة إلى جسمى . . ويعيد الشفاء إلى قلبى » .

● والملاحظ فى كثير من الأشعار الغنائية التى تدور حول أحوال الحب والغزل فى مصر القديمة ، أن الحبيب كان ينادى حبيبته بكلمة « أختى » . . وأن الحبيبة كانت تنادى حبيبها بكلمة « أخى » . . ولا يفهم من ظاهر هاتين الكلمتين أن ثمة علاقة حب أو غرام كانت تقوم بين الاخوة الأشقاء ، بل يعتبر التعبير هنا مجازياً للدلالة على قدر الاعزاز الذى يكنه كل طرف للطرف الآخر ، وهو إعزاز يصل إلى مرتبة الأخوة ، ويعبر عن نظافة وطهارة العلاقة وعذريتها .

أغانى العمل والمناسبات السعيدة

وكما كان المصريون القدماء أهل فرح ومرح ، كانو أيضا أهل عمل وإنتاج ، سواء فى بناء وتشييد كل هذه المنشآت المعمارية التى تركوها لنا ، أو فى مجالات الأعمال الزراعية والصناعية والتجارية والعلمية .

● أما الشواهد الأثرية على ذلك ، فتتمثل فى آلاف النقوش التى تصور لنا مظاهر الحياة العملية التى تدل دلالة قاطعة على الهمة والنشاط فى ممارسة الأعمال جميعها . وقد حرص الفنانون فى تصوير تلك المناظر على إبراز طبيعة العمل الجماعى أو العمل الفردى ، مع التركيز على الحركات الإيقاعية « الريتمية » التى يقوم بها العمال على اختلاف تخصصاتهم أثناء أدائهم لتلك الأعمال .

● هناك نقوش تصور الأعمال الزراعية بالتفصيل ، فتعرض عمليات إعداد الأرض وعزقها وتمهيدها ، ثم عمليات الحرث والبذار والرى والحصاد ودرس الحبوب ونقلها لتخزينها فى الصوامع .

● ونقوش أخرى تصور الصناع والعمال والفنيين والحرفيين أثناء ممارسة صناعاتهم وحرفهم ، سواء فى نحت وتشكيل الأحجار ، وأعمال النجارين وصناع السفن النيلية والبحرية ، وأعمال النوتية والبحارة سواء عند التجديف أو عند تسيير السفن الشراعية ، وأعمال الحمالين عند ممارسة أعمال الشحن والتفريغ ، وأعمال الحدادة وتشكيل النحاس والبرونز والذهب والفضة والمجوهرات ، والأعمال الفنية والعلمية الأخرى كالعلاج الطبى وإجراء عمليات الختان والعمليات الجراحية والعلاج الطبى البيطرى .

● وكذلك النقوش التى تصور أعمال الرعاة والصيادين ، سواء عند رعى قطعان

الماشية بمختلف أنواعها ، أو عند صيد الاسماك والطيور ، أو عند مطاردة الوحوش فى عمليات الصيد الصحراوى .

● ويقول علماء « الفولكلور » أن أداء العمل الجماعى يتطلب نوعاً من الانتظام فى أداء الحركات الجسمانية للعمال المشتركين فى هذا العمل . وهذا التنظيم يقوم به فى العادة رئيس العمال ، أو بإنشاد أغنية تتناسب مقاطعها ولحنها مع هذه الحركات . . وفى أغلب الأحوال كان العمال يرددون بعض المقاطع أو الكلمات وراء رئيسهم لتوحيد الحركة بالنسبة لجميع العمال المشتركين فى العمل ، وكان هذا هو الأصل فى نشأة وظهور « أغانى العمل » فى المجتمعات الحضارية .

● وقد ترك قدماء المصريين مجموعة كبيرة من مقاطع ونصوص الأشعار الشعبية البسيطة التى كانت تنشد غناءً أثناء أداء الأعمال الجماعية . . مثل أغانى الفلاحين والعمال والرعاة والصيادين والشيالين من حاملى الأثقال .

● كذلك فقد حرص الفنانون المصريون القدماء على تصوير مئات من مناظر الولائم والاحتفالات الخاصة التى كانت تقام فى القصور الملكية وبيوت النبلاء والأثرياء وعلية القوم ، حيث تعزف الموسيقى وتقام حلبات الرقص وتنشد الأغانى . . وكانت هناك مجموعة من الأغانى الشائعة لمختلف المناسبات السعيدة كحفلات الزواج والختان والبلوغ وغير ذلك من المناسبات الأسرية . ومنها أغنية جميلة تقول كلماتها : « كما ينزل التيار فى النيل شمالاً . . وتهب ريح الشمال جنوبا . . أجيال تذهب . . وتأتى مكانهاأجيال جديدة . . فلا تدع قلبك يحزن أبداً . . إمض يوماً سعيداً . . ولاتذكر الشر » .

● وإلى جانب تلك الأغانى التى تشيع البهجة وتضفى جوا من المرح على المدعوين ، كانت تنشد فى تلك الولائم أيضا بعض الأغانى التى تتضمن أفكاراً فلسفية أو عقائدية . وقد عثر على نص أغنية من ذلك النوع تقول كلماتها : « متع نفسك مادمت حياً . . فأنت لا تعرف ما سوف يأتى به الغد . . ومن ذا الذى عاد من العالم الآخر ليخبرنا بما يجرى فيه ؟ . . لا يستطيع أحد أن يأخذ متاعه معه إلى العالم الآخر . . وليس فى قدرة من يذهب إلى هناك أن يعود إلينا مرة أخرى ! » .

الموسيقى .. والانسان الأول

يقول الفلاسفة ومؤرخو الفنون وأساتذة الحضارات وعلماء الانثروبولوجى [علم الانسان] أن الموسيقى نشأت مع الانسان الأول . . بل أن هذا الانسان كان يستخدم الأصوات الموسيقية للتعبير عن نفسه وأحواله قبل أن ينطق باللغة ويتعلم الكلمات وتركيبات الجمل .

● ومن الحقائق المفترضة علمياً أن الانسان الأول كان لا يمكن له الاستمرار فى الحياة إلا بجوار مصدر للمياه الصالحة للشرب ، وقرب الأشجار والنباتات التى أنعم بها الله عليه لتكون جذورها وثمارها وأوراقها مصدراً لغذائه . . وفى هذه البيئة الطبيعية ظهرت أيضا الحيوانات والطيور والزواحف الصغيرة والكبيرة بكل أنواعها وفصائلها المختلفة .

● وامتلأت هذه البيئة الطبيعية بكل الظواهر المرئية والأصوات المسموعة . . فالسماء ترعد وتبرق . . والمياه الجارية ذات خرير مميز . . وعند هبوب العواصف أو خطرات النسيم تهتز فروع الأشجار والشجيرات فى حفيف خافت أو صاخب حسب الأحوال . . والطيور تصدح وتغرد أو تنعق وتصفر بنغمات مختلفة الأصوات والدرجات ، ولكل أنواع وفصائل الحيوانات والوحوش والزواحف صوت يميزه عن غيره من مخلوقات الله . ويقول الفيليسوف الألمانى شوبنهاور فى ذلك : « إن العالم فى حقيقة الأمر عبارة عن موسيقى مجسمة » .

● ومن الظواهر الواضحة فى التركيبة الجسدية للجسم البشرى أن بعض أعضاء هذا الجسم ـ عندما تؤدى وظائفها الفسيولوجية ـ تعمل طبقا لإيقاع منتظم وتميل بطبيعتها إلى الانتظام الحركى ، مثل نبضات القلب ، وحركة الرئتين فى حالتى الشهيق والزفير ، وانتظام حركات الذراعين والساقين عند السير . . . الخ .

● ومن الناحيتين العلمية والفنية تتـألف الموسيقى عادة من عنصرين هما « الميلودى والريتم » أى مـن « النغم والايقاع » . وبمعنى آخر مـن الأصوات المنغمة والايقـاعات التى تصاحب هذه النغمات . لذلك يمكن القـول بأن الانسان الأول قد أدرك بالسليقة الاحساس بهذيـن العنصرين ، وأدرك منذ البـداية أن البيئـة الطبيعية التى يعيـش فيها حـافلة بـالأصـوات الموسيقية ، وأن أقـرب هـذه الأصوات الموسيقيـة إليـه هو صـوت «المناغاة» الذى يصدر من الأطفال الرضع والأطفال الصغار قبل أن يتعلموا نطق الكلام . ويقول علماء الموسيقى أن هذه المناغاة فى حقيقة الأمر يمكن اعتبارها «نغمات» موسيقية تشغل ثلاث درجات من السلم الموسيقى .

● وبالنظر إلى أن الإنسان الأول كان ميـالاً بطبعه إلى محاكاة الطبيعة كلما استطاع إلى تلك المحاكـاة سبيلاً ، بالإضافـة إلى إحساسه المتـواصل برهبة هذه الطبيعـة والمخاوف التى يمكن أن تنتج عنهـا ، يقول بعض علماء الأنثروبـولوجى أن الإنســان الأول حاول ونجح فى تقليد الأصوات التى تتردد فى البيئة الطبيعية التى يعيش فيها ، وظهرت بذلك الموسيقى البـدائيـة الأولى . . وكـانت آلاتها « كلهـا » مستمـدة من أعضــاء الجسم الإنسانى ، حيث استخـدم الفم فى الصفير وبث الأصوات المختلفـة ، كما استخدمت اليدان فى التصفيـق ، واستخدمت القدمـان فى الدق على الأرض للمحـافظة على أداء الإيقاع المنتظم .

● وهكـذا دخلت الموسيقـى وارتبطت بجميع الحضــارات الانســانيـة الأولى التى ظهرت فى قارة افريقيا [وفى وادى النيل المصرى على وجه الخصوص] . . كما ظهرت فى قارة آسيـا فى مناطـق وسط القارة وشرقهـا وجنوبها ، خصـوصاً فى الهنـد والصين . وقد بحث العلماء هـذه الظـاهـرة الانسـانيـة وكتبـوا فيهـا مئـات مـن الكتب والنظـريـات والدراســات العلمية والفنية والتاريخيـة . ويهمنا منها ما قـالوه عن « الموسيقى فى مصر القديمة » منذ عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية العصر الفرعونى .

الموسيقى المصرية .. فى عصور ما قبل التاريخ

يقول المؤرخون وعلماء الحضارات الذين درسوا عصور ما قبل التاريخ فى مصر [وهى عصور تسبق بـآلاف السنين العصر التاريخى المصرى الذين بدأ بتـوحيد الوجهين القبلى والبحرى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد] إن المجتمعات الانسانية الأولى التى استوطنت وادى النيل المصرى وعاشت على ضفافه ، قد تركت لنا شواهد أثرية عديدة تدل بصفة قاطعة على أن هؤلاء المصريين الأوائل قد عرفوا « الموسيقى » وربطوها بالرقص والعبادة .

● ويقول مؤرخو الموسيقى إن « الموسيقى البدائيـة » التى استطاع أن يعزفها الانسان الأول مستخدمـاً أعضاء من جسمـه [الفم واليدين والقـدمين] كآلات مـوسيقية ، لم تكن بنـاء على رغبة منـه فى الاستمتـاع والتسلية والطـرب ، بل كـانت هذه الأصـوات الموسيقيـة التى ابتدعهـا وسيلته المثلى فى التعبير عـن مشاعـر الرهبـة والخوف والقلق ، والتعبير عن النداء الجنسى ، والتعبير عـن هزائمه حين ينهزم أو انتصـاراته حين ينتصر على الأخطار التى تمتلىء بها البيئة الطبيعية التى يعيش فى كنفها .

● ولما كان الإيقـاع هو ألـزم لزوميـات الأداء الموسيقى فى صـورته الأولى ، فقـد بدأ الانسان الأول ـ منذ عصور مـاقبل التاريخ ـ فى التفكير فى إيجاد وسيلة أو « أداة » تؤدى هـذا الغرض ، تكـون أكثر كفـاءة وأضخم صوتـاً من استخـدام يديـه فى التصفيق أو استخدام قدميه فى الدق على الأرض . .

● وهكـذا استطاع الانسـان الأول أن يخترع الطبـول والـدفوف بـأنوعهـا وأشكـالها المختلفة ، مستخـدماً جـذوع الأشجار المجـوفة وجلـود الحيونـات المدبوغـة . . ومن الحقـائق المؤكـدة فى علـم التـاريخ الموسيقى أن « الآلات الإيقـاعيـة » كانـت أسبق فى

الظهـور وأقـدم بكثير من الآلات الموسيقيـة الأخـرى كـآلات النفخ الخشبيـة والآلات الوترية .

● وفى علم « الثقـافات والحضـارات الانسانيـة المقارنـة » أجمع العلماء على أن مصر القـديمة كـانت تعـرف الموسيقى منذ عصـور مـاقبل التاريـخ ومروراً بجميع حقبـات التاريخ المصرى القديم كله ، بل وذكروا أيضا ان مصر كانت الرائدة والسباقة فى تطوير الموسيقى ، سـواء من ناحيـة ابتداع وتطويـر صناعـة الآلات الموسيقية ، أو من نـاحية تطوير استخدام الموسيقى فى معظم مناحى الحياة الاجتماعية .

● وهناك مئات ، بل آلاف ، من الشوهد الأثريـة المنقوشة أو المنحوتة تدل بمنتهى الـوضوح على أن المصريين القـدماء ــ منذ عصـور ما قبل التـاريخ وفى كل عصـورهم التاريخيـة القديمةـ قـد استخدموا الموسيقـى فى ممارسة الطقـوس العقائديـة والعبادات الدينيـة ، كما استخدمـوها فى التربية النفسيـة والتعليمية ، وفى حفـلات الترفيه والمرح والترويح عن النفـوس و إشـاعـة البهجة والسرور خصـوصـاً بعـد أن اقترنت الموسيقى بالشعر والرقص والغناء .

● ولعل أكبر دليـل على مبلغ السمـــو الحضـارى الـذى بلغتـــه الموسيقى فى مصر القديمة هـو الشهادة التى أدلى بها الفيلسوف الإغريقى « أفلاطون » حين دعـا فى كتابه الشهير «الجمهورية » إلى ضرورة تربية شعب هذه الجمهـورية تربية فنية ، وتعويده على سماع «الموسيقى المصريـة » ذات القـوانين والقـواعـد العلمية ، والتـى تتميز عـن جميع موسيقات الشعوب الأخرى بجمال الألحان وحلاوة الأنغام .

● وتنـاول المؤرخون دراسـة التطور العلمـى والفنى والصناعـى للموسيقى المصريـة القديمة فى كل مراحل التاريخ المصرى القديم . وهى دراسة متعمقة وممتعة ، وتتضمن معلومات طريفة ومؤكدة قد لا يعرفها الكثيرون .

الموسيقى المصرية .. فى عصر الدولة القديمة

حين يتحدث العلماء والمؤرخون عن « الموسيقى » ـ كعلم وفن ـ لدى الشعوب القديمة ، فإن حديثهم يقوم فى أغلب الأحوال على افتراضات أو نظريات تقبل التشكيك كما تقبل التصديق . . ولكنهم عندما يتحدثون عن الموسيقى لدى قدماء المصريين فان بحوثهم ودراساتهم تستند إلى حقائق ثابتة تؤيدها آلاف من الدلائل والشواهد الأثرية المنقوشة أو المنحوتة أو المصنوعة .

● درس العلماء والمؤرخون الموسيقى المصرية القديمة من جانبها « الفنى » باعتبارها مؤشراً يدل على الطبيعة النفسية للشعب المصرى القديم وما كان يتمتع به من الذوق الفنى العام . . كما درسوها من الناحية « العلمية » لبيان مدى ارتباطها بالعلوم الرياضية وعلوم الفلك والعلوم الفلسفية على ما سوف نرى فيما بعد . . كذلك فقد درسوها من الناحية « الصناعية » بكل تفصيلاتها الخاصة بصناعة الآلات الموسيقية سواء من ناحية الدقة فى التصميم لأداء النغمات أو الايقاعات المطلوبة من كل آلة وأيضا من ناحية جمال الشكل .

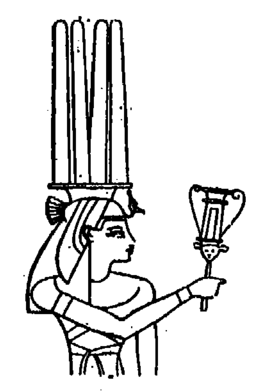
● وقد حرص العلماء والمؤرخون على دراسة التاريخ العام للموسيقى المصرية القديمة بنفس التقسيم العلمى لدراسة التاريخ المصرى القديم ، أى تقسيم هذا التاريخ إلى عصور رئيسية ثلاثة هى : عصر الدولة القديمة [من عام ٢٦٣٥ ـ إلى عام ٢١٥٥ق م] . . وعصر الدولة الوسطى [من عام ٢١٣٤ ـ إلى عام ١٦٥٠ق م] . . وعصر الدولة الحديثة [من عام ١٥٥١ ـ إلى عام ١١١٩ق م] . . ثم يجىء بعد ذلك ما اصطلح على تسميته بالعصر المتأخر الذى ينتهى عام ٣٣٢ق م حين قام

الاسكندر الأكبر بغـزو مصر وبدأ العصر البطلمى فالعصر الـرومانى . . ونبـدأ بعرض المعـالم العـامة لما انتهـت إليـه دراسات المؤرخين للمـوسيقـى المصرية فى عصر الـدولـة القديمة .

● فى ذلك العصر ـ أى منذ نحو ٤٦٠٠ سنة ـ بلغ المصريون القدماء مرحلة ناضجة فى الحضارة الموسيقيـة ، وقامـوا بتطويـر الآلات الموسيقية البـدائية التى كـانت شـائعة الاستعمال خلال آلاف السنين السـابقة على عصر الـدولة القـديمة ، كما ابتكـروا آلات موسيقية أخرى لم تكن معروفة من قبل .

● وتدل النقـوش الأثريـة التى يرجـع تاريخهـا إلى ذلك العصر الذى يغطى تـاريخ الأسرات الثالثة والرابعة والخامسـة والسادسة ، على أن العزف أو الأداء الموسيقى قد تم تنظيمه على شكل فرق مـوسيقية غنائية تتكون من عناصر ثـلاثة هى : المنشد أو المغنى الذى كان يتولى رئاسـة الفرقة وقيادتها . . وعازفو الهارب والآلات الإيقـاعية . . وعازفو الناى وآلات النفخ .

● وبدراسة تلك النقوش أيضا تبين أن الموسيقى فى ذلك العصر قد ارتبطت بالشعر والغناء والترتيـل ارتباطاً وثيقـاً ، سواء بإنشـاد الأشعار العـاطفية أو الفلسفية أو تـرتيل النصوص الدينية . . كما ارتبطت الموسيقى أيضا بـالرقص« الفنى » . . ومن المؤكد بعد دراسة حركات الراقصين والراقصات المنقوشـة على جدران المقابر التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر أن حركات الـرقص بأنواعه المختلفة كانت تصمم على أسـاس من القواعد الفنية المدروسة ولم تكن حـركات عشوائية أوكيفما اتفق ، ولذلك فقـد كان من الطبيعى أن تؤثر حركات الرقص فى الصياغة الموسيقية ، وأن تظهر بالتالى ألحان موسيقية مناسبة لأداء تلك الحركات .



الموسيقى المصرية .. فى عصر الدولة الوسطى

من الظواهر المدهشـة فى الحضارة المصرية ما تؤكده النقوش الأثـرية من أن مصر قد عرفت الآلات الموسيقية كاملة الصنع منذ عصور ما قبل التاريخ .

● وهناك نقش بالنحت البارز يرجع تاريخه إلى عصر ما قبل الأسرات يصور لنا أحد مناظـر الصيد ، ونرى فيـه تعبيراً كاريكاتيريـاً لصورة ذئب يقف على قـدميه الخلفيتين ويمسك بقـدميه الأماميتين آلـة ناى طويلـة ينفخ فيها بفمـه . وبتدقيق النظـر فى هذا الناى نجده من النوع الطويل وذا ثقوب متعددة تمكن العازف عليه من التحكم فى حدة وغلظ النغمات .

● أما آلـة الهارب ، وهى من الآلات الوتـرية الشهيرة فى موسيقى مصر القـديمة ، فقد مرت بعديد من مراحل التطور فى صناعتها وتصميمها خلال العصر العتيق وعصر ما قبل الأسرات . ومن أقدم النقوش التى وصلت إلينـا لصورة آلة الهارب المصرية وهى كاملة الصنع والتكوين ، نراها بأوتارها وصندوقها الصوتى . . وتدل هذه النقوش على أن هذه الآلـة كانت ذات أحجـام مختلفة ، منهـا الهارب ذات الحجم الكبير التى يبلغ طولها قامة الانسان ، ولذلك يقوم العـازف باستخدامها وهو واقف ، ومنها آلة الهارب القصيرة ويعـزف عليها العـازف وهو جـالس على الأرض . وقـد ظلت هذه الآلـة بهذا الشكل التقليدى خلال عصرى الـدولتين القديمة والوسطى ، وكانت أوتارهـا لا تزيد عن أربعة أو خمسة أوتار ، وذلك قبل أن تتطور تطوراً هائلاً فى عصر الدولة الحديثة .

● ومن الغريب أن آلة الهارب المصريـة بشكلها البسيط مازالت منتشرة بين كثير من قبائل وشعوب غرب افريقيا . كما أن هنـاك آلة مثيلة لها مستعملة فى بورما وبعض دول جنوب شرق آسيا .



فرقة من العازفات تقودهن عازفة على آلة الهارب

عازفة على الناى المزدوج على إيقاع

من التصفيق بالأيدى .

● أما آلة الناى فقد ظلت فى عصر الدولة الوسطى بشكلها التقليدى منذ أن ابتدعها المصريون القدماء فى عصور ماقبل التاريخ . وكان من الشائع أن يقوم عازف الناى باستخدام عدة « نايات » لتأدية مختلف أنواع الألحان ، تماماً مثل الطريقة التى يستخدمها عازفو الناى فى العصر الحديث .

● وفى عصر الدولة الوسطى ظهرت نقوش أثرية تدل على أن العزف على الناى بمختلف أنواعه [الطويل والقصير] لم يعد قاصراً على العازفين الرجال كما كان شائعاً من قبل ، بل ظهرت نقوش عديدة تصور لنا عديداً من عازفات الناى من النساء والفتيات .

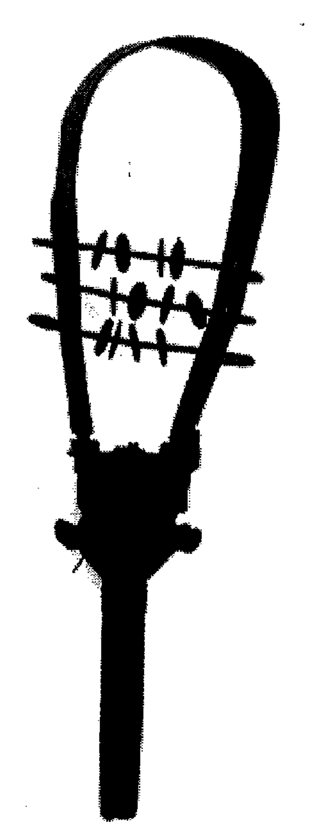
● كذلك فقد ظهرت نقوش أخرى لآلة موسيقية من آلات النفخ وهى « الزمارة المزدوجة » وهى عبارة عن قصبة من الخشب ذات بوق ينفخ فيه بالفم . وإلى جانب هذه النقوش تم العثور على زمارة مزدوجة أثرية يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى وهى محفوظة حالياً بالمتحف المصرى ببرلين . . ومازالت الزمارة المزدوجة التى اخترعها المصريون القدماء مستعملة حتى الآن فى قرى الريف المصرى ويطلقون عليها اسم «الستاوية » إذا كان عدد ثقوبها ستة ثقوب ، أو اسم « الربعاوية» إذا كانت ذات ثقوب أربعة .

● وقد حدد علماء ومؤرخو الموسيقى أنواع الآلات الايقاعية التى كانت مستخدمة فى مصر القديمة حتى عصر الدولة الوسطى فى مجموعة من الآلات هى على وجه التحديد : القضبان المصفقة وكانت تصنع من الخشب . . والأذرع المصفقة وكانت تصنع من الخشب على شكل الأيدى الانسانية . . والأرجل المصفقة وكانت تصنع هى الأخرى من الخشب على شكل الأرجل الانسانية . . والألواح المصفقة وهى ألواح خشبية يبلغ طولها نحو ٤٠ سم . . والرؤوس المصفقة وكانت تستخدم أثناء الرقص وتصنع على شكل رؤوس إنسانية أو رؤوس غزلان وتنحت من المعدن أو العظام . . والأجراس والجلاجل وكانت ذات أنواع متعددة وتصنع من المعدن . . والشخاليل وتصنع من الخيزران المجدول وبداخلها قطع من الزجاج . . والطبول بأنواعها .

● ومن أهم الآلات الايقاعيةآلة مصرية صميمة كانت تسمى آلة « السستروم » أو الصلاصل ، وكانت تصنع من البرونز أو من الذهب الخالص ، ويقتصر استخدامها فى الموسيقى الدينية التى كانت تعزف داخل المعابد ، وكان استخدامها قاصراً على النساء الكاهنات والملوك فى كثير من الأحيان .



كاهنة مصرية تعزف على آلة السستروم .



آلة السستروم أو الصلاصل وهى آلة إيقاعية تستخدم فى الموسيقى الدينية .

الموسيقى المصرية .. فى عصر الدولة الحديثة

فى حوالى عام ١٥٥٠ قبل الميلاد ، تمكن« أحمس » [أول بطل تحرير فى تاريخ العالم] من طرد الهكسوس الغزاة ، وأسس الأسرة الثامنة عشرة التى يعتبر بعض ملوكها من أشهر ملوك العالم القديم والعالم الحديث على حد سواء . . وبدأ بذلك عصر الدولة الحديثة حيث سيطرت الامبراطورية المصرية على معظم أنحاء العالم القديم فى أفريقيا وآسيا .

● ومما لاشك فيه أن تلك البلاد والمناطق التى فتحتها مصر ودخلت فى نطاق الامبراطورية المصرية كانت لها موسيقاها الخاصة وآلاتها الموسيقية التى تختلف فى قليل أو كثير عن الآلات الموسيقية التقليدية التى كانت معروفة فى مصر . وكما يقول علماء الحضارة ، إن حضارات الأمم والشعوب قابلة للامتزاج ببعضها طبقا لقانون الأخذ والعطاء . لذلك يمكن القول بأن الموسيقى المصرية قد تبادلت التأثر والتأثير مع موسيقى الشعوب والأمم التى دخلت فى نطاق الامبراطورية المصرية فى عصر الدولة الحديثة .

● وتدل مئات النقوش التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر على حدوث تطور هائل واسع المدى فى الموسيقى المصرية ، سواء من ناحية صناعة الآلات التقليدية ، أو صناعة آلات موسيقية جديدة لم تكن معروفة من قبل ، أو من ناحية الأداء الموسيقى . ويظهر ذلك بوضوح فى النقوش التى تصور لنا الحفلات الموسيقية الغنائية والراقصة ، وموسيقى الولائم والحفلات الخاصة التى كانت تقام فى بيوت النبلاء ، والموسيقى التى كانت تعزف فى المعابد أو فى قصور الملوك .

● وبالدراسة الفاحصة المتأنية لهذه النقوش يمكن ملاحظة أن طابع الموسيقى

المصرية فى عصر الدولة الحديثة قد اختلف تماماً عن طابعها فى عصرى الدولتين القديمة والوسطى ، حيث كـان عدد الآلات الموسيقية فى هذيـن العصرين محدوداً ، كما كانت هـذه الآلات بسيطة وذات أصـوات هـادئة منخفضة . ويظهـر أثر ذلـك فى حركـات الرقـص التى أظهرتها النقـوش التى يرجـع تاريخهـا إلى هذين العصرين ، حيـث تظهر حركات الراقصين والراقصات بطيئة هادئة تكاد أن تكون خالية من السرعة أو العنف .

● ويتميز طابع الموسيقى المصرية فى عصر الدولة الحديثة بالحدة والصخب والأنغام السريعة المرتفعة . ويرجع ذلك بصفة أساسيـة إلى تعدد أنواع الآلات الموسيقية بدخول آلات جديدة وبتطور صناعة الآلات التقليدية القديمة . كما يتميز هذا الطابع أيضا بأن الغالبية العظمى من عازفى الموسيقى كانوا من النساء والفتيات ، كما يتميز كذلك بتغير السلم الموسيقى من خماسى إلى سباعى ، وهو أمر نعرضه فيما بعد .

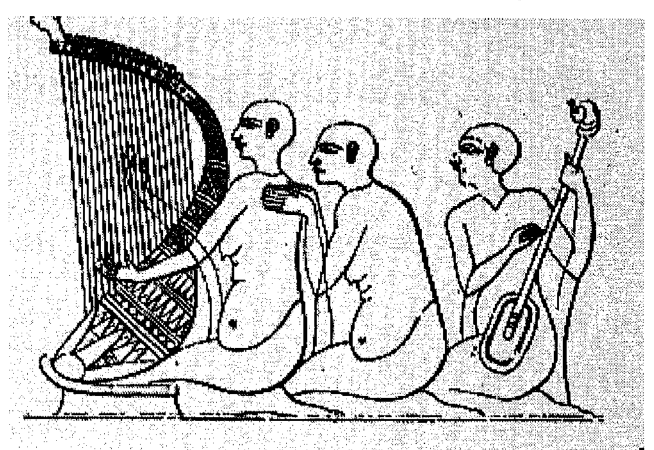
● ومن أهم الآلات الوترية التى ظهرت فى عصر الدولة الحديثة آلة « العود » وكانت ذات نوعين : العـود ذو الرقبة القصيرة وهو يشبـه العود الشرقى المستعمل فى مصر الآن إلى حد ما . . والعود ذو الرقبة الطويلـة وهو يشبه آلتى الطنبور والبزق المستخدمتين فى الموسيقى المعاصرة . . كـذلك فقد ظهرت فى نقوش الدولـة الحديثة آلة موسيقيـة وترية تسمى « كنار » ــ بكسر الكاف وتشـديد وفتح النون ــ حسب نطقها فى اللغـة المصرية القديمة ، وهى آلة تشبه آلة « السمسمية » المستخدمة حالياً فى منطقة القناة .

● أما آلة الهارب فقد تطورت فى عصر الدولة الحديثة تطوراً هائلا ، حيث أصبحت تصنع من خشـب الأبنوس وتـزخرف وتحلى بـالذهـب والأحجار الكـريمة ، كما تطـور صندوقها الصوتى وأصبح يصمم بأشكال مختلفة ، وكبرت أحجام الآلة حتى أصبحت أكبر وأطول من قامة الانسـان ، كذلك فقد ازداد عدد أوتارها كثيراً بالمقـارنة بعدد أوتار آلات الهارب التى كانت مستخدمة فى عصرى الدولتين القديمة والوسطى .

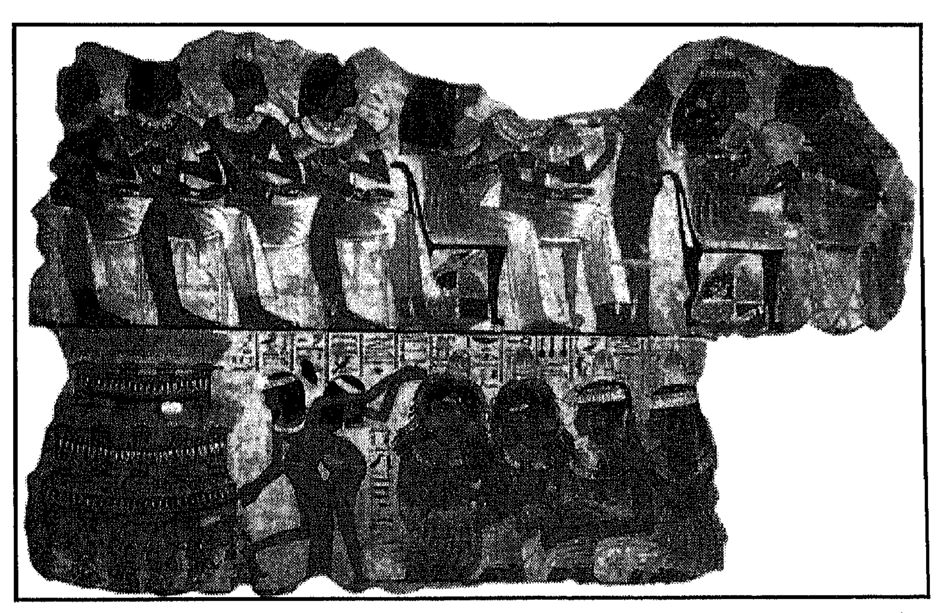
● ومن الملاحظ أن أى عازف ـ أو عازفة ـ على آلة الهارب كان يستخدم يديه الاثنتين فى العزف على وترين مختلفين فى نفس الوقت ، وبذلك كانت تخرج نغمتـان متلازمتان هما « القرار والجواب » . ونتيجة لذلك يقـول بعض علماء الموسيقى أن موسيقى قدماء

المصريين عرفت نـوعاً خاصاً من تعـدد الأصوات وتلازمها ، ووضعت بـذلك الأساس الذى قام عليه « علم الهارمونى » فى الموسيقى الأوربية .

● ومن آلات النفخ الجديدة التى ظهرت بمصر فى عصر الدولة الحديثة آلة « النفير » أو « البوق » وكانت تصنع من المعدن ويصل طـولها إلى نحو نصف متر أو أكثر قليلا . وكان أغلب استعماله فى الأغراض العسكرية .



عزف على آلة الهارب وآلة الطنبور .



الموسيقى والرقص فى الولائم الفاخرة .

ارتباط الموسيقى المصرية القديمة بعلم الفلك

عانيت كثيراً فى تحصيل المعلومات العلمية الخاصة بموضوعات فن الموسيقى عند قدماء المصريين ، فقد كانت هذه المعلومات عبارة عن شذرات و إشارات قصيرة متناثرة فى عديد من الكتب والمراجع والمعاجم التى تتناول التاريخ المصرى القديم والحضارة المصرية القديمة . . إلا أنى أشير إلى كتاب صغير الحجم عظيم القيمة صدر سنة ١٩٣٦ بعنوان « موسيقى قدماء المصريين» للمؤرخ الموسيقى الكبير الاستاذ الدكتور محمود أحمد الحفنى رحمه الله وأكرم مثواه ، فقد تضمن هذا الكتاب القيم معلومات علمية وفنية وتاريخية جديرة بكل تقدير واحترام عن الموسيقى فى مصر القديمة .

● ومن الموضوعات الملفتة للنظر مما ورد فى هذا الكتاب ، موضوع يتناول منزلة الموسيقى المصرية القديمة بين العلوم والفنون التى عرفتها الحضارة المصرية . . فقد كانت الموسيقى والديانة والفلك والهندسة والطب والفلسفة علوماً مقدسة . وكان الكهنة هم المشرفين على دراستها وتدريسها ، وذلك على أساس أن جميع العلوم المقدسة تتصل ببعضها وتهدف كلها إلى الرقى بالانسان والتسامى بالحياة الانسانية فى إطار من الفضائل والمثل العليا .

● وفى جميع حقب التاريخ المصرى القديم ارتبط الشعر بالموسيقى ارتباطا وثيقا حتى أصبحا فناً واحداً . وكان مفهوم الشعر فى مصر القديمة واسع المدى ، تدخل فى نطاقه أحكام الدين وأصول الحكمة والفلسفة والأمثال الشعبية ، ومعلومات التاريخ ، ومبادىء العلوم وقواعدها . وكانت له مهمة تعليمية بالدرجة الأولى تتعلق بفن الخطابة . وكانت معظم هذه القصائد الشعرية تلقى ملحنة فى صحبة الموسيقى . وجرت العادة على أن يصطحب الخطيب عازفاً ليعزف له على آلته الموسيقية ـ وغالباً ما تكون آلة الهارب ـ ويكون العزف هيناً خافتاً لطيفاً لا يشوش على صوت الخطيب وإنما

يعينه على إلقاء الخطبة بطريقة تجذب أسماع الحاضرين وتدمجهم فى الموضوع بارتياح .

● وبطبيعة الحال فقد كانت الموسيقى قاسماً مشتركاً فى التراتيل الدينية التى كانت تنشد فى المعابد ، فقد كانت هذه التراتيل منغمة وذات ألحان خاصة تعزفها آلات إيقاعية أهمها آلات « السستروم » [الصلاصل المعدنية] والكاسات والصاجات وأنواع المصفقات الأخرى .

● وقد تم العثور على نص أدبى قديم يؤكد مدى الارتباط التام بين الموسيقى والدين فى مصر القديمة . يقول النص : « عندما حكم أوزيريس أرض مصر . . رفع عنها الفقر والحياة الهمجية . . وأرشد الناس إلى روح الاجتماع وسر الحياة بما فرضه من قوانين . . وألزمهم بتعظيم الآلهة . . فهذب العالم كله . . وأدخل إليه المدنية والحضارة دون استعمال السلاح . . بل باستعمال أشرف الفنون وأحلاها . . وهى الموسيقى والشعر » .

● وقام بعض علماء ومؤرخى الموسيقى بدراسة مدى الارتباط بين الموسيقى المصرية القديمة وعلم الفلك ، فوجدوا هذا الارتباط وثيقاً وتدل عليه الشواهد الأثرية بأقصى قدر من الوضوح . . وأثبتوا أن قدماء المصريين قد لاحظوا الشبه الكبير بين الأجرام السماوية فى انتظام حركتها الفلكية وارتباطها ببعضها ، وبين النغمات الموسيقية التى تتألف منها الألحان ، وهى بدورها ذات نظام ثابت وتترابط مع بعضها فى تآلف وانسجام .

● وفى عصرى الدولتين القديمة والوسطى عرف المصريون القدماء الكواكب الخمسة الشهيرة وهى : عطارد والزهرة والمريخ والمشترى وزحل . ولذلك فقد ابتدعوا السلم الموسيقى الخماسى . . وفى عصر الدولة الحديثة أضافوا الشمس والقمر إلى تلك الأجرام السماوية ، فغيروا السلم الخماسى وجعلوه سبع نغمات أساسية تتضمن جميع الألحان الموسيقية .

● وتدل الشواهد الأثرية أيضا على أن المصريين القدماء كانوا يرمزون إلى كل نغمة من النغمات السبع التى يتألف منها السلم الموسيقى برمز هيروجليفى هو نفس الرمز الذى يشيرون به إلى كل جرم من الأجرام السماوية السبعة .

● ويقـول بعض المؤرخين وعلماء الحضـارة إن هـذه الفكرة التـى ابتـدعها قـدمـاء المصريين فى جعل السلم الموسيقى سباعياً ، كـانت الأساس الذى أوحى إلى حضارات أخرى بفكـرة تقسيم الأيام إلى أسـابيع يتألف كل منهـا من سبعـة أيام ، بل وبـاطلاق أسماء تلك الكواكب والأجرام السماوية السبعة على أيام الأسبوع .



آلة وترية وآلة إيقاعية



آلة وترية تحمل على الكتف

حركات يدى المايسترو .. ابتكار مصرى قديم

تدل النقوش الأثرية التى تصور لنا الحفلات الموسيقية والغنائية فى مصر القديمة على أن وظيفة المايسترو أو قيادة الفرقة الموسيقية كانت منوطة بالمغنى أو المنشد الذى كان يتولى رئاسة الفرقة ويوجه أداءها الموسيقى .

● وتصور لنا النقوش هذا القائد جالساً فى العادة وليس واقفاً فى مواجهة الفرقة كما هو معروف فى الموسيقى الحديثة . وكانت له طريقة تقليدية نمطية فى الجلوس جاثياً على إحدى ركبتيه ، بينما تكون ركبته الأخرى مرفوعة ومثنية .

● وفى معظم هذه النقوش نجده ملوحاً بيديه بحركات مختلفة يفهمها عازفو الآلات الموسيقية ويسترشدون بها فى عزف الأنغام المطلوبة وتنظيم الإيقاعات التى تصاحب الألحان المعزوفة . ولذلك نلاحظ أن جميع العازفين على مختلف الآلات الموسيقية سواء الآلات الإيقاعية أو الآلات الوترية أو آلات النفخ ، كانوا يواجهون المغنى [قائد الفرقة] وهم مستغرقون فى النظر إلى حركات يده لتأدية العزف المطلوب والارتفاع والانخفاض بالنغمات أو الإيقاعات طبقا لمفهوم هذه الحركات .

● ونفهم من ذلك أن حركات يدى قائد الفرقة الموسيقية كانت على درجة كبيرة من الأهمية لضبط الإيقاعات والألحان . ولذلك فلم يكن غريباً أن قدماء المصريين كانوا يرسمون « ساعد اليد » للتعبير عن كلمة « الموسيقى » فى الكتابة الهيروجليفية .

● ويقول علماء الموسيقى ومؤرخوها الأجانب إن حركات اليد فى الغناء والموسيقى المصرية القديمة هى الأصل الذى تطور وأخذت عنه طريقة « تدوين النوتة الموسيقية» . ومن المعروف فى تاريخ الموسيقى - كما يقول الدكتور محمود الحفنى - أن الأوربيين عندما ابتدعوا فكرة تدوين الموسيقى ، لجأوا فى البداية إلى استعمال الطريقة

المسماة « نويمن » NEUMEN وهى تدوين الموسيقى برموز لا تظهر مقدار حدة كل نغمـة بمفردهـا ، ولا تظهـر مقدار زمنهـا ، بل تبين فقط اتجاه اللحـن ومقدار مـا بين النغمات من مسافات . ويقول مؤرخو الموسيقـى الأوربيون إن هذه الطريقة فى التدوين هى نفسهـا الطريقـة المصرية القـديمة ، والفـارق الوحيـد بين الطريقتين أن المصريين القدماء كانـوا يرسمون حركة اليدين فى الهواء ، فى حين أن الأوربيين استطـاعوا تدوين مدلول هذه الحركة على الورق .

● ومن المعروف أن تدريس الموسيقى للأطفال ـ فى العصر الحديث ـ يستعمل « لغة اليد » فى تعليم الأطفـال كيفية عزف النغمات والإيقاعـات . وذلك على أساس أن كل نغمـة من النغمات السبع الأسـاسيـة التى يتكـون منهـا السلم الموسيقى لها حـركـة من حركات اليد تدل على هذه النغمة المطلوبة .

● ومن أغرب المعلومات التى يمكن استخلاصهـا من النقوش الأثرية المصرية التى صورت المغنى أو المنشد فى مختلـف أوضاعه ، ان المغنى عندما كـان يندمج فى الغناء ، كان يضع كـف يده اليسرى على خده بحيث يكـون الإبهام موضـوعاً خلف الأذن . ولم تكن هذه الحركـة حركة مظهريـة ، وإنما كانت لازمة ضروريـة لتمكين المغنى أو المنشد من تنغيم صوته طبقاً للحن الأساسى الذى يـؤديه ، حيث يقوم المغنى بالضغط بابهامه على مكان « قناة استاكوس » وهى القناة الهوائية الموصلة بين الأذن والأنف ، فيؤدى هذا الضغط إلى السيطرة على تموجات الهواء الموجودة بالقنـاة ، ويؤدى ذلك بالتالى إلى تنغيم الصوت وترخيمه طبقـا للموهبةالصوتية للمغنى وخبرته ومـدى كفاءة قدرته على الأداء الغنائى .

● ولهذا يمكن القول بأن تأثير الموسيقى المصرية القديمة لم يكن قاصراً على موسيقى حضارات العالم القديم فى آسيا وافريقيا ، بل امتد هذا التأثير إلى الموسيقى التى شاعت فى الحضـارات الأوربية فى العصـور القديمـة . وأغلب الظن أن هـذا التأثير كـان عن طريق الموسيقـى الاغريقية التى تـأثرت إلى حد كبير بقـواعد وقوانين الموسيقـى المصرية القديمة .

آلة الأرغن .. اختراع مصرى قديم

منذ أن عرف المصريون القدماء فن الموسيقى ابتدعوا أنماطاً وأشكالاً من الآلات التى تؤدى الايقاعات والنغمات المختلفة . وكانت تلك الآلات بدائية فى بداية الأمر ، ثم قام المصريون بتطويرها عبرمراحل تاريخهم القديم وعلى مدى آلاف السنين .

● وبالنظر إلى المكانة الرفيعة التى احتلتها مصر فى العالم القديم ، فقد اعتبرت هذه الآلات نماذج لصناعةالآلات الموسيقية التى عرفتها شعوب ودول العالم القديم شرقاً وغرباً وجنوباوشمالا . . وهكذا انتقلت الآلات الموسيقية المصرية وانتقلت معها موسيقاها إلى العالم القديم ، سواء فى ذلك تلك الآلات الإيقاعية أو آلات النفخ أو الآلات الوترية .

● ويقول معظم المؤرخين أن الحضارة الاغريقية كانت الوارثة الحقيقية للحضارة المصرية القديمة ، وأن الاغريق كان لهم فضل تطوير ما ورثوه من الحضارة المصرية من فنون وعلوم ، أكثر من فضلهم فى ابتداع علوم وفنون جديدة . ويعترف المؤرخون أيضا بأن الإغريق القدماء كانوا الاساتذة الذين استرشدت بهم الحضارة الرومانية القديمة التى انتشرت بدورها فى بقاع شاسعة من قارات أوربا وآسيا وأفريقيا وفى كل المناطق التى خضعت لسيادة الامبراطورية الرومانية .

● وعن طريق الإغريق والرومان والحضارة العربية فى الأندلس ، تكونت الأسس التى قامت عليها الحضارة الأوربية فى العصور الوسطى ، وانبثقت بالتالى حضارة «الرنيسانس » أو عصر النهضة فى أوربا ، والتى أدت بدورها إلى انبثاق الحضارات الأوربية الحديثة .

● وإذا طبقنا هذا التتابع فى تطور ونمو كل تلك الحضارات ، نجد أن جذورها تمتد فى أعماق التاريخ حتى تصل إلى بذورها الأولى التى نبتت فى مصر القديمة . وبالنسبة للموسيقى ، وهى فرع أكيد من فروع الحضارة ، نجد على سبيل المثال أن آله الهارب التى تحتل الآن مكانة أساسية فى بعض الأعمال الموسيقية التى تعزفها الأوركسترات السيمفونية الحديثة ، هى آلة يعترف الجميع بأنها آلة مصرية قديمة وصميمة ، مرت بمراحل عديدةمن التطور سواء فى العصور القديمة أو فى العصر الحديث .

● ولا ينكر أحد من مؤرخى الموسيقى أن « آلة الأرغن » قد ارتبطت منذ نشأتها الأولى بالتراتيل الدينية ، حتى أصبحت الآن على رأس الآلات الموسيقية الشائعة فى معظم الكنائس الأوربية وكنائس العالم الغربى بصفة عامة .

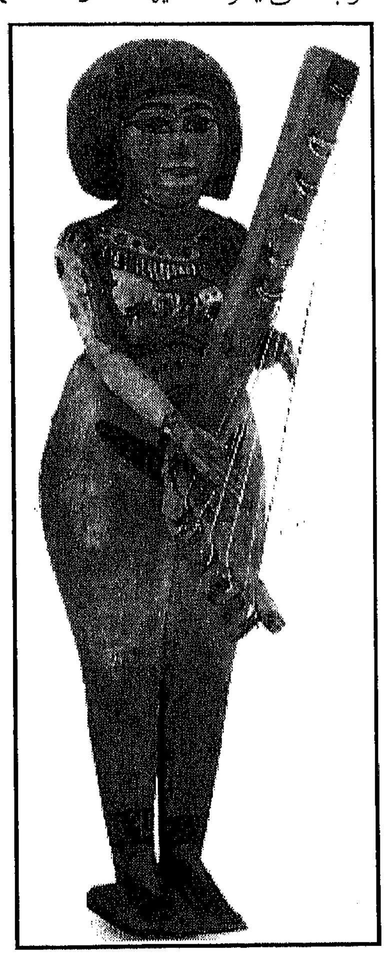
● وقد مرت آلة الأرغن ـ عبر تاريخ طويل ـ بعدة تطورات آلية وميكانيكية لعل أهمها ذلك التطور الهائل فى حجم الآلة وطريقة تشغيلها والذى حدث فى القرن الخامس عشر حيث تم صنع آلة أرغن ضخمة يقال أن صوتها كان يسمع على بعد ميل من مكان العزف عليها . وقد أدى هذا التطور إلى ظهور أنواع وأشكال وأحجام عدة من تلك الآلة على النحو الذى نعرفه الآن فى العصر الحديث .

● والأرغن من الناحية الفنية عبارة عن آلة موسيقية أنبوبية تصدر منها الأنغام من داخل أنابيب مختلفة الأطوال ، فالأنابيب الأكثر طولاً تصدر منها الأصوات الغليظة ، وكلما قصرت الأنابيب فإن أصواتها تزداد حدة . وتصدر جميع الأصوات الحادة والغليظة بواسطة الضغط على مفاتيح تشبه مفاتيح آلة البيانو . وكانت الطرز القديمة من آلة الأرغن تعمل بضغط الهواء ، أما الآلات الحديثة فقد أصبحت تعمل الآن بواسطة أجهزة كهربائية و إلكترونية . وأغرب أنواع آلة الأرغن هى « الأرغن المائى » الذى كان يعمل بضغط الماء على الهواء . وهى أقدم آلة أرغن ظهرت فى تاريخ الموسيقى ، وكان ظهورها على أرض مصر القديمة .

● ويقول الدكتور محمود الحفنى فى كتابه « موسيقى قدماء المصريين » أن أول آلة «أرغن مائى » ظهرت فى الاسكندرية خلال العصر البطلمى ، وعلى وجه التحديد نحو

عام ١٧٠ قبل الميلاد . . وكانت من اختراع شخص اسمه « كتيسيبيوس » كنوع من تطوير آلة موسيقى القرب ، وقد استعمل فيها الماء كوسيلة لضغط الهواء . وقد انتقلت صناعة تلك الآلة العجيبة من مصر وشاع استعمالها فى معظم أرجاء الامبراطورية الرومانية وفى جميع بلدان أوربا ، بعد أن كتب المؤرخ « هيرون السكندرى » آنذاك وصفاً تفصيليا لتلك الآلة وطريقةصنعها وكيفية تشغيلها .

● ونستنتج من تلك المعلومة أيضاً أن موسيقى القرب كان شائعة فى مصر القديمة حيث كانت تستعمل القرب المصنوعة من الجلد اللين فى تخزين الهواء اللازم للنفخ فى المزمار أو المزامير ذات الثقوب التى يعزف عليها العازف النغمات والألحان المطلوبة .



نموذج أثرى مصنوع من الخشب الملون لعازفة على آلة الهارب .

تأثير الموسيقى المصرية فى حضارات العالم القديم

بعد مرور نحو ثلاثة آلاف سنة على بداية التاريخ المصرى القديم ، بدأ نجم الحضارة المصرية فى الأفول ، وضعفت الدولة والحكومة ، وتعرضت مصر لمحن الغزوات المتعاقبة من جانب الليبيين ، والأثيوبيين ، والأشوريين ، والفرس ، إلى أن وقعت فى نهاية الأمر فى أيدى المقدونيين بقيادة الاسكندر الأكبر عام ٣٣٢ قبل الميلاد ، ثم بدأ بعد ذلك ما يسمى بالعصراليونانى الرومانى .

● وبالرغم من تعرض مصر لتلك الغزوات المتعاقبة ، إلا أن شعبها قد بذل كل ما فى وسعه من امكانية التمسك بأسس الحضارة العريقة التى أرسى قواعدها ومبادئها وخصائصها على مدى آلاف السنين السابقة على تلك الغزوات . . حافظ الشعب على تراثه من الموسيقى والأغانى . وكان كهنة المعابد بنفوذهم القوى وباعتبارهم الفئة التى كانت تمثل المثقفين الذين تولوا مبادرة التمسك بأهداب الحضارة المصرية التى توارثتها الأجيال ، هم الذين حرصوا كل الحرص على حث الشعب المصرى على المحافظة على تراثه والابتعاد عن أى تأثير أجنبى دخيل .

● ويقول المؤرخون فى ذلك أن الدولة المصرية قد شاخت كما دب الوهن فى قدرة مصر العسكرية ، ولم يعد لديها سوى ذكرى الجيوش الكبرى التى قادها الملوك والفراعنة المحاربون العظام الذين نشروا النفوذ المصرى والحضارة المصرية فى ربوع ومناطق شاسعة فى آسيا وأفريقيا . . ولذلك فقد وقعت مصر فريسة سهلة لتلك الأمم الافريقية والآسيوية الغازية التى كانت تملك جيوشاً فتية مسلحة بأقوى الأسلحة ، وتحدوها رغبة عارمة فى غزو مصر والسيطرة عليها ، حيث شاعت شائعة بين تلك

الدول ، ان الدولـة التى تستطيع أن تسيطر على مصر ، تستطيع بالتـالى أن تسيطر على العالم القديم بأجمعه .

● ويقول منطق التـاريخ أن الدول ذات الحضـارة العظيمة الراسخـة إذا غلبت على أمرها وتعرضت لغزو دولة أقل منها حضارة ، فمن المؤكد أن الدولة الغازية ستتأثر بنحو أو بآخر بحضارة الـدولة المغلوبة . وهذا بالضبط ما حدث بـالنسبة للموسيقى المصرية القـديمة التى أثـرت فى مـوسيقى كل الأمم التـى قامت بغـزو مصر تبـاعاً فى العصـور القديمة . وإن كـانت تنقصنا بعض الشواهـد الأثرية أو التاريخية التـى تدل على مدى تأثـر تلك الأمم بالموسيقـى المصرية القديمـة ، فإن الشـواهد التى تـركتها لنـا الحضارة اليونانية القديمة تدل دلالة قاطعة على مدى تأثر تلك الحضارة بالموسيقى المصرية .

● وعلى سبيل المثـال يقول هيرودوت فى حديثـه عن مصر التى قـام بزيـارتها خلال القرن الخامس قبل الميلاد انه « سمع فى اليونان عشرات من الأغانى الشعبية وكلها ذات إيقاعات وألحان مأخـوذة من الموسيقى المصرية » . وإذا كانت الموسيقى اليـونانية تعتبر أقدم موسيقى فى أوربـا قامت على أسس وقواعد وقوانين علمية وضعهـا كبار الفلاسفة اليونانيين من أمثـال فيثاغورس وأفلاطون ، فإن جميع هؤلاء الفـلاسفة الكبار تعلموا فى مصر وتأثرا بحضارتها ، وأدركوا أن الموسيقى المصرية القديمة لم تكن موسيقى جزافية ، وإنما كانت تقوم على أسس وقوانين رياضية ، وكل مـا فى الأمر أن هؤلاء الفلاسفة نقلوا تلك القوانين لتبنى على أساسها موسيقاهـم المحلية .

● ويكفى أن نشير هنا إلى مـاكتبه أفلاطـون فى كتاب « الجمهوريـة » حيث أوصى شعب الجمهوريـة بالاستماع والاستمتاع بـالموسيقى المصرية وحـدها ، باعتبـارها أرقى موسيقى فى العالم ، ولأنها أعظم نموذج يمكن أن تحتـذيه أى موسيقى تنشد التعبير عن الحقيقة والجمال وحلاوة النغم ، ولأنها أيضـا خير مثال لقدرة الفن الموسيقى على تهذيب العقول وترويح النفوس .

محاولات إحياء الموسيقى الفرعونية

من أغرب الحكايات التى تروى عن الآلات الموسيقية فى مصر القديمة ، ما قيل عن تجربة النفخ فى أحد المزامير التى عثر عليها فى مقبرة توت عنخ آمون . . فقد قيل انه بالرغم من قدم هذه الآلة إلا أن النفخ فيها أصدر نغمة قصيرة تم تسجيلها ، وما أن أذيعت تلك النغمة فى إذاعة بى بى سى البريطانية حتى أعلنت الحرب العالمية الثانية فى أوائل سبتمبر ١٩٣٩ بعد دقائق من تلك الإذاعة .

● وأعتقد أن هذه الحكاية تعتبر نوعاً من افتعال الأخبار المثيرة التى تنشر بين حين وآخر حول أعاجيب ما يسمى « لعنة الفراعنة » . وأغلب هذه الأخبار ملفقة ولا سند لها من العلم والحقيقة .

● غير أن هناك بحوثا علمية كثيرة حاول العلماء إجراءها لمعرفة نوعية النغمات والألحان التى كانت شائعة فى مختلف العصور التاريخية لمصر القديمة . وذلك استنادا إلى ما تم العثور عليه من آلاف النقوش التى تظهر فيها صور الآلات الموسيقية التى كانت شائعة الاستعمال فى مصر القديمة ، سواء فى ذلك تلك الآلات الإيقاعية أو آلات النفخ أو الآلات الوترية ، بالاضافة إلى تلك القطع الأثرية النادرة التى تم العثور عليها مدفونة ببعض مقابر الملوك والنبلاء ، وبعض هذه الآلات الموسيقية معروضة الآن فى بعض المتاحف العالمية مثل اللوفر وليدن وتورينو ومتروبوليتان والمتحف البريطانى والمتحف المصرى بالقاهرة .

● لقد كان من السهل الميسور العثور على عشرات بل ومئات من نصوص الأشعار الغنائية سواء بالنسبة للأغانى والأناشيد والتراتيل الدينية ، أو الأغانى التى كانت تنشد لرثاء الموتى عند زيارة مقابرهم أو فى أثناء تشييع الجنازات وعمليات الدفن ، أو الأغانى

التى تتضمن أشعار الحكمة والنصائح باتباع المثل العليا فى الأخلاق والسلوكيات ، أو الأغانى الفلسفية التى تنادى بالتمتع بمسرات الحياة ولذائذها بشرط الابتعاد عن الشر أو الإثم أو إيذاء الآخرين ، أو الأغانى العاطفية بأشعارها الرقيقة التى تمجد الحب العذرى والعواطف النبيلة ، أو الأغانى المفرحة التى كانت تنشد فى الولائم والحفلات الخاصة ببيوت النبلاء أو قصور الملوك ، أو أغانى العمل التى كان ينشدها العمال والفلاحون والحرفيون والصيادون والبحارة حين كانوا يبحرون بقواربهم ومراكبهم وسفنهم فى النيل أو فى أعالى البحار .

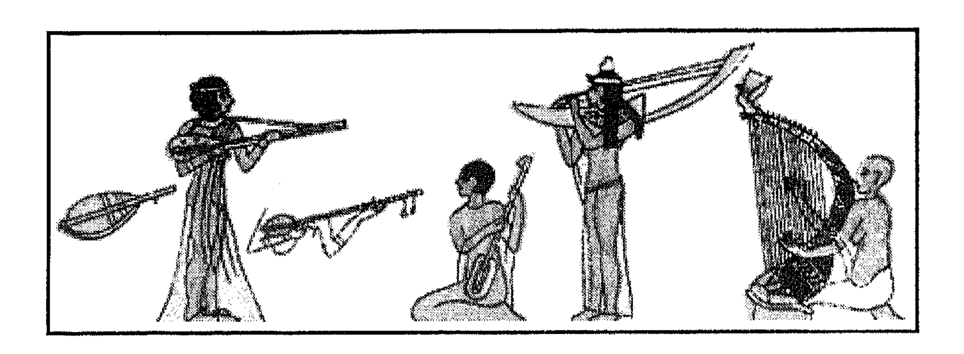
● ولكن كان من الصعب ، بل ومن المستحيل ، معرفة نوعية الإيقاعات والنغمات الموسيقية التى كانت تصاحب ألحان تلك الأغنيات . . فكيف يمكن استعادة الأصوات التى انطلقت من حناجر المغنين والمنشدين والمرتلين فأشجت سامعيها وأمتعتهم بالأشعار التى اختلفت ألحانها وتنوعت ؟! . . إن ذلك ضرب من ضروب المستحيل . . فلم تكن هناك أجهزة تسجيل تحفظ لنا تلك الألحان ، ولم تكن هناك طريقة لتدوين النوتة الموسيقية لنتعرف على طبيعة الألحان وكيفيتها .

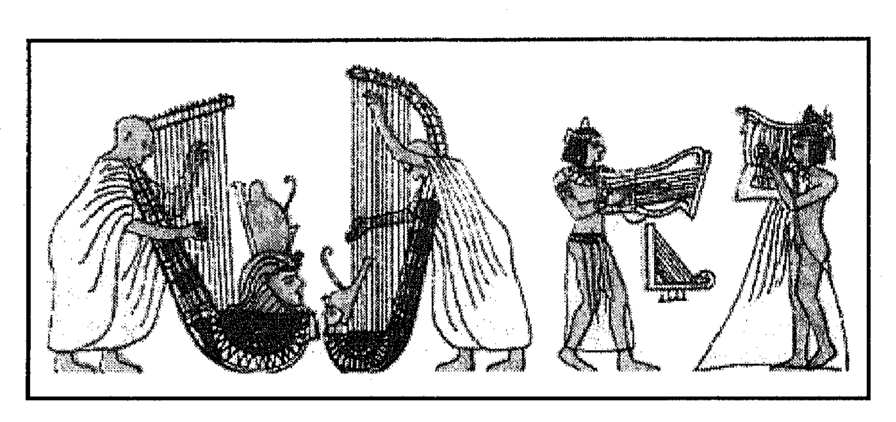
● ومع ذلك فلم تنقطع محاولات علماء الآثار وعلماء الموسيقى ـــ منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن ـ فى معرفة طبيعة الأنغام التى كانت تصدرها الآلات الموسيقية التى عرفتها مصر القديمة . . وأجريت تجارب عديدة على آلات النفخ والآلات الوترية ، إذ لم تكن هناك جدوى من إجراء التجارب على الآلات الإيقاعية من طبول ودفوف ومصفقات وصلاصل وشخاليل .

●قام هؤلاء العلماء بعمل دراسات علمية دقيقة مكنتهم من صنع نماذج « طبق الأصل » من آلات النفخ التى كان يستعملها قدماء المصريين ، بنفس المقاسات ونفس السمك والطول وعدد ما فيها من ثقوب ومدى اتساعها للتحكم فى النغمات المطلوبة ، ثم قام موسيقيون محترفون بالعزف على تلك الآلات للتعرف على طبيعة الأصوات التى تصدر منها .

● وتوصل العلماء بذلك إلى نتيجة علمية مؤداها أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى

القواعد الحسابية والرياضية للأنغام الموسيقية ، وعرفوا الأنغام الكاملة وأنصاف النغمات . واكتفى العلماء بتلك النتيجة العلمية ، ولكنهم لم يتوصلوا ـ ولن يتوصل أحد ـ إلى استعادة طبيعة ونوعية الألحان التى كانت تؤديها هذه الآلات أثناء العزف الموسيقى أو أثناء الغناء .





بعض أنواع الآلات الوترية المستخدمة

فى عزف الموسيقى المصرية القديمة .

مصر القديمة .. كل أيامها أعياد

كان قدماء المصريين من أكثر شعوب العالم القديم احتفالاً بالأعياد . . كانت هناك أعياد دينية وأعيـاد رسمية وأعياد شعبية تغطى المنـاسبات الزراعية والمنـاسبات الخاصة بالحرف على اختلاف أنواعها ..

● ويقـول الدكتـور سليم حسن : « إننـا يمكن أن نستخلص مـن النقوش والمتـون المصرية القديمة أن جميع أيام السنة كانت كلها أعياداً . . ولا أدل على ذلك من أن أيام الشهر كان كل واحد منها يقام فيه عيـد له اسمه الخاص به . غير أننا للأسف لا نعرف شيئاً عن معظم هـذه الأعياد غير أسمائها . ولا نزاع فى أن هذه الأعيـاد جميعها ترجع فى نشأتها الأولى إلى أقدم عصور التاريخ المصرى القديم ، إذ أنها ولدت مع العقائد الدينية المصرية العتيقة » .

● وبالدراسـة المتأنية لآلاف النقوش المصرية التى يرجع تـاريخها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم منذ عصور ما قبل الأسرات ومروراً بالعصر العتيق وعصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصر المتأخر والعصر اليونانى الرومانى [أى على مدى فترة زمنية تمتد نحو أربعة آلاف سنة] . . نجد الدلائل الواضحة التى تبين لنا كيفية احتفال المصريين القدماء بأعيادهم الدينية والرسمية والشعبية .

● وكانت الأعياد الدينية تقام فى مختلف الأقاليم والبلاد المصرية . وقد وصلت إلينا ـ لحسن الخط ـ عدة نقـوش ونصوص مكتوبة تشرح لنا هذه الأعيـاد وما كان يجرى فيها من طقـوس احتفالية . وبطبيعـة الحال لا يتسع المجال هنـا لعرض كل هـذه الأعياد ، ويكفى أن نشير إلى أشهرها ،

● عيد مسرحية آلام أوزيريس : وكان يقام سنوياً فى أبيدوس [حاليا العرابة المدفونة بمحافظة سـوهاج] . وكانت هذه المسرحيـة تتألف من ثمانية فصول يستغـرق عرضها

أكثر من ثمانية أيام ، تمثل خلالها كل التفاصيل المأساوية التى تعرض لها أوزيريس منذ كان يحكم مصر ويقيم العدل فى ربوعها إلى أن قتل غيلة ، ثم عودته إلى الحياة فى نهاية الأمر، تأكيداً لعقيدة البعث وعودة الحياة بعد الموت ، وهى العقيدة التى كانت تعتبر لب الديانات المصرية القديمة .

● ويقول الدكتور نجيب ميخائيل فى بحثه القيم عن « الزراعة فى مصر القديمة » إن أوزيريس كان يعتبر أيضاً إلهاً للقمح عند قدماء المصريين ، ولذلك كانت الأعياد تقام فى كافة المناطق والأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى بمناسبة بدء حصاد القمح . . وكانت أعياداً صاخبة تقدم فيها باكورة المحصول قرباناً للآلهة المحلية بتلك الأقاليم، كما كانت تمثل فيها فصولاً من مسرحية آلام أوزيريس وبعثه إلى الحياة بعد الموت . ويقول كذلك إنه حضر احتفالاً حديثا فى إحدى قرى الصعيد بمصر الوسطى بمناسبة بدء حصاد محصول القمح . . وشاهد فى هذا الاحتفال رقصة شعبية يقوم بها رجل وامرأة يرقصان على أنغام الموسيقى الشعبية المعروفة فى صعيد مصر . وكانت الرقصة تعبيرية تؤدى بحركات رزينة فيها كثير من تعبيرات العزة والكبرياء . . وفجأة سقط الرجل على الأرض دون أن تصدر منه أية حركة ليبدو كما لو كان قد مات أو قتل . . وعندئذ اشتد رقص المرأة وهى تدور حوله فى هياج وندب وعويل وبكاء . . ثم انحنت فوق الرجل الراقد على الأرض وقبلته « قبلة الحياة » فإذا بالرجل ينهض حياً وسط تهليل المشاهدين وعلى أنغام موسيقية صاخبة تعبر عن أعلى مراحل السرور . ولا شك فى أن هذه الرقصة تعتبر سليلة الرقصات المماثلة التى كانت معروفة فى مصر القديمة والتى كانت تؤدى فى أعياد الحصاد ، وتعيد إلى أذهان من يعرف التاريخ المصرى والعقائد المصرية القديمة ذكرى قبلة الحياة التى أعطتها إيزيس لأزوزيريس فعاد إلى الحياة من جديد .

● ومن الأعياد المصرية القديمة التى تظهر ملامحها فى الأعياد الشعبية المصرية الحديثة عيد « الأوبت » الذى كان يحتفل فيه بخروج تمثال آمون من معبد الكرنك فى موكب صاخب حتى يصل إلى معبد الأقصر وتبدو ملامحه فى الاحتفال الحديث بمولد

«أبو حجاج الأقصرى » . . وكذلك عيد شم النسيم . . وعيد الغطاس . . وعيد وفاء النيل .

• ● ولا شك فى أن جميع هـذه الأعيـاد الدينيـة والشعبية والـرسمية [كـأعياد تتـويج الملوك] كـانت أصلح فرصة للعروض الفنيـة من تمثيل وترتيل و إنشـاد وموسيقى ورقص وغناء».



نساء من الطبقة العليا

فى أحد الاحتفالات .

الرقص المصرى القديم .. فن محترم

يجمع علماء الحضارة والاجتماع والأنثروبولـوجى [علم الانسان] على أن « الرقص » كان من أقدم وسائل التعبير عن المشاعر الانسـانية لدى الانسان البدائى ، وأن الرقص منذ بـدايته كان مرتبطـاً بما كانت تعتقده المجتمعات الانسـانية البدائية فى عـالم السحر والمعتقدات الدينية . ويهمنا هنا أن نعرف موقع فنون الرقص فى مصر القديمة .

● ليس هنـاك جدال فى أن مصر القـديمة قـد عرفـت الرقص منـذ عصور مـا قبل التاريخ . وقد تم العثـور على العديد من الشواهد الأثريـة التى تدل على أن الرقص فى تلك العصور كان مرتبطا بالعقائد الدينية التى كانت سائدة فى تلك العصـور ، وانه كان يؤدَّى لتحقيق أغراض سحرية .

● ولكنْ بعد أن دخلت مصر القديمة عصورها التاريخية [بعد توحيد الوجهين سنة ٣٢٠٠ ق م] بدأت الحضارة المصريـة ترتقى سلم التطور لتبلغ قمة مـا وصلت إليه من رقى فى عصر الـدولة الحديثـة [وعلى وجه الخصـوص فى عصر الأسرات ١٨ ، ١٩] . وكما رأينا من قبـل كيف وصلت الموسيقى المصرية القديمـة إلى مستواها الـرفيع فى ذلك العصر ، فقد كان من الطبيعى أن الرقص . . وهو فن مرتبط بالموسيقى والغناء أن يرقى إلى ذلك المستوى ويصبـح فناً عريقـاً راسخاً ذا قواعـد ومناهج تحكمـه فى كافة أنـواعه وأشكاله .

● وقد أدى تطور الموسيقى إلى تطور حركات الرقص واتخاذه لأشكال لم تكن معروفه من قبل . كما أدى ارتباط الرقص بالموسيقى إلى مساعدة الراقصين الرجال أو الراقصات من النسـاء والفتيات على اتقان الحركـات التعبيرية للـرقص طبقا لمدى تجاوبهم مـع ما تعزفه الموسيقى من إيقـاعات وألحان . وبالتالى فإن هذا الاتقان يزيـد بهجة المشاهدين

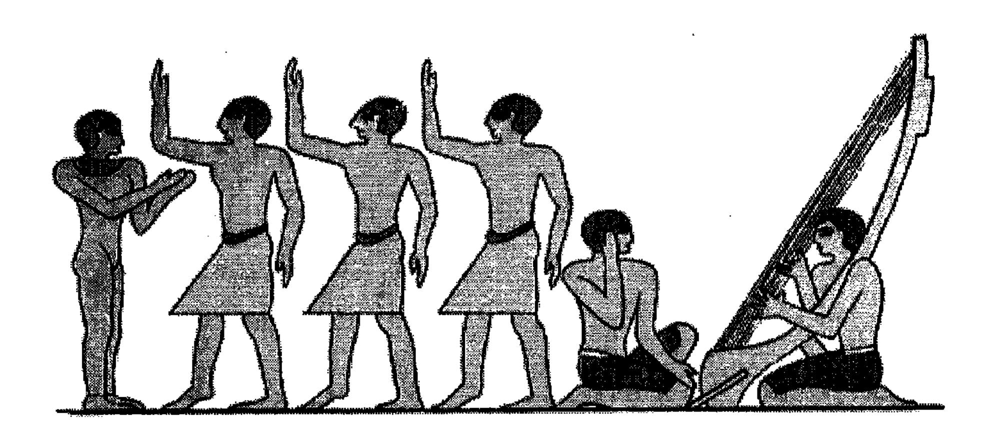
الذين أصبحوا يتمتعـون متعة مزدوجة عن طريق النظر بـالعين والسماع بالأذن . وتدل مئات النقوش الأثـرية التى تصور لنا مشاهد الـرقص فى مختلف حقب التاريخ المصرى القديـم على استخدام جميع أنواع الآلات الموسيقيـة من إيقاعيـة ونفخ ووتريـة أثناءأداء مختلف أنواع الرقصات ، وذلك إلى جانب مصاحبة الرقص فى بعض المشاهد لإيقاعات من تصفيق الأيدى أو طرقعة الأصابع .

● وقد قام كثيرون من المؤرخين وعلماء المصريات بدراسة تلك النقوش واستخلصوا منها فصـولاً ودراسات قيمـة ضمنوهـا فى كتبهم العديـدة عن التاريخ المصرى القـديم والحضارة المصريـة القديمـة . غير أن هناك كتـاباً فريـداً تخصص فى دراسة « الـرقص المصرى القـديم » للمؤلفـة التشيكية « إيـرينا لكسـوفـا » تفضل بترجمته شيخ الأثـريين المصريين الاستـاذ الدكتـور محمد جمال الـدين مختار ، وراجع تـرجمته الاستـاذ الدكتـور عبـدالمنعم أبوبكـر . رحمهما الله وأكرم مثـواهما . وقد صـدرت الطبعة العـربية من هـذا الكتاب فى مصر عام ١٩٦١ .

● وبالدراسة المتأنية لهذا الكتاب القيم نلاحظ على الفور مدى الجهد العلمى الذى بذلته المؤلفة لتجميع مادتها العلمية والتاريخية عن موضوع الرقص عند قدماء المصريين ، حيث رجعت إلى (٥٢) مـرجعـاً علمياً من الكتـب والدراسـات التـوثيقية التى قـام بها المؤرخون وعلماء المصريات ومـؤرخو الفنون منذ منتصف القرن ١٩ وحتـى تاريخ إعداد هذا الكتاب ، وأغلب هـذه المراجع مكتوب باللغة الألمانية إلى جـانب اللغتين الفرنسية والانجليزية .

● وقد خلصـت المؤلفة إلى تصنيف فن الـرقص المصرى القـديم فى (١١) نوعـاً من أنواع فنون الـرقص طبقا للنقوش الأثرية التـى تم اكتشافها والعثور عليها مـرسومة على جدران المعـابد والمقابـر أو مرسـومة على البرديات . وبـدأت بدراسة « الـرقص الحركى الخالص » الذى كان بمثابة تصريـف للطـاقة الزائدة لإدخال المسرة على كل من الراقص والمشاهد . . ثم « الرقص الرياضى » وكانت له أنواع مختلفة ، حركات بعضها فى غاية الصعوبة ، ، كما يدخل فيه الرقص البهلوانى « الأكروباتيك » . . ثم « رقص المحاكاة»

وكانت حـركاته وخطواتـه محاكاة لحركات الحيـوانات أو محاكاة تمايل النباتـات أو محاكاة الظواهر الطبيعية الأخرى كهبوب النسيم والرياح . . ثم « الرقص الزوجى » الذى كان يقوم به رجلان أو امـرأتان أو رجل وامرأة . . و« الرقص الجماعى » الذى كـانت تقوم به فرقة كاملـة . . و « الرقص الحربى » كوسيلة لتسلية القوات العسكـرية ورفع معنوياتها . . و « الرقص التمثيلى » . . و « الرقص الجنائزى » سـواء عند تشييع الجنازات أو عند زيارة المقابر . . وأخيراً « الرقص الدينى » الذى كان جزءاً لا يتجزأ من الخدمة الدينية .



ارتباط الرقص بالموسيقى والغناء .

فكرة الباليه ..نشأت فى مصر القديمة

التعريف الفنى للباليه انه رقص يقوم به شخص أو شخصان أوعدة أشخاص يروون فيه مسرحية أو حكاية على أنغام الموسيقى وبحركات محسوبة تعبر عن شخصيات الحكاية ومواقفها وأحداثها .

● وظهر الباليه لأول مرة فى أوربا فى حفلات الطبقة الأرستقراطية خلال عصر النهضة خصوصاً فى إيطاليا . ثم انتقل إلى فرنسا وتطور هناك ، وظل قاصراً على أعضاء الطبقة الارستقراطية والبلاط الملكى من الرجال والنساء الذين كانوا يقومون بالرقص طبقا لخطوات وحركات مصممة سلفاً على أنغام الموسيقى ، وكانت تتخلل الرقص جمل حوارية وأشعار غنائية ، كما كانت العروض تتم داخل ديكورات معينة وبملابس خاصة تتناسب مع فكرة كل عرض وشخصياته . ومن المعروف أن الملك لويس الرابع عشر [١٦٣٨ ـ ١٧١٥ م] كان يشترك فى الرقص بنفسه فى بعض العروض ومن شدة ولعه واهتمامه بهذا الفن الرفيع أنشأ له « الأكاديمية الملكية لرقص الباليه » فى باريس .

● وانتشر فن الباليه بين الطبقات الارستقراطية فى كافة الممالك والامبراطوريات الأوربية عبر القرون التالية حتى بلغ أعلى مراحل تطوره خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ، حيث أصبح فناً راقياً مستقلاً بذاته وألف له كبار الموسيقيين العالميين ، وخرج من نطاق الأرستقراطية وأصبح فى متناول متذوقى الفنون الرفيعة من جميع الطبقات الاجتماعية الأخرى .

● وإذا كان فن الباليه يقوم أساساً على فكرة التعبير بخطوات وحركات الجسم البشرى عن موقف تمثيلى معين تصحبه الموسيقى المناسبة ، فإن الباليه طبقاً لهذا المفهوم

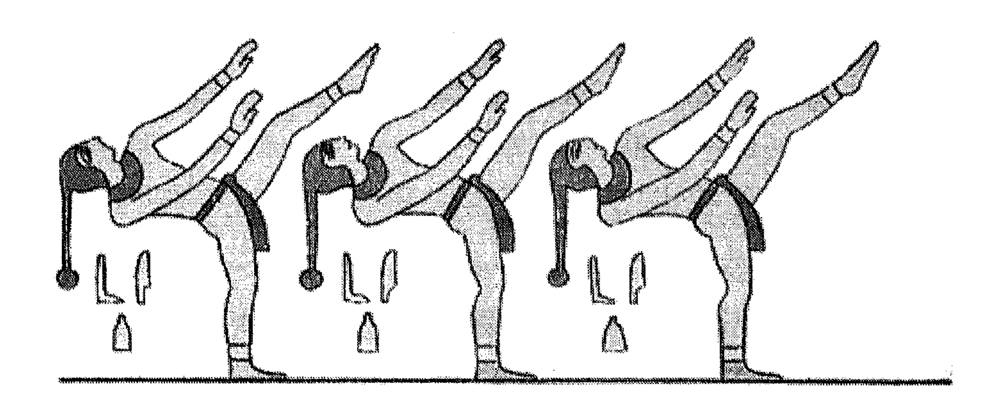
يكون قـد نشأ أولاً فى مصر القديمة ،حيث تـوجد عشرات ، بل مئـات ، من النقوش التى تصور لنا رقصات فنية يشترك فيها الـرجال والنساء ويعبرون بها عن مواقف تمثيلية وتعبيرية محددة . وقد حرص الفنانون الذين رسموا تلك النقوش على وضع « عناوين » للوحاتهم للإشارة إلى موضوع تلك الـرقصات وتوضيح الحركات التى يقوم بها الراقصون والراقصات .

● وعلى سبل المثال : هنـاك نقوش تصور لنا مشـاهد رقصة يقـوم بها رجل وامرأة ، وضع الفنـان الذى رسمها عنـاوين تختلف باختـلاف الحركات التعبيرية التـى يقوم بها الـراقصات مثل : « الاشتيـاق » . . و « الانطلاق » . . و « الـدوران المرح » . كما أن هنـاك نقوشـاً أخرى تصـور لنـا مشاهـد رقصـة يشترك فها رجـلان وامرأة تحت عنـوان «البحث عن حسناء » . . ورقصة أخرى عنوانها « الاختطاف السرى » . . . الخ .

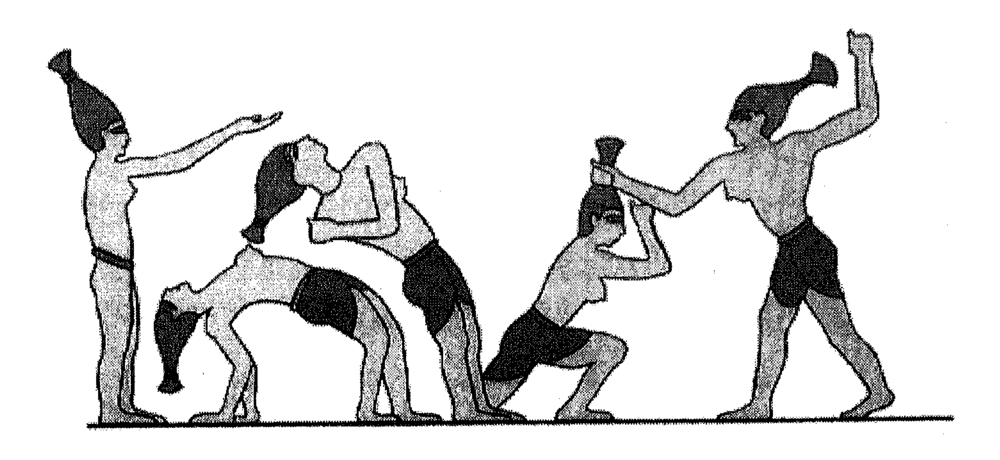
● ومن أهم المشاهد الـراقصة التى سجلتها النقوش الأثرية المصريـة القديمة والتى يمكن اعتبارها من الارهاصات الأولى لفن الباليـه بمفهومه الواسع ، المشاهد التمثيلية الراقصة التى تصور لنا رقصة بعنوان «تحت قدميك » تقوم بها امرأتان تمثل إحداهما ملكا مصريـاً منتصراً على ملك أو أمير من الأعـداء ، حيث نـرى المرأة التى تمثـل دور الملك المصرى وهى تمسك بشعر المرأة التى تمثل دور العدو وتهم بضرب هذا العدو الجاثم تحت قدميهـا تعبراً عن الاستسلام وطلبـاً للعفو والنجاة . ويصـور لنا الفنان فى هـذا المشهد الراقص مضمون تلـك اللوحة التقليدية التى ظهـرت فى بداية عصر الأسرة الأولى والتى تصور مشهد الملك مينا وهو يقبض على شعر عدو راكع تحت قدميه ويهم الملك بضرب هذا العدو على رأسه ، وهـو المشهد الذى أصبح تقليدياً واستمـر تصويره مئات المرات طوال حقبات التاريخ المصرى القديم .

● ونلاحظ فى هذا النقش الأثرى أن الفنان المصرى القـديم الذى رسم هذه اللوحة قد اكتفى بتصوير النتيجة النهائية التى تنتهى بها الرقصة التمثيلية ، ولنا أن نتخيل تلك الرقصة منـذ بدايتها ونرى الـراقصة التى تمثل دور الملك وهى تطارد الـراقصة التى تمثل

دور العدو ، كما نتخيل مشاهد المبارزة أو الصراع الذى نشب بينهما حتى ألقى العدو سلاحه وارتمى على الأرض مستسلماً تحت قدمى الملك المصرى المنتصر . أما الإيقاعات والألحان الموسيقية التى كانت تصاحب هذا الباليه المصرى القديم فإن تخيلها يعتبر ضرباً من المستحيل .



أصعب من حركات الباليه الحديث .



حركات راقصة تعبر عن مواقف درامية

الدراما الراقصة .. فى مصر القديمة

ذكرنا فيما سبق أن الرقص نشأ مع نشأة المجتمعات الانسانية القديمة فى مختلف أنحاء العالم باعتباره وسيلة فردية أو جماعية للتعبير عن مختلف المشاعر الانسانية من أفراح وأحزان ومخاوف واطمئنان. كما أن جميع هذه المجتمعات الانسانية القديمة قد اتخذت الرقص وسيلة للعبادة وممارسة السحر إلى غير ذلك من الممارسات الاجتماعية التى كانت تتناسب مع طبيعة العمل الأساسى لتلك المجتمعات كالزراعة أو الرعى أو الصيد .

● وبالرغم من تشعب سبل المجتمعات الانسانية القديمة فى تشكيل حضاراتها المختلفة ، إلا أن معظم هذه الحضارات خصصت للرقص والغناء والموسيقى مكانا رفيعا بين فنونها بل وفى صميم الطقوس والعبادات الخاصة بعقائدها الدينية .

● وقد حظيت الكثير من تلك الحضارات القديمة بميزة الرسوخ والاستمرار بفنونها وآدابها النابعة من بيئتها المحلية والمعبرة عن عقائدها الدينية وعاداتها وتقاليدها الاجتماعية . وابتدعت معظم تلك الحضارات لنفسها مجموعات من الأساطير والحكايات تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل ، وتظل لاصقة بضمير الجماعة ، معبرة عن أدق وأهم الخصائص التى تتميز بها كل حضارة عن غيرها من الحضارات الأخرى .

● وبطبيعة الحال اختلفت طرق هذه الحضارات القديمة فى كيفية تداول الأساطير وتوارثها والمحافظة على استمرارها وبقائها . وقد اتبعت كل حضارة ما يناسبها فى هذا السبيل ، مثل تدوين هذه الأساطير وكتابتها أو الحرص على حكايتها شفاهة وانتقالها بذلك من الآباء إلى الأبناء ، أو روايتها مرتلة فى المعابد بواسطة الكهنة ورجال الدين ،

أو تعليمها للتلاميـذ فى المدارس ، أو تمثيلها وعرضها داخل إطـار من الموسيقى والغناء والرقص أثناء الاحتفالات بالمناسبات الدينية والشعبية .

● ومن العسير هنـا أن نستعرض الموقف الـذى اتخذتـه كل حضارة من حضـارات العالم القديم حيـال ارتباط أساطيرها بالرقـص والغناء والموسيقى ، ويكفى أن نشير هنا إلى مثال مازال حياً وموجوداً حتى الآن بالرغم من مرور آلاف السنين على نشأته الأولى . ونعنى به « الـدراما الراقصـة » التى تعتبر من الفنون العـريقة الأصيلة لشعـوب جنوب شرق آسيا والشرق الأقصى .

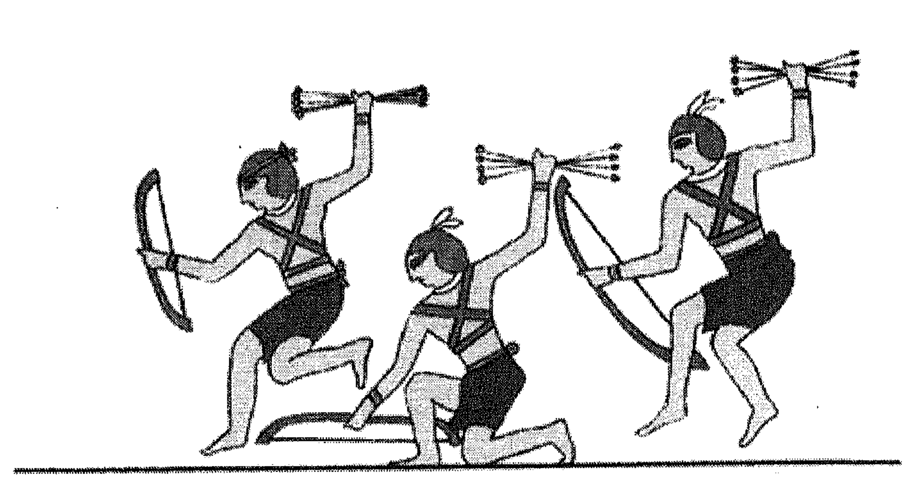
● ويمكن تعريف هذه « الـدراما الراقصة » بأنها نوع خـاص من العروض المسرحية المحليـة ، يدور حـول محور من الأساطير الشعبيـة والدينيـة القديمـة ، ويتلون بصفـة أساسيـة بكل ألوان الأيديـولوجية الصينية أو الأيـديولوجية الهنـدية أو بألوانها الممتـزجة معاً .

● ومهما اختلفت الموضوعات المحلية لتلك الأساطير بين دولة وأخرى أو بين شعب وآخر فى منطقة الشرق الأقصى فإن أسلوب ومنهج هذه الأسـاطير عند عرضها مسرحياً يتلخص فى تقديم حكايات وشخصيات وأحداث وحوارات تلك الأساطير فى إطار من التمثيل والـرقص والموسيقـى . وعلى سبيل المثـال فإن الهنـد مـا زالت تقـدم حتى الآن عروضـاً درامية راقصة مثل « شـاكونتالا » و« رمـايانا » و« بـراتايودهـا » وغيرها ، وذلك بالرغم من أن بعض هذه العروض يرجع تـاريخها إلى عدة قرون قبل ميلاد السيد المسيح وتقـوم هـذه العـروض جميعهـا على أساس مـزيـج بين تمثيل النصـوص الأدبيـة للتلك الأساطير مع الرقص الهندى التقليدى والموسيقى الهندية التقليدية .

● ويهمنا هنـا أن نشير إلى الشواهد التاريخيـة والأثرية المصرية التى تـدل على وجود مثل هذه العروض الدرامية الراقصة فى حضارة مصر القديمة . . فهناك نقوش تصور لنا عدداً من مشاهد أسطورة « إيزيس وأوزيريس » وشخصياتها المختلفة . ونشير أيضا إلى ما ذكـره « هيردت » ـ الذى زار مصر خـلال القرن الخامس قبل الميـلاد ـ من أنه شـاهد تمثيل كل الفصول السرية التى كان يقوم الكهنـة بتمثيلها داخل المعابد ، وكل الفصول

العلنية التى كانت تعرض على المشاهدين فى ساحات المعابد أوفى خارجها .

● ونكتفى هنا بعرض موجز لما ذكره « هيرودوت » فى وصف الصراع الذى دار بين أنصار « حورس » وأنصار « ست » الذى اشترك فى تمثيله ـ على قرع عنيف من الطبول ـ عشرات من الممثلين يحملون عصياً وأسلحة رمزية ، وانهمكوا فى الرقص الحربى العنيف [الذى يشبه رقصة التحطيب المعروفة الآن فى مصر المعاصرة] . وهو رقص ظنه « هيرودوت » انه صراع حقيقى بين الطرفين سقط فيه كثيرون بين مصابين وقتلى ، رغم أن المصريين أكدوا له أن الأمر لايعدو أن يكون تمثيلا متقناً لتأكيد انتصار الخير على الشر وفكرة تجدد الحياة إلى أبد الآبدين .



من حركات الرقص الحربى .

رقصة « الموت » الأوربية .. أصلها مصرى قديم

مؤرخو الفنون الأوربية يتتبعون المعلومات الشحيحة لرقصة أوربية قديمة تسمى «رقصة الموت » . وأرجعوا تاريخ هذه الرقصة إلى عصر الحضارة الاتروسكية التى سادت فى بعض مناطق إيطاليا خلال القرن الثامن قبل الميلاد سابقة للحضارة الرومانية ، حيث تم العثور على نقوش فى مقبرة اتروسكية تصور بعض مشاهد هذه الرقصة .

● ويذكر بعض هؤلاء المؤرخين ان رقصة الموت كانت شائعة فى كثير من المناطق الأوربية فى العصور الوسطى ، وانها كانت فى الأصل مسرحية أخلاقية من المسرحيات الدينية التى ظهرت خلال القرنين ١٣ ، ١٤ تتضمن حواراً صوتياً وحركياً كما تتضمن تعبيرات إيمائية [بانتوميم] بين شخص يرمز إلى الموت وممثلين يرمزون إلى جميع الطبقات الاجتماعية بدءاً من بابا روما إلى أقل الأشخاص قدراً فى طبقات السلم الاجتماعى .

● وكان الحوار الشعرى فى هذه المسرحية مصحوباً بموسيقى مناسبة وحركات تناسب الموسيقى ومضمون الحوار ، وذلك للتعبير عن قوة الموت باعتباره قدراً محتوماً لا مفر منه .

● وخلال النصف الأول من القرن الخامس عشر بدأ التعبير عن رقصة الموت بالنقوش والرسوم على جدران المقابر والكنائس والكاتدرائيات الكبرى . مثل نقوش مدافن « الأبرياء » فى باريس ونقوش كاتدرائية سان بول فى لندن .

● ثم عادت رقصة الموت إلى الظهور مرة أخرى فى الأعمال الأدبية والموسيقية الأوربية خلال القرن ١٩ وحتى الآن . ومن أشهر هذه الأعمال القصيدة التى كتبها الشاعر

والمؤلف المسرحى والروائى الألمانى « يوهان فولفجانج فون جوته » [١٧٤٩ ـ ١٨٣٢] بعنوان « رقصة الموت » ، والعمل الموسيقى الرائع للمؤلف المجرى «فرانزليست» [١٨١١ ـ ١٨٨٦] والعمل الموسيقى الشهير للمؤلف الفرنسى « سان سانس » [١٨٣٥ ـ ١٩٢١] الذى زار مصر وألف هذا العمل الذى ذاعت شهرته بعنوان « رقصة الموت » DANCE MACABRE .

● والذى يهمنا هنا هو الاشارة إلى أن « رقصة الموت » هذه ذات أصل مصرى قديم، نبعت من تصنيف « الرقص الجنائزى » الذى كان شائعا فى مصر القديمة . وأغلب الظن أن الاتروسكيين الذين زحفوا فى العصور القديمة إلى بعض مناطق إيطاليا كانوا فى الأصل من سكان آسيا الصغرى . ومن المعروف أن هذه المنطقة كانت على علاقة بمصر القديمة وتأثرت بحضارتها .

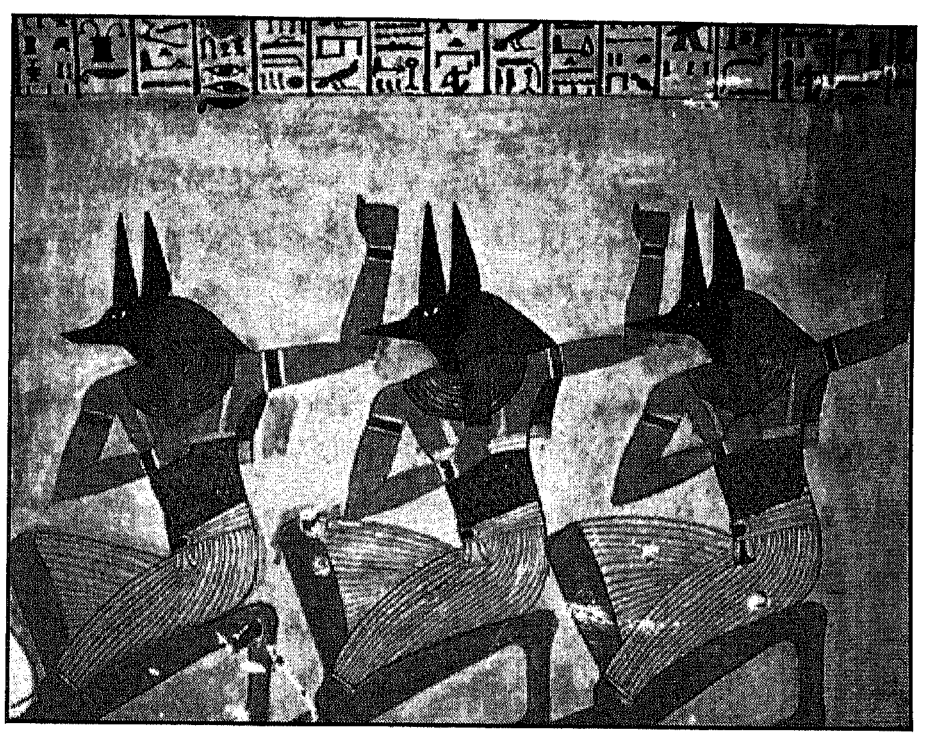
● وهناك مئات من النقوش الجدارية بالمقابر الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم تصور لنا نوعاً من الرقص الدينى وهو « الرقص الجنائزى» الذى كان من العادات والتقاليد الشائعة فى مصر القديمة . وتصور معظم هذه النقوش مجموعات من النساء متشحات بأردية طويلة ، يؤدين حركات راقصة على إيقاع الدفوف ، ويلوحن بأغصان الشجر . وهناك نقوش أخرى تصور اشتراك الرجال مع النساء فى أداء هذه الرقصات الجنائزية . سواء عند تشييع جنازة الميت إلى مثواه الأخير ، أو عند زيارة المقابر لإدخال السرور إلى أرواح الموتى وللاعتبار بذكر الموت كمصير حتمى لكل البشر .

● وكان الغرض من أداء الرقص الجنائزى فى مصر القديمة هو التعبير عن حزن الفراق ، وإدخال السرور إلى روح الميت ، وطرد وإبعاد الأرواح الشريرة التى قد تؤذى الميت فى حياته فى العالم الآخر .

● وتدل النقوش الأثرية التى تصور الرقصات الجنائزية فى مصر القديمة على أن حركات الرقص بالأيدى والأذرع والسيقان أو بالجسم البشرى كله كانت ذات طابع خاص يختلف تماماً عن حركات أنواع الرقص الأخرى التى عرفتها مصر القديمة ، الأمر

الذى يؤكد أن حركات الرقص الجنائزى كانت نابعة من فكرة الموت للتعبير عن المشاعر الانسانية الخاصة بها .

● وحتى عهـد قريب جـداً ، كانت هنـاك عادة شعبيـة منتشرة فى القرى والأحيـاء الشعبية هى استئجار بعض « الندابات » طوال الأيام الثلاثة التالية لوفاة الميت ، ليقمن بضرب الدفوف و إقـامة رقصات عصبية يمكن وصفها بالهيستيريـة ، على إيقاعات من التصفيق بالأيدى ولطم الخدود .



ثلاثة راقصين يؤدون رقصة الموت وهم-يلبسون أقنعة الإله أنوبيس { إله الموت } .

إحتراف الرقص وفن تصميم الرقصات فى مصر القديمة

من المشاهـد الأثرية الملفتة للنظـر تلك النقوش العديـدة التى تصور لنا عـديداً من الـراقصات المصريـات وهن يـؤدين رقصاتهن ويعـزفن ــ فى الـوقت نفسه ــ على آلات موسيقية مثل الطنابير والمزامير المفردة والمزدوجـة ، وهى آلات قد تتعب الراقصات أثناء آدائهن للرقص ، كما قد تؤدى إلى ضعف العزف الموسيقى .

● ولاشك فى أن أولئك الراقصات كن لا يستطعن تقديم مثل هذا العرض الموسيقى الراقص إلا بعد أن يجتزن تمرينات وتدريبـات شاقة على أداء مثل تلك العروض ، الأمر الذى حدا ببعض مـؤرخى الفنون إلى القول بأن مصر القديمـة عرفت نظام الاحتراف ، وكانت هنـاك راقصات من النسـاء وراقصون من الـرجال كانـوا يتخذون الرقـص مهنة وحرفة ، ويقدمون عروضهم فى الحفلات والمناسبات لقاء أجر معلوم .

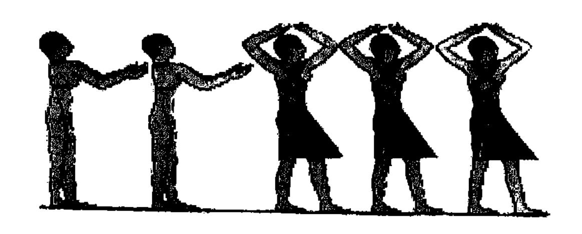
● ومن أطرف الأدلة الأثرية التى نستشف منها هذه النتيجة تلك المذكرات القديمة التى كتبها شاب من مدينة « سيراكيوز » بجزيرة صقلية كان قد زار مصر فى القرن الرابع قبل الميلاد ، ونـزل ضيفاً على أحد أثـرياء المصريين ، وكـان المضيف قد أقام لضيـوفه وليمة فاخرة تخللتهـا حفلة موسيقية راقصة ، وصفها الشـاب السيراكيوزى وصفاً شيقا ودقيقا ، تناول فيه الفرقة الموسيقية الكاملة التى كانت تتكون من عازفين وعازفات على مختلف الآلات الموسيقيـة مثل الهارب والجنك والقيثارة والكنـارة والمزمار المفـرد والمزدوج والدفوف والصنوج والشخاليل وغيرها من آلات النفخ والآلات الوترية والإيقاعية .

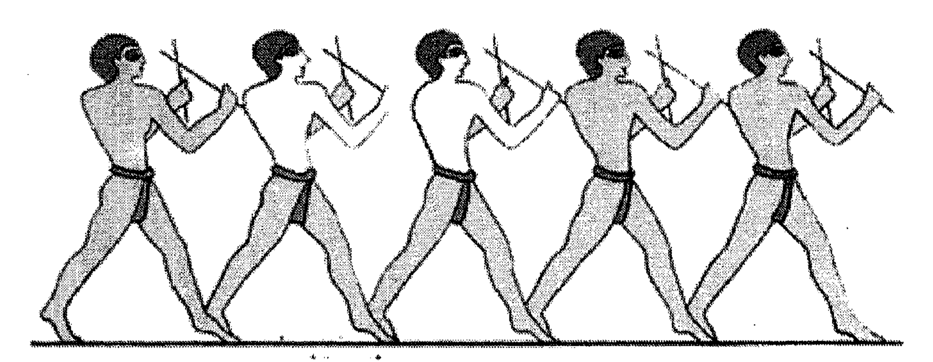
● كما وصـف أيضـا ملابس الـراقصين والراقصـات وماكانـوا يرتـدونه من مـلابس ومايتحلون به من أساور وأقراط وقلائد وأكاليل من الزهور لتزيين الصدور والرؤوس .

ثم وصف عرضاً للرقص « الأكروباتيك » قامت به فرقة من الراقصين الرجال كانوا يقفزون قفزات عالية رشيقة ، ويصعدون فوق أكتاف بعضهم مكونين تشكيلاً هرمياً . وبطبيعة الحال فإن تلك الحركات الأكروباتية الراقصة لا يمكن أن تقوم بها إلا فرقة رقص محترفة .

● وهناك شواهد أثرية أخرى تتجلى فى النقوش التى تصور حركات « الرقص الجماعى » الذى تشترك فيه مجموعة من الراقصات النساء أو الراقصين الرجال أومنهما معاً . ونلاحظ فى معظم تلك النقوش أن هذا الرقص الجماعى متماثل الحركات ، بمعنى أن المشتركين فيه من الراقصين والراقصات يؤدون حركات متماثلة سواء بالأذرع أو بالسيقان أو بالأوضاع التى تتخذها أجزاء الجسم المختلفة أثناء الرقص . ولا يمكن تصور تقديم هذا العرض الراقص المنضبط والمتماثل فى حركاته وتعبيراته إلا بعد عمل «بروفات » وتدريبات فنية لتنظيم حركات الرقص وخطواته وكافة تشكيلاته ، وهو ما يعرف الآن بمصطلح « الكوريوجرافى » أى فن تأليف الحركات الراقصة سواء أكانت فردية أم ثنائية أم جماعية . وهو الفن الذى يعتمد عليه رقص الباليه والاستعراضات الجماعية الراقصة فى زماننا الحاضر .

● وإذا سلمنا جدلاً بوجود « فن تصميم الرقصات » فى مصر القديمة ، فسوف يكون من السهل علينا فهم وتذوق مئات المشاهد المنقوشة على جدران المقابر والمعابد الأثرية التى تصور أنواعاً متعددة من الرقص الفردى والثنائى والجماعى ، سواء أكان رقصاً رياضياً أم جنائزياً . وسوف يكون من السهل أيضا أن نتفهم هذا التماثل الفنى الدقيق والمتناسق فى حركات وخطوات الرقص الجماعى المسجلة فى النقوش الأثرية المصرية القديمة .





هذا التماثل فى الحركات لابد أن يكون متفقا عليه عند تصميم هذه الرقصة الجماعية .



مشهد للرقص الجماعى مع استخدام الآلات الإيقاعية .

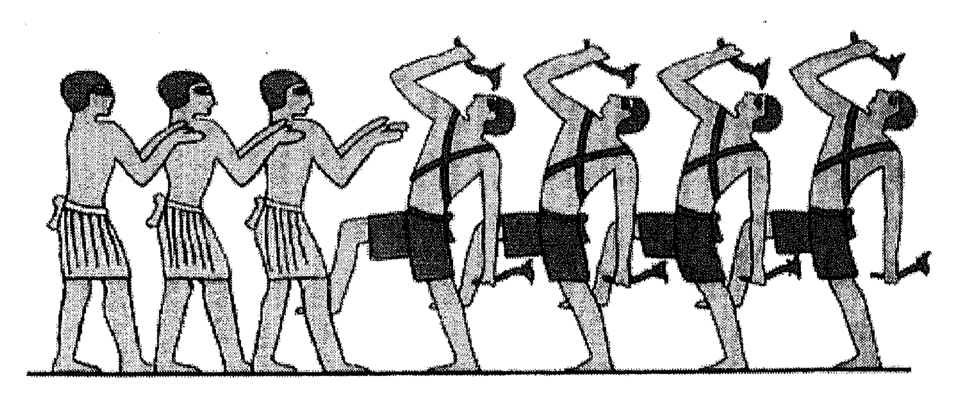
ملابس وإكسسوارات الرقص .. فى مصر القديمة

لو تأملنـا مئات النقوش الأثرية التـى تصور فنون الرقص فى مصر القـديمة ، لهالنا هذا التنـوع الكثيف فى ملابس الـراقصين والراقصات والإكسسـوارات أو الأدوات التى يحملونها أو يستخدمونها أثناء الانهماك فى أداء الأنواع المختلفة من الرقصات التى عرفتها مصر القديمة .

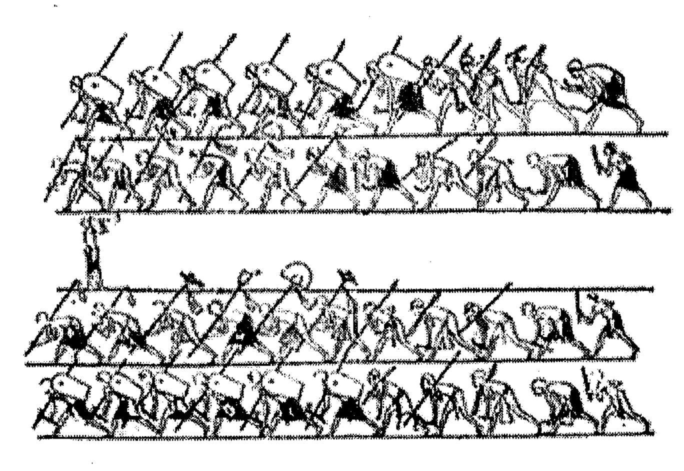
● هذا الاختلاف فى تصميم أشكال الملابس يرجع أسـاساً إلى عدة أسباب ، منها ـ طبعا ـ اختلاف ملابـس النساء عن ملابـس الرجال ، واختـلاف شكل الملابس التى كانت ترتديها الراقصات المصريات عن ملابس الراقصات الآسيويات أو الأفريقيات ، واختلاف أشكال وطرق تصميم الملابس لتتناسب مع نـوعية الرقصات التى كان يؤديها الراقصون أو الراقصات للتعبير عن نوعية الرقصة التى كانوا يؤدونها .

● والملاحظ بصفة عامة أن ملابس الراقصات كانت تصمم بطريقة تتيح لهن حرية التعبير بحـركات أجـزاء الجسم . . ولـذلك فهى إمـا أن تكـون قصيرة لإظهـار حركـة السيقان والأرجل ، أو تكون بـلا أكمام لإظهار حركة الأذرع والأيـدى . . أما إذا كانت الراقصات يرتـدين ملابس طويلة ذات أكمام واسعة وتغطى أجسـامهن بالكامل ، فإن هذه الملابـس تكون فى العـادة مصنوعـة من قماش شفاف لا يحجب حـركات أعضـاء الجسم المستخدمة فى التعبير الراقص .

● ومن الخطـأ القول بـأن تلك الملابس القصيرة أو الملابـس الشفـافة التى كـانت ترتديها الـراقصات فى مصر القديمة ، كانـت بقصد إثارة الغرائز باظهـار مفاتن الجسم الانثوى . . فمن المعـروف مثلا أن ملابس راقصات البـاليه فى العصر الحديث تكشف الكثير من أجـزاء الجسم ، ومع ذلك فـلا تسبب للمتفـرج أيـة إثارة لغـرائزه ، وذلك



مشهد من الرقص الجماعى واكسسواراته .



مشهد من الرقص الحربى واكسسواراته .

لانصراف ذهن المتفرج إلى موضوع الباليه ، وإلى قدرة الراقصات على التعبير عن أحداث أو شخصيات هذا الموضوع ، وإلى تذوق الموسيقى الرفيعة المصاحبة للعرض ومدى تطابقها وانسجامها مع حركات الراقصات وخطواتهن والتشكيلات الفنية التى يؤدينها طبقا للتصميم الذى وضعه مصمم الرقصات ومخرج العرض .

● ومع ذلك فقد حرص الفنانون القدماء الذين صوروا مشاهد الرقص على إظهار الراقصات فى كامل زينتهن المناسبة لنوعيات الرقصات التى كن يتحلين بها من أقراط وعقود وأساور وخلاخيل وأحزمة ، بالاضافة إلى ما كن يشبكنه فى شعورهن من دبابيس وأمشاط وورود وأزهار .

● وكانت طرق تصفيف الشعر تختلف حسب « الموضة » التى كانت تسود بين سيدات كل عصر ، أو حسب ما تراه الراقصة مناسباً لوجهها ومنظرها العام . . فهناك نقوش تصور راقصات ذوات شعر طويل منسدل ، أو ذوات شعر قصير مقصوص بطريقة « آلاجارسون » أو ملموم ومرفوع إلى أعلى الرأس ليأخذ شكل التاج ، أوملموم إلى الخلف بطريقة الموضة المعروفة الآن باسم « شينواه » . كما أن هناك راقصات كثيرات كن يستعملن « الباروكات » ذات الأشكال المختلفة التى كانت سائدة فى مصر القديمة .

● أما الاكسسوارات التى كانت تستعملها الراقصات كجزء متمم للرقص فتختلف حسب طبيعة ونوعية الرقصات التى يعرضنها ، فهناك من يمسكن فى أيديهن آلات موسيقية يعزفن عليها أثناء الرقص ، ومن يمسكن بأغصان الشجر أو سعف النخيل أو زهور اللوتس ، ومن يحافظن على تنظيم الإيقاع وضبطه باستخدام الدفوف ذات الأشكال والأحجام المختلفة ، أو المصفقات الخشبية أو العاجية ، وكثير منها على شكل رؤوس غزلان .

● أما الاكسسوارات التى كان يستعملها الراقصون الرجال فتكاد تنحصر فى «الرقص الحربى » حيث يمسكون بالأقواس والسهام والحراب والدروع أو بعصى «البومورانج » وهى عصى ذات شكل تقليدى معقوف كانت تستعمل فى صيد الطيور فى مصر القديمة .

فن العرائس .. فى مصر القديمة

ارتبطت العرائس بخيال الانسان منذ فجر تاريخه الحضارى ، فهى نتاج خيال الانسان الأول ، وهى المحرك المثير الذى أوسع هذا الخيال وأخصبه ، وزاد من أفقه ومداركه .

● وفنون العرائس كانت معروفة لدى قدماء المصريين والفينيقيين والأشوريين والهنود والصينيين واليابانيين القدماء ، وعرفتها الحضارة اليونانية القديمة قبل أن تعرف المسرح الدرامى نفسه . . ولا عجب فى ذلك ، فالثابت تاريخياً أن العرائس كانت أسبق من الانسان فى التمثيل والتشخيص ، وأنها كانت الأولى فى طابور الفنون التعبيرية الأخرى .

● وحتى نتأكد من إثبات هذه الفرضية علينا أن نسترجع مشاهداتنا لأى طفل يلعب بعروسته أياً كان شكلها ، ولنتذكر انفعالات هذا الطفل وانطباعاته من تلك العلاقة المتخيلة بين هذا الطفل وعروسته التى يلعب بها . . إن الطفل يعامل عروسته وكأنها انسان حى ، فهو يتبادل معها الحوار ، ويصدر إليها الأوامر ، أو يتلطف معها ويرفع إليها الرجاء ، أو يعاقبها عندما يتخيل أنها فعلت أمراً يستحق العقاب . . وعادة يقوم الطفل بتهيئة عروسته للنوم ولا يتركها إلا عندما يتأكد لديه احساس فنى صادق بأن عروسته قد نامت فعلاً .

● إذن فنحن أمام عملية « تمثيل » يقوم بها الطفل بالاشتراك مع العروسة . وهذا التمثيل أو التشخيص هو الذى هيأ العرائس لكى تؤدى الأدوار التى أبدعها الخيال الانسانى وضمنها الأساطير والقصص الخيالية التى تحفل بها الحضارات الانسانية القديمة فى مختلف بقاع الأرض .

● وانطلاقاً من هذا الفهم نستطيع أن نعرف الدور الذى كانت تقوم به عشرات الدمى والعرائس التى عثر عليها بين الآثار المصرية . . فقد تم العثور على عرائس يرجع تاريخها إلى عصور ما قبل التاريخ فى مصر . . بالاضافة إلى عرائس أثرية أخرى من نتاج العصور التاريخية المتعاقبة فى مصر القديمة .

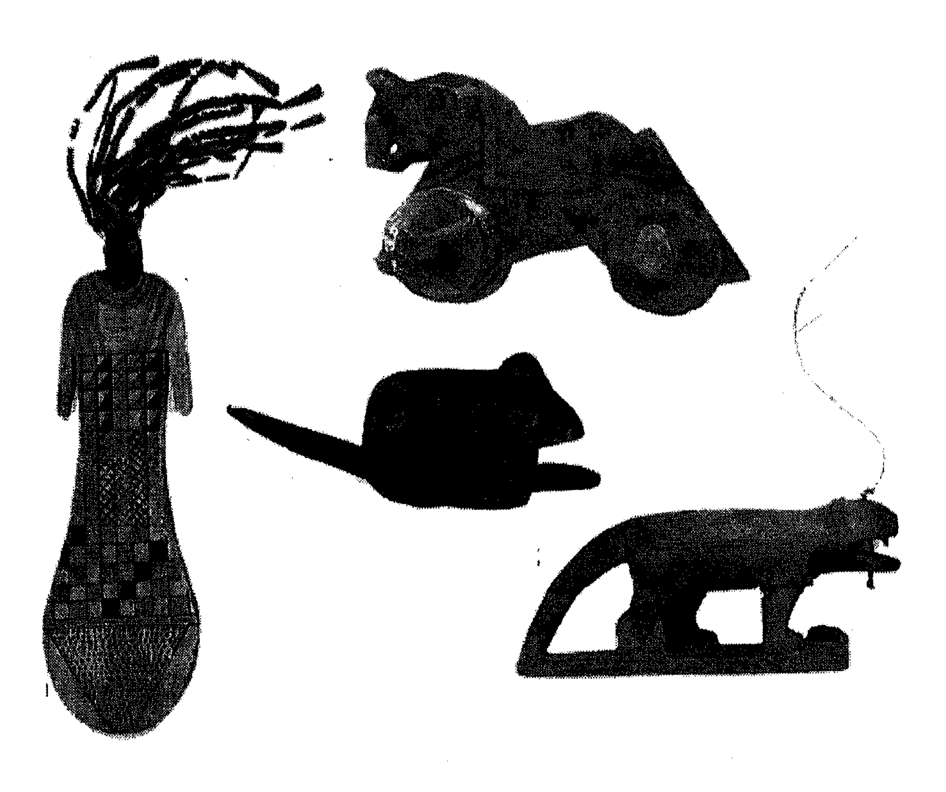
● وفى عام ١٩٠٤ عثر عالم الآثار الفرنسى « مسيو جاييه » على مجموعة من العرائس المصرية المصنوعة من الخشب وذات رؤوس مصنوعة من العاج وكلها قابلة للتحريك بواسطة خيوط تتحكم فى تحريك أجزائها وأطرافها . . كذلك توجد ضمن المقتنيات الأثرية المصرية المعروضة فى متحف اللوفر بباريس ، عروسة على شكل ذئب ولها فم تحركه الخيوط فتحا وغلقا .

● وبالنظر إلى سمعة مصر القديمة فى ممارسة فنون السحر ، فقد ذكر بعض المؤرخين أن مصر كانت المهد الأول للسحر ، ومنها أخذته شعوب العالم القديم . . وثمة قصة قديمة مسجلة تحكى لنا حادثة ضبط بعض السحرة وبعض النساء من حريم الملك رمسيس الثالث [الأسرة العشرون] الذين ضبطوا متلبسين ومعهم عروسة مصنوعة من الشمع على هيئة الملك ، وكانوا يتلون عليها بعض التعاويذ السحرية قاصدين إيقاع الأذى بالفرعون . وتحكى لنا القصة وقائع التحقيق مع هؤلاء الجناة واجراءات محاكمتهم .

● ويحكى لنا هيرودوت فى حديثه عن مصر انه شاهد مراسم الاحتفال بعيد الإله أوزيريس ، ووصف لنا ما شاهده من ممارسات احتفالية دينية وشعبية تتعلق بهذا العيد، وذكر أيضا أن بعض النساء المصريات المصابات بالعقم ، كن يشتركن فى موكب الاحتفال وهن يحملن على رؤوسهن عرائس تتحرك بالخيوط ويمثلن بها أسطورة مصرية قديمة تتناول موضوع النسل والإنجاب .

● وورد بدائرة المعارف الفرنسية وصف لعرض عرائسى من مصر القديمة لتمثيل قصة إيزيس وأوزريس . وكان هذا العرض مقسماً إلى عدة مناظر وفصول ، وكان الكهنة ينشدون أشعاراً للتعليق على الأحداث وتوضيحها . ويتضمن المنظر الأول

عرضاً تقوم فيه إيزيس بالبكاء والنحيب على زوجها بعد مقتله . وفى المنظر الثانى تقوم إيزيس بجهـودها فى البحث على جثة زوجها التى ألقيت فى النيل . وفى المنظـر الثالث تعود إيزيس إلى النحيب على جثة زوجها بعـد أن عثرت عليها . ويتضمن المنظر الرابع والأخير المشهد العاطفى المؤثر حين تقوم إيزيس بتقبيـل أوزيريس قبلة الحياة فتعود إليه الروح وتبدأ دورة الخصب والحياة من جديد . . وفى آخر العرض العرائسى تظهر بعض الراقصات ليؤدين رقصة تعبر بـالغناء أيضا عن عودة الخصب والنماء إلى الأرض وكل ما عليها من كائنات .



أنواع من الدمى والعرائس المصرية القديمة ، وبعضها متحرك .

● أولاً : المراجع العربية :

الكتاب	التأليف	الترجمة
١ ـ العمارة فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد أنور شكرى	
٢ ـ حضارة مصر والشرق القديم	تأليف : الدكاترة : إبراهيم رزقانه محمد أنور شكرى ، عبد المنعم أبو بكر حسن محمود ، عبد النعيم حسنين	
٣ ـ الحضارة المصرية	تأليف جون ولسون	ترجمة : د أحمد فخرى
٤ ـ الماضى الحى	تأليف : إيفار ليسنر	ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد
٥ ـ الرمز والاسطورة فى مصر القديمة	تأليف : رندل كلارك	ترجمة : أحمد صيلحة
٦ ـ تاريخ مصر القديمة [جزءان]	تأليف : د . رمضان السيد	
٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين	تأليف : وليم بيك	ترجمة : مختار السويفى
٨ ـ تاريخ العمارة المصرية القديمة	تأليف : د . اسكندر بدوى	
٩ ـ هردوت يتحدث عن مصر	تأليف : هرودت	ترجمة : د . محمد صقر خفاجة
١٠ ـ نمو الحضارة	تأليف : و . ج . برى	ترجمة : لويس اسكندر
١١ ـ علماء الآثار	تأليف : تشارلز مايكل دورتى	ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم
١٢ ـ فن التصوير المصرى القديم	تأليف : نينا ديفز	ترجمة : د . حسن صبحى بكرى ، وعبد الغنى الشال
١٣ ـ أهرام مصر	تأليف : إ . إ . س . إدواردز	ترجمة مصطفى عثمان
١٤ ـ أسرار الهرم الأكبر	تأليف : محمد العزب موسى	
١٥ ـ المواد والصناعات عند قدماء المصريين	تأليف : ألفريد لوكاس	ترجمة : د . زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم
١٦ ـ فى رحاب المعبود توت	تأليف : د سامى جبره	ترجمة : عبد العاطى جلال
١٧ ـ مصر الفراعنة	تأليف : سير ألن جاردنر	ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم
١٨ ـ عندما حكمت مصر الشرق	تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سيل	ترجمة : محمد العزب موسى
١٩ ـ آثار الأقصر	تأليف : د . محمد عبد القادر محمد	
٢٠ ـ الآثار المصرية فى وادى النيل	تأليف : جيمس بايكى	ترجمة : لبيب حبشى ، وشفيق فريد

٢١ ـ وادى الملوك	تأليف : عزيز مرقص منصور	
٢٢ ـ الفن المصرى [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٣ ـ مصر فى عيون الغرباء [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٤ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية	تأليف : مختار السويفى .	
٢٥ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية	تأليف : د. أحمد قدرى [بالانجليزية]	ترجمة : مختار السويفى ومحمد العزب موسى
٢٦ ـ نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد	تأليف : جوليا سامسون	ترجمة : مختار السويفى
٢٧ ـ سرقة ملك مصر	تأليف : محسن محمد	
٢٨ ـ مجوهرات الفراعنة	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٢٩ ـ المجمل فى تاريخ مصر	تأليف : د . ناصر الأنصارى	
٣٠ ـ على هامش التاريخ المصرى	تأليف : عبد القادر حمزة	
٣١ ـ الموسوعة الأثرية العالمية	تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب	ترجمة : محمد عبد القادر محمد ود. زكى اسكندر
٣٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية [العصر الفرعونى]	تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين	
٣٣ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . حسن كمال
٣٤ ـ فى موكب الشمس [جزءان]	تأليف : د . أحمد بدوى	
٣٥ ـ موسوعة الفراعنة	تأليف : باسكال فيرنوى ، وجان يويوت	ترجمة : د . محمود ماهر طه
٣٦ ـ الأدب الثورى عبر التاريخ	تأليف : محمد مفيد الشوباشى	
٣٧ ـ مصر القديمة [١٦ جزءاً]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٨ ـ الأدب المصرى القديم [جزءان]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٩ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة	تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب	ترجمة : أمين سلامة
٤٠ ـ الحضارة المصرية	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٤١ ـ حتشبسوت : الملكة الفرعون	تأليف : سوزان راتييه	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٤٢ ـ رمسيس الثانى : فرعون المجد والانتصار	تأليف : كنت كتشن	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : محمود ماهر طه
٤٣ ـ الفن المصرى القديم	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : د . أحمد زهير أمين
٤٤ ـ إيمحوتب : إله الطب والهندسة	تأليف : ج . هارى	ترجمة : محمد العزب موسى
٤٥ ـ خطوات الإنسان الأول على أرض مصر	تأليف : عزت السعدنى	

العنوان	تأليف	ترجمة / مراجعة
٤٦ ـ المدخل إلى علم التاريخ	تأليف : د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ	
٤٧ ـ أعمال الحفر الأثرى	تأليف : ليونارد وولى	ترجمة : د . حسن الباشا
٤٨ ـ انتصار الحضارة	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د. أحمد فخرى
٤٩ ـ مصر القديمة : دراسات فى التاريخ والآثار	تأليف : مختار السويفى	
٥٠ ـ الحياة اليومية فى مصر	تأليف : بيير مونتيه	ترجمة : عزيز مرقس منصور
٥١ ـ مرحلة التعليم العالى فى مصر القديمة	تأليف : سمير أديب	
٥٢ ـ الأسرة المصرية فى عصورها القديمة	تأليف : د . عبد العزيز صالح	
٥٣ ـ أبيدوس	تأليف : د . عبد الحميد زايد	
٥٤ ـ آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية	تأليف : تأليف : محرم كمال	
٥٥ ـ الطب المصرى القديم	تأليف : د . حسن كمال	
٥٦ ـ تاريخ الصيدلة والعقاقير	تأليف : الأب ج . شحاتة قنواتى	
٥٧ ـ التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة	تأليف : ليز مانكه	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : د . محمود ماهر طه
٥٨ ـ قدماء المصريين والاغريق	تأليف : جان فركرتيه	ترجمة : د . كمال الدسوقى ومحمد على كمال الدين مراجعة : د . محمد صقر خفاجة
٥٩ ـ فى المعرفة التاريخية	تأليف : أرنست كاسيرر	ترجمة : أحمدحمدى محمود مراجعة : على أدهم
٦٠ ـ العادات المصرية بين الأمس واليوم	تأليف : وليم نظير	
٦١ ـ فن النحت	تأليف : صبحى الشارونى	تقديم : د . ثروت عكاشة
٦٢ ـ المسرح المصرى القديم	تأليف : اتيين دريوتون	ترجمة : د . ثروت عكاشة مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٣ ـ الرقص المصرى القديم	تأليف : إيرينا لكسوفا	ترجمة : د . محمد جمال الدين مختار مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٤ ـ المرأة الفرعونية	تأليف : كريستيان نوبلكور	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٦٥ ـ فجر التاريخ	تأليف : ج . ل . مايرز	ترجمة : على عزت الأنصارى مراجعة : د . عبد العزيز كامل
٦٦ ـ دور المرأة فى المجتمع المصرى القديم	تأليف : د . عبد الحليم نور الدين	

٦٧ ـ الدور السياسى للملكات فى مصر القديمة — تأليف : د . محمد على سعد الله — تقديم : د . محمد جمال الدين مختار

٦٨ ـ أساطير فرعونية — ترجمة كمال الحناوى

٦٩ ـ أبو الهول — تأليف : د. سليم حسن [بالانجليزية] — ترجمة : جمال الدين سالم — مراجعة : د . أحمد بدوى

٧٠ ـ الديانة المصرية القديمة — تأليف : ياروسلاف تشرنى — ترجمة : د . أحمد قدرى — مراجعة : د . محمود ماهر طه

٧١ ـ معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية — تأليف : د . سيد توفيق

٧٢ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة — تأليف : أ . ج . سبنسر — ترجمة : أحمد صليحة

٧٣ ـ حديث الفنون — تأليف : أحمد شفيق زاهر وآخرين

٧٤ ـ فى الأدب المصرى القديم — تأليف : د . أحمد عبد الحميد يوسف

٧٥ ـ نهاية مدينة فرعونية — تأليف : الحسينى صالح — تقديم : د . ضياء أبو غازى

٧٦ ـ التاريخ والسير — تأليف : د . حسين فوزى النجار

٧٧ ـ أساطير مصرية — تأليف : د . عبد المنعم أبو بكر

٧٨ ـ الآلات الحجرية وعصور ما قبل التاريخ — تأليف : د . على على السكرى

٧٩ ـ الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين — تأليف : وليم نظير

٨٠ ـ الأزياء فى مصر القديمة — تأليف : د . محمد جمال الدين مختار ومحمد عبد اللطيف الطنبولى — مراجعة : د . أحمد بدوى

● **ثالثا: من مصادر الصور والأشكال الداخلية :**

٩٦ ـ متحف الأقصر للفن المصرى القديم [كتالوج] ـ أصدار : مركز البحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة : عبد العزيز صادق .

٩٧ ـ الماضى يبعث حيا ـ تأليف : إدنا مجوير . ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد .

٩٨ ـ مجلة « شل » [١١ عددا] .

٩٩ ـ المتحف المصرى ـ موجز فى وصف الآثار الهامة ـ إصدار ١٩٥٤ .

100 - EGYPT - 1900 : SHELL COMPANIES IN EGYPT .

101 - ART THROUGH THE AGES .

102 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON ' S DESCRIPTION DE L ' EGYPT

BY : ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY.

103 - THE SPLENDERS OF EGYPT .

BY : MICHAEL DAVISON .

104 - WONDERS OF TUTANKHAMUN.

BY : DAVID P. SIL VERMAN .

105 - UPPER EGYPT .

BY : DINO SASSI .

106 - DAS ALTE REICH - Ä GYPTEN IM ZEITAL TER DER PYRAMIDEN. [KATALOG].

107 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE] .

108 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE] .

109 - EGYPT [CATALOGUE] .

BY : A.BBAS CHALABY .

المؤلف

● وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس فى القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال فى القانون البحرى ١٩٧٥ .

● محاضر فى الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولى فى مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته ومترجماته فى علوم النقل البحرى من الكتب الرائدة غير المسبوقة باللغة العربية .

● كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتليفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

● نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن فى مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتليفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التى تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات الهلال والعربى والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا وإدارة الأعمال ، وجرائد الأهالى والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

كتب للمؤلف

● **فى الاقتصاد والعلوم البحرية :**

١ ـ اقتصاديات النقل البحرى .
٢ ـ أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية
٣ ـ المصطلحات الفنية البحرية .
٤ ـ المصطلحات التجارية الدولية .
٥ ـ دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب» [محاضرات] .
٦ ـ عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [محاضرات] .
٧ ـ عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [محاضرات] .
٨ ـ عمليات الموانى وعمليات الشحن والتفريغ [محاضرات] .
٩ ـ سند الشحن « دراسة تحليلية » [محاضرات] .
١٠ ـ قطاع النقل البحرى فى مصر .
١١ ـ محاضرات فى البيوع البحرية .
١٢ ـ القانون البحرى « ترجمة » ـ تأليف : إيمانويل دفورسكى .
١٣ ـ تأجير السفن «ترجمة » ـ تأليف : بيرجر نوسوم
١٤ ـ انتاجية الرصيف « ترجمة » ـ تأليف : دى مونيه .
١٥ ـ الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تاليف : ج سيموندز.
١٦ ـ سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » ـ تأليف : أ . إيفانس .
١٧ ـ مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحرى وأنواع النقل الدولى الأخرى .
١٨ ـ حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [فى عمليات شحن وتفريغ السفن] ـ تحت الطبع .

في الأدب والفن :

١٩ ـ ألوان من النشاط المسرحى فى العالم .

٢٠ ـ خيال الظل والعرائس فى العالم .

٢١ ـ الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .

٢٢ ـ زرع النوى « رواية أدبية » .

٢٣ ـ مساخر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .

٢٤ ـ عذراء سرابيوم « مجموعة قصصية » ـ تحت الطبع .

٢٥ ـ الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .

٢٦ ـ الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .

٢٧ ـ الضحك علينا « من الأدب الساخر » ـ تحت الطبع .

٢٨ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الأول .

٢٩ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثانى .

٣٠ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثالث .

٣١ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الرابع .

● **روايات ومسرحيات مترجمة :**

٣٢ ـ أوليفر تويست ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٣ ـ الآمال الكبرى ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٤ ـ ثورة على السفينة بونتى ـ تأليف : وليم بلاى .

٣٥ ـ توم سوير ـ تأليف : مارك توين .

٣٦ ـ مغامرات هكلبرى فين ـ تأليف : مارك توين .

٣٧ ـ رجال عظام ونساء عظيمات ـ تأليف : ليزلى ليفيت .

٣٨ ـ دافيد كوبر فيلد ، ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٩ ـ جزيرة الكنز ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤٠ ـ دكتور جيكل ومستر هايد ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون

٤١ ـ كنوز الملك سليمان ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٢ ـ نجمة الصباح ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٣ ـ مون فليت ـ تأليف : ميد فوكنر .

٤٤ ـ المفتش العام ـ تأليف : نيكولاى جوجول

٤٥ ـ روبنسون كروزو ـ تأليف : دانييل ديفو .

● فى الآثار والتاريخ المصرى القديم :

٤٦ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور أحمد قدرى [بالانجليزية] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٧ ــ فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٨ ـ مصر والنيل [فى أربعة كتب عالمية] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٤٩ ـ مراكب خوفو [حقائق لا أكاذيب] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٠ ـ الحضارة المصرية من عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة «مترجم» ــ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ــ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥١ ــ نفرتيتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » ـ تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٢ ـ مجوهرات الفراعنة « مترجم » ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار الشرقية .

٥٣ ـ صفحات من تاريخ الاسكندرية ـ تحت الطبع .

٥٤ ـ كليوباترا ـ تحت الطبع .

٥٥ ـ مصر القديمة ـ دراسات فى التاريخ والآثار

٥٦ ـ أم الحضارات ـ الجزء الأول .

الفهرس

مختار السويفى



ملامح عامة لأول حضارة صنعها الإنسان

الجزء الثانى

تقديم :
الدكتور زاهى حواس

الناشر
الدار المصرية اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾

صدق الله العظيم

إهـــداء ...

إلى حبيبة الروح ...

زهرة الشباب النقية الطاهرة ..

صاحبة البسمة الوضيئة ..

والطباع النبيلة الطيبة ..

ابنتي هالة ..

رحمها الله وأكرم مثواها ..

تقديـــــم

بقلم : أ . د . زاهى حواس

ذلكم كتاب أسعدتنى قراءته ويسعدنى أن أقدم له ، فلقد التقيت بالأستاذ / مختار السويفى عام ١٩٧٨ فى أعقاب عودتى من الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك فى حوار حول مراكب خوفو وما كان لها من وظيفة وهدف ، ولقد رأى فيها الأستاذ مختار السويفى رأى مخالف لما ذهب إليه كمال الملاخ وما آمنت به بأنها مراكب جنزية ترمز لرحلة الميت فى موكب الشمس مع النهار والليل .

على أن ما كان بيننا من اختلاف الرأى لم يحجب عنى ما عُرف به من طيب الشمائل ولين العريكة وكريم الخصال ، وما قلَّ أن نصادف مثيلاً له فى هذه الأيام . ومع ذلك فلقد كنت على يقين قبل التصدى لدراسة الأهرام والتخصص فيها أن مراكب خوفو هذه إنما كانت ذات وظيفة جنزية متبعاً فى ذلك مقالاً نشره أستاذى الدكتور / عبد المنعم أبو بكر ومرممها الحاج / أحمد يوسف غفر الله لهما . وفى ذلك نشب بينى وبين الملاخ جدل عنيف أفضى إلى الخصومة وإن لم تجاوز بضعة أشهر سافرت بعدها إلى جامعة « بنسلفانيا » بالولايات المتحدة الأمريكية حيث توافرت على دراسة الأهرام .

وإذا الاستقصاء يفرض علىّ التعرض لما يجاوز الهرم وما يلحق به من عناصر معمارية بلغ عددها ثلاثة عشر عنصراً معمارياً .

وقد شملت ما كان لخوفو من مراكب خمسة هى أحد عناصر المجموعة الهرمية حيث جعلت اثنتان منها إلى جنوب الهرم على حين احتلت الثلاثة الأخرى مواقعها من الشرق

منه ، حيث قدت فى الصخر أخاديد بطائنها من خشب رقيق بقيت عليها رقائق من ذهب .

كان خوفو فيما خلصت إليه أول من بدّل عقائد الدين ، فجعل من نفسه فى حياته الإله رع ، وكان الميت من أسلافه إنما يمثل حورس فى الأرض ورع فى العالم الآخر . كانت المراكب إذن شمسية يصطنعها من حيث هو رع حيث تنتقل روحه من غرفة الدفن عن طريق الفتحة الجنوبية التى وصفت خطأ بفتحاح التهوية وكان موقعها فيما بين المراكب الشرقية التى كانت لرحلة النهار . والغربية التى أعدت لرحلة الليل حيث تتولى التجديف النجوم ، كما يجعل الإله من المجاديف سلاحاً يقتل بها أرواح الشر فيعبده البشر .

أما المركبان شمالى وجنوبى المعبد العلوى فهما رمزيتان يبحر فيهما الملك بهيئة حورس لتوحيد مصر جنوباً وشمالاً على حين اختصت المركب الخامسة ـ عن بردية أبو صير ـ بعقيدة حاتحور بحكم ما خصصت له المجموعة الهرمية من عبادة ثالوث رع وحورس وحاتحور ، إذ كان رع يعبد فى المعبد العلوى وحورس فى السفلى على حين عبدت حاتحور كما كانت توصف فى عقيدة المصريين بعين رع وزوجة الملك الحى وأم خليفته . وكان الميت فيما رأينا فى غير هذا الموضع يحكم من قصره على مقربة من الهرم ولم تكن منف ـ ميت رهينة الآن ـ سوى قصر لمعبد الإله بتاح . وما كانت « منف » عند المصرى إلا كمية القصور القائمة عند الأهرام فيما بين أبو رواش وميدوم .

ونعود إلى الأستاذ مختار السويفى وما له ، فضلاً على هذا الكتاب ، من مصنفات عديدة تناولت من تاريخ مصر وآثارها ما أعجبنى وأعجب المتخصصين المتعمقين ، فضلاً عن جمهرة القراء المثقفين ، وكذلك أعجبنى بما ترجم عن الإنجليزية بأسلوبه السهل الممتع وما شفعه به من حواش تشرح ما عساه يغمض على القارئين ، وفيها تتجلى مواهبه وثقافته وسعة إطلاعه ، حيث نراه مناضلاً صلباً فى قضايا وطنه وخاصة حيال هذيان الصهيونية الذين ينسبون الأهرام إلى مخلوقات من قارة تسمى « أطلانتس » أو إلى اليهود .

وقد اجتهد واجتهدنا معه فى الرد عليهم ودحض مزاعم مخرجى السنيما ذوى الانتماءات الصهيونية الذين غالوا فى تصوير مظاهر السخرة والإذلال التى مارسها كما زعموا ملوك مصر القديمة فى سبيل تشييد عمائرهم ، وما كشفنا عنه من مقابر الذين عملوا فى بناء الأهرام جنوب شرقى أبو الهول فضلاً عن مواقع ثكناتهم تفصح بأنهم مصريون وأنهم كانوا يتمتعون ـ بفضل ما كشف عن هياكلهم العظيمة ـ بالرعاية الطبية مما قد ينزل بالعمال فى كل عصر ومكان من إصابات العمل وما يعالجون به من جبائر عند الكسر أو البتر الواعى إن لم يكن عن ذلك بد ، وقد امتد العمر بعامل بترت قدمه أربعة عشر عاماً ، كما أجريت عملية التربنة ، برأس عامل عاش بعدها عامين . وكان متوسط القامة شأن أغلب المصريين ما بين ١٧٥ سم ، ١٨٥ سم ، ومتوسط العمر بين الثلاثين والخامسة والثلاثين .

ويذكر لمختار السويفى ويشكر له مسارعته إلى إعداد ندوة فى حزب الوفد شهدها من المهتمين بحضارة مصر وأسهم فيها من نذكر منهم من الدكتور / جاب الله على جاب الله ، والاستاذين جمال بدوى وسعد عبد النور إلى جانب كاتب هذه السطور . كما لا ننكر جهد السيدة / هدى سراج الدين ، وما عملت عليه من إثارة الاهتمام الإعلامى واجتذاب الجماهير .

وها هو مختار السويفى مع إعجابى بمقالاته الأسبوعية فى صحيفة الوفد وعناوينها البراقة وموضوعاتها الوطنية الفياضة يبادرنى بل ويشرفنى بتقديمى الجزء الثانى من كتاب « أم الحضارات » .

وكنت قد صاحبت نسخة من جزئه الأول عند سفرى إلى الواحات البحرية للحفر فى موقع أثرى له منزلته فى تاريخ مصر ، وهناك أتيحت لى متعة قراءته بين أطلال ماضٍ يمتد من الأسرة الفرعونية التاسعة عشرة حتى العصر الإسلامى وإن بلغ الازدهار فى العصر الرومانى . فكنت أنفرد بالكتاب فى خيمة الحفائر فى فتراتٍ الراحة وفى هدأة الليل ، ومع إشراقة الصباح ، فكانت متعتى بكل جزء من الكتاب بالغة .

ولئن كنت قد قرأت جل موضوعاته من قبل فى صحيفة الوفد فلقد ازددت متعة

بالصورة التى قرأتها مجتمعة بين دفتى كتاب ، إذ تعرض للمرأة المصرية والطب المصري والجيش فى الدولتين القديمة والوسطى ثم دبجها بنماذج من الأدب المصرى القديم ، فأما دور المرأة فقد تصادف أن أوليته اهتمامى فى كتاب صدر لى بالإنجليزية شرفت بأن أهدته السيدة الفاضلة « سوزان مبارك » إلى رؤساء الوفود فى المؤتمر العالمى الماضى للمرأة والذى عقد فى « بكين » بعد أن كانت قد شرفتنى بالتقديم للكتاب ، وفى كتاب آخر بالعربية سوف يصدر قريباً بعنوان « سيدة العالم القديم » .

ولئن كان الأستاذ مختار السويفى قد تناول المرأة فى أكثر من جانب فلعلى أتحفظ هنا على ما تفتقد الدراسات عن المرأة المصرية القديمة بعامة من توازن ، وذلك لصدور تلك الدراسات عن نصف المجتمع وما عسى أن يتخللها من مفارقات تنحرف عن الواقعية والحكم العادل وتقدير أحاسيس المرأة حق قدرها ، كما لا ينبغى أن يغرب عنا ما آل إلينا من كتابات ونصوص .

ومن ثم فالباحث فى موضوع المرأة محاصر بين ما ورثنا عن الرجال من مصادر وبين ما تناولها من العلماء الأجانب من ترجمات وآراء ورؤى .

ومع ذلك فها هى المرأة المصرية القديمة تبرع فى الكثير ، وإن كنا على غير يقين إن كانت راضية سعيدة وهى تمثل بحجم أصغر إلى جوار الرجل تتطوق ساقه كما لم نعهد امرأة نسب إليها ما نسب إلى حكماء الرجال مثل « بتاح حتب » من قول ونصح ، ولذلك يحتل ما كتب المؤلف عنها منزلة جديرة بالتقدير لما بسط بعين المصرى من دورها الدينى والدنيوى .

ومهما يكن من شىء فقد تبين من الكشوف الحديثة ما كان عليه المجتمع المصرى من تناغم وتآلف ، فلم تكن زوجة الحجار أو زوجة الفنان تقل رقة وجمالاً عن نساء الطبقة العليا ، ومن ثم فلا محل من شكوى بعدئذ من قلة ما نعلم عن الطبقة الدنيا فى ذلك الزمان، ولم يكن ما بدا من صمت المصرية القديمة فيما كتب الأستاذ مختار السويفى دليلاً على خضوعها واستكانتها أو تواضع دورها كما ذهبت عالمة أجنبية فى علم المصريات ، فتوهمت ذلك من المناظر التى تصورها تتطوق ساق زوجها أو أبيها مع

غياب النصوص ، ومن ثم فلا مناص من تصدى المصريين لكتابة تاريخهم فهم أقدر ممن سواهم على فهم المجتمع المصرى والشخصية المصرية .

ومع ذلك فالحق نقول أن ما سجل من حقوق المصرية القديمة عند مقارنته بما يقابلها فى بلاد اليونان والرومان قد كشفت هناك عن وضع متدن للمرأة ومرتبة تقل كثيراً عن مراتب الرجال وإن عرفت تلك المجتمعات التقدم فى شئون أخرى ، وعلى هذا فلقد تمتعت المصرية كما أوضح الصديق مختار السويفى بما يساوى حقوق الرجل إذ ترث الأرض والمنزل مع كفالة حقها فى التصرف فيما تملك وإدارته كما كان حقها مكفولاً فى إقامة الدعوى فى المحاكم وذلك مع ما حفظ من نصوص وعقود ملكية ووصايا لها عند الوفاة .

على أن المرأة لم تكن فى مصر القديمة ملاكاً ، إذ أوضح المؤلف ما تورطت فيه من مؤامرات عرفناها من قرية العمال والفنانين فى دير المدينة عند جبانة البر الغربى من الأقصر وما كانوا يسجلون على الشقف واللخاف من شئون حياتهم اليومية كافة .

ولم يكن شاذاً ولا غريباً فى مجتمع دير المدينة هذا مثول النساء فى قاعات المحاكم إشهاراً لوصية أو طرفاً فى نزاع مدّعيات أو مدّعى عليهن . بل لقد بلغت امرأة فى الدولة القديمة منصب رئيس الأطباء وأخرى منصب الوزارة فى الأسرة السادسة .

وقد تعرض الصديق مختار السويفى لموضوع آخر مهم هو « الجيش فى مصر القديمة» وعندى أن سلطان مصر قد شمل تماماً سوريا وفلسطين منذ الأسرة الأولى ولم يقتصر على صلتها التجارية بهذه البلاد ليس غير . لذا عمد المصرى القديم عن طريق الجيش ـ ولم يكن يومئذ جيشاً بمفهومنا ـ إلى السيطرة على تلك الأقاليم . ولعل فى صلاية « نعرمر » ما يوحى بذلك لما بدا فيها من إشارة إلى فلسطين وسوريا ، وذلك فضلاً عن أن « ونى » من الأسرة السادسة سافر على رأس جيش إلى فلسطين لما احتمل من تسلل قوم غرباء إلى تلك البقاع .

وتشهد آثار العين وتدميرها على ذلك فضلاً عن تصوير المصريين فى مقبرتين بسقارة ودشاشة وهم يحاصرون ما يعبر عن دويلات محصنة بأسوار عالية ، لم تعهد يومئذ فى

غير سوريا وفلسطين . ولا شك سوف يمتعنا الأخ مختار السويفى فى الجزء الثالث من «أم الحضارات» عن الجيش فى الدولة الحديثة كما أمتعنا به فى الدولتين القديمة والوسطى، ولقد تفجرت فى نصوص المصريين أثر احتلال الهكسوس روح الحرب والكفاح واشتعال الوطنية وحب التضحية فى سبيل مصر ، وقد دخل الجيش الميدان يملأه روح الكفاح ضد المحتل الأجنبى ، وإذا به فى معاركه ضدهم يتلقى العون من كل مكان من أرض مصر .

وقد كان من المظاهر البارزة فى تلك الحرب ما كان للمرأة من دور خصيب أسهمت به فى التحرير ، وذلك بفضل ما جبلت عليه من شخصية قوية « تتى شيرى » جدة «كاموس» وكذلك « يعح حتب » زوجة « سقنن رع » وأم « كاموس » و « أحمس » ، وقد ورد عنها أنها استعرضت الجنود وقمعت الثورة. ولقد أقبل الشباب يومئذ على الجيش ينخرطون فيه ويندفعون فى معاركه فى حماس شديد، وتمكنت مصر من تكوين إمبراطورية امتدت من أعالى الفرات حتى الشلال الرابع فى الجنوب حيث تدفقت على مصر الجزى وعروض التجارة فنعمت بثراء ورخاء صار مضرب المثل فى أنحاء العالم القديم . وعمد ملوك الدولة الحديثة كلما أصابوا نجاحاً أو أحرزوا نصراً أفاضوا على إلههم « آمون رع » وعلى معبده فى الكرنك القرابين والهبات وأقاموا من المنشآت شكراً له واستزادة منه على ما وفقهم إليه وأيدهم فيه ، فكان أن حظيت بها لم تحظى به من قبل من اتساع العمران وتقدم الفن .

وكذلك بلغ الطب بما له من جذور عميقة فى أرض مصر منزلاً ذاع بين جيرانها من أقاليم آسيا ودولها حتى سعى ملوك الحيثيين إلى تلمس العلاج عند أطباء مصريين .

ثم يختتم الأستاذ السويفى كتابه بلمحات من الأدب المصرى ومنها قصة « الملاح الغريق »وقصة « سنوهى » وما تضمنت من حبه لوطنه مصر رغم ما نعم به فى سوريا من سلطان وثراء فهو يصر على أن يدفن حيث ولد فى مصر وترابها .

وبعـــد :

فإن قراءتنا لتاريخ مصر وحضارتها فرض وواجب مقدس علينا ، وكذلك فإن على

العلماء والمتخصصين أن يكتبوه ويمكنوا منه أطفالنا وكل مصرى . ولسوف يعلو بذلك الانتماء لهذا البلاد الأمين ، فنعد جيلاً قوياً مؤمناً يعمل جاهداً فى سبيل بلوغ مصر الحديثة أوج التقدم فى الألف الثالثة بعد الميلاد كما كانت منذ الألف الثالثة قبل الميلاد .

ويقينى أن الأستاذ مختار السويفى من القلة التى تسهم بجد وحب فى سبيل إعلاء تاريخ الأجداد وتقدمه صافياً سائغاً لكل طالب وباحث على أرض مصر وما وراء أرض مصر .

وإنى لأرجو - عزيزى القارىء - أن تتمتع بكل كلمة فى هذا الكتاب لتعرف عبقرية الأجداد وتصفق فى النهاية لما بذله من جهد عظيم ذلك الكاتب الصديق .

والله ولى التوفيق

د . زاهى حواس

الهرم : ٢٠ ابريل ١٩٩٩

أول من اعترفوا بأن للمرأة حقوقًا مقدسة

● كنت قد انتويت أن أقدم مجموعة من الدراسات عن علوم الطب والصيدلة التى مارسها الشعب المصرى فى حضارته القديمة العظيمة ، وهى العلوم التى سبقت بها مصر حضارات العالم القديم كلها . . ولكن استفزتنى الممارسات المتخلفة التى تقوم بها حركة « طالبان » ضد المرأة الأفغانية . . فالبرغم من اننا على أبواب القرن الحادى والعشرين بعد الميلاد ، ظهرت هذه الفئة من المتحكمين التى جعلت كل همها أن تغلق مدارس البنات ، وتلزم النساء بالبقاء بالبيوت ، ومنعهن من ممارسة أى عمل مهما صغر أو كبر ، وذلك استنادًا إلى ادعاء متخلف بأن هذا هو حكم الشريعة الاسلامية على المرأة ، علماً بأن الشريعة التى يتقولون بها أكثر كرمًا فى معاملة المرأة وأوسع أفقًا من تلك الآفاق المتخلفة الضيقة .

● ولذلك فسوف نخصص هذه المجموعة من الدراسات الخفيفة عن أول حضارة إنسانية وضعت المرأة فى موضع التكريم ، واعترفت بحقوقها فى الحياة الكريمة الحرة ، والمساواة مع الرجال مع مراعاة ما تفرضه الفروق والطبيعة الجنسية من حقوق وواجبات .

● من المعروف أن تاريخ مصر المكتوب بدأ ببداية عصر الأسرات حوالى عام ٣٢٠٠ ق م ، حين قام الملك مينا بتوحيد الوجهين البحرى والقبلى فى دولة واحدة .

● ولكن ليس معنى ذلك أن المصريين لم يكن لهم وجود ولا حضارة قبل هذا

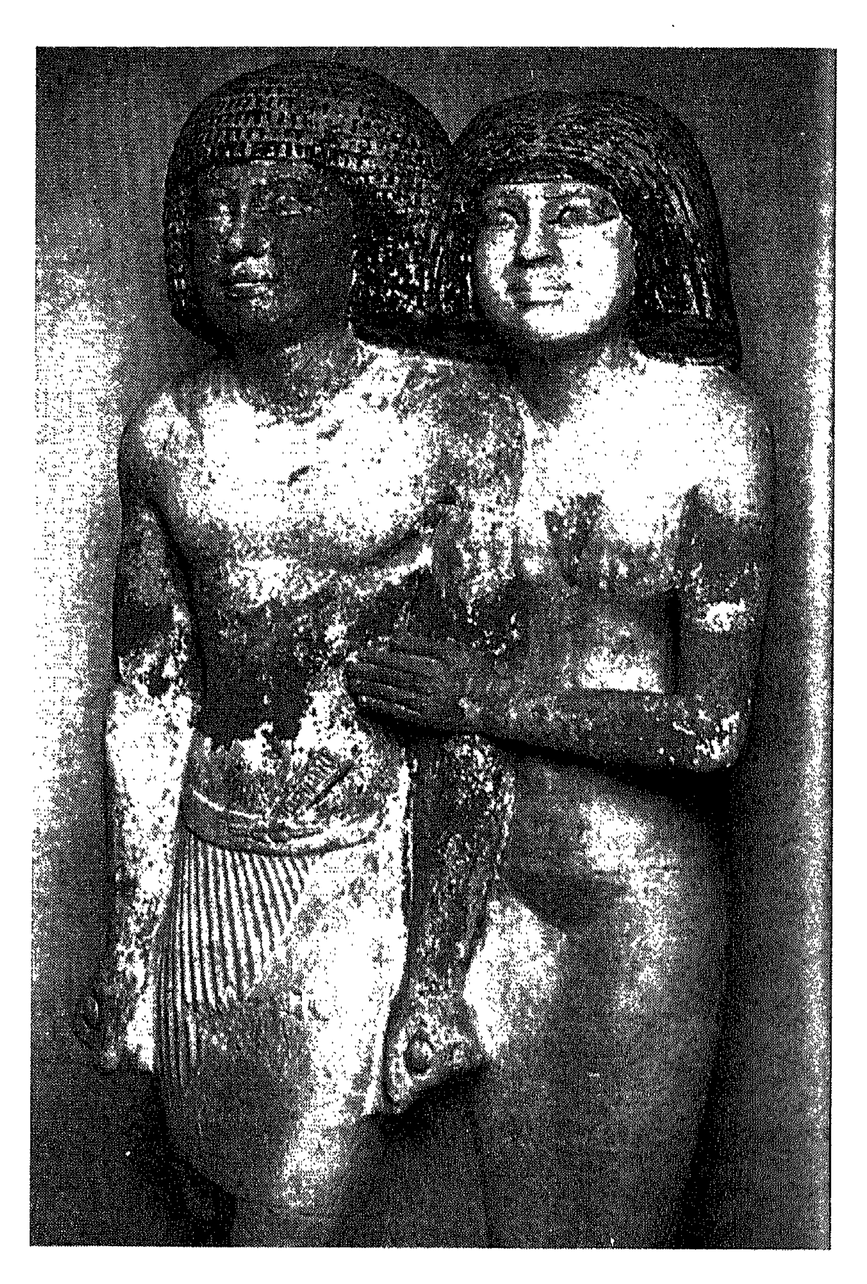
التاريخ ، فهناك مئات وآلاف من الشواهد الأثرية التى تؤكد لنا كيفية الحياة التى عاشها المصريون الأوائل الذين استوطنوا وادى النيل قبل عدة آلاف من السنين سابقة على بداية عصر الأسرات . وهى الفترة الطويلة التى أطلق عليها المؤرخون وعلماء الآثار مصطلح « عصور ما قبل التاريخ » .

● وفى تلك العصور السحيقة الغارقة فى القدم ، بدأت الإرهاصات الأولى التى انتهجها هؤلاء الأقدمون فى بناء حياة مستقرة على ضفاف النيل ، فتعلموا الزراعة [ويقول بعض المؤرخين أن الزراعة بدأت فى مصر منذ عشرين ألف سنة قبل الميلاد] . . كما تعلموا استئناس الحيوانات وتدجين وتربية الطيور . وأدت هذه الحياة المستقرة إلى نوع من التضافر الجماعى لمواجهة الأخطار الطبيعية التى كانت تهدد الجماعات البشرية التى تعيش على ضفاف النيل ، حيث كان الجميع يهبون فى كل موسم من مواسم الفيضان لبناء الجسور التى تؤمنهم من أخطار النهر حين يفيض . كما تضافروا أيضًا لبناء مساكنهم وقراهم فوق الروابى المرتفعة حسب طبيعة الأرض على الضفتين .

● هذه الحياة الجماعية التى كانت تستلزم التضافر الجماعى كانت بطبيعة الحال سبباً مباشرًا لظهور أفراد على قدر مناسب من التميز يجعلهم قادرين على قيادة وتوجيه هذا العمل الجماعى لتحقيق النتيجة المرجوة لصالح الجميع . وهكذا بدأت فكرة النظام والتنظيم .

● وكانت هذه الحياة المستقرة أيضا من الأسباب التى أدت إلى الحاجة إلى الاستقرار النفسى والاجتماعى ، والتحول من الحياة البدائية إلى حياة اجتماعية منظمة تحكمها قواعد وتقاليد ملزمة ولا يمكن الخروج عليها ، ومن هذه القواعد الاجتماعية ظهرت فكرة تكوين الأسرة بما تتطلبه من قواعد وأحكام لتنظيم العلاقة بين الرجل والمرأة .

● وكان المصريون القدماء أول شعب فى تاريخ الحضارة الانسانية يضع لنفسه مجموعة من القواعد المقدسة لتكوين الأسرة ، تقوم على أساس « الزواج » بما ينتج عنه من حقوق وواجبات متبادلة بين الرجل والمرأة ، وبمعنى آخر كانوا أول من جعل للمرأة حقوقًا لا تخلو من الإلزام والتقديس ، ومكانة اجتماعية محاطة بكل تقدير وكل احترام .



منذ أقدم العصور كانت فكرة الزواج وتكوين الأسرة رمزاً للمحبة والوفاء والاستقرار العائلى والاجتماعى فى مصر .

تقديس الأنوثة .. فى عصور ما قبل التاريخ

هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا على ضفاف النيل فى عصور ما قبل التاريخ ، أدركوا منذ البداية أن الحياة الاجتماعية لا يمكن أن تستقر إلا بتكوين «الأسرة» التى تتكون من رجل وامرأة يعيشان حياة متكاملة لتعمير الكون . ولم يكن هذا الهدف النبيل ليتحقق إلا باضفاء شرعية مقدسة على هذه العلاقة الخالدة البناءة المثمرة بين الرجل والمرأة .

● وأدرك هؤلاء المصريون الأوائل أيضا أن وظيفة المرأة فى تعمير الكون وظيفة مقدسة ، فلولاها ما ولد مولود ذكر ولا أنثى ، ولا استمرت الحياة فى التجدد والازدهار إلى أبد الآبدين ، ولا شعر الرجل بهذا الفيض النورانى الذى يعمر قلبه بالحب ، وهو أسمى علاقة بين البشر . وعلى هذا الأساس أحاطوا رمز المرأة بهالات مقدسة ورفعوا هذا الرمز إلى مراتب الآلهة .

● وقبل تنزيل الرسالات السماوية إلى الأرض بآلاف السنين ، أدرك هؤلاء القوم أن الكون عامر بآلهة متعددين يفرضون القدسية والتقديس على مناحى الحياة وظواهرها وخباياها ، وابتدعوا لوصف هؤلاء الآلهة ووظائفهم قصصاً وأساطير شتى ، توارثتها الأجيال جيلاً بعد جيل ، وتوجوا هذه الأساطير التى أصبحت دينًا وعقيدة بفكرة «التثليث» . . فجعلوا لكل إله زوجة إلهية وابناً إلهياً . وذلك تأكيداً لإيمانهم بأن الاستمرار والخلود يتطلب أسرة من ذكر وأنثى ، هما البذرة والتربة الخصبة ، ومنبت

الثمار والعمار . ومن هذا التصور الدينى البدائى للأسرة الإلهية ، استمد المجتمع المصرى فى عصور ما قبل التاريخ تقاليده ومعتقداته وأحكامه التى يجب أن تحكم الأسرة الانسانية .

● ولم تكن زوجات الآلهة مجرد وسائل للنسل والانجاب ، بل رفعتهن الأساطير إلى مرتبة الآلهة أنفسهم ، وجعلتهن إلهات ترمز كل واحدة منهن إلى شأن من شئون الحياة الدنيا أو الحياة بعد الموت .

● وتعطينا الأساطير الدينية المصرية القديمة صوراً شتى للوظائف التى تخصصت فيها الإلهات . . وعلى سبيل المثال نجد الإلهة « تاورت » ومعناها « العظيمة» تخصصت فى حماية الحبالى من نساء البشر ورعايتهن حتى مرحلة الولادة . . وتخصصت « حتحور» فى الرمز إلى الحب والجمال والموسيقى . . وتخصصت « سيشات » فى الرمز إلى الكتابة والتدوين وصوروها فى شكل امرأة جميلة ترتدى ثوباً من جلد النمر وتحمل فى يديها قلماً ومحبرة ولوحاً . . وجعلوا « ماعت » رمزاً للتوازن الكونى المتمثل فى العدل والصواب والصدق والحق والطهارة والنقاء . . أما « سخمت » ومعناها «القوية» فجعلوها رمزاً للحرب وحماية الصحارى وتصوروا فيها القوة القادرة على شفاء الأمراض ومهاجمة الأرواح الشريرة .

● أما كبرى الإلهات المصريات القديمات فهى الإلهة « إيزيس» زوجة أوزيريس وأم حورس ، فقد ذاعت شهرتها فى العالم القديم كله ، بل وامتدت شهرتها حتى عبدت وبنيت لها المعابد فى أنحاء الامبراطورية الرومانية القديمة ، وظلت عبادتها قائمة فى أصقاع شمال أوربا حتى العصور الوسطى . بل ومازالت بعض الجماعات فى أوربا وأمريكا تؤمن بها وتمارس عبادتها حتى الآن .

● وتعتبر أسطورة إيزيس مثلا أعلى للحياة الزوجية القائمة على الاخلاص والحب والوفاء والأمومة الحانية والحرص على تربية الوليد وتعليمه مبادىء التمسك بالحق والكفاح ضد الظلم والتغلب على قوى الشر لكى تستقيم الحياة .

● ومن الطريف أن الاسطورة تصور لنا هذه الإلهة مثل « ربة البيت » المسئولة عن

طحن الحبوب وعجن الدقيق وصنع الخبز ، لتكون مثلاً أعلى لربات البيوت من البشر. كما تحكى الاسطورة أيضا أن أوزيريس حين كان يحكم مصر كان يوكل إيزيس فى مسئولية ادارة شئون البلاد أثناء غيابه ، فكانت تسوس الأمور وتقيم العدل وتعطى الحقوق لأصحابها . ومن هنا وتطبيقا لهذه اللمحة الاسطورية ، تبوأت عرش مصر ملكات شديدات البأس ، حكمن البلاد مثل الملوك الرجال سواء بسواء .



أسطورة إيزيس وأوزيريس كانت مثلا أعلى للحياة الزوجية
فى مصر القديمة فى كل عصورها التاريخية

ورفعوهن إلى مراتب الملكات

كل العلماء الذين درسوا تاريخ الأمم القديمة ، يعترفون بالمكانة العالية التى وصلت إليها المرأة المصرية القديمة ، وهى مكانة رفيعة لم تصل إليها أية امرأة فى جميع المجتمعات الانسانية التى كانت تعاصر الحضارة المصرية منذ عصور ما قبل التاريخ وخلال عصر الأسرات بأكمله ، وهو عصر بدأ عام ٣٢٠٠ ق م واستمر نحو ثلاثين قرنا .

● وكما رفعت الأساطير المصرية معنوية المرأة إلى مصاف الآلهة ، وجعلت من بعضهن إلهات معبودات ، فقد سجل التاريخ المصرى كيف ارتفعت المرأة المصرية القديمة ـ على أرض الواقع ـ إلى مصاف الملوك والملكات ، بل وتدل جميع الشواهد التاريخية على أن وراثة عرش مصر وانتقال الملكية من ملك مات إلى ملك جديد ، كانت المرأة تلعب فيه دورا أساسياً حاسماً يقوم على ثبوت الحق الشرعى فى وراثة العرش. ولذلك فقد كانت المرأة « الملكة » هى التى تثبت هذا الحق الشرعى طبقا للدستور الذى اتبعه نظام الحكم الملكى فى كل حقبات التاريخ المصرى القديم ، باعتبارها الأم التى تنقل الجوهر المقدس إلى ابن الملك الذى سيرث العرش بعد وفاة أبيه .

● ويقول « مانيتون » المؤرخ المصرى القديم الذى ولد بقرية « سمنود » بالدلتا وعاش فى القرن الرابع قبل الميلاد معاصراً لبطلميوس الأول وبطلميوس الثانى : « إن ملوك مصر منذ عصر الأسرة الثانية أقروا الشرعية المطلقة لحق اعتلاء المرأة عرش البلاد

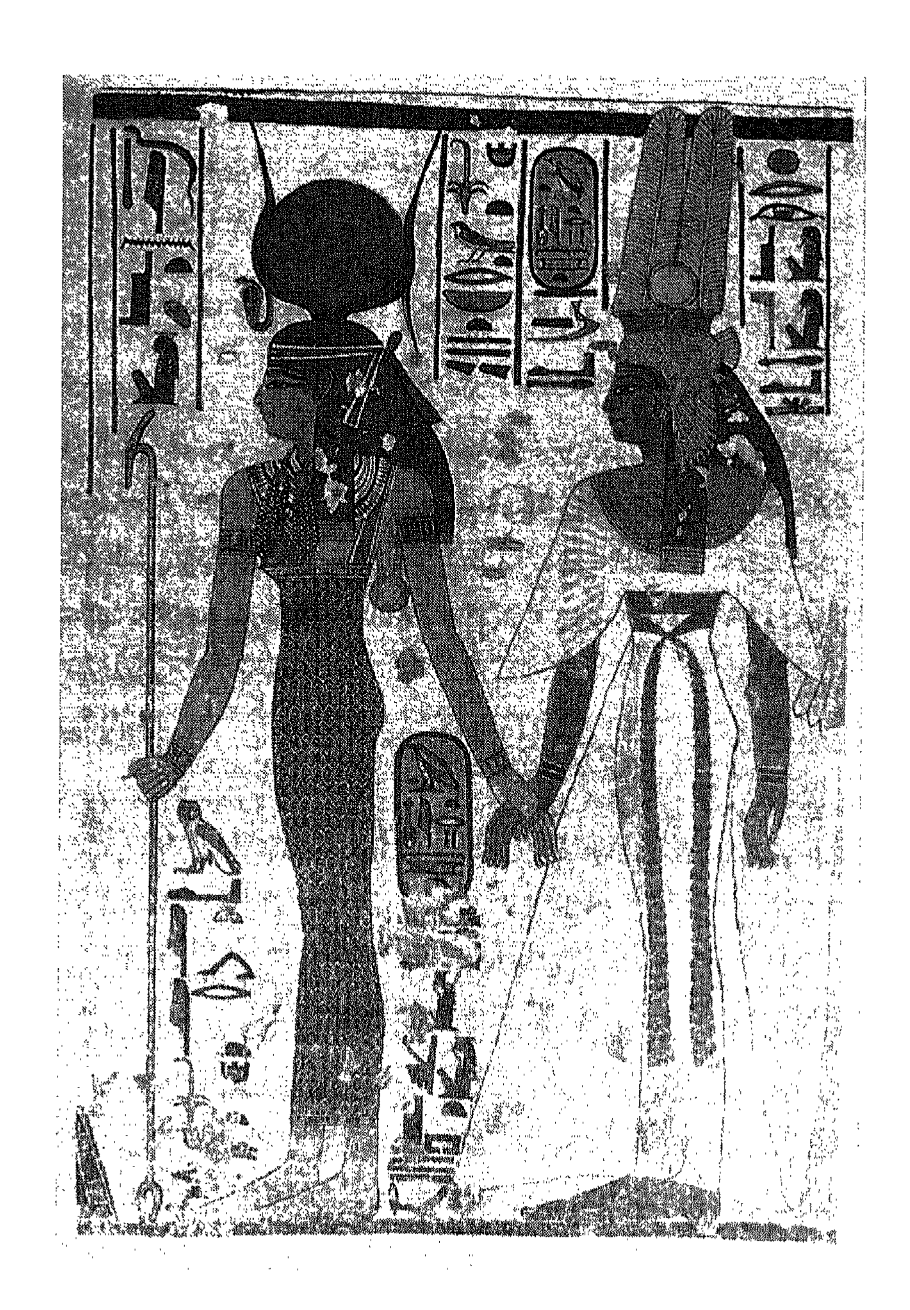
وحق قيادتها لنظام الحكم » . ومن المعروف أن هذا المؤرخ كتب تاريخ مصر القديم باللغة اليونانية ، وهو الذى قسم الأسرات الملكية التى حكمت مصر إلى ٣١ أسرة ، كما قسم حقب التاريخ المصرى القديم إلى ثلاث حقبات أو عصور رئيسية هى : عصر الدولة القديمة ، والدولة الوسطى ، والدولة الحديثة .

● كذلك يقول بعض المؤرخين القدماء الأجانب إن مصر القديمة كانت تطبق قانونا دستوريا ذا طابع سياسى يبيح للملكات حق الجلوس على عرش البلاد وممارسة شئون الحكم . ويعنى هذا القانون ببساطة أن المرأة « الملكة » باعتبارها الطريق الوحيد المؤكد لانتقال خط العرش واستمراره ، يجوز لها أن تجلس على العرش وتحكم البلاد كالملوك الرجال . وذلك بالرغم من أن هناك كثيرًا من الدلائل التاريخية تشير إلى أن حكم الملكات لم يكن له قبول حسن فى طبيعة نظام الحكم فى مصر القديمة .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن المرأة الملكة بلغت هذه المكانة الرفيعة منذ عصر الأسرة الأولى . وتظهر هذه المكانة واضحة جلية فى مقبرة الملكة « نيت حتب » [ومعنى اسمها « نيت راضية » و « نيت » هى إحدى إلهات الدلتا فى عصر ما قبل توحيد الوجهين البحرى والقبلى] . . وهى مقبرة ضخمة فخمة تقع فى منطقة « نقادة » بالصعيد ، وذات طراز معمارى يدل على مدى أهمية هذه الملكة ومركزها ومكانتها فى نظام الحكم بحيث استحقت أن تبنى لها مثل هذه المقبرة .

● وفى التاريخ المصرى القديم شواهد عديدة تدل على ممارسة المرأة الملكة حق الوصاية على العرش ، وذلك حين يموت الملك ويكون ابنه صاحب الحق الشرعى للخلافة على العرش مازال طفلا . . ففى هذه الحالة تتولى أمه الملكة أرملة الملك المتوفى شرعية الوصاية القانونية والدستورية على الملك الصغير حتى يبلغ الرشد وينفرد وحده بحكم البلاد . وفى أثناء تلك الوصاية ـ التى تكررت كثيرًا فى تاريخ مصر ـ ظهرت قدرات الملكات الأرامل فى السيطرة التامة على شئون البلاد وتسيير أمور الدولة من دينية وسياسية واقتصادية واجتماعية .

● وتدل الشواهد الأثرية من نقوش جدارية وتماثيل منحوتة من مختلف أنواع الأحجار على أن النساء كن يصورن فى صحبة أزواجهن من الملوك ـ أو من أبناء الشعب ـ وقد أحاطت بهن أسمى آيات التبجيل والاحترام .



الملكة « نفرتارى » تتلقى بركات إيزيس

[نقش ملون من مقبرة نفرتارى بغرب الأقصر]

ملكات شهيرات : « حتب حرس » أم الملك خوفو

فى الدور العلوى بالمتحف المصرى بالقاهرة ، وبالقرب من القاعات التى تشغلها آثار توت عنخ آمون ، يفغر الزوار أفواههم دهشة وإعجابًا بتلك التحف الأثرية ذات الكمال الفنى والذوق الرفيع التى عثر عليها بمقبرة الملكة « حتب حرس » التى اكتشفتها بعثة جامعة هارفارد برئاسة عالم الآثار « ريزنر » عام ١٩٢٥م بجوار الواجهة الشرقية للهرم الأكبر بالجيزة .

● والملكة « حتب حرس » هى ابنة الملك « حونى » آخر ملوك الأسرة الثالثة وصاحب هرم « ميدوم » . . وزوجة الملك « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة وصاحب هرمى دهشور . . وأم الملك « خوفو » صاحب الهرم الأكبر أحد عجائب الدنيا السبع . . أى أنها عاشت فى القرن السابع والعشرين قبل الميلاد .

● وقبل أن نستعرض مفردات الكنز الأثرى العظيم الذى عثر عليه بمقبرة هذه الملكة والذى يدل على المكانة الرفيعة التى كانت تشغلها ، لا بأس أن نشير إلى أن هذه المقبرة تمثل لغزاً غامضاً فى علم الآثار المصرية ، فقد تم العثور على محتويات المقبرة كاملة ، كما عثر على الأوانى « الكانوبية » التى تحتوى على أحشاء المومياء بعد تحنيطها ، ولكن المومياء نفسها لم تكن موجودة بالمقبرة ولا يعرف أحد ماذا كان مصيرها .

● ويفسر عالم الآثار « ريزنر » هذا اللغز بأن من المحتمل أن تكون الملكة « حتب حرس » قد دفنت أولاً فى مقبرة خاصة بجوار هرمى زوجها الملك « سنفرو » بدهشور ،

وربما تكون هذه المقبرة قد اقتحمت وتعرضت للسرقة بعد عملية الدفن بقليل ، وأن اللصوص القدامى قد فتحوا التابوت وأخرجوا مومياء الملكة للاستيلاء على ما كانت تتحلى به من حلى ومجوهرات على أن يستولوا على بقية محتويات المقبرة فيما بعد . . ولكن تم اكتشاف عملية الاقتحام والسرقة فى عهد ابنها الملك « خوفو » . ومن المحتمل أن رجال الدولة المختصين قد أبلغوه بعملية الاقتحام ولكنهم أخفوا عنه عملية الاستيلاء على المومياء إشفاقا عليه واتقاء لغضبه . لذلك فقد أصدر « خوفو » أوامره بإعادة دفن أمه فى المقبرة السرية التى تم العثور عليها بشرق هرمه .

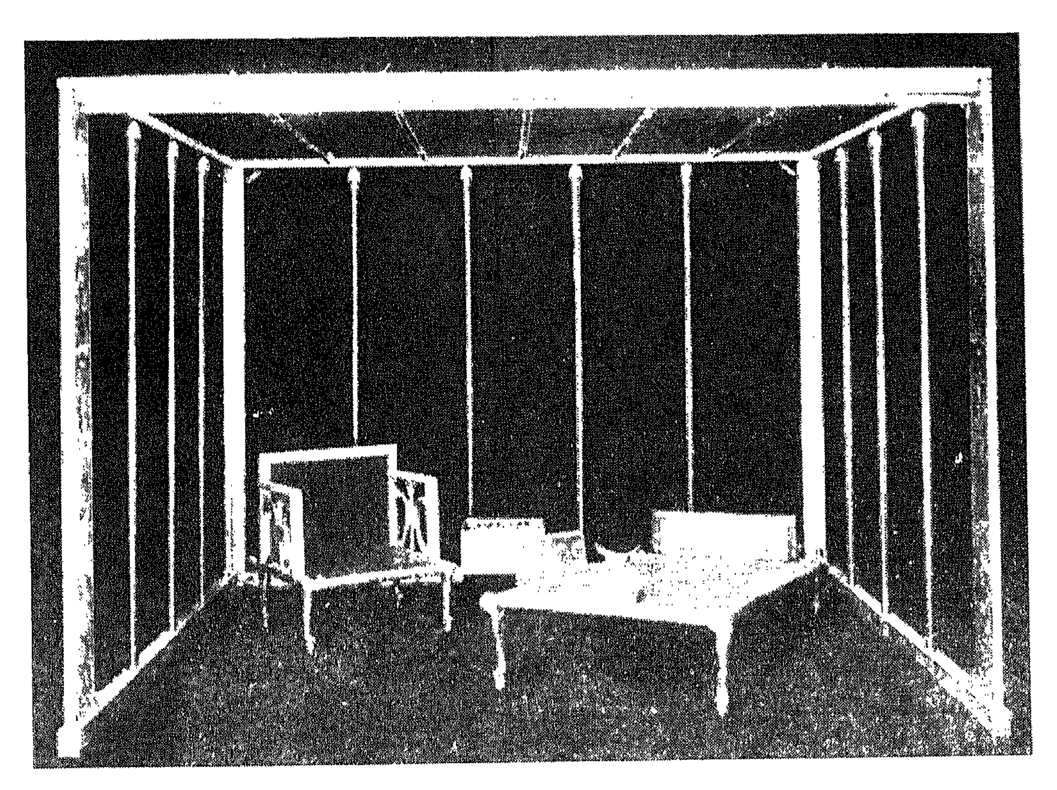
● وهذه المقبرة عبارة عن بئر عميقة يبلغ عمقها ٩٩ قدمًا [١٧و٣٠ مترا] وتنتهى بغرفة دفن كانت مكدسة بالأثاث الجنائزى الذى يتكون من تحف أثرية عالية المستوى رفيعة الذوق . وكانت البئر مردومة عن آخرها بالأحجار والركام ومغطاة تماماً بالرمال لزيادة التمويه ، ولم يكن هناك أى بناء سطحى فوقها يشير إلى وجود المقبرة . ولعل هذا التمويه كان السبب فى بقاء المقبرة سليمة منذ عهد خوفو حتى لحظة اكتشافها . ومعنى هذا أن الملك خوفو بكل ما كان يتمتع به من مكانة وسطوة إلا انه عاش مخدوعاً دون أن يدرى أن مومياء أمه لم تكن مدفونة فى تلك المقبرة السرية التى جهزها لها .

● والذى يلفت النظر ويثير دهشة المشاهد لآثار الملكة « حتب حرس » هو دقة الصناعة وفخامة الذوق فى تصميم مجموعة الأثاث الجنائزى وملحقاته ، بحيث يشعر المشاهد لأول وهلة بمدى الثراء والمستوى الرفيع للحياة التى عاشتها تلك الملكة . كما تعطينا هذه الكنوز مؤشراً لنتخيل ما كانت عليه الكنوز الثمينة التى دفنت فى مقابر وأهرام ملوك الدولة القديمة وعلى الأخص ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة .

● ومن أجمل القطع الأثرية التى عثر عليها كرسى المحفة الخاص بتلك الملكة وهو مصنوع من خشب الأبنوس الثمين ومزخرف بكتابات هيروجليفية مطعمة بالذهب والعاج . . وتدل هذه الكتابات المنقوشة على الجوانب الأربعة على اسم الملكة وألقابها . ومن ضمن هذه الألقاب لقب « مرشدة الحاكم » . ويفسر بعض المؤرخين وعلماء الآثار المصرية هذا اللقب ـ ومنهم العالمة الفرنسية « كريستيان نوبلكور » ـ بأن الملكة

«حتب حرس » كانت وصية على العرش الذى يجلس عليه ابنها « خوفو » الذى يحتمل انه ورث العرش قبل أن يبلغ الرشد .

● أما بقية الآثار المبهرة الأخرى فتتكون من السرير الذى كانت تنام عليه الملكة أثناء حياتها ، وهو مصنوع أيضا من خشب الأبنوس . . ومقاعد فخمة مطعمة بالذهب . . وأعمدة المظلة التى كانت تعلق عليها ستائر الناموسية . . وصندوق كبير دقيق الصنع كان يشتمل على بعض متعلقات الملكة وبعض الأدوات الخاصة بها ومنها قلادة صدرية من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة وأساور مزينة بزخارف على شكل أجنحة الفراش ومرصعة أيضا بالأحجار الكريمة . . ومجموعة من أدوات الزينة والتجميل كان من ضمنها شفرات أمواس مصنوعة من الذهب .



دقة الصناعة وفخامة الذوق الرفيع فى مجموعة الأثاث الجنائزى للملكة « حتب حرس »

[من معروضات المتحف المصرى بالقاهرة]

ملكات شهيرات : « إياح حتب » .. أم الملك أحمس

لم يسجل تاريخ العالم القديم كله دوراً لامرأة تميزت بالشجاعة الفائقة والحس الوطنى الصادق العظيم مثل الدور الرائع الذى قامت به هذه المرأة الملكة المصرية العظيمة « إياح حتب » . . زوجة الملك الشهيد « سقنن رع » . . وأم الملك « أحمس » أول أبطال التحرير فى تاريخ العالم .

● فى أواخر عصر الأسرة السابعة عشرة [حوالى عام ١٥٦٠ ق م] كانت مصر تعانى احتلالاً بغيضا من جانب قوم من الرعاة الأجلاف اسمهم الهكسوس . . كانوا يسيطرون على معظم مناطق الدلتا ومصر الوسطى . . وقد عاثوا فسادًا فى الأرض ، واستعبدوا المصريين ، واستوظفوا بعض الخونة كحكام على بعض أقاليم الصعيد ، يدينون لهم بالطاعة والولاء بالإضافة إلى دفع الجزية .

● فى هذه الظروف الوطنية القاسية ظهرت تلك المرأة المصرية العظيمة « إياح حتب» بجانب زوجها العظيم الملك « سقنن رع » . . وقد ورثت عن أمها الملكة « تيتى شرى » روح الدعوة إلى ضرورة النضال ضد المحتلين المسيطرين على مقدرات البلاد . . فقامت « إياح حتب » منذ البداية بدور سياسى بارع فى الدعوة إلى كراهية الهكسوس كراهية التحريم ، والمناداة رسمياً بإحياء و إذكاء المشاعر الوطنية فى نفوس أهل طيبة [موطن الأسرة السابعة عشرة آنذاك] وبث هذه المشاعر النبيلة فى نفوس شعب مصر فى الصعيد والوجه البحرى ، والعمل الواجب على كل مصرى بضرورة قيام حرب التحرير المقدسة ضد هؤلاء الهكسوس البغاة .

● وخرج زوجها الملك الشجاع « سقنن رع » على رأس الجيش الذى تم تكوينه وتجهيزه للحرب ، رافعاً راية الجهاد والنضال ضد المستعمرين ، بعد أن ترك لها مسئوليات الحكم أثناء غيابه لقيادة المعركة التى شنها ضد الهكسوس فى شرق الدلتا . ولكن المعركة لم تحقق النتيجة المرجوة ، وسقط الشجاع سقنن رع شهيداً على أرض المعركة فداء لمصر .

● وتلقت المرأة العظيمة هذه المصيبة بصبر جميل ، ولم تستسلم للشعور بالهزيمة والاحباط ، بل تأججت شخصيتها القوية بروح النضال الوطنى ، وواصلت سيطرتها باعتبارها وصية على العرش الذى ورثه ابنها الملك « كامس » ودفعته وهو لم يتجاوز سن الفتوة والشباب إلى مواصلة الحرب المقدسة ضد الغزاة حتى تتطهر أرض مصر كلها من دنس احتلال الغرباء . وقام « كامس » بعدة هجمات على الأقاليم التى يسيطر عليها الهكسوس وحاصر عاصمتهم ،ولكنه مات فى شبابه قبل أن تتحقق أمنية أمه الأرملة التى أصبحت ثكلى بموت ابنها فى عز الشباب .

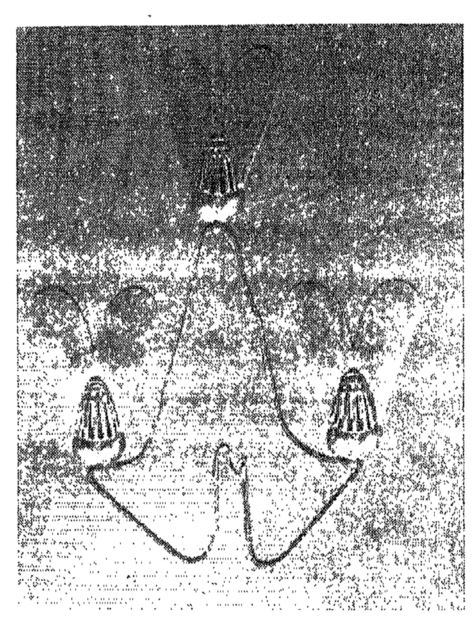
● وورث العرش ابنها الثانى الملك « أحمس » وكان فتى يافعاً لم يصل إلى سن الرشد، فواصلت مهمتها السياسية والوطنية باعتبارها وصية على العرش ، وأخذت تغذى ابنها بكراهية المستعمرين ، وأوصته بضرورة القضاء على الخونة من حكام الأقاليم وأمراء الاقطاع المصريين الذين يمالئون الهكسوس ويرتضون الخضوع لتحكم الأجانب ، وشجعته على إعادة بناء وتجهيز الجيش المصرى على أساس استراتيجى بجعله جيشاً وطنياً يشترك فيه كل القادرين على الحرب من أبناء الشعب المصرى .

● وهكذا خرج أحمس على رأس جيش عظيم انضمت إليه جيوش الأقاليم المصرية بجنوب الصعيد ومصر الوسطى وجنوب الدلتا ، حتى بلغ تعداد هذا الجيش حين وصل إلى « أواريس » عاصمة الهكسوس بشرق الدلتا نحو ٤٨٠ ألف محارب من الضباط والجنود الفرسان والمشاة . وكان هذا الجيش الكبير يشع حماساً ووطنية ويحارب بروح عسكرية عالية وتسيطر عليه فكرة تحقيق الهدف المقدس بالقضاء نهائياً على سيطرة الهكسوس وطرد فلولهم إلى خارج حدود البلاد .

● وتمكن جيش التحرير المصرى بقيادة أحمس من تحقيق الهدف الذى كانت تسعى إليه أمه العظيمة بتطهير أرض مصر كلها من دنس المستعمرين . بل وظل يطارد الأعداء الذين كانوا يفرون أمامه فى هلع حتى شمال سوريا .

● وبهذا النصر المؤزر العظيم أعيد توحيد جميع الأقاليم المصرية تحت حكم مركزى عاصمته « طيبة » . . كما وسع أحمس الحدود المصرية جنوباً وشمالاً ، واستحق بذلك أن يصبح مؤسساً لأسرة ملكية إمبراطورية جديدة ، هى الأسرة الثامنة عشرة ، كما استطاع أن يكون على رأس فترة تاريخية جديدة أصبحت معروفة فى التاريخ المصرى القديم باسم « الدولة الحديثة » .

● وتتويجا لهذا النصر منح أحمس أمه الملكة « اياح حتب » وسام الذبابة الذهبية ، وهو أعلى وسام عسكرى فى الدولة المصرية . وبذلك أصبحت المرأة الوحيدة فى تاريخ العالم القديم كله التى تحمل هذا الوسام العسكرى الذى كان هو وأمثاله من الأوسمة العسكرية العليا لا يمنح إلا لأعظم قادة الجيوش الحربية . وذلك اعترافاً بكفاح هذه المرأة المصرية العظيمة وقدرتها على إدارة شئون الدولة وفضلها فى بث روح الوطنية المصرية فى طول البلاد وعرضها .



وسام الذبابة الذهبية

ملكات شهيرات : الملكة « تى » .. أم أخناتون

لست أقصد بهذه الدراسات سرد تاريخ الملكات الشهيرات فى مصر القديمة ، وإنما أرمى إلى إبراز واستظهار الأدوار الحضارية العظيمة التى قامت بها المرأة المصرية منذ أقدم العصور ، تاركا للقارىء الكريم حق المقارنة بين تلك المكانة الرفيعة الرائعة التى ارتقت إليها المرأة المصرية منذ آلاف السنين ، وبين تلك الدعوة المتخلفة التى ينادى بها البعض ـ خارج مصر والحمد لله ـ ونحن على مشارف القرن الحادى والعشرين باغلاق مدارس البنات ومنع النساء من الخروج من البيوت واستبعاد المرأة عن ممارسة أى عمل من الأعمال العامة .

● ومن المعروف أن الملكة « تى » من بنات الشعب المصرى ، ولم تكن سليلة ملوك أو حتى منتمية إلى أسرة ملكية . . كان أبواها يعيشان فى مدينة « إخميم » [بمحافظة سوهاج حاليا] . . وأبوها ضابط بالجيش المصرى حصل على رتبة « قائد العجلات الحربية » ـ أى قائد سلاح الفرسان ـ وكانت أمها كاهنة فى معبد الإله « مين » . ومعنى هذا انها نشأت فى أسرة على قدر من العلم والثقافة والمستوى الاجتماعى .

● كانت « تى » على قدر كبير جدا من الجمال الساحر الوقور ، فاختارها الملك «امنحوتب الثالث » [من ملوك الأسرة الثامنة عشرة] زوجة له ، معارضا بذلك التقاليد الملكية المتبعة والتى تقضى بضرورة زواج الملوك من سليلات الملوك . . وكانت مصر فى عهده إمبراطورية واسعة الأرجاء تمتد شمالاً من بلاد النهرين (العراق) وسوريا ولبنان والأردن وفلسطين واسرائيل ، وتمتد غرباً إلى داخل الحدود الليبية ، وتمتد جنوباً إلى

شمال السودان . . وبلغت مصر فى ذلك العهد مبلغاً لم تشهده أى دولة من دول العالم القديم كله من ناحية الثراء والغنى والنفوذ السياسى والثقافى . ويقول بعض المؤرخين وعلماء الحضارة إن الإمبراطورية المصرية كانت فى حقيقة الأمر وحدة أفريقية آسيوية بزعامة مصر .

● وبالرغم من أن زوجها ـ كما هو معروف فى التاريخ ـ كان مولعاً بحب التمتع بمناعم الحياة ولذائذها ، بل لقد بلغ عدد السرارى والجوارى والمحظيات فى حريمه الملكى عدة مئات كان يجلبهن « بالجملة » من مختلف المناطق الآسيوية والأفريقية التابعة للسيادة المصرية ، ومع ذلك فقد كان « امنحوتب الثالث » يقدر ما كانت تتمتع به الملكة « تى » من ذكاء وفطنة ورجاحة عقل وقوة شخصية . ولذلك فقد حرص على أن يشركها معه فى الحكم وممارسة كل أعماله الرسمية المتعلقة بالسياستين الداخلية والخارجية .

● ويتصدر قاعة العرض الرئيسية بالمتحف المصرى بالقاهرة تمثالان ضخمان للملك امنحوتب الثالث والملكة تى بحجمين متماثلين ، وهو وضع لم تصل إليه قبلها أية ملكة من ملكات مصر الأخريات ممن نحتت لهن تماثيل أو صورن فى النقوش الجدارية بجوار أزواجهن الملوك الذين حكموا مصر قبل عصر الأسرة الثامنة عشرة .

● وتدل الشواهد الأثرية من رسائل رسمية حررت بداخل مصر أو وردت إليها من البلاد الأجنبية على المكانة السياسية الرفيعة التى كانت تشغلها الملكة « تى » سواء فى عهد زوجها أو فى عهد ابنها أخناتون الذى تولى الحكم بعد وفاة أبيه . كما أن هناك شواهد أثرية أخرى تدل على أن كبار رجال الدولة والحكم فى مصر كانوا يستشيرونها فى الشئون المتعلقة بالسياسة الداخلية والسياسة الخارجية .

● ونتيجة لانهماك زوجها فى ملذاته فقد انهارت حالته الصحية فى أواخر سنوات حكمه ، فاحتفظ بالسلطة الإسمية بينما تولت هى ممارسة شئون الحكم على أساس من العدالة والمساواة وتحقيق ما يمكن أن نسميه باقتصاد الرفاهية ، وحق أبناء الشعب فى التعليم ، فازداد عدد المدارس التى كان المصريون القدماء يطلقون عليها اسم « بيوت

الحياة » . كما حرصت على توفر سبل التعليم العالى للنابهين من طلاب المدارس الأولية والمتوسطة الذين يتميزون بالنبوغ والمواهب الظاهرة فى الاقبال على العلم فى أعلى مستوياته .

● ويذكر التاريخ أيضا ذلك الدور السياسى والحضارى الرائع الذى لعبته ابنة الشعب الملكة « تى » أثناء حكم ابنها أخناتون الذى تولى العرش وعمره اثنتى عشرة سنة ، فأصبحت وصية عليه حتى بلغ الرشد . وكانت من أهم المحفزات التى دفعته إلى إعلان ديانة التوحيد والدعوة إلى نبذ فكرة تعدد الآلهة ، والدعوة إلى عبادة الإله « آتون » الواحد الأحد خالق كل شىء ولا شريك له . وهى الدعوة التى يعتبرها كثير من المؤرخين أول ثورة حضارية فى تاريخ الانسان فى مجال الدين والفن .



رأس تمثال للملكة « تى »

ملكات شهيرات : حتشبسوت .. درة النساء الشريفات

تعرفنا حتى الآن على ملكات من نساء مصر كان لهن دور فعال فى علو شأن أبنائهن من الملوك الذين رفعوا شأن عرش البلاد . . تعرفنا على أم خوفو . . وأم أحمس . . وأم أخناتون . وفى هذه الدراسة ستتعرف على امرأة مصرة عظيمة تولت حكم مصر لفترة تجاوزت عشرين سنة وتسعة شهور من القرن الخامس عشر قبل الميلاد . . وهى الملكة حتشبسوت .

● حتشبسوت كلمة باللغة المصرية القديمة معناها « درة النساء الشريفات » . ويصفها نص هيروجليفى أمرت بنقشه على جدران معبد الدير البحرى يقول : « عندما أصبحت الطفلة حتشبسوت شابة ، كانت جميلة جمالاً مبهراً ورائعا ، وكان النظر إليها أمتع بكثير من النظر إلى أى كائن أو أى شىء آخر فى الدنيا كلها » .

● وإلى جانب هذا القدر من الحسن والجمال الذى وُصِفَت به والذى تدل عليه أيضا تماثيلها الرائعة ، كانت حتشبسوت تتميز بشخصية متحكمة قوية ، وبعقل ناضج قادر على اتخاذ القرار الصحيح ، وبروح طيبة مسالمة تبنت الدعوة إلى نشر الحضارة المصرية بعلاقات قائمة على الود والمحبة بين مصر وجيرانها . وهذه الصفات كلها جعلتها تستحق المكانة السياسية الرفيعة التى تبوأتها فى التاريخ المصرى ، كما جعلتها مقبولة من الشعب ومن كبار رجال الدولة كملكة حاكمة تجلس على عرش مخصص فى الأصل للملوك الرجال . وفى زمن كانت التقاليد فيه لا تستحسن أن تجلس على هذا العرش امرأة تحكم مصر والمصريين .

● ودون أن نخوض فى البحوث التاريخية التى دارت حول كيفية جلوسها على العرش وانفرادها بحكم مصر ، نشير إلى أن البلاد فى بداية عهدها كانت تتنازعها فئتان حزبيتان : حزب منهما كان يتكون من رجال المؤسسة العسكرية المصرية الذين كانوا يرون ضرورة السيطرة على التجارة الخارجية العالمية عن طريق قوى الجيش والأسطول والنفوذ السياسى المصرى على دول ومناطق العالم القديم . . والحزب الثانى كان من المثقفين ورجال الدين وكبار الموظفين الاداريين ، وهؤلاء كانوا ينشدون سياسة السلام مع الدول والشعوب المجاورة والتى تقوم على أساس التجارة الحرة . وهى السياسة التى تتيح لهم القيام باصلاحات داخلية آمنة وتوفير الرخاء دون سفك الدماء .

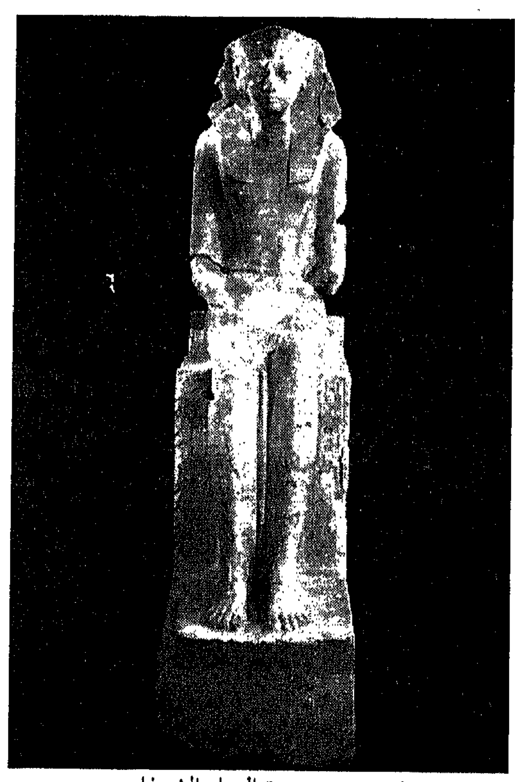
● ناصرت حتشبسوت منذ البداية سياسة السلام . وهناك نص مكتوب على أحد جدران معبد الدير البحرى تقول فيه : « يعلم الإله اننى سوف أحكم الأرضين [مصر] . . وليس لى أعداء فى أى أرض أخرى » . ووُصِفَت فى أيامها بأنها لم تكن طاغية ولا ظالمة بل كانت تعطى كل ذى حق حقه . وبعد أن ساد السلام ربوع البلاد خرجت القوافل البرية والأساطيل البحرية التجارية المصرية ، تحمل المنتجات والمصنوعات المصرية التى تحمل سمات حضارتها إلى البلاد الأجنبية فى أقصى الشمال وأقصى الجنوب، لتبادلها بما تحتاجه مصر من خامات ومنتجات تلك البلاد .

● وفى عهدها تم تشييد واحد من أعظم وأفخم الآثار المعمارية التى خلفتها الدولة الحديثة. وهو معبد الدير البحرى الذى أقيم فى حضن الجبل على الشاطىء الغربى للنيل فى مواجهة طيبة « الأقصر » . وهو معبد فريد فى بابه وليس له مثيل فى معابد مصر ولا معابد العالم القديم كلها . وقد وضع هندسته وتصميمه وأشرف على الأعمال المعمارية التنفيذية لبنائه مهندس مصرى شاب تميز بالعبقرية الهندسية والقدرة الفائقة على ادارة الأعمال ، واسمه « سننموت » .

● وعلى جدران هذا المعبد العظيم الذى مازال محل إعجاب كل من يزوره ويشاهده ويرتاد أبهاءه حتى الآن ، دونت الملكة حتشبسوت تقريراً تفصيليا مدعماً بالصور الوصفية لبعثتها البحرية الشهيرة التى أبحرت فيها سفن الأسطول التجارى المصرى إلى

بلاد بونت [يقال انها الصومال أو بلاد اليمن أو هما معاً] . . وكانت البعثة مجهزة بمجموعة من الفنانين الرسامين الذين قاموا بدور الصحفيين الذين كتبوا أدق «ريبورتاج » علمى مصور فى وصف بلاد بونت من الناحية الطبيعية والبيئية ، وجغرافيتها البشرية ، وتقاليد وعادات أهاليها ، بالاضافة إلى دراسة علمية ممتعة عن مختلف أنواع الأسماك والأحياء المائية فى البحر الأحمر .

● وتضمن التقرير أيضا إحصاءً تفصيلياً عن أنواع « الواردات » التى عادت بها السفن المصرية مثل : العاج والأبنوس وجلود الفهود وسبائك الذهب والفضة وأحمال من البخور والعطور والتوابل والقرفة والأعشاب الطبية وشتلات أشجار البخور التى نقلت بجذورها ، وكذلك « التوتيا » المستعملة فى صناعة كحل العيون ، فضلا عن مجموعة كبيرة من الحيوانات الحية تشمل الزراف والكلاب والنسانيس . وذلك كله بالإضافة إلى نقوش تصور براعة المصريين القدماء فى أعمال النقل البحرى والنقل النهرى للبضائع الثقيلة وأعمال الشحن والتفريغ .



حتشبسوت . . درة النساء الشريفات .

ملكات شهيرات : نفرتيتى

.. شريكة اخناتون فى فلسفة التوحيد

فى عام ١٩٩١م تَرجمتُ كتاباً يعتبر من أهم المراجع الحديثة فى « علم المصريات » . وهو كتاب عنوانه « نفرتيتى . . الجميلة التى حكمت مصر فى ظلْ ديانة التوحيد » من تأليف العالمة البريطانية « جوليا سامسون » التى استغرقت نحو خمسين عاماً من عمرها فى دراسة الآثار المصرية الخاصة بما يسمى فى التاريخ المصرى القديم « بعصر العمارنة » نسبة إلى بلدة « تل العمارنة » بمحافظة المنيا حالياً .

● ومن أهم الاستنتاجات العلمية التى انتهى إليها هذا الكتاب ، استناداً إلى مجموعة من الشواهد الأثرية النادرة التى عثر عليها فى مناطق الكرنك بالأقصر ، وبقايا منشآت ومعابد مدينة هرموبوليس القديمة [الأشمونين حالياً بمحافظة المنيا] ، وبقايا آثار مدينة « آخت آتون » التى هدمت وأزيلت فى العصور القديمة بعد أن سويت بالأرض ، والتى أصبح اسمها الآن « تل العمارنة » . . وتدل هذه الشواهد الأثرية ، بعد دراستها وفحصها علمياً وتاريخيا ، على أن الملكة « نفرتيتى » قد جلست على عرش مصر وحكمت البلاد بعد وفاة زوجها « أخناتون » وأثناء وصايتها على عرش الملك «توت عنخ آمون » الذى تولى الملك صغيراً لم يبلغ الرشد .

● واسم « نفرتيتى » كان ينطق فى اللغة المصرية القديمة « نفرت إيتى » ومعناه «الجميلة آتية » أو « الجميلة قادمة » . وكان من ضمن ألقابها الملكية لقب « نفر نفرو آتون » ومعناه « الجميلة جمال آتون » . فالجمال إذن كان قاسماً مشتركا بين اسمها وألقابها والصفات والنعوت التى وصفت بها . . وبالفعل تدل جميع النقوش التى رسمت لها

وصورتها فى مختلف الأوضاع والمواقف ، كما تدل تماثيلها الرائعة الكاملة وغير الكاملة ، على انها ذات جمال آسر ساحر أخاذ ، يشع نوره من عينيها وجبهتها ووجنتيها وشفتيها ورقبتها الطويلة الرائعة .

● ومن الأوصاف المكتوبة التى أطلقها عليها زوجها اخناتون : « أنها مليحة المحيا ، مبهجة بتاجها ، تلك التى إذا أصغى الإنسان إلى صوتها طرب ، سيدة الرشاقة ، ذات الحب العظيم ، الجديرة بالمرح ، ذات الحسن ، حلوة الحب ، جميلة الوجه ، زائدة الجمال ، التى يحبها الملك ، سيدة السعادة ، وسيدة جميع النساء . . نفرتيتى . . الجميلة جمال آتون » .

● عاشت نفرتيتى فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد ، زوجة للملك أخناتون المعروف بأنه أول ملك فى تاريخ العالم القديم كله أعلن أن الله واحد لا شريك له خالق كل شيء وكل كائن يدب فى الأرض . وقد تسببت هذه الدعوة إلى ديانة « التوحيد » فى إحداث تغييرات جذرية فى كافة المفاهيم السياسية والدينية والاجتماعية والاقتصادية والفنية والثقافية . . ليس على مستوى مصر وحدها ، بل وتأثرت بها جيران مصر فى الدول والبلدان المجاورة . ويصف بعض المؤرخين هذا العصر بأنه « ثورة دينية » بينما يصفه مؤرخون آخرون بأنه « ثورة فى عالم الفن والثقافة » .

● وتدل جميع النقوش التى صورتها مع زوجها وبناتها الأميرات الست على مدى الحب الأسرى والروابط العائلية الطيبة التى كانت تحكم العلاقات داخل هذه الأسرة الملكية . . فجميع النقوش تصورها بحجم مماثل لحجم زوجها ، وجميع النصوص المكتوبة والمصورة تؤكد انها كانت تشترك مع زوجها اشتراكا فعليا فى أداء جميع أعمال الحكم فى الدولة ، من استقبال الوفود الأجنبية ، والتفتيش على سفن الأسطول ، واحتفالات المراسم الملكية بتوزيع الهدايا والنياشين على كبار رجال الدولة .

● ويتميز ذلك العصر أيضا بانطلاق حرية الفنانين فى التعبير ، حيث رسموا صوراً غير مسبوقة ولا ملحوقة فى تاريخ الفن المصرى القديم ، تصور الملك وهو يقبل زوجته قبلة حارة أثناء ركوبهما عربة يتجولان بها فى أرجاء مدينة « آخت آتون » التى

اتخذها الملك عاصمة جديدة لمصر ، وهو منظر غير معتاد فى الفن المصرى القديم ، لم يرسم لأى ملك جلس على عرش مصر قبل أخناتون أو بعده . . بالاضافة إلى نقوش أخرى تصور أخناتون ونفرتيتى وبناتها أثناء ممارسة الحياة البيتية العادية ، وبدون اتباع قواعد البروتوكول الملكى التى كان يلتزم بها الفنانون التزاما صارماً عند رسم وتصوير أعضاء الأسر الملكية .

● ومن أحدث النظريات التى قال بها بعض المؤرخين وعلماء الآثار المحدثين والتى أثبتتها العالمة البريطانية « جوليا سامسون » بصفة قاطعة ، نظرية تؤكد ان نفرتيتى حكمت مصر خلفا لزوجها اخناتون بعد موته ، ووصية على عرش الملك الصغير «توت عنخ آمون » الذى تولى الملك بعده .



المرأة المصرية القديمة
حوّلت مصر من العصر الحجرى إلى عصر المعادن

انقرضت الآن عادة شعبية مصرية تتعلق بطب العيون . . فقد كانت أمهاتنا وجداتنا تحرصن على وضع « الششم » فى عيوننا ونحن أطفال صغار ، مرة كل شهر ، سواء أكانت العيون مريضة أو تعمص ، أم كانت سليمة وقوية دون مرض أو عماص . . وذلك على أساس أن « الششم » بالإضافة إلى كونه علاجاً للعيون ، فهو يقوى النظر ويجعل العيون صافية رائقة .

● وتقول المعاجم والقواميس العربية إن « الششم » هو ما يوضع فى العين للاستشفاء به . وإن اسم « ششم » معرب عن كلمة « جشم » الفارسية ومعناها «العين» .

● ومن الثابت تاريخيا وأثرياً أن قدماء المصريين هم أول شعب فى العالم اهتم بطب العيون وزينتها . . وذلك منذ عصور ما قبل التاريخ وما قبل عصر الأسرات ، حيث كانوا يستخدمون مادة « الملاخيت » وهى مسحوق « كربونات النحاس القاعدية» لتزيين العين بنفس الطريقة التى يستعمل بها « الكحل » فى أيامنا هذه .

● وقد لاحظت أن هذه المادة الكيميائية كانت تسمى فى اللغة المصرية القديمة باسم « شسمت » . ولهذا أرجح أن كلمة « ششم » ذات أصل مصرى قديم وانتقلت إلى الفرس ، ومنهم انتقلت إلى اللغة العربية .

● ويقول بعض علماء المصريات إن المرأة المصرية القديمة كانت السبب التاريخى فى

انتقال الحضارة المصرية من « العصر الحجرى » إلى « عصر المعادن » الذى يسمى علمياً « العصر الخالكوليثى » أو عصر بداية استخدام النحاس فى صناعة الأدوات التى كانت تصنع من قبل من حجر الظران أو الصوان .

● ويفسر هؤلاء العلماء هذا الدور العظيم الذى قامت به المرأة المصرية القديمة فى اكتشاف معدن النحاس بنظريتين متقاربتين . . تقوم النظرية الأولى على أساس افتراض محتمل إلى حد كبير . . فمن الفروض المعروفة منذ القدم أن المرأة كانت تتولى مسئولية إعداد الطعام للأسرة ، ولذلك فقد كانت تتولى أمر إشعال النار وتشغيل المواقد اللازمة لطهى الطعام أو لصنع الخبز .

● وتقول النظرية الأولى إن من المحتمل ان امرأة مصرية مجهولة كانت تقوم بعمل عجينة الكحل من مادة « شسمت » أى [مادة الملاخيت المكونة من كربونات النحاس القاعدية كما ذكرنا من قبل] . . وكانت هذه المرأة بجانب الموقد الذى أشعلت ناره لانضاج الطعام . . وحدث أن سقطت هذه العجينة فى نار الموقد بطريقة عفوية أو لأى سبب من الأسباب . وبطبيعة الحال فلم تستطع تلك المرأة أن تمد يدها فى النار لتنقذ عجينتها الغالية . . ولابد انها تحسرت وهى ترى العجينة وقد آلت إلى مصير الاحتراق .

● وبعد أن تم نضج الطعام وخمدت نار الموقد ، لاحظت المرأة أن عجينة الكحل التى فقدتها قد تحولت إلى معدن براق هو « معدن النحاس » . . فقد أدت النار إلى صهر العجينة التى كانت تتكون فى صورتها الخام من « كربونات النحاس القاعدية » . ونتيجة لعملية الصهر تبخرت بعض مكونات هذه المادة ، وبقى معدن النحاس فى صورته الخام المعروفة فى نهاية الأمر .

● وكان هذا الاكتشاف الرائع الذى تم صدفة ، وسيلة انتقال المصريين القدماء من « العصر الحجرى » إلى « عصر المعادن » . وهى نقلة حضارية عظمى كان للمرأة المصرية القديمة فيها الفضل الأول .

● هكذا تقول النظرية الأولى ، أما النظرية الثانية فلها تفسير آخر لدور المرأة

المصرية القديمة فى هذا الاكتشاف . يقولون إن هذا الاكتشاف قد تم غالباً فى شبه جزيرة سيناء أو فى بعض مناطق الصحراء الشرقية ، فقد ثبت بصفة قاطعة أن المصريين منذ أقدم العصور كانوا يرسلون بعثات أو حملات تعدينية للحصول على «التركواز » أو الفيروز من سيناء ، وللحصول على الذهب من الصحراء الشرقية .

● وبالنظر إلى طبيعة هذه العمليات التعدينية ، فقد كانت هذه البعثات تبقى فى تلك المناطق لمدد طويلة . لذلك فقد كان العمال ـ وكذا الجنود الذين كانوا يحرسونهم ـ يصطحبون معهم زوجاتهم اللاتى كن يتولين عمليات إعداد الطعام والأعمال البيتية وغير ذلك من الأعمال المعاونة الأخرى لكى يتفرغ الرجال لعملية التعدين وجمع الفيروز أو تبر الذهب .

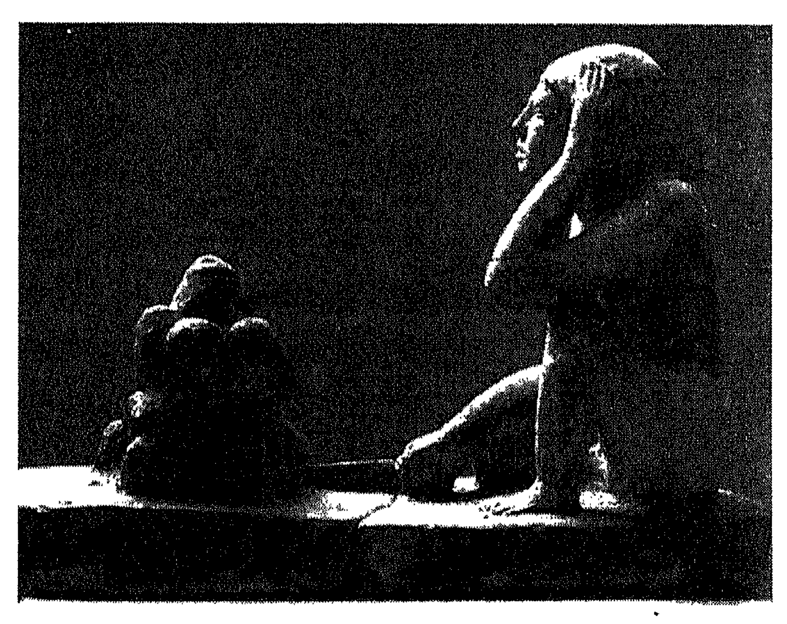
● وتدل الشواهد الأثرية على أن المواقد البدائية التى كانت تستخدم فى طهى الطعام ، كانت عبارة عن حفرة فى سطح الأرض ، أو مساحة صغيرة مجهزة ، توضع فيها قطع الأخشاب أو فروع الأشجار الجافة التى كانت تستخدم كوقود قبل اكتشاف كيفية صنع واعداد الفحم النباتى . . وبعد اشعال النار فى هذا الوقود ، كانت توضع فوق النار القدور الفخارية البدائية التى يطهى فيها الطعام .

● ومن المعروف علمياً أن المكونات الأولية لمعدن النحاس فى شبه جزيرة سيناء كانت توجد على شكل رواسب فى الطبقات السطحية من الأرض ومن المحتمل فى مثل هذه الحالة ، أن بعض النساء المصريات حين كن يعددن المواقد فى أرض تختلط فيها هذه المكونات الأولية لمعدن النحاس بالحصى أو التراب أو الرمال ، لاحظن ذلك البريق المعدنى الأصفر . يلمع وسط رماد النار بعد خمودها . وبذلك بدأت عمليات اكتشاف المناطق التى توجد بها مكونات النحاس ، سواء فى سيناء أو فى الصحراء الشرقية .

● وبالرغم من اختلاف وجهات النظر فى التفسير الذى قالت به هذه النظرية والتفسير الذى قالت به النظرية الأخرى التى تفترض أن اكتشاف معدن النحاس كان نتيجة لسقوط عجينة الكحل المكونة من مادة الملاخيت أو « شسمت » حسب التسمية

المصرية القديمة فى نار الموقد وانصهارها ، فإن كلاً من هاتين النظريتين لا تغفل ذلك الدور الحضارى العظيم الذى قامت به المرأة المصرية فى اكتشاف معدن النحاس ، وذلك قبل أن يبزغ فجر التاريخ ، بل وقبل أن يوحد الملك مينا الوجهين البحرى والقبلى فى مملكة واحدة هى أقدم دولة وحكومة انشأها الانسان المتحضر على كوكب الأرض .

● ومن معدن النحاس استطاع المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ أن يصنعوا الأدوات الزراعية المستخدمة فى الحرث والحصاد بعد أن كانوا يصنعون تلك الأدوات من حجر الصوان ، كما استطاعوا أن يصنعوا منه أيضا الأدوات الصناعية كالمثاقب والمطارق والأزاميل والمناشير والمسامير . . بل واستطاعوا أيضا أن يطوعوا هذا المعدن لصناعة الحلى ، فصنعوا منه خرزاً مثقوباً استعملوه فى عمل وتشكيل العقود والأساور والخلاخيل والأقراط . . بل وتوصلوا إلى طريقة صب هذا المعدن وطرقه حتى تمكنوا من عمل تماثيل صغيرة أو بالحجم الطبيعى لبعض الملوك والأفراد .



تمثال من الحجر الجيرى الملون لامرأة تشعل النار أمام موقد . .
{ من معروضات متحف الفنون الجميلة فى بوسطن } .

حق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة

فى نصوص الصلوات التى كانت تقام لعبادة وتمجيد الإلهة « إيزيس» التى كانت تعتبر المثل الأعلى للمرأة المصرية القديمة نص يقول : «إيزيس . . يا ربة الأرض . . أنت التى جعلت قدرة المرأة تتساوى مع قدرة الرجل» . ويفسر بعض المؤرخين الأجانب هذا النص بأنه تكريس لحق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة التى لم تعرف التفرقة بين الجنسين فى التمتع بالحقوق العامة .

● وتقول العالمة الفرنسية كريستين نوبلكور [وهى من أشهر علماء الآثار المصرية فى العصر الحديث ولها كتب ومؤلفات تعتبر من أهم المراجع المدققة فى التاريخ المصرى القديم والآثار المصرية القديمة] إن مصر كانت الدولة الوحيدة بين دول العالم القديم كلها التي خصصت للمرأة أوضاعًا قانونية تحقق لها المساواة مع الرجل .

● وعقدت كريستين نوبلكور مقارنة علمية بين هذه الأوضاع القانونية التى تمتعت بها المرأة المصرية القديمة مع الأوضاع القانونية التى كانت مفروضة على المرأة فى القانون الرومانى الذى كان سائداً فى عصر الامبراطورية الرومانية حيث كانت المرأة فيه تحت وصاية الرجل ، ولا تتمتع إطلاقاً بتلك الحقوق الشخصية الواسعة النطاق التى كانت تتمتع بها المرأة المصرية القديمة ، خصوصاً من ناحية الأهلية القانونية ، والذمة المالية ، وحق المرأة فى التملك .

● وتدل عشرات من الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف العصور التاريخية المصرية القديمة على أن المرأة كانت كاملة الأهلية القانونية متى بلغت سن

الرشد ، وتستطيع أن تتصرف بكامل مسئوليتها الشخصية دون انتظار لموافقة أى طرف آخر حتى ولو كان والدها أو زوجها . . وكانت صاحبة الحق فى أن تعقد ما شاء لها من عقود أو اتفاقات قانونية مع الآخرين ، سواء فى البيع أو الشراء أو التأجير أو الوصية لتمييز أحد الورثة عن بقية الورثة الآخرين متى شاءت أن تفعل ذلك لأسباب تراها .

● كذلك فقد كان للمرأة المصرية القديمة الحق فى ممارسة الاجراءات القضائية ورفع الدعاوى والدفاع عن نفسها وحقوقها أمام المحاكم . . وتؤكد ذلك بردية نادرة تتضمن تقريراً قضائياً عن إحدى قضايا الأوقاف ، يطالب فيها الورثة بالحصص الشخصية المقررة لكل واحد منهم حسب ما جاء فى حجة تخصيص الممتلكات الموقوفة . . وقامت بعض الوارثات بالدفاع عن حقوقهن أمام المحكمة التى حكمت بتعيين إحداهن «مديرة للأملاك العقارية» محل النزاع لتوزيع الحصص المقررة لكل وارث أو وارثة . ومن الطريف أن هذا التقرير القضائى تضمن ذكر حدوث تزوير فى بعض مستندات تلك القضية عند تسجليها لدى الإدارة المركزية التابعة للحكومة ، فقامت إحدى الوارثات بالمرافعة أمام المحكمة حيث كشفت ذلك التزوير وطعنت فى المستندات المزورة .

● وفى عصر الأسرة السادسة التى استمرت فى حكم مصر نحو ١٥٠ سنة [من عام ٢٤٢٠ إلى عام ٢٢٧٠ ق م] قال الحكيم «كاجمنى» : [علموا المرأة يتعلم الرجل ويتعلم الشعب] . ومعنى هذا أن التعليم كان متاحاً للأناث كما كان متاحًا للذكور . وهناك شواهد أثرية كثيرة على أن نساء الأسر الملكية والبلاط الملكى وطبقة النبلاء كن من المتعلمات المثقفات . . كما كان من واجب رب الأسرة من الطبقة الوسطى أن يقوم بتعليم أبنائه وبناته فى المدارس أو «بيوت الحياة» المخصصة لتعليم الصغار والمبتدئين أسس وقواعد الكتابة والحساب . وبالنسبة للبنات اللاتى يبدين تفوقاً فى تحصيل العلم كان يتاح لهن الحق فى التعليم العالى .

● وكانت هناك نساء بلغن حظًا موفوراً من التعليم والثقافة العامة والمتخصصة ، وكن يمتلكن مكتبات خاصة فى بيوتهن . وتدل على ذلك بردية كتبها شخص يدعى «خنوم ردى» كان يعمل أميناً لمكتبة سيدة اسمها «نفرو كابيت» وقال فيها : « لقد

عينتنى السيدة مشرفاً على خزائن الكتب الخاصة بها وبأمها فى دندرة . . وكانت السيدة مولعة بالعلوم والفنون . . وقد زدت فى عدد ما تحتويه المكتبة من كتب ، وجلبت لها كثيراً من المؤلفات القيمة حتى لم تعد تتسع لأكثر من ذلك . . وقمت بترتيبها أحسن ترتيب وربطت ورممت ما كان منها مفككاً ! » .



« نفرت » وزوجها « رع حوتب » . . على قدم المساواة فى كل شىء .
[من معروضات المتحف المصرى بالقاهرة]

عذارى مصر القديمة .. وفترة الحب والخطبة

قال حكماء مصر القديمة ينصحون الشباب بالزواج المبكر باعتباره عاصماً من الوقوع في الخطيئة : « اتخذ لك زوجة وأنت في سن الشباب لتنجب لك أبناء » . . ومفهوم هذه الحكمة يمتد أيضاً إلى أن الأبناء الذين ينجبهم الأزواج في سن الشباب سيشبون عن الطوق ويصبحون شباباً بدورهم بينما يكون أباؤهم وأمهاتهم في عز شبابهم ، الأمر الذي يؤدي إلى حسن التفاهم بين الآباء والأبناء .

● وكان من المعتاد والشائع بين سائر الطبقات في المجتمع المصري القديم أن تتزوج الفتاة في سن الرابعة عشرة ، وأن يتزوج الفتى في سن السابعة عشرة ،وفي مثل هذه الأعمار بالنسبة للفتى أو للفتاة تنمو مشاعر الحب وعواطفه المتأججة ، الأمر الذي يجعل علاقة الزوجية بين الشابين قائمة على أساس من الحب يدعم هذه العلاقة وينميها باستمرار .

● ولما كانت القواعد والعادات الاجتماعية قد أعطت للمرأة المصرية حرية الإرادة وحرية اختيار زوج المستقبل الذي تتمناه ، فليس من المستغرب العثور على عدد هائل من القصائد الشعرية المكتوبة على صفحات البردي ، تتناول أدق وأحلى المشاعر العاطفية النبيلة لفتيات وعذارى يتغزلن في فتيان أحلامهن ، ولشباب من الذكور يعبرون بأحلى التشبيهات عما يجيش بصدورهم من هوى عذرى نبيل المقصد والهدف . . وكانوا جميعاً ـ شبابا وشابات ـ يتمنون أن يتوّج هذا الحب بزواج مقدس مستديم .

● وليس من المستغرب كذلك أن نقرأ فى إحدى هذه القصائد أبياتاً تؤكد لنا أن الفتاة العذراء التى وقعت فى حب شاب من جيرانها قد باحت بسر هواها إلى أمها ، وأن الأم قد سُرّت بذلك غاية السرور ، وأخذت تدعو وتتوسل لآلهة الحب أن تساعد ابنتها فى تحقيق أمنيتها بالزواج من المحبوب .

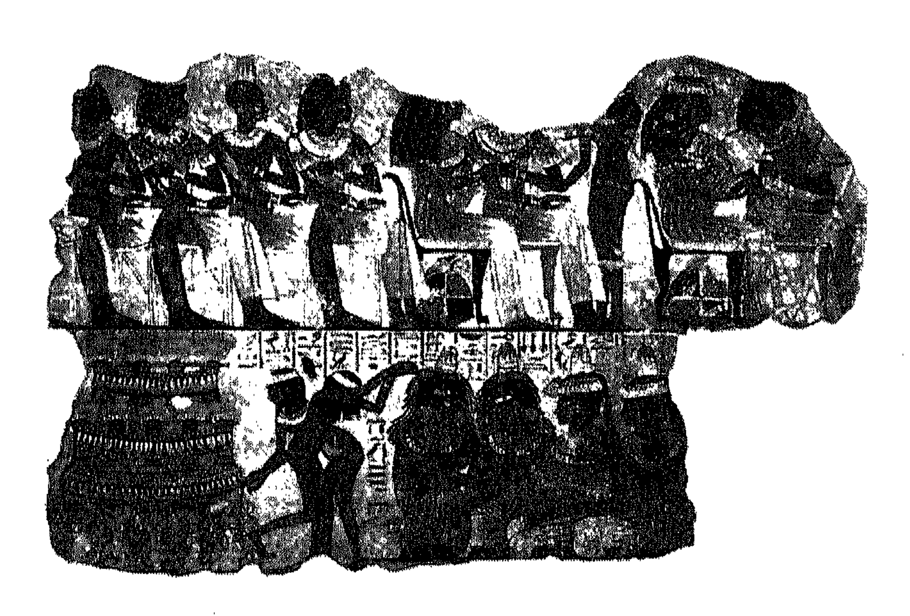
● وبالرغم من حرية الفتاة المصرية فى الحب واختيار زوج المستقبل ، إلا أن الأمر فى جميع الأحوال كان يتوقف على موافقة الوالدين على هذا الاختيار ، فإن تمت الموافقة كان الوالدان يبذلان كل ما فى وسعهما لتحقيق الارتباط بين ابنتهما ومن تحب . أما إذا لم يوافق الأب أو الأم على هذا الارتباط لأى سبب من الأسباب فإنهما كانا يتقدمان بالنصح المناسب لابنتهما وإبداء وجهة النظر فى رفض استمرار العلاقة بين الإبنة ومن تحب ، مع إرشادها إلى ضرورة التمسك بأهداب الفضيلة والمحافظة على عذريتها وشرفها .

● وتماماً مثلما يحدث الآن فى مجتمعنا المصرى الحديث يترك الفتى والفتاة المتحابان إلى والديهما مسئولية السير فى إجراءات الزواج والاتفاق على أية بنود أو اتفاقات يرون النص عليها فى عقد الزواج المزمع إبرامه . وهو عقد ـ إذا تم ـ كان لابد من تسجيله وإشهاره فى سجلات الحكومة . ومع ذلك فقد كانت بعض الزيجات تتم مشافهة دون تسجيل حكومى ، حيث يتم الاتفاق بين الزوجين وعائلتيهما على ما يرونه من شروط ، وحيث يعلن هذا الزواج بين الأقارب والجيران فى احتفال مشهود [ومثل هذا الزواج كان معروفاً فى مصر الحديثة حتى عام ١٩١١ م عندما صدرت لائحة المحاكم الشرعية والأحوال الشخصية التى نصت على ضرورة تسجيل الزواج لدى الجهات الحكومية المختصة حتى يمكن أن تنظر المحاكم فى المنازعات التى قد تنجم عن هذا الزواج] .

● وحين يعلن الحب ويصبح مشروعًا بموافقة أسرتى الفتى والفتاة يصبح من حقهما اللقاء علانية ليزداد كل منهما معرفة بطباع الآخر [وهى فترة تشبه فترة ما بعد قراءة الفاتحة والخطبة فى مجتمعنا الحديث] . وفى هذه الفترة يصبح متوجباً على الفتى عريس المستقبل أن يقدم لمحبوبته بعض الهدايا فى كل المناسبات الدينية والشعبية أو حتى المناسبات الشخصية . وفى الوقت نفسه تصبح عائلة الفتاة مسئولة عن تجهيز العروسة

باللوازم الضرورية لبدء حياتها الزوجية طبقا لما هو سائد فى الطبقة الاجتماعية التى تنتمى إليها .

● وفى خلال تلك الفترة أيضاً تستمر مظاهر الفرح فى بيتى العروسين ، حيث تتجمع النساء والبنات لقرع الطبول أو العزف على الآلات الموسيقية الشعبية ولإنشاد أغانى الأفراح والحب والغرام ، ولممارسة الرقص المعبر عن الفرح والبهجة والسرور . وتستمر هذه الاحتفالات الصغيرة حتى يحين موعد الاحتفال الكبير بليلة الزفاف .



وتقام حفلات الموسيقى والرقص والغناء ابتهاجاً بكل مراحل الزواج .

قائمة العفش .. واستعراض جهاز العروسة .. ابتكار مصرى قديم

هناك عادة مازالت سائدة حتى الآن فى القرى وفى الأحياء الشعبية بالمدن المصرية . . وهى استعراض مفردات «جهاز العروسة» على الناس ، وما تحتويه هذه المفردات من مراتب وألحفة ودرابيات وملاءات ومخدات والموبيليات الخاصة بغرفة النوم وغرفة الاستقبال والأوانى النحاسية أو المصنوعة من الألومنيوم والصحون والأطباق وكافة أدوات المطبخ بالإضافة إلى الفساتين والأرواب ذات الألوان الزاهية . . وفى العادة يتم استعراض هذا «الجهاز» محمولاً على الأكتاف أو الرؤوس أو منقولاً على العربات .

● وهناك نقوش كثيرة ترجع إلى مختلف العصور التاريخية فى مصر القديمة تؤكد أن تلك العادة الاجتماعية الخاصة باستعراض «جهاز العروسة» كانت ضمن تقاليد الزواج فى مصر القديمة . وتصور تلك النقوش مجموعات من الأطفال والشباب من الذكور والاناث [هم فى الغالب من أقارب العروسين أو من الجيران والأصدقاء] يحملون على أكتافهم ورؤوسهم قطع الأثاث التى تتزود بها العروس لتأسيس بيت الزوجية . وكانت أهم هذه القطع السرير المزود بمسند للرأس ومناضد الطعام ومجموعة من الكراسى ذات الأشكال والطرز المختلفة ، وصناديق حفظ المفروشات والملابس ، وصناديق المجوهرات وما تتضمنه من عقود وأساور وحلقان وخلاخيل ، وأوانى العطور وفازات الزهور وكافة أدوات الزينة والتجميل ، والصنادل التى تستعمل فى البيت أو عند الخروج . كما تصور بعض النقوش « الناموسية» وحواملها التى تنصب فوق السرير حتى لا يعكر الناموس صفو العروسين أثناء النوم .

● وفى بعض هذه النقوش نرى مجموعة من النساء والفتيات الصغيرات وراء حاملى مفردات الجهاز وهن يصفقن وينشدن الأغانى .

● وعندما يصل هذا الجهاز إلى بيت الزوجية الجديد تقوم العروس بالاشتراك مع بعض أعضاء أسرتها وأسرة زوجها بتنظيم الجهاز وترتيبه فى الأماكن المناسبة واعداد البيت للحياة الزوجية .

● وقد تم العثور على بعض عقود الزواج كتبت فيها بالتفصيل «قائمة العفش» التى يتألف منها «جهاز العروسة» مع وصف كل قطعة على حدة وبيان قيمتها «بالدبن» وهى وحدة وزنية من الذهب أو الفضة أو النحاس . وتنص هذه العقود بصفة قاطعة على أن جميع مفردات الجهاز المكتوبة فى القائمة تؤول ملكيتها إلى الزوجة فى حالة الطلاق أو فى حالة موت الزوج ، وفيما يبدو أن تسجيل هذا الحكم فى نصوص العقد كان بناء على عرف سائد فى المجتمع المصرى القديم .

● وبدراسة وتحليل بعض عقود الزواج التى عثر عليها نتبين أنه لم تكن هناك قاعدة واحدة فى تحديد الطرف المسئول عن تدبير «جهاز العروسة» . . فهناك عقود تنص على أن العريس عليه أن يقدم «مهرًا» يتم الاتفاق عليه مع أهل العروسة [ويلاحظ أن القاعدة العرفية العامة هى وجوب تقديم المهر عند الزواج ، كما عثر أيضاً على نص أمر ملكى يلزم الرجل بتقديم مهر عند زواجه] . . كما أن هناك عقوداً أخرى تنص على اشتراك الزوجين فى تمويل شراء واعداد الجهاز ، بل وفى تمويل كافة الاحتياجات المعيشية فى الحياة الزوجية . ومعنى ذلك أن العريس كان ملزماً بتقديم مهر يتم الاتفاق عليه ، وأن العروس كانت ملزمة بتقديم « دوطة» يتم الاتفاق عليها . وذلك كنوع من التعاون على تأثيث البيت الجديد وتمويل الحياة الزوجية المستقبلة .

● وفى بعض الحالات تكون العروس أكثر ثراء من العريس وأهله ، وفى مثل هذه الحالة كان العقد يتضمن ذكر الأموال والأشياء التى تقدمها الزوجة لزوجها بالتفصيل مع إقرار من الزوج بأنه استلم هذه الأموال والأشياء من زوجته . . ومن الملاحظ أن مثل

هذا الزواج كان نادراً ويعتبر أمرًا لا يليق بالرجال طبقاً للعادات والتقاليد التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى القديم .

● ولكن فى أغلب الأحوال كان العريس يدفع مهر عروسه لأهلها ، فيقومون هم باعداد مفردات الجهاز ولوازم البيت مع إضافة ما يستطيعون تقديمه من أشياء ولوازم أخرى .



« نبت بر » .. معناها : « ست الدار »

من أشهر الألقاب الشعبية التى كانت تطلق على المرأة المصرية القديمة بعد زواجها لقب «نبت بر» ومعناه بلغتنا الفصحى «سيدة البيت» أو «ربة البيت» مجازاً . . أما بلهجتنا الشعبية فهو يعنى «ست البيت» أو «ست الدار» .

● ومنذ أن استقر قدماء قدماء المصريين الأوائل حول شطآن وادى النيل وروابيه [وقد حدث ذلك من أكثر من خمس وعشرين ألف سنة] مارسوا حرفة الزراعة إلى جانب حرفتى الصيد والرعى . ولكن الزراعة كانت تتطلب نوعًا من الاستقرار فى المكان حتى يمكن ممارسة مراحل العمليات الزراعية من حرث وبذار ورى ورعاية ما تنبته الأرض إلى أن تحين مواعيد الحصاد .

● وبطبيعة الحال فقد أدى هذا الاستقرار إلى نشوء التجمعات الإنسانية الأولى متمثلة فى «القرية» كوحدة اجتماعية يتضامن أفرادها فى تحقيق نظام جماعى ينشد مصالح وأهداف كل من يعيشون فى تلك القرية . . نظام يوفر لهم حياة آمنة تتوفر فيها جميع احتياجات البشر من طعام وشراب وملبس . . ولذلك فقد كان من الضرورى أن ينضوى سكان القرى فى نظام ذى قواعد تواتر العرف على تحديدها ويخضع الجميع لأحكامها .

● ومن المسلمات فى علم «الانثروبولوجيا الاجتماعية» أو علم التاريخ الاجتماعى للإنسان ، أن نظام القرية كوحدة اجتماعية نشأ بداءة بتجمع مجموعة من الأسر والعائلات التى تتكون أساساً من «زوجين» وما ينجبانه من أولاد وبنات ، الأمر الذى

كان يتطلب عادة أن تنشأ مجموعة من العادات والتقاليد التى تتحول بفعل الزمن وتواتر التطبيق والاتباع ، إلى مجموعة من القواعد الصارمة التى يلتزم بها الجميع كنظام موحد يحكم النظام الأسرى والعائلى وما يتضمنه من حقوق وواجبات لجميع أطرافه من أزواج وزوجات وأبناء .

● ويقول كثير من العلماء المتبحرين فى تاريخ العالم القديم إن أكثر الاحتمالات ثبوتاً هو سبق مصر فى وضع القواعد المتعلقة بتنظيم العلاقات القانونية التى تحكم الحقوق والواجبات المتبادلة بين الزوج والزوجة ، وبين الأبناء والآباء والأمهات . وهناك كثير من الشواهد الأثرية التى تساعدنا فى وضع صورة عامة لنظم الزواج فى مصر القديمة ، وما كانت تحكمه من قواعد قانونية واجتماعية وأخلاقية .

● ولحسن الحظ فقد ترجم الكثير منها إلى اللغات الحية . وبدراسة هذه العقود دراسة تحليلية متأنية ، خرج المؤرخون وعلماء الآثار المصرية بالنتائج التالية :

● كان عقد الزواج نابعاً فى الأصل من العقائد المقدسة ، ليحكم العلاقة المشروعة التى تقوم بين الرجل والمرأة وما تثمره من مسئوليات مشتركة ومتبادلة تنبع من طبيعة الحياة الزوجية فى مجتمع محافظ يضع الأخلاق والآداب الاجتماعية فوق كل اعتبار .

● وكانت المرأة تتمتع بالحق الكامل فى اختيار زوجها ، وإن كانت التقاليد والعادات الاجتماعية التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى القديم تتطلب أن يتم هذا الاختيار بموافقة الأب أو الأم أو ولى أمر المرأة قبل زواجها .

● إن المرأة المتزوجة كانت تحتفظ دائماً بإسمها وإسم عائلتها ، ولا تتسمى بإسم زوجها بدلاً من إسم أبيها ، كما هو شائع فى المجتمعات الغربية وبين بعض المتشبهين والمقلدين لتلك العادة الغربية .

● وكانت المرأة المتزوجة تتمتع بحرية التعبير والإرادة الحرة والاستقلال الكامل لذمتها المالية والمدنية والتجارية ، وبالأهلية القانونية والقضائية ، دون أية وصاية من زوجها . . كما كانت صاحبة الحق الأول فى إدارة ممتلكاتها الخاصة بالكيفية التى تراها حتى ولو استشارت زوجها .

الخيانة الزوجية .. جريمة عقوبتها الإعدام

تدل جميع الأدبيات التى عثر عليها فى آثار مصر القديمة ، سواء أكانت فى شكل قصص وحكايات ، أو فى شكل حكم ونصائح كتبها الحكماء والفلاسفة الأقدمون ، على أن المصريين القدماء كانوا شعباً محافظاً على التقاليد السوية ومتمسكاً بأعلى مستويات الأخلاق الرفيعة والسلوكيات الإنسانية والاجتماعية المهذبة والطيبة .

● كانوا يعتبرون الزواج علاقة شرعية بين الرجل والمرأة ، تحكمها العقائد الدينية وقواعد العرف السائدة والقائمة على أخلاقيات صبغوها بصفة مقدسة . وبالتالى فقد كانت الخيانة الزوجية ، سواء من جانب الرجل أو من جانب المرأة ، تعتبر كبيرة الكبائر، وجريمة لا تغتفر عقوبتها الإعدام .

● ولذلك فقد أباحوا لكل من الزوجين حق المطالبة بالطلاق وإنهاء رابطة الزوجية المقدسة ، إذا حلت الكراهية محل الحب المتبادل الواجب بين الزوجين واستحالت العشرة بينهما . أما إذا ارتكب أحدهما جريمة الزنى أثناء قيام العلاقة الزوجية فسوف يكون الموت مصيرا حتمياً لكل من يدنس هذه العلاقة المقدسة .

● والحكم باعدام الزانى والزانية كان مقررا فى القوانين الوضعية التى كانت سائدة فى مصر طوال العصور التاريخية القديمة ، كما ورد أيضاً فى بعض القصص والحكايات الشعبية والحكم والنصائح التى قال بها حكماء مصر وفلاسفتها ، والتى عثر على الكثير منها مدوناً ببرديات يرجع تاريخها إلى عصور الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة والعصور المتأخرة من تاريخ مصر القديم .

● ومن أشهر القصص التى ورد بها هذا الحكم الحازم باعدام الزانى والزانية ، تلك القصة التى ورد نصها فى بردية «وستكار» والتى ترجمها عن اللغة المصرية القديمة عالم المصرية « أدولف إرمان» . . وهى قصة رواها الأمير «خفرع» لأبيه الملك «خوفو» [الأسرة الرابعة] .

● تقول القصة باختصار : إن الأحداث قد وقعت فى عهد الملك «نب كا» [من ملوك الأسرة الثالثة] حيث كان يعيش «وباونر» الذى كان يشغل وظيفة كبير الكهنة المرتلين ، وكانت له زوجة لعوب وقعت فى عشق شاب كانت تقابله فى خميلة بالحديقة الملحقة بالقصر الذى كانت تعيش فيه . وبعد أن تشبع الزوجة الخائنة وعشيقها من الشراب والطعام والمتعة الحرام ، كان العاشق يستحم فى البحيرة الملحقة بالحديقة ثم ينصرف .

● وحين شاهد البستانى وقائع تلك الخيانة أخبر الزوج المخدوع بما ترتكبه زوجته من فسق وفجور مع عشيقها . وعندئذ صنع الكاهن «وباونر» تمثالاً من الشمع على هيئة تمساح طوله سبعة أشبار ، وتلا عليه تعويذة سحرية طالباً منه أن يقبض على العاشق حين ينزل ليستحم فى البحيرة . . وأعطى التمثال الشمعى للبستانى وأمره بأن يضع هذا التمساح فى البحيرة حين يحضر العاشق الخائن .

● وبالفعل عندما نزل العاشق ليستحم فى البحيرة بعد لقائه مع الزوجة الخائنة ، تحول التمساح الشمعى إلى تمساح حى مخيف طوله سبعة أذرع ، وقبض على العاشق وغطس به فى أعماق البحيرة . . ثم طلب «وباونر» كبير الكهنة من الملك «نب كا» أن يذهب معه إلى بيته ليرى تلك الأعجوبة السحرية التى حدثت فى عهده .

● وعندما وصل الملك إلى الحديقة طلب الكاهن من التمساح أن يخرج من الماء ومعه العاشق الخائن المقبوض عليه ، فخاف الملك من هذا التمساح الضخم القابض على الخائن بين فكيه المفترسين . ولكن الكاهن تقدم وأمسك بالتمساح فتحول بين يديه إلى تمثال من الشمع . وعندئذ قص الكاهن على الملك قصة الزوجة الخائنة وما كانت تفعله مع عشيقها الخائن . فأمر الملك باعدام العشيق وبحرق الزوجة وإلقاء رمادها فى النهر .

● ومن هذه القصة التى كانت تعتبر من «الحواديت الشعبية» التى كانت سائدة فى مصر القديمة ، نعرف أن الإعدام كان عقوبة حتمية مقررة على كل من يرتكب جريمة الزنى ويدنس الحياة الزوجية بهذا الإثم البغيض .



جريمة الزنى .. كبيرة الكبائر

مهما كانت المجتمعات الإنسانية محكومة بعادات وتقاليد وأعراف وقوانين وضعية تنص على مجموعة من المبادىء والقواعد الأخلاقية التى تحدد السلوكيات السوية بين الأفراد وبعضهم ، أو بينهم وبين مجتمعهم الإنسانى ككل ، فإن النفس البشرية بطبيعتها أمارة بالسوء إلا لمن يلهمهم الله بالقدرة على مجاهدة هذه النفس فيلتزمون بالصراط المستقيم .

● ومنذ سكن الإنسان كوكب الأرض ، لم تنقطع سلسلة الجرائم الأخلاقية من كذب وسرقة وقتل وزنى ، ولم ينفرط عقد السلوكيات السيئة من حقد وحسد واعتداء على حقوق الآخرين ، واستهتار بالقيم الرفيعة والمثل العليا . . ولذلك فقد حرصت جميع المجتمعات الإنسانية منذ البداية على وضع عقوبات صارمة تنفذ على كل من يرتكب جريمة من تلك الجرائم . . وحتى إذا أفلت المجرمون من العقاب الدنيوى لأى سبب من الأسباب ، فإن العدالة السماوية تكون لهم بالمرصاد ولن يفلتوا من عقاب الله .

● والدارسون للحضارة المصرية القديمة يؤكدون بصفة قاطعة ـ ومن واقع النصوص التى تم العثور عليها ـ بأن فجر الضمير الإنسانى قد بزغ فى مصر أول ما بزغ . . وأن المجتمع القديم كان ملتزماً منذ البداية بقواعد أخلاقية صارمة تحدد العلاقات بين الأفراد ، وتلزم كل فرد بأن يكون طاهر النفس زكى القلب قويم السلوك ، لا يعتدى على حق من حقوق الآخرين أو حقوق المجتمع .

● وبالرغم من تقرير حق المساواة بين الرجل والمرأة فى مصر القديمة . . وبالرغم من أن المرأة فى كل أطوار حياتها كانت تختلط بالرجال دون حجاب ، إلا أن الأعراف والتقاليد الأخلاقية كانت تفرض على الرجال احترام المرأة وتوفير الأمان لها ، وعدم جرح حيائها بالقول أو بالفعل ، والمحافظة على شرفها وشرف ذويها من عائلتها وعائلة زوجها . . كما كانت تفرض على المرأة الالتزام بالاحتشام والسلوك الطيب والبعد عن الغواية والإغواء ، والمحافظة على عفتها وعلى بكارتها فى فترة ما قبل الزواج .

● ومن أطرف ما ورد مثبتاً لأهمية البكارة عند الزواج ، نص أثرى عثر عليه مكتوباً على جزء من بردية ، تحكى فيه زوجة شابة طرفاً من حياتها الزوجية حيث قالت : «قضى زوجى [نى نوفر كابتاح] معى يوماً سعيداً ، واستقبل جميع أفراد أسرتى باحترام ومودة . . وعندما نام بجوارى فى نفس الليلة ، وجدنى عذراء ففرح بذلك واطمأن قلبه ، وازدادت معرفته بى أكثر وأكثر لأن كلاً منا كان يحب الآخر » .

● ومن التعاليم التى كتبها حكماء مصر القديمة ، نصائح كثيرة تحذر من ارتكاب جريمة الزنى باعتبارها كبيرة الكبائر ، والتى يحكم باعدام من يرتكبها من الرجال أو النساء . . ونصائح أخرى تحذر من النظر بشهوة إلى بنات أو نساء الآخرين من الأقارب والجيران والغرباء .

● يقول الحكيم الشهير «بتاح حتب» : « إذا أردت أن تحافظ على الصداقة فى بيت تدخله ، فاحذر القرب من نساء هذا البيت أو النظر إليهن بغرض سيىء . . ومن الحكمة ألا تحشر نفسك معهن . . ومن أجل ذلك يذهب ألف رجل إلى الهلاك بسبب متعة قصيرة تضيع كالحلم . . ولا يجنى الانسان من هذه الجريمة إلا الموت . . وإذا افتتن الانسان بالأعضاء البراقة للنساء الغريبات ووقع فى الإثم ، فإن افتتانه سرعان ما يصبح بعد ذلك مثل حلم تافه . . والموت يأتى فى نهاية الأمر » .

● ويقول الحكيم « آنى » فى نصائحه الشهيرة محذراً من خطيئة الزنى : « خذ حذرك من المرأة الأجنبية ، تلك التى ليست معروفة فى بلدتها . . ولا تتبعها إذا غمزت لها بعينك أو غمزت لك بعينها . . فهى ماء عميق لا يعرف الرجال التواءاته وتياراته . .

والمرأة البعيدة عن زوجها تقول لك كل يوم إنى جميلة . . ولذلك عندما تكون بعيدة عن أعين الرقباء فانها تقف أمامك لتوقعك فى حبائلها . . فإذا حدث الزنى فإن ذلك يعتبر جرما عظيماً يستحق الاعدام عندما يرتكبه الانسان . . لأن من يرتكب تلك الخطيئة يسهل عليه بعد ذلك أن يرتكب كل ذنوب وآثام وخطايا الدنيا » .



محاكمة الزانى والزانية

يقول علماء ومؤرخو القانون إن مصر القديمة تعتبر أقدم دولة فى تاريخ الانسان وضعت نظاماً قضائياً يتولى الحكم فى المنازعات المدنية والتجارية ، وفى الجرائم التى يرتكبها الأفراد ضد بعضهم أو ضد نظام الدولة .

● ويقولون أيضا إن التنظيم القضائى المصرى القديم كان متدرجاً إلى ثلاث درجات من المحاكم . . فقد كانت هناك « محاكم صغيرة » فى القرى تتكون من قضاة محليين وتتولى الحكم فى المخالفات البسيطة . . وكانت هناك « محاكم مركزية » فى عواصم الأقاليم تتكون من قضاة حكوميين يعينهم الملك وتتولى النظر فى الجرائم الأكثر جسامة من تلك المخالفات البسيطة . . كما كانت هناك « المحكمة العليا » فى عاصمة الدولة وتنظر فى دعاوى المنازعات والجرائم الكبرى ، كما تنظر فى دعاوى استئناف الأحكام التى كانت تصدرها المحاكم المركزية بناء على طلب المتقاضين ، أو إذا كانت هذه الجرائم الكبرى قد وقعت فى العاصمة أو تهدد النظام الاجتماعى أو الأمن العام للدولة .

● وبالإضافة إلى ذلك فقد عرفت مصر القديمة أيضا نظام القضاء المتخصص حيث كان هناك قضاء عسكرى لمحاكمة العسكريين وحدهم . . وقضاء تجارى للبت فى المنازعات المدنية والتجارية التى قد تنشأ بين المصريين وبعضهم أو بينهم وبين الأجانب . . وقضاء متخصص فى الأحوال الشخصية للنظر فى المنازعات الأسرية والعائلية . . وقضاء كهنوتى متخصص فى النظر فى الأحوال الدينية .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن الملك أو الفرعون هو الرئيس الأعلى للسلطة القضائية ، ثم يأتى بعده الوزير الأول للدولة ، ثم كبير الكهنة . كما كان للمجالس والتنظيمات المدنية والدينية الحق فى مباشرة الأعمال القضائية التى تقع فى اختصاصاتها . كذلك فقد منحت بعض اللجان التى تتكون خصيصا للنظر فى موضوع معين كما منح بعض ضباط الشرطة الحق فى ممارسة الأعمال القضائية فى حالات خاصة .

● ويهمنا هنا أن نورد ما ذكره مؤررخو القانون من كيفية محاكمة الزانى والزانية وأنواع العقوبات التى كانت مقررة على مرتكبى تلك الجريمة النكراء . . حيث أثبتت الوثائق الأثرية ان الحكم باعدام الزانى والزانية كان مطبقا كعقوبة فى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة . . ثم تم تخفيف هذا الحكم فى الفترة المتأخرة من التاريخ المصرى القديم ، وظل هذا التخفيف سارياً حتى قبيل ظهور المسيحية ودخولها إلى مصر . والمقصود بالتخفيف هنا هو الحكم بقطع أنف المرأة الزانية حتى تصبح عبرة لغيرها من النساء وحتى يتم تشويه وجهها وحرمانها من جمالها الذى كان سبباً فى الإغواء .

● أما الزانى فقد كان يحكم عليه بالإعدام . . ثم خفف هذا الحكم بالإكتفاء بجلده علناً «ألف» جلدة . وكان اعدام الزانى والزانية يتم عادة بالقائهما فى النار حتى يتحولا إلى رماد يلقى فى النهر ، أو يتم بقتل الزوجة الزانية وإلقاء جثتها للكلاب .

● وقال المؤرخ القديم ديودور الصقلى الذى زار مصر خلال العصر اليونانى الرومانى إن الرجل الذى كان يغتصب امرأة دون رضاها باستعمال العنف كان يحكم عليه ببتر العضو التناسلى لحرمانه نهائيا من قدرة الحصول على اللذة الجنسية طوال حياته . كما أن هذه العقوبة كانت تطبق على الرجل فى حاله « شروعه » فى ارتكاب جريمة هتك العرض أو الاغتصاب . ويلزم فى هذه الحالة شهادة اثنين من الشهود بالاضافة إلى شكوى المجنى عليها .

● ويقول بعض مؤرخى القانون بناء على دراسة بعض الوثائق الأثرية إن عقوبة

«النفى » أو عقوبة الاشغال الشاقة فى الصحراء كانت تعتبر عقوبة تبعية بعد تنفيذ عقوبة قطع الأنف بالنسبة للمرأة وعقوبة الجلد بالنسبة للرجل .

● ومن الغريب أن المجتمع المصرى القديم قد وضع فى الاعتبار حالة الغضب الذى قد يؤدى إلى قيام الزوج بقتل زوجته إذا ضبطها فى حالة تلبسها بالزنى . . فقد أعفاه القانون من العقاب على أساس اعتبار أن القتل فى مثل هذه الحالة هو تنفيذ مشروع لعقوبة إعدام الزوجة الخائنة . . فقد راعى القانون أن الزوج فى مثل هذه الموقف تنتابه حالة من الغضب العارم والاحساس بجرح كرامته ورجولته فيفقد السيطرة على تصرفاته وينتقم فوراً لشرفه بقتل الزوجة أو بقتل شريكها أو بقتلهما معاً .

● هذا وينص قانون العقوبات الحديث المطبق حالياً فى مصر على معاقبة الزوج الذى يفاجىء زوجته فى حالة تلبسها بجريمة الزنى فيقتلها هى وشريكها بعقوبة «الحبس» بدلاً من عقوبة الاعدام أو الأشغال الشاقة المقررة لجريمة القتل .



القوامة على النساء .. بالمحبة والرضاء

من البديهيات المسلم بها أن طبيعة الرجل تختلف عن طبيعة المرأة ، وأن هذا الاختلاف ينعكس بالتالى على الدور الذى يؤديه كل منهما فى الحياة الاجتماعية والحياة البيتية على حد سواء .

● وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن المجتمع المصرى القديم كان يتميز دائما بطابع المساواة بين الرجل والمرأة من الناحية الاجتماعية بصفة عامة وفى مجال الأحوال الشخصية على وجه الخصوص . . وهناك آلاف من النقوش تصور المرأة كشريك للرجل فى الحياة العملية ، فهى تعمل معه فى الحقول وتباشر العمليات الزراعية من حرث وبذر وحصاد ، كما تباشر العمليات الصناعية كالغزل والنسج على الأنوال لصناعة الأقمشة وصباغتها وحياكتها ، أو العمل فى طحن الحبوب والعجن وصناعة الخبز والحلوى وصناعة الجعة وعصر الكروم ، كما ثبت أيضا أن المرأة كانت تشترك فى صناعة تجهيز السوائل والدهانات العطرية .

● وكانت معظم نساء الطبقات الشعبية والطبقة الوسطى يقمن بهذه الأعمال وأمثالها . وكانت أغلب هذه الأعمال تتم تحت إشراف الرجال وإدارتهم . أما نساء الطبقة العليا ـ خصوصاً النساء المتعلمات اللاتى يجدن القراءة والكتابة ـ فقد كان متاحاً لهن القيام ببعض الوظائف الدينية فى المعابد ، وبعض الوظائف الإدارية فى السلطات الإقليمية أو فى الحكومة المركزية للدولة . وكانت هذه الأعمال أيضاً تتم تحت إشراف الرجال .

● وإذا كانت طبيعة المرأة تفرض على النساء المتزوجات ممارسة الأمومة والاشراف

على تربية الأولاد فى البيت ، إلا أن ذلك كان يتم أيضا تحت إشراف الرجال بصفة عامة . وذلك باعتبار الرجل رباً للبيت وصاحب السلطة العليا فيه ، لأنه الطرف الأقوى والمسئول عن حماية أهل بيته من زوجة وأولاد وبنات . ويقول الحكيم «إيب ور» فى ذلك : « إذا كان الرجل يحارب من أجل زوجته وأخته وأمه وبناته فإنه يحمى نفسه ويحميهن من كل سوء » .

● والرجل مسئول أيضاً عن الوفاء بحقوق أمه خصوصاً إذا مات أبوه أو عجز عن الكسب . ويقول الحكيم « آنى » فى ذلك « ضاعف مقدار الخبز والطعام الذى تعطيه لوالدتك . . واحملها كما حملتك . . لقد كان عبؤها ثقيلا فى حملك . . وحينما ولدتك حملتك ثانية وأعطتك ثديها لترضع غذاءك . . ولم تشمئز من برازك ولم تكن متبرمة . . وحينما تصبح شاباً وتتخذ لنفسك زوجة تستقر فى بيتك ، فاجعل نصب عينك كيف وضعتك أمك وكيف ربتك . . وعامل زوجتك باعتبارها أم أولادك » .

● وكانت سلطة الأب على بناته نوعاً من الرعاية الواجبة ، بل وكانت هذه الرعاية تستمر إلى ما بعد الزواج . . فبالنظر إلى أن الزواج فى مصر القديمة كان يتم عادة فى سن مبكرة بالنسبة لكل من الرجل والمرأة ، فقد كان لزاماً على أسرة كل من الزوجين أن يقدما للزوجين الصغيرين « جراية » مستمرة من الخبز والجعة والأطعمة المطبوخة والملابس والاحتياجات الأخرى إلى أن يستقر الأمر بالنسبة للزوجين ويستطيعان التكسب من العمل بما يقيم أودهما ويكفل احتياجاتهما المعيشية . . وقد عثر على نص مكتوب يؤكد أن « الأب » تعهد بأن يمنح إبنته مجموعة من الأشياء كمساعدة منه لها فى تأسيس بيت الزوجية ، كما تعهد أيضا بأن يقدم لها كمية من الحبوب والحاصلات الزراعية لمدة سبعة أعوام تالية على عقد زواجها .

● أما قوامة الرجل على زوجته فقد كانت أمراً مفروضاً باعتبار الزوج رب البيت والمسئول الأول عن الوفاء بكل احتياجات الأسرة . ولكن هذه القوامة كانت على أساس من المحبة من جانب الزوج وبالرضاء من جانب الزوجة . وتأكيدًا لذلك يقول الحكيم «بتاح حتب » فى نصائحه : « إذا كنت رجلاً ناجحاً فأسس لنفسك بيتا واتخذ لنفسك

زوجة تكون سيدة لقلبك . . واحبب زوجتك فى البيت كما يجب . . أشبع جوفها واستر ظهرها . . إن عـلاج أعضائهـا هـو الدهانات العطرية . . فاجعل قلبها فرحاً ما دمت حياً فهى حقل مثمر لسيدها » .

● ولكن لا يجب أن تكون هذه القوامة نوعاً من السيادة المتغطرسة حتى لا تحدث المتاعب فى البيت . ويقول الحكيم « آنى » فى ذلك : « لا تمثل دور الرئيس مع زوجتك فى بيتها . . ولا تقل لها أين الشىء . . احضريه هنا إذا كانت قد وضعته فى مكانه المناسب . . واجعل عينك تلاحظها فى صمت حتى تعرف أعمالها الحسنة . . وستكون زوجتك سعيدة إذا عاونتها وساعدتها وكانت يدك معها . . وبذلك يتجنب الرجل تحريك الشجار فى بيته » .



مجموعة تماثيل أثرية تمثل مجموعة من النساء يقمن بأعمال غزل ونسج الكتان .

الطلاق .. وضمان حقوق المرأة

كان الزواج فى مصر القديمة منبعاً للسعادة الشخصية وسبباً هاماً من أسباب استقرار الحياة الاجتماعية بين جميع أفراد الشعب المصرى بكافة فئاته وطبقاته ومستوياته الاجتماعية .

● وكم حفلت النقوش الجدارية والتماثيل المنحوتة من الحجر بما يؤكد طبيعة الترابط الأسرى بين الزوجين ، وعلاقة الحب والمودة والتراحم بينهما وبين ما أنجباه من صبيان وبنات . . فهناك عشرات من النقوش تصور لنا مظاهر السعادة التى كان يتمتع بها الزوجان وأولادهما وهم يركبون القوارب الصغيرة ويمارسون صيد الأسماك والطيور فى رحلة ممتعة فى أحراش النيل وشطآنه الجميلة . . وهناك أيضا عشرات من التماثيل تسجل علاقة الحب والحنان بداخل الأسرة المصرية .

● وبالنسبة للطبقة العليا فى المجتمع المصرى القديم ، هناك مجموعة كبيرة من النقوش الجدارية تصور لنا بطريقة تقليدية الولائم والحفلات الموسيقية والغنائية التى كانت تقام فى بيوت علية القوم ويحضرها الأزواج مع زوجاتهم . . وهى حفلات باذخة بما كان يقدم فيها من طعام وشراب والتمتع بعبق البخور والروائح العطرية ، وبما كانت تقدمه الفرق الموسيقية من رقص وغناء .

● غير أن الحياة بطبيعتها لا يمكن أن تستمر على وتيرة واحدة ، وإذا كان من المفروض أن الزواج هو منبع المودة والرحمة والعلاقة الأسرية الطيبة ، فإن بعض الظروف قد تؤدى إلى نشوء المشاكل وأسباب الشقاق فيتحول الحب الواجب إلى كراهية مطلقة قد

تؤدى إلى استحالة استمرار الحياة الزوجية ، وإلى وقوع الانفصال والطلاق كنتيجة مؤسفة .

● وقد تنبه المجتمع المصرى القديم إلى احتمال حدوث المنازعات التى قد تؤدى إلى اضطراب الحياة الزوجية واستحالة استمرارها ، فنشأت مجموعة من العادات والتقاليد والقواعد العرفية تنظم أحوال الطلاق والانفصال بين الزوجين ، وتنظم حقوق الزوجة المطلقة ، سواء أكان الطلاق بناء على طلبها أو بناء على طلب الزوج .

● وقد تم العثور على بعض نصوص عقود الزواج التى تتضمن بنوداً تنص على كيفية توزيع الميراث فى حالة وفاة الزوج ، وكيفية تعويض الزوجة فى حالة الطلاق . وفى جميع الأحوال يكون من حق الزوجة أن تستعيد جميع الممتلكات والمفردات المنقولة التى تدخل ضمن جهاز العرس الذى أحضرته معها عند زواجها ، أو الذى ساهم به الزوج طبقا لما هو مدون فى « قائمة العفش » التى وقع عليها الزوج والشهود .

● وفى أحد عقود الزواج نقرأ نصاً يقول فيه الزوج : « لقد اتخذتك زوجة لى . . وأعطيتك [وذكرت هنا قائمة بالأموال والعطايا والهدايا التى قدمها هذا الزوج كمهر لزوجته] . . وإذا حدث مستقبلا أنى أرغب فى طلاقك ، إما لأننى أصبحت أكرهك، أو لأننى أرغب فى الزواج من امرأه أخرى غيرك ، عندئذ سأعطيك [وذكرت هنا أيضا قائمة طويلة بالهبات التى سيقدمها الزوج كتعويض للزوجة عند حدوث الطلاق] . . وسأعطيك أيضا «ثلث » ما سوف نكتسبه ونمتلكه معاً أثناء حياتنا الزوجية ، كما أن جميع الأولاد والبنات الذين ستنجبينهم لى سيكونون ورثة لكل ممتلكاتى التى أحوزها الآن وسأحوزها فى المستقبل . . سيكون ابنك البكرى هو إبنى البكرى » .

● وكان بعض الأباء يحرصون على ضمان حقوق بناتهم بنص مكتوب فى عقود زواجهن ، أو بالاصرار على أن يقوم زوج ابنته بِقَسَمٍ إلهى يقسم فيه على عدم الاضرار بالزوجة وعلى الحفاظ على كافة حقوقها ، وأن يكون هذا القسم مسجلاً بالكتابة وأمام شهود من الرسميين ومن الأصدقاء أو المعارف من الأهالى . وقد عثر على نص لمثل هذا

القسم يرجع تاريخه إلى عهد رمسيس الثالث [الأسرة العشرين من حوالى ١١٩٣ ـ ١١٦٢ ق م] يقول فيه الزوج أمام رئيس العمال بالقرية والكاتب الرسمى واثنين من الأهالى : « أقسم بالإله آمون وبحياة الملك بأننى لو فكرت فى نبذ أو إهانة زوجتى إبنة [وذكر اسم الأب] فسوف استحق أن أضرب مائة جلدة ، وسوف أفقد كل أموالى وكافة الأملاك التى سنكتسبها أنا وزوجتى خلال حياتنا الزوجية » .



القواعد العرفية لتنظيم أحوال الطلاق

كان الطلاق فى المجتمع المصرى القديم هو أبغض الحلول التى تنتهى إليها المشاكل أو المنازعات الزوجية . ولم يكن أحد الزوجين يطلب الطلاق وانهاء العلاقة الزوجية إلا لأسباب قوية قاهرة تجعل من المستحيل استمرار المعاشرة ، وذلك بسبب نظرة المجتمع إلى المرأة المطلقة بصفة عامة ، أو بسبب المسئوليات والتكاليف والأعباء الباهظة التى تقع على عاتق الزوج عند حدوث الطلاق .

● ويمكن أن نستشف من دراسة النصوص الأثرية القليلة التى عثر عليها بعض الأسباب التى أدت إلى وقوع الطلاق ، لعل أهمها عدم توافق الطباع والأمزجة الذى يؤدى دائما إلى كثرة الشجار والمنازعات فى بيت مفروض فيه الاستقرار ودوام المحبة والمودة بين الزوجين ، وكذلك إذا وقع الزوج فى غرام امرأة أخرى استهوته ورأى فيها «امرأة حياته » ـ وهذا التعبير ورد فى أحد النصوص القديمة ـ باعتبارها أفضل كثيراً من زوجته، وكان لا يمكنه الجمع بين زوجتين بسبب الأعراف السائدة التى كانت تمنع تعدد الزوجات .

● ومن الأسباب الهامة أيضا لحدوث الطلاق أن تكون الزوجة عاقراً لا تلد ، فيلجأ الزوج عندئذ إلى التخلص منها للبحث عن زوجة أخرى قادرة على الانجاب . . ولكن المجتمع المصرى القديم كان ينظر إلى تلك القضية نظرة انسانية تبدو فى تلك الحكمة الرائعة التى قال بها أحد الحكماء لنصح زوج المرأة العاقر : « إياك أن تطلق ربة بيتك

لأنها لم تلد لك أبناءً . . فلا ذنب لها فى ذلك » . وكان الحل الأمثل هو اللجوء إلى «التبنى » المسموح به قانوناً وعرفاً .

● وكان الطلاق إذا حدث يؤدى إلى مشاكل جديدة بالنسبة للمطلق وبالنسبة أيضا للمرأة المطلقة ، فالمجتمع كان يبيح للمطلقة أن تتزوج برجل آخر ، ولكنه زواج قد يؤدى إلى مشاكل جديدة لم تكن فى الحسبان ، خصوصاً بالنسبة لحضانة الأطفال الصغار، أو لحدوث مشاكل عاطفية أسوأها اشتعال نار الغيرة فى قلب الزوج الجديد أو الزوج القديم . لذلك فقد شاعت حكمة شعبية تحذر الرجل من الزواج بالمطلقات ، وتقول ما معناه : « احذر من الزواج بامرأة مطلقة مازال مطلقها على قيد الحياة ، فقد يصبح زوجها القديم عدواً لك ، ولن يسلم قلبك من التفكير فى أشياء خطيرة تقلق راحتك وتعكر صفوك » .

● أما بالنسبة للمطلق ـ خصوصاً إذا كان الطلاق بناءً على رغبته ـ ففى هذه الحالة سيتحمل أعباءً ثقيلة جدا ، عليه أن يوفى بها لمطلقته كتعويض لها ، كما أن عليه أن يقدم لها « نفقة » مناسبة تكفل احتياجاتها المعيشية لها ولأولادها منه .

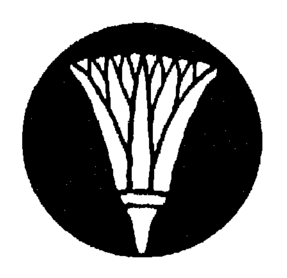
● وإذا وقع الطلاق بناءً على رغبة الزوجة ، بشرط ألاّ تكون مخطئة أو لم ترتكب سببا يجعل من المستحيل استمرار حياتها الزوجية ، ففى هذه الحالة يكون من حق هذه الزوجة أن تستعيد كل ممتلكاتها التى آلت إليها قبل زواجها وكل الممتلكات التى آلت إليها أثناء حياتها الزوجية .

● وفى حالة شك الزوج فى سلوك زوجته بناءً على وشاية أو خبر نقله إليه الآخرون ، ولم يكن فى استطاعته أن يثبت سوء سلوكها بدليل قاطع ، فإن عليه فى هذه الحالة أن يشكوها إلى المحكمة ، حيث يتم التحقيق مع الزوجة فى هذه الوشاية . وعندئذ يكون للزوجة الحق فى دفع هذه التهمة عن نفسها بأن تقسم قسماً إلهياً مقدساً تقول فيه لزوجها أمام هيئة المحكمة : « أقسم بالإله . . . إنى لم أرتبط بأى شخص ولا أقمت أية علاقة غير مشروعة مع أى شخص آخر منذ يوم زواجنا حتى الآن » . وبمجرد إعلان هذا القسم تسقط التهمة عن الزوجة حيث يترك أمرها للإله الذى أقسمت به والذى يعاقب

بالعمى كل من يقسم به زوراً أو بهتاناً . ولكن يكون للزوج الحق فى طلاقها بعد هذه الفضيحة التى تلحق بشرفه وكرامته . ويكون عليه فى هذه الحالة أن يعوّض زوجته بتعويض باهظ مناسب لمكانتها الاجتماعية ، بالاضافة إلى رد كل ممتلكاتها الأخرى .

● وإذا كانت الزوجة قد قدمت « دوطة » عند زواجها فيجب على الزوج أن يرد هذه الدوطة فى حالة حدوث الطلاق ، بالاضافة إلى تعويض مطلقته « بثلث » ممتلكاته . كما أن عليه أن يقدم كل ما وعد بتقديمه إلى زوجته إذا حدث الطلاق برغبته ، وذلك طبقا لما نص عليه عقد الزواج .

● وللمطلقة إذا كانت حاضنة لأطفال صغار أن تحتفظ بحق الإقامة فى بيت الزوجية حتى انتهاء فترة الحضانة ، مع حقها أيضاً فى الحصول على « نفقة » لها ولأطفالها . ولكن فى أغلب الأحوال كانت المطلقة تعود إلى العيش فى بيت أبيها أو عائلتها باعتباره البيت الذى تربت فيه والمسئول عن رعايتها فى مصيرها الذى آلت إليه بعد طلاقها .



الأبناء .. بين زوجة الأب أو زوج الأم

بعد أن يتم الطلاق بين الزوجين . . أو بعد وفاة الزوجة أو الزوج ، قد يتزوج المطلق أو الأرمل بامرأة أخرى تحل محل مطلقته أو محل زوجته المتوفاة . . كما قد تتزوج المطلقة أو الأرملة برجل آخر يحل محل مطلقها أو محل زوجها المتوفى . . فكيف كان موقف الأبناء من زوجة الأب . . أو موقفهم من زوج الأم . . وذلك طبقا للمعايير الاجتماعية والأعراف التى كانت سائدة فى المجتمع المصرى القديم . . ؟

● من طبيعة الأمور أن المشاعر الانسانية داخل الروابط العائلية لا تختلف كثيرا باختلاف الزمان ولا باختلاف المكان . ولذلك فيمكن تحديد المواقف المحتملة فى احتمالين واضحين :

● الاحتمال الأول : أن تكون « زوجة الأب » الجديدة رحيمة القلب بالنسبة لأبناء زوجها الذين أنجبهم من زوجته الأولى ، خصوصاً إذا كانوا أطفالاً صغاراً يحتاجون للرعاية والتنشئة السليمة ، فتعطف عليهم وتسهر على راحتهم وتلبى طلباتهم وتشرف على تربيتهم كما لو كانوا أبناءها ، وحتى إذا أنجبت من زوجها أبناء جدداً فهى لا تفرق فى المعاملة بين أبنائها وأبناء زوجها من زوجته الأولى . وفى هذه الحالة لايكون هناك مجال لظهور المشاكل العائلية وتسير الحياة سيرها المعتاد .

● والاحتمال الثانى : أن تكون « زوجة الأب » الجديدة قاسية القلب ، فتعامل الأبناء الصغار الذين أنجبهم زوجها من زوجته الأولى بلا رحمة ، وتقسو عليهم وتهملهم وتقلب عليهم مشاعر أبيهم ، وتشكوهم إليه بحق أو بغير حق ، وتعاقبهم

بسبب أو بلا سبب ، فتحل الكراهية المتبادلة بينها وبينهم ، وتضطرب الأحوال العائلية فى البيت وتحل المشاكل محل المحبة والوئام .

● هذا بالنسبة للأطفال والأبناء الصغار . . أما إذا كان لهذا الأب أبناء كبار بلغوا الرشد ، فإن الاحتمال الأكبر انهم سينظرون إلى زوجة أبيهم الجديدة نظرة غير ودية بسبب اختلاف المصالح ، فهم يدركون أن هذه الزوجة الجديدة - هى والأبناء الذين تنجبهم - سيشاركونهم فى الميراث ، بالاضافة إلى شعورهم بأن هذه الزوجة الجديدة أصبحت تشغل فى قلب أبيهم نفس المكان الذى كانت تشغله أمهم المطلقة أو المتوفاة .

● هذه الاحتمالات التى قد تكتنف الأحوال العائلية بالنسبة لزوجة الأب قد تحدث أيضا بصورة عكسية بالنسبة « لزوج الأم » الجديد الذى قد يتزوج امرأة مطلقة أو أرملة ذات أبناء من زوجها الأول . وقد ضربنا مثلا بتلك الاحتمالات لأنها حدثت على وجه التقريب فى المجتمع المصرى القديم . وقد أوردت العالمة الفرنسية كريستين نوبلكور - وهى ضالعة فى عالم المصريات - بعض النماذج لمثل هذه الأحوال من واقع ما تمت دراسته من البرديات المصرية القديمة .

● هناك بردية تحكى قصة حياة أحد ضباط الجيش المصرى يقول فيها إنه اضطر للهرب من بيت أبيه الذى تزوج بامرأة أخرى بعد وفاة والدته ، وذلك لأن هذه المرأة كانت تسيىء معاملته وتقلب مشاعر أبيه ضده .

● ومن بردية أخرى نعرف أن إحدى البنات واسمها « تحنوت » قد رفعت قضية أمام المحكمة ضد أبيها الذى تزوج - بعد وفاة أمها - بامرأة أخرى اسمها « سنب تيس » . وقام الأب بعمل وصية لزوجته الجديدة ولأولاده منها ، يوصى لهم فيها بأيلولة ما يمتلكه من أراض وعقارات كميراث عند وفاته ، وذلك بالرغم من أن بعض هذه الممتلكات قد آلت إليه كميراث من زوجته الأولى أم ابنته « تحنوت » .

● وهناك وثيقة أخرى دوّنها أحد كبار الكهنة واسمه « حقا نخت » وهى عبارة عن رسالة أرسلها هذا الكاهن إلى ابنه الأكبر واسمه « مرى سو » يطالبه فيها بضرورة احترام زوجة أبيه واسمها « إيوت محب » وذلك بعد أن تبين أن هذا الابن واخوته من الصبيان

والبنات كانوا يسيئون معاملة زوجة أبيهم ، بل وقد انضمت إليهم خادمة البيت واسمها « سمن » وأصبحت هى الأخرى لا تعامل سيدتها الجديدة بالاحترام الواجب . وخلاصة الرسالة ان هذا الأب قد أصدر أوامره بطرد هذه الخادمة من البيت ، وهدد أبناءه وبناته بانه سيوقع عليهم أشد عقاب ما لم يغيروا طريقة معاملة زوجته الجديدة ويحترمونها الاحترام الواجب باعتبارها زوجة لأبيهم ، خصوصاً وانها لم ترتكب شيئا يؤدى إلى تكتل أولاده ضدها ومعاملتها بهذه الطريقة السيئة .



نساء مصر القديمة .. وكيدهن العظيم

مثل كل النساء فى كل زمان وكل مكان ، كان بين نساء مصر القديمة نساء صالحات وأخريات طالحات . كانت هناك المرأة العفيفة الطيبة الوفية لزوجها والمحافظة على فرجها وشرفها والتى تتخذ من إيزيس رمزاً مقدساً للوفاء وللأمومة الصالحة ، كما كانت هناك أيضا المرأة الطالحة غير الوفية والتى يمتلىء قلبها بالخيانة والكيد العظيم ، والتى تدبر المؤامرات وتنسج أحابيل الغدر .

● وقد تنبه حكماء مصر القديمة فى مختلف العصور إلى أن الحياة لا تخلو من هذين النوعين من النساء ، فحذروا الرجل بمختلف المحاذير لكى يتدبر أمره عندما يختار زوجته ، وكتبوا الحكم والوصايا باختيار الزوجة من النساء الصالحات الطيبات حتى ولو كن على غير قدر كبير من الجمال والأنوثة . وقال الحكيم « كاجمنى » [من الدولة القديمة] فى ذلك : « المرأة الجميلة ليست دائماً طيبة ، ولكن المرأة الطيبة دائما جميلة » وقال : « مهما كانت الزهرة جميلة فقد تجد بها بعض الأشواك » وقال : « من يعشق الحية لا يسلم من سمومها » .

● وقال الحكيم « آنى » [من الدولة الحديثة] محذراً الرجال من الوقوع فى حبائل النساء الجميلات واختيار الزوجة بسبب جمالها وحده دون تبصر بأصلها والتأكد من حسن منبتها وجمال أخلاقها : « ليس لكل الزهور الجميلة رائحة زكية . . ومن يتزوج بامرأة لأجل جمالها وحده مثله كمثل من يشترى بيتا لجمال طلاء واجهته الخارجية دون أن يعلم بأن داخله غير مريح . . احذر فإن ابتسامة الأفعى تخفى أنيابها السامة » .

● ولحسن الحظ تم العثور على وثائق أثرية تحكى لنا بعض قصص الكيد والمؤامرات التى كانت تدبرها بعض النساء الطالحات سواء أكن من نساء الشعب أم من الملكات أو نساء البلاط الملكى . ونبدأ هنا بقصة عن كيد امرأة من نساء الشعب مالت إلى خيانة زوجها مع أخيه الأصغر . . وهى قصة معروفة فى الأدب المصرى القديم باسم «قصة الأخوين » . وهاكم ملخص لها باختصار شديد :

● فى إحدى القرى كان يعيش أخوان متحابان ، الأخ الأكبر متزوج واسمه « أنوب» والأخ الأصغر غير متزوج واسمه « باتا » ، وكان هذا الأخ الأصغر الساعد الأيمن لأخيه الكبير وكان يعتبره والداً له ويعتبر زوجته مثل أمه . وفى أحد الأيام بينما كان الأخوان يعملان فى حرث الأرض ، أمر الأخ الأكبر أخاه الصغير بأن يذهب إلى البيت لاحضار كيل من البذور يبذرانها بعد الحرث . واتجه الأخ الأصغر فوراً إلى البيت لتنفيذ أوامر أخيه . وعندما وصل إلى البيت كانت زوجة أخيه تمشط شعرها . . وانتهزت خلو البيت فنادت على « باتا » وراودته عن نفسه وقالت له : « تعال نقضى معاً ساعة حب » . . اندهش « باتا» من هذه الغواية المفاجئة . ولكن لحسن خلقه لم يؤنب زوجة أخيه على هذا السلوك الشائن بل عاملها بالحسنى وقال لها إنه يعتبرها مثل أمه ويعتبر أخاه الأكبر أباً له . ولهذا السبب فلن يخبر أخاه بشىء وسيحتفظ بهذا السر لنفسه ولن يبوح به لأحد . . وأن عليها أن تكفر عن تلك السيئة وترعى حدود الآلهة .

● ولكن عندما عاد الأخ الأكبر إلى البيت وجد زوجته تبكى وتتألم ، وقالت له بكل مقدرتها على الكيد كذباً وافتراء إن أخاه عندما وجدها وحيدة بالبيت راودها عن نفسها ، فعنفته قائله له إنها مثل أمه وعليه أن يحفظ شرف أخيه ، ولكنه لم يسمع كلامها فهجم عليها وضربها وحاول اغتصابها بالقوة ولكنها قاومته وطردته .

● وعلى الفور قرر الأخ الأكبر أن يقتل أخاه عندما يعود إلى البيت ، وأخذ سلاحه واختبأ خلف باب الحظيرة . وقبيل مغيب الشمس جمع الأخ الأصغر المواشى والأبقار من الحقل واتجه نحو البيت. وعندما اقترب من باب الحظيرة حدثت معجزة ، فقد تراجعت إحدى الأبقار وقالت «لباتا» إن أخاه الأكبر يضمر له شراً وينوى قتله وعليه أن يفر بحياته من هذا الشر المنتظر .

● وهكذا أخذ الأخ الأصغر يجرى بأقصى سرعة ، وانطلق أخوه الأكبر وراءه حاملاً سلاحه . ولكن الإله خلق بين الأخوين بحيرة مليئة بالتماسيح المتوحشة فحالت بين الأخوين . . وعندئذ شرح الأخ الأصغر لأخيه حقيقة ما ارتكبته زوجته من غواية ، وانها هى التى راودته عن نفسه ولكنه رفض إكراماً لأخيه ومحافظة على شرفه . . وبسبب حدوث هذا الشر فلن يعود إلى البيت لأن الحياة لن تعود صافية مثلما كانت . . ورحل الأخ الأصغر إلى وادى الأرز [لبنان] وعاد الأخ الأكبر إلى البيت نادماً وقتل تلك الزوجة الخائنة التى فرقت بينه وبين أخيه .

● ونكتفى بهذا القدر الملخص من تلك القصة . وعلى من يريد قراءة أصلها الكامل ، فعليه الرجوع إلى الجزء الأول من كتاب « الأدب المصرى القديم » للدكتور سليم حسن .

● ويقول مؤرخو الأدب العالمى إن هذه القصة القديمة ذاعت حوادثها وما تضمنته من هدف أخلاقى فى مختلف المجتمعات الانسانية شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً قديماً وحديثاً ، ونسجت على منوالها قصص أدبية مماثلة فى كل من فرنسا وإيطاليا وألمانيا والنمسا والمجر وروسيا والبلاد السلافية ورومانيا واليونان وآسيا الصغرى والحبشة والهند .



كيد النساء .. فى بلاط الملوك

كان من المتعارف عليه فى مصر القديمة أن أبناء الطبقات الشعبية لا يتزوجون إلا بزوجة واحدة ، ولا يستطيعون الزواج بامرأة أخرى إلا إذا طلقوا الزوجة الأولى ، أو فى حالة وفاة هذه الزوجة ، ذلك لأن تعدد الزوجات بالنسبة للطبقات الشعبية كان من الأمور غير المباحة . وكان الحال على العكس من ذلك بالنسبة لطبقة النبلاء وكبار رجال الدولة ، حيث كان مباحاً لهم حق الزواج بأكثر من امرأة أو بحق امتلاك المحظيات . وفى جميع الأحوال كانت الزوجة الأولى لهم هى « الزوجة الرئيسية » والتى تحمل دائما لقب « نبت بر » أى « ست الدار » .

● وبالنسبة للملك الجالس على العرش كان الأمر مختلفاً إلى حد كبير ، فقد كان الملك مقيداً فى الغالب بالزواج من داخل الأسرة الملكية حتى يضمن حقه فى اعتلاء العرش ، وكانت زوجته الأولى تعتبر « الزوجة الملكية العظمى » . وكان للملك أيضا حق الزواج بزوجات ثانويات كان يطلق عليهن لقب « حمت نسو » أى زوجة الملك . ولكن هؤلاء الزوجات الثانويات لم يحملن مطلقا لقب « الزوجة الملكية العظمى » الذى كان قاصراً على الزوجة الأولى للملك والتى كان لأبنائها حق اعتلاء العرش بالوراثة بعد وفاة الملك .

● وهناك شواهد تاريخية كثيرة نعرف منها أن ملوكاً كثيرين قد تزوجوا بنساء من خارج نطاق أسراتهم الملكية مع وجود « الزوجة الملكية العظمى » وهى الزوجة الأولى التى تتمتع بحق رئاسة شئون البيت الملكى ، والتى كانت لها القدرة فى بعض الأحيان

فى الاشتراك المباشر مع الملك فى إدارة شئون الدولة الداخلية والخارجية . أما الزوجات الملكيات الثانويات فلم يكن لهن مثل هذا الحق .

● وتدل الشواهد التاريخية أيضا على وجود عدة أسباب لقيام الملك بالزواج من تلك الزوجات الملكيات الثانويات ، منها أن يكون الملك بطبعه ميالاً للنساء ، ومنها فى كثير من الأحيان أن يتم الزواج لأسباب سياسية ، كان يتزوج الملك من بعض بنات حكام الأقاليم فى الوجه البحرى أو الوجه القبلى ، أو يتزوج ببعض بنات ملوك الدول الأجنبية كنوع من تطبيع وتدعيم العلاقات مع تلك الدول .

● كذلك فقد كان للملك الحق فى الاحتفاظ بمحظيات عديدات ، سواء أكن من المصريات أو من جنسيات أجنبية مختلفة . وكانت المحظيات يعشن عادة داخل الجناح الخاص بالحريم والملحق بالقصر الملكى .

● فى مثل هذا الجو الحريمى الخاص ، الذى يجمع بين كل هذه الأنواع من النساء اللاتى لهن علاقة مباشرة بالملك وإن اختلفت درجاتها ، سواء أكن من « الزوجات الملكيات الرئيسيات » أو من « الزوجات الملكيات الثانويات » أو من « المحظيات » يمكن أن تنشأ المناورات والمؤامرات النسائية التى تدبرها النساء ضد بعضهن على سبيل المنافسة فى الحصول على حظوة خاصة لدى الملك ، أو بقصد تفضيل ما ينجبنه من أولاد وبنات على أولاد وبنات الأخريات . غير أن أخطر المؤامرات التى كانت تحاك فى الحريم الملكى هى المؤامرات التى تهدف إلى الإطاحة بالملك ولو بقتله ، حتى يجلس على عرش البلاد إبن لإحدى الزوجات الملكيات الثانويات بدلاً من الوريث الشرعى للعرش الذى يكون فى العادة الإبن البكر « للزوجة الملكية العظمى » .

● ونادرة هى الأخبار التى سجلتها الآثار عن حدوث المؤامرات التى كانت تحاك داخل الحريم الملكى ، وذلك أمر طبيعى حيث كان من غير اللائق نشر أسرار القصر الملكى على الشعب ، وهى أسرار لا يجب أن يعرفها إلا أقرب الأقربين للملك والذين يحوزون ثقته ويحفظون أسراره .

● وقد وصلت إلينا وثيقة أثرية تحكى جانبا من إحدى هذه المؤامرات التى حدثت

داخل القصر الملكى فى عهد « الملك بيبى الأول » [من ملوك الأسرة السادسة التى حكمت مصر من عام ٢٤٦٠ إلى عام ٢٢٠٠ ق م] . ومن الغريب أن بطلة تلك المؤامرة كانت « الزوجة الملكية الرئيسية العظمى » ولم تكن من الزوجات الملكيات الثانويات أو من المحظيات .

● وللأسف فإننا لم نعرف تفاصيل تلك المؤامرة التى دبرتها الملكة ، بل ولا يدل على وجود تلك المؤامرة سوى نص تركه أحد كبار رجال الدولة واسمه « آونى » كان الملك بيبى الأول يثق فيه ثقة كبيرة ، فعينه « قاضياً فوق العادة » وأطلعه الملك على أسراره الخاصة وبما فعلته الملكة ، وطلب منه « وحده » ـ دون أى شريك آخر ـ أن يقوم بالتحقيق ومحاكمة الملكة والاستماع إلى الشهود وتقدير شهاداتهم . ومن الغريب أن هذا النص لم يشر إطلاقاً إلى اسم هذه الملكة ، ولم يشر إلى الحكم الذى صدر ضدها . وأغلب الظن انه كان حكماً بالنفى أو بارغامها على الانتحار وقتل نفسها بنفسها .



رأس تمثال للملك « بيبى الأول »

مسلسل قتل الأزواج .. ولو كانوا ملوكا

نقرأ بين حين وآخر فى صحفنا الحديثة أخباراً عن تلك الجريمة الشنعاء حين تقوم إحدى الزوجات بقتل زوجها ، سواء بقيامها بنفسها بدور القاتلة ، أم بتحريض آخرين على القتل والاشتراك فيه . . وأغلب حوادث القتل هذه ترجع لأسباب شخصية محددة ، كسوء معاملة الزوج لزوجته ، أو لبخله ، أو لانحراف الزوجة فى علاقة آثمة مع عشيق ورغبتها الشريرة فى إخلاء الجو .

● وحتى الآن لم يعثر فى الآثار المصرية على أى دليل لقيام نساء الشعب المصرى القديم بارتكاب مثل هذه الجريمة فى حق أزواجهن ، وذلك فيما عدا تلك الوثائق الأثرية القليلة التى يفهم منها أن المؤامرات التى كانت تدبرها نساء الحريم الملكى بكيدهن العظيم كانت نادرة الحدوث فى عصر الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة . . ومن هذه الوثائق وما تضمنته من معلومات وإشارات قليلة ، استطعنا معرفة بعض أسرار مؤامرة أو أكثر من تلك المؤامرات التى دبرتها نساء القصور الملكية ضد الملوك أنفسهم . . ولوحظ أن دوافع تدبير تلك المؤامرات كانت سياسية محضة ، ولم تكن هناك أية شبهة لوجود دوافع أخلاقية أو عاطفية .

● وكان من المفترض أن الغالبية العظمى من الزوجات الملكيات الثانويات والمحظيات ممن يعشن داخل القصور الملكية كن على صلة بأشخاص آخرين ممن يعيشون داخل تلك القصور أو خارجها ، سواء أكانوا من أقاربهن أو من الموظفين الذين يتولون إدارة أعمالهن ، أو من الخدم الذين يعملون فى خدمتهن . ولذلك فقد

كانت الفرص متاحة إلى حد ما لمن تريد التآمر ضد الملك ، أو للتحريض على إثارة الشغب أو القلاقل الشعبية خارج القصر الملكى .

● وكان السبب الرئيسى الدافع لتدبير مثل هذه المؤامرات ، هو رغبة إحدى نساء القصر الملكى فى أن يتولى إبن لها من الملك عرش البلاد بدلاً من الوريث الشرعى للعرش ، وهو الابن الأكبر للملك من « زوجته الملكية الرئيسية » . وهذا بالضبط هو ما حدث فى المؤامرة التى دبرتها إحدى الزوجات الملكيات الثانويات ضد الملك «أمنمحعت الأول » وهو من ملوك الدولة الوسطى ومؤسس الأسرة الثانية عشرة التى حكمت مصر من عام ١٩٩١ إلى عام ١٧٨٥ ق م .

● وقد استطاع المؤرخون التوصل إلى معرفة تفاصيل هذه المؤامرة استناداً إلى مصدرين أساسيين من الأعمال الأدبية المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى . . والمصدر الأول هو نص أدبى كان عنوانه « تعاليم ونصائح الملك امنمحعت الأول لابنه الملك سنوسرت الأول » . . والمصدر الثانى هو النص الأدبى لقصة « سنوحى » وهى قصة شهيرة فى الأدب الصرى القديم . ونقدم فيما يلى مختصراً لوقائع تلك المؤامرة .

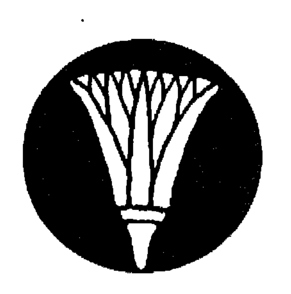
● فى يوم يوافق يوم ١٥ فبراير سنة ١٩٦٢ قبل الميلاد ـ وهو تاريخ محدد بالضبط توصل إليه العلماء بعد دراسات تطبيقية رياضية وفلكية ـ تم اغتيال الملك امنمحعت الأول بينما كان نائماً فى غرفة نومه . وطبقا لنص التعاليم المشار إليها ندرك على الفور أن هذه التعاليم كتبها أحد الأدباء الحكماء المصريين بعد مقتل الملك ، وجعل الملك القتيل يحكى بلسانه وقائع عملية الغدر التى انتهت بقتله ، والتى دبرتها زوجة ثانوية لكى تضمن وراثة العرش لابنها من الملك ، بدلاً من الوريث الشرعى الذى تولى العرش فعلاً بعد مقتل أبيه باسم « سنوسرت الأول » .

● وفى هذه التعاليم يحذر الملك القتيل إبنه من كل الموجودين بالقصر من نساء ورجال ، ويحكى له كيف هجم عليه حراسه الخصوصيون ومعهم أسلحتهم الباترة فاغتالوه غدراً أثناء نومه ، بالرغم من أن الملك حاول الدفاع عن نفسه ولكن ـ كما جاء

فى نص التعاليم ـ « إن الانسان لا يستطيع أن يكون قوياً أثناء الليل ، ولا يستطيع أن يقاتل مهاجميه الغادرين وحده » .

● ويشير الملك امنمحعت فى تعاليمه إلى أن المؤامرة كانت بتدبير إحدى نساء القصر حيث يقول فى أسى : « هل رأى أحد من قبل امرأة تقوم بتكوين العصابات . . وهل يتصور أحد أن المحرضين على القتل كانوا من ضمن الذين يعيشون فى كنفى ؟ » .

● أما قصة « سنوحى » فتشير أيضا إلى بعض تفاصيل هذه المؤامرة التى انتهت بقتل الملك حتى يتولى العرش إبن للملك من زوجة ثانوية بدلاً من الوريث الشرعى للعرش ، وهو الملك « سنوسرت الأول » .



مؤامرة حريم .. ضد ملك عظيم

« ابتهجي يا بلادى حتى عنان السماء . . فأنا الذى أوجدتنى الآلهة لأكون ملكاً على مصر . . لأقويها وأصد عنها أعداءها من أهالى السهول والممالك الجبلية وشعوب البحر» . . هذا النص منقوش على أحد جدران منشآت « مدينة هابو » بغرب الأقصر بأمر من الملك رمسيس الثالث ، وهو من ملوك الأسرة العشرين وحكم مصر فى الفترة من عام ١٢٠٠ إلى عام ١١٦٨ قبل الميلاد .

● وقبيل أن يعتلى رمسيس الثالث عرش البلاد ، أصبحت مصر مطمعاً لجميع الشعوب التى كانت تحيط بها من الشرق والغرب ومن الجنوب والشمال . وقامت بين هذه الشعوب تحالفات سياسية وعسكرية واتفاقات على النزوح إلى الديار المصرية والاستيطان فى أراضيها . ولذلك فقد كانت كل الهجمات التى قامت بها تلك الشعوب تتكون من الجنود المسلحين بأحدث الأسلحة التى كانت معروفة فى ذلك العصر ، ومعهم عائلاتهم وأسرهم ومجموعات غفيرة من عائلات وقبائل بأكملها وبمن كان فيها من نساء وأطفال صغار .

● وتدل الشواهد الأثرية والتاريخية على أن تلك الشعوب كانت من النوبيين بجنوب مصر ، ومن الليبيين بغربها ، ومن « البلست » وهم الفلسطينيين والشعوب الأخرى التى كانت تعيش فى المناطق السورية وآسيا الصغرى ، ومن شعوب جزر بحر إيجه ، ومن « الشكلش » وهم أهالى جزيرة صقلية [لاحظ تقارب الاسم المصرى بنطق اسم هذه الجزيرة] ، ومن شعوب « الشردانا » وهم أهالى سردينيا [لاحظ التقارب بين الاسمين] . وكانت الخطط التى وضعتها هذه التحالفات بين تلك الشعوب هى الهجوم على الأراضى المصرية براً وبحراً باستعمال السفن الحربية .

● وما أن اعتلى رمسيس الثالث عرش مصر حتى بذل جهداً جباراً فى إعادة تكوين وتسليح الجيش المصرى حتى أصبح يضاهى جيش مصر فى عهد رمسيس الثانى ، كما أنشأ أسطولاً حربياً عظيماً أطلق عليه اسم « اللهب » للتعبير عن مدى قوة هذا الاسطول وقدرته الحربية ، ثم تصدى لهجمات تلك الشعوب فدحرها جميعها ، وسحق وأباد جيوش الأعداء التى جاءت من طريق البر ، ودمر سفن الأعداء فى موقعة بحرية مرسومة على جدران مدينة هابو ، مع تقرير عن عدد أيدى الأعداء التى أمر الملك بقطعها وأعداد الأسرى الذين كبلهم بالحبال مذمومين مدحورين ، وأعداد الغنائم الحربية التى استولى عليها الجيش المصرى بعد انتصاراته المبهرة .

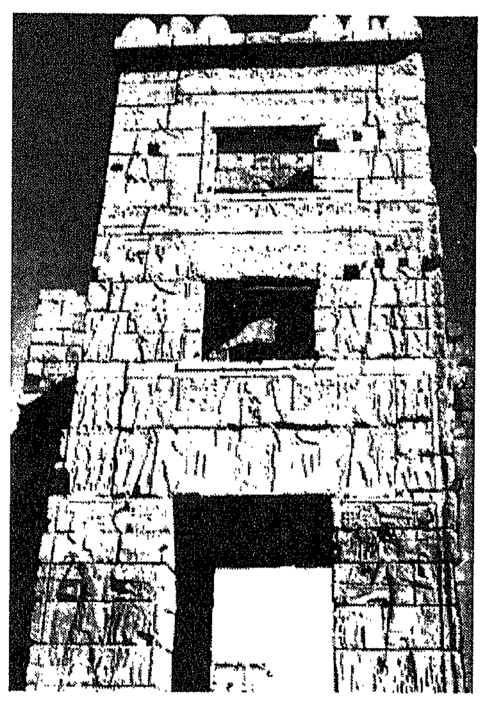
● وفى نقوش مدينة هابو أيضا نشاهد مناظر الرفاهية والحياة الناعمة الرغدة التى عاشها الملك فى قصره بعد انتصاراته واطمئنانه إلى قطع دابر جميع الأعداء الذى كانوا يهددون بلده . . ونرى الملك جالساً وسط حريمه الذى كان يتكون من أجمل الحسناوات من المصريات والأجنبيات وهن يعزفن الموسيقى وينشدن الأغانى ويقدمن إليه الزهور والمشروبات .

● وبطريق المصادفة تم العثور ضمن آثار المكتبة التى كانت ملحقة بمعبد مدينة هابو على ملف من البردى يتضمن جميع التفاصيل لمؤامرة دبرتها بعض نساء الحريم للتخلص من الملك وقتله . . وهى مؤامرة كانت واسعة النطاق اشترك فيها مع تلك النسوة مجموعة من الكهنة وضباط الحرس الملكى وكبار موظفى القصر وخدم الملك . . وقد وضع هؤلاء خطة لاثارة القلاقل والاضطرابات الشعبية ضد الملك ، واستعمال السحر لإيقاع الأذى بالملك وبرجاله المخلصين داخل القصر ، كما وضعوا خطة لقتل الملك واعطاء العرش لأحد أبناء الملك واسمه « بنتاور » من زوجة للملك اسمها «تى» .

● ومن واقع نصوص هذا الملف نعرف أن هذه المؤامرة قد اكتشفت أثناء محاولة تنفيذها . . وأن الملك قد أصدر مرسوماً بتكوين محكمة خاصة لمحاكمة جميع المشتركين فى تلك المؤامرة وإدانة الضالعين فيها وتبرئة من تثبت براءته .

● ويتبين لنا من واقع النصوص أن جميع المتهمين فى تلك المؤامره أطلقت عليهم مجموعة من الاسماء والأوصاف لتحقيرهم . كما تدل النصوص أيضا على فضيحة قضائية حيث تسلل الفساد إلى بعض أعضاء هيئة المحكمة ، فقد تم ضبط خمسة من القضاة [وكانوا ثلاثة مستشارين واثنين من ضباط الشرطة] كانوا حاضرين فى حفلة ماجنة اشتركت فيها بعض السيدات المتهمات فى المؤامرة وزوجات بعض الرجال المتهمين . وقد اعتقلوا جميعاً وحوكموا .

● وفى النهاية صدر حكم الإعدام على كثيرين ممن اشتركوا فى تلك المؤامرة ، كما حكم على الأمير « بنتاور » بأن يقتل نفسه بنفسه . أما القضاة الخمسة فقد صدر الحكم ببراءة أحدهم ، وحكم على واحد منهم بأن ينتحر بالطريقة التى يراها ، وحكم على الثلاثة الآخرين بجدع أنوفهم وقطع آذانهم حتى يحملوا وصمة العار والخيانة طوال حياتهم . أما الزوجة الملكية « تى » التى كانت أس المؤامرة فلم يرد لها ذكر فى المحاكمة ، ومن المحتمل أن الملك تولى أمرها بنفسه .



مدخل قصر الملك « رمسيس الثالث » بمدينة هابو
ومن المحتمل أن المؤامرة كانت بداخل هذا القصر

المرأة المصرية القديمة .. وفنون الماكياج

ما من شعب من شعوب العالم القديم كان مولعاً بالنظافة والتجميل مثل المصريين القدماء . . لقد اندهش المؤرخون القدماء من الإغريق والرومان الذين زاروا مصر فى أواخر تاريخها الفرعونى ، وحين كانت شمس الحضارة المصرية القديمة العريقة تميل نحو الغروب ، عندما سجلوا فيما تركوه لنا من كتب ومذكرات ، ذلك الحرص المبالغ فيه على اصرار المصريين على الاستحمام مرتين كل يوم .

● قال هيرودوت مثلا : إن المرأة المصرية تحرص على الاستحمام بمجرد أن تقوم من النوم كل صباح وقبل أن تباشر عملها سواء بداخل البيت أو خارجه . . كما قال ديودور الصقلى : إن المصريين عندما يستحمون . . يحرصون على غسل كل أعضاء الجسم عضواً عضواً وبعناية فائقة ، ويحرصون على دهن أجسامهم بعد الاستحمام بأنواع مختلفة من الزيوت والدهون العطرية ذات الروائح الزكية .

● وإذا تأملنا فى أى أثر ، يتضمن صورة المرأة ، من الآثار التى تركها لنا المصريون القدماء منذ عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية العصور الفرعونية ، سواء أكان هذا الأثر تمثالاً منحوتا لها أو نقشاً مرسوماً على الجدران أو على صفحات البردى ، لوجدناها امرأة جميلة المحيا تهتم بمظهرها وتبرز مواطن جمالها وملامح وجهها دون إسفاف أو بهرجة ، وإنما بوقار يتناسب مع فكرة الجمال بكل ما تمثله من مشاعر راقية وذوق سليم .

● ومنذ عصور ما قبل التاريخ ابتكرت المرأة المصرية مجموعة من الوسائل التى تساعدها على إبراز جمالها . فقد اكتشفت أهمية تلوين العيون ومحاجرها باللون الأسود

أو الأخضر ، وتلوين الخدود والشفاة باللون الأحمر ، واستخدام بودرة التلك لتفتيح لون البشرة وزيادة ملمسها نعومة ورقة بالاضافة إلى دهان الوجه والصدر والذراعين بالدهون العطرية ، وتسريح الشعر وتصفيفه بأشكال جميلة مختلفة .

● وقد تم العثور على آلاف من القطع الأثرية التى يرجع زمانها إلى مختلف حقب التاريخ المصرى القديم ، والتى كانت تستخدم فى عمل وتجهيز المواد والأدوات اللازمة لزينة المرأة . . فهناك مجموعة كبيرة من الصناديق والأوانى الأثرية التى كانت تستعمل لحفظ العطور والدهانات العطرية . وكانت هذه الأوانى تصنع من الخشب الثمين أو من المرمر أو من العاج أو من الخزف والزجاج الملون . وكانت تصنع بأشكال وتكوينات فنية متعددة لإبراز جمالها من ناحية وإبراز أهمية ما كانت تحتويه هذه الأوانى من مواد ثمينة .

● كما عثر أيضا على مئات من « المصاحن » التى كانت تستخدم فى طحن المواد الملونة التى تستعمل فى التزيين والتجميل ، مثل مادة « الملاخيت » المائلة للخضرة أو الزرقة ، ومادة « المغرة » الحمراء أو الصفراء ، ومادة حجر التلك الشديدة البياض ، ومادة «الجاليت » المستخرجة من خام الرصاص وذات اللون الرمادى . وغير ذلك من المواد الأخرى التى كانت تستخدم كمواد أولية لتحضير الألوان المختلفة اللازمة لعمل الماكياج ، الأمر الذى يؤكد أن المرأة المصرية القديمة لم تترك مادة طبيعية من النبات أو الجماد يمكن أن تستخرج منها الألوان التى تستخدم فى الزينة ، إلا ووجدت الطريقة المناسبة لاستخراج وتحضير تلك الألوان واستخدامها الاستخدام المناسب . وعلى سبيل المثال فقد استخرجت من قشر الرمان اللون الأحمر الوردى ، ومن نبات القرطم اللون الأصفر الزاهى ، واستخدمت اللونين فى صباغة الشعر ثم فى صباغة الخيوط المستخدمة من صنع الأقمشة .

● كذلك فقد تم العثور على أقدم أمشاط الشعر فى تاريخ العالم . وكانت هذه الأمشاط مصنوعة من العظام أو من العاج أو من خشب الأبنوس وذات أسنان طويلة ولها أياد على شكل تكوينات جميلة من الحيوانات أو الزهور . وعثر كذلك على أقدم

دبابيس كانت تستعمل فى تجميع الشعر المسدل أو المضفر ، أو فى تثبيت الباروكات التى كانت شائعة الاستعمال كشعر مستعار . وكانت هذه الدبابيس مصنوعة من البرونز أو من الذهب المطعم بالأحجار الكريمة وشبه الكريمة .

● وهناك مئات من النقوش تبين لنا نساء الطبقة العليا من المجتمع وهن جالسات تحيط بهن الوصيفات والخادمات المنهمكات فى تزيينهن بالمساحيق والعطور وتصفيف شعورهن بأجمل طرق التسريحات المبتكرة .



وصيفتان تقومان بتزيين الأميرة « كاويت » . .
وهى من أميرات الدولة الوسطى

المرأة المصرية القديمة ..
صاحبة أول مرآة فى العالم

فى حوالى عام ٢١٥٠ قبل الميلاد قام المصريون القدماء بأول ثورة شعبية فى تاريخ العالم . . وكانت ثورة اجتماعية فى المقام الأول ، حيث هجم الفقراء على قصور الملوك والنبلاء والأغنياء واستولوا على كل ممتلكاتهم ومقتنياتهم وشاعت القلاقل والاضطرابات وانتشرت الجرائم وانهار الأمن العام ، وحدث أول انقلاب طبقى فأصبح الأغنياء والنبلاء من الرجال والنساء يهيمون فى الطرقات يتسولون الطعام ، بينما أصبح الفقراء من الأغنياء المترفين . وجاءت جملة فى أحد النصوص الأثرية التى وصفت تلك الثورة تقول : « . . ومن كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة » .

● ومن مفهوم هذا النص ندرك ان المرأة المصرية القديمة كانت تستعمل المرايا للتأكد من اكتمال زينتها . وتدل شواهد أثرية كثيرة على استعمال المرايا فى عصور سابقة على هذا التاريخ . وفى المتحف المصرى مرايا كثيرة من عصور مختلفة وذات أطر من النحاس أو الفضة أو الذهب . وفى المتحف البريطانى بلندن تعرض أيضا مجموعة من المرايا المصرية القديمة منها مرآة رائعة مصنوعة من البرونز ولها سطح شبه دائرى ويد جميلة منحوتة على شكل تمثال دقيق الصنع لامرأة رشيقة القوام .

● وفى كثير من المقابر الملكية ومقابر النبلاء نشاهد نقوشاً جدارية تصور الأميرات ونساء تلك الطبقة وهى جالسات على المقاعد ويمسكن بمرآه يرين فيها وجوههن بينما تقوم الوصيفات والخادمات بمهمات التجميل والزينة . . كما أن ثمة نقوشاً كثيرة تصور لنا النساء وهن ممسكات بالمرايا بينما يصبغن شفاههن بالفرشاة المستعملة فى طلاء

«الروج » أو عند قيامهن بتزجيج الحواجب باستعمال الملاقيط أو عند تلوين الخدود باللون الوردى أو عند تكحيل العيون باستعمال المكاحل والمرواد .

● وتدل الشواهد الأثرية أيضا على أن المرأة المصرية القديمة قد عرفت طرق «المانيكير والبديكير » لتزيين أظافر اليدين والقدمين ، بل وكانت بعض النساء يتفنن فى تلوين الأظافر بألوان مختلفة منها الأبيض والأحمر والوردى والأخضر والأزرق ، بل واستعملن أيضا أظافر صناعية مصاغة من الذهب يثبتنها على أطراف الأصابع .

● أما تصفيف الشعر الطبيعى واستعمال باروكات الشعر المستعار ، فقد برعت المرأة المصرية القديمة فى ابتكار تصميمات وتسريحات رائعة ذات أشكال مختلفة ، لدرجة يمكن القول معها بأن الغالبية العظمى من تسريحات الشعر حسب الموضات الحديثة ، كانت معروفة ف مصر القديمة ، وذلك مثل تسريحات : الكانيش والألاجارسون والشينواه والشعر المضفر والشعر المسدل وعمل القصة المسدلة على الجبين ، بالاضافة إلى تزيين الشعر بالزهور الطبيعية أو بالتيجان أو بالتوكات المصنوعة من الذهب والمجوهرات .

● وبطبيعة الحال فقد عرفت المقصات التى كانت تستعمل فى قص وتهذيب الشعر، كما كانت تستعمل فى قص الأظافر . . كما عرفت الأمواس ذات الحواف الحادة التى كانت تستعمل فى إزالة الشعر الزائد . وتدل الشواهد أيضا على وجود فئة من الرجال والنساء كانوا « كوافيرات » متخصصين فى تصفيف شعر السيدات . وقد اكتشف « إيمرى » عالم الآثار المصرية مقبرة فى جبانة سقارة كانت مخصصة لكوافير شهير من عصر الدولة القديمة اسمه « حتب كا » . كما تم العثور على بعض البرديات تتضمن أسماء مصففى الشعر الذين كانوا فى خدمة كل من الملكة حتشبسوت والملكة نفرتيتى .

● ومنذ عصور ما قبل التاريخ عرفت المرأة المصرية فوائد « الحناء » وكان اسمها فى اللغة المصرية القديمة « بوكر » واستخدمتها فى صباغة وتلوين الشعر والأكف

والأقدام. كما استعملت الحناء أيضا ـ بإضافة مواد أخرى ـ كعلاج لبعض الأمراض الجلدية .

●وحتى تكتمل زينة المصرية القديمة كان لابد من استعمال العطور المستخرجة من زهور اللوتس والياسمين والورد والسوسن والتمر حنة وزهور بعض الفواكه ذات الرائحة الزكية . وقد ابتكرت عدة طرق لتقطير وتجهيز هذه العطور على شكل سوائل أو دهانات . ومثلما هو شائع الآن فى العالم الحديث من تسمية أنواع العطور والبرفانات بأسماء جذابة ، كانت أنواع العطور فى مصر القديمة تسمى باسماء جميلة مثل : منعش القلب . . والجنة . . والحياة . . وتاج العطر . كما أطلقت أسماء الإلهات على بعض الأنواع الراقية من العطور مثل : إيزيس وحتحور .



المرآة الخاصة باحدى أميرات الدولة الوسطى ، وهى
مصنوعة من الفضة والذهب وحجر الأوبسيديان .
ويد المرآة على شكل الإلهة حتحور .

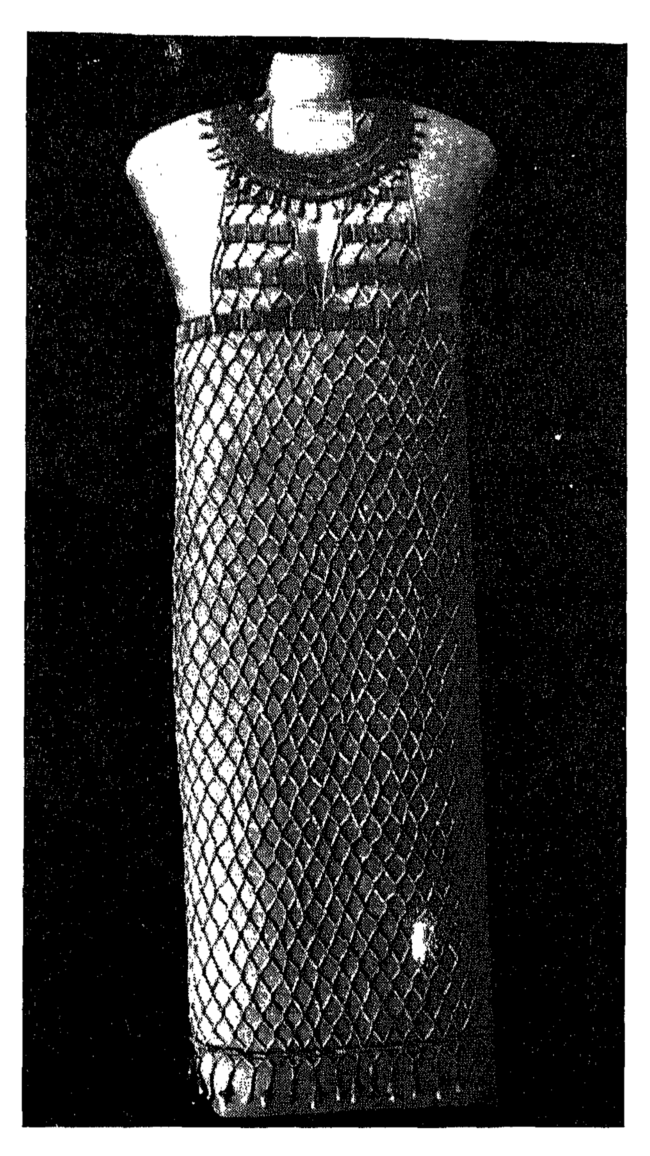
المرأة المصرية القديمة .. وأرقى موضات الأزياء

عرفت مصر زراعة الكتان منذ عصور ما قبل التاريخ وعرف المصريون فى ذلك الزمن السحيق كيفية تصنيع هذا النبات لاستخدامه كقماش تحاك منه الأردية والثياب ، وذلك من خلال عمليات تعطين هذا النبات وتنسيله وغزل خيوطه ونسجها بالأنوال .

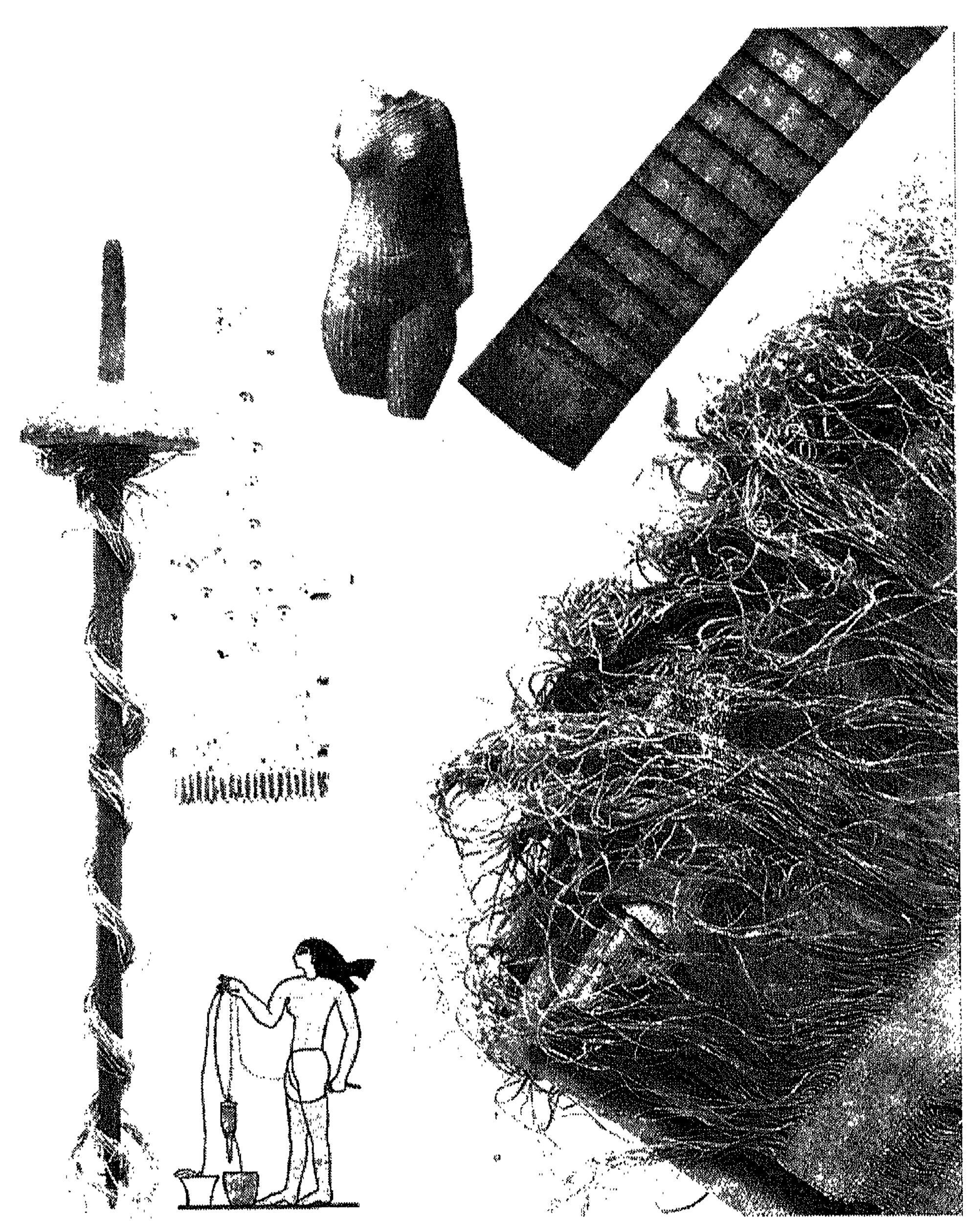
● وكانت هذه المهمات التصنيعية من المهام الكبرى التى ألقيت على عاتق النساء فى مصر القديمة . وتدل النقوش الأثرية على أن النساء المصريات قمن بعمليات تصنيع الكتان خير قيام ، سواء فى ذلك أثناء قيامهن بأعبائهن المنزلية أو بقيامهن بالعمل فى مصانع النسيج التى كانت تمتلىء بجموع من النساء تخصصن فى الغزل أو فى النسج أو فى تفصيل وحياكة الثياب .

● وقد تجلت مهارة المرأة المصرية القديمة فى غزل الكتان فى خيوط رفيعة جدا ، ثم نسج هذه الخيوط على شكل قماش رقيق شفاف يكاد يتماثل مع أرق أقمشة الحرير الطبيعى فى وقتنا الحاضر . وقد اندهش المؤرخون الإغريق القدماء من رقة وشفافية الأقمشة الكتانية المصرية فأطلقوا عليها اسما معناه « نسج الهواء » وذلك تأكيداً لما كانت تتصف به هذه الأقمشة من جودة وإتقان فى نسج خيوط من الغزل الرفيع كما لو كانت مصنوعة من الهواء الشفاف .

● وبصفة عامة فقد كان المصريون القدماء ـ رجالاً ونساءً ـ يفضلون أن تكون ثيابهم مصنوعة من القماش الأبيض الذى يميل إلى درجة « البيج » وهو لون الكتان الطبيعى ، إلا أن النساء كن يفضلن كذلك أن تكون الأقمشة التى تصنع منها ثيابهن مصبوغة بألوان حمراء أو زرقاء أو صفراء أو خضراء . . وأن تكون مزخرفة بأشرطة تتناسب ألوانها



ثوب نسائى للسهرة ، قماشه مجدول على شكل شبكة مزينة بالخرز
يرجع تاريخه إلى عصر الدولة القديمة .
[من معروضات متحف الفنون الجميلة فى بوسطن]



غزل ونسج خيوط الكتان والادوات المستخدمة فى هذه العملية ، وفى أعلى الصورة تمثال لجسم نفرتيتى [أوربما لإحدى بناتها وهى ترتدى ثوباً ذا ثنيات متكررة ـ بليسيه] .

مع لون الرداء ، أو تكون مطرزة بالأصداف أو بالخرز الملون أو بخيوط من الذهب والفضة بالنسبة لنساء الطبقة العليا من المجتمع .

● ومنذ أن ألقيت مهمة حياكة ملابس الرجال وملابس النساء على عاتق المرأة المصرية طبقا لقواعد تقسيم العمل التى سادت فى المجتمع المصرى القديم ، قامت المرأة المصرية بابتكار أشكال متعددة لتصميم تلك الملابس ، بدءاً بتلك الأردية النسائية التى سادت فى عصر الدولة القديمة والتى كانت عبارة عن ثوب ضيق طويل كان يشد إلى الكتفين بحمالتين رفيعتين أو عريضتين . ثم قامت المرأة المصرية بعد ذلك بتطوير هذا الطراز إلى أشكال عدة ، فصنعت ثياباً للنهار وثياباً لليل . . وثياباً للاستعمال داخل البيت وأخرى للخروج . . وثياباً فاخرة لحضور الولائم واحتفالات الأعياد والمناسبات الخاصة .

● وقد استلهمت المرأة المصرية للنقوش الجدارية الملونة التى رسمها الفنانون على جدران المعابد والمقابر وصوروا فيها « الإلهات » وهن مرتديات أفخر الثياب ذات الطرز الجميلة المختلفة ، فقامت النساء بتقليد تلك الثياب وتطوير طرزها وتصميماتها ، فظهرت الثياب النسائية الواسعة الفضفاضة ذات الكسرات والثنيات والطيات الكثيرة التى تسمى حديثًا باسم « البليسيه » . كما ظهرت الثياب ذات الصدر المفتوح والتى تسمى حديثاً باسم « الديكولتيه » . . والثياب ذات الحمالات والخالية من الأكمام لإبراز مفاتن الذراعين وأعلى الصدر والرقبة وأعلى الظهر طبقاً لما هو سائد الآن فى موضات ملابس السهرة التى ترتديها بعض نساء الطبقات العليا فى المجتمعات الحديثة .

● أما نساء الطبقة العليا فى المجتمع المصرى القديم فقد بالغن فى تصميم ثيابهن التى كن يرتدينها فى الولائم والاحتفالات والمناسبات الخاصة . وتدل النقوش والشواهد الأثرية على أنهن كن يرتدين ثلاثة أثواب فوق بعضها : أولها قميص داخلى ضيق ، وفوقه ثوب واسع فضفاض يربط برباط أمامى فوق الثديين ، ثم ثوب ثالث يبدو كالمعطف القصير الذى يسمى حديثاً باسم « الكاب » . والغريب فى هذا كله أن جميع هذه الأثواب كانت منسوجة من القماش الرقيق الشفاف ، تكاد تفاصيل جسم المرأة تبدو من خلاله ظاهرة واضحة لابراز أنوثتها وجمال مفاتنها .

أصول « الإتيكيت » ..
والسلوكيات الأخلاقية والاجتماعية الطيبة

ما من شعب من شعوب العالم القديم أجمع المؤرخون القدماء والمحدثون على رقته وحسن طباعه والتزامه بالقواعد الأخلاقية الرفيعة وسلوكياته الاجتماعية الطيبة كالشعب المصرى القديم . . بل ويقول كثير من المؤرخين أن هذا الشعب كان له فضل السبق فى وضع القواعد الأخلاقية وأسس علم الأخلاق بمفهومه الحديث .

● وكان الإنسان المصرى القديم ـ ذكراً كان أم أنثى ـ يحاط منذ طفولته وخلال مراحل عمره بمجموعة لا حصر لها من القيم والمثل العليا والقواعد الأخلاقية تتوارثها الأجيال المتعاقبة جيلاً بعد جيل ، أو تلقن له داخل المعابد أو المدارس ، أو يمليها عليه الآباء والحكماء ومن هم أكبر منه سناً ممن يتمتعون برجاحة العقل وخبرة الحياة . وكان القصد الأول والأخير من ذلك كله هو أن يصبح الإنسان المصرى مواطناً صالحاً يعيش فى مجتمع متحضر تربطه علاقات طيبة مع أسرته وجيرانه وزملائه ورؤسائه وسائر المواطنين الآخرين من أهل بلده .

● وقد يكون من العسير حصر جميع تلك التعاليم والنصائح التى تحدد قواعد السلوكيات الأخلاقية والاجتماعية التى سادت فى المجتمع المصرى القديم . . ويقول بعض المؤرخين أن قدماء المصريين هم أول من وضعوا قواعد « الإتيكيت » التى يجب أن يلتزم بها المدعوون فى الزيارات وحضور الولائم . ومن بين القواعد الخاصة بآداب المائدة نشير إلى ما يلى :

ـ إذا كنت بين المدعوين إلى مائدة رجل أكبر منك مقاماً ، فخذ ما يقدم لك حين يوضع أمامك . . ولا تنظر طويلا إلى الطعام المقدم لك لأن ذلك مما تشمئز منه النفوس .

ـ إذا جلست مع أناس كثيرين للأكل ، فإنظر إلى الطعام بعدم مبالاة حتى وإن كنت تشتهيه . . إن ضبط النفس لا يكلف الانسان أكثر من لحظة . . وكن قنوعاً بطعامك .

● ومن آداب زيارة بيوت الآخرين وضعوا القواعد التالية :

ـ لا تدخل بيت غيرك قبل أن يؤذن لك بالدخول . . ولا تتكلم إلا بعد أن يرحب بك . . وإياك أن تتكلم بكلمات غامضة أو تنطق بكلمات وقحة . . واحفظ لسانك سليما من الألفاظ الشائنة حتى تصبح مقبولاً ومفضلاً عند الآخرين . .

ـ وإياك أن تمعن النظر إلى شيء منتقد فى البيت الذى تدخله ، أو تتحدث عن هذا الشيء إلى آخرين فى الخارج . . ولا تكن ثرثاراً . . وكن مؤدباً حتى لا يرتاب أحد فى سلوكك .

● ومن آداب العلاقات بين الرؤساء والمرؤوسين :

ـ إذا كان رئيسك فيما مضى من أصل وضيع ، فعليك أن تتجاهل وضاعته السابقة واحترامه حسبما وصل إليه .

ـ وإذا أصبحت عظيما بعد أن كنت ضئيل القدر ، وصرت صاحب ثروة بعد أن كنت محتاجاً ، فلا تنسى كيف كانت حالك فى الزمن الماضى ، ولا تتغنى بثروتك التى جاءتك منحة من الإله ، فإنك لست بأحسن من أقرانك الذين حل بهم الفقر . . فلا تكن فظاً لأن الشفقة محبوبة .

● ومن آداب التعامل مع من هم أكبر سنا واحترام أصحاب العاهات :

ـ لا تقعد إذا كان غيرك أكبر سنا واقفا . . ولا تسخر من كلام رجل عجوز . . ولا تشتم أو تلعن من هو أكبر منك سنا . . وإياك أن تسخر من أعمى ، أو تهزأ بقزم أو

برجل أعرج . . واحذر أن تسلب حق انسان ضعيف أو فقير بائس .

● ومن آداب السلوكيات الاجتماعية العامة :

- لا تأكل الخبز إذا كان هناك جار لك يتألم جوعاً .

- كن بشوشا طلق الوجه مع الآخرين ما دمت حياً .

- لا تُعِدْ كلمات حمقاء خرجت من فم غيرك فى ساعة غضب .

- لا تجعل نفسك رسولاً فى مهمة ضارة .

- لا تتكلم مع انسان كذباً . . ولا تؤدى شهادة زور . . وإياك أن تأخذ رشوة من الآخرين أو تقبل هدية رجل قوى لتغير أقوالك . . إن أكبر شىء يمقته الإله هو النفاق .

- لا تبذّر . . ولكن كن محسناً . . وإياك والطمع فإنه مرض عضال والصداقة معه مستحيلة وفيه كل أنواع الشر .

- لا تطفف فى الكيل ولا تتلاعب بكفتى الميزان .

● هذه عينات قليلة من قواعد السلوكيات الأخلاقية والاجتماعية التى كانت سائدة بين الشعب المصرى القديم والتى جعلت من مصر منارة حضارية لأخلاقيات العالم القديم والعالم الحديث على حد سواء .



مدخل إلى العلوم الطبية عند قدماء المصريين

منذ أن بدأ الانسان الأول حياته على الأرض ، وهو عرضة لمواجهة أخطار جمة من أشياء أو كائنات قد يراها بعينه أو قد تكون خفية لا تدركها الأبصار .

● كانت هناك فى كل مكان حوله وحوش ضارية وحيوانات كاسرة لا يستطيع برغم قوته أن يتقى أذاها . . وثعابين وعقارب وحشرات تلدغه فتقتله أو تصيبه بالشلل . . بالإضافة إلى كائنات دقيقة أخرى لا يعرف عنها شيئا ، ولا يستطيع أن يراها رؤية العين، ولكنها تصيب جسمه فيمرض أو تنتهى حياته فى أغلب الأحوال .

● كذلك فقد كان هذا الانسان البدائى عرضة للإصابة بالجروح والكسور عندما يمارس الصيد ، أو عندما يتسلق الأشجار لجمع الثمار ، أو حتى وهو يمارس حياته اليومية الشاقة فى تلك الظروف الحياتية الصعبة التى كانت سائدة فى ذلك الزمن السحيق من عصور ما قبل التاريخ .

● وفى المجتمعات البدائية الأولى ـ فى أى مكان على الأرض ظهرت فيه التجمعات الانسانية ـ حين كان أى انسان يصاب بالجروح أو الكسور أو يعتريه أى مرض من أمراض البيئة ، كان يستسلم لقضائه ، ويعجز ـ هو ومن حوله ـ عن اتخاذ أى إجراء من إجراءات العلاج ، على اعتبار أن هذه الاصابة قدر محتوم لا مفر منه ، اللهم إلا إذا كانت أجهزة وخلايا الجسم البشرى تقوم بنفسها بدور العلاج ، سواء بالتئام الجروح ، أو بمقاومة أسباب المرض حتى يتم الشفاء .

● ولكن عندما خطت هذه المجتمعات البدائية خطواتها الأولى نحو التطور ،

ظهرت طبقة « السحرة » الذين جعلوا من أنفسهم طبقة مميزة عن الآخرين ، وأعطوا لأنفسهم حق القيادة والتوجيه باعتبارهم أصحاب الكلمة العليا فى تلك المجتمعات .

● ويقول علماء الانثروبولوجيا الاجتماعية المحدثون إن « السحر » هو ما دق وخفى من أعمال وحيل يقوم بها الساحر . وهذه الحيل هى فى حقيقة الأمر نوع من التخييل الذى يخدع عيون المشاهدين . وإن السحر ارتبط منذ البداية بالديانات البدائية الأولى . . ويقول علماء آخرون إن السحر كان من الحقائق المسلم بها فى المجتمعات الانسانية البدائية والمجتمعات القديمة بصفة عامة .

● ومن الأمثلة الأولى التى كان السحرة يؤكدون بها قدراتهم السحرية هى السيطرة على الثعابين واصطيادها ، وذلك بأداء نوع من الإيقاعات المتسقة . . بالإضافة إلى العديد من الأمثلة الأخرى التى جعلت المجتمعات الانسانية البدائية تقتنع - بل وتؤمن - بأن للسحرة قدرة على الاتصال بالقوى الخفية التى تمكنهم من التنبؤ بالغيب ، وتمكنهم من شفاء الأمراض ، بل وإحداث هذه الأمراض لتصيب من يغضب عليه الساحر من غير المؤمنين به أو المشككين فى قدراته . ويقول العلماء إن السحرة الذين مارسوا علاج الأمراض بالسحر هم أول من شكلوا طبقة مهنية فى مسيرة تطور المجتمعات الانسانية .

● وكما انبثقت طبقة السحرة من المفاهيم التى كانت سائدة فى الديانات البدائية القديمة ، إنبثقت أيضا من تلك الديانات طبقة أخرى هى طبقة « الكهنة » التى ادعت هى أيضا قدرتها على الاتصال بالآلهة والقوى الخفية ، وانها حلقة الوصل بين هؤلاء الآلهة وأفراد الجماعات الإنسانية . . وكان الفرق بين الكهنة والسحرة هو أن الكهنة كانوا يقومون بخدمة الأفراد بإقامة الصلوات وممارسة الشعائر الدينية ومنها تقديم القرابين إلى الآلهة . . أما السحرة فكانوا يقومون بتلك الخدمة باستعمال التعاويذ والتمائم والرقى والأحجبة وغير ذلك من الوسائل التى كانوا يتفننون فى ابتداعها .

● كانت هذه مقدمة أو مدخلاً لموضوع « الطب عند قدماء المصريين » . . وهو موضوع واسع متشعب ، ويعتبر من القمم الحضارية التى تربع عليها المصريون فى تاريخهم المجيد .

أول كتاب فى علم التشريح فى تاريخ العالم

من العسير ، بل من المستحيل ، أن نعرف أية معلومات موثقة عن الكيفية التى كان المصريون القدماء يعالجون بها أمراضهم أو جروحهم فى عصور ما قبل التاريخ . . وذلك لسبب بسيط وهو عدم ظهور الكتابة التى كانت الوسيلة الوحيدة لتسجيل معلوماتهم الطبية .

● ولكن هذا لا يعنى أن هؤلاء المصريين الأوائل فى عصورهم السحيقة لم تكن لهم أية دراية بوسائل العلاج ، فمعظم العلماء الذين كتبوا فى تاريخ الطب يقولون إن الرغبة فى العلاج والشفاء من الأمراض أو الجروح تعتبر من الغرائز الطبيعية بالنسبة للحيوان وأيضا بالنسبة للانسان . . بل ويقولون أيضا إن بعض الحيوانات ربما قامت بدور المعلم للانسان الأول فى هذا المجال . . وذلك حين كان هذا الانسان يرى الحيوان وهو يتمرغ فى التراب ليتخلص من الحشرات التى تؤذيه . . أو حين يلعق الحيوان جروحه ليقتل الجراثيم . . أو حين يميز الحيوان بين الغذاء النافع له والغذاء الضار أو السام .

● ومن المؤكد أن هؤلاء المصريين الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ قد عرفوا بعض المعلومات التشريحية عندما كانوا يذبحون الحيوانات التى تم اصطيادها وإعدادها كطعام . . كما عرفوا تركيبة الهيكل العظمى للإنسان بعد أن تتحلل جثة الميت ولا يبقى منها فى النهاية سوى هذا الهيكل .

● ويقول مؤرخو الطب إن هناك بعض الأدلة والشواهد الأثرية التى تؤكد معرفة

قدماء المصريين الأوائل بفنون وعلوم الطب ، وذلك استناداً إلى كيفية رسم بعض الرموز والعلامات الهيروجليفية التى تصور أجزاءً من جسم الإنسان والتى ظهرت بوضوح فى الكتابة المصرية القديمة ، التى بدأ ظهورها قبيل بداية العصور التاريخية فى مصر القديمة .

● ومن الناحية التاريخية فإن عصر ما قبل الأسرات وعصور ما قبل التاريخ بصفة عامة قد انتهت حين قام الملك « مينا » بتوحيد الوجهين القبلى والبحرى فى دولة واحدة، وقام بتأسيس الأسرة الملكية الأولى فى حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد على وجه التقريب. وبالرغم من ضآلة كم المعلومات المؤكدة عن تاريخ عصر الأسرتين الأولى والثانية ، وهى فترة تاريخية تعرف علمياً باسم « العصر العتيق » ، إلا أن المؤرخين يشيرون إلى الحكايات والمدونات المصرية القديمة الى تؤكد أن ثانى ملوك الأسرة الأولى وهو الملك « دجر » ـ ويقرأ اسمه أحيانا « زر » وأحيانا أخرى « خنت » ـ الذى عثر على مقبرته بمنطقة أبيدوس « العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج » قد ألف كتاباً فى « علم التشريح » يعتبر بكافة المقاييس أول كتاب فى هذا العلم فى تاريخ العالم .

● وبالرغم من انه لم يتم العثور على أى أثر لهذا الكتاب ، إلا أن العديد من المؤلفات الطبية التى كتبها الأطباء المصريون القدماء فى عصور لاحقة أشارت إلى بعض التشخيصات والوصفات العلاجية التى وردت فى هذا الكتاب .

● وبطبيعة الحال فإن مجرد الإشارة إلى وجود مثل هذا الكتاب فى ذلك العصر المبكر من التاريخ المصرى القديم يفهم منه أن مؤلف الكتاب قد استند إلى معرفته بمجموعة من التجارب أو التحصيلات العلمية السابقة على فترة التأليف ، الأمر الذى يفهم منه أيضا وجود معلومات طبية سابقة كانت معروفة لدى المصريين الأوائل ، فى عصور ما قبل التاريخ .

طبيب مصرى عبقرى.. اسمه إيمحوتب

وإذا كـان الملك « زر » ثاني ملوك الأسرة الأولى [فى القرن الثانى والثلاثين قبل الميلاد] قد ألف أول كتاب فى « علم التشريح » فى تاريخ العالم . . فقد جاء بعده الوزير « إيمحوتب » وهو أحد الوزراء البارزين فى التاريخ المصرى القديم ووضع الأسس العلمية لتشخيص الأمراض ووصف العلاج المناسب لكل مرض . وقد ظهر هذا الوزير العظيم فى بداية عصر الأسرة الثالثة فى عهد الملك « زوسر » أول ملوك هذه الأسرة وصاحب الهرم المدرج الشهير بسقارة [فى القرن الثلاثين قبل الميلاد] .

● كان الوزير « إيمحوتب » من أبناء الشعب . ومعنى اسمه فى اللغة المصرية القديمة هو « الذى يأتى فى سلام » . وكان أبوه مهندساً بارزا اسمه « كا ـ نفر » . . وكانت أمه « خردو ـ عنخ » سيدة من بنات مدينة « منديس » القديمة التى تقع بالقرب من مدينة السنبلاوين بمحافظة الدقهلية حالياً .

● ويعتبر « إيمحوتب » أحد العبقريات الفذة التى يحفل بها تاريخ الانسان على الأرض . . فقد كان متعدد المواهب التى أهلته لشغل المناصب والمهام العليا فى بداية الفترة التاريخية التى اصطلح على تسميتها « عصر الدولة القديمة » . وهو عصر يشمل تاريخ الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ويعتبره بعض المؤرخين أزهى عصور الحضارة المصرية القديمة حيث بلغت فيه هذه الحضارة قمماً شامخة خاصة فى مجالات الهندسة والعمارة والطب وإدارة الشئون الحكومية .

● وفى عصر الملك زوسر ، تولى « إيمحوتب » الإشراف على كافة شئون الدولة من القضاء والخزانة والجيش والبحرية والداخلية والزراعة وجميع المكونات والانشطة الأخرى للسلطة التنفيذية . وأطلقت عليه أثناء حياته مجموعة من الألقاب أهمها : الوزير والمهندس المعمارى وكبير الكهنة والحكيم والكاتب والفلكى والطبيب . ويكفى أن نشير هنا إلى معجزته الهندسية والمعمارية وهى إشرافه على وضع التصميم الهندسى وعلى كافة الأعمال التنفيذية لبناء هرم زوسر المدرج بسقارة الذى يعتبر أول معجزة معمارية حققها الإنسان على الأرض باستخدام الحجر فى بناء المنشآت الشاهقة الضخمة .

● أما معجزاته فى مجال الطب فقد وردت إشارات متعددة إلى القواعد التى وضعها وإلى المعلومات الطبية المنسوبة إليه فى معظم « البرديات الطبية » الأثرية التى تم العثور عليها . ومن حسن حظ علم الآثار المصرية أن تم العثور على عدد كبير من هذه البرديات لعل أشهرها إحدى عشرة بردية سميت باسماء العلماء المحدثين الذين عثروا عليها أو اشتروها أو قاموا بترجمتها إلى اللغات الحية .

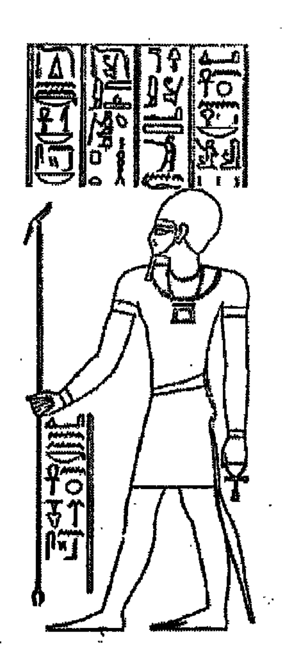
● وبتحليل وتصنيف الأمراض الى ورد ذكرها سواء فى تلك البرديات أو فى مصادر أثرية أخرى ، ندرك على سبيل اليقين أن قدماء المصريين كانوا يعرفون (١٥) مرضاً محدداً من الأمراض الباطنية . . و (١١) مرضاً من أمراض المثانة . . و (١٠) أمراض من أمراض القولون والمستقيم والشرج . . و (٢٥) مرضاً من أمراض العيون . . و (٦) أمراض من أمراض الأذن . . . و (١٨) مرضاً جلدياً .

● وفى أحدث إحصائية أعلنها بعض علماء ومؤرخى الطب المحدثين ، نرى أن قدماء المصريين قد عرفوا أكثر من (٢٥٠) مرضاً مختلفا . . مع التأكيد على أن الأطباء المصريين القدماء كانوا يشخصون الأمراض بطريقة علمية ، وقادرين على الملاحظة الإكلينيكية الدقيقة ، وعلى التنسيق بين الظواهر والأعراض المرضية وتفسيرها تفسيرا أقرب ما يكون إلى الصواب .

● وإذا كان معظم هذه البرديات الطبية يرجع تاريخه إلى عصر الدولة الحديثة [القرن السادس عشر قبل الميلاد وما بعده] فإن هذا لا يعنى أن جميع المعلومات التى ورد

ذكرها فى هذه البرديات كانت من ابتداع أو من اكتشاف الأطباء القدماء الذين عاشوا فى ذلك العصر ، إذ من المؤكد أن هؤلاء الأطباء قد استقوا معلوماتهم من التراث الطبى المتراكم والذى توارثته أجيال المصريين منذ عصور ما قبل التاريخ .

● ومن الغريب أن تأثير الوزير « إيمحوتب » ظل قائماً حتى بعد وفاته بآلاف السنين حتى وصل الأمر إلى درجة اعتباره إلهاً للطب فى العصر اليونانى الرومانى .



إيمحوتب .. وزير الملك زوسر [الأسرة الثالثة] ..
أول عبقرى فى الطب والهندسة يذكر اسمه فى تاريخ العالم .

أمنحوتب بن حابو ..
من عباقرة الأطباء المصريين القدماء

يحفل التاريخ المصرى القديم بسير مجموعة من العباقرة الأفذاذ الذين أرسوا أسس الحضارة المصرية بمختلف فروعها العلمية والأدبية والعسكرية ، حتى ارتفعت تلك الحضارة إلى قمم شاهقة شامخة لم تبلغها أية حضارة أخرى من حضارات العالم القديم .

● وعلى غرار عبقرية الوزير « إيمحوتب » الذى عاش فى عصر الأسرة الثالثة فى القرن الثلاثين قبل الميلاد ، والذى تجلت عبقريته فى علوم الهندسة والعمارة والفلك والفلسفة والطب ، ظهرت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، عبقرية فذة مماثلة فى أحد أبناء الشعب المصرى ، وهو « امنحوتب بن حابو » الذى ولد لأسرة مصرية متواضعة كانت تعيش فى مدينة « إتريب » وهى مدينة « بنها » الحالية بمحافظة القليوبية .

● فى فترة شبابه التحق « امنحوتب بن حابو » كضابط بجيش الفاتح العظيم تحوتمس الثالث الذى أسس الامبراطورية المصرية على امتداد مساحة هائلة من أرض العالم القديم ، تشمل جنوب شرق تركيا وأرض العراق وكل المناطق السورية بما فيها سوريا ولبنان والأردن وفلسطين واسرائيل ، وتمتد جنوباً حتى منطقة الجندل الرابع ببلاد النوبة والسودان .

● وعندما تبدت بوادر عبقريته وثقافته الواسعة عين بوظيفة « الكاتب العسكرى » للجيش المصرى . وهى وظيفة كانت على مكانة رفيعة بين الطبقة العسكرية ، وكان

ينظر إلى من يشغلها نظرة تقدير واحترام باعتباره من حملة كتب التراث المصرى القديم التى تتوارثها الأجيال جيلا بعد جيل .

● وفى عهد الملك « امنحوتب الثالث » كانت عبقرية « امنحوتب بن حابو » قد بلغت أوجها وأعلى ذراها ، خصوصاً فى مجالات الهندسة والعمارة والطب . . ويكفى أن نشير هنا إلى أن هذا العبقرى الذى جاء من مدينة بنها قد أصبح أهم رجال الدولة بعد الملك - فى طيبة « الأقصر » عاصمة الديار المصرية والمناطق التابعة لها فى أرجاء العالم القديم . . وهو الذى أشرف على وضع التصميمات الهندسية والمعمارية لمعظم المنشآت الدينية والمدنية التى أقامها الملك امنحوتب الثالث فى معابد الكرنك ومعبد الأقصر والمعبد الجنائزى الضخم بغرب الأقصر ، وهو المعبد الذى اختفت آثارة تماماً ولم يعد باقياً منه سوى تمثالين للملك ذاعت شهرتهما فى العالم القديم والعالم الحديث على السواء ، وهما التمثالان اللذان يعرفان حالياً باسم « تمثالى ممنون » .

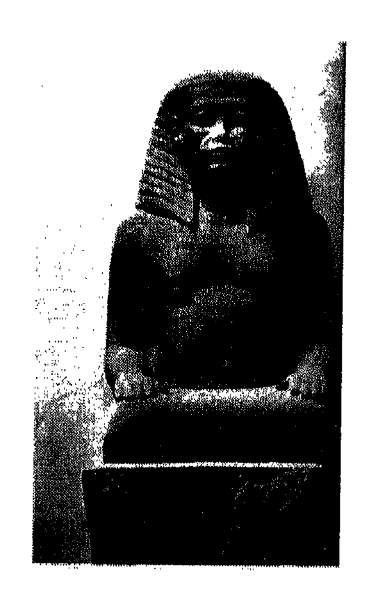
● وكان من الواضح أن ابن الشعب « أمنحوتب بن حابو » كان يتوخى خطى سلفه العظيم الوزير « إيمحوتب » الذى عاش قبله بنحو ١٦٠٠ عام . . فقد احترف مهنة الطب وتبحر فى علومه ، واشتهرت فى طول البلاد وعرضها قدرته الأسطورية الفائقة على التطبيب وشفاء كل الأمراض العادية منها والمستعصية . . ولذلك فقد كانت أفواج المرضى تأتى إليه من كل فج عميق قاصدة الشفاء على يديه المباركتين .

● ومما لا شك فيه انه اعتمد على تراث العلوم الطبية التى دونها الأطباء المصريون الذين عاشوا فى عصور سابقة على عصره ، والتى وصفوا فيها قواعد تشخيص الأمراض وقواعد الصيدلة وتركيب أدوية العلاج من أملاح ومواد كيماوية ونباتات وأعشاب طبية ، بالإضافة إلى ما ابتكره بنفسه من وصفات وتركيبات دوائية جديدة .

● وإلى جانب هذا التشخيص والعلاج المعتمد على العلوم التجريبية المتوارثة والمبتكرة ، قام « امنحوتب بن حابو » بترسيخ الفكرة القائلة بأن « الشفاء من الأمراض أمر بيد الإله ، ولا يمكن أن يتم إلا بارادة ومشيئة إلهية » . ومن المعروف عن الشعب المصرى انه شعب متدين يؤمن بأن كل شىء يكون أو لا يكون بأمر الله وبإذنه . .

ولذلك فلم يكن من المستغرب أن يتخذ المصريون القدماء « امنحوتب بن حابو » ـ سواء فى حياته أو بعد مماته ـ وسيلة للتقرب إلى الإله ، تماماً مثلما يفعل الكثيرون من المحدثين باتخاذ أضرحة بعض أولياء الله الصالحين وسيلة للشفاعة وطلب الشفاء من الله .

● ولم يكن من الغريب أيضا أن أفواج المرضى القادرين كانت تأتى من خارج الديار المصرية من أثينا وروما ومن كافة أنحاء الامبراطورية الرومانية لتحج إلى المعابد المصرية التى توجد بها تماثيل لأمنحوتب بن حابو لتؤدى الصلوات وتقدم القرابين طلباً للشفاء مما كانوا يعانونه من أمراض .



أمنحوتب بن حابو فى شيخوخته



أمنحوتب بن حابو فى شبابه

أول من اكتشفوا العلاج بالإيحاء النفسى

هناك العديد من الشواهد يستدل منها على الطبيعة السيكولوجية للشعب المصرى فى تاريخه القديم وتاريخه الحديث على حد سواء . . فهو شعب طيب وعاطفى تستهويه الروحانيات كما تستهويه الماديات . . ولكنه يمزج بين هذين الاتجاهين بطريقة مصرية خالصة مستوحاة من طبيعة البيئة الاجتماعية مهما اختلفت ظروف هذه البيئة على مدى التاريخ وعصوره المختلفة المتباينة ، الأمر الذى أدى فى النهاية إلى تميز الشعب المصرى فى سلوكياته عن معظم شعوب العالم الأخرى .

● أليس من الغريب أن نجد الكثيرين من أهالى الريف والمدن المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى مازالوا يلجأون إلى زيارة أضرحة أولياء الله الصالحين طلبا للشفاعة من أجل الشفاء من الأمراض التى قد تستعصى على العلاج بالأدوية التى يصفها الأطباء ؟ . . وأليس من الغريب أيضا أن بعض هذه الأمراض المستعصية يتم شفاؤها أو تزول أعراضها بعد زيارة هذه الأضرحة ، وهو ما يؤكده قيام هؤلاء المرضى وذويهم بتقديم النذور كثمن بخس لتلك الشفاعة التى حققت الشفاء بعد طول عناء . . كما يؤكده أيضا إصرار من مرّوا بتلك التجارب على إرشاد المرضى الآخرين إلى القيام بزيارة هذه الأضرحة كطريقة للشفاء الأكيد . . ؟

● يقول بعض علماء النفس إن تحقيق الشفاء أو زوال أعراض بعض الأمراض النفسية أو العصبية أو حتى الأمراض البدنية الناجمة عن اضطرابات نفسية أو عصبية بعد زيارة تلك الأضرحة ، يعتبر أمراً محتمل الحدوث نتيجة « الإيحاء النفسى » الذى يجعل المريض فى حالة استهواء تساعده على تجاوز المرض وتجاوز أعراضه .

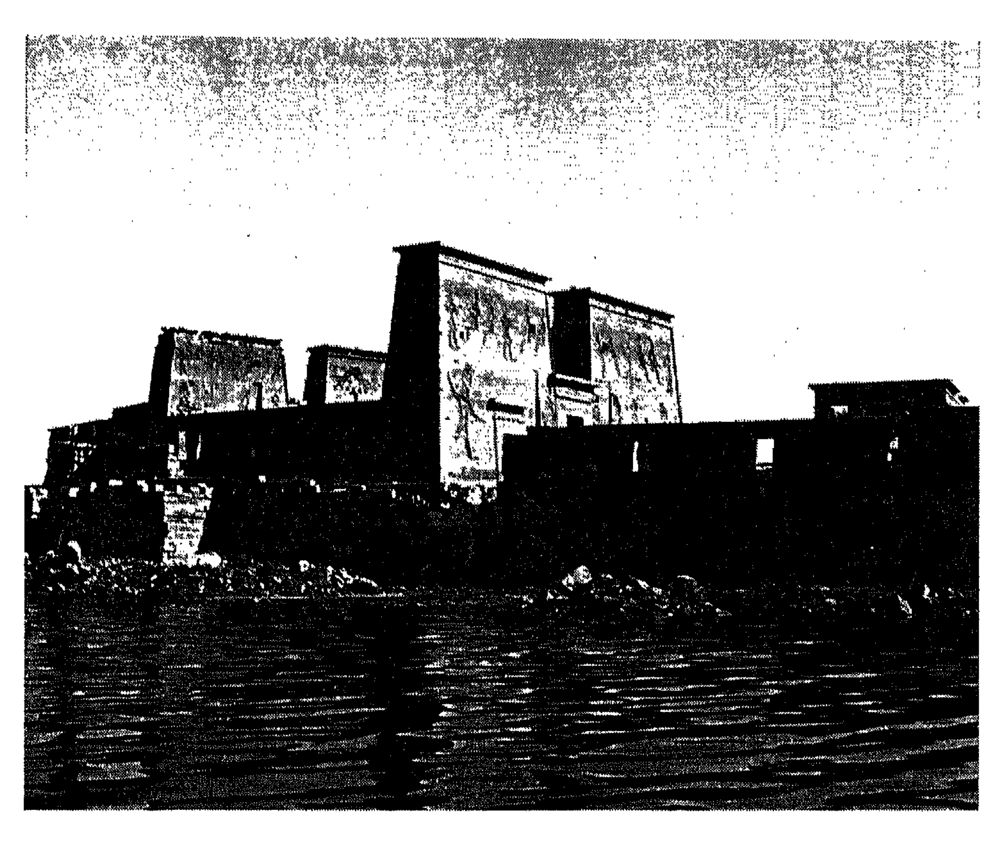
● هذه الطريقة فى « العلاج الإيحائى » تعتبر ميراثاً ورثه المصريون المحدثون عن أجدادهم من المصريين القدماء الذين ابتدعوا طريقة لعلاج الأمراض النفسية أو العصبية المستعصية أطلقوا عليها اسم « العلاج بالنوم الشفائى » أو « النوم العلاجى » . وهى طريقة يطلق عليها علماء النفس المحدثون اسمINCUBATION حيث تؤدى قوة الإيحاء مع الشعور القوى بقداسة المكان إلى شفاء المريض عصبيا ، فيتمكن من الرؤية أو السمع أو الحركة بعد الشلل . . فمثل هذا الاحساس الزائد يهيىء ذهن المريض إلى أنه فى الطريق إلى الشفاء من المرض الذى تسبب فى تلك الأعراض .

● وقد شاعت هذه الطريقة المصرية القديمة فى المعابد التى كانت توجد بها تماثيل لكل من « إيمحوتب » و « أمنحوتب بن حابو » سواء فى منف أو فى الأقصر أو فى معبد جزيرة « فيله » بأسوان . . حيث يلجأ إلى تلك المعابد المرضى الذين عز دواؤهم فرادى وجماعات ، منجذبين بشهرة هذين الطبيبين الراحلين وقدرتهما على تحقيق الشفاء من الأمراض . . فيستقبلهم الكهنة الذين يستثيرون مخيلاتهم القابلة للاستهواء بقصص معجزات الشفاء التى حدثت فى الماضى فى ذلك المكان المقدس ، وما ينتظرهم من شفاء أكيد . وبعد تلاوة بعض التعاويذ التى تساعد على تهيئة ذهن المريض لحالة الاستقبال ، كان يطلب من المريض أن يقضى الليل نائماً فى ساحة المعبد ، وسوف تأتيه إشارة الشفاء على شكل حلم فى منامه ، وعلى المريض أن يقص هذا الحلم على الكاهن عندما يستيقظ فى الصباح .

● ويطلب الكاهن من المريض أن يؤدى صلاة خاشعة للإله ، ويلقنه النصيحة المصرية العظيمة فى طريقة العبادة والصلاة ونصها : « عندما تؤدى صلاتك . . إفعل ذلك بهدوء وبدون تباه . . فالإله لا يحب الجلبة ولا الضجيج . . صلّى له بقلب مشتاق . . صلاة تختفى فيها الكلمات . . من أجل أن يستجيب لدعائك ويسمع شكواك » .

● وأياً كان الحلم الذى يخطر فى منام المريض ، فإن الكاهن يفسره بطريقة موحية بتمام الشفاء أو موحية للمريض بأنه فى طريقه إلى الشفاء العاجل القريب . . وكلما كان

المريض عاطفيا أو قابلاً للإيحاء ، أصبح احتمال شفائه مؤكداً . . وحتى فى حالة الأمراض الميئوس من شفائها ، فإن المرضى يشعرون بقدر كبير من الارتياح . . وتنتابهم حالة من البهجة والفرح ، فيؤثر مرآهم هذا فى القادمين من المرضى الجدد ، ويجعلهم أكثر استعداداً لقبول الإيحاء .



معبد إيزيس بجزيرة فيله كما يبدو من النيل

فى هذه الساحات الداخلية بمعبد إيزيس بجزيرة فيله كانت تتم عمليات العلاج بالإيحاء النفسى .

المراجع الطبية فى مكتبات المعابد

حرص المصريون القدماء منذ أقدم عصور التاريخ على تدوين خبراتهم ومعلوماتهم الطبية ، سواء على صفحات من الرق أو من ورق البردى . . وقد شاع التدوين على لفائف البردى التى كانت تعتبر كتباً مرجعية يلجأ إليها الأطباء الذين يمارسون مهنة تشخيص وعلاج الأمراض ، كما يلجأ إليها الطلاب الذين تقرر اختيارهم لممارسة هذه المهنة فى المستقبل .

● وكان كل معبد من المعابد الكبيرة والهامة فى مصر القديمة مزوداً بمكتبة شاملة تحتوى على مئات ـ وأحيانا آلاف ـ من الكتب والمراجع ذات التخصصات المختلفة ، منها الكتب الدينية وكتب العلوم الرياضية والكيماوية ، وكتب السجلات الحسابية الخاصة بالممتلكات ، إلى جانب الكتب الخاصة بالعلوم الطبية ، والكتب الخاصة بالسحر المستخدم فى علاج بعض الأمراض .

● ولم يكن من الغريب فى المجتمع المصرى القديم أن يستخدم السحر بتعاويذه ورقياته فى علاج بعض الأمراض ، خصوصاً الأمراض العصبية والنفسية ، وذلك على أساس ما كان شائعاً من أن" السحر كان العلاج الذى تستخدمه الآلهة فى شفاء الأمراض . . أما الأمراض البدنية والجروح والرضوض وكسور العظام فقد كانت لها علاجات تعتمد أساساً على تركيبات دوائية تستخدم فيها المواد الكيماوية والنباتات والأعشاب الطبية وبعض المستخرجات الحيوانية .

● وكان هناك قانون صارم وملزم لجميع الممارسين لمهنة الطب بضرورة استخدام طرق ووسائل تشخيص الأمراض ووصف أدوية العلاج طبقا لما جاء فى تلك الكتب المرجعية

المدونة فى البرديات . . وكان هناك عقاب مقرر يقع على كل طبيب لم يلتزم باستخدام الوصفات الطبية المعتمدة والمدونة فى تلك الكتب .

● وخلال العصر اليونانى الرومانى الذى استمر نحو ألف سنة [من سنة ٣٣٢ ق م إلى سنة ٦٤٠ م] ترجمت مئات البرديات الطبية المصرية القديمة ، وانتفع بها الأطباء الإغريق الأقدمون الذين طوروا ما جاء بتلك البرديات ووضعوا أسس العلوم الطبية التى انتشرت فى أوربا . وقال العديد من المؤرخين الإغريق والرومان إن أطباء الإغريق المشهورين مثل « ثيوفراستوس » و « جالينوس » و « ديوسكوريدس » وغيرهم ، ذكروا فى كتبهم وفى المراجع الطبية التى تركوها مجموعة كبيرة من العقاقير الطبية المستخدمة فى علاج الأمراض ، وكذلك وسائل وطرق التشخيص الإكلينيكى للأمراض ، بعد أن تلقوا العلوم الطبية فى معابد مدينة « منف » . كما أكد هؤلاء المؤرخون أن العديد من العقاقير والوصفات المصرية نقلها الأطباء الإغريق وأصبحت مع مرور الزمن أساساً لعلم الأقرباذين « الصيدلة » ليس فى اليونان أو فى الإمبراطورية الرومانية وحسب ، بل وانتقلت كذلك إلى العلوم الطبية والصيدلية فى حضارات أخرى مثل الحضارة الفارسية والسيريانية والأوربية بصفة عامة .

● ويعترف المؤرخون الإغريق والرومان القدماء بأن الطب المصرى حاز شهرة واسعة فى العالم القديم بأكمله . وعلى سبيل المثال فقد قال « هيرودوت » : إن ملوك الفرس الذين غزوا مصر كانوا يستهدفون البحث عن الأطباء المصريين المهرة لنقل علومهم الطبية إلى بلاد فارس . . وقال المؤرخ الرومانى « بللينى » : إن المصريين كانوا يفتخرون بأنهم أول من وضعوا أسس العلوم الطبية . . وقال الشاعر اليونانى « هوميروس » فى الأوديسة : إن مصر بلد خصبة تخرج أرضها العقاقير الطبية الكثيرة التى لا يمكن إحصاؤها ، وبها أطباء يمتازون عن غيرهم بعلومهم ومعارفهم الواسعة .

●ولذلك فلم يكن من الغريب أن نعرف أن كلمة « كيمياء » مأخوذة عن أصل مصرى هو كلمة « كيمى » أو كلمة « شيما » . . كما أن كلمة « فارماسى» PHARMACY مأخوذة من كلمة «فارما ـ كا » التى اكتشفت منقوشة على تمثال للإله «تحوت » إله الحكمة ، وهى كلمة مصرية قديمة معناها : « الذى يمنح الصفاء » .

مدارس تعليم الطب فى مصر القديمة

ويمكن القول بصفة عامة إن المناهج التعليمية فى مصر القديمة كانت منقسمة إلى مرحلتين : مرحلة التعليم فى « بيت الحياة » وهى مرحلة تكاد تتساوى مع المراحل الأولية والابتدائية والاعدادية والثانوية فى التعليم الحديث ، حيث يتعلم فيها الطلاب أسس وقواعد الكتابة والحساب والهندسة والعلوم العامة . . ومرحلة الدراسة العليا التى تعادل مستوى التعليم الجامعى والدراسات العليا . ويلتحق الطلاب النابهون بهذه المرحلة حين يتبين للمسئولين عن التعليم مدى مواهب هؤلاء الطلاب وقدراتهم على التحصيل العلمى .

● وكانت معظم « بيوت الحياة » والمدارس العليا ملحقة بمبانى المعابد الكبرى والمعابد الهامة فى كافة المدن والأقاليم المصرية . . ويتولى التدريس فيها أعداد من الكهنة والضباط والمهندسين والأطباء المتخصصين وغيرهم من ذوى المقدرة على نقل العلوم والمعارف والخبرات إلى الطلاب والدارسين .

● وكان تعليم الطب يقوم على منهجين : المنهج الأول يتم بتلقين الطلاب بالجانب النظرى للمعلومات الطبية سواء بتدريس الطرق الخاصة بكيفية تشخيص الأمراض على نحو سليم ودقيق ، لمعرفة نوعية المرض وأعراضه الظاهرة ، وبالتالى وصف كيفية علاج هذا المرض ، سواء بالمواد الكيميائية أو بالأعشاب الدوائية أو بالدهون أو التدليك [العلاج الطبيعى] أو بغير ذلك من سبل العلاج الأخرى .

● ونكتفى بتقديم المثال التالى المأخوذ من أحد الكتب الطبية القديمة المعروف الآن

بإسم « بردية إيبرس » لنرى نموذجاً للكيفية التى كان يتم بها تدريس مبادىء التشخيص والعلاج والتكهن بسير المرض وتطوراته . . يقول النص :

ـ « عندما تفحص شخصاً يعانى من الإمساك ، ستجده يشكو من الإحساس بالامتلاء عندما يتناول طعاماً . . وستجد بطنه منتفخاً ، وقلبه يدق بضعف . . وهو يمشى مثل شخص يشكو من التهاب فى مؤخرته » .

ـ « إجعل مريضك ينام ممدداً وابدأ فى فحصه . . فإذا وجدت أن جلده ساخن وبطنه جامد ، قل له : « إن كبدك لا يعمل جيداً » .

ـ « وعليك عندئذ أن تعد له « الدواء المذكور » الذى سيريح أمعاءه . . وإذا فحصته مرة أخرى ووجدت أن الجانب الأيمن من جسده ساخن والجانب الأيسر بارد ، قل له : سوف تشفى من هذا المرض » .

ـ « وإذا زرت مريضك بعد ذلك ووجدت أن جسمه كله صار بارداً ـ بدون سخونة ـ قل له : إن كبدك أصبح يعمل مرة أخرى بطريقة جيدة وأصبح نظيفا الآن . . وإن الدواء قد فعل مفعوله » .

● ومن هذا النموذج ، وبقية النماذج الأخرى الخاصة بالأمراض الباطنية التى ذكرت فى « بردية إيبرس » نلاحظ على الفور أن الإرشادات الخاصة بتشخيص الأمراض تكاد أن تكون هى نفسها الوسائل الأساسية للتشخيص المستخدمة فى عيادات الأطباء فى عالمنا الحديث . . مثل فحص الجسم وحرارته وجس مواضع الوجع والتسمع على الصدر لمعرفة دقات القلب والفحص العام لاكتشاف أية تغيرات تكون قد طرأت على شكل أو لون أو وضع الأجزاء الظاهرة من جسم المريض مثل الجلد والشعر والأظافر والبول والبراز . . الخ .

● وإلى جانب هذا المنهج النظرى فى تعليم الطب ، كان هناك منهج عملى تطبيقى ، حيث يصحب الأطباء الكبار معهم ـ حين يمارسون فحص المرضى ـ واحداً أو أكثر من دارسى الطب أو من الأطباء الشبان الذين يتعلمون من أساتذتهم أصول ممارسة هذه المهنة .

● وكذلك الحال عندما يقوم الأطباء الكبار بالعمليات الجراحية وعمليات جبر العظام ، فيقوم بعض الطلاب أو الأطباء الشبان بعمليات المعاونة والمساعدة ، ويتعلمون فى الوقت نفسه كيفية القيام بالعمليات الجراحية بطريقة سليمة .



فى معبد الأقصر وغيره من المعابد الكبرى فى مصر ، كانت توجد إلى جانب ساحات وقاعات العبادة ، ساحات وأماكن أخرى كانت تستخدم كمدارس عليا لتعليم الطب .

أقدم كتب تعليم الطب فى تاريخ العالم

كان الأطباء المصريون القدماء حريصين على تعليم أبنائهم مهنة الطب حتى يتخرجوا أطباء وارثين حق ممارسة المهنة أباً عن جد ، تماماً مثلما يفعل الكثيرون من أساتذة الطب فى مصر الحديثة . هذا طبعا بالإضافة إلى قيام الأطباء القدامى بتعليم أصول المهنة للتلاميذ والدارسين النابهين الذين كانوا يصلون إلى مستوى التعليم العالى .

● وكما ذكرنا من قبل فإن منهج تعليم الطب كان نظرياً وعملياً . . وكان يتم فى الغالب عن طريق التلقين الشفوى للمبادىء والأسس الطبية المذكورة فى الكتب والمراجع العلمية المحفوظة فى مكتبات المعابد أو الموجودة فى حيازة كبار الأطباء . . وكانت تلك الكتب والمراجع مكتوبة فى « لفائف البَردى » . وكان أغلب الأطباء يحفظون ما دّون فيها من معلومات عن ظهر قلب . ومع ذلك فقد كان من اللازم الرجوع إليها والالتزام بتعاليمها باعتبارها الدستور المقدس لممارسة المهنة .

● وبطبيعة الحال فقد كانت هناك مئات من تلك الكتب المرجعية ، وكان كل كتاب أو مرجع منها منسوخاً فى عدة نسخ طبق الأصل ، يتم تداولها بين الأطباء والدراسين فى مختلف الأقاليم المصرية . ولسوء الحظ فقد ضاعت تلك النسخ ضحايا لعوادى الزمن ومرور آلاف السنين . . ومع ذلك فقد تم العثور على بعض تلك الكتب المدونة فى لفائف البردى ، وكان أغلبها ممزقاً ومشوهاً فيما عدا ثمانية من تلك الكتب يطلق عليها المؤرخون اسم « البرديات الطبية » . وقد سميت كل بردية منها بإسم

مكتشفها أو ناشرها أو مترجمها أو مشتريها أو اسم المدينة أو المتحف المحفوظة فيه أو اسم القرية أو المنطقة المصرية التى عثر فيها على البردية .

● ومن المدهش حقاً أن المؤرخين الإغريق والرومان القدماء أقروا بأن فطاحل الأطباء الإغريق الذين وضعوا أسس وقواعد علوم الطب فى اليونان القديمة قد تعلموا مهنة الطب فى مصر على أيدى أطباء مصريين ودرسوا البرديات الطبية المصرية التى كانت متداولة فى عصرهم ، وأن الغالبية العظمى من المعلومات الطبية التى توصلوا إليها مأخوذة ومنقولة من البرديات الطبية المصرية نقلاً مباشراً ، وأن جميع الأسس والقواعد الطبية التى توصل إليها الأطباء الإغريق القدامى قد انتقلت بدورها إلى أطباء القرون الوسطى فى أوربا وأصبحت دستوراً لممارسة مهنة الطب وتعاليمه حتى القرنين السابع عشر والثامن عشر .

● وبالنظر إلى الأهمية العلمية والتاريخية والأثرية لتلك الكتب الطبية الثمانية ، نشير فيما يلى إلى توثيق مختصر غاية الاختصار عن كل بردية من هذه البرديات الطبية :

ـ بردية « إيبرس » : عثر عليها بالاقصر عام ١٨٦٢م واشتراها عالم الآثار الألمانى إيبرس . ومحفوظة حالياً بمتحف لايبزج . ويرجع تاريخها إلى عام ١٥٥٠ ق م ، وبها نص مكتوب يؤكد أن الأصل المنقولة عنه يرجع تاريخه إلى عصر الأسرة الأولى حوالى عام ٣١٠٠ ق م . وتحتوى البردية على ٨٧٧ وصفة طبية .

ـ بردية « هيرست » : عثر عليها بدير البلاص بالصعيد عام ١٨٩٩م واشتراها الدكتور ريزنر عام ١٩٠١ وأهداها إلى جامعة كاليفورنيا ، ويرجع تاريخها أيضا إلى عام ١٥٥٠ ق م وتحتوى على ٢٦٠ وصفة طبية .

ـ بردية « برلين » : عثر عليها فى أواخر القرن ١٩ ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق م ، وتحتوى على ٢٤٠ وصفة طبية .

ـ بردية « إدوين سميث » : وتعتبر أهم كتب الطب المصرية القديمة ، ويبلغ طولها نحو خمسة أمتار بعرض ٣٣ سم . وعثر عليها بإحدى مقابر الأقصر عام ١٨٦٢م واشتراها إدوين سميث وأهدتها ابنته إلى الجمعية التاريخية بنيويورك . وتتضمن معلومات هامة عن عديد من الأمراض والعلاج بالعمليات الجراحية .

- بردية « لندن » : وتتضمن وصفات طبية منقولة عن بردية إيبرس ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٣٥٠ ق م .

- بردية « كاهون » : عثر عليها عالم الآثار « بترى » بمنطقة اللاهون بالفيوم عام ١٨٨٩م ويرجع تاريخها إلى عام ١٩٠٠ ق م وبها وصفات طبية لمعالجة أمراض النساء والولادة . وبها أيضا قسم بيطرى لعلاج الحيوانات .

- بردية « إرمان » : ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٥٥٠ ق م وتتضمن قائمة بأسماء أعضاء الجسم البشرى وأحشائه الداخلية .

- بردية « شستر بيتى » : ويرجع تاريخها إلى حوالى عام ١٢٠٠ ق م وتتضمن وصفات طبية للعلاج الجراحى لأمراض الشرج .

جزء من بردية إيبرس

مصر القديمة .. رائدة التخصص فى الطب

قال « هيرودوت » فى حديثه عن مصر : « إن فن الطب موزع بين المصريين توزيعاً مبنياً على الحكمة ، فلا يمارس الطبيب إلا فرعاً واحداً فقط من فروع الطب . والأطباء فى مصر كثيرون جداً . . منهم أطباء للعيون وأطباء للرأس وأطباء للأسنان . . ومنهم أطباء لعلاج أمراض البطن وما يجاورها من أعضاء الجسم ، ومنهم أطباء لعلاج الأمراض الداخلية » .

● هذا الذى قاله هيرودوت فى القرن الخامس قبل الميلاد كان تحصيل حاصل لواقع مصرى يرجع تاريخه إلى آلاف سابقة من السنين على عصر هيرودوت . . فهناك الكثير من الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر بناة الأهرام [الأسرات من الثالثة إلى السادسة ـ ٢٨٠٠ ق م وما بعدها] تؤكد بصفة قاطعة أن التخصص فى ممارسة فروع الطب المختلفة كان الطابع العام لممارسة مهنة الطب فى ذلك العصر .

● وكان السبب فى ذلك التخصص هو التقدم الهائل الذى حققه المصريون القدماء فى المعارف والعلوم الطبية ، الأمر الذى كان يتعذر معه أن يقوم طبيب واحد بممارسة العلاج من كافة أنواع الأمراض وأشكالها . وقد أدت هذه المعرفة الواسعة إلى حتمية التخصص . . تماماً مثلما حدث فى وقتنا الحاضر عندما كثرت المعلومات الطبية ووسائل الفحص الإكلنيكى من تحاليل وأشعات ، الأمر الذى استوجب ضرورة التخصص بين الأطباء المحدثين على النحو الذى نعرفه الآن .

● وتماماً مثلما يحدث اليوم من تقسيم الأطباء إلى درجات متفاوتة حسب أقدمياتهم

وتخصصاتهم وما حققوه من خبرات . . كأن يكون هناك أطباء عموميون أى ممارسون عموميون ، وأطباء متخصصون فى علاج أنواع معينة من الأمراض ، وأطباء استشاريون ورؤساء أقسام بكليات الطب ومديرو مستشفيات ووزير للصحة إلى غير ذلك من مختلف الدرجات الطبية ، كان الأطباء فى مصر القديمة مقسمين أيضا إلى درجات مماثلة لكادر الموظفين العموميين ، أو كادر كهنة المعابد ، أو كادر الرتب العسكرية لضباط الجيش . . وتدل الشواهد الأثرية على وجود أربع درجات واضحة لتقييم درجات من كانوا يمارسون مهنة الطب فى مصر القديمة . كانت أولى هذه الدرجات هى درجة الطبيب العام أو الممارس العام الذى لم يكن متخصصاً فى فرع معين من فروع الطب . . تليها درجة الطبيب المتخصص ، ثم درجة كبير الأطباء ، ثم درجة رئيس الأطباء أو الرئيس الأعلى لأطباء الوجهين القبلى والبحرى .

● وكان النابغون من هؤلاء الأطباء يعينون عادة فى القصر الملكى . . وقد عثر على نقوش فى بعض مقابرهم تدل على حرصهم على ذكر وظيفتهم العليا ولقبهم الشرفى بأنهم كانوا « رؤساء الأطباء بالقصر الملكى » . الأمر الذى نفهم منه أن الأمل الأكبر للطبيب المصرى القديم هو الوصول إلى لقب « طبيب السراى » . . كذلك الحال بالنسبة لحكام الأقاليم المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى ، حيث كانت حاشية كل حاكم من هؤلاء الحكام تضم مجموعة من الأطباء بدرجاتهم المختلفة ليقوموا بعلاج الحاكم أو الأمير وأفراد أسرته وبقية أعضاء حاشيته بالإضافة إلى علاج الأتباع والخدم وعمال المصانع وفلاحى الحقول الزراعية .

● كما كان من المعروف أن مجموعات العمال الذين كانوا يكلفون ببناء المنشآت المعمارية الضخمة ، وبعثات عمال المناجم فى سيناء والصحراء الشرقية كانت تضم عدداً مناسباً من الأطباء المتخصصين فى مختلف فروع الطب لمعالجة ما قد يطرأ على العمال من أمراض أو إصابات بالجروح . . كما كان هناك أطباء ملحقون بالمعابد لمعالجة الجمهور بالمجان ، بالاضافة إلى الأطباء الذين كانوا يلحقون بالوحدات والثكنات العسكرية ويصاحبون الحملات الحربية أينما توجهت .

● ومن المدهش أن بعض علماء التاريخ المصرى القديم الذين كتبوا دراسات

مستفيضة عن تاريخ الطب فى مصر القديمة ، ومن أشهرهم « الدكتور يونكهير » ، الذى استطاع اعداد قائمة بأسماء اثنين وثمانين طبيبا من أطباء مصر القديمة الذين عاشوا فى العصور التاريخية المختلفة وذكرت أسماؤهم فى الآثار . . وكانوا مقسمين إلى أربع طوائف هى : طائفة الأطباء العموميين ، وطائفة الأطباء المتخصصين ، وطائفة رؤساء الأطباء ، وطائفة أطباء القصور الملكية .



المؤرخ الإغريقى « هيرودوت » .

أول من عرفوا علم التشريح ..
ومكونات الهيكل العظمى لجسم الانسان

يقول علماء اللغات الذين درسوا اللغة المصرية القديمة والطرق الثلاث لكتابتها [الهيروجليفية والهيراطيقية والديموطيقية] كما يقول علماء ومؤرخو الطب المحدثون إن لغة قدماء المصريين كانت تحتوى على مئات من الأسماء التشريحية لأعضاء الجسم البشرى الداخلية والخارجية .

● ومما لا شك فيه أن حرص المصريين القدماء على تحنيط الموتى طبقا لعقيدة الخلود التى كانوا يؤمنون بها قد أتاح لهم معرفة طبية واسعة النطاق . وكان هذا التحنيط الوسيلة العلمية والعملية لمعرفة الأعضاء والأجهزة الداخلية للجسم البشرى ، حيث كان الأمر يقتضى فتح جسم الميت وإخراج أحشائه البطنية والصدرية وإخراج المخ من الجمجمة عن طريق الأنف .

● ولا شك أيضا فى أن ممارسة هذه العمليات التشريحية أهلتهم لمعرفة وظائف الأعضاء الداخلية للجسم البشرى ، فقد عرفوا الوظيفة الأساسية للقلب وما يتصل به من أوعية تتفرع إلى سائر أنحاء الجسم . . وعرفوا أن نبض القلب هو « كلامه الداخلى » وأن النبض هو دليل وجود هذه الأوعية فى سائر أنحاء الجسم . . ولذلك فقد اعتبروا القلب أهم أعضاء الجسم ، وذكروا أنه مركز الانفعال . . ومن الجائز أن كل هذه الاعتبارات هى التى منعت المحنطين من فصل وإخراج القلب من جسم الميت أثناء التحنيط .

● ونتيجة للمعارف الطبية المتراكمة على مدى مئات السنين والتى حصل عليها الأطباء المصريون القدماء نتيجة لقيامهم بعمليات التشريح وعمليات الفحص الإكلنيكى للعديد من الأمراض ، عرفوا أن الجسم البشرى يتكون من الهيكل العظمى ، والجهاز الهضمى ، والجهاز التنفسى ، والجهاز الدموى [الدورة الدموية والأوعية الدموية من شرايين وأوردة] ، والجهاز البولى ، والجهاز التناسلى للذكور والجهاز التناسلى للاناث ، والجهاز العضلى ، والجهاز الغددى ، والجهاز العصبى ، والجهاز البصرى ، والجهاز السمعى والتوازنى ، وجهاز الشم .

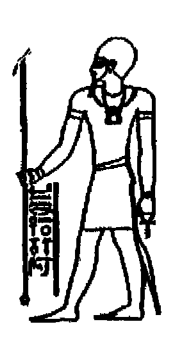
● ولكى نتعرف على مدى المعارف الطبية التشريحية الواسعة التى كانت متاحة لدى أطباء مصر القديمة والتى مارسوا العلاج الطبى على أساسها ، نذكر فيما يلى ما ذكره علماء ومؤرخو الطب المحدثون عن بعض أسماء ومكونات « الهيكل العظمى » كما وردت بالبرديات الطبية المصرية القديمة مع ذكر مسمياتها العلمية الحديثة :

● « باقت » العظم الجدارى . . « جما » العظم الصدغى . . « أوجيت » الفك السفلى . . « ببو » الترقوة . . « مشعقت » اللوح الكتفى . . « تس ن بسد » العمود الفقرى الظهرى . . « جاب » عظمة العضد . . « نبحو » العمود الفقرى العجزى . . « منت » عظمة الفخذ . . « سوت » عظمة القصبة . . « تس ن نحبت » العمود الفقرى العنقى . . «حن» الأضلاع . . « زازا » الرأس . . « زننت » الجمجمة . . «هنن تب » صندوق الجمجمة . . « دهنت » عظمة الجبهة . . « مكحا » مؤخرة الرأس .

● ويقول علماء ومؤرخو الطب المحدثون إن من المؤكد أن الأطباء المصريين القدماء قد عرفوا بقية أجزاء ومكونات الهيكل العظمى للانسان التى يعرفها الطب الحديث ، ولكن للأسف لم يتم العثور حتى الآن على برديات طبية مصرية أثرية كتبت فيها الأسماء القديمة لعظام « العصعص » و « العظم الوركى » و « عظمة الشظية » و « عظمة العقب » و « عظمة الزند » و « عظمة الكعبرة » و « رسغ اليد » و « سلاميات اليد » .

● وبطبيعة الحال فلم يطلق أطباء مصر القديمة كل تلك الأسماء على أجزاء

ومكونات الهيكل العظمى لجسم الانسان عبثا أو لمجرد وصف هذا الهيكل ، ولكنهم ذكروا تلك الأسماء فى البرديات الطبية بسبب ما كان يعرض عليهم من حوادث أو إصابات تتعلق بهذه الأجزاء العظمية وواجبهم فى معالجة المرضى أو المصابين إما بعمليات تجبير العظام أو بالتدخل الجراحى إذا اقتضى الأمر .



أقدم كتاب جراحة فى العالم

وتدل الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة القديمة [فى القرن الثلاثين قبل الميلاد] على أن عملية ختان الذكور هى أقدم العمليات الجراحية التى صورها المصريون القدماء فى النقوش الجدارية التى زينوا بها جدران بعض المقابر التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر .

● ويقول بعض العلماء ومؤرخى الطب إن من المؤكد أن المصريين قد عرفوا يقيناً كيفية إجراء بعض العمليات الجراحية قبل عصر الدولة القديمة بمئات السنين ، والدليل على ذلك مالاحظوه فى بعض المومياوات من آثار لعمليات جراحية أجريت لها أثناء حياة أصحابها ، خصوصاً بالنسبة لعمليات التربنة وعمليات جراحة العظام .

● وفى عام ١٨٦٢ م عثر فى إحدى مقابر الأقصر على بردية طبية مصرية عرفت عالمياً باسم « بردية إدوين سميث » نسبة إلى من اشتراها . وبعد موت هذا المشترى قامت ابنته « ليونورا » بإهداء هذه البردية إلى الجمعية التاريخية بنيويورك حيث رممت وترجمت نصوصها إلى عديد من اللغات الحية ، فأحدثت دوياً هائلاً لدى كل المهتمين بتاريخ الطب فى العالم ، حيث تبين لهم بصفة قاطعة أن الطب المصرى القديم قد عرف طرقاً للعلاج باجراء العمليات الجراحية المستندة على أساس علمى سليم .

● كانت الحالات المرضية المدونة فى تلك البردية ، وكلها حالات كانت تعالج باجراء عمليات جراحية موصوفة وصفاً علمياً دقيقا ، الأمر الذى دعا عالم المصريات الشهير «بريستيد » إلى القول بأن هذه البردية تعتبر « أقدم كتاب جراحة فى تاريخ العالم»، وبالرغم من أن تاريخ تدوين هذه البردية يرجع إلى بداية عصر الدولة الحديثة

[عام ١٥٥٠ق م] إلا أنه من المؤكد أن المعلومات التى وردت بها كانت ـ دون شك ـ معروفة بالتوارث لدى الأطباء المصريين القدماء منذ عصور أقدم بكثير من هذا التاريخ.

● وتتضمن هذه البردية أوصافاً طبية لثمانى وأربعين حالة لجراحة العظام وجراحة التجميل والجراحة العامة . وقد بلغت الدقة فى تبويب وترتيب هذه الحالات الجراحية درجة عالية من حسن التنظيم ، حيث رتبت الحالات حسب ترتيب أعضاء جسم الانسان ، بدءاً من جراحات الرأس وتدرجاً إلى جراحات الأنف والفم والفكين وفقرات الرقبة وفقرات الظهر والأضلاع والترقوة والكتف وهكذا . . كما تتضمن أيضا كيفية علاج الدمامل والبثور والخراريج وإعطاء التعليمات الإرشادية اللازمة لكيفية استئصال هذه الأورام وكيفية تصفية محتوياتها الضارة وكيفية علاج الجروح الناشئة عنها.

● ويقول العلماء ومؤرخو الطب المحدثون إن أوصاف وتشخيص الحالات المرضية التى دونت فى هذه البردية مكتوبة بلغة سهلة تتجنب التعقيدات حتى تكون فى متناول فهم الأطباء وطلاب الطب ، وذلك بالرغم من صياغتها بدقة علمية لا تختلف كثيراً عن المعلومات والقواعد المعروفة فى علوم الطب الحديثة . . مثل حالات الشلل والتبول اللاإرادى نتيجة لإصابة العمود الفقرى ، وحالات الإصابة بالصمم نتيجة لكسر فى عظمة الصدغ . . الخ .

● وتتضمن البردية منهجاً علمياً وأخلاقياً فى كيفية تنفيذ التعليمات التى يجب أن يتبعها الطبيب الجراح فى كل حالة تعرض عليه . . فهى تبدأ بعنوان الحالة فتقول : تعليمات بشأن حالة «كذا» . . وبعد ذلك تذكر وصف الحالة وكيفية تشخيصها فتقول: إذا فحصت مريضاً به «كذا» . . ثم تذكر بعد ذلك القرار الذى يصل إليه الطبيب بعد هذا الوصف والفحص والتشخيص ، وهو قرار لا يخرج عن احتمالات ثلاثة . فإذا رأى الطبيب انه يعرف تماماً أن الجرح أو الإصابة يمكن شفاؤها فيجب عليه أن يقول: هذا المرض سأعالجه . . أما إذا كانت الحالة مشكوك فى نجاح علاجها فيجب على الطبيب أن يقول : هذا المرض سأكافحه . . وإذا كانت الحالة صعبة وميئوس من شفائها فيجب على الطبيب عندئذ أن يقول بصدق : هذا المرض لا علاج له عندى .

أمراض الجهاز الهضمى .. فى الطب المصرى القديم

منذ منتصف القرن التاسع عشر وحتى الآن ، قام الكثيرون من علماء المصر
بترجمات دقيقة لكل البرديات الطبية المصرية التى تم العثور عليها . . وانكب
ومؤرخو الطب على هذه الترجمات وقاموا بتحليل ودراسة وتصنيف المعلومات ال
التى وردت فى هذه البرديات ، فخرجوا بنتائج لم تكن فى الحسبان ، وعرفوا بالتأكي
العلوم الطبية التى كانت سائدة فى مصر القديمة لا تختلف كثيرا عما وصلت إليه
العلوم فى العصر الحديث ، بل وتكاد تقترب من المفاهيم الطبية الحديثة فى كثير
الحالات .

● وبالتالى فقد ظهرت كتب وبحوث علمية تناولت كيفية فحص وتشخ
وعلاج جميع الأمراض التى وردت أسماؤها وأوصافها فى البرديات المصرية القديم
وقسموها طبقا للتصنيف العلمى الحديث إلى : الأمراض الوبائية أو المعدية
وأمراض الجهاز الهضمى . . والجهاز التنفسى . . والجهاز الدموى . . والجهاز ا
. . والأمراض الجلدية . . والعصبية . . وأمراض العيون . . والأنف . . والأذن
والأسنان . . والغدد . . وأمراض سوء التغذية . . وأمراض المفاصل والعظام
والكسور والخلوع . . وأمراض النساء . . والأطفال . . والأمراض الجراحية
والأمراض الناتجة من تأثير الحشرات المنزلية والحشرات السامة كالعقارب والثعابين .

● ونتيجة لكثرة الدراسات والبحوث العلمية التى أجراها مؤرخو الطب
البرديات الطبية المصرية القديمة ، فقد استطاع هؤلاء العلماء والمؤرخون تحديد ج

أنواع الحالات المرضية التى ذكرها الأطباء المصريون القدماء فى البرديات الطبية التى تم العثور عليها .

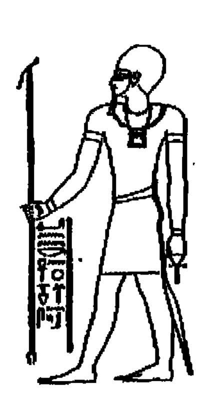
● وعلى سبيل المثال بالنسبة لأمراض الجهاز الهضمى ، فقد وردت بالبرديات أوصاف وتشخصيات لعدد من أمراض هذا الجهاز منها : الإمساك والإسهال . . والقىء وعسر الهضم . . والنزلة المعوية . . وتمدد المعدة ونزيف المعدة وسرطان المعدة . . والتهاب الزائدة الدودية والتواء الأمعاء . . والديدان المعوية وثعبان البطن والدودة الشريطية والانكلستوما . . وجرح الشفة العليا .

● وتدل البرديات الطبية أيضاً على أن الأطباء المصريين القدماء قد عرفوا ووصفوا الغالبية العظمى من أجزاء وأعضاء ومكونات الجهاز الهضمى للإنسان ، وأطلقوا على كل عضو إسماً محدداً . . فالأحشاء مثلاً اسمها «إيس» و « إمى خت » . . والفم اسمه « رو» . . والمرىء اسمه «حنجج» . . واللعاب اسمه « مويت رو » . . والأسنان القواطع والانياب والضروس اسمها «إبحو» و « تست» و « نحزوت » . . واللسان اسمه « نس » والشفة اسمها « سبت » والمعدة اسمها « را ـ إب» . . والبلعوم اسمه «خخ» والحجاب الحاجز اسمه « نت نت » . . والأمعاء الدقيقة والغليظة اسمها «مختو» و «قاب» والمستقيم اسمه « قاب معا » . . وفتحة الشرج اسمها « بحويت» .

● ومن نماذج وصف وتشخيص بعض أمراض الجهاز الهضمى التى وردت بالبرديات الطبية المصرية وصف لتشخيص حالة «تلبك معدى» على النحو التالى: «أعراض هذا المرض الإمساك والغازات وكركرة المعدة . . فإذا فحصت مريضاً يشكو من ألم بِفُم معدته وكل أعضائه ثقيلة . . فضع يدك على فم معدته ، فإذا وجدتها تطبل ـ أى منفوخة ـ أو تروح وتجىء تحت أصابعك ، فقل عن هذه الحالة إنها تلبك معدى . . وعندئذ اجعله يفرغ أمعاءه » .

● كذلك فقد وردت تشخيصات أخرى عن «النزلة المعوية» منها أن يشكو المريض بثقل فى جسمه وألم فى معدته وشعوره بالبرد ويعانى من الظمأ ليلاً . . ويشعر بالتعب كمن سار كثيراً . . وإذا جلس ليتبرّز ثقل شرجه ولا يخرج برازه . . إلى آخر ما ورد

بالبرديات من تشخيصات أخرى لكافة الأمراض التى يمكن أن تصيب الجهاز الهضمى للإنسان . . وبطبيعة الحال فقد نصت البرديات على كيفية علاج كل مرض من هذه الأمراض باستعمال أدوية معينة على شكل شراب أو لبوس أو حبوب . . وهى أدوية قد تكون مركبة من مواد كيماوية أو من أعشاب أو نباتات طبية . . كما نصت البرديات أيضاً على تحديد عدد المرات أو عدد الأيام التى يجب أن يستمر فيها المريض ويداوم على تعاطى الدواء حتى يتم الشفاء .



وأمراض القلب والجهاز الدموى

فى عام ٣٠٠ قبل الميلاد ولد الطبيب الإغريقى السكندرى «هيروفيلوس» الذى عاش فى مصر وتعلم فيها أصول الطب . ويقول مؤرخو الطب أن «هيروفيلوس» هو أول طبيب فى العالم نسبت إليه عملية « عد نبض القلب » اعتماداً على الساعة المائية التى ابتكرها المصريون القدماء لقياس الزمن منذ مئات من السنين سابقة على عهده .

● ويقول المؤرخون إن البحوث الطبية التى أجراها وكتبها هذا الطبيب الإغريقى تدل على أنه أوشك أن يكتشف الدورة الدموية ، بل ويؤكد بعض المؤرخين انه اكتشفها فعلاً ولكنه لم يستطع وصفها بطريقة واضحة .

● غير أن بعض المؤرخين المنصفين الذين درسوا نصوص البرديات الطبية المصرية دراسة تحليلية متأنية ـ ومنهم بريستيد فى كتابه عن «بردية إدوين سميث » ـ يرون أن من المحتمل ومن غير المستبعد أن الأطباء المصريين القدماء الذين توصلوا إلى معرفة نبض القلب وأطلقوا عليه اسم « كلام القلب» وذلك عند قيامهم بفحص المرضى وتشخيص ما يعانونه من أمراض ، لم يكونوا عاجزين عن معرفة مدى سرعة أو بطء نبضات القلب باستخدام آلة قياس الزمن . . كما أثبت هؤلاء المؤرخون أن البرديات الطبية المصرية ورد ببعضها [خصوصاً بردية إدوين سميث] ما يدل بصفة قاطعة على أن أطباء مصر القديمة كانوا يعتبرون القلب صاحب القوة المركزية بجسم الإنسان ، وأن حركته فى انقباضه وانبساطه هى التى تقوم بتغذية جميع أطراف وأعضاء وأجزاء الجسم وتزويدها بالدم .

● وفى البردية الطبية المصرية المعروفة عالمياً باسم « بردية إيبرس» نجد تفصيلاً علمياً دقيقاً عن جميع الأوعية الدموية « الشرايين والأوردة» التى تصل بين القلب وجميع أعضاء الجسم مثل الرأس والذراعين والساقين والمعدة والرئتين والكبد والأنف والأذنين والعينين والخصيتين وكافة الأعضاء الداخلية الأخرى مثل الطحال والمرارة والمثانة . . الخ .

● ومن المعلوم فى علوم الطب الحديثة أن القلب عضو خفى بداخل القفص الصدرى ، ولذلك فهو يستعصى على الفحص بالجس أو بالعين المجردة ، الأمر الذى جعل التعرف على الأمراض التى تعتريه يكون عادة بطريق غير مباشر . . أو باستعمال الأجهزة التكنولوجية الحديثة كالأشعة السينية أو بأجهزة رسم القلب . ولذلك يمكن القول بأن معرفة أطباء مصر القديمة بأمراض القلب كانت معرفة محدودة إلى حد كبير .

● ومع ذلك يقول مؤرخو الطب إن الأطباء المصريين القدماء استطاعوا معرفة وتشخيص الكثير من أمراض القلب والجهاز الدموى ، ووصفوا أعراضها وطرق علاجها ، وعلى سبيل المثال فقد عرفوا الأمراض التالية :

● الذبحة الصدرية : ورد بالبرديات الطبية وصف وتشخيص لها ، وأطلقوا عليها اسم « مرض واز» وأعراضه هى شعور المريض بضيق فى منطقة فم المعدة وبآلام فى ذراعه وصدره . وعندئذ يجب أن يقول الطبيب أن المريض مهدد بالموت ، ويجب أن يبذل أقصى سرعة فى علاجه .

●وبالنسبة لبعض أمراض القلب الأخرى وأمراض الأوعية الدموية وردت فى بعض البرديات الطبية القديمة أوصاف وتشخيصات لبعض هذه الأمراض مع التوصيات الخاصة بكيفية علاجها سواء بالأدوية أو بالجراحة . . ومنها مرض « الارتشاح المتنقل» الذى يعتبر من أهم أعراض فشل القلب ، وعرفوا أن هذا الارتشاح يمكن أن يزول إذا لزم المريض الراحة التامة دون أى حركة وانه يعود مرة أخرى إذا بذل المريض أى مجهود . . كما نصت البرديات أيضاً على كيفية إيقاف النزيف الدموى . . ونصت أيضاً على وصف أعراض «تخثر الدم» الذى يؤدى إلى سد الوعاء الدموى وتورم العضو المصاب به

من أعضاء الجسم . . وكذلك وصف مرض « تصلب الشرايين» . . و«فتق الوعاء الدموى» . . وأمراض الأوردة الأخرى كدوالى الساقين والبواسير . . وتيبّس الأوعية الدموية المتصلة بالمخ والتى قد تؤدى إلى ضعف الذاكرة وتعرض المريض إلى الإصابة بالجلطة المخية .



آنية من الألبستر كانت تستخدم كساعة مائية لقياس الزمن ولقياس ضربات القلب .

العيون الصناعية .. وأمراض العيون الطبيعية

فى عام ١٩٢٦ م انعقد فى نيوزيلاندا المؤتمر الخامس لجمعية العيون الدولية ، وفى هذا المؤتمر قدم الدكتور «رولاند ولسون» بحثاً علمياً مستفيضاً عن «العيون الصناعية فى مصر القديمة» . وجاء فى هذا البحث شرح تفصيلى عن الجهود التى كان يبذلها العالم الحديث فى العقود الثلاثة الأولى من القرن العشرين لجعل « العيون الصناعية» مطابقة فى مظهرها للعيون الطبيعية ، وذلك للوفاء بحاجة بعض الذين فقدوا عيونهم لسبب من الأسباب ويرغبون فى تركيب عيون صناعية للمحافظة على مظهرهم العام . وأشار الباحث إلى أنه بالرغم من التقدم التكنولوجى الهائل فى صناعة هذه العيون الصناعية ، إلا أن هذه العيون لم تبلغ درجة الاتقان التى وصل إليها قدماء المصريين فى تصنيع العيون .

● وأشار الباحث إلى أن المصريين القدماء فى مختلف عصور وحقبات التاريخ المصرى القديم تفننوا فى صناعة العيون الصناعية لتركيبها فى مكان العيون الطبيعية بالمومياوات أثناء التحنيط أو لتركيبها فى الأقنعة الكرتونية التى كانت توضع على وجوه المومياوات أو لتركيبها فى التوابيت أو فى التماثيل المنحوتة من مختلف أنواع الأحجار . . ولم يشر الباحث إلى أى دليل قاطع على أن المصريين القدماء قد قاموا بتركيب مثل هذه العيون الصناعية لأشخاص من الأحياء .

●ومع ذلك فقد أشار الدكتور رولاند ولسون إلى وجود عين صناعية من آثار مصر القديمة معروضة فى متحف جامعة لندن ، وأن هذه العين قد تناولتها الدكتورة م .

ماری ـ وهی إحدی أساتذة طب العیون بالجامعة ـ بالدراسة من حیث الشکل والحجم ودوران الحافة ، وانتهت إلی القول باحتمال أن تکون هذه العین الصناعیة کانت مستعملة فی إنسان حی .

● ویدل الترکیب الصناعی لعدید من العیون الصناعیة الأثریة المعروضة فی المتحف المصری بالقاهرة وفی عدید من المتاحف العالمیة علی أن قدماء المصریین لم یتمکنوا من صنع هذه العیون بهذا المستوی من الدقة إلا بعد أن عرفوا تماماً تشریح العین وجمیع الأجزاء التی تتکون منها کالجفون والأهداب والصلبة والقرنیة وإنسان العین والحدقة والقزحیة وحلیمة المآقی الداخلیة والخارجیة والثنیات النصف هلالیة وهی نفسها الأجزاء التی توصل إلیها تشریح العین فی الطب الحدیث .

● وفی ضوء هذا التشریح الطبی الدقیق للعیون الطبیعیة الذی استرشد به قدماء المصریین فی تصنیع العیون الصناعیة ، یقول مؤرخو الطب المحدثون الذین ترجموا البردیات الطبیة المصریة إن أطباء مصر القدیمة قد صنفوا عدداً کبیراً من الأمراض التی تصیب العیون الطبیعیة وشخّصوها تشخیصاً دقیقاً ، ووصفوا لکل مرض العلاج المناسب له .

● وعلی سبیل المثال فقد وصفوا مرضاً أطلقوا علیه اسم « نحات» وهو المرض المعروف فی الطب الحدیث باسم « التراخوما» أی الرمد الحبیبی ، ووصفوا بدقة حالته الخفیفة حین یحس المریض بما یشبه دخول الرمل إلی عینیه ، وحالته الشدیدة التی یصحبها ألم وإفراز واحتقان وإحساس بفزع من الضوء ، وهی الحالة التی تؤدی إلی تعتیم القرنیة . وهو المرض الذی یقول عنه عوام المصریین «نزلت علی عینه نقطة » .

● کما ورد فی البردیات الطبیة المصریة أیضاً تشخیص لمرض «تقرح الجفون» . . ومرض «الشطرة الخارجة والشطرة الداخلة » الذی یؤدی إلی انقلاب الجفن إلی الخارج وحدوث حکة شدیدة بأهداب العین . . ومرض «ضعف الإبصار» و«العشی اللیلی» . . ومرض «الکتارکتا» أی سقوط الماء فی العین الذی یؤدی إلی عتامة العدسة ، وعرفوا أنه یعتبر من أمراض الشیخوخة أو کعارض من أعراض مرض البول السکری ، أو انه

يحدث بسبب إصابة عدسة العين نفسها . . كذلك ورد وصف وتشخيص لمرض «خضرة العين» المعروف حديثاً باسم « الاجليكوما» وهو مرض يؤدى إلى العمى إذا أهمل علاجه .

● ونصت البرديات المصرية أيضاً على الكيفية الخاصة بعلاج كل مرض من هذه الأمراض، سواء بالجراحة أو باستعمال الأدهنة والمراهم أو بوصف أكلات معينة للمرضى مثل نصحهم بأكل «كبد الثور المشوى » وهى نصيحة صحيحة فمن المعروف الآن أن الكبد غنى بفتامين « أ » الضرورى لعلاج بعض أمراض العيون . . كذلك فقد نصحوا باستعمال أنواع من القطرة السائلة لقطرها بداخل العيون المريضة بقطارة طبيعية هى ريشة مجوفة من ريش النسر .



رأس تمثال الأميرة نفرت وقد استخدمت فيه عيون صناعية .

أمراض الجهاز البولى

تولى العلماء ومؤرخو الطب الأجانب - فى الكتب والمراجع التى نشروها عن تاريخ الطب عند قدماء المصريين - ترجمة جميع البرديات الطبية المصرية التى عثر عليها حتى الآن . وقام علماء آخرون بدراسة تلك الترجمات دراسة علمية صنفوا فيها جميع أنواع الأمراض التى وردت قواعد تشخيصها وطرق علاجها مدونة فى تلك البرديات . ومن المدهش أن هذا التصنيف يدل على مدى ما بلغه أطباء مصر القديمة من دقة وخبرة عالية فى تحديد وتشخيص الأمراض التى يمكن أن تصيب أجهزة الجسم البشرى بشكل يكاد يقترب من تحديد وتشخيص هذه الأمراض كما تنص عليه علوم الطب الحديث .

ونعرض فيما يلى موجزاً لأنواع الأمراض التى تصيب الجهاز البولى والتى ورد ذكرها فى البرديات الطبية الأثرية .

● نتيجة لعملية إخراج الأحشاء الداخلية من جسم المتوفى عند القيام بعملية التحنيط ، عرف قدماء المصريين أن الجهاز البولى جهاز متكامل ويتكون من كليتين يمنى ويسرى ، وحالب يخرج من كل كلية يقوم بتوصيل البول الذى تفرزه الكلية إلى المثانة ، وهى العضو الذى يتجمع فيه البول توطئة لاخراجه عن طريق المجرى البولى .

● وتدل التشخيصات الطبية التى وردت بالبرديات على أن أطباء مصر القديمة عرفوا الارتباط بين إفراز البول وإفراز العرق من جسم الإنسان ، وعرفوا أن غزارة العرق بشكل غير طبيعى يدل على إصابة الجسم بنوع من أنواع الحميات يؤدى فى الوقت نفسه إلى التقليل من إفراز البول أو قد يؤدى إلى احتباسه .

● وعرفوا أن احتباس البول يعتبر عارضاً لأنواع من الأمراض التى تصيب الكليتين أو المثانة ، أو بسبب وجود بعض الأورام التى تسبب هذا الاحتباس . وأطلقوا على مرض احتباس البول إسما هو مرض «حدبو» الذى يؤدى إلى شعور المريض بألم شديد فى المثانة نتيجة لالتهابها إما بسبب الإصابة بالبلهارسيا أو السيلان أو بسبب وجود حصوات .

● كذلك فقد شخصوا مرض «سلس البول » وهو التبول اللاإرادى تشخيصاً دقيقاً. وأرجعوا سببه إلى وجود علاقة بين هذا المرض وإصابة إحدى فقرات العنق أو إصابة فقرة أو أكثر من حلقات العمود الفقرى التى تحمى النخاع الشوكى ، وهو تشخيص سليم .

● وعرفوا أيضاً مرض «البول السكرى» وذكروا أن من أهم أعراضه كثرة شعور المريض بالظمأ ورغبته المتكررة فى شرب جرعات كبيرة من الماء لإطفاء هذا الظمأ، وذكروا أن هذا المرض مرتبط بالتحلل الداخلى الذى يصيب غدة البنكرياس .

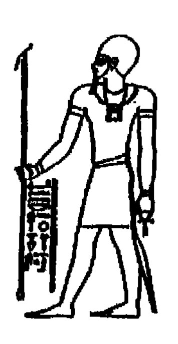
● كما نصت إحدى البرديات الطبية على تشخيص سليم لمرض «السيلان» حيث ذكرت أن من أعراضه شعور المريض بضيق وحرقان شديد فى الأعضاء التناسلية للرجل أو المرأة بصفة مستمرة وإزدياد هذا الحرقان عند التبول . ووصفوا علاجاً له بالحقن الشرجية التى تحتوى على مواد علاجية مثل الحنظل وبرادة النحاس وزيت الإهليلج ومادة كيميائية تبين انها كبريتيد الأنتيمون .

● وورد ببردية «إيبرس» الطبية وصف لمرض الإصابة بديدان البلهارسيا التى أطلقوا عليها اسم ديدان «حرو» وعرفوا أن هذه الديدان تعيش فى المياه الراكدة . وأن من أعراض هذا المرض الخطير إصابة المريض بالبول الدموى الذى أطلقوا عليه اسم «عاعا». وورد بالبردية أيضاً أن ديدان «حرو» هذه «لا يقتلها علاج» . وفى ذلك دليل على أن أطباء مصر القديمة لم يعرفوا علاجاً نوعياً لهذا المرض الخطير .

● وتنص البرديات الطبية أيضاً على عدد من الأمراض الأخرى التى تصيب الجهاز البولى منها «التسمم البولى» المصحوب بالارتشاح ، ومن أعراضه شعور المريض

بتقلصات شديدة وضيق بمنطقة فم معدته التى تكون فى العادة منتفخة جدا . ووصف علاج لهذه الحالة بإعطاء المريض بعض الأدوية التى تؤدى إلى تخفيض الضغط الدموى وتقليل التشنجات وإحداث الإسهال مع بعض المسكنات . . كما أشارت البرديات أيضاً إلى حالات ضمور الكلى أو تقيحها أو إصابتها بالخراريج أو بتكوين الحصوات .

. .



والأمراض الجلدية

طبقاً للتصنيفات التى أجراها مؤرخو الطب المحدثون بعد دراستهم للبرديات الطبية المصرية القديمة و تحليلهم لما ورد بها من أنواع الأمراض التى عرفها قدماء المصريين ، ووصفها أطباء مصر القديمة وصفاً طبياً دقيقاً وأوصوا بعلاجها بمختلف العقاقير . . لاحظ هؤلاء المؤرخون أن بعض «الأمراض الجلدية» قد وردت فى عدد من البرديات بأوصاف وبطرق للعلاج لاتختلف كثيراً عن أوصافها وطرق علاجها فى الطب الحديث .

● قسم أطباء مصر القديمة الأورام التى قد تصيب جلد الإنسان إلى « أورام دهنية » و « أورام ليفية » وأوصوا بعلاج هذه الأورام بالجراحة ، وكتبوا فى بردياتهم الطبية وصفات لتحسين الجلد وتجديده وتجميله .

● ولأن وجه الإنسان يعتبر عنوانا لشخصيته ، لذلك فقد كان من الطبيعى لأى إنسان مصرى قديم ينتمى لشعب يحب النظافة اليومية ويعتبرها من مظاهر الإيمان بالطقوس الدينية ، أن يعتنى ببشرة وجهه وغسلها وتنظيفها باستمرار طبقا لما جبل عليه من سليقة وفطرة طبيعية . ولكن بشرة الوجه كانت ـ ومازالت ـ تصاب بالتجاعيد نتيجة للتقدم فى العمر ، أو نتيجة لبعض الأمراض العضوية التى قد تصيب أجهزة الجسم الداخلية أو تصيب بشرة الوجه نفسها .

● ووردت فى البرديات الطبية ، وخصوصاً البردية المعروفة ببردية « إدوين سميث » ـ وقد سبق الكلام عنها ـ وصفات طبية لإرجاع الشباب وإزالة تجاعيد الوجه ، وتتضمن هذه الوصفات كيفية إعداد العقاقير التى تستخدم لعلاج التجاعيد ، منها وصفات لتحضير ومزج زيت الحلبة وزيت الإهليلج ، ومسحوق الصمغ ، ومرارة

الثور ، وزيت التربنتينا ، ومسحوق المر ، والعسل . ومن الغريب أن المصريين القدماء قد أدركوا منذ قديم الزمان فائدة الحلبة فى تجديد الخلايا وتقوية الجسم وتحسين قدرته على المقاومة ، لذلك فقد كانوا يخلطون الحلبة بدقيق الذرة عند صناعة الخبز وظلت هذه الطريقة سائدة فى مناطق الريف المصرى حتى الآن .

● وهناك العديد من الشواهد الأثرية تدل على مدى عناية المصريين القدماء بالشعر باعتباره من معايير الصحة ومن وسائل المظهر الجمالى للإنسان ، لذلك فقد ابتكروا منذ عصور ما قبل التاريخ أنواعاً من الأمشاط ، صنعوها من العاج أو من عظام الحيوان ، لتمشيط الشعر وتدليك فروة الرأس وتنشيط الدورة الدموية بجلد الرأس، ولإزالة الحشرات والصئبان التى قد تصيب الشعر .

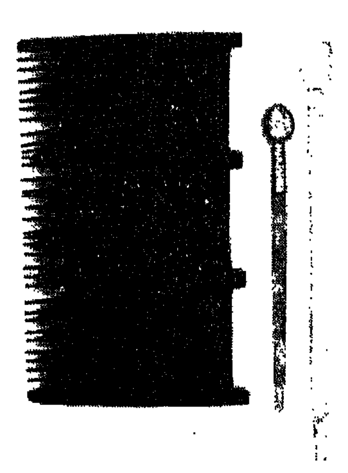
● ونظراً لأن الشعر قد يتغير لونه بالشيب إما بسبب كبر العمر والتقدم فى السن ، أو بسبب الصدمات أو الاضطرابات العصبية ، فقد وردت بالبرديات الطبية المصرية وصفات لتأخير تعرض الشعر للمشيب ، سواء بالنسبة لشعر الرأس أو شعر الحواجب. كما وردت وصفات أخرى لتقوية منابت الشعر ، ووصفات أخرى لإزالة الشعر غير المرغوب فيه ، والتوصية بالطرق السليمة لاستخدام الدهانات وطرق تصفيف الشعر أو حلاقته .

● أما « سقوط الشعر » فقد عالجوه بعقاقير مختلفة تساعد على تنمية الشعر وتقويته منها « زيت الخروع » وهى طريقة صحيحة مازالت مستخدمة حتى الآن ، ومنها «زيت الصنوبر » الذى ثبت بالتحليل الحديث أنه يحتوى على الراتينجات والقطران النباتى وبعض العناصر المفيدة الأخرى . كذلك وصفوا استخدام « زيت حب العزيز» باعتباره من الزيوت الملطفة ، كما وصفوا « الخلة » وبعض أنواع الزيوت والدهانات الأخرى .

● ووردت بالبرديات الطبية أيضا تشخيصات لأمراض جلدية أخرى وطرق علاجها منها حالات الالتهابات الجلدية مثل الأكزيما الجافة والأكزيما الرطبة المصحوبة بالحك والهرش . وأوصى أطباء مصر القديمة علاجاً لمثل هذه الحالات باستخدام أنواع من

المطهرات كنبيذ البلح ونبيذ العنب ، وأنواع من المسكنات مثل النشا والنطرون ولبخة الردة ولبخة الفول ودقيق الخبز والملح وزيت حب العزيز ، وأنواع من المجففات مثل مسحوق الشعير المعجون بسائل كحولى ، والعرعر ، والمر الجاف .

● ومن أغرب ما ورد فى البرديات الطبية المصرية من طرق علاج بعض الأمراض الجلدية ، التوصية باستخدام « لبخة الخبز الحامض » بصفة يومية وقد أثبت العلم الحديث أن عفن الخبز أو الخبز الحامض يحتوى على مادة من « المضادات الحيوية» مثل البنسلين . . فهل كان المصريون القدماء يعرفون هذا السر ؟! .



مشط ودبابيس للشعر

.. والشلل وأمراض الجهاز العصبى

ونواصل فيما يلى عرضاً للأمراض التى تصيب الجهاز العصبى كما وردت فى البرديات الطبية المصرية القديمة .

● شَخّصَ الأطباء المصريون القدماء « الشلل النصفى بالوجه » ووصفوه بأنه قد يكون نتيجة للتعرض لتيار الهواء أو نتيجة لورم أو كدم يصيب الوجه ، فيجعل المريض عاجزا عن تحريك عضلات وجهه أو تغميض عينه بالجانب الذى أصابه الشلل سواء من جهة اليمين أو من الجهة اليسرى . وفى «بردية برلين» جاء وصف لأعراض هذا المرض بظهور اعوجاج بفم المريض وانقباض فى إحدى ناحيتى الوجه .

● وورد فى «بردية إدوين سميث» تشخيص طبى دقيق للإصابة «بشلل الأطراف الأربعة» نتيجة لسقوط المصاب على رأسه ، مما يؤدى إلى تهشم فقرة عنقية أو لتدخل إحدى الفقرات العنقية فى فقرة عنقية أخرى ، فيصاب المريض عندئذ بفقد الصوت ويصبح غير قادر على الكلام ، ولا يشعر بوجود ذراعيه ورجليه .

● وورد فى «بردية إيبرس» وصف للإصابة «بالشلل النصفى لجسم الإنسان» ووصف لطريقة علاجه التى تعتمد على عمل ضمادات على الجزء الذى أصابه الشلل ، تستخدم فيها مواد متعددة تشمل الخردل والزعفران والخلة والسيكران والكرفس وقطران الصنوبر والعسل .

● وورد ذكر مرض «الصرع» الذى كانوا يسمونه مرض «نسى» فى معظم البرديات

الطبية المصرية . ولكن الأطباء القدماء اعتبروه نوعاً من غضب الآلهة على الشخص المصاب به . ووصفوا أعراضه ونوباته الشديدة والخفيفة ، سواء تلك التى يصحبها صراخ يصدر من المريض حين تنتابه النوبة ، أو نوبات الصرع الأخرى التى لا يصحبها صراخ . كما وصفوا حالات الصرع العنيفة التى تصحبها التقلصات وصعوبة التنفس وتوتر عضلات الجسم واهتزازه بشدة ، والتى قد تجعل المريض يعض لسانه فيقطعه أو يصيبه بجرح بالغ .

● ونصت البرديات على عدد من الوصفات العلاجية لحالات الصرع بمختلف درجاتها مثل استعمال العصارات المسهلة والكرفس ـ الذى ثبت انه يحتوى على عصارة منبهة ومدرة للبول ـ والعرعر وعصير السنط والنبيذ ، بالإضافة إلى عدد من المواد المسكنة والمهدئة .

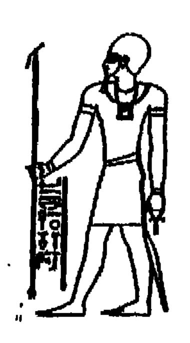
● وفى «بردية إيبرس» و«بردية هيرست» ورد وصف وتشخيص لمرض «الرجفة» الذى يؤدى إلى رعشة بعض عضلات الجسم وخصوصاً رعشة اليد أو الأصابع ، أو الرعشة التى تصيب عضلات الوجه أو اللسان أو القدمين ، ووصفت بأنها قد تكون رعشة شديدة أو خفيفة ، وأرجعوا أسبابها إلى الشيخوخة أو كعارض من أعراض إدمان الخمر.

● وقد تنبه الأطباء المصريون القدامى إلى أن مرض «العنة» أو «ضعف عضو التذكير» قد يرجع إلى الإصابة بعارض من أعراض الأمراض العصبية . ووصفوا لهذه الحالة علاجًا يتكون من سبعة وثلاثين عقاراً أهمها الحنظل والصنوبر والعرعر والسيكران والصفصاف والسنط والنبق والمر والملح والمغرة الحمراء والمغرة الصفراء والنطرون .

● ومن أغرب ما ورد فى البرديات الطبية المصرية محاولات أطباء مصر القديمة فى التعريف ببعض الأمراض «العقلية» . وتعتبر هذه المحاولات الاجتهادية ـ بالرغم من بدائيتها ـ أول محاولات للتعريف بمثل هذه الأمراض فى تاريخ الطب سواء فى مصر أو فى غيرها من الحضارات القديمة .

● وقد وردت إشارات فى بعض البرديات الطبية المصرية إلى مرض «النسيان»

باعتباره عارضاً من أعراض الأمراض العقلية . وقد وصف أطباء مصر القديمة المريض بالنسيان بأن «عقله غرق» وبأن «ذاكرته تركع » وبأن «عقله مظلم» وبأن « ذاكرته ماتت» . كما حددوا بعض الأعراض المرضية التى تظهر على المريض بالنسيان مثل سرعة الغضب ، وقلة رغبته فى تناول الطعام ، وإذا أكل فلا يأكل إلا أقل القليل .



وأمراض النساء

كانت الخيرات وفيرة فى مصر القديمة . وكان انتاجها الزراعى والحيوانى يوفر الطعام لكل المصريين . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أن مصر لم تتعرض للمجاعة سوى مرتين طوال تاريخها القديم الذى استمر آلاف السنين ، وكان ذلك بسبب سوء حالة الفيضان فى كل حالة من هاتين الحالتين ، ولم تشكو مصر أبداً من زيادة النسل ، بل كان الحال على العكس من ذلك ، حيث كانت الدعوة إلى زيادة النسل من الأمور المطلوبة والمرغوبة .

● وكانت القوانين الاجتماعية فى مصر القديمة تحرم «الاجهاض» تحريماً قاطعاً ، إلا إذا قرر الأطباء إجراء عمليات الإجهاض لأسباب علاجية لابد من توفيرها للمرأة الحامل . وورد فى بعض البرديات الطبية المصرية القديمة ذكر عدة وصفات لعمليات الإجهاض تحت عناوين مثل : «وصفة لإفراغ الرحم» أو «وصفات لجعل مافى بطن المرأة ينزل» أو «وصفة لجعل الطفل ينفصل عن أمه» . وتتراوح هذه الوصفات ما بين استعمال الحقن المهبلية ، أو تناول بعض العقاقير التى تؤدى إلى إجهاض المرأة الحامل . كما وردت وصفات أخرى باستعمال أنواع من اللبوس المهبلى .

● كذلك فقد كانت القوانين الاجتماعية فى مصر القديمة تحرم عمليات تحديد النسل أو استخدام وسائل منع الحمل إلا إذا قرر الأطباء ذلك حفاظاً على صحة الأم . وجاءت فى البرديات عدة وصفات طبية لمنع الحمل لمدة محددة تتراوح ما بين سنة واحدة وثلاث سنوات .

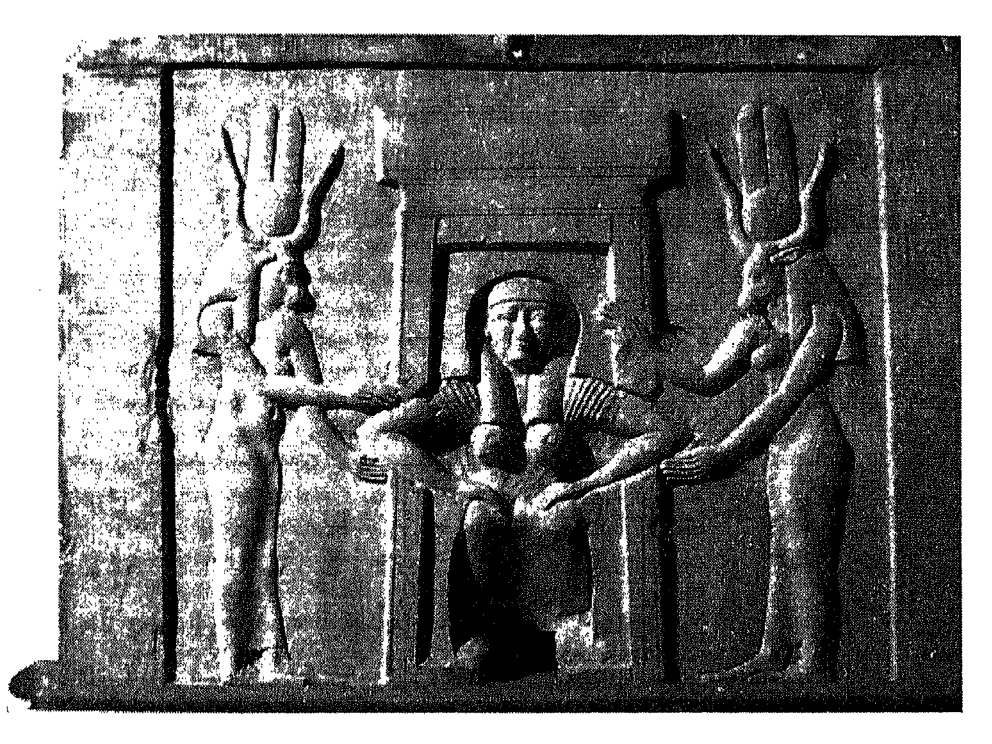
● وتنص البردية الطبية المعروفة باسم «بردية برلين» على وصف أول وأقدم محاولة لمعرفة ما إذا كانت المرأة قد حملت أم لم تحمل . . ولمعرفة ما إذا كانت المرأة الحامل ستلد ذكراً أم أنثى . ويقول نص البردية : « وصفة لطريقة إثبات المرأة التى تلد والتى لا تلد» . . يستخدم شعير وقمح ترويهما المرأة ببولها كل يوم . . فإذا نبت الاثنان فإن المرأة تكون حاملاً وستلد . . وإذا نبت الشعير أولاً فإنها ستلد ذكراً . . وإذا نبت القمح أولاً فإنها ستلد أنثى . . وإذا لم ينبت هذا أو ذاك فالمرأة ليست حاملاً ولن تلد » . وبالرغم من الطابع البدائى لهذه التجربة ، إلا أن بعض الأطباء المحدثين المتخصصين فى أمراض النساء والولادة أجروا بعض التجارب المعملية حول هذه التجربة ، وأثبتوا فاعليتها فى معظم الأحوال فى معرفة حدوث الحمل أو عدم حدوثه .

● وفى بردية «إيبرس» الطبية وردت أوصاف وتشخيصات لظواهر وأعراض بعض أمراض النساء مثل : «انقطاع الحيض» و«عدم انتظام الدورة الشهرية» . ويقول نص البردية فى ذلك : « إذا فحصت امرأة تشكو من ألم بأحد جانبى بطنها من أسفل ، فقل إن ذلك نتيجة لعدم انتظام الدورة الشهرية » . . والعادة الشهرية إذا كانت مؤلمة للمرأة فإن ذلك يكون بسبب تجلط الدم فى عنق رحمها» . ووردت فى البردية أيضاً وصفة علاجية «لمنع النزيف الرحمى عند المرأة» .

● ووردت فى البرديات الطبية الأخرى عدة وصفات علاجية للأمراض التى تصيب رحم المرأة بعد تشخيصها تشخيصا دقيقا . . فقد عرف أطباء مصر القديمة مرض «سقوط الرحم» وشَخّصوه بدقة وذكروه فى البرديات الطبية تحت عناوين مثل : « انتقال الرحم من مكانه الطبيعى» و « علاج لرد الرحم إلى وضعه الطبيعى» و «علاج لجعل الرحم يعود إلى وضعه» . . و «إذا فحصت امرأة تشكو من ألم فى رجليها وفى أحد جانبيها فقل إن هذا هو مرض ـ قاهو ـ أى انثناء الرحم » .

● وقد اندهش مؤرخو الطب المحدثون من تلك الدقة التى شخّص بها أطباء مصر القديمة مجموعة كبيرة من أمراض النساء مثل : « التهاب الثدى» بجميع درجاته من تشقق الحلمة إلى الأورام التى تصيب أحد ثديى المرأة أو ثدييها معًا . . و«التهاب المهبل

وافرازاته الضارة» . . و «التهاب المثانة» خصوصاً أثناء الحمل . . و«التهاب الرحم وتقرحه» . . كما وصفوا أحد أمراض الرحم بأنه «المرض الأكَّال للرحم» وهو وصف دقيق لمرض «سرطان الرحم» المعروف فى الطب الحديث . وبناء على تلك الوصفات والتشخيصات الدقيقة يقول مؤرخو الطب المحدثون إن أطباء مصر القديمة لابد أنهم شاهدوا الرحم وجسوه وإلا لما استطاعوا وصف وتشخيص تلك المجموعة من أمراضه .



نقش رمزى على أحد جدران معبد دندرة يصور امرأة فى حالة وضع جالسة على كرسى الولادة وتساعدها الإلهة حتحور .

وأمراض الأطفال

ما من شعب من شعوب العالم القديم اهتم بالأطفال قدر اهتمام شعب مصر القديمة بما كان ينجبه من أطفال ذكور أو اناث . . فالأطفال هم نتاج النظام الأسرى المقدس الذى كان الأساس الراسخ لبناء المجتمع المصرى القديم على أعلى المستويات الحضارية التى كانت سائدة فى جميع المجتمعات الإنسانية التى عاصرته منذ آلاف السنين.

● كان الشعب المصرى القديم يقدس الطفولة ويعتبرها خيراً وبركة ، ويبذل كل مافى وسعه لرعاية الأطفال وتنشئتهم والمحافظة عليهم من كل سوء . وقد لفتت هذه الخاصية أنظار المؤرخين القدماء الذين زاروا مصر فى أواخر عصور حضارتها القديمة . . فقد قال « ديودور الصقلى» الذى زار مصر فى القرن الأول قبل الميلاد : « إن أهم ما يميز حياة المصريين أن الطفل عندهم يلقى حظه الكامل من التربية والرعاية الصحية» . . وقال «سترابون» الذى زار مصر فى نفس الفترة تقريباً : « من التقاليد التى كان يرعاها المصريون حرصهم الشديد على تهذيب أطفالهم والحرص على علاج ما قد يصيب هؤلاء الأطفال من أمراض » .

● وتدل الشواهد الأثرية المنقوشة على الجدران والمكتوبة على أوراق البردى ، بالإضافة إلى تقارير وكتابات المؤرخين القدماء الأجانب ، على أن رعاية الأطفال صحياً كانت من الواجبات المقررة على جميع طبقات الشعب المصرى القديم بدءاً من أسر الملوك والنبلاء والطبقة الوسطى حتى أسر الفلاحين والعمال وكافة طبقات الشعب الأخرى .

بل وكانت هذه الرعاية الصحية للأطفال تبدأ منذ فترات الحمل وقبل نزول هؤلاء الأطفال من بطون أمهاتهم . وتنص معظم البرديات الطبية المصرية على الكثير من وصفات العناية بالأم الحامل ، وتسهيل عملية الولادة وتأمينها من كل خطر ، ووصفات أخرى لوقاية الجنين أثناء ولادته ، وبعد ولادته مباشرة ، وكيفية قطع الحبل السرى ، وكيفية غسل الوليد بطريقة سليمة .

● ووردت فى البرديات أيضاً وصفات طبية كثيرة للمحافظة على حياة الطفل أثناء فترة الرضاعة التى كانت تستمر عادة إلى نحو ثلاث سنوات ، والمحافظة على سلامة ثدى الأم باعتباره مصدر الغذاء الضرورى للطفل ، والاهتمام بجودة وصلاحية لبن الأم واستمرار إدراره والتأكد من كفاية كمياته للوفاء باحتياجات الطفل ، بالإضافة إلى التوصية بإبعاد الطفل عن الحشرات المؤذية التى تسبب له بعض الأمراض كالذباب والبعوض .

● وتدل الشواهد الأثرية أيضاً على أن الأسر الملكية وأسر النبلاء والطبقات القادرة كانت تستعين بمرضعات وحاضنات سليمات الأبدان ويتمتعن بلياقة صحية واضحة لإرضاع أبناء تلك الأسر والإشراف على تربيتهم ورعايتهم رعاية كاملة أثناء فترات أعمارهم المبكرة . وهناك شواهد أثرية تدل على وجود سيدات كن يحملن لقب «رئيسة المرضعات» أو « المرضعة الأولى» بالقصر الملكى ، وكانت المرضعات بصفة عامة تتمتعن بحقوق الأمهات على من أرضعنهم من أولاد وبنات .

● ووردت فى البرديات الطبية عدة تشخيصات دقيقة للنزلات المعوية التى تصيب الأطفال ، وعدة وصفات لعلاج حالات الإسهال ونوبات التبرز المؤلم التى تظهر أعراضها على الأطفال . كما وردت أيضاً وصفات لعلاج احتباس البول وتنظيمه عند الأطفال .

● ومما يثير الدهشة أن أطباء مصر القديمة قد فطنوا إلى كيفية علاج بعض الأمراض التى تصيب الأطفال الرضع عن طريق لبن الأم ، فوصفوا عدداً من الأدوية والعقاقير التى يجب أن تتناولها الأم لكى يتأثر بها اللبن الذى ترضعه لطفلها ، فيصبح هذا اللبن علاجاً لبعض الأعراض المرضية التى تصيب الطفل .

● وإلى جانب هذه التشخيصات الطبية والوصفات العلاجية كانت الأسر المصرية ـ فى كافة مستوياتها الاجتماعية ـ تحرص منذ القدم على الاستعانة بالعديد من التمائم ، وتتوسل إلى الآلهة بالصلوات والدعوات الصالحة لتوفير السلامة للأطفال وإبعاد ما قد يلحق بهم من شرور . ومن الغريب أن هذه العادة مازالت سائدة حتى الآن فى معظم القرى والمدن فى مصر الحديثة .



رعاية الأطفال رعاية تامة كانت من أوجب واجبات الأسرة المصرية .

التخصص فى طب الأسنان

إذا كان أطباء مصر القديمة قد عرفوا التخصص فى ممارسة مهنة الطب ، بمعنى وجود أطباء معينين متخصصين فى علاج أمراض معينة مثل أمراض العيون وأمراض العظام وأمراض الجهاز الهضمى . . إلى آخر تلك التخصصات التى أوردناها فيما سبق، فلم يكن من الغريب إذن أن تظهر مجموعة من الشواهد الأثرية تدل على وجود أطباء متخصصين فى طب الأسنان .

● وتدل أقدم تلك الشواهد الأثرية على أن التخصص فى طب الأسنان بدا واضحاً منذ عصر الدولة القديمة الذى يبدأ بالأسرة الثالثة وينتهى بالأسرة السادسة حيث تم العثور على ما يؤكد أن بعض المقابر التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر كانت لأطباء متخصصين فى هذا الفرع من فروع الطب . وكان بعضهم يحمل لقب « جرّاح الأسنان بالقصر الملكى» مثل الطبيب «حسى رع» الذى كان يحمل لقب «كبير الأطباء وجراحى الأسنان بقصر الملك زوسر » [من ملوك الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة] . . ومثل طبيب الأسنان « نى عنخ سخمت » الذى عاش فى عصر الأسرة الخامسة ، وطبيب الأسنان «خوى» الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة .

● ونتيجة للأبحاث التشريحية التى قام بها عدد من علماء ومؤرخى الطب المحدثين لعديد من المومياوات والهياكل العظمية التى يرجع تاريخها إلى مختلف عصور وحقبات التاريخ المصرى القديم ، فقد لاحظ هؤلاء الأطباء أن أسنان قدماء المصريين الذين عاشوا فى العصور الأولى من التاريخ المصرى كانت سليمة وتكاد تكون خالية من

أعراض التسوس أو الالتهابات وغيرهما من أمراض الأسنان واللثة . وأوعز العلماء هذه الظاهرة إلى أن قدماء المصريين الذى عاشوا فى تلك العصور الأولى كانوا يعتمدون فى طعامهم على تناول أغذية أغلبها نباتية ، ولكن عندما تقدمت الحضارة وبدأ التفنن فى طبخ الطعام واستخدام اللحوم الحيوانية وإضافة التوابل والسكريات بدأت أمراض الأسنان مثل التسوس وتقيحات اللثة فى الانتشار .

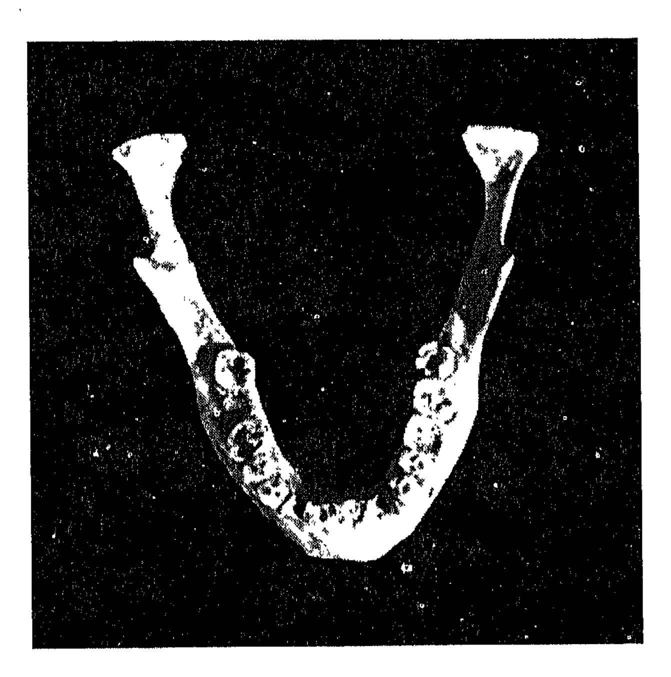
● وقال المؤرخ الطبى الألمانى «فاينبرجر» : « إن مهنة طب الأسنان ظهرت فى مصر منذ أقدم العصور ، فقد اكتشفت عدة برديات طبية نصت على كيفية علاج الكثير من أمراض الاسنان واللثة ، كما وجدت عدة مومياوات بها أسنان مريضة وتالفة ومنزوعة أو تم علاجها بالجراحة ، الأمر الذى يؤكد وجود جراحة أسنان فى تلك العصور القديمة» .

● وقال «برستيد» : « إن الدكتور هوتن - وهو من مؤرخى الطب - قام بدراسة وتحليل الفك السفلى لمومياء رجل متوسط العمر عاش فى عصر الأسرة الرابعة ، فاكتشف أثراً لوجود عدة جراحات أجراها أطباء مصر القديمة الذين قاموا بعمل ثقبين لتيسير خروج الصديد من خراج أصيب به هذا الرجل أسفل أحد ضروسه» . وتعتبر هذه الحالة شاهداً على أقدم عملية جراحة أسنان أجريت فى التاريخ .

● وفى خلال القرن الخامس قبل الميلاد حين قام «هيرودوت» بزيارة مصر وألّف كتابه الشهير عنها ، ذكر فى هذا الكتاب : « إن فى مصر أطباء متخصصين فى علاج أمراض الأسنان دون غيرها من الأمراض الأخرى» .

● وفى بردية «إيبرس» وبردية «كاهون» ورد تشخيص وعلاج تقرحات اللثة السرطانية وتخلخل الأسنان . ويقول مؤرخو الطب المحدثون إن أطباء مصر القديمة المتخصصين فى علاج أمراض الأسنان كان لهم الفضل فى إجراء أقدم عملية لترقيع وتثبيت الأسنان ، وذلك بربط الأسنان السليمة بالأسنان أو الضروس المخلخلة بسلك ذهبى ملفوف حولها . وكان لهم الفضل أيضاً فى اكتشاف علاج بعض أمراض الأسنان واللثة بعمل محاليل للمضمضة ، وفى اكتشاف أن بعض أمراض الأسنان تؤدى إلى بعض أمراض

المعدة والعينين والمفاصل ، كما اكتشفوا أيضاً العلاقة بين ظهور الأسنان اللبنية عند الأطفال قد يؤدى إلى إصابة هؤلاء الأطفال بالإسهال أو السعال أو إصابتهم بالتشنجات أو بالحمى فى بعض الأحيان .



فك مستخرج من إحدى المومياوات به أسنان مريضة
من الواضح أنها عولجت .

جبر العظام .. علاج مصرى قديم

انتشرت إصابات العظام بالكسر أو بالخلع بين قدماء المصريين بسبب اضطلاعهم بإقامة المنشآت المعمارية الضخمة من أهرام ومعابد ومقابر فقد كانت هذه الأعمال المرهقة بما فيها من عمليات الحمل والجر والصعود إلى مرتفعات عالية من أهم الأسباب التى تؤدى إلى وقوع إصابات كثيرة بين العمال ، خصوصاً الإصابات التى تصيب العظام بالكسور أو الشروخ أو الخلع .

● وبطبيعة الحال يمكننا أن نتصور عمليات الإسعاف السريعة التى كانت تعالج المصابين من العاملين فى تلك المنشآت ، ونتصور أيضاً وجود أطباء متخصصين فى علاج إصابات العظام وأمراضها . . وهو ما أكدته البرديات الطبية المصرية بما جاء فيها من تشخيصات طبية لعشرات الأنواع من إصابات العظام وعشرات الوصفات العلاجية لمداواة هذه الإصابات بالطرق التى تضمن التئام الكسور ورد الخلوع إلى ما كانت عليه مع ضمان الشفاء فى أكثر الأحوال .

● ويقول علماء المصريات ومؤرخو الطب المحدثون إن ما ورد فى البرديات الطبية المصرية يثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن أطباء مصر القديمة كانوا قد اكتسبوا خبرة واسعة فى أفضل الطرق الخاصة بعلاج الكسور والتئام العظام وعمل الجبائر وابتكار الأدهنة والمراهم التى تساعد على تخفيف الآلام التى تصاحب هذه الإصابات، كما تساعد على شفاء الأورام التى قد تحدث نتيجة لتلك الإصابات ، بل والتى تساعد أيضاً على التئام وتضميد الجروح وشفاء الجلد فى موضع تلك الإصابات .

● وعلى سبيل المثال فقد وردت فى بردية «هيرست» خمس وصفات علاجية لعمليات التئام العظام المكسورة ، كما وردت إحدى عشرة وصفة لكيفية عمل الجبائر المناسبة حسب نوع الإصابة بعد تشخيصها تشخيصاً دقيقاً .

● وورد ببردية «إدوين سميث» إثنان وعشرون تشخيصاً وعلاجاً لحالات إصابة عظام الجمجمة والأنف والفكين العلوى والسفلى ، وعظام الوجنات والصدغ والفقرات العنقية ، وعظمتى الترقوة وعظمة العضد وعظام ضلوع القفص الصدرى . وتشير جميع هذه التشخيصات الطبية والوصفات العلاجية إلى كيفية إجراء عمليات إرجاع الكسور إلى وضعها الطبيعى والاهتمام الذى يلزم استمراره بعد إجراء هذه العمليات حتى يكتمل الشفاء تماماً .

● وقد ابتكر أطباء مصر القديمة المتخصصون فى علاج العظام فكرة عمل الجبائر التى تساعد على التئام الكسور وشفاء الشروخ ، وذلك بعمل لفائف وأربطة من القماش المغموس فى دقيق الفول أو الشعير مع خلطة باللبن والعسل وإضافة « الغراء» حتى يكتسب الرباط صلابة بعد جفافه . ويقول عالم المصريات «لوكاس» فى كتابه «المواد والصناعات فى مصر القديمة» إن قدماء المصريين منذ عصر بناة الأهرام ابتكروا صناعة «الغراء» واستخرجوه من عظام الحيوانات وجلودها وغضاريفها بعد غليها فى الماء الساخن حتى تذوب وتتركز وبعد ذلك كانوا يصبون هذا السائل المركز اللزج فى قوالب خاصة ، ويتركونه حتى يتجمد ، ثم يعيدون إسالته مرة أخرى عند اللزوم .

● وتظهر عبقرية أطباء مصر القديمة المتخصصين فى علاج العظام فى استطاعتهم التفرقة بين أنواع الكسور التى تصيب العظام ، فقسموها إلى كسور بسيطة وكسور مضاعفة حيث يتمزق الجلد الذى يكسو العظمة المكسورة . كما فرقوا بين الكسر الكامل حيث يكون الجزءان المكسوران منفصلين تماماً عن بعضهما ، والكسر غير الكامل ، كما وصفوا الشروخ التى قد تصيب العظام بأن العظمة المشروخة تظل فى موضعها الطبيعى . كما أشاروا إلى احتمال حدوث التئام معيب للعظام المكسورة ، حيث تلتئم هذه العظام على غير وضعها الطبيعى . كذلك فقد ميزوا الكسور عن إصابة العظام بالخلع الذى وصفوه بأنه تغير فى الوضع الطبيعى لعظام المفاصل ، ووصفوا العلاج اللازم لكل حالة من هذه الحالات .

التحنيط .. معجزة قدماء المصريين

بالرغم من التقدم العلمى والتكنولوجى الهائل الذى توصل إليه العالم الحديث ، فلم يستطع الكيميائيون ولا علماء الطب أن يمنعوا تعفن جثث الموتى إلا لأيام قليلة ، سواء بالتبريد فى الثلج العادى أو فى ثلج ثانى أوكسيد الكربون أو فى الثلاجات الكهربائية . . ثم استطاعوا بعد ذلك المحافظة على شكل الجثث بالحقن المستمر لسنوات معدودات . أما قدماء المصريين فقد حققوا معجزة المحافظة على جثث الموتى لآلاف السنين بعد أن ابتكروا فكرة عملية التحنيط .

● ويقال فى اللغة العربية : حنَّط الميت بمعنى عالج جثته وحشاها بالحنوط حتى لا يدركها الفساد . . والحنوط هو كل طيب ذى رائحة عطرة يمنع التعفن أو الفساد .

● وقبل أن يبزغ للتاريخ فجر ، آمن المصريون القدماء بأن الموت ليس نهاية للمطاف بالفناء ، بل هو انتقال ورحلة من الحياة الدنيا إلى حياة أخرى أبدية . . سواء فى الجحيم الذى كانوا يسمونه « سقر » أو فى النعيم الذى كانوا يسمونه « حقول إيارو » . . وحتى يضمن الميت حياته فى العالم الآخر كان لابد من سلامة جسده بعد الموت ضمانًا لعودة الروح إليه ، فكان لابد إذن من ابتكار طريقة لتحنيط الجسد للمحافظة عليه من التحلل والفساد ، وذلك باستخدام الجراحة والعقاقير والمواد الكيميائية ، بل وبالاستعانة بالتمائم والرقيات السحرية أو ذات الطابع الدينى المتعلق بالعقائد القديمة .

● وكان من الواجب أن يقوم الأحياء بمساعدة الميت فى أن يبدأ رحلته فى العالم

الآخر وهو فى أبهى زينة ، فكانوا يزينون جثته بالمصوغات والمجوهرات من الذهب والفضة والأحجار الكريمة وبكافة أشكال الحلى المناسبة لقدر الميت فى الحياة الاجتماعية ، ومركزه من الغنى والثراء أومن الفقر وقلة الحيلة . . حتى أفقر الفقراء كانوا يزينون جثته بأى شىء من الحلى حتى ولو كان سوارًا من الدوبارة لُضِمَت فيه بعض الخرزات الرخيصة .

● وفى هذا الشأن ذكر المؤرخون القدماء ومنهم هيرودت وديودور الصقلى أن المصريين لديهم ثلاث طرق ودرجات من التحنيط : غالية ومتوسطة ورخيصة . وقد توصل العلم الحديث إلى معرفة وتحديد هذه الطرق الثلاث فى المومياوات التى تم العثور عليها ، ومعرفة معظم المواد التى استخدمت فى التحنيط . ومع ذلك فلم يتم التوصل إلى سر طريقة التحنيط التى اكتشفها قدماء المصريين والتى جعلت المومياوات تحتفظ بأشكالها التقريبية عبر آلاف السنين .

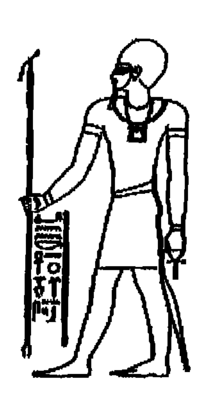
● ومن أهم المواد التى استخدمها قدماء المصريين والتى تمت معرفتها وتحديدها حديثًا مادة النطرون وهى كربونات الصوديوم الطبيعية . . والقار أو القطران الذى انتشر استخدامه فى العصور المتأخرة . . والقرفة [ومن المعلوم أن القرفة كانت تستورد قديماً من الهند أو من بلاد بونت] . . والحناء التى كانت تستعمل كمادة حافظة ولخضاب أصابع وأظافر وشعر الجثة . . ونبات العرعر . . ونبات الحزاز وهو شبيه بالعجور . . وزيت يسمى زيت القادروس وهو غير معروف الهوية ، فقيل انه زيت التربنتينا أو خل الخشب . . والراتينج الذى كانوا يستوردونه من الخارج . . ومجموعة من الأحماض الدهنية بعضها لم تعرف نسب تركيبه .

● أما عملية التحنيط نفسها فقد ذكرها المؤرخون القدماء ، كما تدل عليها أيضا بعض النقوش والكتابات القديمة ، بالإضافة إلى ما ذكره بعض كبار الدارسين لعلم التشريح الطبى الحديث . . وكان أول إجراء فى عملية التحنيط بعد وصول جثة الميت إلى حجرة التحنيط التى كان يسميها القدماء « البيت الجميل » أو « بيت الطهارة » هو استخراج المخ من فتحتى الأنف ، لأن المخ هو أول ما يتعرض للعفن من أنسجة الجسم . . ثم تستخرج الأحشاء الداخلية بشق البطن من الجهة اليسرى لاستخراج

المعدة والكبد والطحال والأمعاء والرئتين وبقية الأعضاء الأخرى مع الاحتفاظ بالقلب والكليتين فى أماكنهم الطبيعية . وتوضع هذه الأحشاء بعد غسلها وتطهيرها وإضافة المحاليل والمواد الحافظة فى أربعة من الأوانى تسمى « الأوانى الكانونية » لكل منها غطاء على شكل ابن من أبناء حورس .

● وبعد ذلك يتم غسل تجويف البطن والصدر بنبيذ البلح وبعض محاليل التوابل والأعشاب الطبية ، ثم يتم حشو التجويف بالعقاقير والمواد الكيميائية الحافظة والمواد العطرية ، كما يتم حشو تجويف الجمجمة بمادة الراتينج ومواد أخرى . . ولا تستخرج العينان ، بل يتم الضغط عليهما إلى داخل تجويفهما ، ثم حشوهما بلفائف صغيرة من الكتان الغموس فى الراتينج . وكانت تستعمل فى بعض الأحيان عيون صناعية للمحافظة على الشكل الظاهرى للجثة التى تنقع بعد ذلك فى النطرون لمدة (٧٠) يومًا. ثم يتم تجفيف الجثة وتزيينها وتكفينها بلفائف الكتان التى يصل طولها إلى مئات الأمتار فى كثير من الأحيان .

● وكثيراً ما كانت الجثة تزود بالتمائم والرقيات الخاصة بالاستعانة بالآلهة لحماية الميت ورد البصر إلى عينيه ، والسمع إلى أذنيه ، والنطق إلى لسانه ، والمضغ إلى فمه ، والحركة إلى جميع أطرافه . . وتميمة رئيسية لتلقين الميت تقول كلماتها : سوف تحيا فى العالم الآخر . وسوف ترد إلى الصبا والشباب إلى أبد الآبدين .



الطب المصرى القديم .. كتب ومراجع

اتصل بى أطباء كثيرون وبعض أساتذة الجامعات ممن تربطنى بهم صداقات حميمة، وممن لاأعرفهم على الإطلاق ، يسألوننى عن أسماء الكتب والمراجع العلمية التى استعنت بها فى كتابة الدراسات السابقة والتى تناولت فيها موضوع « الطب عند قدماء المصريين » (*) . كما اتصل بى أيضا مجموعة كبيرة من السادة القراء الذين اندهشوا من هذا التقدم العلمى الهائل الذى وصل إليه أطباء مصر القديمة بتخصصاتهم المختلفة التى عرضتها فى الحلقات السابقة، ويسألون بدورهم عما إذا كانت هناك كتب أو مراجع عربية فيها المزيد من المعلومات عن تاريخ الطب عندقدماء المصريين .

● ولاشك فى أن الباحث فى تاريخ الطب عند قدماء المصريين تصيبه دهشة شديدة عند اطلاعه على الكتب والمراجع وماورد فى الموسوعات العلمية التى تتناول هذا الموضوع بالتفصيل والشرح الموسع . وقد ترجع تلك الدهشة إلى المفاجآت المتتالية فيما يجده من معلومات غاية فى الدقة عن الكيفية التى توصل إليها أطباء مصر القديمة فى تشخيص معظم الأمراض التى تصيب أو تتعرض لها أجهزة الجسم البشرى والتى نعرفها الآن فى الطب الحديث .

● وهناك العديد من المراجع الأجنبية ما زالت مكتوبة بلغاتها الأصلية ، وقليل منها ترجم إلى اللغة العربية ، أو وردت مقتطفات منها وإشارات إليها ضمن الكتب

(*) يلاحظ أن هذه الدراسات قد نشرت تباعاً فى العدد الأسبوعى لجريدة الوفد الذى يصدر كل يوم خميس .

والمراجع العربية القليلة جدا التى تناولت موضوع الطب والصيدلة عند قدماء المصريين .

● وأشهر هذه الكتب العربية ذلك الكتاب الفذ الذى ألفه الاستاذ الدكتور حسن كمال ـ وهو ابن أحمد كمال باشا أول عالم آثار مصرى ـ بعنوان « الطب المصرى القديم » . ويعتبر هذا الكتاب أهم مرجع عربى فى هذا الموضوع الدقيق . وقد صدرت الطبعة الأولى لهذا الكتاب عام ١٩٢٣ ، وصدرت طبعته الثانية والأخيرة عام ١٩٦٤ . والكتاب مكون من جزءين ويقع فى نحو ستمائة صفحة من القطع الكبير .

● كما أن هناك كتاباً صغير الحجم كبير الأهمية صدر عام ١٩٦٠ ضمن كتب المكتبة الثقافية التى كانت تصدرها الادارة العامة للثقافة فى ذلك الوقت ، وهو من تأليف الدكتور بول غليونجى وعنوانه « طب وسحر » .

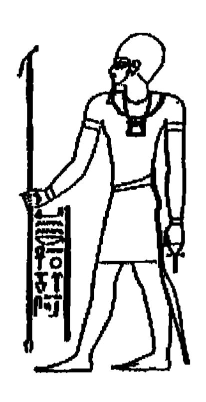
● كذلك فقد وردت موضوعات متناثرة ، بعضها مفصل وبعضها مختصر ، ضمن الموسوعة التاريخية العظيمة « مصر القديمة » التى ألفها وأصدرها الاستاذ الدكتور سليم حسن فى ستة عشر جزءاً . . وكذلك فى « الموسوعة العربية الميسرة » التى أصدرتها دار القلم بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر عام ١٩٦٥ ، وموسوعة « تاريخ الحضارة المصرية » التى أصدرتها مكتبة النهضة المصرية بالاشتراك مع الادارة العامة للثقافة بوزارة الثقافة والارشاد القومى خلال فترة الستينيات ، وكذلك « الموسوعة الثقافية » التى أصدرتها دار الشعب عام ١٩٧٢ . وكتاب « تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط » من تأليف الدكتور الأب جورج شحاته قنواتى ومن إصدار دار المعارف عام ١٩٥٩ . وكتاب « هيرودوت يتحدث عن مصر » الذى ترجمه الاستاذ الدكتور محمد صقر خفاجه وصدر عن دار القلم عام ١٩٦٦ . بالإضافة إلى كتب ومراجع أخرى كثيرة وردت بها بعض الإشارات إلى تاريخ الطب فى مصر القديمة ضمن الموضوعات التى تناولتها .

● أما بالنسبة للكتب والمراجع والبحوث والدراسات الأجنبية التى تناولت علوم الطب والصيدلة عند قدماء المصريين فهى لا تقع تحت حصر لكثرتها وتنوعها .

وللأسف الشديد لم يترجم من هذه الكتب إلى اللغة العربية سوى كتابين اثنين ـ على قدر علمى ـ هما : « إيمحوتب إله الطب والهندسة » من تأليف جيميسون هارى وترجمة محمد العزب موسى وأصدرته هيئة الآثار المصرية عام ١٩٨٨ ، وكتاب «التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة » من تأليف ليز مانكه وترجمة الدكتور أحمد زهير أمين وأصدرته مكتبة مدبولى عام ١٩٩٣ .

● أما الكتب والمراجع الأجنبية التى لم تترجم وما زالت بلغاتها الأصلية فهى كثيرة جدا ، وكتبها مجموعة من أشهر العلماء والمؤرخين ومؤرخى الطب بصفة عامة وأساتذة الكيمياء والصيدلة . وقد صدرت أغلبية هذه الكتب باللغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة إلى لغات أوربية أخرى كالألمانية والإيطالية والأسبانية . ويمكن للراغبين فى الاطلاع على هذه الكتب والمراجع النفسية أن يطلعوا عليها فى مكتبة جامعة القاهرة ، والمكتبة الملحقة بالمتحف المصرى بالقاهرة .

● كما أود أن أشير أيضا إلى ما ورد عن موضوع الطب عند قدماء المصريين فى الموسوعة البريطانية « إنسيكلوبيديا بريتانيكا » والموسوعة الأمريكية « إنسيكلوبيديا أمريكانا » .



الذين ابتدعوا الصيدلة .. وفن تركيب الدواء

لم يكن الطب المصرى القديم قاصراً على عمليات تشخيص الأمراض وتحديد أعراضها ، وإنما كان مرتبطا بالوصفات العلاجية التى تكفل القضاء على أسباب المرض كطريق للشفاء . ولهذا يقول مؤرخو الطب المحدثون إن منهج تعليم الطب فى مصر القديمة كان مرتبطا بمنهج تعليم الصيدلة وفن تركيب الدواء . وإن كان بعض هؤلاء المؤرخين يقولون إن علم الصيدلة فى مصر القديمة كان سابقا فى ظهوره على علم الطب ، خصوصاً وقد ثبت من الدلائل التاريخية والشواهد الأثرية أن المصريين القدماء قد توصلوا إلى معرفة الخصائص العلاجية للعديد من النباتات والأعشاب واستخدموها فى علاج بعض الأمراض منذ عصور ما قبل التاريخ .

● ويقول فلاسفة وأطباء الإغريق القدماء الذين درسوا علومهم فى مصر إن مكتبات المدارس الطبية التى تعلموا فيها والتى كانت منتشرة فى طيبة ومنف وأون [هليوبوليس] وسايس [صا الحجر حاليًا] كانت تتضمن مئات من الكتب الطبية وكتب الأقرباذين [الصيدلة] . وقالوا أيضا إنهم درسوا فى تلك المدارس إلى جانب علوم الطب علوم النبات والحيوان والكيمياء والصيدلة . كما ورد فى « الأوديسة » التى كتبها « هوميروس » شاعر الإغريق الشهير : « إن مصر بلد خصبة تعطى أرضها القمح كما تعطى أعشاباً كثيرة لا يمكن حصرها ، منها النافع الذى تستخرج منه العقاقير وأدوية الأمراض » .

● ومنذ أن بدأ أطباء مصر القديمة فى تدوين كتبهم ومؤلفاتهم فى البرديات ، حرصوا على ذكر الوصفات العلاجية الخاصة بكل مرض تم تشخبصه وتحديد أعراضه .

وعلى سبيل المثال فقد ورد فى بردية « إيبرس » فصل عنوانه : « هنا يبدأ كتاب تحضير الأدوية لكل أجزاء الجسم وأمراضها » . ويتضمن هذا الفصل جميع التفصيلات الخاصة بكيفية تحضير الدواء وتركيبه سواء من المواد المعدنية أو الكيمائية أو من النباتات والأعشاب الطبية .

● وإلى جانب قواعد التحضير والتركيب كانت الوصفات تتضمن كيفية استعمال الأدوية المستحضرة أو التى يتم تركيبها سواء بالتوصية بالاستعمال الظاهرى فقط أو بالبلع أو بالغرغرة أو المضمضة أو بتناول الحبوب أو بدهان المراهم أو بالاستنشاق أو الشم أو بالتبخير ، أو باللبوس أو الحقن الشرجية أو باستخدام الكمّادات أو اللبخات أو الأربطة .

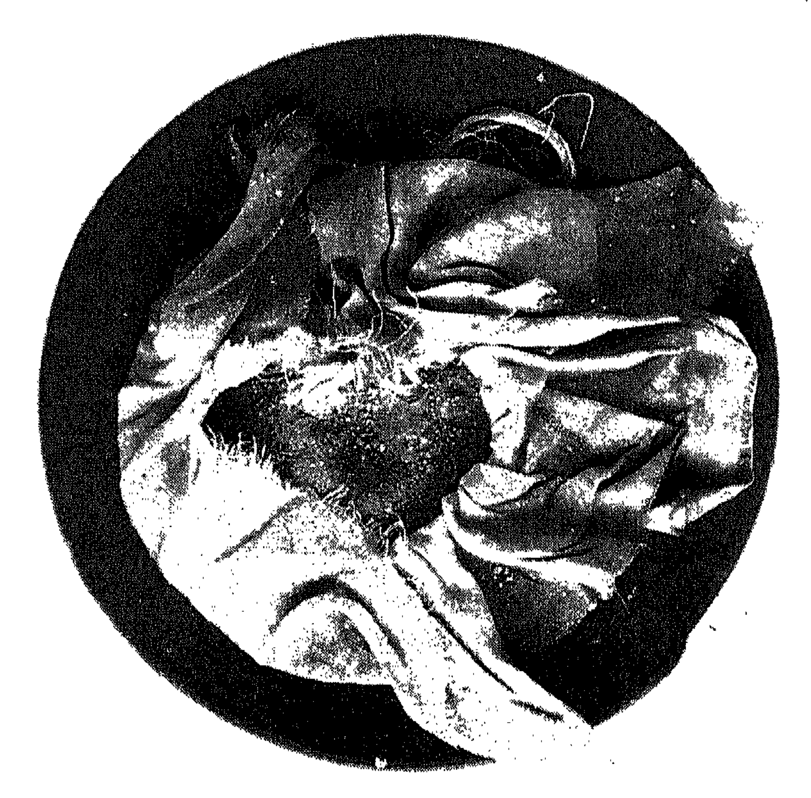
● كما تتضمن الإرشادات الطبية الخاصة بكيفية استعمال الأدوية عدد المرات التى يجب على المريض أن يتناول فيها الدواء الموصوف ، والوقت المناسب لتناول هذا الدواء سواء أكان على الريق فى الصباح الباكر أو قبل أوبعد تناول الطعام أو فى المساء قبل النوم .

● وقد قام مؤرخو الطب المحدثون بعمل حصر تقريبى لأنواع الأدوية التى ورد ذكرها فى البرديات المصرية القديمة ، فشمل هذا الحصر : المهدئات والمنبهات والمنومات ، ومضادات التشنج ، والقابضات والملينات ، وأدوية طرد البلغم من الصدر والمقيئات التى تستخدم للتخلص من الأطعمة الضارة التى يكون قد تناولها المريض ، والمقويات العامة لأنشطة الجسم أو الأنشطة الذهنية ، والأدوية المطهرة ، وطوارد الريح ، وطوارد دود البطن ، وأدوية موانع النزيف وإيقافه ، ومدرّات البول ، ومضادات السموم ، ومبيدات الجراثيم ، وأدوية أمراض النساء كمدرات الطمث وأدوية الحوامل ومعجلات الولادة ، ومدرات لبن الأمهات . بالإضافة إلى تركيبات دوائية أخرى كمرطبات البشرة ودهانات التجميل .

● ومن الغريب أن مؤرخى الطب المحدثين ذكروا أيضا أن قواعد وأسس كثير من الأدوية التى وصفها أطباء وصيادلة مصر القديمة تشبه قواعد وأسس تركيب الأدوية

المستعملة فى الطب الحديث إلى حد كبير . فالغالبية العظمى من الأدوية المصرية القديمة مكونة من « عنصر رئيسى » معدنى أو كيميائى أونباتى أو حيوانى ، مضافة إليه « مـادة مساعـدة » لجعله أقوى أو أسرع تأثيراً ، كما تضاف إليه ـ فى كثير من الأحيان ـ مادة أخرى ذات طعم طيب تجعله سائغ المذاق أو قليل المرارة فيسهل تناوله دون أن يشعر المريض بأى امتعاض .

● وطبقا للقوانين التى كانت سائدة فى مصر القديمة ، كانت وصفات العلاج المعتمدة لعلاج الأمراض تعتبر من التعاليم المقدسة التى يجب على جميع ممارسى مهنة الطب والصيدلة اتباعها بمنتهى الدقة ، وإذا لم يلتزم بها الأطباء والصيادلة ولم يعالجوا المريض طبقا لهذه الوصفات ، أو تسببوا باهمالهم فى موت المريض فإنهم يتعرضون للعقاب .



كيس أثرى وجدت به كميات من كربونات وبيكربونات الصوديوم وهى أملاح كانت تستخدم فى العلاج وفى التحنيط .

الصيدلة المصرية القديمة .. وأسس الصيدلة الحديثة

وصف الطبيب الإغريقى القديم « هيراس » لزقة لتخفيف آلام الظهر وآلام العظام بصفة عامة ، تتكون من أول أوكسيد الرصاص معجوناً بزيت الزيتون ، ومضافة إليه بعض المواد الكيماوية الأخرى . . وقال ليؤكد فائدة هذه اللزقة وجدواها فى مكافحة الألم ، إنه استقى أساسها من بردية مصرية قديمة ، وإنه جربها على كثيرين من مرضاه فخففت آلامهم .

● ومن الحقائق المعروفة فى تاريخ الطب أن معظم أطباء الإغريق القدامى الذين تعلموا فى مصر ، ومن أشهرهم « ثيوفراستوس » و « جالين » و « ديوسكوريدس » ذكروا فى مؤلفاتهم ان الوصفات العلاجية والتركيبات الدوائية التى تعلموها من كتب الطب المصرية القديمة والتى لقنهم إياها أساتذة الطب المصريون وكهنة المعابد المصرية الذين كانوا يمارسون أعمال الطب والصيدلة ، كانت وصفات قائمة على العلم وأعطت نتائج حسنة فى شفاء الأمراض ، لأنها جربت على مدى قرون طويلة وأثبتت نجاحها فى القضاء على الألم والقضاء على أسباب المرض .

● ومن المعروف أن جميع هذه الوصفات العلاجية والتركيبات الدوائية التى قامت عليها العلوم الطبية التى وضعها أطباء الإغريق القدماء قد شاعت شيوعاً عظيما فى كافة أنحاء الإمبراطورية الرومانية فيما بعد ، ثم أصبحت الأساس الذى قامت عليه المعارف والعلوم الطبية فى أوربا أثناء العصور الوسطى وما بعدها ، وما زال الكثير منها قائماً ومتبعاً ـ بتطور ـ حتى الآن . ولهذا فإن مؤرخى الطب المحدثين يقولون إن آثار كل من

الطبيب والصيدلى المصرى القديم يمكن تتبعها واكتشافها فى موروثات الطب الإغريقى واللاتينى والعربى والفارسى والسيريانى والأوربى . ويعترف هؤلاء المؤرخون بأن المصريين القدماء هم أول شعب فى الدنيا مارس مهنتى الطب والصيدلة على أسس علمية قائمة على التجربة .

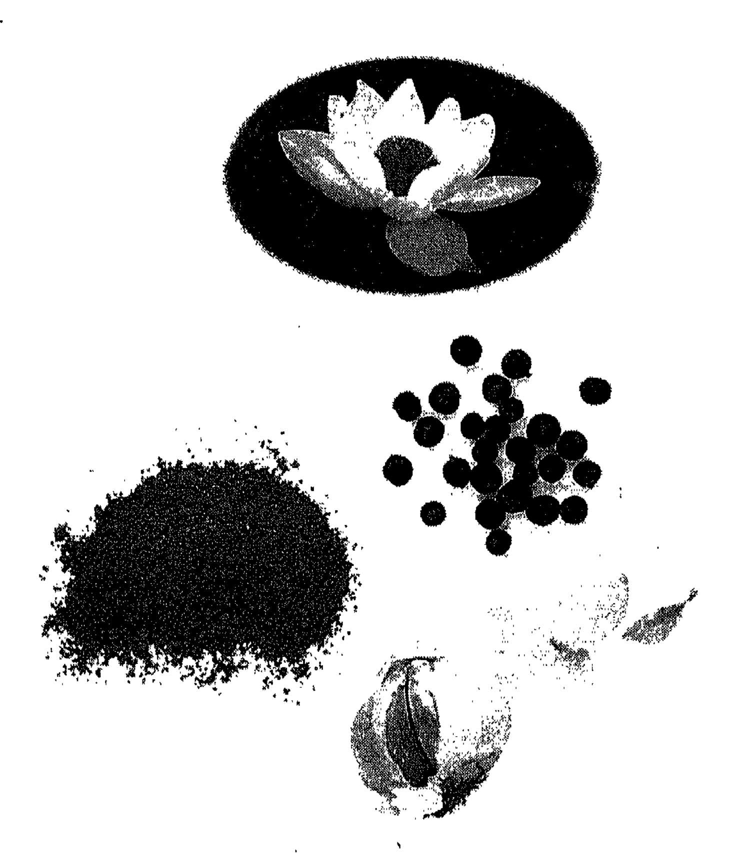
● وهناك شواهد أثرية كثيرة تدل على أن بعضاً من كبار كهنة المعابد المصرية كانوا على درجة كبيرة من العلم بخصائص المواد الكيميائية التى تسمح لهم بتجهيز الكثير من العقاقير والأدوية .

● وبطبيعة الحال فلم تكن هذه المواد الكيميائية معروفة لدى قدماء المصريين بأسمائها المعروفة به الآن فى اللغات الحديثة ، بل كانت مسماة بأسماء مشتقة من اللغة المصرية القديمة التى تكتب بالهيروجليفية أو بالهيراطيقية أو بالديموطيقية . وقد استطاع العلماء المحدثون تحديد الكثير من تلك المواد الكيميائية التى كانت تستخدم فى التركيبات الدوائية فى مصر القديمة ، ومنها : أوكسيد الرصاص الأحمر ، وأوكسيد الحديديك الأحمر ، وحجر الشب ، والنطرون ، والملح ، وكربونات الصودا . . الخ . والزائر للمتحف المصرى بالقاهرة يمكنه مشاهدة الكثير من تلك المواد الكيميائية التى عثر عليها فى بعض مقابر الأطباء والكهنة المصريين القدماء . وكانت هذه المواد محفوظة بداخل الأوانى المناسبة لطبيعة كل مادة سواء أكانت من المواد الصلبة أو المواد السائلة .

● ومن الغريب أن صيادلة مصر القديمة استطاعوا معرفة الخصائص الكيميائية لبعض النباتات أو لبعض الأجزاء المستخرجة من أحشاء الحيوانات . واستطاعوا بالتالى استخراج وتقطير المركبات والعناصر الكيميائية من هذه النباتات سواء فى شكل زيوت أو فى شكل محاليل سائلة أو فى شكل سوائل كحولية . كما استطاعوا أيضا فصل المواد المؤثرة الفعالة التى تستخدم فى العلاج والمأخوذة من أحشاء بعض الحيوانات ، كعصارة الصفراء أو مركبات الدم المأخوذة من الثيران أو الأُسُود أو التماسيح أو أفراس النهر ، كما استخدموا الشحوم المستخرجة من هذه الحيوانات وغيرها فى عمل المراهم والدهون الدوائية .

● وتدل الوصفات العلاجية والتركيبات الدوائية التى ورد ذكرها فى البرديات المصرية القديمة على أنها كانت مركبة من عدة أصناف من المواد ، الجزء الأكبر منها هو «القاعدة الدوائية » أو « الجوهر الفعال » وتضاف إليه مواد أخرى لتقوية أثر المواد الرئيسية وزيادة فاعليتها ، ومواد إضافية لتجعل طعم الدواء مقبولا .

● ولهذا فلم يكن غريباً أن يقول أحد مؤرخى الطب المحدثين وهو العالم الألمانى «فوكارت » : « إن علم الشفاء المصرى ينطوى منذ بدايته على نظام متقدم عدة آلاف من السنين عن بقية المجتمع البشرى » .



بعض النباتات الطبية والمواد الكيماوية التى كانت تستخدم فى تركيب بعض الأدوية .

طب الأعشاب .. فى مصر القديمة

من الأمور الشائعة بين المجتمعات البدائية منذ الأزمان القديمة وحتى الآن استخدام النباتات والأعشاب بصفة عامة فى علاج بعض أنواع الأمراض . ويرجع ذلك أساساً إلى تراكم الخبرات المتوارثة التى أثبتت لهم مدى فائدة هذه النباتات والأعشاب فى علاج تلك الأمراض .

● وتميز المصريون القدماء عن بقية كل الشعوب القديمة بأنهم استخدموا النباتات والأعشاب فى علاج الأمراض بعد أن عرفوا الخصائص الطبية الكامنة فى تلك النباتات والأعشاب . وحددوا تلك الخصائص وجعلوها من المواد العلمية التى تدرس للطلبة الذين يدرسون العلوم الطبية ، سواء على يدى كهنة المعابد ، أو على أيدى أساتذة الطب فى المدارس الطبية التى كانت منتشرة فى كبريات المدن المصرية القديمة .

● وفى الآثار المصرية شواهد كثيرة جدا تدل على وجود حدائق ملحقة بالمعابد كانت تزرع فيها عادة مجموعة من النباتات والأعشاب الطبية التى كانت تستخدم فى تجهيز الأدوية الموصوفة لعلاج مختلف الأمراض .

● ويقول الأطباء الإغريق القدماء الذين تعلموا الطب فى المدارس المصرية إن « علم النبات » كان من العلوم الأساسية التى يدرسها الطلبة فى تلك المدارس ، إلى جانب علوم الحيوان والكيمياء والصيدلة ، وإن علم النبات كان يتضمن دراسة خصائص النباتات والأعشاب الطبية ومزاياها وفوائدها فى العلاج ، وكيفية استخراج وتقطير المواد الفعالة سواء من النباتات والأعشاب نفسها أومن زهورها أو براعمها أو بذورها أو ثمارها أو أوراقها أو جذورها أو من لحائها .

●وبالرغم من أن البعض ما زالوا ينظرون إلى التداوى بالأعشاب باعتباره من «الطب الشعبى المتخلف» بعد ذلك التقدم والتوسع فى علوم الكيمياء والصيدلة الذى حدث منذ بداية القرن العشرين وحتى الآن ، وبعد أن ابتدعت الشركات العالمية المتخصصة فى صناعة الأدوية مئات الآلاف من أنواع الأدوية التركيبية القائمة على أساس المركبات والعناصر الكيميائية ، إلا أن طريقة التداوى بالأعشاب الطبية قد عادت إلى الظهور والانتشار مرة أخرى فى عصرنا الحديث ، وأثبتت الأبحاث العلمية أن هذه الطريقة تعتبر أفضل من التداوى والعلاج بالمركبات الكيميائية التى أصبحت تسبب كثيراً من الأضرار الجانبية . . فما فائدة أن يستخدم المريض دواءً يشفيه من مرض معين، ولكن هذا الدواء نفسه يسبب له أمراضاً جديدة قد تكون أخطر بكثير من مرضه الأول ؟!

● وأثبتت البحوث العلمية أيضا أن الوصفات العلاجية التى وردت بالبرديات الطبية المصرية القديمة والتى توصى باستعمال الأعشاب الطبية فى علاج بعض أنواع الأمراض، هى وصفات صحيحة ودقيقة إلى حد بعيد ، وتصلح ـ حسب النتائج التى توصل إليها طب الأعشاب فى العصر الحديث ـ لعلاج نفس الأمراض التى نصت عليها البرديات المصرية .

● وفى هذه البرديات تعددت طرق استخدام النباتات والأعشاب فى العلاج الطبى، فمنها ما كان يوصى بتناولها وهى طازجة فى حالتها الطبيعية ، ومنها ما كان يتطلب تجفيفها وطحنها وعجنها بمواد إضافية كالماء أو العسل أو النبيذ أو غير ذلك من المواد الأخرى ، ومنها ما كان يوصى بغليها أو بنقعها وتخميرها إلى آخر ما نصت عليه البرديات من طرق تجهيز واستخدام هذه النباتات والأعشاب فى علاج الأمراض .

● وعلى سبيل المثال فقد استخدمت أوراق شجر « السنط » المنقوعة فى الماء المغلى كعلاج لديدان البطن ، كما استخدمت بعد خلطها بالعسل والنبيذ لعلاج السعال ، وإذا أضيفت إليها أوراق شجر « النبق » وبعض المواد الكيميائية فانها تستخدم كلبخة لتسكين آلام العظام والجروح ووقف النزيف .

●كما تنبه أطباء مصر القديمة إلى فوائد عصارة البصل لإدرار البول أو المساعدة على

التخلص من البلغم وعلاج السعال والزكام . . وفوائد نبات « الكرات » فى علاج الأوعية الدموية وبعض أمراض العيون كالعشى الليلى . . وفوائد « الثوم » كعلاج لالتهابات الأغشية المخاطية والزكام ونوبات الربو ، وإذا أضيفت إليه « الكسبرة » الخضراء والجعة فيمكن استخدامه كملين أو كمثير للرغبة الجنسية ، وإذا أضيف إليه الخل أصبح بالغرغرة علاجاً للوزتين وآلام الأسنان .

● واستخدمت عصارة الصبّار كملين وكعلاج للالتهابات والحروق البسيطة . واستخدم نبات « الشبت » كمرطب ومهدىء ومساعد للهضم وكعلاج للانتفاخ والمغص والزغطة « الفواق » . واستخدام « الكرفس » كمنشط عام وفاتح للشهية وطارد للريح ومدر للبول . . والخروب كقابض لإيقاف الإسهال . . والشيكوريا كعلاج للصداع وأمراض الكبد والمثانة . . واللبلاب كملين . . والكمون لتهدئة السعال وتخفيف آلام المعدة . . والخروع كعلاج للإمساك وكدهان لنمو شعر الرأس ولعلاج بعض الأمراض الجلدية .

● كما استخدموا القرفة والحنظل والعجور والجميز والخشخاش والرمان والشمر والشعير والنعناع والخس والريحان والزيتون والينسون والفلفل والفجل والرجلة والحلبة والدوم والحناء واللبخ والحمص . . ومعظم هذه النباتات أثبتت فاعليتها وجدواها فى طب الأعشاب فى العصر الحديث .



الطب المصرى القديم .. وصل إلى الصين

خلال شهر اكتوبر ١٩٩٧ ، انعقد فى باريس « المؤتمر الدولى للطب الصينى » وحضره أربعمائة باحث ومؤرخ وطبيب من مختلف دول وقارات العالم . وكان موضوع البحث الرئيسى فى هذا المؤتمر عرضاً موسعاً لتاريخ وطرق الطب التقليدى فى الصين منذ العصور القديمة حتى عصرنا الحاضر ، خاصة وأن هذا الطب التقليدى يعتمد إلى حد كبير على التداوى والعلاج بالنباتات والأعشاب الطبية .

● ومن الغريب أنه فى خلال الثلاثين عاماً الماضية انتشرت فى معظم المدن الأوربية والأمريكية ظاهرة العودة إلى العلاج بالنباتات والأعشاب الطبية بعد أن كثرت الشكوى من الآثار الجانبية الخطيرة التى تسببها معظم الأدوية الحديثة التى تعتمد فى تركيبها على المواد والمركبات الكيميائية ، وبالتالى فقد انتشرت فى تلك المدن محلات يديرها صينيون متخصصون فى التداوى بالأعشاب ، وهى أشبه ما تكون بمحلات العطارة المنتشرة فى القاهرة وكثير من المدن العربية والتى تبيع الأعشاب الطبية ، حيث يصف المريض الحالة المرضية التى يعانى منها ، فيتولى العطار ـ أو الصينى المتخصص ـ تركيب الوصفة الطبية من الأعشاب التى تصلح لعلاج تلك الحالة . وفى غالبية الأحوال تكون تلك الوصفة متوارثة عن أجيال سابقة أثبتت فائدتها وجدواها فى علاج مختلف أنواع الأمراض التى تصيب الجسم البشرى ، أو تكون مدونة فى كتب التراث أو محفوظة عن ظهر قلب وتنتقل إلى الأجيال المتتالية جيلاً بعد جيل .

● وفى هذا « المؤتمر الدولى للطب الصينى » تليت العديد من البحوث العلمية

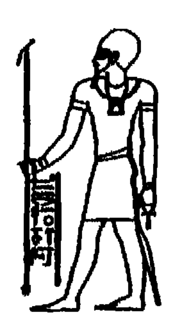
والطبية التى تؤكد سلامة فكرة التداوى بالنباتات والأعشاب الطبية طبقاً للطرق والقواعد المتوارثة التى يتوارثها ممارسو الطب الشعبى فى الصين .

● وفى بحث تقدم به أحد كبار المتخصصين فى هذا الطب ، ذكر الباحث أن الطب الصينى التقليدى فى عمومه مدين للطب المصرى القديم ، سواء فى كيفية تشخيص الأمراض ، أو فى وصفات تركيب الأدوية الخاصة بعلاج تلك الأمراض . وأثبت الباحث أن الشواهد الأثرية الموجودة فعلا تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المصريين القدماء هم أول شعب فى العالم استخدم النباتات والأعشاب فى علاج الأمراض ، بالإضافة إلى ما ابتكروه من أدوية أخرى تعتمد على بعض المواد المعدنية والمركبات الكيميائية .

● وأثبت الباحث أيضا أن طرق التداوى والعلاج بالنباتات والأعشاب التى وردت بالبرديات الطبية المصرية كانت قد انتقلت خلال العصور التاريخية إلى معظم الحضارات القديمة التى عاصرت الحضارة المصرية أو التى تلت الحضارة المصرية فى الظهور ، وأن من المؤكد أن الحضارة الصينية القديمة قد تأثرت بطريقة أو بأخرى بطرق العلاج بالنباتات والأعشاب التى نصت عليها البرديات المصرية ، نظراً لوجود العديد من أوجه التشابه والتطابق بين تلك الطرق فى كل من مصر القديمة والصين القديمة .

● وأشار البحث إلى فضل أطباء مصر القديمة فى توضيح الطريق أمام ممارسى مهنة التداوى بالأعشاب الطبية ، وذلك عندما شرحوا فى بردياتهم طرق تركيب الأدوية وطرق استخلاص وتقطير المواد الجوهرية الفعالة من النباتات والأعشاب الطبية ومن زهورها أو براعمها أو ثمارها أو بذورها أو جذورها . وفضلهم أيضا فى شرح وتوضيح طرق خلط أو مزج هذه المواد الجوهرية الفعالة بمواد أخرى حتى تعطى أثرها العلاجى المطلوب . وعلى سبيل المثال فقد استعملت بعض تلك المواد مخلوطة بعسل النحل لعلاج الجروح القطعية والجروح الناجمة عن الحروق . وقد أثبت العلم الحديث أن عسل النحل له أثر فعال فى منع تقيح الجروح ، ويخلق وسطاً مضاداً للبكتريا ، ويوفر بيئة رطبة حول الجروح والحروق ، كما يتضمن مواداً تساعد على سرعة نمو خلايا جديدة للجلد .

● ولم يغفل البحث الإشارة إلى نبوغ أطباء وجراحى مصر القديمة فى ممارسة التخصصات الطبية فى علاج مختلف الأمراض وممارسة فن التحنيط . . وأن هؤلاء الأطباء قد حازوا شهرة واسعة فى كافة أرجاء دول العالم القديم كلها ، لدرجة أن العديد من ملوك وحكام تلك الدول كانوا يكاتبون الفراعنة وكبار رجال الدولة المصريين لكى يوفدوا إليهم بعضا من الأطباء المتخصصين ليتولوا علاجهم مما يعانونه من أمراض . كما أن هناك بعض الشواهد التاريخية والأثرية تدل على أن بعض الشعوب المجاورة لمصر وشعوب البحر المتوسط كانت توفد بعض النابغين من أبنائها لدراسة علوم الطب والصيدلة فى مدارس مصر القديمة .



بسم الله أرقيك .. والله يشفيك

لو رجعنا بالذاكرة إلى الماضى البعيد ، وعشنا بين أفراد المجتمعات الانسانية التى كانت تعيش فى عصور ما قبل التاريخ لنتعرف على الطريقة التى كانت تنظر بها تلك المجتمعات الى أى فرد منها يصيبه مرض من الأمراض ، لوجدنا أن الانسان عندما يكون سليما فإنه يعيش حياته العادية بين بنى قومه لا يشكو من شىء . . فاذا اعتراه مرض من الأمراض ـ فجأة أو بالتدريج ـ فإننا نجد هذا الإنسان يتألم ويبدأ فى الشكوى . . وعندما تشتد عليه أعراض المرض يبدأ فى التلوى والصراخ والبكاء وتنتابه النوبات الشديدة إلى أن يموت فى أغلب الأحوال .

● وقليلاً ما كانت هذه المجتمعات الانسانية البدائية تعرف سر ما قد يصيب أى فرد منها من عوارض الأمراض ، كأن يكون هذا الانسان قد جرح أو سقط من مكان مرتفع أو لدغه عقرب أو ثعبان . . ولكن فى أكثر الأحيان لم يكن سر الاصابة بالأمراض معروفا لدى تلك المجتمعات التى لم تكن تعرف أن هناك ميكروبات أو جراثيم تسبب تلك الأمراض التى تصيب الفرد أو تصيب الجماعة كلها فى شكل وباء سريع الانتشار . وكان التفسير الوحيد أمام تلك الجماعات الانسانية أن هناك « أرواحاً شريرة» يعود إليها السبب فى كل ما حدث . . وبالتالى فلا سبيل أمامهم سوى اللجوء الى « ساحر القبيلة » ليمارس سحره لطرد تلك الأرواح الشريرة التى دخلت الى جسم المريض حتى يتحقق له الشفاء .

● ويقول علماء الاجتماع وعلماء الفولكلور المحدثون إن « السحر » وما إليه من

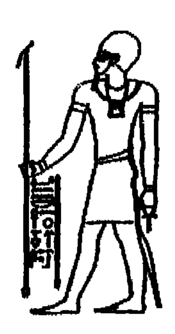
ممارسات مماثلة هو أمر ينكره عقل الانسان الحديث ويعتبره من الخرافات ، ومع ذلك فقد نبت السحر فى ذهن الانسان منذ آلاف السنين ، وكان أساسه هو الاعتقاد بأن بعض الناس « السحرة » يعتبرون أشخاصاً متميزين بما يملكونه من سلطان على القوى الخارجية غير المرئية ، وبما يتمتعون به من قدرة على إجبار تلك القوى على فعل ما يريد هؤلاء السحرة تحقيقه . وبالرغم من أن التعريف العلمى الحديث للسحر انه « كل أمر يخفى سببه ويتخيل على غير حقيقته ويجرى مجرى التمويه والخداع » إلا أن العلماء المحدثين لا ينكرون أن الايمان بالسحر ما زال يسيطر حتى الآن على نواح كثيرة من السلوك اليومى لإنسان العصر الحديث الذى ما زال متمسكاً ببعض الموروثات من العادات والسلوكيات والاعتقادات القديمة ، كأن يتشاءم بيوم معين أو برقم ١٣ . . كما ان الانسان المريض قد يتعرض الى قدر من الضعف البشرى يجعله عاطفيا ميالاً للاستهواء فيصبح على استعداد للتشبث بأى علاج لمرضه ـ خصوصا اذا كان مرضا مستعصيا ـ يقدم اليه مهما كان هذا العلاج غير عقلانى .

● ويقول العلماء ومؤرخو الطب الذين درسوا الطب المصرى القديم والصيدلة المصرية القديمة دراسة علمية ، إن هذا الطب ـ فى بعض فروعه ومراحله التاريخية ـ كان مختلطا بالسحر . والدليل على ذلك هو العثور على برديات طبية كثيرة تتضمن مجموعة من « الرقيات والتعاويذ والأدعية » التى تتلى لشفاء المريض ، ومن هذه البرديات بردية برلين التى تحتوى على نصوص بعض الرقيات والتعاويذ لعلاج النساء والحوامل والوالدات وعلاج بعض أمراض الأطفال . وورد فى هذه البرديات وجوب تلاوة هذه التعاويذ والأدعية عند قيام الكهنة أو الأطباء بعلاج المرضى ، وتلاوتها أيضا عند قيامهم بتركيب الأدوية الموصوفة للعلاج .

● ومن الغريب أن هذه البرديات مليئة أيضاً بوصفات التركيبات الدوائية التى تعتمد على النباتات والأعشاب الطبية كما تعتمد على المواد المعدنية والكيميائية . . كما أن البرديات الطبية الشهيرة كبردية « إيبرس » مثلاً تحتوى على مجموعة من النصوص والصيغ اللازمة لممارسة بعض الطقوس السحرية عند تشخيص المرض وعلاج المريض أو القيام باعداد وتركيب الدواء .

● وقد خلص بعض مؤرخى الطب من ذلك الى القول بأن معالجى الأمراض فى مصر القديمة كانوا ـ فى بعض الأحيان ـ يمزجون بين أسلوب العلاج بالسحر وأسلوب العلاج المادى بالعقاقير . وذلك فى الحالات التى يكون المرض فيها مستعصيا على العلاج ، فعندئذ يقوم الطبيب أو الكاهن المعالج بوصف هذه العقاقير والأدوية المادية ، ويقوم فى الوقت نفسه بتلاوة الرقيات والتعاويذ أو أداء بعض الصلوات للآلهة طلباً لمساعدتها فى شفاء المريض ، أو يقوم بعمل تمائم تربط أو تعلق بجسم المريض كوسيلة لطرد الأرواح الشريرة التى دخلت الى جسمه وتسببت فى مرضه . كما وردت فى إحدى البرديات توصية بكتابة إحدى الصيغ السحرية على ورقة صغيرة من أوراق البردى ، ثم تنقع فى الدواء السائل الموصوف للمريض قبل أن يتناوله .

● وقبل أن تأخذنا الدهشة من هذه الممارسات نشير الى أن القصد منها ـ طبقا للعقائد الدينية المصرية القديمة ـ هو الاستعانة بالآلهة للمساعدة فى شفاء المرضى ، وهذا أمر فى حد ذاته محمود ، ومازالت بعض هذه الممارسات موجودة حتى الآن فى بعض القرى والمدن المصرية ، حين تحمل الأمهات أطفالهن المرضى الى الكنائس أو أضرحة أولياء الله الصالحين ، فيقوم القساوسة أو شيوخ المساجد بتلاوة رقية على الطفل المريض يقولون فيها ما معناه : « بسم الله أرقيك والله يشفيك » .



زيارة لمتحف التحنيط .. بمدينة الأقصر

فى مؤلفات كثيرة كتب علماء المصريات من مصريين وأجانب بحوثاً علمية وطبية وتاريخية عن معجزة « التحنيط » التى تميز بها قدماء المصريين وبرعوا فيها ، والتى ما زالت سراً مغلقاً أمام العلم الحديث . وبالرغم من التوصل إلى معرفة معظم المواد التى استخدمت فى تلك العملية ومعرفة الطريقة التى كانت تجرى بها ، إلا أن العلماء المحدثين عجزوا عن اكتشاف سر تركيب تلك المواد وعجزوا عن إجراء عملية تحنيط ناجحة مماثلة لعمليات التحنيط التى كان يقوم بها قدماء المصريين للحفاظ على مومياوات موتاهم لكل هذه الآلاف من السنين .

● وبالرغم من كل هذه البحوث والدراسات التى أجريت عن التحنيط فى مختلف العصور التاريخية لمصر القديمة إلا أن إقامة « متحف للتحنيط » يعتبر خطوة ذكية لتحقيق المزيد من الاهتمام ولفت النظر إلى تلك المعجزة العلمية التى حققها المصريون القدماء ، وهو أمر يهم علماء التاريخ والآثار وعلماء الطب ، كما يهم السياح والزوار من مصريين وأجانب ويزيد معارفهم عن الحضارة العظيمة التى صنعها شعب مصر وتفرد بها بين شعوب العالم القديم كله .

● وفى مكان ساحر الجمال يطل على الضفة الشرقية للنيل بمدينة الأمجاد العظمى للحضارة المصرية القديمة . . المدينة التى وصفها « هوميروس » بأنها طيبة العظيمة ذات المائة باب . . الحصينة المحروسة ذات الحوائط الذهبية ، أقيم هذا المتحف الراقى الجميل الذى اتبعت فيه أحدث طرق العروض المتحفية تمجيداً لمعجزة التحنيط ،

وفتحاً جديداً لباب المعرفة والثقافة التاريخية والأثرية ، وليضع أمام زواره كل ما يهمهم معرفته عن التحنيط والكيفية التى كان يتم بها فى العصور القديمة ، والأدوات الطبية التى كان يستخدمها المحنطون ، والمواد التى كانوا يستعملونها أثناء التحنيط ، والشعائر والطقوس الدينية والعقائدية التى كانوا يقومون بها قبل وأثناء وبعد إجراء هذه العملية .

● ولا يتسع المجال هنا لاستعراض كل معروضات متحف التحنيط بالأقصر ، إلا أننا نشير إلى أهم تلك المعروضات ، بدءاً بالرسوم الجدارية التى توضح لنا مراحل عملية التحنيط منذ لحظة وصول جثة المتوفى إلى حجرة التحنيط التى كانت تسمى «البيت الجميل » أو « بيت الطهارة » حتى لحظة الانتهاء تماماً من كل خطوات التحنيط والتكفين ووضع المومياء فى التابوت استعداداً لنقله إلى المدفن .

● ومن أهم المومياوات المحنطة المعروضة بالمتحف مومياء « ماساهارتا » الذى كان يشغل وظيفة قائد الجيش المصرى فى عصر الأسرة الحادية والعشرين ، والذى اكتشفت مومياؤه سنة ١٨٨١م ضمن مومياوات كبار كهنة آمون فى عصر الأسرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين فى خبيئة الدير البحرى .

● وبطبيعة الحال فقد كانت هذه المومياوات موضوعة بداخل توابيت جميلة مزينة من الخارج والداخل بزخارف ورسوم تمثل الرموز الدينية المقدسة التى تساعد المتوفى فى الوصول إلى العالم الآخر والحياة فى نعيمه بسلام وأمان واستقرار . وفى المتحف بعض تلك التوابيت المزخرفة والمزينة بالنقوش والرسوم الملونة .

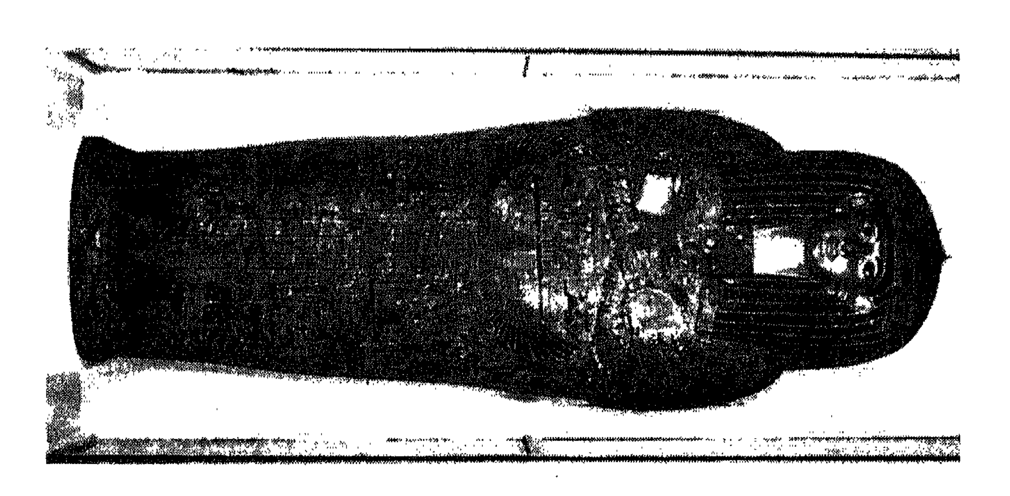
● ومن أهم المعروضات العلمية بالمتحف مجموعة من الأوانى تحتوى على بعض المواد الكيميائية السائلة والدهنية والصلبة التى عثر عليها والتى كانت تستخدم فى مراحل عملية التحنيط ، ومجموعة نادرة من الأدوات الطبية الأثرية التى كان يستخدمها المحنطون مثل « المشارط والأمواس والمقصات » التى كانت تستخدم فى عملية فتح البطن لاستخراج الأحشاء ، و « الملاقط والإبر والمخارز » التى كانت تستخدم فى خياطة الجلد ، و « الأزميل والملاعق » المستعملة فى استخراج المخ من جمجمة المتوفى ،

و « الفُرش » التى كانت تستعمل لتنظيف تجويف البطن بعد إستخراج الأحشاء .

● وكما كانت عمليات التحنيط تجرى للبشر ، كانت تجرى أيضا لبعض الحيوانات والطيور المقدسة التى كانت ترمز إلى الآلهة القديمة . ونرى فى المتحف مجموعة من مومياوات هذه الحيوانات المحنطة مثل : الكبش والتمساح والقرد والقطة وطائر أبى قردان وسمكة قشر بياض . بل ونرى أيضا بعض الأطعمة المحنطة التى كانت تدفن مع المتوفى ليتغذى بها فى رحلته إلى العالم الآخر ، ومنها مومياء لأوزة ولفخذة ماعز محنطة .

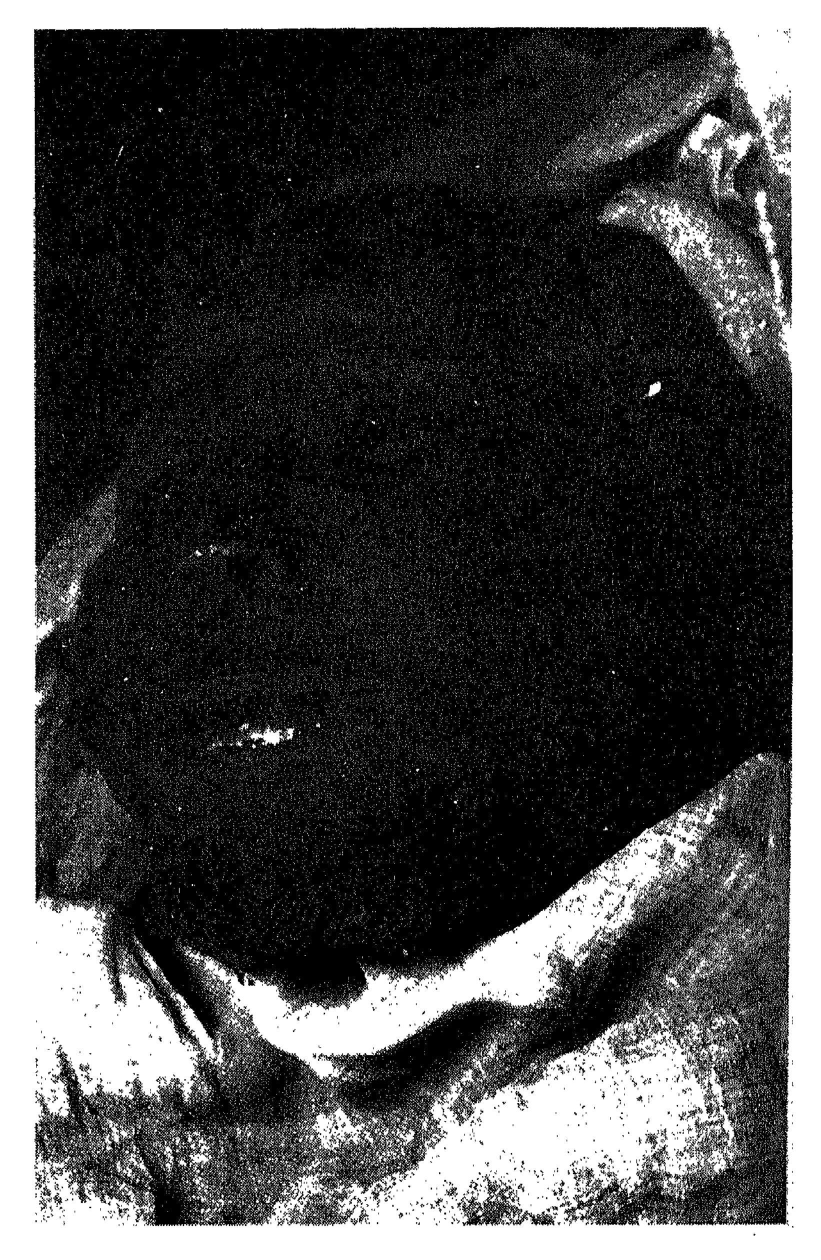
● ويتضمن المتحف أيضا معروضات لكافة التماثيل والرموز المتعلقة بمفهوم العالم الآخر فى عقيدة قدماء المصريين مثل تماثيل : أوزيريس وإيزيس ونفتيس وأنوبيس [ابن آوى] ونموذج لأحد المراكب الجنائزية التى كانت تنقل المتوفى عبر النيل إلى حيث يدفن ، ونماذج أثرية للرموز المقدسة كعلامة « عنخ » التى ترمز إلى الحياة وعمود « جِدْ » الذى كان يرمز إلى أوزيريس إله العالم الآخر .

● وإلى جانب متعة المشاهدة التى تتيحها زيارة هذا المتحف ، تتحقق للزائر أيضا متعة العلم والمعرفة والثقافة التاريخية والأثرية .

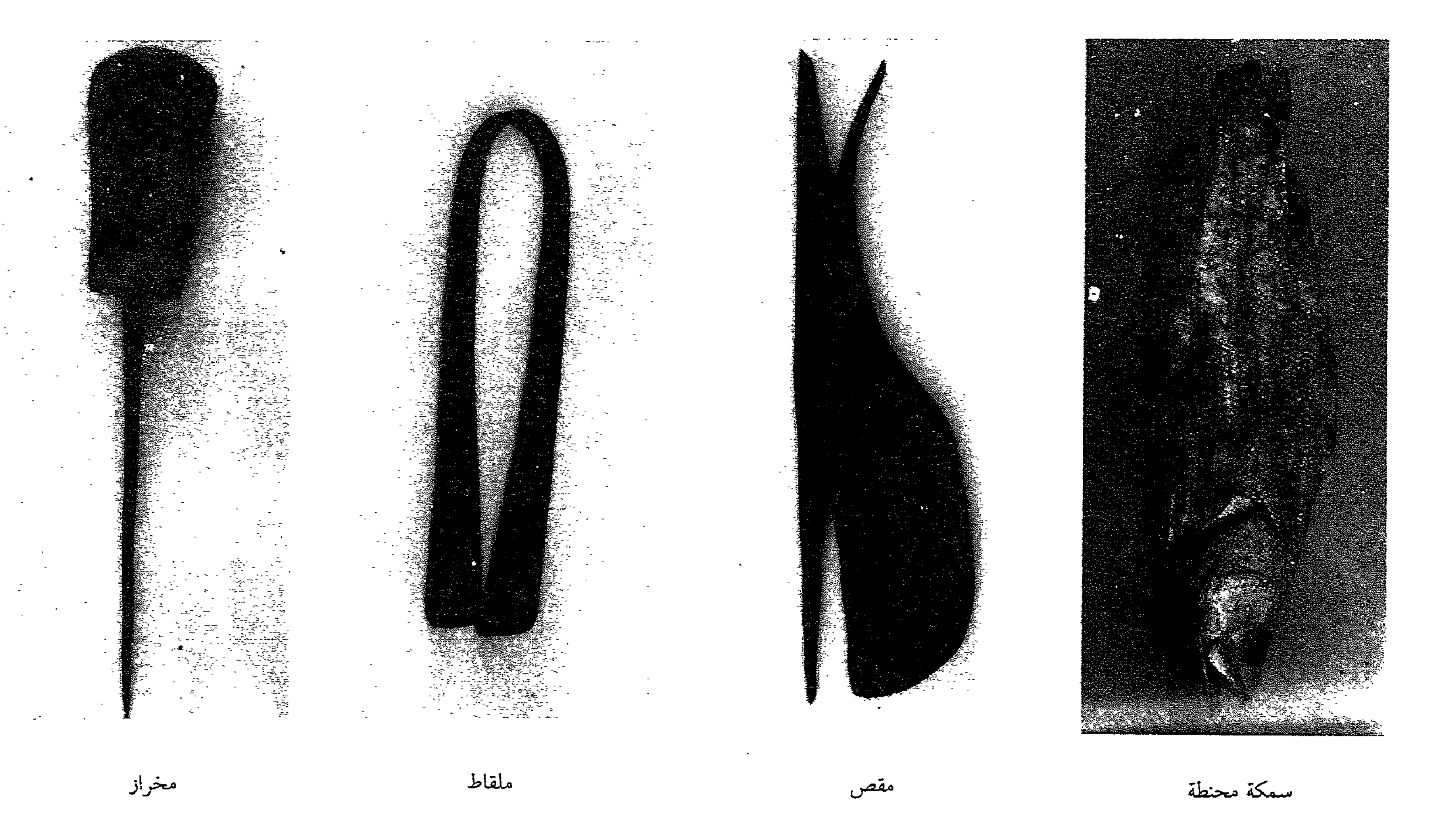


التابوت الخارجى للكاهن « ماسهرتى »

[من معروضات متحف التحنيط بالأقصر]



رأس مومياء الكاهن « ماسهرتى » كبير كهنة آمون وقائد الجيش ـ الأسرة ٢١ .

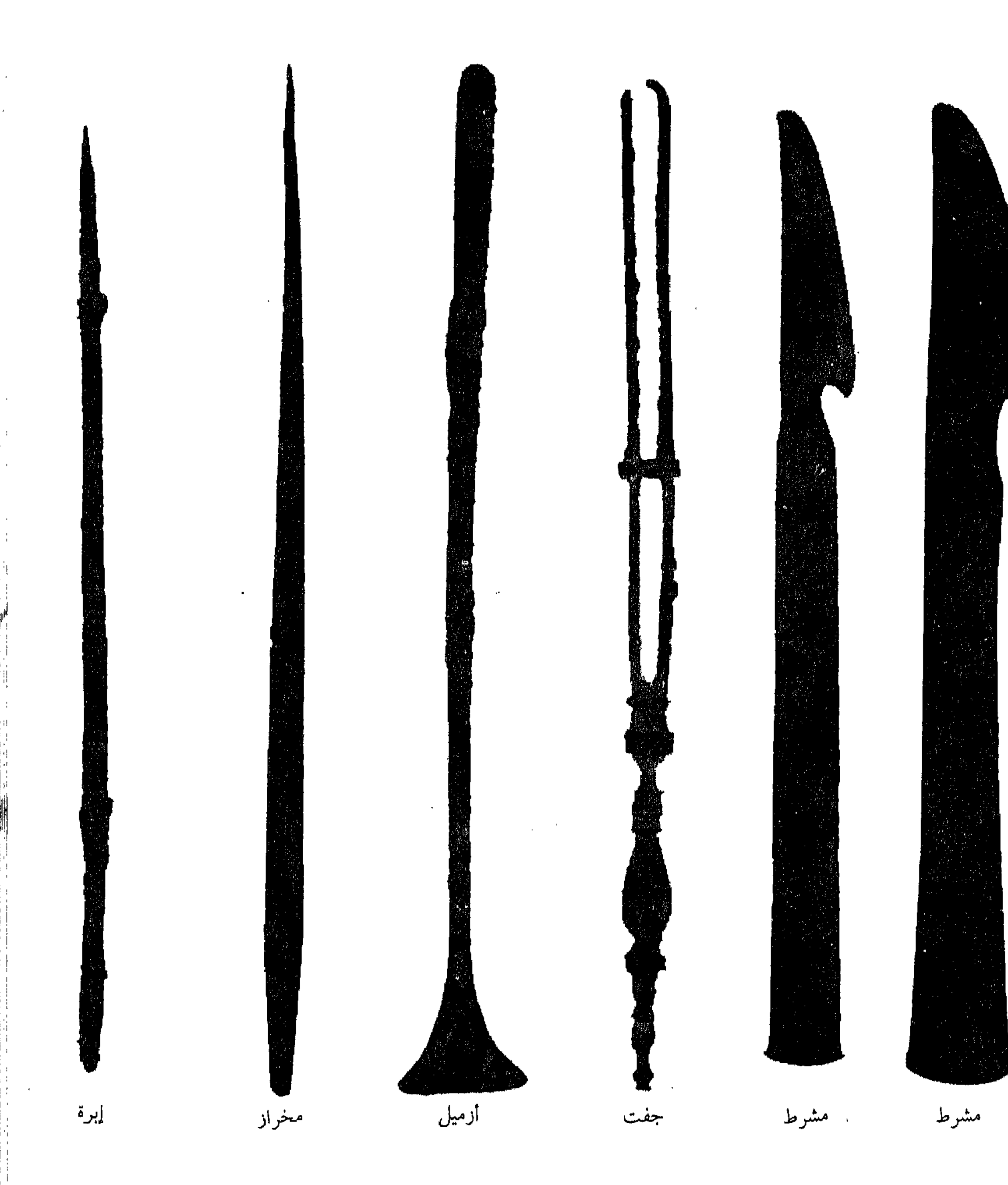


سمكة محنطة

مقص

ملقاط

مخراز


مشرط
مشرط
جفت
أرميل
مخراز
إبرة

الدير البحرى .. وفاتنة الجبل المبتسمة

فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، أمرت ملكة عظيمة ببناء ذلك المعبد العظيم . . وعرفت تلك الملكة فى التاريخ القديم بأنها كانت داعية سلام ولا تحب سفك الدماء . . وظل معبدها على مدى آلاف السنين دليلاً على جلال الفكر الانسانى الراقى ، وشاهداً على عظمة العمارة المصرية التى بلغت أعلى مدارج الرقى والذوق الرفيع . ولم تكن الملكة تتصور ، ولم يتصور أحد فى العالم القديم ولا فى العالم الحديث أن يوماً أسود سيأتى فى غفلة من زمن الغافلين ، وتقتحم فيه فئة ضالة من أسفل وأنذل سفهاء المجرمين المجردين من الضمير ومن الإيمان بأى دين ، يحولون ساحة هذا المعبد الراقد بأمان فى حضن الجبل إلى مجزرة يريقون فيها دماء الأبرياء .

● الملكة اسمها « حتشبسوت » . . ويجمع المؤرخون القدماء والمؤرخون المحدثون على أنها كانت واحدة من أعظم نساء التاريخ فى العالم القديم كله . أما المعبد فاسمه الحالى هو « الدير البحرى » وأطلق عليه هذا الاسم لأن بعض الرهبان من أقباط مصر فى القرن السابع الميلادى اتخذوه ديرا يتعبدون فيه وملجأ يوفر لهم الطمأنينة والسلام .

● ومن الناحية الأثرية يعتبر معبد الدير البحرى معبداً جنائزياً كانت تقام فيه الصلوات وتقدم القرابين وتتلى فيه الأدعية والتراتيل ترحماً على روح الملكة بعد وفاتها . . ومع ذلك فقد أمرت حتشبسوت ببناء هذا المعبد الضخم الفريد فى طرازه بقصد الدعاية السياسية لنظام حكمها ولإبراز قدرتها وقوة شخصيتها تدعيماً لحقها فى الجلوس

على عرش مصر بالرغم من أنها امرأة . وكان انفراد امرأة بحكم مصر أمراً غير مقبول لدى الشعب المصرى بمختلف طبقاته ، ولم يقبل إلا فى أحوال نادرة جداً .

● ومن الناحية التاريخية نجد أن قبيل بداية حكم الملكة حتشبسوت كانت الطبقة التى تمثل العسكريين ورجال الدولة ورجال الدين ومن يرتبط بهم من أعضاء الطبقة العليا من المجتمع المصرى منقسمة إلى تيارين : تيار يمثل المثقفين ورجال الدين ، وتيار ثان يمثل العسكريين وكبار ضباط الجيش . وقد آثرت الملكة الانضمام إلى التيار الأول الذى كان يدعو إلى إقرار السلام داخل مصر وخارجها ، وإلى قيام العلاقات المصرية الخارجية مع الشعوب والدول الأخرى على أساس المبادلات التجارية تصديراً واستيراداً ، والارتباط مع هذه الدول بعلاقات سياسية مسالمة .

● لذلك فقد أصدرت الملكة أمرها بتكليف المهندس « سننموت » ـ وهو أحد كبار رجال الدولة وكان يشغل عدة مناصب رفيعة ـ بأن يشرع على الفور فى بناء هذا المعبد العظيم ، وأن يجعله فريداً فى طرازه ومتميزاً عن بقية المعابد المصرية التى بناها الملوك السابقون فى طول البلاد وعرضها ، ولا مثيل له بين معابد العالم القديم فى البلاد الأجنبية .

● وهكذا تم اختيار موقع بناء هذا المعبد فى الجبل الصخرى المطل على النيل من الضفة الغربية ، وليصبح فى مواجهة معبد الأقصر ومعابد الكرنك بالضفة الشرقية . . وأصبح المعبد بموقعه هذا من أكثر المبانى والعمائر الأثرية المصرية التصاقاً بالبيئة الطبيعية التى تحيط به وتحنو عليه . وتم وضع التصميم الهندسى والمعمارى للمعبد على أساس بناء ثلاث شرفات ومقاصير متدرجة إلى أعلى ، تربطها منحدرات صاعدة خفيفة الميل . وزينت الشرفات بأجمل النقوش الجدارية البارزة ذات الألوان الزاهية ، تصور أهم الأحداث التى وقعت فى عهد الملكة ، وأهمها رحلة الأسطول التجارى المصرى إلى بلاد بونت ، والبضائع التى صدّرتها مصر والبضائع التى استوردتها من تلك البلاد .

● وقد صممت الشرفات بحيث تتقدمها من الخارج مجموعات من الأعمدة البديعة المتناسقة الشكل ، روعى فيها التناسب والتنسيق المعمارى المتقن . ومن يراها من بعيد

يشعر على الفور بجمالها وروعتها وحسن ذوقها . ويقول « برستيد » إن التصميم الهندسى والمعمارى لهذه الأعمدة يثبت أن المصريين القدماء هم أول شعب فى العالم فهم فن تنسيق قاعات الأعمدة الخارجية فى المعابد والمبانى الدينية ، وهم بذلك سبقوا الإغريق القدماء فى هذا المضمار بنحو ألف سنة .

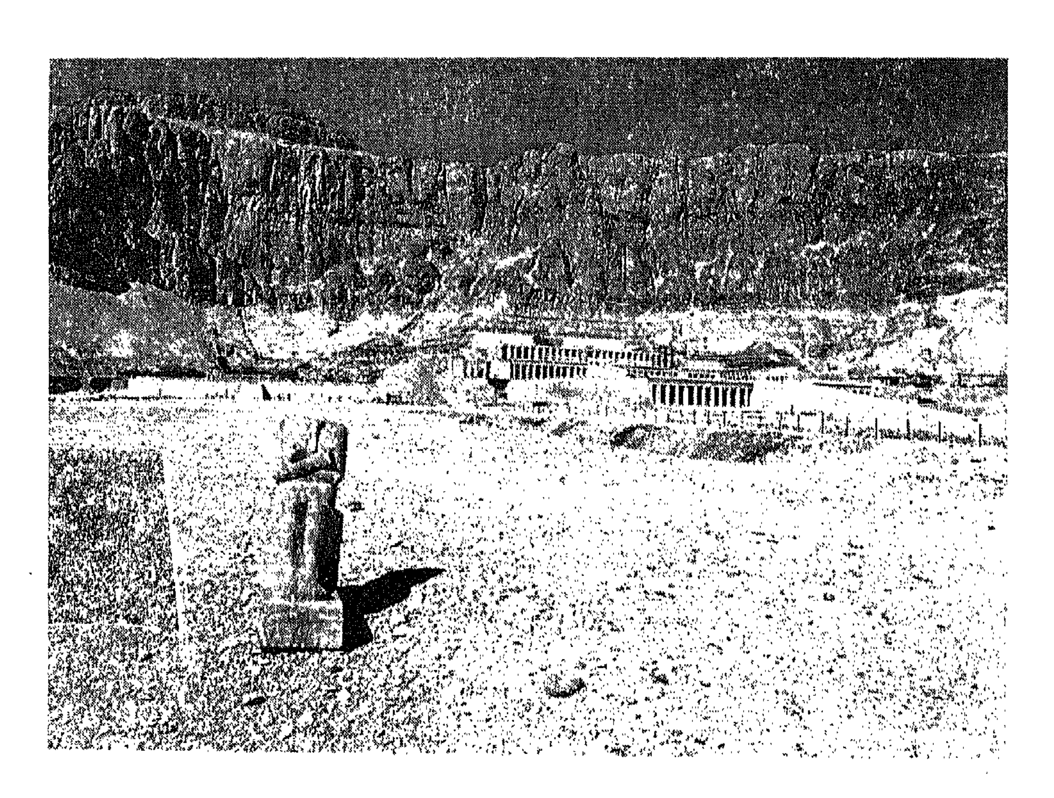
● وتدل الشواهد الأثرية على أن ساحات المعبد كانت مزينة بالأشجار العطرية المستجلبة من الخارج ، وأن المنحدرات الصاعدة كانت مزينة بتماثيل على شكل « إبى الهول » برؤوس كباش ورؤوس تمثل الملكة . وقد عثر الأثريون على بقايا أكثر من ١٢٠ تمثالاً من هذه التماثيل ولكنها للأسف كانت محطمة .

● وكانت أبواب المعبد مصنوعة من البرونز المطعم بالذهب والفضة . وكان المعبد فور انتهائه آية فى الجمال والروعة ، لذلك فقد أطلقت عليه الملكة اسم « جنة آمون » ووهبته إلى هذا الإله ليتخذه سكنا وليتنزه فى جنات حدائقه .

● وقد وصف عالم الآثار المصرية الشهير « سير فلاندرز بترى » هذا المعبد وأشاد بمهارة مهندسه فى فن العمارة والبناء والذوق السليم . ووصفه المؤرخ « روبرت هاتشتر » وصفا شاعرياً قال فيه : « هذا المعبد يشبه حسناء رقيقة تعطرت وتزينت . . يلفها رداء جمع بين الأبيض والأزرق والبرتقالى . . ووقفت وقفة المتدللة بجمالها . . مستندة إلى جبل شامخ يجمع بين البرتقالى والقرنفلى والأحمر والأسمر الفاتح . . فجعلها فاتنة الجبل المبتسمة » .

● لعن الله المجرمين السفلة الأنذال الذين لوثوا هذا التاريخ الجميل . بجريمتهم البشعة الشنعاء .





معبد الدير البحرى .. فى حضن الجبل

أرض الخيرات .. وجيرانها الجياع

قد يثور التساؤل حول الأسباب التى أدت إلى جعل « مصر القديمة » من أقوى الدول فى عالمها المعاصر . . ومتى جيّشت مصر لنفسها جيشاً يحميها ؟ . . وهل كان فى مقدور هذا الجيش أن يحمى حدود بلده أم كان يتجاوز ذلك فيقوم بحملات لتأديب الأعداء خارج هذه الحدود ؟ . . ومتى ظهرت المؤسسة العسكرية المصرية القديمة متميزة بأعلى مستوى من العلوم العسكرية ، والقدرة على وضع الخطط الحربية ، وتقنين أخلاقيات الحرب ولو كانت ضد ألد وأعتى الأعداء ؟

● ليس من السهل الإجابة على هذه الأسئلة وأسئلة كثيرة أخرى تماثلها . . فالبحث فى مثل هذه الموضوعات عسير لسببين : أولهما طول الفترة الزمنية التى قد تتجاوز أكثر من ثمانية آلاف سنة قبل الميلاد ، بدءاً من عصور ما قبل التاريخ وحتى نهاية عصر الحضارة المصرية القديمة . . وثانيهما : كثرة مراحل الفكر العسكرى وتنوع الأسلحة وتطور التنظيم العسكرى فى زمنى السلم والحرب على مدى العصور التاريخية المختلفة . . ومع ذلك فنبدأ الحكاية من أولها .

● كانت النقلة الحضارية العظمى التى حققها أوائل المصريين الذين عاشوا مستقرين حول مجرى النيل فى واديه الأدنى ، سواء فى الوجه القبلى أو فى مناطق الدلتا ، من أهم الأسباب التى أدت إلى استقرار الحياة فى منطقة محددة . . وهذا الاكتشاف العظيم كان متمثلا فى قيام الإنسان بزراعة الأرض بنفسه بدلاً من الاعتماد على النباتات البرية التى كانت تنمو تلقائيا دون تدخل من الانسان ، والتى كانت تمنحه طعاماً من

الجذور والحبوب والثمار دون أن يبذل فى الحصول عليها سوى مجهود قطفها وجمعها من فوق الأشجار .

● هؤلاء المصريون الأوائل الذين عاشوا فى ذلك الزمن السحيق ، لاحظوا أن النيل عندما يفيض فى كل عام ، كان يتجاوز مجراه ويغطى مساحات هائلة من الأرض على الشاطئين . ويترسب « الطمى » على تلك الأراضى فيخصِّبها ويجعلها صالحة للزراعة بأقل مجهود ، الأمر الذى مكَّن هؤلاء المصريين الأوائل من زراعة محاصيل متنوعة ووفيرة وبكميات ضخمة أكثر مما كانوا يحتاجونه فعلاً من حبوب وثمار .

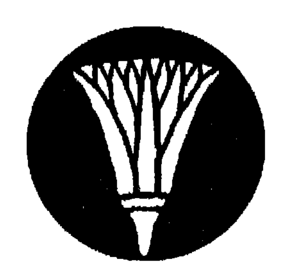
● وبالنظر إلى أن الطمى الذى يترسب فوق الأرض كان يحولها إلى تربة خصبة «سمراء » اللون ، فقد أطلق المصريون القدماء على وطنهم اسم « كيميت » ومعناه «الأرض السوداء » . وقد اعتاد هؤلاء المصريون على انتظار انحسار مياه الفيضان من فوق الأرض ، فيشرعون فوراً فى حرث الأرض وبذر البذور ورعاية الزراعات حتى تنمو المحاصيل ويبدأ موسم الحصاد .

● وقد أدرك هؤلاء المصريون القدامى منذ البدية أن بلادهم ذات موقع فريد فى شمال شرق أفريقيا ، ومتصلة بقارة آسيا ، ومطلة على البحر الأحمر الذى يصلها بشرق أفريقيا وجنوب غرب آسيا ، ومطلة أيضا على البحر المتوسط الذى يصلها بجزره وبجنوب أوربا . . فكانت بذلك معبراً لكل الهجرات الإنسانية الواسعة التى حدثت خلال العصور الجيولوجية والمناخية المعروفة ، كالعصر الجليدى والعصر المطير وعصر الجفاف . . فتسللت إلى مصر جماعات من شعوب مختلفة كانت تعيش فى المناطق المجدبة المحيطة بمصر ، ومنها شعوب السوادن والنوبة العليا وليبيا وشمال أفريقيا وشرق البحر المتوسط . ويقول علماء « الانثروبولوجى » إن بعض هذه الجماعات قد استقرت بمصر مجاورة للمناطق التى كان يعيش بها المصريون الأصليون . وبمرور الزمن تمصَّرت هذه الجماعات واندمجت فى المجتمع المصرى بالتزاوج والمعايشة اليومية وأصبحت أجيالها اللاحقة كالمصريين الأصلاء سواء بسواء .

● وبنمو المجتمع المصرى واستقراره بزغت النظم الاجتماعية ونشأ نظام « القرى »

وظهر بالتالى حس وطنى جعل المصريين جميعاً يتمسكون بأرضهم التى توفر لهم الخيرات من طعام وشراب وملبس ، كما توفر لهم حياة مستقرة يحكمها نظام جماعى ، له عادات وتقاليد ، وفكر وفن وعقيدة .

● وبذلك تميز المصريون القدماء عن غيرهم من الشعوب المعاصرة لهم ممن يعيشون فى الصحارى المحيطة ببلادهم شرقاً وغرباً . وكانت أغلب هذه الشعوب مكونة من قبائل بدوية رعوية دائمة الترحال وراء الماء والكلأ . . ويعيشون فى مناطق صحراوية قاحلة لا توفر لهم إلا أقل القليل ، الأمر الذى كان يدفعهم فى أغلب الأحوال إلى التطلع غير المشروع إلى الأراضى المصرية الوفيرة الخيرات ، فكانوا يقومون بغارات فجائية للسلب والنهب ، ويسرقون المحاصيل والمواشى والطيور الداجنة من حقول المصريين وقراهم . . ولذلك فقد كان على المصريين أن يلجأوا إلى « القوة » التى تمكنهم من صد هذه الهجمات واتقاء شرورها . . وهكذا أصبح من قدر المصريين القدماء أن يكونوا أول شعب فى التاريخ تنبع فيه فكرة وعقيدة الدفاع عن أرض الوطن .



أرض الخيرات . . فى مصر



وفى مثل هذه الأرض القاحلة . . كان يعيش جيران مصر الجياع

منذ البداية .. مصر تتسلح للدفاع عن أرضها

ومن الحقائق المسلم بها ـ نتيجة لدارسة تاريخ مصر القديم والحديث ـ أن الشعب المصرى فى عمومه شعب مسالم ، يحب التمتع بحياة آمنة خالية من الشرور . . فهو يعيش فى بلد كثير الخيرات التى تضمن له استمرار حياة لا يهددها شبح الجوع أو الحرمان . . ووفرة الخيرات أدخلت الطمأنينة والأمان إلى قلوب المصريين القدماء ، فانطلقت مواهبهم فى تأسيس ونشر حضارة راقية يسودها السلام والفن والخضوع للارادة الإلهية التى تتحكم فيهم كما تتحكم فى الكون كله .

● هذه الحياة الرغدة الوفيرة الخيرات كانت مطمعاً دائماً للشعوب والقبائل التى كانت تعيش فى المناطق المحيطة بمصر ، والتى كانت تشن غارات السلب والنهب كلما سنحت لها الظروف . ومنذ عصور ما قبل التاريخ تعرضت الأراضى المصرية لمثل هذه الغارات . ومن المؤكد أن سكان القرى المصرية فى مناطق الدلتا والوجه القبلى الذين كانوا يتعرضون لتلك الغارات ، كانوا يواجهون المعتدين بقدر ما كان متاحاً لهم من أسلحة وتنظيم وقيادة . وقد تم العثور على بعض الرسوم التى ترجع إلى عصور ما قبل التاريخ وما قبل الأسرات ، تصور لنا الإنسان المصرى وهو يستعمل السلاح ، ومنها رسم أثرى قديم عثر عليه بمكان قرب واحة « الداخلة » يظهر فيه رجل يشد القوس ويصوب سهما نحو أسد ويمسك فى يده الأخرى بمجموعة من السهام . كما عثر على رسوم ـ من نفس الفترة ـ تصور رجالاً يستخدمون الرماح .

● إذن يمكن القول بأن السهام والرماح ـ وإن كانت مخصصة فى الأصل لاستعمالها

فى عمليات صيد الحيوانات ـ إلا أنها كانت أيضا من الأسلحة التى استعملها المصريون الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ لمواجهة الأعداء الذين يشنون غاراتهم لسرقة المحاصيل والممتلكات .

● وكان أعداء مصر التقليديون فى تلك العصور يهاجمون أراضى مصر الزراعية قادمين من المناطق القاحلة فى صحارى آسيا [عبر شبه جزيرة سيناء] . . أو قادمين من المناطق الليبية بالصحراء الغربية . . أو قادمين من مناطق النوبة وشمال السوادن فى الجنوب . وكان من المحتم على المصريين الأوائل أن يهبوا « للدفاع » عن أرضهم وممتلكاتهم ، وأن يبذلوا كل جهد ممكن لصد غارات هؤلاء المهاجمين الذين يمارسون عمليات السلب والنهب . وبمعنى آخر فقد كانت المعارك التى دارت ضد هؤلاء الأعداء تعتبر نوعاً من الحروب « الدفاعية » دارت على الأرض المصرية ولم تتجاوز حدود مصر الطبيعية فى الوجهين البحرى والقبلى .

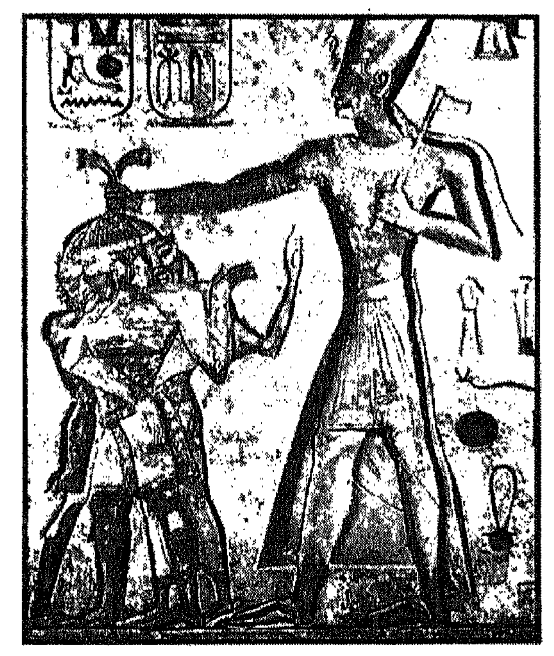
● ومن المعروف أن تاريخ مصر « المكتوب » بدأ حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد ، حين قام الملك « مينا » بتوحيد الوجهين فى مملكة واحدة ، وأنشأ أول حكومة مركزية فى عاصمة مصر الجديدة فى مدينة « منف » . وبدأ عصر الكتابة والتدوين ، وأصبح على رأس الأسرة الملكية الأولى التى حكمت مصر على مدى نحو ٢٢٠ سنة [من عام ٣٢٠٠ ق م إلى عام ٢٩٨٠ ق م] .

● وفى عصر هذه الأسرة رأت مصر تأمين حدودها الجنوبية ، فمدتها حتى منطقة الجندل « أو الشلال » الأول . وتوصل ملوك هذه الأسرة إلى فكرة أن « الهجوم خير وسيلة للدفاع » . . وأن « القوة » أمر ضرورى لتوفير الأمان لمصر والمصريين . وقد تمثلت هذه الفكرة فى الرسم التقليدى الذى ظهر فى عصر الأسرة الأولى واستمر آلاف السنين بعدها ، وهو الرسم الذى يصور الملك ـ أى ملك مصرى ـ وهو يؤدب عدواً راكعاً . وهو رسم رمزى يقصد به التعبير عن أن أوجب واجبات حكام مصر هو الدفاع عنها وقطع دابر أعدائها .

● وتدل بعض الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الأولى على أن

أحد ملوك هذه الأسرة وهو الملك « زت » أو « الملك الثعبان » قد قام « بتحصين » المدن المصرية وتحصين الحدود .

● وكما اكتشفت فى منطقة سقارة مقبرة لوزير اسمه « حماكا » كان وزيراً للملك «دن» ـ وهو أحد ملوك الأسرة الأولى ـ وقد عثر فى مخازن تلك المقبرة على آثار رائعةتدل على مستوى الدقة والاتقان فى الفن المصرى فى تلك المرحلة المبكرة من التاريخ المصرى . وبصرف النظر عما عثر عليه فى تلك المقبرةمن القطع الأثرية الجميلة ، نشير إلى مجموعة من الصناديق الخشبية والأكياس الجلدية كانت تحتوى على مجموعة من الأسلحة المصنوعة من حجر الصوان ، وسهام مصنوعة من خشب الأبنوس والعاج لها أسنان من العظام . ونفهم من دفن هذه الأسلحة فى مقبرة الوزير « حماكا » أن مصر فى عصر بداية الأسرات فى القرن الحادى والثلاثين قبل الميلاد ، كانت تعرف أنواعاً من الأسلحة المستعملة فى المعارك الحربية التى كان يخوضها المصريون القدماء دفاعاً عن بلادهم وما تنتجه من خيرات .



الصورة الرمزية التى ظلت مستخدمة طوال التاريخ المصرى القديم منذ عصر الاسرة الأولى حيث نرى ملك مصر يؤدب أعداءها .

فى عصر الدولة القديمة : الجيش لحماية الصناعة والتعدين

اتفق المؤرخون على تسمية عصر الأسرتين الأولى والثانية باسم « العصر العتيق » وهو عصر امتد نحو ٤٢٠ سنة بدءاً من عام ٣٢٠٠ ق م حتى عام ٢٧٨٠ ق م . . ثم بدأ بعد ذلك عصر مجيد فى تاريخ الحضارة المصرية سمى باسم « الدولة القديمة » وهو يشمل الأسرات الثالثة والرابعة والخامسة والسادسة ، بدأ عام ٢٧٨٠ ق م وانتهى عام ٢٢٥٨ ق م ، أى استمر نحو ٥٢٢ سنة .

● ويقول المؤرخ الحجة فى تاريخ الحضارات « أرنولد توينبى » إن حضارة مصر القديمة بلغت أعلى ذراها فى ذلك العصر ، وتفوقت على سائر الأمم القديمة فى كافة الميادين العلمية والحضارية والاقتصادية ، وبلغت قمة التفوق فى علوم الهندسة والعمارة والفلك والطب والفن والفلسفة والقانون ونظم الادارة المركزية .

● وعصر « الدولة القديمة » يطلق عليه أيضا اسم « عصر بناة الأهرام » نسبة إلى تلك المبانى والمنشآت المعمارية الشاهقة التى بناها ملوك هذه الأسرات بدءاً من الهرم المدرج بسقارة الذى بناه الملك « زوسر » أول ملوك الأسرة الثالثة ، ومروراً بأهرام الجيزة حتى آخر هرم تم بناؤه فى عصر الأسرة السادسة .

● وفى عصر الدولة القديمة بدأت الدولة تشعر بقوتها وبحسن تنظيم إدارتها ، فتوسعت فى المشروعات الإنمائية التى أدت إلى زيادة الخيرات التى كان ينعم بها الشعب المصرى ، وبالتالى فقد ازداد تطلع العديد من القبائل الأفريقية والآسيوية إلى النزوح إلى مصر سواء بقصد الإقامة الدائمة أو لممارسة العدوان من أجل السلب والنهب . ولذلك

فقد تحتم على حكام مصر أن يعملوا ألف حساب لضرب وتأديب هؤلاء الطامعين . وتدل الشواهد التاريخية على أن الملك « زوسر » الذى تولى الحكم عام ٢٧٨٠ ق م كان أول ملك مصرى يأمر بالتوغل فى بلاد النوبة السفلى فيما وراء الشلال الأول حتى منتصف الطريق إلى الشلال الثانى . وذلك لتأمين الحدود الجنوبية ، ولصد غارات المتسللين إلى جنوب الصعيد . ومن الطريف أن نذكر هنا أن آخر ملوك الأسرة الثالثة كان اسمه « حونى » [وهو صاحب هرم ميدوم] ومعنى اسمه « الضارب » وللأسف فليست لدينا شواهد تاريخية أو أثرية تساعدنا على فهم السبب وراء اطلاق اسم «الضارب » على هذا الملك ، وإن كنا نستنتج انه لم يكن « ضارباً » لشعب مصر ، وأغلب الظن انه كان « ضاربا » لاعدائها .

● ويسبب النمو الحضارى المتصاعد والذى بدا جلياً فى عصر « الدولة القديمة » احتاجت مصر إلى العديد من المواد الأولية والمواد الخام اللازمة للصناعات المختلفة وأهمها الصناعات المعدنية والصناعات الخشبية وصناعة بناء السفن على وجه الخصوص . وعلى سبيل المثال فقد كانت مناجم الذهب والنحاس منتشرة فى الصحراء الشرقية وبلاد النوبة ، كما كان من السهل الحصول على النحاس والفيروز من مناطق شبة جزيرة سيناء ، أما الأخشاب ـ وأهمها أخشاب الأرز ـ فقد كانت تستورد من المناطق السورية واللبنانية . وبالتالى فقد كان لابد من الناحية الإدارية تنظيم حرفة «التعدين » وتأمين من يتخصص فى هذه الحرفة من العمال والمهندسين .

● وكانت الخطة التى وضعتها مصر فى ذلك العصر هى إعداد مجموعات من العمال المدربين على أعمال التعدين والأعمال الأخرى المتعلقة بعمليات التعدين ، وتشكيل هذه المجموعات على هيئة « بعثات » منظمة تضم هؤلاء العمال المهرة والمهندسين والرؤساء المشرفين على أعمالهم ، وتزويد هذه البعثات بكل ما تحتاجه من أدوات وطعام وشراب . . وذلك بوضع خطة خاصة لمد خطوط الإمداد والتموين بين أقرب المدن المصرية وبين مواقع عمليات التعدين فى المناطق المختلفة . وكانت المدة المخصصة لكل بعثة من هذه البعثات تتراوح ما بين ستة شهور وعام كامل ، ثم تعود البعثة لتحل محلها بعثة جديدة فى نفس المكان .

● وبالنظر إلى طول هذه الفترة فقد كان أعضاء البعثة التعدينية يسافرون ومعهم زوجاتهم وأولادهم حيث تتولى الزوجات تزويد البعثة بالخبز الطازج والطعام الناضج ولتوفير حياة طبيعية مستقرة على نحو ما لكافة أعضاء البعثة . . ومع ذلك فقد كانت هذه البعثات التعدينية تتعرض فى كثير من الأحيان إلى هجمات البدو وقبائل الصحراء، الأمر الذى جعل من الضرورى أن يوضع نظام لحماية هذه البعثات من أى هجوم محتمل. . فكانت تصاحب البعثة فرقة من الجنود مزودين بأسلحة كافية لتوفير الحماية اللازمة . وكان هؤلاء الجنود ورؤساؤهم من الضباط يصحبون هم أيضا زوجاتهم وأولادهم .

● وتدل الشواهد الأثرية على أن الملك « سنفرو » الذى أسس الأسرة الرابعة عام ٢٦٨٠ ق م [وهو والد الملك خوفو] أرسل بعثة لجلب أخشاب الأرز من سواحل لبنان. وكانت هذه البعثة مكونة من ٤٠ سفينة بحرية . . كما تدل الشواهد الأثرية أيضا على أن إسم الملك « خوفو » [صاحب الهرم الأكبر] منقوش فى بعض مناجم النحاس والفيروز فى شبة جزيرة سيناء . . كما وجدت نقوش أخرى تدل على أنه حارب «الساميين ». الرحل الذين كانوا يتجولون ويتجمعون فى سيناء وفى جنوب فلسطين قادمين من المناطق الآسيوية الداخلية ، والذين كانوا يهددون بعثات التعدين أو يتأهبون للإغارة على حدود مصر الشرقية .



حين أخذ عدو مصر يشد شعره يأساً وأسى

بدأ عصر الأسرة الخامسة عام ٢٥٦٥ ق م وانتهى عام ٢٤٢٠ ق م . . أى استمر نحو ١٤٥ سنة . وفى عصر هذه الأسرة ظلت مصر تدافع عن نفسها ضد المتسللين إليها من الجنوب ومن الشرق .

● وظل ملوك هذه الأسرة يرسلون حملاتهم الاستكشافية سواء إلى داخل بلاد النوبة وبلاد وسط وشرق أفريقيا ، أو إلى داخل المناطق الفلسطينية والسورية بشمال شرق البلاد . وكان الهدف من هذه الحملات تحقيق أغراض علمية واستطلاعية لمعرفة ما تدبره الشعوب المجاورة لمصر من مؤامرات . . وعلى سبيل المثال فقد كانت بعض قبائل البدو الآسيوية التى تعيش فى شمال شرق بلاد ما بين النهرين [العراق] تتجول فى المناطق السورية وتتجمع فى المناطق الفلسطينية استعداداً للتسلل إلى مصر أو الهجوم على شرق الدلتا . ولذلك فقد كان من اللازم أن تأخذ مصر حذرها وتستعد للدفاع عن أرضها .

● وتدل بعض النقوش التى يرجع تاريخها إلى عصر هذه الأسرة على وجود إدارة ـ ضمن إدارات الدولة ـ تسمى « إدارة الجيش » . وتحكى لنا بعض هذه النقوش أخبار بعض قادة الجيش المصرى وما حققوه من نصر فى المعارك التى خاضوها .

● ومن أهم هذه الحكايات نقوش مرسومة على جدران مقبرة « إنتا » ـ وهو أحد رجال الدولة المهمين فى عهد الملك « ساحو رع » وهو من ملوك الأسرة الخامسة ـ ويبدو أن « إنتا » هذا قد تلقى أمر الملك بقيادة حملة ضد الآسيويين . وتقول النقوش المكتوبة

المدعمة بالصور إن الجيش المصرى قام بغزو مكان فى آسيا اسمه «نديا » [وللأسف لا يعرف المؤرخون موقع هذا المكان ، وإن كانت النقوش تدل على انه كان مكاناً محصناً بقلعة يحتمى بها الآسيويون] .

● وتبين لنا مجموعة الصور أن المصريين اشتبكوا مع هؤلاء الأعداء وجهاً لوجه ، فاضطر الاعداء إلى الفرار والاحتماء بقلعتهم ، فلاحقهم المصريون وحاصروا القلعة ، ثم أخذوا يحطمون أبواب القلعة ويثقبون جدرانها بخوابير مدببة مصنوعة من جذوع الأشجار [وهى طريقة حربية ابتدعها المصريون القدماء لاقتحام القلاع ظلت مستخدمة حتى العصور الوسطى فى أوربا] . . ثم قامت أعداد كبيرة من الجنود المصريين بتسلق جدران قلعة « نديا » باستخدام سلالم طويلة مصنوعة من الخشب توطئة للهجوم النهائى على القلعة ومن فيها إلى أن سقطت القلعة تماماً فى أيدى المصريين .

● أما أطرف ما ورد فى هذه النقوش ، فهى صورة هزلية ساخرة تصور بعض الجنود الآسيويين وهم يخبرون رئيسهم وقائدهم بالهزيمة المنكرة التى لحقت بهم ، فيشد قائد الأعداء شعر رأسه يأساً وأسى .

● أما أهم صورة تلفت النظر فهى صورة بعض النساء وهن يحملن القتلى ويسعفن الجرحى . . وكذلك صورة الجيش المصرى وهو يقود أعداداً من أسرى الأعداء من الرجال والنساء والأطفال ليعود بهم إلى مصر بعد أن حقق هذا النصر المؤزر .

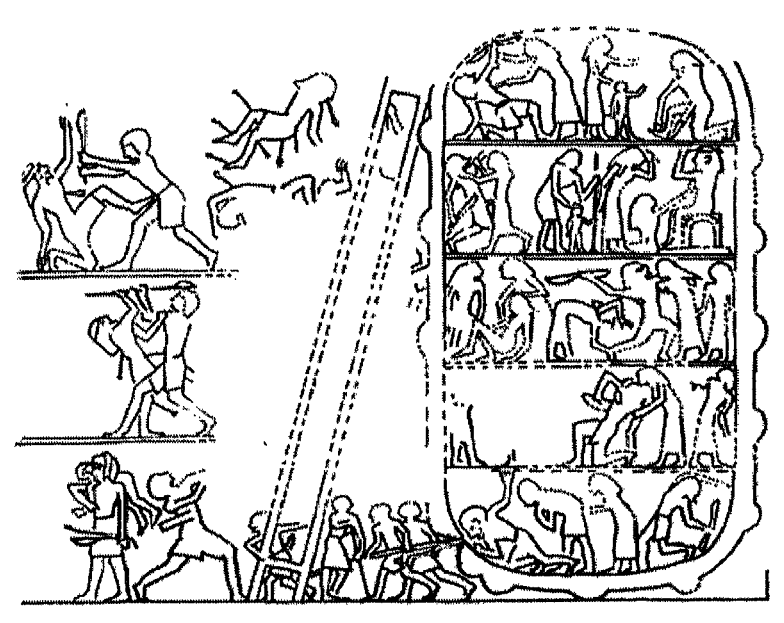
● ويربط بعض علماء الآثار بين تلك الصور المنقوشة على جدران مقبرة « إنتا » والصور المنقوشة على جدران المعبد الجنائزى الذى بناه الملك « ساحو رع » فى منطقة «أبو صير » حيث نرى الملك وهو يستعرض غنائم الحرب التى عاد بها الجيش بعد انتصاره على الآسيويين .

● وفى منطقة « وادى مغارة » بشبة جزيرة سيناء عُثِرَ على لوحة تذكارية تصور الملك « نوسر رع » ـ وهو من ملوك الأسرة الخامسة ـ وهو يضرب الآسيويين وكتب تحتها بالهيروجليفية « قاهر الآسيويين من كل الأقطار » الأمر الذى يستدل منه استمرار

الحملات العسكرية المصرية ضد القبائل القادمة من آسيا والتى تنوى التسلل إلى مصر. ويستدل منها أيضا على حرص الإدارة المصرية على حماية البعثات التعدينية المصرية التى كانت تعمل فى مناطق سيناء .

● ومن الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الخامسة أيضا نقوش تصور بعض السفن البحرية المصرية وهى قادمة من المناطق السورية ويظهر بها أسرى من الآسيويين . وفى هذا دليل آخر على أن مصر كانت تسيطر على تلك المناطق ، بشكل أو بآخر ، فى ذلك الزمن .

● ومن أهم تلك الشواهد الأثرية أيضا تلك النقوش والصور الرائعة المنقوشة على جدران الطريق الذى كان يربط بين المعبد الجنائزى ومعبد الوادى الخاصين بهرم «أوناس» بسقارة ، حيث نرى الملك أو ناس ـ وهو من ملوك الأسرة الخامسة ـ وهو يؤدب الأعداء . . ونرى جنود مصر وهم يقضون على أعدائهم من البدو . . كما نرى بعض قادة الجيش المصرى وهم واقفين أمام الملك وفوق كل منهم اسمه واللقب الذى يحمله .



الجنود المصريون يهاجمون قلعة للعدو .

أول حملة عسكرية برية بحرية فى تاريخ العالم

بعد أن انقضى عصر الأسرة الخامسة بدأ عصر الأسرة السادسة التى بدأ حكمها عام ٢٤٢٠ ق م وانتهى عام ٢٢٥٨ ق م « ؟ » أى انه استمر أكثر من ١٦٠ سنة . ولا يعرف حتى الآن السبب اليقين فى انتقال الحكم بين هاتين الأسرتين ، وإن كان بعض المؤرخين يرجحون أن السبب فى ذلك يرجع إلى حدوث تغيرات فى الاتجاهات الدينية ، فمن المعروف أن ملوك الأسرة الخامسة كانوا يكرسون عبادة الإله رع « إله الشمس » وكان مركز عبادته فى مدينة هليوبوليس « عين شمس » . . بينما كان ملوك الأسرة السادسة يكرسون عبادة الإله « بتاح » باعتباره الإله الواحد الخالق لكل شىء فى هذا الكون ، وكان مركز عبادة هذا الإله فى مدينة « منف » .

● وبالنظر إلى أننا فى هذه الدراسات لا نقتصر على استعراض تاريخ الملوك وأعمالهم، وإنما نركز على دراسة أبناء الشعب المصرى القديم باعتبارهم الصناع الحقيقيين للحضارة المصرية القديمة التى اتفق معظم المؤرخين على اعتبارها « أم الحضارات » . ولذلك فسوف نخصص دراساتنا على « الأعمال العسكرية » التى قام بها أبناء مصر للدفاع عن أرضها طوال التاريخ المصرى القديم .

● فى البداية نلاحظ أن طبقة كبار رجال الدولة وكبار الموظفين وكبار الكهنة والنبلاء والأشراف ، وكلهم ممن لا ينتمون إلى عضوية الأسر المالكة ، قد ازداد نفوذهم بالتدريج، منذ بداية عصر الأسرة السادسة ، وأصبحوا من ذوى السطوة والسلطة ، ويتفاخرون بالأعمال المجيدة التى قاموا بها لخدمة الدولة وخدمة الملك باعتباره رأس الدولة . . ومن بين هؤلاء ظهر رجل عظيم من أبناء الشعب المصرى اسمه «وينى »

عرفنا قيمته ومركزه وأعماله مما سجله على جدران مقبرته من ألقاب خلعها عليه ثلاثة من ملوك الأسرة السادسة ، فهو الكاهن الأكبر ، وسمير الملك ، ورئيس المجلس الأعظم، وكبير القضاة . كما سجل لنا « وينى » حكايات الأعمال الإدارية والدينية والقضائية والحربية التى قام بها بتفويض من هؤلاء الملوك . ومن أبرز هذه الأعمال ما قام به فى عهد الملك « بيبى الأول » [من ملوك الأسرة السادسة] حيث قام بقيادة الحملة العسكرية التى أمر بها الملك لمحاربة وتأديب البدو الآسيويين ، إذ يبدو أن هؤلاء البدو ـ خصوصا القادمين من شمال شرق العراق ـ كانوا يواصلون هجراتهم وتجمعاتهم فى فلسطين توطئة للنزوح إلى مصر .

● قال « وينى » : « أمر جلالته بالقيام بحملة تأديبية ضد البدو الآسيويين رؤساء الرمال . وقد جهز جلالته جيشاً مؤلفا من عشرات الآلاف من الرجال . . ووضع جلالته هذا الجيش تحت إمرتى وقيادتى . . وكنت أسهر على نظام الجنود وقادة الفيالق . . وبسبب مكانتى ، لم يأخذ أحد مكان غيره . . ولم يسرق واحد منهم عجينة أو نعلاً أو أية ملابس من أية بلدة ، ولم يغتصب أحد أية عنزة من أى شخص . . وقد قمت باستعراض كل فيالق لجيش أمامى . . ولم يحدث أن أى خادم للملك قد استعرض الجنود قبلى . . لقد عاد هذا الجيش سالماً ومعه جنود العدو أسرى . . ولقد أثنى علىّ جلالته أكثر من أى شخص آخر . . ثم أرسلنى جلالته « خمس مرات » لقيادة هذا الجيش لتأديب البدو فى كل مرة يثورون فيها » .

● ويواصل « وينى » حكايته التى سجلها على جدران مقبرته فيقول : « لقد حدثت ثورة فى جهة « الكرمل » [بلاد أنف الغزال] فأبحرت فى سفن البحر ومعى فصائل الجنود . . ونزلت خلف مرتفعات الجبال الواقعة شمال بلاد سكان الرمال . . وعندما سار هذا الجيش على تلك المرتفعات قبضنا على الثوار بأكملهم وقضينا على كل العصاة » .

● ويستنتج المؤرخون من تلك الحملة عدة نتائج تلقى الضوء على التاريخ العسكرى لمصر القديمة ، منها أن هذه الحملة تعد الأولى من نوعها فى تاريخ مصر ، بل فى تاريخ العالم القديم . . فهى تسجيل مكتوب لأول حملة عسكرية قامت بحرب

يشترك فيها الجيش البرى محمياً بالأسطول . . وهى أول ذكر مسجل لوجود سفن «ناقلات الجنود والعتاد الحربى » . . وهى دليل على نجاح المصريين القدماء فى القيام بحملات حربية بحرية . . وهى دليل أيضا على فطنة المصريين القدماء وقدرتهم على اتخاذ القرار التكتيكى بنقل الجنود بحراً إلى الهدف المقصود ، بدلاً من اجتياز الطرق الصحراوية الطويلة والخطرة التى ربما تعوق حركة الجيش فى رحلتى الذهاب والعودة ، أو ربما تجعل الجيش مضطراً إلى الدخول فى معارك جانبية أثناء الطريق قبل - أو بعد - الوصول إلى الهدف الأصلى الذى خرج لتأديبه أو القضاء عليه .



جنود مصر القديمة برعوا فى محاربة العدو براً وبحراً .

تحويل مجرى النيل .. وحملات استكشافية داخل أفريقيا

مازلنا نستعرض الأعمال الجليلة التى قام بها أبناء الشعب المصرى القديم ، وهم الصناع الحقيقيون للحضارة العظيمة التى سبقت وتفوقت على كل حضارات العالم القديم . وعرفنا طرفاً من بعض الأعمال العسكرية التى قام بها « وينى » إبن الشعب الذى عاش فى عصر الأسرة السادسة التى حكمت مصر فى الفترة ما بين عامى ٢٤٢٠ ـ ٢٢٥٨ قبل الميلاد ، وهو الذى قاد أول حملة عسكرية برية بحرية فى تاريخ العالم .

● وبالإضافة إلى ما قام به « وينى » من أعمال جليلة فى المجالات الدينية والإدارية والقضائية ، قام أيضا بتنفيذ أول فكرة طرأت فى أذهان المصريين القدماء لتحويل مجرى النيل فى منطقة الشلال الأول بأسوان . . فقد كان هذا الشلال أو « الجندل » عبارة عن مجموعة من الصخور تعترض مجرى النيل فى تلك المنطقة وتجعله غير صالح للملاحة .

● ولما كانت سياسة الدولة فى ذلك الزمن هى الرغبة فى التوسع جنوباً والاتصال المباشر بين مصر وأفريقيا السوداء فى وسط القارة ، فقد كان من اللازم إيجاد وسيلة عملية لاستمرار إبحار السفن المصرية فى مجرى النيل جنوب الشلال الأول . لذلك فقد تفتق ذهن « وينى » إلى فكرة حفر مجموعة من القنوات تلف حول صخور هذا الشلال لتتحاشى الاصطدام بها . وقد كتب « وينى » على جدران مقبرته نصاً يقول فيه : « لقد أرسلنى جلالته لحفر خمس قنوات فى الجنوب . . وأنجزت هذا العمل فى سنة واحدة» . . ونفهم من هذا النص أن حفر تلك القنوات لتحويل مجرى النيل كان مقصوداً به تسهيل سير السفن النهرية المصرية التى كانت تعترضها صخور الشلال . . ونفهم منه أيضاً أن سياسة الدولة فى ذلك العصر كانت تضع فى الاعتبار القيام بكشف

كل الجهات التى تقع جنوب مصر كشفاً منظماً وبقصد حضارى هو تحسين سبل التجارة بين مصر وبلاد النوبة العليا ، بالإضافة إلى تحقيق هدف استراتيجى هو تأمين حدود مصر الجنوبية .

● وقد قام « وينى » بهذا العمل العظيم فى عهد الملك « مرن رع » ـ وهو ملك صغير من ملوك الأسرة السادسة ـ وقد سجل الملك هذا العمل فى نقشين أثريين على صخور منطقة الشلال الأول يصوران الزيارة التى قام بها الملك فى تلك المنطقة الجنوبية ، ونراه فيهما متكئا على عصا وتظهر خلفه جبال المنطقة ، ويقف أمامه مجموعة من أمراء النوبة هم يقدمون له مراسم الولاء والخضوع والطاعة ويمتدحونه ويشكرونه على زيارته وحضوره بنفسه .

● وقد أدت فكرة فتح تلك القنوات دورها فى تسهيل عمليات التبادل التجارى بين مصر وبلاد النوبة السفلى والعليا ، كما شجعت المصريين على القيام برحلات استكشافية توغلوا فيها داخل مجاهل تلك البلاد الأفريقية التى يصل إليها المصريون لأول مرة لكى يتصلوا بأهالى وسكان تلك المناطق لتدعيم أواصر الصداقة معهم ولتحقيق مصلحة الطرفين بالتعامل التجارى المسالم ، حيث كانت مصر تستورد من تلك المنطقة ما تحتاجه من أنواع البخور وأخشاب الأبنوس وجلود الفهود والنمور والعاج [سن الفيل] . فضلاً عن الهدف الهام فى تأمين حدود مصر الجنوبية .

● وبعد موت « وينى » ظهر إبن آخر من أبناء الشعب المصرى القديم اسمه «حر خوف » وكان يتولى منصب حاكم جزيرة « إلفنتين » بأسوان . ومن مجموعة ألقابه الرسمية التى سجلها على جدران مقبرته نعرف بقية الوظائف والمناصب التى تولاها . . فهو نائب الملك ، ورئيس كهنة المنطقة ، وحامل الختم الملكى ، ورئيس كل الأسرار الخاصة بكل أوامر الحدود الجنوبية ، وهو أخيراً « مدير القوافل » .

● وهذه الوظيفة الأخيرة تفسر لنا النصوص التى كتبها « حر خوف » على جدران مقبرته ، والتى يحكى فيها أخباراً عما قام به من حملات استكشافية فى داخل المناطق الأفريقية جنوب مصر . وقد قام بقيادة هذه الحملات فى عهدى الملكين « مرن رع »

و «ببيى الثانى » وهما من ملوك الأسرة السادسة . وهى حملات كانت مدعمة بالجنود ، وتستهدف عدة أهداف منها كشف الطريق إلى تلك البلاد الأجنبية . . ونشر الحضارة المصرية فى تلك المناطق حيث يذكر فى أحد النصوص انه جعل رئيس إحدى المناطق الأفريقية يعبد نفس الإله الذى يعبده ملك مصر . . وكذلك استيراد منتجات تلك المناطق حيث يذكر فى نص آخر أنه عاد ومعه ٣٠٠ حمار محملة بالبخور والأبنوس والزيت وجلود الفهود والعاج .

● ويقول المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إن « حر خوف » هو أول المستكشفين العظام الذين ورد ذكرهم فى تاريخ العالم . . وأول من توغل فى مجاهل أفريقيا . . وأول من مهد سبيل التجارة بين مصر وتلك الأقطار النائية التى لم يجسر أحد قبله أن يجوب مجاهلها .



الجندل الأول بأسوان وصخوره التى تعترض المجرى الملاحى لنهر النيل .

علاقات مصر القديمة بمناطق وسط أفريقيا

عرف المصريون القدماء طريقهم إلى بلاد « بونت » منذ عصور ما قبل التاريخ . وتدل الشواهد التاريخية والأثرية على أنهم كانوا يصلون إليها عن طريق السفن المبحرة فى البحر الأحمر ، بدءاً بالسفن ذات المجاديف [٤٠ مجدافا] ثم بالسفن الشراعية . ويقول بعض المؤرخين المحدثين إن بلاد بونت تقع فى المناطق التى تشغلها الآن كل من دولتى إريتريا والصومال . ويقول مؤرخون آخرون إنها كانت تقع فى اليمن ومنطقة جنوب غرب شبه الجزيرة العربية . وأرجح الآراء انها كانت تشغل هذه المناطق كلها الأفريقية منها والآسيوية .

● وبطبيعة الحال فقد كانت بلاد بونت مصدراً للعديد من الواردات المصرية الهامة كالذهب والفضة والبخور والصموغ والجلود وريش النعام والعاج والأبنوس وكافة منتجات مناطق أواسط أفريقيا . بمعنى أن تلك البلاد كانت حلقة وصل بين وسط أفريقيا ومصر ، وكانت مركزا لعمليات التجارة العابرة «الترانزيت » يتم فيها التبادل بطريقة المقايضة .

● وقد ذكرنا من قبل أن « حر خوف » إبن الشعب وحاكم جزيرة إلفنتين بأسوان ـ والذى أطلق عليه رسمياً لقب « مدير القوافل » بجانب ألقابه العديدة الأخرى ـ قد قام بعدة رحلات استكشافية إلى مناطق النوبة السفلى والعليا بقصد تدعيم العلاقات المصرية الأفريقية ، ولمحاولة الوصول إلى مناطق أواسط أفريقا ولكن عن طريق النيل وليس عن طريق البحر الأحمر . ورأينا كيف سجل « حر خوف » على جدران مقبرته بأسوان نجاح حملاته ورحلاته الاستكشافية فى نشر الحضارة المصرية فى تلك المناطق ،

وفى القضاء على مثيرى الشغب والمتربصين بمصر كنوع من تحصين وتأمين حدود مصر الجنوبية ، ولذلك فقد كانت جميع الحملات التى قام بها مدعمة بالجنود اللازمين لتأمين الرحلة وحماية البضائع المصدرة والمستوردة فى رحلتى الذهاب والعودة .

● ومن الغريب أن الجيش المصرى فى ذلك الزمن [عصر الأسرة السادسة] كان مكونا من جنود نوبيين جنباً إلى جنب مع الجنود المصريين . ويستدل من ذلك على قيام نوع من « الوحدة » بين مصر والمناطق الشمالية من السوادن ، يتمتع فيها المجندون من أبناء السودان بنفس المزايا التى يتمع بها الجنود المصريون ، وأن هذا الجيش تكفل بحماية أمن مصر وحضارتها ، سواء باشتراكه فى الحملات العسكرية التى أرسلتها مصر إلى المناطق الأفريقية أو فى الحملات التأديبية التى قامت بها مصر لتأديب البدو الآسيويين الذين كانوا يتربصون بمصر ويقومون بعمليات سلب ونهب الخيرات المصرية .

● وقد قام «حر خوف » بحملات ثلاث أثناء حكم الملك «مرن رع » [من ملوك الأسرة السادسة] ثم قام بحملته الرابعة والأخيرة فى عهد الملك « ببيى الثانى » الذى تولى عرش مصر بعد موت أخيه مرن رع . ومن المعروف تاريخياً أن « ببيى الثانى » هذا قد جلس على عرش مصر وهو طفل لا يتجاوز عمره ست سنوات ، ومات وعمره مائة عام ، أى انه استمر فى حكم مصر لمدة ٩٤ عاماً ، وهى أطول مدة سجلها التاريخ لحاكم يستمر حكمه طوال مثل هذه المدة .

● وفى هذه الحملة الرابعة توغل « حر خوف » فى داخل بلاد النوبة حتى وصل إلى المناطق التى يعيش فيها الأقزام فى أواسط أفريقيا . ويقول « برستيد » فى كتابه « تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى » إن حر خوف فيما يبدو اقتنص أحد هؤلاء الأقزام أو أغراه بالانضمام إليه والعودة به إلى مصر ليصبح عضوا بالبلاط الملكى . وفور قيامه بذلك أرسل رسولاً إلى القصر الملكى بمصر لإبلاغ الملك ببيى الثانى بقصة القزم الذى ينوى إحضاره إلى مصر ، فسر الملك الصغير بهذا الخبر سروراً عظيما .

● وتدل العديد من الشواهد الأثرية على أن الأقزام كانت لهم مكانة خاصة لدى

المصريين القدماء ، وعلى مدى اهتمام بعض ملوك مصر بمثل هؤلاء الأقزام الذين كانوا يشبهون الإله « بس » إله البهجة والمرح والموسيقى والرقص . وكان بعض هؤلاء الأقزام يعينون فى وظائف دينية أو فى وظائف مدنية شديدة القرب من الملك ، مثل وظيفة مدير خزائن الملابس الملكية . ولذلك فلم يكن غريباً أن يسارع الملك بيبى الثانى بارسال خطاب إلى حر خوف رداً على الخبر السار بقرب عودته إلى مصر وبصحبته القزم الذى أحضره من «أرض الأرواح » .

● وقد حرص حر خوف على نقش وتدوين نص هذا الخطاب الملكى على جدران مقبرته بأسوان . . وهو خطاب طويل يثنى فيه الملك على مجهودات حر خوف فى إحضار المحصولات العظيمة والطيبة من تلك المناطق الجنوبية وإحضار « القزم » الذى ينتظر الملك وصوله بفارغ الصبر . ويشير الملك فى خطابه ببعض التعليمات الخاصة برعاية القزم والمحافظة عليه حتى يصل سالماً إلى القصر الملكى . . فأوصى بأن تكون هناك حراسة على جانبى السفينة التى تحمل القزم حتى لا يسقط فى النيل ، وأن يقوم حر خوف بالتفتيش والاطمئنان على القزم عشر مرات كل ليلة ، وأن يهيىء له حجرة مريحة بالسفينة تحت حراسة رجال يقظين .



القزم « سنب » وأسرته ـ من تماثيل الدولة القديمة

أول مصيبة كبرى .. فى مصر القديمة

كان قدر مصر الأزلى أن تصبح قوية فى عهود الحكام الأقوياء ، وينتابها الضعف حين يضعف الحكام أوحين لا يقدرون قيمة البلد الذى يحكمونه . . ففى الفترة التاريخية المجيدة التى يطلق عليها المؤرخون اسم « الدولة القديمة » ، حققت مصر أعظم أمجادها وانجازاتها الحضارية فى ظل حكام أقوياء وحكومة قادرة مستقرة ، وإدارة حازمة حاسمة ، ونظام قضائى متكامل وضع قضاته مبادىء العدالة والقانون الفطرى الطبيعى ، ونهضة معمارية تشهد عليها الأهرام التى اعتبرت من عجائب الدنيا ، ونهضة علمية وثقافية وضعت خلالها قواعد اللغة وأسس ومبادىء علوم الهندسة والطب والفلك . . وطوال تلك الفترة المجيدة من تاريخ مصر ، لم يجسر أى عدو من أعدائها أن يفكر فى غزو أو احتلال البلاد وفرض سيطرته عليها ، فقد كان الجيش المصرى واقفاً لهم بالمرصاد ، يصد هجماتهم فى حالة الدفاع ، ويؤدبهم ليتقى شرهم فى حالة الهجوم .

● وتدل الشواهد التاريخية على أن عصر « الدولة القديمة » قد انتهى نهاية مفجعة فى أواخر عصر الأسرة السادسة ، حيث تولى العرش ملك طفل صغير اسمه « بيبى الثانى » كان عمره لا يتجاوز ست سنوات ، ومات وعمره مائة عام ، أى انه ظل متربعاً على العرش أربعا وتسعين سنة . . وفى خلال مراحله العمرية ، قويت شوكة حكام الأقاليم والمقاطعات المصرية [٢٠ مقاطعة فى الوجه البحرى و ٢٢ مقاطعة فى الوجه القبلى] وأصبح كل حاكم منهم يعتبر إقليمه أو مقاطعته مملكة صغيرة مستقلة يديرها كيفما شاء . وأخذ حكام الأقاليم يتناحرون فيما بينهم بكل أسباب الشقاق

والأطماع الشخصية وحب السيطرة على الآخرين ، واندلعت بينهم حروب أهلية أدت إلى حدوث ثغرة أمام جحافل بدو الصحارى ، تسللوا منها إلى البلاد ، وأشاعوا فيها كل ألوان الفساد . . كل هذا والملك العجوز قابع فى قصره ، حيث يقوم المنافقون من كبار الموظفين وكبار رجال الدولة بتغذية أذنيه بالأكاذيب ، وبأن كل شىء تمام .

● وعندما انهارت أحوال البلاد وازدادت سوءاً ، عمت الفوضى وشاع الخراب فى طول البلاد وعرضها . . وزال سلطان الملك ونهبت أملاكه ، فاهتزت هيبته ولم يعد محل اعتبار لدى الجميع ، عدا من يحيطون به ابتغاءً للبقاء فى مناصبهم وتحقيقا لمصالحهم وأطماعهم الشخصية . . أما الشعب المصرى القديم بكل فئاته وطبقاته ـ خصوصاً فيما بين الفئات والطبقات الدنيا من الفلاحين والعمال والرعاة ـ فقد فقدوا ثقتهم فى قدرة الدولة والحكومة على توفير الأمن والحماية والاستقرار وتوفير المناخ المناسب لاستمرار عمليات الانتاج بكل فروعها وأشكالها ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى تحول الوجه القبلى من مصدر للخيرات حتى أصبح مثل الصحراء الجدباء والأرض البوار . فلم يعد الفلاحون يزرعون ويحصدون . . ولم يعد العمال يصنعون أو ينتجون . . ولم يعد الفنانون يبدعون أعمالهم الفنية الرفيعة من نحت ونقش وتصوير . أما الوجه البحرى فلم تكن الأحوال فيه تقل سوءاً عن أحوال الوجه القبلى ، بل ابتلى بهجمات بدو الصحارى والأجانب وبالحروب الداخلية بين حكام المقاطعات والأقاليم ، حيث كان كل حاكم يريد فرض سيطرته على المقاطعات والأقاليم المجاورة حتى ولو استعان فى ذلك بالأجانب من أعداء البلاد .

● هكذا شاعت عمليات الخيانة والغدر ، وانهارت الحكومة المركزية بكافة مؤسساتها السياسية الاقتصادية والدينية والقضائية والادارية . . ولم يعد للدولة أى وجود أو احترام ، بعد أن انعدم الاحساس بوجود « الضمير العام » الذى كان يربط الناس بفكرة « الوطن » الذى يلم شمل شعب متوحد مترابط يعرف كل فرد فيه حقوقه وواجباته .

● وقد استمرت تلك المصيبة الكبرى التى حاقت بمصر القديمة من عام ٢٢٥٨ ق م حتى عام ٢٠٤٠ ق م ، أى استغرقت فترة زمنية غامضة من تاريخ مصر القديم

بلغت نحو ٢١٨ سنة . وبطبيعة الحال لم تصل إلينا سوى شواهد أثرية قليلة جدا ونادرة من هذه الفترة ، لعل أهمها تلك « الوثائق الأدبية الشعبية » التى أبدعها بعض الأدباء والحكماء وأهل الفكر من أبناء الشعب المصرى ، وصوروا فيها أحداث تلك الكارثة بأسلوب بليغ يقطر حزناً وألماً ، وبعبارات عميقة مؤثرة يشعر قارئها بأنها صدرت من أعماق كاتبها ، معبرة عن وجيب قلب يكاد أن ينفطر من شدة الحزن والأسى .

● ومن أهم تلك الوثائق الأدبية تلك الوثيقة الرائعة المنسوبة لأحد الحكماء من أبناء الشعب المصرى القديم ، هو الحكيم « إيب ور » والمعروفة فى التاريخ باسم « تنبؤات الحكيم إيب ور » . وهى وثيقة طويلة مستفيضة فى وصف تلك الأحوال المؤسفة .



أحداث المصيبة الكبرى .. فى وثيقة أدبية

من الواضح أن المصيبة الكبرى التى وقعت بمصر القديمة فى أعقاب نهاية الأسرة السادسة عام ٢٢٥٨ ق م قد استفزت حكماء مصر وأدباءها الذين كانوا معاصرين لها . . فسجلوا أبعاد وأحداث تلك المصيبة فيما تركوه لنا من وثائق أدبية . وأغلب الظن انه كانت هناك أعمال كثيرة صورت ذلك الواقع الأليم الذى طغى على تلك الفترة التى يسميها المؤرخون « عصر الاضمحلال الأول » والتى استمرت كما ذكرنا من قبل نحو ٢١٨ سنة . . إلا أن أهم ما وصل إلينا من تلك الأعمال الأدبية وثيقة الحكيم «إيب ور » والتى عرفت فى تاريخ الأدب المصرى القديم باسم « تنبؤات الحكيم إيب ور» .

● وبالنظر إلى أن نص هذه الوثيقة قد أفاض وأطنب فى وصف كل ما حاق بالبلاد من جرائم السرقة والقتل والتخريب والقحط ، وتشريد الموظفين الرسميين ، وتفكك إدارات الدولة ، وقيام الأجانب من بدو الصحارى بغزو البلاد ونهبها ، وشيوع الانحلال الخلقى وعدم المبالاة بالتقاليد الدينية وزوال صفة التدين من ضمائر الناس ، وانهيار كل النظم القانونية والعرفية التى كانت تحكم الحقوق المدنية لجميع فئات الشعب وطبقاته ، لذلك فقد يكون من الصعب أن نقدم نص هذه الوثيقة الأدبية كاملاً ، ويفرض علينا المجال المتاح أن نقدم تحليلاً موجزاً لكل ما ورد فى تلك الوثيقة من أوصاف وأحداث مستندين إلى بعض نصوصها التى سنذكرها مكتوبة بين قوسين .

● تصف الوثيقة الآثار المدمرة التى أصابت أنشطة الدولة نتيجة لغزو بدو الصحارى للبلاد بطريقة همجية لا يحكمها نظام أو قانون ، فتقول : « لقد حل أهالى

الرمال مكان أهل البلاد فى كل مكان . . وتهرب الجميع من دفع الضرائب فخربت خزينة الدولة . . وأتلفت كافة المحاصيل الزراعية وأصبحت الأرض جدباء ، فلم تعد هناك فاكهة ولا حبوب ، وانتشر الجوع ، وأصبحت القاذورات تختطف من أفواه الخنازير بسبب الجوع والبحث عن الطعام » .

● وتقول الوثيقة : « لم يعد هناك صانع يعمل ، ولا زارع يزرع ، فالعدو حرم البلاد من حرفها ، وأصبح مهندسو السفن الملكية عمالاً عاديين . . ولم تعد السفن المصرية تذهب إلى البلاد الأجنبية لإحضار ما تحتاجه البلاد من مواد ، ولم تعد تذهب إلى ببلوس لإحضار أخشاب الأرز [من لبنان] . . وضربت الفوضى أطنابها فى طول البلاد وعرضها . . وأصبحت الماشية تهيم بلا راع ، وكل إنسان يأخذ منها ما يريد » .

● وبسبب هذه الفوضى والهمجية التى شاعت فى المجتمع ، أصبح كل شخص سواء من المصريين أو من الأجانب يغير على حقوق وممتلكات الآخرين ويستولى على ما يستطيع الحصول عليه . . « وانتشرت عصابات اللصوص وقطاع الطرق ، وأصبحوا يتربصون بكل مسافر ، يسلبونه ويسرقون ما معه ويستولون على ملابسه ويضربونه بالعصى أو يذبح ظلماً واغتيالاً . . وازدادت أعداد المجرمين ، ولم يعد هناك رجال محترمون . . وأصبح كل رجل يحمل درعه وسلاحه ليأمن شر المعتدين » .

● وتصف الوثيقة أيضا انتشار عمليات الاغتيال والقتل التى كان يقوم بها الأجانب أثناء عمليات السلب والنهب ، والتى كانت تدور بين المصريين وبعضهم بعضاً نتيجة للصراع الطبقى الذى قلب موازين المجتمع المصرى رأساً على عقب فتقول : « أصبح الدم يراق فى كل مكان ، وكثر عدد الموتى ، وتعذرت عمليات الدفن لكثرة الجثث التى كانت تلقى فى الماء كالبهائم النافقة . . وأصبحت التماسيح فى تخمة بما كانت تلتهمه من لحوم الناس والحيوانات . . وانتشر الوباء فى أرجاء البلاد . . وأصبح الرجل يقتل أخاه من أمه لأوهى الأسباب . . ويقتل الرجل أمام أخيه فلا يتقدم لينقذه من القتل بل يفر لكى ينجو بجلده » .

● أما كارثة انهيار المحاكم الرسمية والنظم القانونية فقد سجلته الوثيقة بكلمات حزينة موجعة فتقول : « لقد سلبت سجلات المحاكم وألقيت فى الطرقات ، ونهبت

الإدارات العامة وذبح الموظفون ، وصار الناس يدوسون بأقدامهم على القوانين . . فضاعت حقوق الملكية ، واستولى الفقراء على ممتلكات الأغنياء ، وخربوا الدور والقصور . . ومن كان ينام أعزب أصبح يجد الآن سيدات نبيلات . . ومن كان يجهل العزف أصبح يملك قيثارة . . ومن كانت ترى وجهها فى الماء أصبحت صاحبة مرآة . . وأصبحت الجوارى والفقيرات يتزيين بالحلى والمجوهرات ، بينما تدور السيدات النبيلات فى الطرقات بحثاً عن الطعام » .

● وبلغت المأساة أقصى ذراها حين انعدم الضمير الجمعى والحس الدينى وانتشر الكفر بالآلهة . وتقول الوثيقة فى ذلك : « أصبح الرجل يقول إذا عرفت أين يوجد الإله قدمت له قربانا . . وأصبح بعض الناس يقدمون الأوز قربانا للآلهة على أنها ثيران . . واختفى الضحك والسرور وأخذ الحزن يتمشى فى البلاد ممزوجاً بالأسى . . وتحولت الأغانى المبهجة إلى أناشيد حزن ويأس . . وكره الناس الحياة » .

●وبسبب صدق وجزالة الأسلوب الأدبى لهذه الوثيقة أصبحت نموذجاً أدبيا تقرر تدريسه ـ فى عصور لاحقة من تاريخ مصر القديم ـ لتمرين تلاميذ المدارس على حسن الصياغة الأدبية .



أول جيش نظامى .. فى تاريخ العالم

يقول بعض المؤرخين العسكريين إن المصريين القدماء كانوا أول من كوّن الجيوش النظامية . . وأول من أقاموا الحصون على الحدود . . وأول من بنوا القلاع الحربية المحصنة . . وأول من قسموا الجيوش إلى فرق وفيالق وابتدعوا فكرة القلب والجناحين . . وأول من أنشأوا « مجلس أركان حرب » من كبار الضباط لوضع الخطط الحربية . . وأول من نظموا أعمال التجنيد والأعمال الإدارية العسكرية وأعمال إمداد وتموين الجيوش أثناء الحرب وأثناء السلام . . وكان دافعهم الأساسى فى ذلك كله هو الدفاع عن أنفسهم وعن خيرات بلادهم ضد جحافل الطامعين من بدو الصحارى الذين كانوا يحيطون بمصر من الجنوب والغرب والشرق والشمال الشرقى ، والذين كانوا يغيرون على الأراضى المصرية لممارسة عمليات السلب والنهب أو لمحاولة الاستيطان فى تخوم البلاد .

● وقد ذكرنا من قبل كيف كان المصريون القدماء الأوائل فى عصور ما قبل التاريخ يدافعون عن بلادهم وقراهم . . وكيف تطور هذا الدفاع خلال العصور التاريخية بدءاً من العصر العتيق الذى يتضمن عصر الأسرتين الأولى والثانية [من عام ٣٢٠٠ ق م إلى عام ٢٧٨٠ ق م] ثم فى عصر الدولة القديمة الذى يتضمن الأسرات من الثالثة إلى السادسة [من عام ٢٧٨٠ ق م إلى عام ٢٢٥٨ ق م] .

● ويقول المؤرخون فى ذلك إنه بسبب ندرة المصادر والشواهد الأثرية ، لا يمكن القطع بوجود جيش مصرى موحد قبل عصر الأسرة الثالثة التى حكمت مصر من عام

٢٧٨٠ ق م إلى عام ٢٦٨٠ ق م . . أما قبل عصر هذه الأسرة فتدل الشواهد على أن الجنود والمحاربين كانوا تحت قيادة حكام الأقاليم الذين كانوا يضعونهم فى خدمة الملك أو فى خدمة الدولة كلما دعا الأمر . . إلى أن تولى الملك « زوسر » عرش مصر فى بداية عصر الأسرة الثالثة . . فمن المعروف تاريخيا ـ كما تدل النقوش على ذلك ـ أن هذا الملك كان حاكما قوياً وذا سطوة جعلته يجمع زمام الأمور وكل سلطات الدولة فى يده ، ويكفيه فخراً انه صاحب الهرم المدرج بسقارة الذى يعتبر أول بناء حجرى ضخم فى تاريخ العالم .

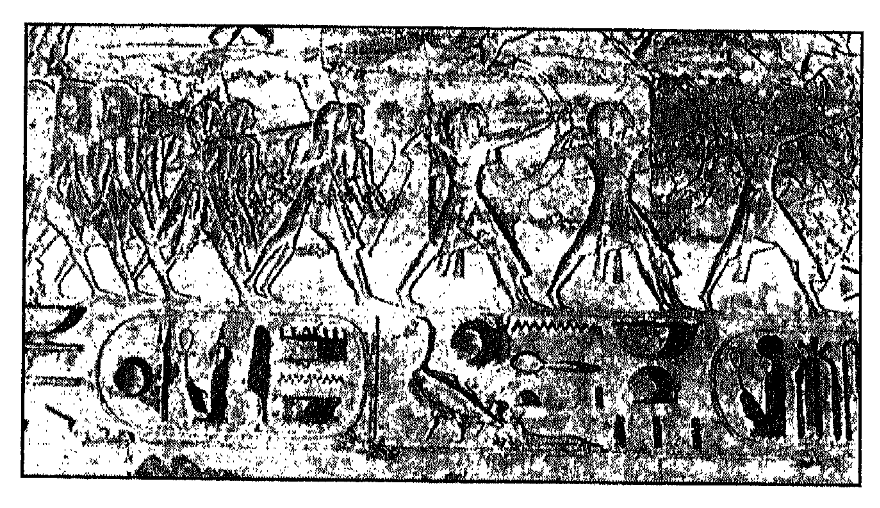
● وتدل النقوش كذلك على انه استطاع تكوين أول جيش نظامى موحد القيادة ويتبع أومر الملك باعتباره القائد الأعلى لهذا الجيش الذى استخدمه فى السيطرة على كل أمور الدولة ، وفى توفير الأمن الداخلى للبلاد ، وفى حماية بعثات التعدين ، وفى صد هجمات بدو الصحارى وأهالى النوبة الذين كانوا يغيرون على حدود مصر بين حين وآخر . . ونفهم من هذه النقوش أيضا أن الملك زوسر أنشأ إدارة خاصة لشئون هذا الجيش .

● وكانت هذه الإدارة المركزية تشرف على جميع الأعمال العسكرية فى طول البلاد وعرضها ، حيث قسمت حدود البلاد إلى مناطق محددة كان يطلق عليها اسم « أبواب المملكة » . وأقيمت فى كل بوابة من هذه البوابات « حامية عسكرية » تحت قيادة قائد يحمل لقب « سشم تا » وهو لقب مصرى قديم معناه « مرشد الأرض » . وكانت كل حامية مزودة بمخازن للحبوب والغلال تكفى لتوفير الطعام للجنود والمحاربين إذا تعرضت الحامية للحصار . . ومزودة بطبيعة الحال بمخازن للأسلحة المتنوعة والمعدات الحربية التى كانت تستخدم فى الحرب وعند نشوب المعارك مثل المقلاع والقوس والنشاب والحراب والسيوف والعصى الغليظة والحجارة والبلطات المعدنية . . وكميات كافية من أغطية الرأس المصنوعة من القش لحماية رؤوس الجنود أثناء الاشتباكات والدروع التى كانت تحميهم أثناء الاشتباك مع العدو وجهاً لوجه .

● قد أقيمت تلك الحصون فى الأماكن والمواقع الاستراتيجية التى كان يحتمل أن

تتعرض لغزو العدو أو تسلله ، مثل مداخل وديان الصحراء التى كان يتسلل منها البدو لممارسة أعمال السلب والنهب . . ومن الغريب أن جميع تلك الحصون كانت ذات طراز معمارى موحد الشكل والبناء . وقد ساد هذا الطراز فى جميع الحصون الحربية التى بنيت خلال عصر الدولة القديمة حيث كانت تتضمن - إلى جانب مخازن الطعام ومخازن السلاح - أماكن لإقامة الجنود وتوفير حاجياتهم المعيشية ، وأماكن لإقامة الموظفين الاداريين الكتبة الذين كانوا يتبعون « الإدارة الحربية المركزية » فى عاصمة البلاد . . وكانت هذه الإدارة مسئولة عن توفير كل احتياجات الحصون الفرعية من إمدادات وتموين ، ولذلك فقد أطلق عليها اسم « برعحا » أى « بيت السلاح » .

● وتدل الشواهد أيضا على أن الملك زوسر قد أمر ببناء سور ضخم لحماية الحدود الجنوبية فى منطقة أسوان يبلغ طوله نحو ١٢ كيلو مترا . . كما أمر ببناء قلعة حربية فى تلك المنطقة أطلق عليها اسم «بطولة الأرضين» . قد أثارت تلك القلعة تساؤلاً بين المؤرخين وعلماء المصريات ، عما إذا كانت مصر القديمة قد عرفت نظام « القلاع الحربية » . . وفى أى عصر من عصورها التاريخية عرفت هذا النظام . . ؟!



جنود مصر . . ظلوا يدافعون عنها طوال عصورها التاريخية .

أول الحصون الحربية .. فى تاريخ العالم

ذكرنا من قبل أن الملك زوسر [فى عصر الأسرة الثالثة فى القرن الثامن والعشرين قبل الميلاد] قد أمر ببناء سور ضخم لحماية الحدود الجنوبية لمصر فى منطقة أسوان ، وأمر كذلك ببناء «قلعة حربية » فى نفس المنطقة أطلق عليها اسم « بطولة الأرضين » . وقد أثارت هذه القلعة تساؤلات بين المؤرخين وعلماء الآثار المصرية عما إذا كانت مصر القديمة قد عرفت نظام « القلاع الحربية » . . ومتى عرفت هذا النظام ؟ . . وهل توجد بين الآثار المصرية أطلال تؤكد وجود تلك القلاع ؟ . . وفى أى عصر بدأ تشييد هذه القلاع واستخدمت فى الدفاع عن البلاد ؟ .

● لحسن الحظ تم العثور على عديد من الشواهد الأثرية التى تجيب على هذه التساؤلات . . وأول هذه الشواهد « مجموعة من قطع صغيرة منحوتة من العاج كانت تستخدم فى لعبة الضامة وهى لعبة تشبه الشطرنج » . . وهذه القطع معروضة حالياً فى قسم الآثار المصرية بمتحف برلين ، وقد عثر عليها فى « أبيدوس » [العرابة المدفونة بمحافظة سوهاج] . . ويرجع تاريخ هذه القطع إلى عصر الأسرة الأولى التى حكمت مصر من عام ٣٢٠٠ ق م إلى عام ٢٩٨٠ ق م . وقد نحتت إحدى هذه القطع على شكل « برج حربى » فى أعلاه مجموعة من « الشرفات » مماثلة تماماً للشرفات التى تعلو القلاع الحربية والتى يتستر وراءها الجنود من رماة السهام على الأعداء المهاجمين .

● ومن المعروف أن منطقة أبيدوس هذه كانت مهداً من المهاد الأولى للحضارة المصرية ولعبت دوراً تاريخياً ودينياً منذ العصر العتيق ، وقد استمر هذا الدور طوال

عصور الحضارة المصرية القديمة ، بل وأصبحت مزاراً للحجاج المصريين القدماء يأتون إليها من كل فجاج الأرض المصرية فى الوجهين البحرى والقبلى للتبرك بالإله أوزيريس الذى تقول عنه الميثولوجيا المصرية القديمة انه مدفون بأرضها . . كما وجدت بها مجموعة من الآثار والمقابر الملكية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرتين الأولى والثانية ، كما يوجد بها أيضا المعبد الفخم الرائع الذى بناه الملك «سيتى الأول » فى عصر الأسرة التاسعة عشرة والذى أكمله وأتمه ابنه « رمسيس الثانى » .

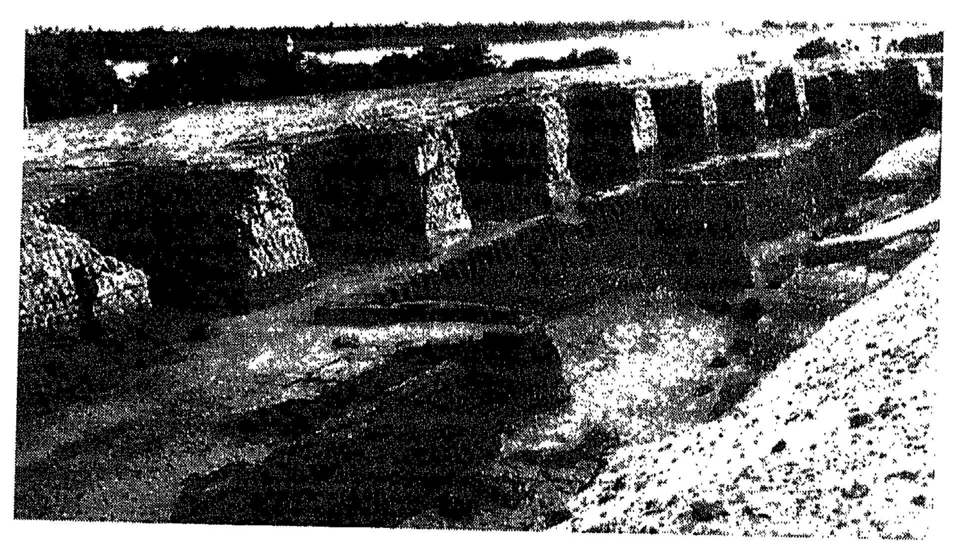
● وتدل الحفائر الأثرية التى أجريت فى منطقة «أبيدوس » على وجود أطلال لحصن حربى يقول عنه عالم الآثار « ماسبيرو » انه يعتبر من أقدم الحصون التى أقيمت للدفاع عن الأرض المصرية ضد هجمات بدو الصحارى . وقد أقيم هذا الحصن فى موقع اسمه الحالى « كوم السلطان » . وتدل هذه الأطلال على أن الحصن كان على شكل مستطيل متوازى الأضلاع .

● كذلك فقد عثر فى منطقة « الكاب » [شمال إدفو] على حصن حربى يعتبر من أحسن القلاع الحربية المصرية التى عثر على أطلالها حتى الآن . وقد أقيم هذا الحصن فى الفترة ما بين عصر الأسرة السادسة والأسرةالعاشرة . وتدل الشواهد على أن هذا الحصن قد حل محل حصن آخر أقدم منه عهداً . ونتيجة للدراسات والقياسات التى أجريت على أطلال هذا الحصن تبين أنه كان مبنياً على شكل مستطيل متوازى الأضلاع يبلغ طول كل ضلع من ضلعيه الطويلين حوالى ١٤٠ متراً من الشرق إلى الغرب ، كما يبلغ طول كل ضلع من ضلعيه القصيرين نحو ٨٤ متراً من الشمال إلى الجنوب .

● وفى التسجيل العلمى الدقيق الذى أُجرى لوصف التصميم الهندسى والمعمارى لهذا الحصن ووصف منشآته الداخلية وممراته وأبراجه والسور الذى كان يحيط بجميع هذه المنشآت ، نجد أن الجدران الخارجية للحصن كانت متينة وسميكة ، ويليها سور داخلى يشكل ممراً ضيقاً ، وتعلو هذا السور شرفات مستديرة كان الجنود المدافعون عن الحصن يصلون إليها بدرجات مثبتة فى الجدران .

● وكان الدخول إلى الحصن يتم من بابين . . وفى أحد جوانب الساحة الداخلية

توجد القاعة المخصصة لحفظ الأسلحة ، كما توجد أطلال برجين تحيط بكل منهما ممرات ملتوية . ويقول المؤرخون إن هذا الحصن الحربى المصرى القديم ـ وأمثاله من الحصون الحربية المنيعة التى أقامها المصريون القدماء ـ كان من المتانة والكفاءة والمناعة بحيث يستطيع الجنود العاملون به صد أى هجوم يقوم به أعداء مصر مهما كانت جيوشهم قوية . وكان من العسير ـ بل من المستحيل ـ أن تسقط مثل هذه الحصون فى أيدى مقتحميها من الأعداء ، اللهم إلا إذا قام هؤلاء الأعداء بمحاصرة هذه الحصون حصاراً شديداً وطويلاً لمنع إمدادات الطعام عن الجنود المدافعين عن الحصن حتى ينفد ما كان لديهم من الأطعمة المخزونة ، وعندئذ قد يستسلم هؤلاء الجنود أو يموتون جوعاً .



بقايا وآثار إحدى القلاع التى شيدتها مصر القديمة لحماية حدودها .

مصر القديمة : أول من وضع الألقاب والرتب العسكرية

بالرغم من ندرة الوثائق التاريخية والأثرية التى وصلت إلينا عن أحوال الجيش المصرى فى عصر الدولة القديمة [من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة] إلا أن المؤرخين وعلماء المصريات الأجانب ـ ومن أشهرهم كيس ، وإرمان ، وولف ، وبونيت ، وماسبيرو ، وبرستيد ـ قد بذلوا جهوداً علمية وأجروا بحوثاً ودراسات متعمقة لما أمكن العثور عليه من «ألقاب ورتب عسكرية» منقوشة على جدران المقابر الخاصة ببعض كبار رجال الدولة الذين تولوا أمور الجيش أوتخصصوا فى قيادة الفرق والفيالق وسفن الأسطول الحربى .

● وقد استطاع هؤلاء العلماء تكوين صورة منطقية صادقة وواضحة عن هيكل الجيش المصرى ونظامه فى عصر الدولة القديمة مستندين إلى مدلول هذه الألقاب والرتب العسكرية ، بالإضافة إلى النقوش والكتابات والرسوم التى تصور لنا بعض المواقع الحربية البحرية والبرية ، وأنواعاً من التدريبات العسكرية التى كان يمارسها الجنود الذين تتكون منهم الفرق والفيالق العسكرية .

● كان الجيش مكوناً من عدة وحدات تسمى « عبر » وهى كلمة مصرية قديمة معناها « فرقة » . وكانت كل فرقة تتكون من مجموعة من الجنود الشبان المجندين يرأسهم رئيس يحمل لقب « خرب » وهو لقب إدارى مدنى كان يطلق فى الأصل على من يشغل وظيفة رئيس الموظفين . كما يطلق على هذا الرئيس أيضا لقب معناه « قائد فرقة الجنود » .

● ومن مجموع هذه الفرق كان يتكون « الفيلق » أو الجيش الفرعى ، ويقوده ضابط كبير أو أحد كبار رجال الدولة . وكان يطلق عليه لقب « إمرا مشع » ومعناه « مدير الجيش » أو « أمير الجيش » [وأرجو ملاحظة التشابه بين كلمة « إمرا » المصرية القديمة وكلمة «أمير » فى اللغة العربية] .

● ومن مجموع هذه الفيالق أو الجيوش الفرعية كان يتكون الجيش العام للدولة أو الجيش الملكى ، ويرأسه قائد يطلق عليه لقب « القائد الأعلى للجيوش » أو « القائد الأعلى للجيش الملكى » .

● وبدراسة الألقاب المنقوشة على جدران بعض مقابر الأشخاص الذين تولوا قيادة الفيالق والجيوش المصرية فى عصر الدولة القديمة تبين أن غالبيتهم العظمى كانوا من بين أمراء البيت المالك ، ويحملون إلى جانب الألقاب العسكرية ألقاباً ملكية تدل على مدى قرابتهم أو قربهم من ملك مصر ، كما تبين أنهم جميعاً كانوا يحملون لقب « حامل الخاتم الملكى » أو لقب « المقرب إلى قلب الملك » .

● وكان الجنود الذين تتكون منهم فرق وفيالق الجيش « البرى » جنوداً مجندين يتم تجنيدهم بواسطة حكام الأقاليم الذين يشرفون على الإدارات الفرعية للإدارة المركزية التى تتولى شئون الجيش الملكى من مقرها بعاصمة البلاد .

● أما الجنود الذين كانوا يعملون فى سفن الأسطول الحربى فقد كانوا غير مجندين ، بل كانوا جنوداً بحارة محترفين العمل على هذه السفن . . وكانت كل سفينة حربية من سفن الأسطول تحت قيادة ضابط متخصص . ويقود هؤلاء الضباط ضابط كبير أعلى رتبة ويحمل لقب « الضابط المدير العظيم رئيس الأسطول » .

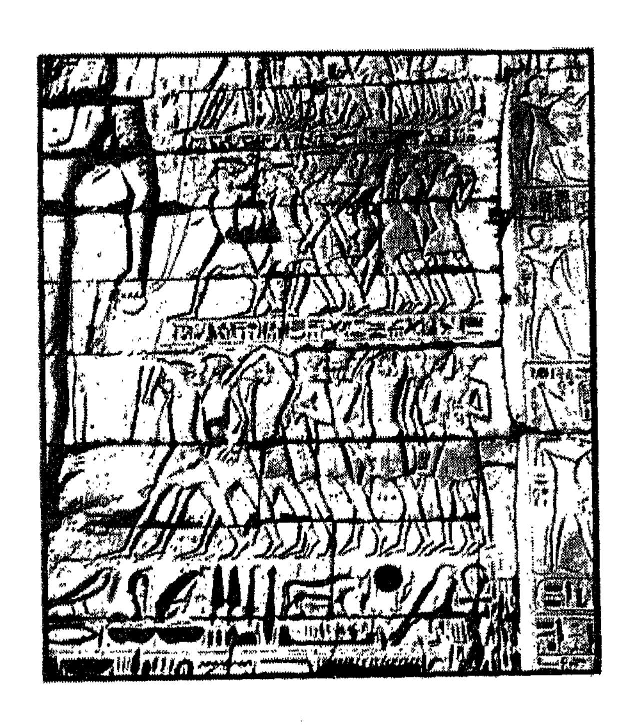
● وهناك نقش على حجر باليرمو المشهور يدل على أن السفن التى كان يتكون منها الأسطول فى عهد الملك « سنفرو » مؤسس الأسرة الرابعة ، كانت من السفن الكبيرة فى ذلك العصر ، حيث يبلغ طول الواحدة منها نحو ٥٠ متراً .

● وقد استشف المؤرخون من دلالات الألقاب والرتب العسكرية أن قيادة « الجيش البرى » كانت مستقلة عن قيادة الأسطول الحربى ، وذلك بالرغم من وجود قيادة

موحدة تتولى شئون الجيش البرى والأسطول معاً ، وكان الذى يشغلها يحمل لقب القائد الأعلى للجيش وأمير أسطول البحر » .

● ويقول المؤرخون أيضا إن مصر القديمة عرفت منذ البداية ضرورة وأهمية انفصال الجيش عن السلطة المدنية انفصالاً تاماً . ومعنى ذلك أن الجيش لم يكن له دخل فى توجيه سياسة الدولة ، بل كان الحال على العكس من ذلك، حيث تقوم السلطة السياسية التى يمثلها الملك بتوجيه الجيش البرى والأسطول البحرى وتحريك كل منهما للقيام بمهمة أو مهمات محددة .

● ولم يعرف خلال عصر الدولة القديمة قيام الملوك بقيادة تلك الجيوش أثناء الحملات العسكرية أو الاشتراك فى المعارك الحربية ، وذلك بعكس ملوك الدولة الوسطى والدولة الحديثة الذين قام أغلبهم بقيادة الجيوش المصرية والاشتراك الفعلى فى المعارك الحربية مع الجنود والضباط .



جنود مصر القديمة يكتفون الأسرى من أعداء البلاد .

« الشاب الجميل » .. لقب الجندى فى مصر القديمة

من الوثائق الأدبية الأثرية وثيقة ملكية شهيرة نسبت إلى الملك « أخيتى الرابع » وهو ينصح ابنه وولى عهده « مريكا رع » ويقول فيها : « ارفع من شأن الجيل الجديد . . لكى تحبك الرعية . . إن البلاد ملأى بالشبان المدربين . . إجعل من هؤلاء الشبان أتباعك . . امنحهم الممتلكات . . وهبهم الحقول والقطعان » .

● وفى مثل هذه الوصية دليل يؤكد وجود نظام سابق التطبيق ، وهو حرص السلطة التنفيذية والإدارية بالدولة على الاهتمام برعاية فتية البلاد وشبّانها ، وتأهيل من يصلح منهم للخدمة العامة . وتدل الشواهد الأثرية على أن هذه السياسة كانت متبعة فى كافة عصور التاريخ المصرى القديم من أوله إلى آخره . ويقدم لنا المؤرخون وعلماء الآثار المصرية شروحاً لنماذج كثيرة من النقوش والرسوم التى تصور الألعاب والتدريبات الرياضية التى كان يمارسها الشباب .

● وكانت المدارس المصرية القديمة التى كانوا يسمونها « بيوت الحياة » تضع فى برامجها التعليمية التى تشمل : الكتابة ، والأدب ، والعلوم الحسابية والهندسية ، والموسيقى ، والتربية الأخلاقية ، والعلوم الطبية ، إلى جانب برنامج أساسى للتربية الرياضية والعسكرية ، الأمر الذى يؤكده المؤرخون من أن هذه المدارس كانت حريصة على تربية الأبدان السليمة إلى جانب تزويد عقول التلاميذ بالعلوم النافعة وتهذيب أخلاقهم بتعليمهم مبادىء السلوكيات الفاضلة التى تواضع عليها المجتمع .

● ومن الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى مختلف عصور التاريخ المصرى

القديم ، يمكننا أن نستدل على مدى حرص الشباب من المصريين القدماء على صحة أبدانهم ، وكان سبيلهم فى ذلك هو ممارسة الرياضة البحتة والألعاب الرياضية بصفة عامة . ويبدو ذلك جلياً فى النقوش والرسوم والتماثيل التى تفصح بالأدلة الظاهرة عن أن الناس ـ سواء أكانوا من الملوك أو من علية القوم أو من أفراد الشعب العاديين ـ كانوا أصحاء الأبدان أقوياء العضلات وذوى وجوه ناضرة .

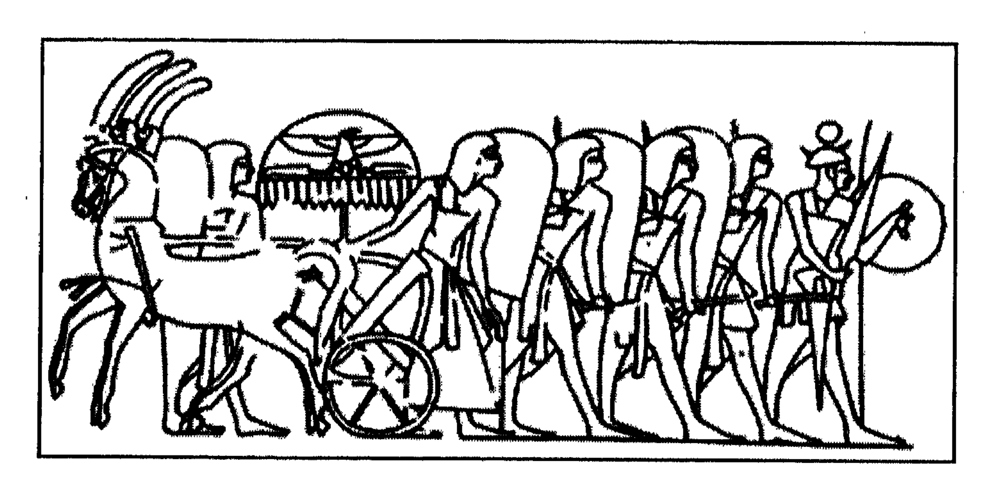
● وبدراسة هذه الشواهد الأثرية استطاع المؤرخون تحديد أنواع الألعاب والتمرينات الرياضية التى كان يمارسها المصريون القدماء ، ومنها على وجه الخصوص: رياضة سباق العَدْو ، ورياضة تسلق الأشجار والنخيل ، ورياضة القفز وحمل الأثقال ، ورياضة التجديف مع التيار وضده ، ورياضة السباحة فى النهر والتدريب على الإنقاذ ، ورياضة المبارزة بالسيوف أو بالعصى الطويلة والقصيرة ، ورياضة الفروسية وسباق الخيل ، ورياضة الرماية بالسهام والنبال واستخدام الرماح ، ورياضة المصارعة .

● وبالنسبة لرياضة المصارعة تشهد نقوش بعض مقابر « بنى حسن » [بمحافظة المنيا] على مدى تفوق المصريين القدماء فى ممارسة هذه الرياضة التى تهدف إلى تعليم الشباب طرق النضال والمقاومة والالتحام مع العدو ، فى ظل فلسفة أن القوة هى الوسيلة المثلى للنصر والغلبة . وبمهارة فائقة استطاع الفنانون الذين رسموا هذه النقوش المصورة ، تسجيل مئات الحركات والأوضاع والمسكات التى تقتضيها ممارسة رياضة المصارعة ، الأمر الذى يدل ـ على نحو قاطع ـ على أن المصريين القدماء قد حددوا مجموعة من القواعد الرياضية التى يتقيد بها الرياضيون الذين يمارسون المصارعة. ويقول المؤرخون فى ذلك إن هذه القواعد الرياضية قد انتقلت فيما بعد إلى اليونان ثم إلى الرومان ، وهما دولتان كانتا تفخران بأنهما قد وضعتا لرياضة المصارعة قواعدها المحددة .

● ولاشك فى أن هذه التربية الرياضية والعسكرية فى مدارس مصر القديمة كانت تساهم إلى حد كبير فى تقوية أبدان لشباب ورفع معنوياتهم وقدراتهم على تحمل

الصعاب والقيام بالمهمات الشاقة . ولذلك فقد كان التفوق الرياضى من سبل اختيار الشبان المجندين فى الجيش .

● ومن المدهش أن الجنـدى المجند فى مصر القديمة كان يطلق عليه لقب « نفر » ـ بكسر حرفى النون والفاء ـ ومعناه « الشاب الجميل » [وأرجو ملاحظة التشابه بين كلمة « نفر » فى اللغة المصرية القديمة ، وكلمة « نفر » ـ بفتح حرفى النون والفاء ـ فى اللغة المصرية الدارجة الحديثة ، حيث ما زال لقب « نفر » يطلق على الجندى فى عصرنا الحاضر .



جنود يتدربون على الحركات العسكرية

شرف الجندية .. فى مصر القديمة

لم يعرف عن ملوك الدولة القديمة [من الأسرة الثالثة حتى الأسرة السادسة] أنهم كانوامن الغزاة أو الفاتحين ، ومع ذلك فقد حرصوا جميعا على أن يكون للدولة جيش يحميها ويصد عنها غارات الطامعين من بدو الصحارى ، سواء من الآسيويين أو من الأفريقيين ، خصوصاً من أهالى النوبة والليبيين .

● وكانت وسيلة الدولة فى تكوين هذا الجيش هى قيام الملك بإصدار أوامره لحكام الأقاليم بتجنيد الجنود من الشبان اللائقين لأداء الخدمة العسكرية بكل ما فيها من مشاق ومسئوليات . ويتم تدريب هؤلاء الشبان تدريباً عسكرياً صارماً على فنون الحرب والقتال التى كانت معروفة فى ذلك العصر . وكما ذكرنا من قبل فإن من جموع هؤلاء الشبان المدربين كانت تتكون الفرق والفيالق الخاصة بالجيش الملكى الموحد الذى تحتاجه البلاد .

● ولم تكن مهمة الجيش منحصرة فى الأعمال الحربية وحدها ، بل كانت بعض وحدات هذا النظام النظامى الموحد تكلف بأداء العديد من الأعمال المدنية والأشغال العامة وأعمال الشرطة والحراسة ، خصوصاً حراسة القصر الملكى والجبانات ، كما كانت تكلف أيضا بحراسة حدود البلاد فى الشرق والغرب والجنوب . . وكانت بعض فرق الجنود مكلفة أيضا بأداء بعض الأعمال الصعبة والشاقة مثل تكليفها بالعمل فى المحاجر الممتدة من جبل المقطم حتى مناطق الصخور الجرانيتية بأسوان . وقد تم العثور على شواهد أثرية منقوشة على صخور بعض الأهرام كتبت عليها أسماء الوحدات

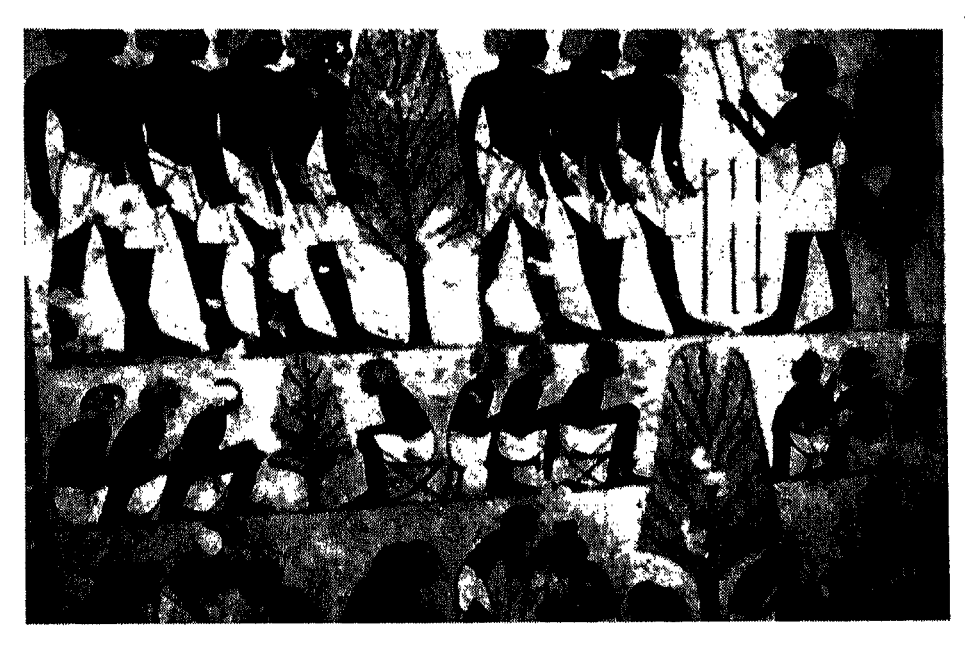
العسكرية التى اشتركت فى عمليات إحضار وتجهيز الصخور والأحجار التى استخدمت فى بناء الأهرام .

● ولا يفهم من ذلك أن الجنود كانوا مجبرين على القيام بأعمال السخرة ، بل كان هذا الاتجاه نوعاً من تمييز هؤلاء الجنود الشبان الذين يجمعون بين صلاحيتهم للقيام بالأعمال الحربية والأعمال المدنية . وتدل الشواهد على أن هؤلاء الجنود كانوا ذوى حظوظ يحسدهم عليها الشبان الآخرون من غير المجندين . . فقد كان الطريق مفتوحاً أمام هؤلاء المجندين الذين يثبتون كفاءتهم فى القيام بالأعمال المكلفين بها لكى ينتقلوا إلى مراتب الضباط ، بل وأن ينتقلوا إلى مستويات القيادة إذا ثبت أنهم أبلوا بلاءً حسناً فى المعارك الحربية . . ومن كان يجيد منهم الكتابة تفتح أمامه أبواب الوظائف العليا بالدولة ، كما كان هناك نظام قانونى لمنحهم الأوسمة والأنواط العسكرية التى تؤهلهم للتمتع بميزات عديدة ، كما كانوا يحصلون على حقهم العادل من الغنائم الحربية ، ويمنحون أيضاً إقطاعات ومساحات محددة من الأرض الزراعية الخصبة ، بل سمح لبعض الجنود الأكفاء ـ فى عصور تالية على عصر الدولة القديمة ـ أن يشغلوا مناصب إدارية عليا فى المستعمرات المصرية ، أو يتم تكليفهم بأداء مهمات دبلوماسية فى الدول الأجنبية لتحقيق بعض المصالح المصرية ، أو يصبحوا أعضاء فى البلاط الملكى ومن المقربين للملك .

● ومن الطريف أن نذكر هنا انه بالرغم من كل هذه المزايا التى كان يتمتع بها الشبان المجندون ، كان المتقعرون من المثقفين المصريين القدماء يسخرون من هؤلاء الجنود بل ومن سلك الجندية على إطلاقه ، فقد عثر على نصوص أدبية يتفاخر فيها المثقفون «الكتاب » بمهنة الكتابة وتفضيلها على سائر المهن الأخرى ومنها مهنة الجندية . ويقول هذا النص ما معناه : « إن الجندى المحارب إذا سقط من العربة فسوف يتعرض للضرب المبرح . . أما جندى المشاة فيؤخذ طفلا ويوضع فى المعسكر ، وعندما يصبح جندياً قد توجه إليه ضربة موجعة فى بطنه ، أو لطمة جارحة فى عينه ، أو لكمة مؤلمة إلى حاجبه . . ويؤمر بالسير والقتال فى الصحراء ، ويجبر على حمل طعامه وشرابه فوق ظهره . . وقد يضطر إلى شرب الماء الآسن ، ولا يتوقف عن السير إلا

عندما يقف ديدباناً فى نقطة حراسة . . وعندما يشتبك مع العدو يصبح أشبه بعصفور وقع فى شرك، وأصبح عليه أن يبذل جهده كله لقهر العدو والإفلات من الموت . . وعندما يعود إلى مصر يكون كقطعة من الخشب نخرها السوس فيمرض ويضطر إلى الرقاد بعد أن يجد ثيابه قد سرقت وهرب خُدَّامه ».

● ولاشك فى أن هذا النص الأدبى يمثل نوعاً من الافتراء والتجنى على مهنة الجندية وعلى الطبقة العسكرية بأكملها من جانب طبقة الكتاب والمثقفين الذين كانوا يتباهون بعلمهم وثقافتهم على غيرهم من أصحاب المهن الأخرى . . ولا شك فى أن كبار رجال الدولة وعلى رأسهم الملك كانوا يعترفون بفضل الجيش عندما يقوم بأداء المهمات الكبرى الموكلة إليه . . وعندماكان الجيش يقوم باستعراضاته العسكرية ، كان أفراد الشعب العاديون يهللون تحية وتمجيداً لهؤلاء الجنود الشجعان الذين يتولون الدفاع عن حياة وحقوق كل فرد من أفراد الشعب ، ويحققون له الأمن والأمان والحماية من أطماع الطامعين فى خيرات البلاد .



أحد الضباط يستقبل مجموعة من المجندين الجدد ، ويقسمهم على الوحدات العسكرية ، ويقوم الحلاّقون بحلاقة شعر رؤوسهم .

أول دولة استخدمت الجنود المرتزقة.

ما زلنا نستعرض أحوال وأوضاع الجيش المصرى فى عصر الدولة القديمة [من الأسرة الثالثة إلى الأسرة السادسة] . وقد رأينا من قبل كيفية اختيار الشبان الأقوياء من كافة الأقاليم المصرية فى الوجهين القبلى والبحرى لتجنيدهم فى الجيش الملكى الموحد . كما رأينا كيف اتسعت اختصاصات هذا الجيش سواء فى تكليفه بالقيام بالأعمال العسكرية كصد هجمات بدو الصحارى وتنفيذ الحملات التأديبية ضد أعداء البلاد التقليديين ، أو بتكليف هذا الجيش بالقيام بالأعمال المدنية مثل البعثات التعدينية وأعمال المحاجر وأعمال الحراسة .

● وعندما اتسعت أنشطة الدولة أصبحت أعداد الجنود المجندين لا تكفى للوفاء بتزويد كل هذه الانشطة بما يكفيها من الجنود المصريين ، ولذلك فقد ابتدعت الدولة نظاماً جديداً مبتكراً غير مسبوق فى أية دولة أخرى من دول العالم القديم المعاصر لعصر الدولة القديمة فى مصر ، وهو نظام استخدام الجنود المرتزقة .

● وتدل بعض النقوش الأثرية على أن بعض ملوك الأسرة الخامسة توسعوا فى استخدام الجنود المرتزقة ، ثم أخذ هذا النظام يتسع أكثر وأكثر فى عهود بعض ملوك الأسرة السادسة . ويرجع المؤرخون لجوء الدولة المصرية لاستخدام نظام الجنود المرتزقة إلى عدة أسباب ،منها اتساع حاجات الدولة إلى المزيد من الجنود لتدعيم الجيش المحارب، ومنها أيضا سبب سياسى يتمثل فى ضعف سلطة وسيطرة الملوك فى أواخر عصر الأسرة السادسة على حكام الأقاليم الذين ازدادت قوتهم بشكل جعلهم يستقلون

بأقاليمهم أو يبتعدون بالتدريج وبدرجات مختلفة عن سيطرة الملك ، وبالتالى عن سيطرة الحكومة المركزية فى عاصمة الدولة .

● وبالنظر إلى المزايا العينية العديدة التى كان يتمتع بها الجنود المصريون المجندون ، فقد ازدادت الرغبة لدى شباب بعض القبائل النوبية فى الانضمام تحت لواء الجيش المصرى للحصول على بعض هذه المزايا . ولذلك فقد تولى بعض حكام الأقاليم الجنوبية خصوصاً حكام إقليم إلفنتين بأسوان القيام بتجنيد الشبان الأقوياء الصالحين لأداء الخدمة العسكرية والذين يتم اختيارهم من أبناء القبائل النوبية ، وذلك لضمهم إلى فرق وفيالق الجيش الملكى المصرى .

● وهناك بعض النقوش الجدارية التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة السادسة نفهم منها أن هؤلاء الجنود المرتزقة كانوا يحصلون على مزايا كثيرة مثل منحهم إقطاعات من الأرض المصرية الصالحة للزراعة ، مع إعفائهم من الضرائب التى كانت تفرضها الحكومة على الانتاج الزراعى ، بالإضافة إلى مزايا أخرى مماثلة للمزايا التى كان يحصل عليها الجنود المجندون المصريون .

● وقد شاع استخدام الجنود المرتزقة فى الحصون الحدودية ، وفى القيام بأعمال الشرطة ، وفى حراسة الأهرام والمقابر الملكية ومقابر النبلاء وكبار رجال الدولة ، بعد أن ازداد تعرض هذه المدافن للسرقات التى كان يقوم بها لصوص المقابر للاستيلاء على ما كان فيها من كنوز وأثاث جنائزى .

● وقد توصل المؤرخون إلى معرفة الكثير من أسماء قادة فرق الجنود المرتزقة ، وكان أغلبهم من المصريين الذين كان يتولون المناصب العالية بالدولة ، خصوصاً من كبار ضباط الجيش المصرى . ومع ذلك فقد عثر على اسم أحد النوبين وهو « حكا إيب » مكتوباً على جدران مقبرته بجزيرة إلفنتين بأسوان وبجواره ألقابه التى منحت له وكان من ضمنها لقب «قائد الجنود المرتزقة » . وتدل صورته على أنه كان مجعد الشعر ، وذا بشرة سمراء داكنة كالنوبيين تماماً . . ويقول بعض المؤرخين إنه كان رئيس قبيلة نوبية ودخل فى خدمة الجيش المصرى وأظهر براعة عسكرية وإخلاصاً فى خدمة الدولة المصرية ، فعينه الملك حاكماً على إلفنتين أثناء حياته مع انتقال الحق فى حكم الجزيرة إلى أبنائه بعد وفاته .



تماثيل أثرية صغيرة لعدد من الجنود النوبيين الذين كانوا يلتحقون بوحدات الجيش المصرى .

الجيش يوحد مصر مرة أخرى

ذكرنا من قبل كيف انهارت مؤسسات الدولة فى أعقاب نهاية عصر الأسرة السادسة، ويدأ عصر تاريخى غامض ومقيت اصطلح على تسميته بعصر الاضمحلال الأول الذى استمر خلال حكم الأسرات من السابعة حتى بداية عصر الأسرة الحادية عشرة . وقد اختلف المؤرخون وعلماء الآثار المصرية المحدثون فى تحديد المدة الزمنية التى استغرقها هذا العصر الذى عمت فيه الفوضى فى طول البلاد وعرضها ، فبعض المؤرخين ومنهم «برستيد» يقدر هذه المدة بنحو ٣٠٠ سنة ، ويقدرها آخرون ومنهم «فون بكرات» بنحو ١٢٠ سنة .

● وعلى أية حال فقد تمزقت أوصال الدولة إلى أقاليم متناحرة يحارب بعضها بعضاً لمحاولة حكام هذه الأقاليم فرض نفوذهم على الحكام الآخرين وتكوين أسرة ملكية جديدة من تلك الأسرات الضعيفة التى لم تكن تستطيع أن تسيطر على كل أقاليم الوجهين القبلى والبحرى معاً ، أو تفرض حكومة مركزية موحدة تدير كافة شئون البلاد الإدارية والاقتصادية والعسكرية بالشكل والوسائل التى كانت سائدة فى عصر الدولة القديمة [الأسرات من الثالثة حتى السادسة] . ويقول «مانيتون» - المؤرخ المصرى القديم الذى عاش فى سمنود بالوجه البحرى فى بداية القرن الثالث قبل الميلاد خلال العصر البطلمى - إن إحدى هذه الأسرات الملكية الضعيفة التى حكمت مصر خلال عصر الاضمحلال الأول ، كانت مكونة من سبعين ملكا وحكمت لفترة وجيزة لا تتجاوز سبعين يوما «!!» . وبالرغم من غرابة هذا التاريخ إلا اننا نستطيع أن نفهم منه مدى الفوضى التى حلت بمصر خلال ذلك العصر .

● ومع ذلك وبالرغم من هذه الفوضى التى ضربت أطنابها فى نظام الحكم المصرى إلا أن الشواهد الأثرية تدل على مدى اعتماد حكام الأقاليم على تكوين الجيوش التى يتحاربون بها فيما بينهم ، أو يحاربون جيش الملك الجالس على العرش . وفى هذا المجال اعتمد كل حاكم إقليم على تجنيد الشبان المصريين ممن يثق فى إخلاصهم وولائهم له ، بالإضافة إلى من كان يستخدمهم من الجنود المرتزقة من النوبيين والليبيين والساميين الذين كانوا يتخذون من الجندية حرفة يتكسبون بها . ومعنى ذلك أن الجيوش المتعددة التى كانت تحت سيطرة حكام الأقاليم ـ بالرغم من حسن تنظيمها العسكرى وتسلحها تسليحاً جيداً ـ لم يكن لها ولاء أو انتماء وطنى نحو الدولة المصرية ، بل كان ولاؤها لحاكم الإقليم المستقل الذى تأتمر بأمره ، سواء عند استخدام هذا الجيش المحلى فى الهجوم على حكام الأقاليم الأخرى ، أو لصد هجمات جيوش حكام هذه الأقاليم إذا شنت غاراتها ، أو لاستخدامها فى إقرار الأمن داخل حدود الإقليم .

● وهناك بعض الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى ذلك العصر المضطرب تدل على تفاخر حكام الأقاليم بقدرة جنودهم الأقوياء على ضمان أمن الإقليم والمحافظة على راحة سكانه . وقد كتب أحد حكام الأقاليم على جدران مقبرته نصاً يقول فيه : «عندما يجىء الليل ، كان كل عابر سبيل يشكرنى لأنه أصبح يشعر بالأمان كما لو كان فى بيته ، فقد كان جنودى يقومون بحمايته » .

● وبطبيعة الحال فقد كان حكام الأقاليم يمنحون جنودهم ـ من المصريين والمرتزقة ـ إقطاعات من الأرض الزراعية التى يرويها النيل ، كما كانوا يمنحونهم أيضا بعض قطعان الماشية ويعفونهم من الضرائب . أما إذا تراخى حاكم الإقليم أو قصر فى منح الجنود هذه الرواتب والميزات العينية ، فقد كان هؤلاء الجنود يستولون على أراضى الأهالى ويغتصبون ممتلكاتهم وما كانوا يحتفظون به فى بيوتهم من حبوب لطعام أسراتهم وأبنائهم ، ويعيثون فساداً فى أرض الإقليم دون أن يجسر أحد للتصدى لعدوانهم . . تماماً مثلما كان يحدث أيام حكم المماليك لمصر بعد هذا العصر القديم الكئيب بنحو ٣٦ قرناً .

● ولكن بالرغم من كل تلك الأضرار التى حاقت بالبلاد فى عصر الاضمحلال

الأول ، وكل تلك الانقسامات فى الجيوش الإقليمية المتناحرة والتى كان لا يجمعها لواء وطنى واحد ، وبالرغم من الوبال والفوضى والاغتصاب الذى كانت تمارسه هذه الجيوش فى بعض الأحيان ضد شعب مصر الذى كان يسكن فى تلك الأقاليم ، فإن الشواهد الأثرية تدل على أن جنود تلك الجيوش الاقليمية كانوا على درجة عالية من التدريب العسكرى ويتميزون بروح قتالية لا بأس بها ، وكان ينقصهم ظهور قائد وطنى جسور يقوم باخضاع كل هذه الجيوش الإقليمية وضمها فى جيش واحد يستخدمه فى توحيد البلاد مرة أخرى ، ويعيد الجيش الملكى المصرى إلى ما كان عليه من القوة والوطنية . وهذا بالضبط ما قام به أحد ملوك الأسرة الحادية عشرة الذى تمكن بجدارة من إعادة توحيد البلاد والأقاليم المصرية ، وإعادة الحكومة المركزية ، وبداية عصر تاريخى جديد هو ما اصطلح على تسميته بعصر « الدولة الوسطى » .



بداية ظهور ونمو « الدولة الوسطى »

الدولة الوسطى هى ما اصطلح عليه المؤرخون القدماء والمحدثون من تسمية الفترة التاريخية التى أعقبت عصر الاضمحلال الأول الذى تمزقت فيه مصر إلى ولايات وأقاليم متناحرة . وقد اختلف المؤرخون فى تحديد الفترة التى شغلتها « الدولة الوسطى» من تاريخ مصر القديم ، حيث يقـول بعضهم إن هـذه الفترة بدأت فى حوالى عام ٢١٣٠ ق م وانتهت فى حوالى عام١٦٠٠ ق م ، وهى الفترة التى تشمل الأسرات من الحادية عشرة إلى الرابعة عشرة . غير أننا نرجح ما قال به مؤرخون آخرون من أن العصر الحقيقى للدولة الوسطى هو العصر الذى شغلته الأسرة الثانية عشرة على ما سوف نرى .

● ومع ذلك فيمكننا أن نعتبر عصر الأسرة الحادية عشرة من الإرهاصات الأولى التى انتهت بثبوت قيام « الدولة الوسطى » فى عصر الأسرة الثانية عشرة ، وهى الأسرة التى أرجعت مصر إلى عصرها الذهبى بتحقيق الرخاء الاقتصادى ووحدة الدولة ووحدة الحكومة المركزية التى تسيطر على كل الأقاليم المصرية فى الوجهين البحرى القبلى ، بالإضافة إلى توحيد فرق وفيالق الجيش الملكى القوى الذى دافع عن حدود البلاد وقام بفتوح مظفرة فى الشمال والجنوب . أما ملوك الأسرة الحادية عشرة فلم يتمكن معظمهم من توحيد البلاد والأقاليم المصرية توحيداً كاملاً . وبالرغم من أن معظم هؤلاء الملوك كانوا يتلقبون بلقب « ملك الوجه البحرى والوجه القبلى » إلا أن هذا اللقب كان من قبيل المبالغة .

● وتدل الشواهد الأثرية القليلة التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الحادية عشرة

على أن الحروب الأهلية التى كانت تدور بين بعض حكام الأقاليم ظلت مستمرة ، كما حدثت اضطرابات سياسية وعسكرية كثيرة فى أقاليم الوجه البحرى الذى كان يتعرض بين حين وآخر لخطر الأجانب النازحين من غرب آسيا .

● وكان كل من الملك الجالس على العرش وحكام الأقاليم ـ سواء الخاضعين منهم لسلطان الملك أو المناوئين له ـ يفخرون بقوة جيشهم وحسن تدريب الجنود الذين يتكون منهم هذا الجيش . كما أن بعضهم كان يفخر بأن له أسطولاً جميلاً يأتمر بأمره . وكان حكام الأقاليم من أتباع الملك يفخرون برضاء الملك عليهم بسبب ما يقومون به من أعمال مدنية وعسكرية ، كاستخدام الجيش فى حماية سكان الإقليم من غزوات الأجانب أو هجمات الجنود التابعين لحكام الأقاليم الآخرين المعارضين للملك ، بالإضافة إلى القيام بحفر الترع والقنوات لإمداد الأراضى الزراعية بما تحتاجه من مياه الرى .

● كما أن بعض كبار الضباط وقادة الجند الذين عاشوا فى عصر الأسرة الحادية عشرة كانوا يكتبون على جدران مقابرهم وصفا لشجاعتهم فى الحروب التى خاضوها وانتصروا فيها ، ويرسمون أنفسهم فى ملابسهم الحربية وما كانوا يتزودون به من الأسلحة ومعدات القتال .

● ومن الأدلة الأثرية على استمرار حدوث القلاقل والتناحر بين أقاليم الوجه القبلى العثور على مقبرة جماعية يرجع تاريخها إلى ذلك العصر ، دفن فيها نحو ستين جندياً تدل جثثهم على أنهم قتلوا عندما كانوا يهاجمون حصناً . ومن الواضح أن بعض هؤلاء الجنود قتل بالسهام وبعضهم الآخر ضربوا بالعصى حتى ماتوا . ويقول الأثريون الذين فحصوا هذه المقبرة الجماعية انه فيما يبدو أن هؤلاء القتلى ظلوا فى العراء مدة طويلة حيث أن جميع الجثث عليها آثار تدل على أن الطيور الجارحة قد نهشتها قبل الدفن .

● وبالنظر إلى الأهمية التاريخية لهذه الأسرة التى تعتبر مقدمة لظهور عصر « الدولة الوسطى » نذكر عجالة عن نشأتها فى الإقليم الرابع من أقاليم الصعيد الذى كان يطلق عليه اسم إقليم « واست » وهو اسم باللغة المصرية القديمة معناه « الصولجان » . وقد

أطلق هذا الاسم على مدينة الأقصر التى ازدهرت فى العصور التالية من تاريخ مصر القديم . أما عاصمة هذا الإقليم فى ذلك الزمن فقد كانت تسمى « أون » الجنوبية وموقعها الحالى مدينة « أرمنت » التى كانت مقراً لعبادة الإله « منتو » إله الحرب .

● وطبقا لما ورد منقوشاً فى لوحة أثرية معروضة الآن بمتحف « المترو بوليتان » بنيويورك ، نعرف أن امرأة اسمها « أكوى » كانت تعيش فى اقليم « واست » رزقت بغلام أطلقت عليه اسم « أنتف » . وقد شاءت تقلبات الأحداث أن يصبح هذا الغلام جَدًّا للأمراء الذين حكموا إقليم « واست » والذين قويت شوكتهم فأصبحوا ملوكاً كونوا الأسرة الحادية عشرة ، وتسمى معظمهم بإسم «أنتف » أو أدخلوا هذا الاسم ضمن ما تسموا به من أسماء أخرى .

● ويحدد بعض المؤرخين العصر الذى ظهرت فيه هذه الأسرة بمنتصف القرن الثانى والعشرين قبل الميلاد . . ويؤكد مؤرخون آخرون بأن قصة « الفلاح الفصيح » الشهيرة ، وقعت أحداثها فى عهد أحد ملوك هذه الأسرة .



مصر القديمة تستعيد وحدتها وقوتها

تكمن قوة مصر في وحدتها . . وحدة شعبها ، ووحدة حكومتها المركزية التى كانت تمثل وحدة دولة واحدة مكونة من « أرضين » ـ كما كان يقول قدماء المصريين ـ هما «الوجهين » البحرى والقبلى بالرغم من وجود الفوارق الجغرافية والبيئية بينهما . ويقول علماء المصريات إن من الخطأ المبالغة في تحديد وجود مثل هذه الفوارق بين السكان القدماء في الوجهين ، فكلهم كانوا يتكلمون اللغة نفسها ، وكانوا يعتنقون عقائد دينية متقاربة ، ويعيشون في ظل حضارة مادية وروحية متماثلة . ولهذا فلم يكن غريبا أن هذه الوحدة بين أفكار المصريين القدماء ومشاعرهم كانت أمراً طبيعيا بعد أن تحققت وحدة الوجهين أو « القطرين » في بداية عصر الأسرات على يد الملك مينا عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد . وأن هذه الوحدة الوطنية قد أدت إلى ذلك الازدهار الكبير في حضارة مصر بأكملها ، كما أدت إلى قوة الدولة المصرية .

● ولذلك فقد تقلصت قوة الدولة حين تفككت أوصال وحدتها وانقسمت إلى أقاليم متناحرة كما رأينا فيما ذكرناه من معلومات عن عصر الاضمحلال الأول الذى أعقب نهاية الدولة القديمة بنهاية الأسرة السادسة والذى استمر حتى بداية عصر «الدولة الوسطى » . وهو العصر الذى بلغ قمته الذهبية في عصر الأسرة الثانية عشرة .

● أسس هذه الأسرة حاكم عادل اسمه « أمنمحعت الأول » ينتمى إلى أسرة شعبية ليست من سلالات الملوك السابقين . ويقول بعض المؤرخين إنه كان وزيراً للملك «منتوحتب الرابع » آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة . وقد تولى عرش مصر حوالى عام ٢٠٠٠ ق م . وبالنظر إلى أن منهجنا في هذه الدراسات هو عرض وتقديم أوجه

الحضارة التى صنعها أبناء الشعب المصرى القديم والتى أصبحت فخراً لنا نتباهى به بين سائر أمم الأرض ، فسوف نعرض فيما يلى أوجه الحضارة والتقدم الذى حققه أبناء الشعب المصرى فى ظل حكم الملوك العظام الذين تناوبوا الجلوس على عرش مصر واحداً بعد الآخر خلال عصر هذه الأسرة الملكية العظيمة التى أعادت لمصر وحدتها .

● ويقول بعض المؤرخين إن ملكاً أو ملكين من ملوك الأسرة الحادية عشرة قد استطاع توحيد الأقاليم المصرية التى استقلت وتفككت خلال عصر الاضمحلال الأول ، ولكنها للأسف كانت وحدة هشة سرعان ما دهمتها الميول الانفصالية مرة أخرى ، إلى أن استطاع « أمنمحعت الأول » مؤسس الأسرة الثانية عشرة فرض وحدة الوجهين البحرى والقبلى وإعادة الدولة المصرية إلى ما كانت عليه خلال عصر الدولة القديمة [الأسرات من الثالثة حتى السادسة] . ومما لا شك فيه أن هذا الملك اعتمد فى تحقيق هذه الوحدة على شباب المصريين القدماء الذين كان يتكون منهم الجيش المصرى الملكى ، وهم الذين أعادوا هيبة «الملكية » ورسّخوا سلطة الحكومة المركزية وكافة الادارات الإقليمية التى كانت تابعة لها .

● وبالرغم من أن ملوك هذه الأسرة قد نشأوا فى إقليم « واست » ـ طيبة / الأقصر ـ بجنوب الصعيد ، إلا أنهم فضّلوا الإقامة فى منطقة « اللشت » بمحافظة الفيوم حاليا ، وجعلوها عاصمة إدارية لمصر . ولهذا فقد حولوا أراضى الفيوم إلى جنة من جنات الأرض ، حافلة بمزارع الفواكه والخضراوات والحبوب بكافة أنواعها ، وذلك بعد أن أقاموا فيها أول خزان مائى فى تاريخ العالم لحجز وادخار ماء النيل أيام الفيضان .

● وكان من نتيجة هذه النهضة الزراعية التى شملت أراضى كافة الأقاليم المصرية إلى جانب إقليم الفيوم أن تحقق أعظم وأوسع رخاء اقتصادى واجتماعى فى تاريخ مصر القديم . واقتضى ذلك إنشاء إدارة مركزية للاشراف على الشئون الزراعية تتبعها إدارات محلية فى مختلف الأقاليم . كما أنشئت إدارة لشئون إحصاء السكان والأملاك ، بعد أن صدر قانون يحتم على رب كل أسرة أن يسجل عدد أفراد أسرته وخدمه ـ إن وجدوا ـ ويحدد مهنته ومهنة كل منهم ، وما يمتلكه أو يمتلكونه من أراض زراعية . وكان هذا

الإحصاء يتم ويتكرر كل ١٥ سنة ، وتحفظ سجلاته فى المحاكم . وقد ذكر أحد الوزراء على جدران مقبرته نصاً يقول فيه : « كنت أحقق سجلات الأراضى وأوضح حدود أرض كل مالك » .

● وقد تنبه المؤرخون وعلماء الآثار المصرية إلى كثرة الألقاب والمسميات الوظيفية التى ذكرها الوزراء وكبار الموظفين الذين خدموا الدولة خلال عصر الأسرة الثانية عشرة، خصوصاً بالنسبة لألقاب المهندسين والقضاة والإداريين . كما لاحظوا أيضا كثرة أسماء الإدارات والمصالح الحكومية ، الأمر الذى يدل على مدى إقبال الشبان المصريين على التوظف فى الحكومة لرفع مقامهم فى الحياة الاجتماعية ، وقد أدى هذا الإقبال بدوره إلى انتشار التعليم لتخريج ما تحتاجه الحكومة من الموظفين ، كما انتشرت المعاهد لتدريب طائفة العمال والصناع على أصول الحرف والصناعات المختلفة ، وكثرت كتابات الأدباء فى تمجيد الوظيفة الحكومية وإبراز أهمية أداء هذه الوظيفة على خير وجه من الهمة والإخلاص والأمانة .

● كذلك فقد ازداد إقبال الشباب على الالتحاق بالخدمة العسكرية للانضمام إلى الجيش الملكى الذى استطاع السيطرة على جميع مناطق النوبة السفلى وضمها إلى مصر ، والسيطرة على الحدود المصرية شمالاً حتى مناطق سوريا وفلسطين .



البيت الأبيض .. أصله مصرى قديم

إذا وصلت إلى واشنطن ، ومشيت فى شارع بنسلفانيا حتى تصل إلى ساحة لافاييت، فسوف ترى على الفور « البيت الأبيض » المقر الرسمى لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية . وقد اختار الرئيس « جورج واشنطن » هذا المكان ليصبح سكنا للرؤساء الأمريكيين ولتدار فيه أعمال الرئاسة الأمريكية . وكان الرئيس « جون آدمز » أول من أقام فيه من رؤساء أمريكا عام ١٨٠٠ م . . وفى عام ١٨١٤ م قام الانجليز بغارة على المدينة وأحرقوا هذا المقر فأصبحت جدرانه سوداء بفعل النيران . وعند ترميمه دهنت جدرانه الخارجية باللون الأبيض . ومنذ ذلك الحين أطلق الأمريكيون على هذا المقر اسم « البيت الأبيض » . ويبلغ طول البيت الأصلى ٥٢ متراً وعرضه ٢٦ متراً . وأضيفت إليه بعد ذلك عدة ملاحق . ويتكون البيت الأبيض من أربعة طوابق ، وشكله الأمامى مشهور بأعمدته ذات الطراز الأيونى ، وبداخله عدة قاعات فسيحة منها قاعة الاستقبالات الكبرى ، والقاعة الزرقاء والقاعة الحمراء والقاعة الخضراء . وتتخصص كل قاعة فى مزاولة الأعمال المختلفة للرئاسة الأمريكية ، بالإضافة إلى مجموعة من أجنحة القاعة المخصصة للرئيس وعائلته ، ومجموعة من الإدارات والمكاتب منها « المكتب البيضاوى » الشهير وأماكن أخرى تصلح لأعمال التحرش «!» .

ومن المعروف تاريخيا أن المهندس الأمريكى « جيمس هوبان » هو الذى وضع تصميم وأساسات هذا المقر عام ١٧٩٢ م . أى أن عمر البيت الأبيض الأمريكى الآن يتجاوز مائتى عام بسنوات قليلة . . أما « البيت الأبيض المصرى » فقد أقيم منذ نحو أربعة آلاف سنة .

● وقبل أن نعرف حكاية هذا البيت الأبيض المصرى نشير أولاً إلى حالة الرخاء الاقتصادى التى تحققت للشعب المصرى القديم بفضل حكم الملوك العظام الذين ينتمون إلى الأسرة الثانية عشرة . . فهم الذين أعادوا للشعب المصرى القديم وحدته ، وبثّوا فيه الروح الوطنية ، فانطلق الشعب ليبنى حضارة « الدولة الوسطى » ويعيش عصرها الذهبى .

● وقد يكون من العسير أن نقدم فى هذا الحيز الضيق عرضاً لجميع الأعمال الحضارية العظيمة التى قام بها الشعب المصرى خلال عهود ملوك هذه الأسرة . ومع ذلك نشير باختصار إلى النهضة الاصلاحية التى شملت جوانب الاقتصاد والتجارة . . فقد ازدادت الرقعة الزراعية بعشرات الآلاف من الأفدنة نتيجة لمشروعات الرى التى تحققت ببناء « سد اللاهون » لحجز وادخار مياه فيضان النيل للاستفادة منها فى فصول التحاريق ، وحفر الترع والقنوات لمد مياه النيل إلى مساحات واسعة من الأراضى التى لم تكن مستزرعة من قبل .

● كما أرسلت عشرات البعثات التعدينية إلى مناطق شبه جزيرة سيناء والصحراء الشرقية وبلاد النوبة للحصول على الفيروز والنحاس والذهب ، فازدهرت الصناعات المصرية ازدهاراً لم تشهده البلاد من قبل ، وازداد الانتاج الصناعى بفضل العمال والصناع المهرة الذين تم تدريبهم على ممارسة الحرف والصناعات بأعلى مستويات التكنولوجيا التى عرفتها المجتمعات الإنسانية فى ذلك العصر . وبالتالى فقد ازداد الانتاج الصناعى بما يكفى الاحتياجات المحلية ، مع تحقيق فائض يكفى للتصدير ، ولذلك فقد امتد نشاط مصر التجارى ليصل إلى جزيرة « كريت » شمالاً وإلى بلاد «بونت » وسواحل البحر الأحمر جنوباً .

● كما أن فرق وفيالق الجيش المصرى الذى تم توحيده وتدريبه قد قامت بفتوحات مظفرة فى المناطق النوبية والليبية والسورية ، إلى درجة يقول معها بعض المؤرخين إن هذا الجيش هو الذى وضع الأسس واللبنات الأولى التى قامت عليها الامبراطورية المصرية فى عصر « الدولة الحديثة » خصوصاً فى عصرى الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة على يد الفراعنة العظام « تحوتمس الثالث » و « سيتى الأول » و « رمسيس الثانى »

وغيرهم من الفراعنة المحاربين الذين حكموا مصر فى عصر « الدولة الحديثة » .

● وكان نتيجة ذلك كله أن تدفقت على مصر أموال الجزية وامتلأت خزينة الدولة بحصيلة الضرائب ، وبالذهب الذى كان يحصل عليه من النوبة والصحراء الشرقية ، وبعوائد التجارة مع الدول الأجنبية ، وبإيرادات المناجم والمحاجر . ولذلك فقد قامت الدولة بتأسيس إدارة مركزية للشئون المالية أطلقت عليها اسم « البيت الأبيض . . وجعلت على رأسها وزيراً متخصصا أُطلق عليه لقب « رئيس البيت الأبيض » وله مساعد أو وكيل أطلق عليه لقب « صراف الملك » . وأنشأت الدولة فروعاً لهذا البيت الأبيض فى معظم الأقاليم المصرية ، يعمل بها أعداد غفيرة من كبار وصغار الموظفين المتخصصين فى إدارة وتشغيل المناجم والمحاجر وكافة المشروعات الصناعية والتجارية التابعة للحكومة المركزية . وفى هذا البيت الأبيض المصرى كانت تحفظ الأوراق والسجلات الخاصة بجميع هذه الأنشطة .



حضارة الدولة الوسطى .. وهؤلاء الملوك العظام

حرصت منذ البداية فى هذه الدراسات عن « أم الحضارات » ألا أعرض تاريخ مصر القديم من خلال تاريخ الملوك والفراعنة ، ولكنى كنت ومازلت أحرص على عرض تاريخ الحضارة المصرية التى صنعها الشعب المصرى القديم . ومع ذلك فعندما وصل عرضنا لتفاصيل مظاهر الحضارة العظيمة التى أبدعها الشعب خلال عصر « الدولة الوسطى » وخصوصاً خلال عصر الأسرة الثانية عشرة ، فقد رأيت ألا أغفل تاريخ ملوك هذه الأسرة العظيمة الذين نهضوا بالبلاد نهضة حضارية لا يمكن لأى مؤرخ منصف أن يغفلها . ولذلك فسوف نعرض فيما يلى عرضاً موجزاً ومختصراً غاية الاختصار لتاريخ كل ملك من الملوك الثمانية الذين تكونت منهم هذه الأسرة .

● **أمنمحعت الأول** : مؤسس هذه الأسرة حوالى عام ٢٠٠٠ ق م . ومعنى اسمه «آمون فى المقدمة » وهوليس سليل ملوك سابقين ، بل هو ابن من أبناء الشعب ترقى فى وظائف الدولة العليا فى عهد آخر ملوك الأسرة السابقة . ويقول بعض المؤرخين إن أمه كانت نوبية ، وهو الذى أعاد للشعب المصرى وحدته وأحيا فيه الروح القومية . وقام بإصلاحات زراعية شملت مناطق واسعة فى الفيوم ، واختار عاصمة جديدة لمصر فى منطقة « اللشت » بالقرب من الفيوم . وكون جيشاً مصرياً قوياً وموحداً أخضع به الأعداء الذين كانوا يهددون الحدود المصرية ويقومون بغارات السلب والنهب ضد القرى والمدن ، فتوغل فى أراضى النوبة وأراضى ليبيا ، وبنى فيهما حصوناً عسكرية لمنع الاعتداء على الأراضى المصرية الجنوبية والغربية . كما قام بتحصين الصحراء الشرقية والمداخل الشمالية الشرقية إلى مصر لوقف هجرات وتسلل الآسيويين . . وفى

مقبرة«خنوم حتب » وهو أحد قادة جيشه ، يظهر هذا القائد فى صورة مع الملك وبجوارهما ٢٠ سفينة ضخمة مبنية من خشب الأرز ، الأمر الذى يدل على اهتمامه أيضا بالأسطول الحربى المصرى . ويقول دارسو الأدب المصرى القديم إن قصة «سنوحى » الشهيرة قد حدثت وقائعها وأحداثها فى عهده وعهد ابنه « سنوسرت الأول » الذى كان مشتركا معه فى الحكم فى أواخر سنوات عمره . وبالرغم مما عرف عنه من عدل وحكمة ، إلا أن بعض رجال حاشيته دبروا مؤامرة لاغتياله .

● **سنوسرت الأول** : تولى الحكم سنة ١٩٨٠ ق م واستمر حكمه فترة طويلة بلغت ٤٦ عاماً . ازدهرت فى عهده صناعة التعدين بعد أن أرسل البعثات للبحث عن مزيد من مناجم النحاس والفيروز والذهب فى كل من سيناء والصحراء الشرقية وبلاد النوبة. واستغلال محاجر المرمر والديوريت فى محاجر بنى سويف ومحاجر صحراء النوبة الغربية التى تقع على بعد ٦٥ كيلو متراً شمال غرب منطقة أبو سمبل الحالية . وأقام العديد من المبانى والانشاءات أهمها معبد عين شمس الذى بقيت منه « مسلة المطرية » الشهيرة التى أقامها احتفالاً باليوبيل الثلاثينى لحكمه ،وظلت باقية فى موضعها الأصلى حتى الآن . أما أهم الأعمال الأدبية التى نسبت لعصره فهى التحفة النادرة المثال « بردية الرمسيوم المسرحية » التى عثر على نسخة منها عالم المصريات « كويبل » عام ١٨٩٥ م فى أطلال معبد الرمسيوم الذى بناه رمسيس الثانى فى غرب طيبة. وهى مسرحية تتألف من ٤٦ مشهداً تمثل طقوس تتويج الملك سنوسرت الأول وصوراً من حياته . ومن أهم أعماله الحربية قيامه بحملة عسكرية ناجحة فى بلاد النوبة وصلت إلى الشلال الثالث لتثبيت حدود مصر إلى ما بعد ٢٥٠ كيلو متراً جنوب وداى حلفا .

● **أمنمحعت الثانى** : تولى الحكم سنة ١٩٣٨ ق م . وتميز عهده بالسلام والهدوء والرخاء وازدهار الصناعة والتجارة الخارجية . كما تميز أيضا بعلاقات الصداقة والود بين مصر والبلاد السورية شمالاً وبلاد بونت جنوباً . . فقد أرسل العديد من البعثات للمبادلات التجارية بين مصر وهذه البلاد كلها ، منها بعثتان شهيرتان إلى بلاد بونت ، علماً بأن هذه الرحلات كانت تتعرض لمخاطر شديدة فى ذلك العصر ، حيث كان



أحد التماثيل العشـرة التى عثرت عليها بعثـة المعهـد الفرنسى للآثار الشـرقيـة عام ١٨٩٤ م ضمن بقايا المعبد الجنائزى للملك سنوسرت الأول . والتماثيل معروضة حاليا بالمتحف المصرى بالقاهرة .



هرم أمنمحعت الأول . . فى منطقة اللشت بالفيوم

يتوجب على رجال البعثة أن يخترقوا الصحراء الشرقية حتى يصلوا إلى سواحل البحر الأحمر . وفى أثناء الرحلة الصحراوية كانوا يتعرضون إلى هجمات فجائية من البدو سكان الصحراء الذين لم يكن لهم هم سوى القيام بعمليات السلب والنهب . ولذلك فقد كان على رجال البعثة أن يواجهوا تلك الهجمات الشريرة بما لديهم من سلاح يدافعون به عن أنفسهم وعن السلع التى كانوا يحملونها فى رحلتى الذهاب والعودة . أما فى أثناء قيامهم بالرحلة البحرية فقد كان عليهم أيضا أن يواجهوا مخاطر الإبحار فى البحر الأحمر وهى ليست من المخاطر الهينة . ومن الأعمال الأدبية الرائعة المنسوبة إلى عهد أمنمحعت الثانى « قصة الملاح الغريق » وهى قصة قد تضاهى قصص « الخيال العلمى » التى عرفها العصر الحديث ، حيث وردت فيها أوصاف للمغامرات والمخاطر الخيالية التى عاناها ملاح مصرى غرقت سفينته التى كانت مبحرة فى البحر الأحمر واستطاع النجاة باللجوء إلى جزيرة خيالية حافلة بالمجوهرات الثمينة التى لا مثيل لها . ومن أهم الآثار المدهشة التى يرجع تاريخها إلى عهد هذا الملك ، ذلك الكنز الرائع الذى عثر عليه علماء الآثار عام ١٩٣٦ م ، وهو عبارة عن أربعة صناديق مصنوعة من البرونز نقش عليها اسم الملك ووجدت مملوءة بالأوانى الذهبية والفضية يبلغ عددها حوالى ٢٠٠ آنية بالإضافة إلى مجموعة من سبائك الذهب والفضة غير المشغولة ، ومجموعة من التمائم والتعاويذ المطعمة باللاَّزَوَرْد والأحجار الكريمة . ويقول علماء الآثار إن معظم هذه التحف من المصنوعات الأجنبية مستوردة من جزر بحر إيجه ومن بلاد بابل ، الأمر الذى يدل على وجود مبادلات تجارية بين مصر وتلك البلاد .

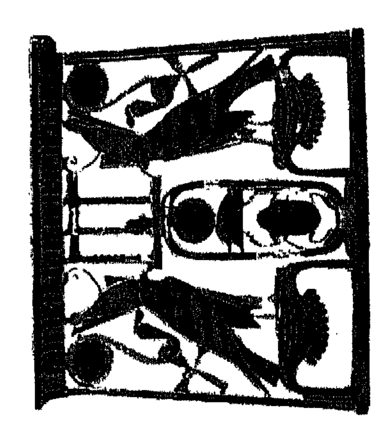
● ومن الملاحظ أن جميع المؤرخين القدامى والمحدثين الذين أرخوا لفترات حكم ملوك الأسرة الثانية عشرة أثبتوا أن هؤلاء الملوك العظام كانوا يطبقون استراتيجية واضحة المعالم سواء من الناحية العسكرية أو من الناحيتين السياسية والاقتصادية . وهى استراتيجية حققت للبلاد أمنها وسلامتها وحققت أعلى مستويات الرخاء للشعب المصرى .

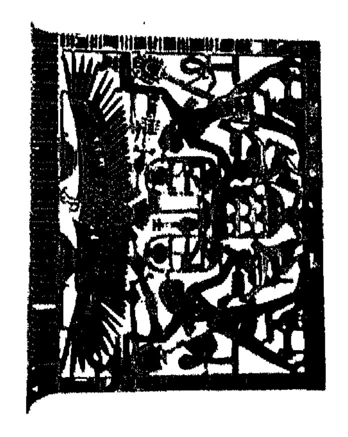
● سنوسرت الثانى : تولى الحكم سنة ١٩٠٦ ق م بعد وفاة والده العظيم «أمنمحعت الثانى » . ويصفه بعض المؤرخين بأنه لم يكن ميالاً للحروب إلا إذا اضطر

إليها اضطراراً ، فقد كان همه الأول هو العمل على ازدهار المزيد من المشروعات الزراعية والصناعية التى تحقق الرخاء للشعب ، وفتح أبواب التجارة الخارجية لتصدير المنتجات المصرية واستيراد المنتجات الأجنبية . ومع ذلك فقد عرفنا من بعض النصوص المسجلة فى عهده أن بعض الاضطرابات والقلاقل قد حدثت فى أقاليم بلاد النوبة التى ضمها أسلافه إلى الأرض المصرية ، بل وشرعت بعض القبائل النوبية فى تهديد حدود مصر الجنوبية ، الأمر الذى دفعه إلى إرسال حملة عسكرية لوضع الأمور فى نصابها والقضاء نهائيا على الأسباب التى أدت إلى حدوث تلك الاضطرابات . . بل وأمر الملك ببناء سور فى شمال الشلال الأول يبلغ طوله نحو ٨٠ كيلو متراً « !! » . كما أمر بتدعيم جميع الحصون العسكرية والقلاع الحربية التى شيدها أسلافه فى المناطق الخاضعة للحكم المصرى .

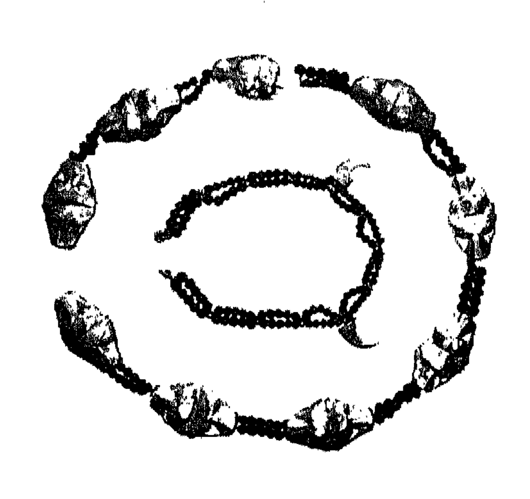
● وتدل الشواهد الأثرية التى يرجع تاريخها إلى عهد « سنوسرت الثانى » على تدعيم وازدهار العلاقات التجارية بين مصر وجزيرة « كريت » وجزر بحر إيجه بصفة عامة ، فقد عثر فى حفائر منطقة «اللاهون » بالقرب من الفيوم ، وهى المنطقة التى وجدت بها أطلال البيوت التى عاش فيها العمال الذين قاموا ببناء الهرم الخاص بهذا الملك ، على مجموعة من الأوانى السليمة والمهشمة ملونة بألوان وزخارف مختلفة عن الألوان والوحدات الزخرفية التى كانت سائدة فى صناعة الأوانى الفخارية المصرية . وبدارسة هذه الأوانى تبين انها من صناعة «كريت » . ويقول المؤرخون المتخصصون فى دراسة الحضارة الكريتية وحضارة جزر بحر إيجه ، إن هذه الحضارات قد نقلت عن مصر فن طلاء الأوانى الفخارية بالمينا . . كما أن أشكال الأوانى الحجرية التى اشتهرت بها الحضارة الكريتية فى عصرها الأول تعتبر تقيلدا دقيقاً لأشكال الأوانى المماثلة التى كانت تصنع فى مصر منذ عصر الأسرة السادسة [بالدولة القديمة] .

● وفى الجهة الجنوبية لهرم « سنوسرت الثانى » بمنطقة اللاهون ، عثر علماء الآثار على أربع مقابر لأعضاء أسرته ، وقد نهبت محتويات تلك المقابر بأكملها فى العصور القديمة فيما عدا حجرة صغيرة واحدة بمقبرة الأميرة « ست حتحور يونيت » وهى إبنة الملك . وقد أفلتت هذه الحجرة من عبث اللصوص القدامى لأنها كانت مخفية تماماً ولا









بعض مجوهرات أميرات الاسره الثانيه عشر .

يمكن الوصول إليها بسهولة . وفى عام ١٩١٤ م عثر عالم الآثار المصرية «ج . برنتون» على هذه الحجرة ووجد بها كنزاً من قطع الحلى والمجوهرات أثار ذهول العالم . . فجميع هذه القطع التى تألف منها هذا الكنز مصنوعة بدقة وعناية شديدة تدل دلالة قاطعة على مدى براعة العمال والجواهرجية المصريين فى صناعة المجوهرات فى عصر الدولة الوسطى . ومعظم هذه القطع معروضة الآن بمتحف مترو بوليتان للفن بنيويورك .

● ويقول عالم المصريات البريطانى « سيريل ألدريد » فى كتابة « مجوهرات الفراعنة» ـ ترجمة كاتب هذه السطور ومراجعة الدكتور أحمد قدرى ـ إن صناعة الحلى والمجوهرات فى عصر الدولة الوسطى قد بلغت قمة من قمم الفن الرفيع والذوق الراقى وجمال الشكل ودقة الصناعة . وفى عصر هذه الدولة لم يقتصر نشاط صناع الذهب وصياغه والجواهرجية من المصريين القدماء على سد الحاجات المحلية للشعب المصرى بجميع طبقاته ، بل امتد نشاطهم أيضا إلى عمليات « التصدير » وجعلوا من مصر منبعاً للذهب والمشغولات الذهبية ارتوت منه معظم دول وشعوب العالم القديم ممن كانوا على علاقة بالدولة المصرية .

● أما قطع المصوغات والمجوهرات الخاصة بالأميرة « ست حتحور يونيت » فهى تتألف من : قطع الحلى التى كانت تزين باروكة الشعر الخاصة بتلك الأميرة وهى مصنوعة من الذهب الخالص والذهب المرصع بالعقيق الأحمر واللازورد والفيانس الأخضر . . وحزام للأميرة مصنوع من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة . . وزوج من الخلاخيل . . وقلادتين من الذهب المرصع . . وسوار للمعصم يتألف من سبعة وثلاثين صفاً من خرزات العقيق والفيروز لضمت فى خيوط وينتهى كل طرف من طرفيه بمشبك من الذهب المرصع بالأحجار الكريمة .

● وبالاضافة إلى تلك التحف الثمينة من الحلى والمجوهرات ، عثر العالمان « ج . برنتون وفلندرز بترى » ـ أثناء ازاحة الأتربة والرديم التى كانت تملأ حجرة الدفن بهرم سنوسرت الثانى بمنطقة اللاهون ـ على قطعة من المجوهرات على شكل « حية الكوبرا » التى كانت تزين التاج الملكى ، وهى مصنوعة من الذهب المرصع بالجواهر . ويبدو أن هذه القطعة النادرة قد أفلتت من اللصوص القدامى الذين اقتحموا حجرة الدفن بهذا

الهرم واستولوا على ما كان فيها من كنوز نهبت كلها ولم يبق منها سوى هذه التحفة النادرة المحفوظة حالياً بالمتحف المصرى بالقاهرة .

● وبعد وفاة « سنوسرت الثانى » تولى الحكم إبنه « سنوسرت الثالث » الذى يعتبر من أقوى وأعظم وأشهر ملوك الأسرة الثانية عشرة . وقد ظلت شهرته قائمة ومنتشرة حتى بداية عصر الحضارة الإغريقية ، فكتب عنه « هيرودوت » والمؤرخون اليونانيون والرومان الذين أطلقوا عليه اسم « سيزوستريس » . ولشدة إعجاب هؤلاء المؤرخين القدامى به ، وقعوا فى خطأ غير مقصود ، إذ خلطوا بين أعماله وأخبار حروبه وبين أعمال وأخبار حروب « رمسيس الثانى » بالرغم من البعد الزمنى الذى يفصل بين عهدى هذين الملكين العظيمين ، فمن المعروف تاريخيا أن رمسيس الثانى ينتمى إلى الأسرة التاسعة عشرة .

● تولى « **سنوسرت الثالث** » عرش مصر واستمر حكمه نحو ٣٨ سنة . ويعتبره المؤرخون القدامى والمحدثون واحداً من أكبر الفراعنة المحاربين الذين قاموا بحملات عسكرية وخاضوا حروباً طاحنة دفاعاً عن الأراضى المصرية وحدودها الجنوبية والشمالية . . فعندما تولى هذا الملك حكم مصر ، كانت البلاد تجنى ثمار الاصلاحات الزراعية والصناعية والتجارية التى حققها أسلافه من ملوك الأسرة الثانية عشرة والتى جعلت مصر تتمتع برخاء عظيم لم تشهده البلاد من قبل .

● ومن الحقائق التاريخية الغريبة ان مصر عندما تنهض زراعياً أو صناعياً ، وعندما يعم الرخاء الاقتصدى فى أرجائها ، وعندما يبدأ شعبها فى التمتع بالخيرات التى صنعوها أو كافحوا من أجلها ، تصبح مطمعاً للشعوب المجاورة لها ، بل وللشعوب البعيدة عنها . . فتبدأ هذه الشعوب فى التسلل إلى الأراضى المصرية بقصد الاستيطان فيها ، أو من أجل القيام بالسرقة والخطف وممارسة أعمال السلب والنهب . وهذا هو السبب المباشر الذى كان يدفع الأقوياء من الملوك والحكام المصريين إلى تكون الجيوش القوية للدفاع عن الأراضى المصرية أو لتأديب تلك الشعوب الطامعة المعتدية .

● وفى عهد « سنوسرت الثالث » حدثت قلاقل واضطرابات فى بلاد النوبة ، وقامت بعض قبائل النوبة العليا بتحريض قبائل النوبة السفلى وحثها على الهجوم على

جنوب مصر . ولهذا فقد أمر الملك بتكوين جيش قوى قاده بنفسه استعدادا للهجوم والتأديب ووضع الأمور فى نصابها . وكان هذا الجيش يعتمد أساساً على أسطول عظيم من السفن النيلية المخصصة لنقل الجنود ونقل المعدات والامدادات الحربية من غذاء وسلاح .

● غير أن استمرار إبحار هذا الأسطول كان يتوقف عند الشلال [أو الجندل] الأول الذى تتسبب صخوره فى قطع المواصلات واستحالة عبور السفن . وقد ذكرنا من قبل أن ملوك الأسرة السادسة ـ قبل عهد سنوسرت الثالث بحو ٦٠٠ سنة ـ واجهوا هذه المشكلة وتغلبوا عليها بفكرة فذة هى تحويل مجرى النيل فى منطقة الشلال الأول ، حيث قاموا بحفر عدة قنوات تتجنب صخور الشلال وتلتف حولها . إلا أن هذه القنوات لم تكن صالحة للملاحة فى عهد سنوسرت الثالث ، فقد ردمت بفعل الرمال وما ترسب فيها من طمى النيل . لذلك فقد أمر « سنوسرت الثالث » بحفر قناة جديدة تبحر فيها سفن أسطوله دون عناء . ولم يكن حفر هذه القناة عملاً سهلاً ميسوراً ، فقد حفرت فى أصلب أنواع الصخور الجرانيتية ، ووضع مهندسو الملك خطة لتطهيرها دائماً لتظل صالحة للملاحة ولعبور السُفن طوال السنة . وقد سميت هذه القناة باسم « أجمل طرق الملك سنوسرت الثالث » .

● وتكاملت الأعمال والاستعدادات الحربية بأن أمر الملك ببناء قلعة حربية حصينة فى جزيرة إلفنتين ، وبناء قلعتين حصينتين أخريين فى منطقة « سمنة » ومنطقة « قمة » بداخل بلاد النوبة . وكان من أهم نتائج تلك الحملة العسكرية الناجحة ضم بلاد النوبة نهائياً إلى مصر . ووضع الملك مجموعة من القواعد السياسية للتعامل مع أهالى النوبة العليا ، تقضى بعدم السماح لهم بالعبور شمالاً ودخول الأراضى المصرية إلا إذا جاءوا بقصد التجارة استيراداً أو تصديراً . . وأمر بإقامة نصب تذكارى فى منطقة حدود مصر الجنوبية يقول فيه : « لقد جعلت حدود بلادى أبعد مما وصل إليه أجدادى . . وأنا أقول وأنفذ ما أقول . . وما يختلج فى صدرى تنفذه يدى . . ولست بالرجل الذى يرضى بالتقاعس عندما تتعرض بلادى للعدوان . . فأنا أهاجم من يهاجمنى

وأقضى عليه . . . . » .

● أما بالنسبة للحدود الشمالية لمصر ، فقد قضى سنوسرت الثالث نهائياً على تسلل الآسيويين والبدو إلى مناطق الدلتا . وتدل الشواهد التاريخية على قيام الملك بالاشترك مع القائد المصرى « سبك خو » فى قيادة حملة عسكرية لتأديب بدو الصحارى وإبعادهم وتهديدهم بأقسى أنواع العقاب إذا اقتربوا من الحدود المصرية .

● وفى عهد سنوسرت الثالث ازدهرت تجارة مصر الخارجية مع البلاد الأجنبية فى افريقيا وآسيا وجنوب أوروبا . . وحفرت قناة تصل بين أقصى فروع النيل الشرقية وخليج السويس بالبحر الأحمر . وامتلأت البلاد بالخيرات المحلية والأجنبية . . ولكثرة الذهب أصبح أرخص من الفضة . . وكتب الشعراء فى عهده قصائد طويلة فى مدحه وتمجيده .

● وعثر فى منطقة اللاهون بالقرب من الفيوم على بردية تشتمل على ست قصائد شعرية كتبت فى مدح وتمجيد « سنوسرت الثالث » تقول إحداها فى وصف هذا الملك العظيم : « إنه يحمى الأرض ويمد حدودها . . وهو الذى يقهر البلاد الأجنبية ويمسكها بقبضته . . ويقضى على الأعداء قبل أن تطأ أقدامهم أرض بلاده . . وهو الذى يضم الأرضين [مصر] بين ذراعيه . . وهو الذى يجعل البدو يفرون ويولون الأدبار . . ويجعل شعبه ينام فى أمان حتى الصباح . . . . » .

● ومعنى ذلك أن « سنوسرت الثالث » ترك البلاد بعد موته لوريثه « أمنمحعت الثالث » وهى فى حالة من الأمن والأمان ساعدت على صنع الرخاء ، وجعلت الملك الجديد يتفرغ تماماً للقيام بالمشروعات الاقتصادية والحضارية الكبرى التى توفر الخيرات للشعب المصرى فى طول البلاد وعرضها . وكان على رأس تلك المشروعات تطوير نظم الرى فى مصر الوسطى والفيوم والوجه البحرى . خصوصاً منطقة الفيوم التى كانت محل اهتمام وعناية عظيمة من هذا الملك العظيم .

● ومنذ أن تولى « **أمنمحعت الثالث** » عرش مصر عام ١٨٤٩ ق م وهو يعتمد على الهندسة والمهندسين المصريين فى إنشاء المشروعات الجديدة أو تطوير المشروعات

القائمة . وكان أكبر هذه المشروعات كيفية الاستفادة من منخفض الفيوم . وانتهى الأمر بانشاء خزان ضخم لادخار مياه الفيضان خلال الخريف لتستعمل بعد انحسار الفيضان فتخرج منه المياه فى موسم التحاريق . واقتضى تنظيم دخول وخروج المياه إلى هذا الخزان حفر وتعميق ترعة [اسمها الآن بحر يوسف] وهى التى كانت تحمل مياه الفيضان إلى الخزان بدءاً من شمال أسيوط عند ديروط . وقد أقيم هذا الخزان فى منطقة اللاهون ، وأدى إلى زيادة الرقعة الزراعية فى أقليم الفيوم بنحو ٢٧ ألف فدان زرعت بالحقول الغنية بالحبوب والفواكه والخضراوات ، كما أدى أيضا إلى توفير الرى لمناطق واسعة بالوجه البحرى .

● وقد وقع المؤرخون القدامى ـ ومنهم هيرودوت ـ فى خطأ حيث ذكروا فى مدوناتهم ان « أمنمحعت الثالث » هو الذى أمر بحفر « بحيرة قارون» وكانوا يسمونها « بحر موريس» . . فى حين أن من المعروف علمياً وجيولوجيا أن منخفض الفيوم نتج عن انفصال فى طبقات الأرض ، وأن البحيرة تكونت فى جزء من هذا المنخفض كانت تملؤه مياه الفيضان منذ عصور ما قبل التاريخ . وكان قدماء المصريين يسمونها « حنو ـ مر ـ ور » أى بحيرة « مر ـ ور » وهوالاسم الذى حرفه الاغريق القدامى إلى «موريس » . وتدل الشواهد التاريخية على أن قدماء المصريين منذ عصر الأسرة الخامسة حاولوا تجفيف جزء من هذه البحيرة بقصد زيادة الرقعة الزراعية فى تلك المنطقة ، كما أدى ترسيب طمى النيل على ضفاف البحيرة إلى تقليص مساحتها وزيادة مساحة الأرض الخصبة الصالحة للزراعة .

● واستكمالاً للنهضة الزراعية التى حدثت فى عهد « أمنمحعت الثالث » أمر الملك بانشاء عدة مقاييس على طول مجرى النيل بدءاً من بلاد النوبة ، ووضع نظاماً للإبلاغ بمناسيب المياه فور قياسها . وعلى أساس هذه المناسيب ـ ارتفاعاً أو انخفاضاً ـ كان المهندسون يقدرون كميات الحبوب والزراعات التى يمكن انتاجها فى كل موسم . وعلى هذا الأساس أيضا يقوم موظفو الإدارة المالية المركزية بتحديد نسب الضرائب والرسوم التى تفرضها الدولة على ذوى الأملاك الزراعية .

● وإلى جانب هذه النهضة الزراعية أمر الملك بتطوير عمليات التعدين والبحث



رأس تمثال للملك أمنمحعت الثالث

عن مناجم جديدة خصوصاً فى شبه جزيرة سيناء ، فأرسلت فى عهده « ٢٤ » بعثة تعدينية . وأقيمت لأول مرة بيوت ثابتة ـ بدلاً من المساكن المؤقتة ـ لإقامة العمال ورؤساء البعثات والجنود ومن كان فى صحبتهم من عائلات . وتم حفر المزيد من الآبار و إنشاء المزيد من خزانات المياه اللازمة للشرب . كما أنشئت العديد من القلاع العسكرية لصد هجمات البدو الذين كانوا يغيرون على بعثات التعدين لممارسة السلب والنهب .

● أما أهم وأضخم الآثار التى شيدها هذا الملك فهو المعبد الجنائزى للهرم الذى بناه فى منطقة الفيوم . وقد أطلق المؤرخون القدماء من الإغريق والرومان على هذا المعبد اسم « قصر اللابرنت » وذلك تشبهاً بقصر أسطورى يحمل هذا الاسم كان موجوداً فى جزيرة كريت ورد ذكره فى الأساطير الإغريقية موصوفاً بتشعب طرقه وممراته وكثرة حجراته . ويبلغ طول قصر اللابرنت المصرى ٣٠٠ متر وعرضه ٢٥٠ متراً . وكان يتألف من بنايات متداخلة تمثل جميع مقاطعات وأقاليم الديار المصرية ، ويتكون من أكثر من ٣٥٠٠ حجرة وقاعة . وقال عنه هيرودوت إنه بناء يتفوق على بناء الهرم الأكبر. ووصفه « استرابون » بأنه عمل يضارع الأهرام ولا يمكن للأجنبى أن يدخل إلى حجراته وقاعاته أو يخرج منها دون دليل يرشده . أما المؤرخ الرومانى« بللينى » فقد قال إن الانسان يعجز عن وصف هذا القصر عظيم الحجم والمساحة ووصف مكوناته من قاعات وتماثيل وأعمدة كبرى .

● وللأسف الشديد ظل هذا القصر مغموراً فى الإهمال إلى أن اكتشفه عالم المصريات « سير فلندرز بترى » عام ١٨٨٩ م ، فلم يجد سوى أكوام من الأحجار والرديم وأساسات بعض الحجرات وأجزاء من تماثيل الآلهة والملوك . . فعلى مدى التاريخ استعمله الأهالى كمحجر لبناء مساكنهم واستخدمت بقية أحجاره فى بناء خط حديد الفيوم خلال القرن التاسع عشر .

أول إعلان للعدالة الاجتماعية .. وحقوق الانسان

تميز نظام الحكم في عصر الدولة الوسطى ، وخصوصاً في عصر ملوك الأسرة الثانية عشرة بتحقيق قدر عظيم من أسس ومبادىء العدالة الاجتماعية لم تشهده مصر القديمة في العصور التاريخية التي سبقت عصر هذه الأسرة ، بمثل هذا القدر من الوضوح ، وبكل الشواهد والنصوص الأثرية التي تثبت وجود وتطبيق مبادىء هذه العدالة .

● وقد ذكرنا فيما سبق بعضاً من أحوال الظلم الذي تعرض له المصريون القدماء بعد انهيار الدولة القديمة في نهاية عصر الأسرة السادسة ودخول مصر إلى عصر مظلم أطلق عليه المؤرخون اسم « عصر الاضمحلال الأول » حيث أصبح الشعب لا يأمن على عيشه ، ويتعرض إلى كل مساوىء نظام قائم على « البلطجة » يأكل فيه القوى حق الضعيف ، ويسود فيه المجرمون الذين يرفعون السلاح ليغتصبوا ما لدى الآخرين من أموال وأعراض . وفي ذلك العصر البغيض ، تفككت أوصال الدولة الموحدة ، وأصبحت مجزأة في شكل أقاليم متنافرة متناحرة ، على رأس كل إقليم منها حاكم يحاول أن يصبح ملكاً ، ويتصور أن الحكم هو الاستعلاء والتجبر وفرض الظلم والطغيان على رؤوس العباد . . فانسحقت بالتالي طبقة الفقراء من الفلاحين والصناع وأصحاب الحرف وسائر أفراد المجتمع المصري ، عدا أسرات هؤلاء الحكام وكل من كان في بطانتهم من أصحاب الثروات المغتصبة والجنود والحراس المدججين بسلاح القهر .

● ومع ذلك فقد كانت تلك المظالم التي سادت في طول البلاد وعرضها ، وحالة الضنك والضيق بالحياة التي كادت أن تكتم أنفاس الناس ، من الأسباب الرئيسية التي أدت إلى نوع من « الفوران » بين سائر طبقات الفقراء وصفه بعض المؤرخين بأنه أول ثورة

شعبية فى تاريخ الإنسان على الأرض . ولكنها لم تكن ثورة سياسية منظمة طبقا لمعايير ومفاهيم الثورات الشعبية فى عصرنا الحاضر ، بل كانت « هبّةً » فوضوية أتت على الأخضر واليابس ، فازدادت الأحوال سوءاً ، وتهيأت الفرصة للشعوب الأجنبية المحيطة بمصر أن تتسلل إلى البلاد لتمارس أعمال السلب والنهب ومحاولة السيطرة على مقاليد الأمور .

● غير أن مصر « الولّادة » دائماً أنبتت فى تربتها الحضارية الخصبة بعضاً من أبنائها الأدباء والحكماء الذين لم يهن عليهم أن يروا بلادهم وقد وصلت إلى تلك الأحوال السيئة ، فأخذوا يسجلون أحلامهم بأن يوماً ما سيأتى حتما تعود فيه مصر إلى وحدتها وقوتها وعظمتها ورخائها ، ويظهر حاكم عادل يوفر الأمن والطمأنينة لكل الناس ، يساعده فى تحقيق العدل موظفون أمناء من ذوى الضمائر الحية . وفى هذا العصر المنتظر ستتم المساواة بين كل أبناء الشعب ، لا فرق بين غنى وفقير ، أو بين شخص عادى وآخر إلى عائلة الملك أو عائلات النبلاء .

● ولهذا لم يكن غريباً أن يحرص كل ملوك الأسرة الثانية عشرة على تحقيق العدالة الاجتماعية للشعب قبل أى شىء آخر . ولحسن الحظ فقد تم العثور على عدة نسخ من «خطاب العرش » الذى كان يلقيه الملك عندما يقوم بتعيين « الوزير » الجديد الذى يفوضه الملك فى إدارة شئون البلاد . وبالرغم من أن تلك النسخ تعود إلى عصر الدولة الحديثة ، إلا أن بعض المؤرخين يقولون إن أصول ومبادىء هذا الخطاب تعود إلى عصر الدولة الوسطى وإلى عصر ملوك الأسرة الثانية عشرة على وجه التحديد .

● يقول الملك لوزيره الجديد : « كن يقظا عند قيامك بكل مهام الوزارة . . فليست الوزارة حلوة المذاق بل هى مرة ومتعبة . . واعلم انه عندما يأتى إليك سائل متظلم سواء من الوجه القبلى أو الوجه البحرى أو من أية بقعة من الدولة ، فعليك أن تطمئنه إلى أن معاملته ستكون طبقا للقوانين العادلة وحسب العرف الذى يعطى كل ذى حق حقه . . واعلم ان الماء والهواء يخبران بكل شىء تفعله ولا يبقى أى شىء مجهولاً . . فعامل من تعرفه معاملة من لا تعرفه . . واجعل نفسك مهيب الجانب . . والخوف من الوزير يأتى من إقامته للعدل . . واعلم أن الإله خلق الرياح الأربعة ليتنفس بها

الإنسان مثل أخيه الإنسان مدة حياته . . وخلق المياه العظيمة ليستعملها الفقير مثل السيد . . وليس هناك فضل لمستكبر على مستضعف » .

● وإذا أمعنا النظر فى هذه المبادىء الخلقية الرفيعة التى تحقق العدالة الاجتماعية كمسئولية يفرضها الملك وهو القائد الأعلى لسياسة الدولة على ضمير من يتولى منصب الوزارة ، وهو أعلى مناصب الدولة ، ليقوم هذا الوزير بتنفيذ هذه الوصايا الملكية مستعيناً بكبار الموظفين فى الحكومة المركزية وفى كافة الأقاليم المصرية ، فإننا نستنتج من ذلك أن الوزير نفسه كان يملى تعليمات مماثلة على هؤلاء الموظفين ليعاملوا الناس طبقا لوصايا الملك وبالمساواة المطلقة أمام القانون .

● وقام بعض المؤرخين بمقارنة هذا الدستور الأخلاقى المصرى المؤسس على العدالة الاجتماعية والمساواة بين جميع الناس ، بقانون « حامورابى » الذى صدر فى مملكة بابل والذى يرجع تاريخه إلى عصر قريب من عصر الدولة الوسطى فى مصر . . فهذا القانون الأخير يفرق بين الناس حسب طبقتهم الاجتماعية ، ويفرق بين العقاب على الجرائم التى يرتكبها النبلاء وأبناء الطبقة العليا فى المجتمع البابلى ، والجرائم المماثلة التى يرتكبها أبناء الشعب العاديين .

حين طالب الشعب المصرى القديم
بحقه فى المساواة والعدالة الاجتماعية

لم تكن مبادىء العدالة الاجتماعية التى تحققت فى عصر الدولة الوسطى نبتاً شيطانياً خرج من التربة المصرية فجأة ليستظل المصريون بظله دون فرق بين غنى وفقير ، أو بين مستكبر ومستضعف ، فالكل أمام القانون سواء . لقد كانت هناك إرهاصات سابقة على عصر الدولة الوسطى أدت إلى فرض هذه العدالة فرضاً على نظام الحكم . كانت هناك تلك الثورة الفوضوية العارمة التى خَرّبت البلاد كما خربت نفوس العباد . ومع ذلك فلم تكن هذه الثورة شراً مطلقاً ، بل هى التى أوحت إلى أدباء مصر وحكمائها بأن ينسجوا قصصاً أو أعمالاً أدبية ذات مضامين هادفة ، وأن يبدعوا حكماً فلسفية تتضمن مثلاً عليا فى السياسة والقانون والأخلاق .

● لقد طالب المصريون القدماء فى ذلك العصر بإعلاء قيمة الفرد العادى من أبناء الشعب ، وأن يكون له الحق فى أن يعيش فى حياته الدنيا كريماً غير مسلوب ولا مقهور، وأن يعيش أيضا فى الحياة الأخرى ليحاسب على عمله ـ خيراً أو شراً ـ مثله فى ذلك مثل الملوك والنبلاء الذين كانوا يبنون لأنفسهم الأهرام والمصاطب والمقابر البديعة الضخمة . . وشجع الحكماء الناس على المطالبة بكل حقوقهم بطريقة شجاعة لا خنوع فيها من المحكومين للحكام . . ونادوا بأن كل إنسان مهما علا قدره سيحاسب أمام الآلهة على ما جنت يداه . . ونصحوا الحكام بألا يظلموا أحداً مهما تواضع شأنه ، وأن يسهروا على راحة الرعية وتوفير الخير للجميع .

● ومثلما يحدث فى كل مكان وكل زمان ، كان بعض كبار الموظفين المنوط بهم تنفيذ القوانين وأوامر الحكام والتعامل المباشر مع الناس ، غير أمناء فى القيام بوظائفهم، ولا يباشرون مهامهم طبقا لما يمليه عليهم الضمير من مبادىء العدالة والمساواة . وكما يقول

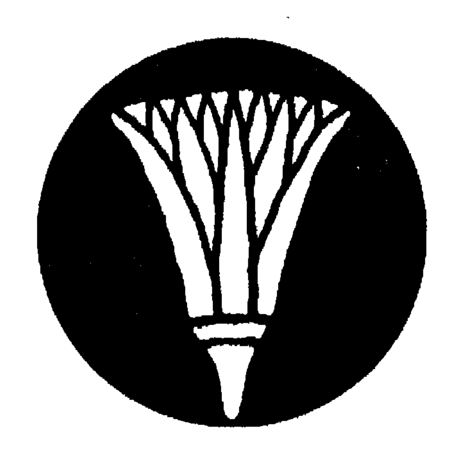
أحد الحكماء إن الموظف غير الأمين كان يقول لنفسه : « لماذا لا أصبح غنياً مثل الآخرين ؟ . . وماذا تفيدنى الاستقامة دون أن أحصل على المال من القادرين على الدفع ؟ ».

● ويقول الحكيم « خيتى » وهو ينصح ابنه ، وهو فى حقيقة الأمر ينصح كل من يباشر شئون الناس : « إن الرجل القنوع الذى لا يحتاج إلى شىء حرام يكون فى مأمن من أن يشتريه صاحب المال . . ولن يحابى أحداً ضد أحد دون حق . . ولن يتكلم إلا حسب ما يعتقده صحيحاً لا شر فيه ولا التواء » . ثم يستطرد فى النصيحة ويقول : «أقم العدل فى الأرض حتى يرضى عنك رب العدل . ولا تهزأ بالرجل الضعيف إذا كان صاحب حق . . وادرس كل ما يقوله المتخاصمون وأصحاب المصالح حتى يتبين لك الخطأ من الصواب . . ولا تضطهد يتيما أو أرملة . . ولا تحرم رجلاً من متاع والده » .

● أما قصة « الفلاح الفصيح » التى يرجع تاريخها قبيل عصر الدولة الوسطى بسنوات قليلة ، فقد وضعت بين سطورها أوضح المبادىء لتقنين العلاقة بين الحاكم والمحكوم . ولا يتسع المجال هنا لأن نشير إلى درامية وموضوع القصة نفسها ، وإنما نشير إلى ما استخلصه بعض المحللين والمؤرخين من الأهداف السياسية والاجتماعية النبيلة التى تضمنتها وقائع تلك القصة والخطب التسع الذكية التى ألقاها الفلاح الفصيح بطل القصة وهو يعرض شكواه شارحاً فيها ما يجب أن يتحلى به كل من يحكم بين الناس بالعدل . وتتلخص الصفات الضرورية الواجبة على كل حاكم فى : « أن يكون خالياً من الشراهة والطمع . . شريفاً بعيداً عن الدنايا . . مهلكاً للكذب مشجعاً للصدق والعدل . . يلبى نداء المستغيث . . وأن يقف ضد المغتصب . . ويكبح جماح اللصوص والمرتشين وأصحاب الدعاوى الكاذبة . . وأن يقضى بالحق دون أن ينحاز إلى جانب . . ولا يتحزَّب لشخص ضد آخر أو لجماعة ضد أخرى . . وأن تكون مهمته المحافظة على حرمة القانون » .

● وأمام هذا المشعل الحضارى الساطع الذى رفعه فلاحنا الفصيح منذ آلاف السنين ليضىء أمام البشرية سبيل الدساتير العادلة التى تحدد ما يجب أن تكون عليه

علاقة الحكام بالمحكومين . . لا نملك سوى أن نقول بكل فخر وتقدير : يا له من فلاح عظيم !



الحنين إلى الوطن .. فى الأدب المصرى القديم

كتب الأديب المصرى القديم أول عمل أدبى فى تاريخ الأدب العالمى يعبر عن فكرة « الحنين إلى الوطن » . ومن الثابت علمياً وعملياً أن الشعب المصرى فى جميع عصوره التاريخية القديمة والحديثة يتميز بميزة انفرد بها بين شعوب العالم أجمع ، فهو لا يطيق البعد عن وطنه ولا مكونات هذا الوطن من ناس وزروع وعمار ونيل يجرى بماء الحياة . ومهما طالت به الغربة فى بلاد الأغراب ، فإن قلبه ينبض بالحنين إلى الوطن فى كل نبضة ، وكل دقة من دقات هذا القلب الملهوف المشتاق إلى العودة لبلده ليتنسم هواءه وليشرب من مائه وليرى أهله وأحبابه . وهى ظاهرة شخصها أطباء علم النفس بأنها «مرض الحنين إلى الوطن » HOME SICKNESS .

● ومن أبدع ما كتب فى أدب الحنين إلى الوطن قصة « سنوحى » التى يرجع تاريخها إلى عصر الدولة الوسطى فى بداية عصر الأسرة الثانية عشرة . وقد اعتبرت هذه القصة من أحب القصص الأدبية إلى قلوب المصريين القدماء . خصوصاً فى عصرى الدولتين الوسطى والحديثة ، حيث وصلت إلينا عدة نسخ كاملة أو جزئية مكتوبة على أوراق البردى أو على « الشقف » الحجرى أو الفخارى ، تبين أن المدرسين كانوا يملونها على تلاميذ المدارس فى مصر القديمة خلال هذين العصرين ، بسبب حلاوة أسلوبها وروعة أحداثها وسهولة تركيباتها اللغوية وما اجتمع فيها من عناصر القصة المثيرة الناجحة . وقد وصف عالم المصريات « سير آلان جاردنر » هذه القصة فى كتابه « تراث مصر » الصادر عام ١٩٤٣ بأنها جديرة بأن توضع بين روائع الآداب العالمية .

● وكلمة « سنوحى » كلمة مصرية قديمة معناها « ابن الجميزة » . فقد كانت شجرة الجميز تسمى « نوهى » أو «نوحى » وكلمة « سا » أو « سى » بمعنى ابن .

ولذلك فمن الممكن أن ينطق اسم بطل هذه القصة « سنوحى أو « سنوهى » فكلاهما صحيح .

● ومن الغريب أن سنوحى كان شخصية حقيقية عاش فى عهدى الملكين أمنمحعت الأول وسنوسرت الأول وهما من الملوك الأوائل فى الأسرة الثانية عشرة [١٩٩١ - ١٩٣٤ ق م] . وكانت قصة حياته وما تضمنته من أحداث ومغامرات شيقة موضع إعجاب معاصريه وإعجاب الأجيال التالية له . وقد وردت الصياغة الأدبية لهذه القصة بلسان المتكلم وهو سنوحى بطل هذه القصة حيث يحكى بأسلوب شيق جذاب كل ما صادفه من أحوال وأحداث منذ أن قرر خروجه من مصر إلى أن عاد إليها معززاً مكرماً . وهى حكاية طويلة لا يتسع المجال هنا لرواية تفاصيلها ، وسنقتصر على عرض موجز لكافة عناصرها وأحداثها .

●.وتبدأ القصة عندما علم « سنوحى » بطريق المصادفة بخبر مقتل الملك أمنمحعت الأول . وكان سنوحى ضابطا يحارب آنذاك ضد بعض قبائل الليبيين التى كانت تغير على مصر وتهدد الحدود المصرية الغربية . وكان الجيش المصرى تحت قيادة أحد أبناء الملك وهو الأمير سنوسرت الذى تولى العرش بعد مصرع أبيه باسم سنوسرت الأول . ويقول سنوحى عندما سمع بخبر مصرع الملك : « هلع قلبى وتدلى منى الذراعان وأصابت القشعريرة كل أعضاء جسمى فأخذت أعدو لأجد مخبأ . . » ولا يذكر لنا سنوحى السبب فى خوفه وقراره الهرب من مصر لدى سماع هذا النبأ . وأغلب الظن أنه كان يخشى أن يزج باسمه فى الصراعات السياسية التى كان يتوقع نشوبها بين الأمراء من أبناء الملك ليتولى أحدهم الانفراد بالجلوس على عرش مصر .

● ويصف سنوحى قصة هروبه سيراً على الأقدام ليلاً ونهاراً وهو يعانى الجوع والعطش حتى وصل إلى حدود مصر الشرقية . ثم واصل سيره شمالاً حتى وصل إلى بلاد « رتنو » [فلسطين وسوريا ولبنان] وهناك استضافه أمير تلك البلاد بعد أن علم انه مصرى وعرف قدره ، فمنحه أراضٍ واسعة ذات أشجار وزروع وقطعان . . وتزوج من كبرى بنات الأمير وأنجب منها أبناء صاروا شبابا وعاش هناك حياة حافلة بالنبل

والشجاعة والاحترام ، ولكنه لم ينسى مصر فى يقظته أو منامه ، وكان يتمنى أن يعود إليها بعد أن يصفح عنه الملك سنوسرت الأول . وعندما تقدم به العمر كتب إلى الملك يستسمحه فى العودة إلى مصر ليدفن فى ترابها . وكتب إليه الملك مرحباً به لأنه لم يرتكب ذنباً يؤخذ عليه ، وأخبره الملك بأنه هو الذى نفى نفسه بنفسه .

● ويختتم سنوحى قصته بوصف ما حدث له عندما عاد إلى مصر وقابل الملك والملكة وأبناءهما من الأمراء والأميرات . ويقول سنوحى فى ذلك « لقد أعدوا لى حماماً وعطرونى بالعطور الفاخرة وألبسونى أحسن الثياب . . وهأنذا أعيش فى وطنى هانئاً بأفضال الملك حتى يحين يوم وفاتى . . . » .



قصة الملاّح وجزيرة العجائب .. وأثرها فى الآداب العالمية

إذا كانت قصة سنوحى التى يرجع تاريخها إلى عصر الأسرة الثانية عشرة أول قصة فى تاريخ الآداب العالمية يتناول موضوعها فكرة « الحنين إلى الوطن » ، فإن قصة « الملاح وجزيرة العجائب » التى يرجع تاريخها إلى نفس العصر ، تعتبر هى الأخرى أول قصة أدبية يتناول موضوعها مغامرة من « الخيال العلمى » الذى اتسمت به بعض القصص والروايات فى الأدب العالمى الحديث .

● ويتلخص موضوع قصة « الملاح وجزيرة العجائب » وتسمى أيضا قصة « الملاح الغريق » فى أن عهد الملك أمنمحعت ـ وهو ملك من ملوك الأسرة الثانية عشرة ـ كان يتميز برخاء لم تشهده البلاد من قبل ، وازدهرت تجارة مصر الخارجية مع الدول البعيدة فى جنوب البحر الأحمر . وتحكى لنا القصة حكاية سفينة مصرية عظيمة كان طولها مائة وخمسين ذراعاً ، ولها مائة وخمسون مجدافا ، ويعمل عليها رجال ذوو خبرة بالسماء والماء والأرض ، ولهم قلوب أقوى من قلوب الأسود . وكانت هذه السفينة مبحرة فى المحيط العظيم بعد أن خرجت من جنوب البحر الأحمر . وهناك فى إحدى الليالى المظلمة هبت عليها رياح عاصفة أخذت تدفع السفينة بقوة نحو أرض مجهولة ، وارتطمت السفينة بصخور الشاطىء ذات الحواف المدببة فتحطمت وتناثرت أجزاؤها واختفى كل الرجال الذين كانوا يعملون عليها وابتعلتهم أمواج عاتية يصل ارتفاعها إلى أكثر من ثمانية أذرع .

● ولكن ملاحاً واحداً كان حسن الحظ استطاع أن ينجو من الغرق وسبح فوق الأمواج الصاخبة حتى وصل إلى رمال الشاطىء فارتمى عليها حتى الصباح ، فوجد نفسه وحيداً على أرض جزيرة صغيرة ليس فيها إنسان سواه . وعندما قرصه الجوع وجد

طعاماً وفيراً من التين والأعناب والحبوب والتوت ، كما لاحظ وجود أنواع لا حصر لها من الأسماك والطيور التى يمكن اصطيادها بأسهل الطرق . وفجأة سمع صوتا هائلا هادراً كالرعد ، وامتلأ قلبه بالرعب حين وجد ثعباناً ضخماً حمله بين فكيه إلى أن وصل إلى الكهف الذى يعيش فيه . وبالرغم من أن أسنانه وأنيابه كانت طويلة وحادة إلا أنه لم يصب بأذى .

● واندهش الملاح حين قال له الثعبان بلغة مفهومة : « لا تخف أيها المخلوق الصغير وليطمئن قلبك . . إن نجاتك وحدك كانت بمشيئة الآلهة . . وسوف تظل هانئاً بخيرات هذه الجزيرة لمدة شهور أربعة . . وستصل إلى هنا سفينة مصرية ستعود بك سالماً إلى وطنك وأهلك . . وسوف أمنحك هدايا كثيرة من العطور الثمينة والأخشاب الغالية والعاج . . وهدايا أخرى مماثلة لتقدمها إلى الفرعون عند وصولك إلى مصر » .

● وبعد أن انقضت الشهور الأربعة وصلت سفينة مصرية إلى شاطىء الجزيرة فنقل إليها الملاح كل هذه الهدايا . . وعندما أراد البحارة أن ينزلوا إلى الشاطىء ليروا تلك الجزيرة ويشاهدوا عجائبها وغرائبها ، حدث شىء غريب . . فقد بدأت الجزيرة فى الابتعاد عن السفينة بسرعة رهيبة . . وحل ظلام الليل بطريقة فجائية وعجيبة . . ولم يعد هناك أى أثر للجزيرة سوى أمواج لا أول لها ولا آخر .

● ووصلت السفينة بسلام إلى أرض مصر . . واستأذن الملاح حراس القصر الملكى لكى يحكى تفاصيل قصته للفرعون . . واستمتع الفرعون بسماع قصة هذا الملاح وجزيرة العجائب التى عاش فيها بعد أن تحطمت سفينته . . وأمر الفرعون باحضار الكاتب الأول البلاط الملكى ليدون تلك الحكاية على لفافة من ورق البردى لعل أحد يقرأها فى يوم من الأيام .

● وبتحليل عناصر هذه القصة المصرية القديمة نجدها تدور حول ملاح عاش وحده فى جزيرة منعزلة ، وحصل على كنز ثمين ، ثم عاد إلى وطنه . وهذا المحور نفسه انتقل إلى عديد من الأعمال الأدبية العالمية الحديثة التى أبدعها أدباء عالميون مشهورون من جنسيات مختلفة . . مثل قصة « جزيرة الكنز » من تأليف الأديب الانجليزى

«روبرت لويس ستيفنسون » . . وقصة « الكونت دى مونت كريستو » من تأليف الأديب الفرنسى « ألكسندر دوماس » . . وقصة « روبنسون كروزو » من تأليف الأديب الانجليزى « دانييل ديفو » . . وقصة « الفضيلة ـ أو ـ بول وفرجينى » من تأليف الأديب الفرنسى « برناردين دى سان بيير » .

● وبطبيعةالحال هناك اختلافات تكنيكية عديدة فى كيفية تناول الموضوع فى كل من هذه الأعمال الأدبية العالمية ، ولكن المحور الرئيسى فى هذه الأعمال ، يدور دائما حول العثور على كنز فى جزيرة نائية ، أو الحياة فى جزيرة منعزلة ، وهو المحور نفسه الذى أبدعه المؤلف المصرى القديم المجهول فى قصة « الملاح وجزيرة العجائب » منذ نحو أربعة آلاف سنة .



المراجـــع

● أولاً : المراجع العربية :

١ ـ العمارة فى مصر القديمة — تأليف : د . محمد أنور شكرى

٢ ـ حضارة مصر والشرق القديم — تأليف : الدكاترة : إبراهيم رزقانه، محمد أنور شكرى ، عبد المنعم أبو بكر، حسن محمود ، عبد النعيم حسنين

٣ ـ الحضارة المصرية — تأليف جون ولسون — ترجمة : د أحمد فخرى

٤ ـ الماضى الحى — تأليف : إيفار ليسنر — ترجمة : شاكر إبراهيم سعيد

٥ ـ الرمز والاسطورة فى مصر القديمة — تأليف : رندل كلارك — ترجمة : أحمد صيلحة

٦ ـ تاريخ مصر القديمة [جزءان] — تأليف : د . رمضان السيد

٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين — تأليف : وليم بيك — ترجمة : مختار السويفى

٨ ـ تاريخ العمارة المصرية القديمة — تأليف : د . اسكندر بدوى

٩ ـ هردوت يتحدث عن مصر — تأليف : هرودت — ترجمة : د . محمد صقر خفاجة

١٠ ـ نمو الحضارة — تأليف : و . ج . برى — ترجمة : لويس اسكندر

١١ ـ علماء الآثار — تأليف : تشارلز مايكل دورتى — ترجمة : محمد عبد الفتاح ابراهيم

١٢ ـ فن التصوير المصرى القديم — تأليف : نينا ديفز — ترجمة : د . حسن صبحى بكرى ، وعبد الغنى الشال

١٣ ـ أهرام مصر — تأليف : إ . إ . س . إدواردز — ترجمة مصطفى عثمان

١٤ ـ أسرار الهرم الأكبر — تأليف : محمد العزب موسى

١٥ ـ المواد والصناعات عند قدماء المصريين — تأليف : ألفريد لوكاس — ترجمة : د . زكى اسكندر ومحمد زكريا غنيم

١٦ ـ فى رحاب المعبود توت — تأليف : د سامى جبره — ترجمة : عبد العاطى جلال

١٧ ـ مصر الفراعنة — تأليف : سير ألن جاردنر — ترجمة : د . نجيب ميخائيل ابراهيم

١٨ ـ عندما حكمت مصر الشرق — تأليف : جورج شتايندورف ، وكيث سيل — ترجمة : محمد العزب موسى

١٩ ـ آثار الأقصر — تأليف : د . محمد عبد القادر محمد

٢٠ ـ الآثار المصرية فى وادى النيل — تأليف : جيمس بايكى — ترجمة : لبيب حبشى ، وشفيق فريد

العنوان	تأليف	ترجمة
٢١ ـ وادى الملوك	تأليف : عزيز مرقص منصور	
٢٢ ـ الفن المصرى [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٣ ـ مصر فى عيون الغرباء [جزءان]	تأليف : د . ثروت عكاشة .	
٢٤ ـ مصر والنيل فى أربعة كتب عالمية	تأليف : مختار السويفى .	
٢٥ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الامبراطورية	تأليف : د. أحمد قدرى [بالانجليزية]	ترجمة : مختار السويفى ومحمد العزب موسى
٢٦ ـ نفرتيتى الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد	تأليف : جوليا سامسون	ترجمة : مختار السويفى
٢٧ ـ سرقة ملك مصر	تأليف : محسن محمد	
٢٨ ـ مجوهرات الفراعنة	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٢٩ ـ المجمل فى تاريخ مصر	تأليف : د . ناصر الأنصارى	
٣٠ ـ على هامش التاريخ المصرى	تأليف : عبد القادر حمزة	
٣١ ـ الموسوعة الأثرية العالمية	تأليف : مجموعة من علماء الآثار الأجانب	ترجمة : محمد عبد القادر محمد ود. زكى اسكندر
٣٢ ـ تاريخ الحضارة المصرية [العصر الفرعونى]	تأليف : نخبة من المؤرخين وعلماء الآثار المصريين	
٣٣ ـ تاريخ مصر من أقدم العصور إلى الفتح الفارسى	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . حسن كمال
٣٤ ـ فى موكب الشمس [جزءان]	تأليف : د . أحمد بدوى	
٣٥ ـ موسوعة الفراعنة	تأليف : باسكال فيرنوى ، وجان يويوت	ترجمة : د . محمود ماهر طه
٣٦ ـ الأدب الثورى عبر التاريخ	تأليف : محمد مفيد الشوباشى	
٣٧ ـ مصر القديمة [١٦ جزءاً]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٨ ـ الأدب المصرى القديم [جزءان]	تأليف : د . سليم حسن	
٣٩ ـ معجم الحضارة المصرية القديمة	تأليف : مجموعة من المؤرخين وعلماء الآثار الأجانب	ترجمة : أمين سلامة
٤٠ ـ الحضارة المصرية	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : مختار السويفى
٤١ ـ حتشبسوت : الملكة الفرعون	تأليف : سوزان راتييه	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٤٢ ـ رمسيس الثانى : فرعون المجد والانتصار	تأليف : كنت كتشن	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : محمود ماهر طه
٤٣ ـ الفن المصرى القديم	تأليف : سيريل ألدريد	ترجمة : د . أحمد زهير أمين
٤٤ ـ إيمحوتب : إله الطب والهندسة	تأليف : ج . هارى	ترجمة : محمد العزب موسى
٤٥ ـ خطوات الإنسان الأول على أرض مصر	تأليف : عزت السعدنى	

٤٦ ـ المدخل إلى علم التاريخ	تأليف : د . عبد الرحمن عبد الله الشيخ	
٤٧ ـ أعمال الحفر الأثرى	تأليف : ليونارد وولى	ترجمة : د . حسن الباشا
٤٨ ـ انتصار الحضارة	تأليف : جيمس هنرى برستيد	ترجمة : د . أحمد فخرى
٤٩ ـ مصر القديمة : دراسات فى التاريخ والآثار	تأليف : مختار السويفى	
٥٠ ـ الحياة اليومية فى مصر	تأليف : بيير مونتيه	ترجمة : عزيز مرقس منصور
٥١ ـ مرحلة التعليم العالى فى مصر القديمة	تأليف : سمير أديب	
٥٢ ـ الأسرة المصرية فى عصورها القديمة	تأليف : د . عبد العزيز صالح	
٥٣ ـ أبيدوس	تأليف : د . عبد الحميد زايد	
٥٤ـ آثار حضارة الفراعنة فى حياتنا الحالية	تأليف : تأليف : محرم كمال	
٥٥ ـ الطب المصرى القديم	تأليف : د . حسن كمال	
٥٦ ـ تاريخ الصيدلة والعقاقير	تأليف : الأب ج . شحاتة قنواتى	
٥٧ ـ التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة	تأليف : ليز مانكه	ترجمة : د . أحمد زهير أمين مراجعة : د . محمود ماهر طه
٥٨ ـ قدماء المصريين والاغريق	تأليف : جان فركرتيه	ترجمة : د . كمال الدسوقى ومحمد على كمال الدين مراجعة : د . محمد صقر خفاجة
٥٩ ـ فى المعرفة التاريخية	تأليف : أرنست كاسيرر	ترجمة : أحمد حمدى محمود مراجعة : على أدهم
٦٠ ـ العادات المصرية بين الأمس واليوم	تأليف : وليم نظير	
٦١ ـ فن النحت	تأليف : صبحى الشارونى	تقديم : د . ثروت عكاشة
٦٢ ـ المسرح المصرى القديم	تأليف : اتيين دريوتون	ترجمة : د . ثروت عكاشة مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٣ ـ الرقص المصرى القديم	تأليف : إيرينا لكسوفا	ترجمة : د . محمد جمال الدين مختار مراجعة : د . عبد المنعم أبو بكر
٦٤ ـ المرأة الفرعونية	تأليف : كريستيان نوبلكور	ترجمة : فاطمة عبد الله محمود مراجعة : د . محمود ماهر طه
٦٥ ـ فجر التاريخ	تأليف : ج . ل . مايرز	ترجمة : على عزت الأنصارى مراجعة : د . عبد العزيز كامل
٦٦ ـ دور المرأة فى المجتمع المصرى القديم	تأليف : د . عبد الحليم نور الدين	

٦٧ ـ الدور السياسى للملكات فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد على سعد الله	تقديم : د . محمد جمال الدين مختار
٦٨ ـ أساطير فرعونية		ترجمة كمال الحناوى
٦٩ ـ أبو الهول	تأليف : د. سليم حسن [بالانجليزية]	ترجمة : جمال الدين سالم مراجعة : د . أحمد بدوى
٧٠ ـ الديانة المصرية القديمة	تأليف : ياروسلاف تشرنى	ترجمة : د . أحمد قدرى مراجعة : د . محمود ماهر طه
٧١ ـ معالم تاريخ وحضارة مصر الفرعونية	تأليف : د . سيد توفيق	
٧٢ ـ الموتى وعالمهم فى مصر القديمة	تأليف : أ . ج . سبنسر	ترجمة : أحمد صليحة
٧٣ ـ حديث الفنون	تأليف : أحمد شفيق زاهر وآخرين	
٧٤ ـ فى الأدب المصرى القديم	تأليف : د . أحمد عبد الحميد يوسف	
٧٥ ـ نهاية مدينة فرعونية	تأليف : الحسينى صالح	تقديم : د . ضياء أبو غازى
٧٦ ـ التاريخ والسير	تأليف : د . حسين فوزى النجار	
٧٧ ـ أساطير مصرية	تأليف : د . عبد المنعم أبو بكر	
٧٨ ـ الآلات الحجرية وعصور ما قبل التاريخ	تأليف : د . على على السكرى	
٧٩ ـ الثروة الحيوانية عند قدماء المصريين	تأليف : وليم نظير	
٨٠ ـ الأزياء فى مصر القديمة	تأليف : د . محمد جمال الدين مختار ومحمد عبد اللطيف الطنبولى	مراجعة : د . أحمد بدوى

● ثانياً المراجع الأجنبية :

81 - GREATPYRAMID
BY : PETER TOMPKINS .

82 - THE EGYPTIANS.
BY : CYRIL ALDRED.

83 - EGYPT TO THE END OF THE OLD KINGDOM.
BY : CYRIL ALDRED.

84 - THE EGYPT OF THE PHARAOHS - AT THE CAIRO MUSEUM.
BY : JEAN - FRANCOIS GOUT.
PREFACE BY JEANLECLANT. TRANSLATED BY ANTHONY ROBERTS

85 - IN THE SHADOW OF THE PYRAMIDS.
BY : JAROMIR MALEK.

86 - ANCIENT EGYPT .
BY : GEORGE HART .

87 - SUNRISE OF POWER .
BY : JOYCE MIL TON .

88 - EGYPT DRAWINGS .
BY : DAVID ROBERTS (1839) .

89 - VALLEY OF THE KINGS .
BY : JOHN ROMER .

90 - ATLAS OF ANCIENT EGYPT .
BY : JOHN BAINES & JAROMIR MALEK .

91 - THE TOMBS OF THE NOBLES ATLUXOR .
BY : LISE MANNICHE .

92 - WARRIOR PHARAOHS .
BY : P.H. NEWBY .

93 - DEATH IN ANCIENT EGYPT .
BY : A.J. SPENCER .

94 - ARCHAIC EGYPT .
BY : W . B. EMERY .

95 - THE ANCIENT EGYPTIANS .
BY : JILL KAMIL .

● **ثالثا: من مصادر الصور والأشكال الداخلية :**

٩٦ ـ متحف الأقصر للفن المصرى القديم [كتالوج] ـ أصدار : مركز البحوث الأمريكى بمصر ، والمعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية . ترجمة :عبد العزيز صادق .

٩٧ ـ الماضى يبعث حيا ـ تأليف : إدنا مجوير . ترجمة : إبراهيم زكى خورشيد .

٩٨ ـ مجلة « شل» [١١ عددا] .

٩٩ ـ المتحف المصرى ـ موجز فى وصف الآثار الهامة ـ إصدار ١٩٥٤ .

100 - EGYPT - 1900 : SHELL COMPANIES IN EGYPT .

101 - ART THROUGH THE AGES .

102 - EGYPT REVEALED - SCENES FROM NAPOLEON ' S DESCRIPTION DE L ' EGYPT

BY : ROBERT ANDERSON AND IBRAHIM FAWZY.

103 - THE SPLENDERS OF EGYPT .

BY : MICHAEL DAVISON .

104 - WONDERS OF TUTANKHAMUN.

BY : DAVID P. SIL VERMAN .

105 - UPPER EGYPT .

BY : DINO SASSI .

106 - DAS ALTE REICH - Ä GYPTEN IM ZEITAL TER DER PYRAMIDEN. [KATALOG].

107 - VALLEY OF THE KINGS [CATALOGUE] .

108 - DENDERAH - KARNAK - LUXOR [CATALOGUE] .

109 - EGYPT [CATALOGUE] .

BY : A.BBAS CHALABY .

● مراجع إضافية خاصة بالجزء الثانى :

١ ـ موسوعة مصر القديمة ـ ١٦ جزءاً — سليم حسن

٢ ـ الموسوعة العربية الميسرة — مجموعة من العلماء

٣ ـ موسوعة تاريخ الحضارة المصرية — مجموعة من العلماء

٤ ـ الموسوعة الثقافية — مجموعة من العلماء

٥ ـ تاريخ الصيدلة والعقاقير فى عهد القديم والعصر الحديث — الأب جورج شحاته قنواتى

٦ ـ هيرودوت يتحدث عن مصر — ترجمة : د . محمد صقر خفاجة

٧ ـ إيمحوتب إله الطب والهندسة — تأليف : جيميسون هارى — ترجمة : محمد العزب موسى

٨ ـ التداوى بالأعشاب فى مصر القديمة — تأليف : ليز مانكه — ترجمة : د . أحمد زهير أمين

٩ ـ الطب المصرى القديم — تأليف : د . حسن كمال

١٠ ـ طب وسحر — تأليف : د . بول غليونجى

المؤلف

● وكيل الوزارة بقطاع النقل البحرى سابقا . من مواليد باب الشعرية بالقاهرة عام ١٩٣٣ . ليسانس فى القانون والاقتصاد ١٩٥٥ ، ودبلوم عال فى القانون البحرى ١٩٧٥ .

●محاضر فى الاقتصاد والعلوم البحرية والنقل الدولى فى مراكز التدريب والتنمية الادارية بمصر والدول العربية . وتعتبر مؤلفاته ومترجماته فى علوم النقل البحرى من الكتب الرائدة غير المسبوقة باللغة العربية .

● كتب العديد من سيناريوهات الأفلام الثقافية التسجيلية عن التاريخ المصرى القديم ، والآثار الاسلامية بمصر ، وأعلام العرب ، وقصص القرآن . . بالاضافة إلى العديد من البرامج الثقافية بالتليفزيون والإذاعة المصرية وهيئة الاذاعة البريطانية بلندن .

● نشرت له عشرات من القصص القصيرة المؤلفة والمترجمة منذ الخمسينيات وحتى الآن فى مجلات : روزاليوسف وصباح الخير ونصف الدنيا والكاتب والقوات المسلحة والاذاعة والتليفزيون وكتب للجميع ومجلة حورس التى تصدرها مصر للطيران . . كما كتب عشرات المقالات المتخصصة فى مجلات الهلال والعربى والمسرح والقاهرة والثقافة والأوبرا و إدارة الأعمال ، وجرائد الأهالى والوفد والجمهورية والأخبار والأهرام .

● عضو اللجنة الدائمة بالمجلس الأعلى للآثار المصرية . . وعضو منتسب بالمجمع العلمى المصرى . . وعضو باتحاد الكتاب . . وعضو بالجمعية التاريخية المصرية . . ومستشار التحرير بالدار المصرية اللبنانية . . ورئيس تحرر سلسلة « روائع الأدب العالمى للناشئين » التى تصدرها هيئة الكتاب .

كتب للمؤلف

● فى الاقتصاد والعلوم البحرية :

١ ـ اقتصاديات النقل البحرى .

٢ ـ أساسيات النقل البحرى والتجارة الخارجية

٣ ـ المصطلحات الفنية البحرية .

٤ ـ المصطلحات التجارية الدولية .

٥ ـ دراسة تحليلية عن عقد البيع البحرى « فوب» [محاضرات] .

٦ ـ عمليات نقل البضائع على سفن الخطوط المنتظمة [محاضرات] .

٧ ـ عمليات نقل البضائع على السفن المستأجرة [محاضرات] .

٨ ـ عمليات الموانى وعمليات الشحن والتفريغ [محاضرات] .

٩ ـ سند الشحن « دراسة تحليلية » [محاضرات] .

١٠ ـ قطاع النقل البحرى فى مصر .

١١ ـ محاضرات فى البيوع البحرية .

١٢ ـ القانون البحرى « ترجمة » ـ تأليف : إيمانويل دفورسكى .

١٣ ـ تأجير السفن «ترجمة » ـ تأليف : بيرجر نوسوم

١٤ ـ انتاجية الرصيف « ترجمة » ـ تأليف : دى مونيه .

١٥ ـ الرقابة على الأعمال البحرية عن طريق الميزانية « ترجمة » تاليف : ج سيموندز.

١٦ ـ سفن الحاويات والموانى المعدة لاستقبالها « ترجمة » ـ تأليف : أ . إيفانس .

١٧ ـ مصطلحات التجارة الدولية والنقل البحرى وأنواع النقل الدولى الأخرى .

١٨ ـ حساب الوقت والعوامل المؤثرة فيه [فى عمليات شحن وتفريغ السفن] ـ تحت الطبع .

فى الأدب والفن :

١٩ ـ ألوان من النشاط المسرحى فى العالم .

٢٠ ـ خيال الظل والعرائس فى العالم .

٢١ ـ الرقص والحضارة « دراسة تاريخية . فولكلورية . إثنولوجية » .

٢٢ ـ زرع النوى « رواية أدبية » .

٢٣ ـ مساخر من العاصمة والأقاليم « مجموعة قصصية » .

٢٤ ـ عذراء سرابيوم « مجموعةقصصية » ـ تحت الطبع .

٢٥ ـ الضحك بسبب « من الأدب الساخر » .

٢٦ ـ الضحك بالراحة « من الأدب الساخر » .

٢٧ ـ الضحك علينا « من الأدب الساخر » ـ تحت الطبع .

٢٨ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الأول .

٢٩ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثانى .

٣٠ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الثالث .

٣١ ـ روائع الأدب العالمى فى كبسولة ـ الجزء الرابع .

● **روايات ومسرحيات مترجمة :**

٣٢ ـ أوليفر تويست ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٣ ـ الآمال الكبرى ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٤ ـ ثورة على السفينة بونتى ـ تأليف : وليم بلاى .

٣٥ ـ توم سوير ـ تأليف : مارك توين .

٣٦ ـ مغامرات هكلبرى فين ـ تأليف : مارك توين .

٣٧ ـ رجال عظام ونساء عظيمات ـ تأليف : ليزلى ليفيت .

٣٨ ـ دافيد كوبر فيلد، ـ تأليف : تشارلس ديكنز .

٣٩ ـ جزيرة الكنز ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون .

٤٠ ـ دكتور جيكل ومستر هايد ـ تأليف : روبرت لويس ستيفنسون

٤١ ـ كنوز الملك سليمان ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٢ ـ نجمة الصباح ـ تأليف : سير هنرى رايدر هاجارد .

٤٣ ـ مون فليت ـ تأليف : ميد فوكنر .

٤٤ ـ المفتش العام ـ تأليف : نيكولاى جوجول

٤٥ ـ روبنسون كروزو ـ تأليف : دانييل ديفو .

● فى الآثار والتاريخ المصرى القديم :

٤٦ ـ المؤسسة العسكرية المصرية فى عصر الإمبراطورية « مترجم » تأليف الدكتور أحمد قدرى [بالانجليزية] . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٧ ـ فن الرسم عند قدماء المصريين « مترجم » تأليف : وليم بك . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته هيئة الآثار المصرية .

٤٨ ـ مصر والنيل [فى أربعة كتب عالمية] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٤٩ ـ مراكب خوفو [حقائق لا أكاذيب] ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٠ ـ الحضارة المصرية من عصور ماقبل التاريخ حتى نهاية الدولة القديمة «مترجم» ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥١ ـ نفرتيتى : الجميلة التى حكمت مصر فى ظل ديانة التوحيد « مترجم » ـ تأليف : جوليا سامسون . مراجعة : الدكتور محمد جمال الدين مختار ـ نشرته الدار المصرية اللبنانية .

٥٢ ـ مجوهرات الفراعنة « مترجم » ـ تأليف : سيريل ألدريد . مراجعة : الدكتور أحمد قدرى ـ نشرته الدار الشرقية .

٥٣ ـ صفحات من تاريخ الاسكندرية ـ تحت الطبع .

٥٤ ـ كليوباترا ـ تحت الطبع .

٥٥ ـ مصر القديمة ـ دراسات فى التاريخ والآثار

٥٦ ـ أم الحضارات ـ الجزء الأول .

الفهـرس

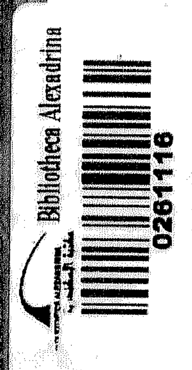
أم الحضارات

في تصريح للعالم المصري الفذ الأستاذ الدكتور «**أحمد زويل**» بعد حصوله على **جائزة نوبل** ، قال إنه فخور بالانتماء إلى مصر باعتبارها «**أم الحضارات**» .

وما أن نشرت الصحف ووسائل الإعلام الأخرى هذا التصريح حتى عم السرور جميع العاملين بالدار المصرية اللبنانية التي نشرت ذلك الكتاب القيّم الذي يحمل عنوان «أم الحضارات» للكاتب المؤرخ الاستاذ الكبير «**مختار السويفي**» .

وإذا كانت الشواهد التاريخية تدل على أن الشعب المصري القديم كان أول شعب في العالم استطاع ـ منذ آلاف السنين ـ أن يقسّم الزمن إلى أعوام وشهور وأيام وساعات . . فها هو أحد أبناء هذا الشعب العريق استطاع أن يكتشف «زمنا» لا يتجاوز واحداً على المليون من بليون جزء من الثانية . . بمعنى أنه استطاع الخروج من إيقاع الزمن الذي تدركه حواس الإنسان ، والتطرق إلى إيقاع زمني آخر بالغ القصر لم يتطرق إليه بشر من قبل ، وكان هذا الاكتشاف العظيم هو السبب الذي استحق عليه الحصول على جائزة نوبل .

وهكذا أصبح الشعب المصري في مجمله هو الشعب الذي أهدى إلى الإنسانية معرفة تقسيم الزمن . . وهذا الإنجاز الحضاري يعتبر جزءاً من الاكتشافات والانجازات التي صنعها شعب مصر القديم على مدى آلاف السنين في مجالات العلوم والفنون والآداب والحِرَف والصناعات والسلوكيات الاجتماعية والأخلاقية والسياسية التي يعرضها لنا بالتفصيل كتاب «أم الحضارات» بأجزائه المتتابعة .



Bibliotheca Alexandrina
0261116

الدار المصرية اللبنانية ١٦ عبد الخالق ثروت ـ تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ ـ ٣٩٣٦٧٤٣ ـ فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ ـ ص . ب ٢٠٢٢ ـ برقيا دار شادو ـ القاهرة .